دكتور
عبد الله محمد جمال الدين

المسلمون المنصرون

أو

الموريسكيون الأندلسيون

صفحة مهملة من تاريخ المسلمين فى الأندلس

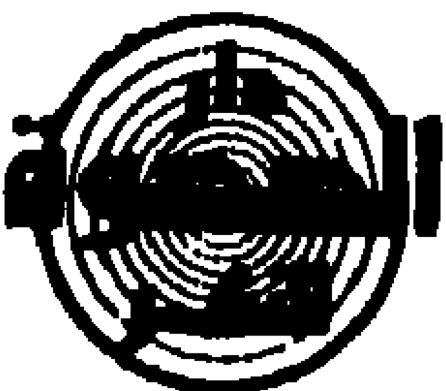




دكتور
عبد الله محمد جمال الدين
كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

المسلمون المنصرون
أو
الموريسكيون الأندلسيون

صفحة مهملة من تاريخ المسلمين فى الأندلس



القاهرة

الطبعة الأولى ١٩٩١

دار الصحوة
للنشر والتوزيع ـ القاهرة
٧ ش السراى ـ أول المنيل ـ ت : ٩٨٧٩٢٤
حدائق حلوان ـ خلف عمارات المهندسين ـ ت : ٣٧٤٠٠٧١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

قضى على الحكم الإسلامى أن ينهى وجوده فى آخر معقل له بأسبانيا سنة ٨٩٧ هـ /١٤٩٢م ، عندما استسلم أبو عبد الله ، آخر ملوك غرناطة ، ووافق على تسليم البلاد للملكين الكاثوليكيين ، فرناندو وايزابيلا، ولكن الشعب المسلم ظل موجودا بهذه البلاد يمثل عنصرا مهما من عناصر السكان فى الدولة المسيحية الجديدة ، تنظم حقوقه وواجباته اتفاقية وقعها الجانبان : الإسلامى والمسيحى ، وقدم الجانب المسيحى المواثيق والأيمان المغلظة ، وتعهد بضمان احترام بنود تلك المعاهدة بكل ما يتصور من وسائل ، لكن لم يمض على ذلك سنوات معدودات حتى نقضت مواد الإتفاقية واحدة وراء الأخرى ، وتعرض المسلمون لمعاملة قاسية وعنيفة ، وأهينوا وعذبوا وصودرت أموالهم واغتصبت ممتلكاتهم وأهدرت حقوقهم ، بل وفرض عليهم فرضا أن يتنصروا وعرفوا فى المجتمع المسيحى باسم خاص بهم هو اسم " المورسكيين " ، و" المورسكى " (El Morisco) تصغير لكلمة " المورو " (El Moro) يعنى المسلم ، واذن فالمورسكى كلمة يقصد بها المسلم الصغير أو المسلم الحقير الذليل ، وقد أصبحت علما على هؤلاء الذين حملوا على الدخول فى النصرانية ، كما أطلق عليهم كذلك المسيحيين الجدد(Los Cristianos Nuevos) تمييزاً لهم عن المسيحين القدامى(Viejos) الذين كانوا يؤمنون بالمسيحية أو الذين اعتنقوها قبل انتهاء الدولة الإسلامية من شبه الجزيرة الإيبيرية .

وقد مر تاريخ هذا الشعب المنصر بمراحل مختلفة وشغل مناطق

متعددة فى غرناطة وقشتالة وأراجون وبلنسية ومرسية وقطالونيا وغير ذلك ومثل الشغل الشاغل للملك وحاشيته وحكوماتـه ورجاله إلى أن تقرر القضاء عليه ، ونفى نفياً كاملاً من كل بلاد أسبانيا في الفترة من - ١٦٠٩ - ١٦١٤ م ، وخلال الفترة من استسلام أبى عبد الله إلى طرد الموريسكيين ، صدر بشأنهم العديد من المرسومات والقرارات والقوانين ، واحتلوا قسما طيبا من المراسلات ، وكانوا موضوعا لمشاورات عديدة ، شغلت حيزا ضخما فى محاضر جلسات البرلمان واجتماعات المجالس المحلية والمركزية ، ولقاءات الملك الكاثوليكى مع مستشاريه من رجال الدين وغير رجال الدين ، كما كانوا الضحية الأولى لأعمال محاكم التفتيش بمختلف الأقاليم الأسبانية ، ودُوِّن ذلك كله فى وثائق وسجلات ، ملأت فراغاً كبيرا فى المكتبات القومية ودور المحفوظات ببلاد عديدة ، واحتفظ بها فى مظانها المختلفة .

ولما هدأت الأمور نوعاً ما ، بدأ الباحثون والمؤرخون يكتبون قصة الأحداث التى مرت بهذا الشعب المضطهد ، ويدونون أخباره وما جرى معه فأخرج " دياجو أورتادو دى مندوثا (Diego Hurtado De Mendoza) · وهو واحد ممن شهدوا الحوادث ، وكان بطلا من أبطالها - أخرج كتابه حرب غرناطة (La Guerra De Granada) الذى طبع فى لشبونه بالبرتغال سنة ١٦٢٦ . وأعد " لويس دى مارمول كارباخال (Luis De Marmol Carvagl) كتاباوثائقيا يتضمن الكثيرمن التفصيلات تحت عنوان " تاريخ تمرد وعقوبة الموريسكيين فى مملكة غرناطة .

Historia De La Rebelion Y Castigo De los moriscas Del Reino "
De Granada

وقد صدر فى مجلدين بمدريد سنة ١٧٩٧ .كذلك ألف " خينيث

بيريث دى هيتا " Gines Perez De La HITA كتابامن جزءين بعنوان الحروب الأهلية فى غرناطة Las Gguerras Civiles De Granada وقد ظهر الجزء الأول فيه فى مدينة سرقطة سنة ١٥٩٥ ، والثانى فى مدينة قونكة سنة ١٦١٩ ، واشتمل على الكثير من الأساطير والروايات والأقاصيص التى لها صلة بالمسلمين والمدجنين والموريسكيين ، بالإضافة إلى الوقائع التاريخية .

كانت تلك هى البواكير الأولى ، تلتها فى التأليف أعمال أدبية وتاريخية ، لم تكتف برواية الحوادث ، وإنما حاولت أن تتخذ منها موقفا مؤيدا وتبحث لها عن مبررات ، مثل أعمال " خايمى بليدا " Jaime Bleda التى ظهرت فى بلنسية ١٦١٠ - ١٦١٨ ، وأبرزها حوليته وتاريخه عن المسلمين فى أسبانيا .

Cronica De Los Moros De Espane

ومثل كتاب " بدور اثنار كاردونا "

Pedro Aznar Cardona

تحت عنوان " طرد الموريسكيين المبرر من أسبانيا ، وموجز خدمات فليب الثالث المسيحية العظيمة "

Expulsion Justificada De los Moriscos Espanoles Y Suma De Las Excelencias De Filpe Tercero

المطبوع فى وشقة سنة ١٦١٢

وكذلك عمل أنطـــونيو كـــورال أى روخـــاس

Antonio Corral y Rojas

" العلاقة بين تمرد المورسكيين وطردهم من مملكة بلنسية "

La Relacion De la Rebulion Y Expulsion De Los Moriscos Del Ryno De Valecia

وقد صدر فى " بلدالوليد " سنة ١٦١٣.

ثم توقفت الكتابة عن المورسكيين إلى منتصف القرن التاسع عشر ، فلم ينشر إلا عمل بالإنجليزية ، ظهر بلتون سنة ١٧٠٢ ، لميخائيل جدس Michael Geddes تحت عنوان : "تاريخ طرد المورسكيين من أسبانيا فى عهد فيليب الثالث "

The History Of The Expulsion Of The Moriscos Out Of Spain,In The Reign Of Philipp111.D

وفى منتصف القرن التاسع عشر المذكور ، ظهرت أعمال جديدة ، تاريخية وأدبية تعتمد على وثائق لم تنشر ، بعضها يقف موقفا محافظا فيمتدح قرار الملك فيليب الثالث بطرد المورسكيين ، والآخر يعتبر متحررا فينتقد هذا القرار ، ومن أبرز المجموعة الأولى كانوف دي كاســـــتيو Castillo de Canovas ودانفـــيلا Danvila وبورونات Boronat ومينندث أي بيلايو Menendez y Pelayo ويأتي علي قمة المجموّعة الثانية نونيوث داي جانييرا Nunoz Y Ganird وخانير Janer وأما دور دى لوس ريوس Amador DE Los Rios ومودستو لافوينتى Modesto Lafuente والباحث الأمريكى "لى " Lea ويهمنا أن نشير بصفة خاصة إلى عمل باسكوال بورونات وبراتشينا Pascual Boronat Y Barrachina المورسكيون الأسبان وطردهم

Los Moriscos Españoles Y su Explsion

وقد صدر فى مجلدين - بمدينة بلنسية ١٩٠١

وعمـــل " فلـــورنـشـيـو خانيـــر " Florencio Janer

الحالة الإجتماعية للموروسكيين بأسبانيا ، سبب طردهم ، والنتائج التى نشأت عنه فى المجال الإقتصادى والسياسى .

Condicion Social De Los Moriscos De ESpaña ,Cause De Su Expulsion Y Consecuencia Que Esta Produjo En El Orden Economico Y Politico

المنشور بمدريد سنة ١٨٥٧

وكذلك إلى عمل " هنرى تشارلس لـــى" Henry Charles Lea
المورسكيون الأسبان : تحويلهم للمسيحية وطردهم

The Moriscos of Spain ,Their Conversion and Expulsion

الذى طبع بالأنجليزية فى مجلدين بولاية " فيلادلفيا " الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٠١ .

فقد اشتمل كل عمل من هذه الأعمال على وفرة من الوثائق لم يسبق نشرها وتم تحليلها والإستفادة منها .

وابتداء من القرن العشرين بدأت تظهر المؤلفات التى تشرح أحداث المسألة المورسكية وتحللها وتنظر إليها من منظور علمى أكاديمى ، وقد بدأ هذا المنحى الباحث الفرنسى " فيرناندو برودیل "Fernando Braudel فى كتابه " البحر الأبيض المتوسط وعالمه فى عهد فليب الثانى "-La Mediterr nee et le Mond Meditrraneen a la Epoque de Philippe 11 وقد صدر فى

جزئين بباريس سنة ١٩٤٩ ، وترجم إلى الأسبانية ونشرت الترجمة فى المكسيك سنة ١٩٥٣ .

واتجه نفس الوجهة تلميذان لبراوديل أحدهما فرنسى هو " هنرى لابيرى " Henry Lapeyre فى عمل له بالفرنسية عنوانه " جغرافية اسبانيا الموريسكيه " Geographie de Espagne morisque

وقد نشر بباريس سنة ١٩٥٩ وترجم نفس العمل للأسبانية ، ونشرت الترجمة فى بلنسية ١٩٨٦ .

أما الأخر فأرجتنينى هو " طوليو هالفيرن دونجى " Tulio Halpherin dongui فى بحثين له هما : نزاع قومى : الموريسكيون والمسحيون القدماء فى بلنسية Un Conflecto Nacional: Moriscoc y Cristianos Viejos en Valencia وقد نشر فى مجلة " كراسات تاريخ أسبانيا " بيونس ايريس ، الأرجنتين سنة ١٩٥٥ والثانى بحث بالفرنسية عالج المشكلات الإجتماعية والNقتصادية بمملكة بلنسية فى القرن السادس عشر ، منطلقا من أوضاع الموريسكيين ، وعنوان البحث الأخير هو :

Recou vre Ments de Civilisation:les Morisque Du Royaume De Valencè au XVI Siecle

نشر فى مجلة حوليات سنوية ، باريس سنة ١٩٥٦

.ويأتى فى قمة الإتجاه الأخير " خوان رجلا " Juan Regla فى أعماله العلمية حول الموريسكيين فى مملكتى اراجون وبلنسية ، وقد جمع بعضها ونشر فى كتاب عنوانه دراسات عن الموريسكيين Estudios de los Moriscos وأيضا خوليو كارو باروخا Julio Caro BaroJa فى عمله المتميز

" المووسكيون فى مملكة غرناطة "Los Moriscos del reino de Granada وقد صدر بمدريد سنة ١٩٧٦ .

كما بدأ ميجيل دى إبالثا Miguel De epalza وبعض الباحثين من بلاد شمال أفريقية فى إعداد بحوث عن المورسكيين المهاجرين إلي بلاد المغرب العربى مع دراسة تأثيرهم التكنيكى والفنى والثقافى على الأوضاع فى مواطنهم الجديدة .

وهكذا تنوعت الدراسات وتشعبت حول ذلك الشعب المسلم المنصر المقهور واقتصر البعض على جانب أو آخر من المشكلة عرف عنه وتخخص فيه ، وهنا لابد من الإشارة إلى بحث " بدرو لونجاس " Pedro Longas الحياة الدينية عند المروسكيين Vida religiosa de los moriseos الذى صدر بمدريد سنة ١٩١٥.

وإلي أعمال الباحث الفرنسى لويس كاردايلاك Luis Cardailac ومن أهمها دراسة عنوانها : " مورسكيون ومسيحيون ، مواجهة جدلية ١٤٩٢ - ١٦٤٠ "

MOriscos y Cristianos un enferentamiento Polemico 1492-1640'

وقد صدر بالفرنسية فى باريس سنة ١٩٧٧ ، وترجم للأسبانية ونشرت الترجمة فى مدريد سنة ١٩٧٩ م .

ذلك كله ليس كل ما هنالك ، فهنالك ابحاث ومؤلفات آخري لآخرين ناهيك عن سيل المقالات التى تناولت جزئية أو أخرى والتى نشرت فى مجلات أكاديمية باللغات الأسبانية والفرنسية والإنجليزية والألمانية وغيرها وعن الرسائل الجامعية التى قدمها باحثون شبان للجامعات ونالوا بها

درجات علمية .

بل إنه عقدت ندوات ومؤتمرات علمية عالجت بالبحث والدراسة والمناقشة والحوار موضوع المورسكيين وحده ، وقدمت لها بحوث القليل منها مكتوب بالعربية ومعظمها مدون باللغات الأجنبية .

إن الدراسات حول الموضوع من الوفرة بحيث سمحت لباحث مثل " ميجيل دى أبالسا " أن يجمع وأن يعدّ دراسة حولها نشرت بالفرنسية وصدرت عن المعهد العربى للثقافة فى مدريد سنة ١٩٧٣ تحت عنوان : "دراسات عن المورسكيين الأندلسيين فى تونس"

Studes Sur Les Moriscos Andalus En Tunisie

ولعل من المناسب أن نذكر أهم رءوس موضوعات تلك الدراسة هنا ؛ لما لذلك من أهمية :-

١ - مقال لحسن حسنى عبد الوهاب بالفرنسية تحت عنوان :

" لمحة عامة عن السلالات الأجنبية الوافدة إلى تونس "

نشر سنة ١٩١٧ فى مجلة :

Revue Tunisienne (Tunis) PP.305-316-371-379

وأعيد نشره فى :

Les Cahiers (Cuadernos)de tunisie (tunis) 1970 N xv111 PP 69-70-1490-169

٢ - مقال بالإنجليزية ل . خ . د . لاثام بعنوان :

Towards a Study of Andalusian Immigrations and its Place In Tunisian history

منشور فى : Les Chiers De Tunisie (Tunis) V1957-203-252

٣- مقال لخاين بجنون Jaen Pignon تحت عنوان : جغرافية أسبانيا الموريسكية ، نشر بالفرنسية فى :

Les Chiers De Tunisie (Tunis) xv1 1966 PP 286-300

٤ - رسالة دكتوارة لخاين بينيا Jaen Penella

قدمهـــا إلى قسم التاريخ فى جامعة برشلونة بأسبانيا ١٩٧١ بعنوان :
Los Moriscos Espanoles Emigrados Al Norte De Africa Despues La Expulsicen

٣ مجلدات ولم تطبع وقت ظهـــور الكتاب ، وانظر أيضـــــا :

Condicion Social De Moriscos مدريد سنة ١٩٥٧

٥ - مقال لـ " لويس كارديلاك Luis Cardaillac بعنوان :

Morisque en Provence

منشور فى :

La Revue Des Langues Romanes (Montpellier)XXIX 1971-297-315

٦ - ولنفس المؤلف (لويس كارديلاك) رسالة دكتوراة تقدم بها فى أبريل ١٩٧٠ إلى جامعة Montpellier بعنوان :

Passage De Morisques en Judoe

ولها موجز منشور فى مجلة De Midi -Toulouse Les Anales
Vol.83.N.103,-1971-259-298

٧ - مقال لـ : " عبد المجيد التركى " بعنوان : وثائق عن الهجرة الأندلسية الأخيرة إلي تونس منشور فى حوليات الجامعة التونسية العدد ٤/ ١٩٦٧

م ص ٢٣ - ٨٢ .

٨ - مقال لـ " هنرى بيرى " Henri Pierc بعنوان : "ترحيب التونسيين بالمورسكيين المطرودين من أسبانيا : شهادة مورسكية منشور بالفرنسية فى مجلة pp:63:70 Revue Ilela - (Tunis)121(1968)

٩ - مقال لـ " دنسى براهيمى " Denise Brahimi بعنوان : بعض وجهات النظر حول المسلمين الأندلسيين فى الولايات التركية بالقرن ١٧ الميلادى ، مشور فى مجلة :

La Revue Di historie Et De Civilizaation De La Maghrel (Alger)
9 -1970,pp:39-51

١٠ - مقال بالأسبانية لـ " ميجيل دى بالشا " بعنوان :

Moriscos Y Andalusies En Tunis En El Siglo XVII

منشور فى مجلة الأندلس Al-Andalus — العدد XXXIV-PP:247-327' مدريد ١٩٦٩

١١ - أدب المورسكيين الأسبان المهاجرين إلى تونس ، جزء من رسالة الدكتورة السابق الإشارة إليها والتى تقدم بها " خوان بينيًا " لقسم التاريخ بجامعة برشلونة ١٩٧١ م .

١٢ - جزء من رسالة دكتوراة لـ " ل . ب .هارفى " L.P.Harvey عنوانها : The Literary Y Culture Of The Moriscos 1492-1609

والرسالة لم تطبع وقت ظهور الكتاب ولم يشر إلى الجامعة التى تقدم بها صاحبها إليها .

١٣ - مقال بالأسبانية لـ " خايمى أوليفرآسين Jaime Oliver Asin بعنوان :

Un Morisco Tuneccino,Admirado De Lope. Estudio Del M.S.5-2 De la Coleccion Gyangos,pp:409-450

منشور فى الأندلس مدريد ١٩٣٣ .

١٤-مقال للمؤلف السابق " خايمى اولفرآسين " من كتاب له بعنوان :

El Quigote De 1604' مدريد ١٩٤٨ م .

١٥ - بحث بالإيطالية لـ Clella Sar Nelli بعنوان : الكاتب الأسبانى المغربى : الهجارى وكتابه ناصر الدين ألقى فى المؤتمر الثالث للدراسات العربية والإسلامية Dans Atti Del III Congreso Di Studi Arabi E Islamci,Ravello,1966,Naples 1967.pp:595-604.

١٦ - مقال لـ " خوان بريا Juan Perella " من رسالة الدكتورة المشار إليها سابقا ، وعنوان هذا القسم تقديم للمخطـــــوط رقم ٥٦٥ فى مكتبة جامعـــة Bolonge

١٧ - مقال لمحمد الحبيب الحلة عنوانه : الحلة السندسية فى الأخبار التونسية ، للسراج الأندلسى ، مجلة كلية اللاهوت بالزيتونه ، تونس المجلد ١ ، ١٩٧٠ م .

١٨ - بحث القى بالفرنسية لسليمان مصطفى زبيس بمناسبة لقاء تونس : برشلونه فى ٢٧ مارس ١٩٦٩ ، عنوان البحث : الوجود الأسباني فى تونس .

المقالات من ١٩ إلى ٣٠ تعالج موضوعات معمارية وأثرية وفنية وأهمها المقال ٢٨ وعنوانه :

دراسات حول التأثير الأندلسى للحملات التونسية : تحليل لطريقة منطقة ، وصاحب البحث هو : محمد الايوانى M.El Aouani

كذلك سمحت وفرة الأعمال العملية حول الموضوع لميجيل التحل ذكى

أن يدرس اتجاهات وتطور التأليف واعلام الباحثين حول هذه المشكلة منذ القرن السابع عشر الميلادى وحتى الآن ، وقد اختار لبحثه عنوان : الموركسيون فى التفكير التاريخى :

Los Moriscos En El Pensamiento Historico

كل ذلك يحدث وتحظى المسألة الموركسية بكل هذا الإهتمام ، بينما لا يكاد يتنبه إليها أحد ممن يكتبون بالعربية ، اذْ لا ترى بشأنها كتابات بتلك اللغة العربية اللهم إلا أعمال لا تصل إلى أصابع اليد الواحدة ظهرت فى الآونة الأخيرة .

وأول من عالج موضوع الموركسيين وعرف بهم بالعربية هو الأستاذ محمد عبد الله عنان ، فقدْ خصص له قسما هاما من كتابه " نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين " الذى صدر بالقاهرة سنة ١٩٥٨ ، وفى سنة ١٩٨٠ نشر فى " تطوان " بالمغرب كتاب لواحد ممن ترجع جذورهم إلى هذه المجموعة هو " محمد قشتيليو " وعنوان كتابه " محنة الموركسيوس فى اسبانيا " ، وقد حاول أن يقدم صورة عن مأساة هذا الشعب ، غير أن اللغة والمنهج لم يسعفاه ، فقد كتبت المادة العلمية بعربية ضعيفة ، ووقع الكاتب فى أخطاء ليس هنا مجال ذكرها ، واعتمد بصفة أساسية على عمل " خانير " المشار إليه فيما سبق ، ثم على عدد محدود جدا من المراجع ، ومع ذلك فحسبه أنه حاول وبذل قصارى جهده .

وفى يناير سنة ١٩٨٣ صدر لعادل سعيد بشتاوى دراسة عنوانها " الأندلسيون المواركة ، دراسة فى تاريخ الأندلسيين بعد سقوط غرناطة " وبادىء ذى بدء ، لسنا ندرى من أين اشتقت كلمة المواركة ؟ ومع أن

المؤلف قد بذل جهدا مشكورا فقد جاء كتابه تاريخا للأندلس أكثر منه دراسة حول المسألة المورسكية ، فقد تحدث فيه عـــن الأصول القوطية فى شبه جزيرة ايبيريا وعن تطور الممالك الشمالية وعن تأثير العوامل الخارجية والعوامل الداخلية فى سقوط الأندلس ، ثم تحدث عن الثورات الأندلسية من حيث أسبابها ونتائجها ، وعن ونفى الأندلسيين المواركة ، مبرراته ووجهته ونتائجه ، وخصص فصلا للأندلسيين ومحاكم التفتيش ، وفصلا للتأثيرات الأندلسية فى أسبانيا وأوربا تحدث فيه عن : الأندلس بين الإحتلال والإسترجاع ، ومن الإندلس إلى أسبانيا ، ، والحضارة الأندلسية وعصرالنهضة الأوربى وعن أندلسيات فى اسبانيا ، وجاء فى آخر البحث خاتمة تضمنت أهم الأحداث الأندلسية والدولية ، وحكام الأندلس وأهم حكام الدويلات والممالك الشمالية ، وشخصيات ومواضع معربة ثم مصادر البحث وبعض الخرائط .

والكتاب مفيد ولا شك ويشكر صاحبه على جهده ، ولكنه ليس خالصاً للمسألة المورسكية برغم عنوانه وكما يتضح من العرض السابق ، أضف لهذا أن المؤلف نفسه اعترف بأنه لا يعرف اللغة الأسبانية ، وهى اللغة التى كتبت بها معظم مصادر الموضوع ، ولم يكن أمامه حيلة إلا الرجوع إلى المراجع الإنجليزية والفرنسية الوسيطة التى نقلت عن تلك اللغة القشتالية أو اعتمدت علي مادون بها ، وهذا شيء غير محمود فى مجال الدراسات الأكـــاديمية الأصيلة ، فالباحث مطالب بالرجوع إلي الأصل ، خاصة إذا كانت المادة العلمية الأساسية مدونة بذلك الأصل .

هذا وقد أقيم فى تونس فى الفترة من ١٩ إلى ٢٥ سبتمبر سنة ١٩٨٣ مؤتمر عالمى تحت عنوان " دين وهوية المورسكيين الأندلسيين ومصادر وثائقهم" ، وقد قدمت فيه دراسات بالأسبانية والفرنسية

والإنجليزية والعربية ، ومن بين ما قدم بالعربية بحث بعنوان " المورسكيون الأندلسيون فى عهد ملوك الطوائف " للدكتور محمد بن عبود ، ودراسة للدكتور " عبد الرحمن على الحجى " عن " المورسكيون فى المصادر المخطوطة الأندلسية " وبحـــــث للدكتــور " محمد رزوق " عن " تطور استقرار الأندلسيين بالمغرب الأقصى " وآخر للدكتور " جمعه شيخه " عن " المروسكيون فى المصادر الأندلسية " ودراسة للدكتور " عبد الرحمن عبد الرحيم " عن " وثائق المحاكم الشرعية المصرية كمصدر لدراسة أوضـــاع اللاجئين المورسكيين . . . إلخ[١]

ومن الطبيعى أن يستفيد البحث المقدم للقارىء الكريم الآن من كل المصادر المذكورة فيما سلف ، ومماوقعت عليه يد صاحبه من الدراسات والمقالات ولابد أن ننوه بصفة خاصة بثلاثة من المراجع أفادت البحث أيما فائدة وهى " تاريخ المورسكيين : "حياة ومأساة أقلية" Historia De Los Moriscos,Vida Y Tragidia De Una Minoria وقد تعاون على تأليفه كل من الباحث الفرنسى " بيرنارد بنثنث " " Bernard Vincent

والباحث الأسبانى " أنطونيو دومنجيث أورتيث" Antonio Domin-guez Ortiz أما العمل الثانى فهو كتاب " خوان رجلا " دراسات حول المورسكيين والعمل الثالث هو كتاب " خوليو كارو باروخا " تاريخ المورسكيين فى مملكة غرناطة ، وقد أشير إليهما فيما مرّ .

وعلى كل حال فالدراسة المقدمة الآن ، محاولة نرجو أن تلم بأطراف الموضوع ، وأن تقدم عنه صورة مستوفيه لكل جوانبه ونواحيه وقد خصصت فصلا من فصوله العشر لكل ناحية من هذه النواحى وأملها أن

١- أنظر تعريفا بهذا المؤتمر فى " المجلة التاريخية المغربية " السنة ١١ ، العدد ٣٢، ٣٣ يونيو سنة ١٩٨٤ ، أعده الدكتور عبد الجليل التميمى .

تكون قد حققت شيئا مما أرادتْ ، بتوفيق الله وعون منه .

أما الوقت والجهد الذى بذل فى جمع المادة العلمية وترجمتها وتنظيمها وإعدادها للدراسة وتحليلها والمقارنة بينها ، وإستنباط الحقائق منها، فذلك ما لا يعلمه إلا الله وحده .

وأنتهز هذه الفرصة لأقدم شكرى الخالص للأخ الأستاذ شعبان محمد مرسى عضو بعثة جامعة القاهرة للحصول على الدكتوراه من جامعة مدريد فقد زودنى بعدد كبير من المراجع ، وصور لى كل ما احتجت إليه من المصادر والوثائق ، وتفضل علىَّ بالكثير من وقته فجزاه الله عنى خير الجزاء .

والحمد لله فى البدء والختام .

عبد الله محمد جمال الدين

القاهرة

ربيع الأول ١٤١٠ هـ

أكتوبر ١٩٨٩ م

الفصل الأول

سقوط غرناطة
وموقف السلطات المسيحية
من المسلمين
من سنة ١٤٩٠ إلى سنة ١٥٦٨

سقطت غرناطة آخر المعاقل الإسلامية فى بلاد الأندلس - بسبب تشتت كلمة المسلمين وتفرق صفهم واشتغالهم بالحروب الأهلية واستعانتهم بالعدو الماكر المخادع فى قتال بعضهم البعض الآخر ، وقد استمرت مفاوضات الجانبين : الإسلامى والمسيحى عدة أسابيع ، وانتهت بتوقيع أبى عبد الله ، آخر ملوك بنى الأحمر ، وفيرناندو وايزابيلا ، ملكى اسبانيا الكاثولكيين ، علي معاهدة التسليم فى الخامس والعشرين من نوفمبر سنة ١٤٩١ م / محرم سنة ٩٨٧ هـ .

وتضم معاهدة التسليم هذه وثيقتين رسميتين ، الأولى ما يزال يحتفظ بها فى دار المحفوظات العامة فى " سيمانقا " Archivo general de Simancas تحت رقم P.R.11-207 ضمن مجموعة " معاهدات مع المسلمين " Capitulaciones Con moros

أما الثانية فلا يزال يحتفظ بها فى بلدية غرناطة . ضمن مجموعة "فيرنادو دى نافرا " أمين الملكين الكاثوليكيين الذى نيطت به مهمة التفاوض مع الجانب المسلم ، وقد نشر هذه الوثيقة " ميجيل جرّيدو آتينثا "

Miguel Jarrido Atienza

فى كتابه :" وثائق تسليم غرناطه " Las Capitulaciones Para La Entrega de Granda ,Grannda 1910 PP.269-29

وبلغت مواد هذه المعاهدة أكثر من خمسين مادة أهم ما جاء فيها :

١ - أن يتعهد ملك غرناطة والقادة والفقهاء والوزراء والعلماء وكافة الناس في غرناطة والبيازين وأرباضهما بأن يسلموا طواعية واختياراً ، وذلك فى ظرف ستين يوما تبدأ من تاريخ توقيع هذه المعاهدة ، قلاع الحمراء والحصن وأبوابها وأبراجها وأبواب غرناطة والبيازين إلى الملكين الكاثوليكيين أو إلى من يندبانه من رجالهما ، على ألا يسمح لنصرانى أن يصعد إلى الأسوار القائمة بين القصبة والبيازين حتى لا يكشف أحوال المسلمين ، وأن يعاقب من يفعل ذلك . وضماناً لسلامة هذا التسليم ، يقدم الملك المذكور إلى جلالتيهما ، قبل تسليم الحمراء بيوم واحد ، خمسمائة شخص ، صحبة الوزير ابن كماشة ، من أبناء وإخوة زعماء غرناطة والبيازين ، ليكونوا رهائن فى يديهما لمدة عشرة أيام ، تصلح خلالها الحمراء ، وفى نهاية هذا الأجل يرد أولئك الرهائن أحرارا . وأن يقبل جلالتُهما ملكَ غرناطة وسائر القادة والزعماء وسكان غرناطة والبشّرات وغيرهما من الأراضى ، رعايا وأتباعاً تحت حمايتها ورعايتهما .

٢ - حينما يرسل جلالتهما رجالهما لتسلم الحمراء المذكورة ، فعليهم أن يدخلوا من باب العشار ومن باب نجدة وعن طريق الحقول الخارجية ، وألاّ يسيروا إليها من داخل المدينة عندما يأتون لتسلمها وقت التسليم .

٣ - متى تم تسليم الحمراء والحصن ، يرد إلى الملك المذكور مولاى أبى عبد الله ولده المأخوذ رهينة لدى الملكين الكاثولكيين ، وكذلك يرد سائر الرهائن المسلمين الذين معه وسائر حشمه الذين لم يعتنقوا النصرانية .
٤ - يتعهد جلالتهما وخلفاؤهما إلى الأبد ، بأن يتـرك الملك المذكـور أبو عبد الله ، والقادة والوزراء والعلماء والفقهاء والفرسان وسائر الشعب تحت حكم شريعتهم ، وإلاّ يؤمروا بترك شىء من مساجدهم وصوامعهم ،

وأن تترك لهذه المساجد مواردها كما هى ، وأن يقضى بينهم وفق شريعتهم وعلى يد قضاتهم ، وأن يحتفظوا بتقاليدهم وعوائدهم .

٥ - وألا يؤخذ منهم خيلهم أو سلاحهم الآن أو فيما بعد ، سوى المدافع الكبيرة والصغيرة ، فإنها تسلم .

٦ - يحق لسائر سكان غرناطة والبيازين وغيرهما ، الذين يريدون العبور إلى المغرب ، أن يبيعوا أموالهم المنقولة لمن شاءوا ، وأنه يحق للملكين شراءها بمالهما الخاص .

٧ - يحق للسكان المذكورين أن يعبروا إلى المغرب ، أو يذهبوا إلي أية ناحية آخرى ، حاملين أمتعتهم وسلعهم وحليهم من الذهب والفضة وغيرهما . ويلتزم الملكان بأن يجهزا فى بحر ستين يوما من تاريخه عشر سفن فى موانيهما يعبر فيها الذين يريدون الذهاب إلى المغرب ، وأن يقدما خلال الأعوام الثلاثة التالية السفن لمن شاء العبور ، وتبقى السفن خلال هذه المدة تحت طلب الراغبين فى العبور ، ولا يُتَقاضى منْهم خلال هذه المدة أى أجر أو مغرم ، وأنه بحق العبور بعد ذلك لمن يشاء ، نظير دفع مبلغ " دوبل " واحد عن كل شخص ، ويجوز لمن لم يتمكن من بيع أملاكه ، أن يوكل لإدارتها ، وأن يتقاضى ريعها حيثما كان .

٨ - لا يرغم أحد من المسلمين أو أعقابهم ، الآن أو فيما بعد ، على تقلد شارة خاصة بهم .

٩ - يتنازل الملكان ، للملك أبى عبد الله المذكور ، ولسكان غرناطة والبيازين وأرباضهما ، عن سائر الحقوق التى يجب عليهم أداؤها عن دورهم ومواشيهم ، لمدة ثلاث سنوات تبدأ من تاريخه .

١٠ - يجب على الملك أبى عبد الله ، وسكان غرناطة والبيازين وأرباضهما والبشرات وأراضيها أن يسلموا وقت تسليم المدينة طواعية ودون أية فدية ، سائر الأسرى النصارى الذين تحت أيديهم .

١١ - لا يسمح لنصرانى أن يدخل أماكن عبادة المسلمين دون ترخيص ، ومن يفعل ذلك يتعرض للعقاب .

١٢ - لا يولى على المسلمين مباشر يهودى أو يمنح أية سلطة أو ولاية عليهم .

١٣ - أن يعامل الملك أبو عبد الله المذكور ، وسائر السكان المسلمين برفق وكرامة ، وأن يحتفظوا بعوائدهم وتقاليدهم ، وأن تؤدى للفقهاء حقوقهم المأثورة ، وفقاً للقواعد المرعية .

١٤ - إذا حدث نزاع بين المسلمين ، يفصل فيه وفقاً لأحكام شريعتهم ، ويتولاه قضاة المسلمين .

١٥ - لا يكلف المسلمون بإيواء ضيف ، ولا تؤخذ ثياب أو دواجن أو أطعمة أو ماشية أو غيرها دون إرادتهم .

١٦ - إذا دخل نصرانى منزل مسلم قهرا ، عوقب على فعله .

١٧ - فيما يتعلق بشئون الميراث ، يحتفظ المسلمون بنظمهم ، ويحتكمون إلى فقائهم وفقاً للسنن الإسلامية .

١٨ - يجوز لسائر سكان غرناطة والبشرات وغيرهما ممن يدخلون فى هذا العهد ، أن يتمعتوا بالإعفاءات الممنوحة مدى السنوات الثلاث ، إذا اعلنوا الولاء لجلالة الملكين فى ظرف ثلاثين يوما من تسليم مدينة غرناطة

١٩ - تبقى إيرادات المساجد والهيآت الدينية ، وأية جهات برٍّ آخرى ، وكذا إيرادات المساجد ، متروكة لنظر الفقهاء ، ويتعهد جلالتهما بعدم التدخل فى شئون هذه الأموال كما يتعهدان بعدم الأمر بأخذهما فى أى وقت .

٢٠ - لا يؤخذ أى مسلم بذنب ارتكبه شخص آخر ، فلا يؤخذ والد بذنب ولده ، أو ولد بذنب والده ، أو أخ بذنب أخ ، أو ولد عم بذنب ولد عمّ ، ولا يعاقب إلا من ارتكب الجرم .

٢١ - إذا كان مسلم قد أخذ أسيرا ، ثم فرّ إلى مدينة غرناطة أو البيازين وأرباضهما أو إلى غيرهما ، فإنه يعتبر حرا ، ولا يسمح لأحد بمطاردته إلا إذا كان من العبيد أو من الجزائر .

٢٢ - لا يدفع المسلمون من الضرائب أكثر مما كانوا يدفعون لملوكهم المسلمين .

٢٣ - يسمح لسكان غرناطة والبيازين والبشرات وغيرهما ممن عبروا إلى المغرب أن يعودوا خلال الأعوام الثلاثة التالية ، وأن يتمتعوا بكل ما يتضمنه هذا الإتفاق .

٢٤ - يحق لتجار غرناطة وأرباضها والبشرات وسائر أراضيها أن يتاجروا فى سلعهم آمنين ، وأن يعبروا إلى بلاد المغرب ويعودوا ، ولهم دخول سائر النواحى التابعة لجلالتى الملكين المسيحيين ، ولا يدفعون من الضرائب إلا ما يدفعه النصارى .

٢٥ - إذا كان أحد النصارى قد اعتنق الإسلام ، ذكراً كان أو أنثى فليس من حق أحدٍ أن يهدده أو يؤذيه بأية صورة ، ومن يفعل ذلك

يتعرض للعقاب .

٢٦ - إذا كان مسلم قد تزوج نصرانية اعتنقت الإسلام ، فلا ترغم على العودة إلى النصرانية، بل تسأل عن ذلك أمام المسلمين والنصارى ، ولا يرغم أولاد الروميات ذكورا كانوا أو اناثا على اعتناق النصرانية .

٢٧ - لا يرغم مسلم أو مسلمة قط علي اعتناق النصرانية .

٢٨ - إذا رغبت مسلمة ، متزوجة كانت أو أوملة أو بكرا ، اعتناق النصرانية ، بدافع المحبة ، فإنه لايقبل منها ذلك حتى تسأل وتوعظ وفقاً للقانون ، وإذا كانت قد استولت خلسة على حلى أو غيرها من دار أهلها ، فإنا ترد لصاحبها ، وتتخذ الإجراءات ضد المسئول .

٢٩ - لا يطلب الملكان ولا يسمحان لغيرهما أن يطلب من الملك المذكور أبى عبد الله أو من خدمه أو أى مواطن من أهل غرناطة أو البيازين أو البشرات أو غيرهما ممن دخلوا فى هذا العهد ، لا يطلب منهم ردْ ما أخذوه أيام الحرب من النصارى أو المدجنين ، من الخيل أو الماشية أو الثياب أو الفضة أو الذهب أوغير ذلك من الأشياء الموروثة ، ولا يجوز لأحد يعلم بشىء من ذلك أن يطالب به .

٣٠ - لا يطلب من أى مسلم ، يكون قد هَدّد أو جرح أو قتل أسيرا أو أسيرة نصرانية ليس أو ليست فى حوزته ، أن يرده أو يردها الآن أو فيما بعد .

٣١ - لا يدفع ضرائب عن الأملاك والأراضى السلطانية ، بعد انتهاء السنوات الثلاث المعفاة ، إلا ما يجب وفقاً لقيمتها ، ومثلما يدفع عن الأراضى العادية .

٣٢ - يطبق ذلك أيضا على أملاك الفرسان والقادة المسلمين ، ولا يحصل عنها ألا ما يدفع عن الأملاك العادية .

٣٣ - يتمتع اليهود من أهل غرناطة والبيازين وأرباضهما ، والأراضى التابعة لهما بما فى ذلك العهد من الإمتيازات ، ويسمح لهم بالعبور إلى المغرب خلال ثلاثة أشهر تبدأ من يوم ١٨ ديسمبر ١٤٩١م.

٣٤ - يختار الحكام والقواد والقضاة الذين يعينون لغرناطة والبيازين والأراضى التابعة لها ممن يعاملون الناس بالكرامة والحسنى ، وممن يحافظون على الإمتيازات الممنوحة ، وإذا أخل واحد منهم بواجبه ، عوقب وحلّ محله من يسلك السلوك الحق .

٣٥ - لا يحق للملكيين أو لأعقابهما إلى الأبد ، أن يسألوا الملك المذكور أبا عبد الله أو أحداً من المسلمين المذكورين ، بأية صورة من الصور ، عن أى شيء فعلوه وحتى حلول يوم تسليم الحمراء المذكورة يعنى إلى نهاية الستين يوما المنصوص عليها فى المعاهدة .

٣٦ - لا يولى على جماعة أبى عبد الله واحد من الفرسان أو القادة أو الخدم الذين كانوا تابعين للملك " وادي آش " { يعنى أبو عبد الله الزغل أو الشجاع . عم ملك غرناطة أبى عبد الله الصغير ، وكان بينهما صراع وقتال على الحكم } .

٣٧ - إذا وقع نزاع بين نصرانى ومسلم أومسلمة ، فإنه ينظر أمام قاض مسلم وآخر نصرانى ، حتى لا يتظلم أحد مما يقضى به عليه .

٣٨ - يقوم الملكان فى اليوم الذى تسلم فيه الحمراء والحصن ، كما تقدم ، بإصدار مراسيم الإمتيازات للملك أبى عبد اله وللمدينة المذكورة ،

ممهورة بتوقيعهما ، ومختومة بخاتمهما الرصاص ذى الأهداب الحريرية ، وأن يصدق عيها ولدهما الأمير والكردنيال المحترم دى سيبا ، ورؤساء الهيآت الدينية والعظماء والدوقات والمركيزون والكونتات والرؤساء حتى تكون ثابتة وصحيحة الآن وفى كل وقت (أيضا ٥٦ نافارا)

٣٩ - يقوم الملكان بالإفراج عن الأسرى المسلمين ، ذكورا وإناثا ، من أهل غرناطة والبيازين وأرباضهما وأراضيها ، افراجاً حراً دون أية نفقة من فدية أو غيرها ، وأن يتم الإفراج عن هؤلاء الأسرى فى ظرف الخمسة أشهر التالية ، وأما الأسرى الموجودون بقشتالة فيفرج عنهم خلال الثمانية أشهر التالية ، وبعد يومين من تسليم الأسرى النصارى لجلالتهما يفرج عن مائتين من الأسرى المسلمين منهم مائة من الرهائن ومائة آخرى .

٤٠ - إذا دخلت أية محلة من البشرات فى طاعة جلالتهما ، فإنه يجب أن تسلم إليهما كل الأسرى النصارى ذكورا وإناثا فى ظرف خمسة عشر يوما من تاريخ الإنضمام وذلك دون أية نفقة .

٤١ - تعطى الضمانات للسفن المغربية الراسية الآن فى مملكة غرناطة لكى تسافر فى أمان شريطة ألا يكون على متنها أى أسير نصرانى ، ولن يلحق بهذه السفن أى ضرر أو إتلاف ، ولن يؤخذ منها أى شىء ، ولا ضمان لمن تحمل منها أسرى نصارى ، ومن حق جلالتيهما إرسال من يقوم بتفتيش هذه السفن لذلك الغرض .

٤٢ - لا يدعى أو يؤخذ أى فرد من المسلمين إلى الحرب رغم إرادته ، وإذا رغب صاحبا الجلالة استدعاء الفرسان من ذوى الخيول والسلاح للعمل فى نواحى الأندلس ، فإنه يجب أن يدفع لهم الأجرة من يوم الرحيل حتى يوم العودة .

٤٣ - يجب على كل من عليه دين أو تعهد أن يؤديه لصاحب الحق ، ولا يجوز التحرر من أداء هذه الحقوق .

٤٤ - يكون المأمورون القضائيون الذين يعينون لمحاكم المسلمين ، من المسلمين ، الآن وإلى الأبد .

٤٥ - يكون المتولون لوظائف الحسبة الخاصة بالمسلمين ، من المسلمين أيضا ، ولا يتولاها نصراني الآن وفي أي وقت .

وقد ذيلت المعاهدة بما يفيد أن ملكي قشتالة يؤكدان ويضمنان بدينهما وشرفهما الملكي القيام بكل ما يحتويه هذا العهد من النصوص ، ويوقعانه باسميهما ، ويمهرانه بخاتميهما وعلى المعاهدة تاريخ تحريرها في ٢٥ نوفمبر سنة ١٤٩١ م .

ثم ذيلت بعد ذلك وبتاريخ لاحق هو ٣٠ ديسمبر سنة ١٤٩٢ يعني بعد تسليم غرناطة بعام تقريباً ، بتوكيد جديد ، فيه يأمر الملكان ولدهما الأمير وسائر عظماء المملكة بالمحافظة على محتويات هذا العهد ، وإلا يعمل ضده شيء أو ينقض منه شيء الآن وإلى الأبد ، وأنهمايؤكدان ويقسمان بدينهما وشرفهما الملكي بأن يحافظا ، ويأمران بالمحافظة على كل ما يحتويه بندا بندا إلى الأبد ، وقد ذيل هذا التوكيد بتوقيع الملكين وتوقيع ولدهما وجمع كبير من الأمراء والأحبار والأشراف والعظماء (١)

١- هذه النصوص موجودة في أكثر من مصدر ، أنظر مثلا :

- CodoIN:Coleccion de documentos ineditos Para la historia de espana V111,pp. 41-430,Madrid 1842-1892.

-Julio caro baroja:Los moriscos del reino de Granada,pp.40,41 وما عنده من مصادر وتعليقات

-Fernando y Gonzales:estado Social y Politico de los mudejares de castilla.pp.421-430

وفى نفس تاريخ ومكان توقيع معاهدة غرناطة ، بالمعسكر الملكى فى مرج غرناطة ، تم توقيع ملحق سرى للمعاهدة الأولى يتضمن الحقوق والإمتيازات والمنح التى تعطى للسلطان أبى عبد الله ولأفراد أسرته وحاشيته متى نفذ تعهداته المنصوص عليها فى المعاهدة الأصلية وتم تسليم غرناطة والحمراء وحصونها ، ويمكن إيجاز هذه المعاهدة السرية فيما يلى :

- يمنح الملكان الكاثوليكيان لأبى عبد الله وأولاده وأحفاده وورثته إلـــى الأبد ، حق الملكية الأبدية لما فى حوزتهم من محلات وضياع فى بلاد برجه ودلاية ومرشانه ولوشار وأندرش وأجيجر وأرجبة وبضعة بلاد أخــرى مجاورة ، وكل مايخص هذه البلاد من الضرائب وحقوق الريع وما بها من الدور والأماكن والقلاع والأبراج ؛ لتكون كلها له ولأولاده وأعقابه وورثته بحق الملكية الأبديه ، ويتمتع بكل ريعها وعشورها وحقوقها ، ويتولى القضاء فى النواحى المذكورة بإعتباره سيدها وبإعتباره فى الوقت نفسه تابعاً وخاضعاً لجلالتهما ، وله حق بيع الأعيان المذكورة ورهنها وأن يفعل بها ما يشاء ومتى شاء ، ومتى أراد بيعها فإنه يعرض ذلك أولا على جلالتهما ، فإذا لم يرغبا فى شرائها ، فإن من حقه أن يبيعها لمن أراد .

- يحتفظ جلالتهما بقلعة " ادره " وسائر القلاع الواقعة على

= وملحق به موجز منقول عن المقرى ، وانظر كذلك :

- المقرى : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وتاريخ لسان الدين بن الخطيب ج٢ص٦١٥ ،٦١٦ من طبعة بولاق ، ج٤ ص ٥٢٥-٥٢٧ من طبعة إحسان عباس ، بيروت ١٩٤٨ م .

- وأخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر لمجهول ، منشور بعناية الأستاذ ميللر ، جوتنجن ١٨٦٣ .

هذا وقد ترجم باسكوال دى جاينجوس "Pascual de Gayangos" نصوص المعاهدة الى الإنجليزية فى كتابه Mohammedan dynstics in Spain,Vol.11,pp:388-389,London1948: نقلا عن المقرى

- وانظر أيضا : محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ص٢٤٤-٢٥٠، القاهرة ، الطبعة الرابعة - ١٩٨٧.

الشاطى.

- يمنح جلالتهما الملك المذكور مولاى عبد الله هبة قدرها ثلاثون ألف جنيه قشتالى من الذهب يبعثان بها إليه ، عقب تسليم الحمراء وقلاع غرناطة الأخرى الواجب تسليمها فى الموعد المحدد .

- يهب جلالتهما للملك المذكور كل الأراضى والرحى والحدائق والمزارع التى كان يملكها أيام أبيه السلطان أبى الحسن ، سواء فى غرناطة أو فى البشرات ، لتكون ملكاً له ولأولاده ولعقبه وورثته ملكية أبدية ، وله أن يبيعها أو يرهنها أو يتصرف فيها كيفما شاء .

- يهب جلالتهم أيضا للملكات : والدته وأخواته وزوجته ، وإلى زوجة أبى الحسن كل الحدائق والمزارع والأراضى والطواحين والحمامات التى يملكونها فى غرناطة والبشرات تكون ملكا لهن ولأعقابهن إلى الأبد ، ولهن بيعها ورهنها والتمتع بها وفقاً لما تقدم .

- تكون سائر الأراضى الخاصة بالملك المذكور والملكات المذكورات وزوجة مولاى أبى الحسن معفاة من الضرائب والحقوق الآن وإلى الأبد.

- ألا يطلب جلالتهما أو أعقابهما ألى ملك غرناطة أو حشمه أو خدمه رد ما أخذوه فى أيامهم سواء من النصارى أو المسلمين من الأموال والأراضى .

- إذا شاء الملك المذكور أبو عبد الله ، والملكات المذكورات وزوجة مولاى أبى الحسن ، وأولادهم وأحفادهم وأعقابهم وقوادهم وخدمهم وأهل دارهم وفرسانهم وغيرهم ، صغاراً كانوا أم كباراً ، العبور إلى المغرب ، فإن جلالتهما يجهزان الآن أو فى أى وقت سفينتين لعبور الأشخاص

المذكورين متى شاءوا ، تحملهم مع كل أمتعتهم وماشيتهم وسلاحهم وذلك دون أية أجرة أو نفقة

- إذا لم يتمكن الملك المذكور وأولاده وأحفاده وأعقابه والملكات المذكورات ، وزوجة مولاى أبى الحسن ، والقواد والحشم والخدم ، وقت عبورهم إلى المغرب من بيع أملاكهم المشار إليها ، فإن لهم أن يوكلوا من شاءوا لتحصيل ريعها وارساله حيث شاءوا دون أى قيد أو مغرم .

- يحق للملك المذكور متى خرج من غرناطة أن يسكن وأن يقيم حيث شاء فى الأراضى التى أقطعت له ، وأن يخرج هو وخدمه وقواده وعلماؤه وقضاته وفرسانه الذين يريدون الخروج معه . بخيلهم وماشيتهم متقلدين أسلحتهم ، وكذلك نساؤهم وخدمهم ، وألا يؤخذ منهم شىء سوى المدافع ، وألا يفرض عليهم الآن أو فى أى وقت وضع علامة خاصة فى ثيابهم أو بأية صورة ، وأن يتمتعوا بسائر الإمتيازات المقررة فى عهد تسليم غرناطة .

- فى اليوم الذى يتم فيه تسليم الحمراء وحصونها ، يصدر جلالتهما المراسيم اللازمة بالمنح المذكورة ، موقعه ومختومة ومصدق عليها من ابنهما الأمير والكردنيال وسائر العظماء .(١)

وقد أوردت معظم نصوص هذه المعاهدة تفصيلا ، لأن الإلتزام بها والمحافظة عليها واحترام بنودها كان كفيلا بأن تستقر الأوضاع وتسود علاقات المودة بين الطائفتين المتعادتين لكن نقض هذه المعاهدة مادة وراء

١- نشر الأستاذ / محمد عبد الله عنان هذه الوثيقة السرية اعتمادا على الأصل المحفوظ فى دار المحفوظات العامة بسيمانقا Archivo General de Simancas pp leg 11Fol206

انظر : نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ٢٥-٢٥٢

مادة كان السبب فى كل ما حلّ بالمجتمع المسلم وما لحق الجماعة الإسلامية وهو الذى دفعه إلى الثورة تلو الثورة والدخول فى مواجهة عنيفة غير متكافئة مع عدو عنيد غدار ، وما كان ينوى " فرنادو وايزابيلا " توقيع هذه الوثائق بهدف احترامها ، برغم ايْمانهما والحلف بدينهما وشرفهما الملكى والحصول على تصديق رجال الدين والعظماء والأمراء عليها. وتاريخهما وموقفهما من معاهدات سابقة مع المسلمين ، يؤكد خلة الغدر وخيانة العهد عندهما ،

يقول المؤرخ " ثوريتا "Zurita وهو من كبار المؤرخين الأسبان في القرن السادس عشر - عن " فيرنادو " الكاثوليكى " وكان مشهورا ، لا بين الأجانب فقط ولكن بين مواطنيه أيضا ، بأنه لا يحافظ على الصدق ، ولا يرعى عهداً قطعه ، وأنه كان يفضل دائما تحقيق صالحه الخاص على كل ما هو حق وعدل "(١)

ويقول " خوان رجلا " نقلا عن " أميركو كاسترو " " إن المعاهدات والإتفاقيات مع عدم النزاهة ، كانت الشىء المميز للعصر الوسيط "(٢)

ويقول " خوليو باروخا " " فى عام ١٤٩٩ - لم يكن هناك إلا اختيار صعب : التحول إلى المسيحية أو معاناة سجن شديد وتعذيب . . . ونتيجة لهذا هاجر الكثيرون ، ومَنْ بقى بقى واضحاً فى ذهنه أن التحول إلى المسيحية كان بالقوة ، وأن الملكين المسيحيين نقضا معاهدة التسليم ، وبعد سنوات من الفتح قال قائل : لا تبك على ما مضى ، فإنه لن يعود ،

١- راجع Prescott,Zurita (Anales....p.697 نقلا عن عنان : نهاية ص ٣٥٠ .

٢- أنظر : Juan Regla:Estudios Sobre los moriscos ,P.47 Barcelona 1974' وكذلك : Americo Castro:Espana En Su Historia,Cristianos,moros y Judios,p.57,Buenos air.s 1948'

ولكن ابك على ما ترى . . . إن كله سيكون فظاظة ومرارة عند كل من عنده حاسة ، إذا كان ملك الفتـــح لم يحفظ العهد ، فمــاذا يحفـــظ خلفاؤه ." (١)

إن ما كان ما يهدف اليه " فيرناندو مايزابيلا " هو القضاء علي الإسلام وتحويل كل سكان شبه الجزيرة الإيبيرية إلى الكاثولكية ، وما كان ليهدأ لهما بال أو يهنأ لهما عيش إلاً بعد أن تجتث كل جذور الإسلام ، وتصبح البلاد كلها كاثوليكية ، لهذه الغاية عملا ، وفى سبيلها يهون كل شىء حتى الأيْمان والعهود والمواثيق والشرف الملكى .

نعم ، لقد أوصيــا حاكمهما الجديد على غرناطـــة ، الكونت تندليا (الماركيزدى مونيتخر فيما بعد) ، بالرفق فى معاملة الرعايا الجدد ، والعمل على التقريب بين عناصر السكان ، فرغب الكثيرون فى البقاء ، واشتروا الرباع العظيمة ، من أخوانهم الذين آثروا الهجرة إلى بلاد المغرب بثمن بخس ، وعاش المسلمون فى اطمئنان نسبى أول الأمر ، ولكنه كان إلى حين ، ذلك أن شروط المعاهدة ، مالبثت أن تحولت إلى حروف ميته ، فالغى فى الحال التصريح للمسلمين بحمل السلاح ، وأنكر على المقيمين منهم فى غرناطة حق شراء الأراضى ، والغرض من هذا الإجراء هو تيسير فرص الإقامة أمام السكان المسيحيين ، وتصفية الوجود الإسلامى فى هذا الإقليم ، والأمر الأشد خطورة حدث فى عامى ١٤٩٥ ، ١٤٩٩ عندما فرض العرش ضرائب جديدة يتحملها المدجنون المسلمون وحدهم ، فعانى هؤلاء من خيبة أمل مريرة ، وأصبحت أوضاعهم أسوأ بعد أن كانوا

١- أنظر : Julio Caro BaroJa:Los moriscos del Reino de Granada pp.48,48 Madrid 1974' وما عنده من مراجع .

يأملون فى نظام ضرائبى أفضل من هذا الذى خضعوا له فى ظل بنى الأحمر : ملوك غرناطة السابقين .

وهكذا تعرضت بنود الإتفاق للتغيير والخرق ، نصا وراء نص ، واستلبت الحقوق والضمانات ، وأغلقت المساجد ، وخظر على المسلمين إقامة شعائرهم ، وانتهكت عقائدهم وشريعتهم [١] . أضف إلى ذلك أن نفوس رجال الكنيسة كان تفيض برغبة عارمة تبغى القضاء علي كل ما هو إسلامى ، وكانت السياسة الأسبانية أداة فى يد الكنيسة ، يقول أحد كبار كتاب هذا العصر أنه " منذ استولى " فيرناندو " على غرناطة ، فإن الأحبار كانوا يطلبون إليه بالحاح أن يعمل على سحق طائفة محمد - صلى الله عليه وسلم - من أسبانيا ، وأن يطلب إلى المسلمين الذين يودون البقاء إما التنصير أو بيع أملاكهم والعبور إلى المغرب ، وأنه ليس فى ذلك خرق للعهود المقطوعة لهم ، بل قيد إنقاذ لأرواحهم ، وحفظ لسلام المملكة ، لأنه من المستحيل أن يعيش المسلمون فى صفاء وسلام مع النصارى أو يحافظون على ولائهم للملوك ما بقوا علي الإسلام الذى يحثهم على مقت النصارى أعداء دينهم [٢] "

لقد استدعى الكردينال " خمينس دى سيستيروس " ليقوم بمهمة تنصير المسلمين فوصل إلى غرناطة فى أكتوبر سنة ١٤٩٩ ، وطلب من

١- أنظر : Pascual de Gayangos :Mohammaden,Daynstics in Spain,Vol.11,P.391 وأنظر أيضا : أخبار العصر فى إنقضاء دولة بنى نصر ص ٥٤ ، وكذلك مقال بمجلة الأندلس العدد xxx1 سنة ١٩٦٦ هامش ص ٢٩٤ James T. Monroc

2- Luis de Marmol : Historia de la rebelion y Castigo de los moriscos del reino de Granada,Libro 1 Cap XX11,XX111

وكذلك عنان : نهاية الأندلس ص ٣١٣- الطبعة الثانية P.109-111

الأسقف اتخاذ أنجع الوسائل لهذا التنصير ، وجمع فقهاء المدينة وأعيان المسلمين بها ، وطلب منهم أن يتنصروا حتى يكونوا قدوة لغيرهم ، ووعد وتهدد ، وقدم المنح والعطايا ، فتنصر بالفعل بعض هؤلاء وتبعهم عدد كبير من عوام الناس .

وقد احتج بعض العلية من المسلمين على هذه الأعمال ، وبينوا أنها خرق لمعاهدة غرناطة ونددوا بهذه الأعمال ، وثار أهل " البيازين " في ١٨ ديسمبر سنة ١٤٩٩ احتجاجا على تحويلهم بالقوة إلى المسيحية ، وتحصنوا في حيهم ، وقد بذل الكاردينال وحاكم المدينة جهوداً كبيرة ، وطلبوامن الثائرين العودة إلى الأمن والهدوء ، فاستجاب هؤلاء بعد ثلاثة أيام والقوا السلاح مقابل وعد بالعفو عن الثائرين .

وإذا كان حي البيازين قد عاد إلى الهدوء ، فإن الإضطرابات قد تجاوزته إلى مناطق أخرى من مملكة غرناطة ، خاصة في المناطق الجبلية وفي البشرات وبلفيق وبنخار وجونجار واندرش التى نسف الحاكم بها مسجدها بالبارود ، وفي يناير سنة ١٥٠٠ كان الثائرون بقيادة " إبراهيم بن أمية" قد تمكنوا من السيطرة على عدة حصون ساحلية في " البوخارا " واستمرت المعارك العسكرية بينهم وبين المسيحيين لمدة ثلاثة أشهر ، وانتهت بإحتلال المسيحيين ل " لانخارون " في الغرب و " انداراس " في الشرق ، وفي اكتوبر من نفس العام ظهرت منطقة ثورة جديدة في المرية في جبال فيلابرس وناحية نيخار ، كما ثار المدجنون في " بيلى فيكى " واستمروا يقاومون من يناير حتى مايو ، حيث صمد الثائرون في المناطق الجبلية الواقعة بين آكام " فليالونجا " و " سيرا فرميليا " (الجبال الحمراء) حيث تجمعت بعض القبائل المغربية وتوزعت في شعب الجبال وفتكت بجند الحكومة ، وسيّر إليهم " فرناندو " قائده " الونسو اجيلار دى قرطبه "

وحدثت بينه وبين المسلمين موقعة حامية انتصر فيها الجند المسلم ، وراح القائد ومعه بعض الكبار ضمن القتلى .

وقد أشار " المقرى " إلى مقاومة المسلمين الباسلة وإلى إكراه النصارى لهـــم على اعتناق دينهم الكاثوليـــكى فقال :

" وبالجملة فإنهم (يعنى أهل غرناطة) تنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة ، وامتنع قوم عن التنصر واعتزلوا النصارى فلم ينفعهم ذلك ، وامتنعت قري وأماكن كذلك منها بلفيق واندرش وغيرهما ، فجمع لهم العدو الجموع ، واستأصلهم عن آخرهم قتلا وسبيا إلاَ من كان من جبل بللنقة (اى فليالونجا) فإن الله تعالى أعانهم علي عدوهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، مات فيها صاحب قرطبة ، وأخرجوا على الأمان إلى فاس " بعيالهم وما خَفَّ من أموالهم دون الذخائر ، ثم بعد ذلك كله ، كان من أظهر التنصير ، يعبد الله خفية ويصلى ، فشد عليهم النصارى فى البحث حتى أنهم أحرقوا منهم كثيرا بسبب ذلك ، ومنعوهم من حمل السكين الصغيرة فضلا عن غيرها من الحديد ، وأقاموا فى بعض الجبال على النصارى ، ولم يقيض الله تعالى لهم ناصرا [١].

وقد عفا الملك المسيحى عن الثوار شريطة أن يعتنقوا النصرانية فى ظرف ثلاثة أشهر أو يغادروا البلاد ، تاركين أملاكهم للدولة ، فهاجرت أعداد كبيرة منهم إلى فاس ووهران وبجاية وطرابلس وتونس وغيرها ، وعاونتهم الحكومة الأسبانية عن طريق تقديم السفن اللازمة لنقلهم [٢] . أما من بقى فقد استسلم وخضع وان استحقوا وصف مؤرخ معاصر لهم

١- أنظر : المقرى نفح الطيب ج٢ ٦١٦ ، ٦١٧ من طبعة بولاق ، ج٤ ص ٥٢٧ من طبعة إحسان عباس ، وانظر كذلك أخبار العصر ص ٥٥

٢- Prescott (w) history of fernand and isabella the catholic , p.467,London

بأنهم شعب ذو مبادىء أخلاقية متينة ، أشراف فى معاملاتهم وتعاقدهم ، ليس بينهم عاطل ، وكلهم عامل ، يعطفون أشد العطف على فقرائهم[1]"

وكانت خطورة الحوادث وتطورها سببا لتدخل الملك بنفسه لوضع حد لثورة الثائرين ، وقسى هو والنصارى عليهم وعاملوهم معاملة وحشية ، وكان المسلمون عزلا برغم ما أظهروه من بطولات ، ولم يكن أمامهم آخر الأمر إلا الاستلام وقبول التنصير مخرجا للنجاة ، وبعدهدوء الأحوال لجأت السلطات الأسبانية إلى الرفق وأرسلت القساوسة يبشرون فى كافة النواحى فاجتذبوا المسلمين إلى عقيدتهم بالوعد والوعيد وذاع التنصير فى كل مملكة غرناطة [2] ثم صدر مرسوم ملكى بتاريخ ١٢ فبراير سنة ١٥٠٢ يطلب من المسلمين أن يختاروا بين التنصير أو النفى ومغادرة البلاد ، فمال معظمهم إلى الخيار الأول ، يصف صاحب أخبار العصر كيفية حمل المسلمين على اعتناق المسيحية فيقول : دعاهم (فرنادو) وأكرههم عليه وكان ذلك فى سنة أربع وتسعمائة ، فدخلوا فى دينهم كرها ، وصارت الأندلس كلها نصرانية ، ولم يبق فيها من يقول " لا إله إلا الله محمد رسول الله " إلاّ مَن يقولها فى قلبه وفى خفية من الناس ، وجعلت النواقيس فى صوامعها بعد الآذان ، وفى مساجدها الصور والصلبان بعد ذكر الله وتلاوة القرآن ، فكم فيها من عين باكية وقلب حزين ، وكم فيها من الضعفاء والمعذورين ، لم يقدروا على الهجرة واللحوق بإخوانهم المسلمين ، قلوبهم تشتعل نارا ، ودموعهم تسيل سيلا غزيرا ، وينظرون إلى أولادهم وبناتهم يعبدون الصلبان ويسجدون للأوثان ، ويأكلون الخنزير والميتات ويشربون الخمر التى

1- Pedro Longas : Vida religiosa de los moriscos,P.L 11,Madrid 1915.

2- Marmol .Ibid,1, Cap.XXV11,P.116 Y prescot,Ibid,462

وانظر عنان : نهاية الأندلس ص ٣٢٣ .

هى أم الخبائث والمنكرات ، فلا يقدرون على منعهم ولا على نهيهم ولا على زجرهم ، ومن فعل ذلك عوقب بأشد العقاب ، فيالها من فجيعة ما أمرها ، ومصيبة ما أعظمها وطامة ما أكبرها . . وانطفأ من الأندلس الإسلام والإيمان ، فعلى هذا فليبك الباكون ، ولينتحب المنتحبون ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، كان ذلك فى الكتاب مسطورا ، وكان أمر الله قدرا مقدورا " (١)

ويتحدث المقرى عن نفس الموضوع ، نقلا عن رسالة تعرض لتنصير مسلمى الأندلس فيقول : . . . " وتعرفنا من غير طريق وعلى لسان غير فريق ، أن قطر الأندلس ، طرق أهله خطب لم يوجد فى سالف الدهر ، وذلك أنّهم أكرهوا بالقتل إن لم يقع منهم النطق بما يقتضى فى الظاهر الكفر ، ولم يقبل منهم الأسر ، وكان ذلك فى أهل غرناطة ، وخصوصا أهل واسطتها لقلة الناس ، وكونهم من الرعية الدهماء ، مع عدم العصبية بسبب اختلاف الأجناس ، وعلم النصارى بأن من بقى بها من المسلمين ، إنما هم أسارى فى أيديهم وعيال عليهم ، وبعد أن انتزعوا منهم الأسلحة والمعاقل ، وعتوا فيها بالخروج والجلاء ، فلم يبق من المسلمين طائل ، ونقص اللعين طاغية النصارى عهوده ، ونشر بمحض الغدر بنوده . . . "

وتعرض رواية أخرى لنفس المأساة على هذا النحو :

" إن طاغية قشتاله واراغون ، صدم غرناطة صدمة ، وأكره على الكفر من بقى لها من الأمة ، بعد أن هيض جناحهم ، وركدت رياحهم ، وجعل بعض جنده الخاسر على جميع جبـهات الأندلس ينثال ، والطاغية يزدهى فى الكفر ويختال ، ودين الإسلام تنثر بالأندلس نجومه ، وتطمس

١- أنظر : أخبار العصر فى إنقضاء دولة بنى نصر لمجهول ٥٤ . ٥٥ . ٥٦ .

معالمه ورسومه ، فلو رأيتم ما صنع الكفر بالإسلام فى الأندلس وأهليه ، لكان كل مسلم يندبه ويبكيه ، فقد عبث البلاء برسومه ، وعفى على أقماره ونجومه ، ولو حضرتم من جبر بالقتل على الإسلام ، وتوعد بالنكال والمهالك العظام ، ومن كان يعذب فى الله بأنواع العذاب ، ويدخل به من الشدة فى باب ويخرج من باب ، لأنساكم مصرعه ، وساءكم مقطعه ، وسيوف النصارى اذْ ذاك على رءوس الشرذمة القليلة من المسلمين مسلولة وأفواه الذاهلين محلولة ، وهم يقولون : ليس لأحد بالتنصر أن يمطل ، ولا يلبث حينا ولا يمهل ، وهم يكابدون تلك الأهوال يطلبون لطف الله على كل حال . " (١)

بل إن صدى محنة المسلمين فى الأندلس ، وصل إلى مصر ، ذلك أن المؤرخ المصرى ابن اياس يذكر فى حوادث سنة ٩٠٤ هـ (١٥٠٠ م) أنه فى شهر صفر ، " جاءت الأخبار من المغرب ، بأن الفرنج قد استولوا على غرناطة التى هى دار ملك الأندلس ، ووضعوا فيها السيف بالمسلمين وقالوا من دخل ديننا تركناه ، ومن لم يدخل قتلناه ، فدخل فى دينهم جماعة كثيرة من المغاربة خوفاً على أنفسهم من القتل ، ثم ثال عليهم المسلمين ثانيا ، وانتقصوا منهم بعض الشىء ، واستمر الحرب سائرا بينهم والأمر لله تعالى فى ذلك " (٢)

هذه الوحشية التى تعرض لها المسلمون ، وهذا النقض للمعاهدات ، دفع شاعرا مسلماً أن يكتب قصيدة شعرية من مائة وخمسة من الأبيات ،

١- أنظر : المقرى : شهاب الدين أحمد بن محمد المقرى التلمسانى : أزهار الرياض فى أخبار عياض ص ٦٩-٧١ ، تحقيق مصطفى السقا وزميله ، القاهرة ١٩٣٩ م .

٢- ابن إياس : أبو البركات محمد بن أحمد بن اياس زين الناصرى ، تاريخ مصر ص ٣٩٢ ج ٢ طبع بولاق فى ثلاث مجلدات بعنوان بدائع الزهور فى وقائع الدهور .

وجهها إلى الخليفة العثمانـى " بايزيد الثانـى " (١٤٨١ - ١٥١٢ م ، يصف فيها ما حل بالمسلمين فى بلاد الأندلس وما يواجهونه من إعنات وتعذيب وإكراه على التنصير ، ويطلب نجدة الخليفة وغوثه ، منها هذه الأبيات :

سلام عليكم مـــن عبيد تخلفوا بـأندلس بالغرب فـى دار غربة
أحاط بهم بحـر من الـروم زاخر وبحر عميق ذو ظـلام ولجـة
سلام عليكم مـن عبيد أصابهم مصـاب عظيم يا لها من مصيبة
سـلام عليكم مـن شيوخ تمزقت شيوبهم بالنتف من بعـد عـزة
سلام عليكم من وجـوه تكشفت على جملة الأعلاج من بعـد ستره
سلام عليـكم من بنـات عواتق يسوقهم اللباط قهرا لخلـوة
سـلام عليكم من عجائز أكرهت على أكل الخنزير ولحـم جيفة
... فقـال لنا سلطانهم وكبيرهـم لكم ما شـرطتم كاملا بالزيادة
وأبدى لنـا كتبا بعهد مـوثق وقـال لنا هـذا أمانى وذمتى
فكونوا على أموالـكم ودياركم كمـا كنتـم قبل دون أذية
فلما دخلنا تحت عقد ذمـامهم بدا غدرهم فينا بنقص العـزيمة
وخان عهودا كان قد غـرنا بها ونصـرنا كرها بعنف وسطوة
وأحرق ما كانت لنا من مصـاحف وخلطـها بالزبل أو بالنجاسة
وكل كتاب كان فـى أمـر ديننا ففى النـار القوه بهزء وحقرة
ومن صام أو صلى ويعلـم حاله ففى النار يلقوه على كـل حالة
ومن لم يجئ منا لموضع كفرهـم يعاقبه اللباط شـر عقوبة
ويلطم خديه ويؤخذ مالـه ويجعله فى السجن فى سوء حالة
وفى رمضان يفسدون صيامنـا بأكل وشرب مرة بعـد مرة
وقد أمرونا أن نسـب نبينا ولا نذكـره فى رخاء وشدة

الى غير هذا من أمــــور كثيرة
قباح وأفـــــعال غـزار ردية

وقد بدلت أسماؤنا وتحـــــولت
بغير رضـــــا منا وغير إرادة

وســـــل بلفيقا عن قضية أمرها
لقد مزقوا بالسيف من بعـد حسرة

ومنيافة بالسيف مـــــزق أهلها
كذا فعلوا أيضـــا بأرض البشرة

واندرش بالنار أحـــــرق أهلها
بجامعهـــم صاروا جميعا كفحمة

فها نحن يامولاى نشـــكو إليكم
فهذا الذى نلنـــــاه من شر فرقة

عسى ديننا يبقى لنا وصـــــلاتنا
كما عاهدونا قبل نقض العزيمة

وإلا فيجلونا جميعا مـــن أرضهم
بأموالنا للغـــــرب دار الأحبـــة

فإجلاؤنا خير لنـــــا من مقامنا
على الكـــفر فى عز على غير ملة

فهذا الذى نرجـــوه من عز جاهكم
ومن عندكم تقضى لنا كل حاجة(١)

وليست هذه هى الرسالة الأولى التى وجهت من المسلمين فى الأندلس إلى عاصمة الخلافة الإسلامية فى تركيا ، فقد أرسل أهل غرناطة فى منصف عام ١٤٧٧ م - قبل سقوطها فى أيدى المسيحيين بحوالى أحد عشر عاما - سفارة إلى إسلامبول (استانبول) وجهوا فيها نظر السلطان العثمانى محمذ أبى الفتوح إلى أحوال المسلمين فى الأندلس وناشدوه التدخل لإنقاذهم ، ولكن كان من الصعب عليه أن يستجيب لهذا النداء ، فقد كان منصرفا بكليته إلى مواجهة تحالف صليبى يمثل خطرا ضخماً على دولته ، وقد ضم هذا التحالف البابا سكست الرابع (٤٧١ - ١٤٨٤) وجمهورية البندقية وحكام نابولى والمجر وترانسلفا وفرسان القديس يوحنا

١- نشر James T. Monroe القصيدة كاملة مع ترجمة إنجليزية وتعليقات فى مجلة الأندلس العدد xxx1 سنة ١٩٦٦ تحت عنوان A curious moriso appeal to the ottoman empire pp.281 - 303' وقال إن هذه القصيدة كانت موجودة فى مخطوط بالمكتبة الوطنية فى الجزائر ، ولكن هذا المخطوط فقد ، ووجدت نفس القصيدة فى أزهار الرياض للمقرى وعليه اعتمد الباحث المذكور فى نشر القصيدة وترجمتها والتعليق عليها ، انظر : " أزهار الرياض : المجلد الأول ص ١٠٨ - ١١٥ ، طبعة القاهرة سنة ١٩٣٩ ويغلب على الظن أن القصيدة كتبت قبل سنة ١٥٠١ إذ ليس فيها إشارة الى حوادث بعد هذا التاريخ .

فى جزيرة رودوس وعددا من الزعماء الألبان أعداء الدولة العثمانية وقد نحج المتحالفون فى الإستيلاء على " أزمير " وأفشلوا خطط السلطان ، ولم يتوقف الصراع معهم إلا بعد سنوات .

وقد اتجه مسلمو غرناطة فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى إلى سلطان دولة المماليك الشراكسة فى مصـــر ، الملك الأشـــــرف قـــايتباى (١٤٦٨ - ١٤٩٦) ، يطلبون تدخله لإنقاذهم من الملوك المسيحيين ، فأرسل هذا السلطان وفودا إلى البابا وإلى ملوك الدول الأوربية ، تذكر لهم ما يتمتع به المسيحيون فى دولته من حريات كاملة ، بينما يتعرض إخوانه فى الدين بأسبانيا لشتى أنواع الظلم ، وهدد بأنه سوف يتبع سياسة المعاملة بالمثل يعنى التنكيل بالمسيحيين إذا لم يتوقف حكام قشتالة واراجون وغرناطة عن هذه السياسة الحمقاء وعن طرد المسلمين من أراضيهم ، وطالب برد ما صودر من ممتلكاتهم وعدم التعرض لهم ، ولكن هذا التهديد لم يكن له أى ثمرة .

ومرة أخرى ولى الأندلسيون شطرهم نحو الدولة العثمانية بعد وفاة السلطان محمد أبى الفتوح ليستنجدوا بابنه السلطان أبى يـــــزيد الثانى (١٤٨٠ - ١٥١١) وكانت هذه الإستغاثة موضوع القصيدة المذكورة ولم يكن حظهم هذه المرة أفضل من سابقتها ، فقد كان السلطان الجديد يعانى من أزمات داخلية وخارجية ترتب عليها حروب فى جبهات متعددة ، كما كان عليه أن يواجه تحالفا صليبيا جديداً اشترك فيه البابا " جيل " الثانى وجمهورية البندقية والمجر وفرنسا ترتب عليه تنازل الخلافة عن بعض ممتلكاتها .

ولم ينس أهل الأندلس توجيه نداءات لملوك المغرب ، غير أن الأوضاع الداخلية فى تلك البلاد ، وخضوع ابن وطاس لأسبانيا و عقد

معاهدة سنة ١٥٣٨ معها وازدياد نفوذ أسبانيا والبرتغال فى المياه المغربية ، كل ذلك جعل من الصعب على المغاربة انقاذ إخوانهم الأندلسيين .

ومع كل هذا ، فإن كثيرا من المسلمين حافظوا على إسلامهم ، مما إضطر السلطات الأسبانية أن تغيّر من سياستها ، بعد أن اقتنعت أن تحويل الإنسان إلى النصرانية بين عشية وضحاها أمر غير ممكن ، وهذا هو السبب فى أن الكنيسة منذ الآن وإلى فترة زمنية ، قد تبنت أساليب ونظمت بعثات تبشيرية ، عملت فى صفوف هؤلاء المسلمين ، لعلها تفلح فى اقناعهم باعتناق المسيحية عن يقين ، وحتى سنة ١٥٠٦ كان يحتفل بتعميد الكبار فى " البوخارا " ووقعت عدة اتفاقات مع المجموعة الإسلامية تكشف عن روح التسلط لدى المسيحيين ، مثل اتفاقيات Tabernas فى ١٨ سبتمبر سنة ١٥٠٠ ، و Baza فى ٣٠ سبتمبر من نفس السنة و Husecar فى ٢٦ فبراير سنة ١٥٠١ ، وفيها يعّبر المسيحيون الجدد (المسلمون المنصرون) عن رغبتهم فى الخضوع للنظام العام ، وفى أن يؤدوا ما يجب علهم من ضرائب ، ويتمتعوا بما يتمتع به المسيحيون القدامى من اعفاءات ، وهناك بنود قد تبدو عديمة القيمة فى مظهرها ، ولكنها تعكس معاناة المسلمين وتسلط المسيحيين لهم ، وإن أبرزتْ الملامح الثقافية المميزة لهؤلاء المسلمين المنصرين ، مثل :

- ليكن للمورسكيين قصابون وصيادو سمك من بينهم ، كما هو الحال الآن ، ولكن عليهم أن يذكوا ذبائحهم وفقاً لأسلوب وطريقة الذبح المسيحى ، وليس بأى طريقة أخرى .

- يمنحون مهلة تبلى خلالها ملابسهم ، وملابس نسائهم ثم تشترى

لهم ملابس جديدة يتم إعدادها وفقاً لطراز اللباس المسيحى .

- يحظر على المورســـــكين اســـتخدام الحمامات الآن وفى المستقبل (١) .

وفى ١٢ يناير سنة ١٥٠١ ارتكب الكردنيال " خمنيس دي سيسنيروس " أمرا اداً ، حيث أمر بجمع كل الكتب العربية من كل مملكة غرناطة ، ووضعها أكداسا مكدسة فى باب الرملة وأضرم النيران فيها جميعا ، وقد وصل عدد هذه الكتب إلى مليون وخمسة آلاف كتاب فى تقدير بعض الباحثين ، ونزل بها بعضهم إلى خمسة آلاف ، وتوسط فريق ثالث فجعلها ثمانين ألفا ، ولا يعنينا العدد بقدر ما يعنينا العمل الهمجى الذى ارتكبه رجل دين من كبار الأحبار المثقفين ، أنه لم ينج من عمله أى كتاب عربى اللهم إلا ثلاثمائة كتاب فى الطب والعلوم ، بعث بها ذلك الرجل إلى الجامعة التى أنشأها فى قلعة عبد السلام Alcala´de Henares ، وقد علق العالم الأمريكى " وليام بريسكوت " على هذه الفعلة الشنعاء بكلمة حق جاء فيها " إن هذا العمل المحزن ، لم يقم به همجى جاهل ، وإنما حبر مثقف ، وقد وقع لا فى ظلام العصور الوسطى ، بل فى فجر القــرن السادس عشر ، وفى قلب أمة مستنيرة ، تدين إلى أعظم حد بتقدمها إلى خزائن الحكمة العربية ذاتها(٢) .

وهكذا تتوالي إجراءات وأساليب العنف وقهر المسلمين ، ففي سبتمبر سنة ١٥٠١ صدر قانون يحرم على المسلمين إحراز السلاح سرا أو

١- انظر Bernard Vincent: Historia de los moriscos,Vida y Tragida de una menoria بالإشتراك مع Antonio Dominguez Ortiz,PP.18,Madrid1969.

2-W.Prescott: History of Ferdinand and Isabella, The Catholic

وانظر أيضا عنان :نهاية الأندلس ص ٣١٦ ، ٣١٨. وكـذلك : Anwar G. Chejne: Islam and the west :the Moriscos,aCultural and social history ,P.6,Newyork 1983'

علنا ، ويتعرض المخالف لعقوبة الحبس ومصادرة الممتلكات في المرة الأولى ، فإذا ما تكررت المخالفة قضي بالإعدام على المخالف . لقد كانت السلطات الأسبانية حريصة على تجريد المسلمين من سلاحهم وإن اتخذت إجراءات لينة نوعاً ما أيام فيرناندو الكاثوليكي حيث رخص في استعمال بعض الأسلحة المنزلية مقابل رسوم معينة ولكن الحكومة أخذت تتشدد في منح التراخيص ، وجرّد المسلمون في بلنسية من كل سلاحهم وفي سنة ١٥٤٥ صدر قانون يمنع كافة كل أنواع الأسلحة ، ونفذ بشيء من اللين ، وفي سنة ١٥٦٣ - في عهد فيليب الثاني - صدر قانون جديد يؤكد تحريم حمل السلاح الموريسكيين إلاّ بإذن من الحاكم العام ، ونفذ هذا القانون بمنتهى الصرامة ، وكان رد الفعل لدى الموريسكيين شديدا ، فقد كانوا في حاجة إلى السلاح بمواطنهم النائية (١) .

إن هذه الحملات العنيفة ، وجهود المبشرين أيضا ، كانت نتيجتها الفشل ، وأدرك المسئولون أنه ليس من السهل استئصال الإسلام من البلاد ، فقد غادر المسلمون جماعات إلى العُدوة المغربية ، وبقي من اعتقد أنه يمكن له بالتعميد وحده أن يعيش في سلام ، ولكن الإجراءات التي اتخذت أثمرت خيبة أمل لدى هؤلاء الموريسكيين ، وبرهنت على تباين الثقافتين : ثقافة المسيحي الجديد (المسلم المتنصر) والمسيحي القديم ، وهذا يفسر مساندة الموريسكيين لحركات القرصنة واللصوصية وللحملات الوافدة من بلاد المغرب (٢) حسبما نفصل في موضعه إن شاء الله .

١- انظر عنان : نهاية الأندلس ص ٣٢٦ ، ٣٥٧ .

٢- Bernard Vincent: Historia de los Moriscos,P.21

يشير " فرنسسكو نونيث مولى " Francisco Nunez Muley في مذكراته الخاصة إلى أنه صدر مرسوم فى سنة ١٥٠٨ يقيد استخدام الموريسكيين للملابس الإسلامية ، وفى سنة ١٥١١ صدرت خمسة مرسومات ، الأول فى ٢٠ مايو لتنظيم استخدام الأدوات التى يمكن استخدامها سلاحاً مثل السكاكين والثانى في العاشر من يونيو ويتعلق بمنع استعمال الكتب العربية والثلاثة الأخرى فى ٢٠ يونيو وتعالج طريقة ذبح الحيوانات ودور آباء وأمهات التعميد فى تعميق الكاثوليكية ، والهدف من هذا كله هو تحطيم خصائص الثقافة الموريسكية ، ولأن النتائج كانت محدودة ، فقد تكرر صدور الإجراءات فى فبراير سنة ١٥١٢ وأضيف إليها تحريم مهنة الصرافة على الموريسكيين مع اتخاذ وسائل تحول بينهم وبين مساعدة من أسموهم " بالقراصنة البرابرة " وتكرر نفس الشىء فى ٢٩ يوليو سنة ١٥١٣ ، وفى ١٠ مايو سنة ١٥٢٠ ، وتكرار نفس الشئ دليل واضح على عدم مقدرة السلطات التوصل إلى نتائج حاسمة .

وقد توالى شعور الموريسكيين بما يحدق بهم من أخطار ، ولذلك بعثوا بوفودهم إلى أعلى السلطات ، تؤكد ابتزاز الموظفين ومحصلى الضرائب لهم ، وتقدم مقترحات تنظم ما يدفعون من إعانات غير عادية ، لكن السلطات واصلت تعنتها ، وصدر في ١٢ مارس سنة ١٥٢٤ - فى عهد الإمبراطور شارل الخامس (شارلكان - حفيد فيرناندو الكاثوليكى) - وبعد فترة من الهدوء النسبى - صدر مرسوم يفرض التنصير على من بقى مسلما واخراج من رفض النصرانية من أسبانيا ، على أن يعاقب المخالف بضرب الرق عليه مدى الحياة أو يقضي عليه بالإعدام ومصادرة كل ما عنده من ممتلكات كما قضى المرسوم بتحويل كل المساجد الباقية إلى كنائس .

وبطبيعة الحال شعر الموريسكيون بالإستياء من هذا المرسوم ، وأرسلوا

وفدا للإمبراطور في " مدريد " يعرض تظلمهم من كل ما يتعرضون له ، فندب الأمبراطور لجنة من النواب والأحبار وبعض قضاة محاكم التفتيش والقادة ورأسها المحقق العام للنظر في ظلامة المسلمين ، ولتقرير ما إذا كان تنصير المسلمين بالإكراه صحيحا تترتب عليه آثاره أم أنهم يعاملون معاملة المسلمين ؟ وانتهت اللجنة إلى أن تنصير المسلمين صحيح ، حتى لو كانوا قد حملوا عليه ؛لأنهم سارعوا فقبلوه اتقاء لما هو شر منه فكانوا بذلك أحرارا في قبوله " وهكذا اعتبر التنصير الذى فرضه القـوى عـلى الضعيف ، والظافر على المغلوب ، والسيد على العبد ، منشأ لصفة لا يمكن لإرادة معارضة أن تزيلها " (١)

وحتى لا يتجمع المورسكيون فى غرناطة ، صدر مرسوم ملكى بطليطلة فى فبراير سنة ١٥١٥ يحرم على المدجنين أو المسلمين المنصرين اختراق مملكة غرناطة وينص على إعدام ومصادرة ممتكات المخالف ، كما يحرم على المورسكيين بيع ممتلكاتهم لأى شخص دون ترخيص مسبق ، ومن فعل تعرض للموت والمصادرة ، والسبب فى ذلك هو أن السلطات قد تنبهت إلى أن كثيرا من هؤلاء المنصّرين يبيعون أملاكهم ويأخذون ثمنها ثم يعبرون إلى المغرب ويعودون إلى الإسلام (٢) .

ويواصل مسلسل العنف والإضطـهاد والتضيق والتعذيب مسيرته ، فستدعى إلى غرناطة في سنة ١٥٢٦ لجنة بأمر من الملك ، وتصدر عدة قرارات فى السابع من ديسمبر من نفس العام فى شكل وثيقة ، تتنكر

١- راجع تاريخ De Marles الذى إقتبسه من تاريخ " كوندى "

Hist de la domination des Arabes en Espagne V.III.P 339

وكذلك عنان : نهاية الأندلس ص ٣٥٢ .

2-Archivo general de simancas, P.R. legajos 8, Fol . 120

وكذلك عنان : نفسه : ص ٣٢٧ .

لكل الخصائص المميزة لهؤلاء الموريسكيين ، فهى تمنع استخدام اللغة العربية ، كتابة أو مشافهة ، وتمنع استخدام الملابس الطويلة واستعمال التمائم أو الحلى أو أى رمز يعنى الإنتماء للإسلام ، فتحرم الختان واقتناء العبيد أو السلاح ، وتمنع تزكية الحيوانات وفقاً للطريقة الإسلامية ، كما تمنع تحرك السكان الموريسكيين ، ومن الآن سيتعرض موضوع الزواج المشترك لرقابة صارمة ، وحرصاً على قمع أية مخالفة للقواعد المذكورة ، تقرر ولأول مرة - انشاء محكمة تفتيش فى غرناطة .

وواضح أن هذه الوثيقة تقدم تحديدا جديدا لمفهوم المسلم فى اراضى أسبانيا ، لقد كان المسلم هو ذلك الشخص الذى لا يعتنق المسيحية ، أما الآن فإن المسلم هو الذى يحافظ على أدسنى عادة إسلامية تكشف عن أصله . وأمل أن يندمج هؤلاء فى المجتمع المسيحى ويذوبوا فيه بسرعة ، تبين أنها فكرة حالمة أكثر من اللازم ، فالفروق قائمة وراسخة ، وبالإضافة لما سبق فإن الموريسكيين وحدهم يطبق عليهم نظام ضرائبى معقد هو نظام الفرضا La Frda ذو العناصر الأربعة ، الثلاثة الأولى تسمى الفرضة الكبرى وتتضمن ضريبة عادية مقدارها ٢١ ألف دوقية ، وأخرى غير عادية قدرها خمسة آلاف ، وعشرة آلاف أخرى تخصص لنفقات القصر الملكى لكارلوس الخامس فى غرناطة ، أما الفرضة الأقل أو فرضة البحر فيدفعها المسيحيون القدماء والموريسكيون ، وتخصص للإنفاق منها على جنود وحراسة الشواطىء . وابتداء من سنة ١٥٢٦ تتبلور كلمة الموريسكيين للدلالة على هؤلاء المسلمين المنصرين الذين يخضعون لنظام حكم نصرانى فى بلد نصرانية ، وهى تصغيركلمة Mors التى تعنى المسلم ، فكلمة Morisco تعنى إذن المسلم الصغير أو الذليل ، وقد تطلق عليهم كلمة " المسحيون الجدد " بدلا من كلمة " المدجنون " Los Mudejares التى كان

يعرف بها المسلم فى بلد يحكمه النصارى [1] وكأن كل هذا الذى حل بالموريسكيين ما كان كافيا ، فلم تكتف السلطات الأسبانية بما اتخذته من إجراءات متعنته ، بل ان الملك أصدر تشريعا يحتم على هؤلاء الموريسكيين أن يقيموا فى أماكن خاصة بهم بالمدن القديمة مثلما كان الحال بالنسبة لليهود فى العصور الوسطى ، وقد تم تخصيص منطقتين لهم فى غرناطة ، إحداهما وهى الصغرى - تضم ١٠٠ منزل ، والأخرى - وهى الكبرى - تضم خمسة آلاف منزل ، وتشمل مناحية " البيازين " ، وهذه المناطق التى خصصت للموريسكيين كان يطلق عليها اسم " لاس مريرياس " Las Morerias ، وتفصلها عن أحياء النصارى أسوار كبيرة ، وكانت تضم حوالى ٤٠ ألف نسمة (٢)

كل هذه الإجراءات التى اتخذت ضد الموريسكيين فى قشتالة ، لم يكن ممكنا أن تمر دون أن يدركها إخوانهم فى مملكة " اراجون " لقد كانوا يخشون خلال الفترة من ١٥٠٢ - ١٥٢٠ أن يصدر أمر بطردهم أو

١- أنظر : Juan regla: estudios sobre los moriscos, P.69, Barcelona 1974'

وأيضا : Anwar de chrejne: Islam and the west: the moriscos, P.7

Julio caro baroja: Losmoriscos

وكذلك التعليق رقم ٤٧ فى ص ٥٠ عنده حيث يذكر ما يؤكد المعنى المشار اليه نقلا عن :

Covarnubias (Sebastian de) Tesoro de la lengua castellana O Espanola .P.815 Barcelona 1943'

وكذلك عن :

Salazar de Mendoza (pedro) : Origen de las dignidades, Folio V.

٢- انظر : H.Ch. lea : History of the moriscos of spain, their conversion and expulsion, P. 31, Note 1, P. 151, 152 - London 1901'

وقد أعيد نشر نفس الكتاب فى " نيويورك سنة ١٩٦٨ ، وانظر أيضا : عنان نهاية الأندلس ص ٣٢٦ ، ويشير فى هامش ٢ من نفس الصفحة الى أن الزام المسلمين بالإقامة فى أماكن خاصة بهم بدأ يظهر فى المراسيم الملكية إعتبارا من سنة ١٥٠٠ م .

تحويلهم بالقـــوة إلى المسيحية ، وقد تدخل النبلاء ورجال الإقطاع للدفاع عنهم ، وطالبوا فى برلمان برشلونة سنة ١٥٠٣ بمنحهم ضمانات تكفل بقاءهم ، وقد اضطر كارلوس الأمل أن يكذّب فى سنة ١٥١٧ ما ينسب إليه من إعداد العدة لطردهم ، لكن التنافر بين الجماعتين : المورسكية والمسيحية كان على أشده على المستوى الشعبى كما هو الحال فى مملكة غرناطة ، وقد ساعدت حركة النقابات على تفجير الصراع ، ففي سنة ١٥٠٩ تمكنت نقابات بلنسية من الحصول على إذن يسمح لهم بحمل السلاح ، ليتأتى لهم مواجهة الهجمات التركية ، وفى سنة ١٥٢١ ، ١٥٢٢ أعلنت المقاومة السياسية عن مشاعرها المعادية للمورسكيين بشكل عنيف متكرر ، وفى ٢٠ مايو سنة ١٥٢١ اغتال المسلمون شخصين أسودين ، وكان على السلطات أن تبذل مجهودا جبارا حتى لا يعاقب المتهمون بغير الطريق القانونى . وفى يونيو قام المسيحيون بمهاجمة قرى المسلمين فى منطقة أراضى الرى ببلنسية ، وفى ١٥ يوليو اعتدى ٤٠٠ شخص على " موربدرو " وفى أوائل أغسطس أكره ١٥ ألف من المدجنين على التعميد خاصة المدجنون فى " يولوب ": المكان القريب من زعيم المقاومة السياسية " بيثنتى بيرس " أخيرا فى مارس سنة ١٥٢٢ ، اختفى زعيم الثوار ، وحوصرت القرى المسلمة فى البريكى و" الكوثير " وعندما انتهت حركة النقابات فى نهاية سنة ١٥٢٢ ، فإن مشكلة المدجنين كانت لا تزال تطرح بكل خطورتها ، وعاد من أكرهوا على التنصير إلى عقيدتهم القديمة .

والآن ماذا عن موقف الحكومة من هذه الأحداث ؟

فى مارس سنة ١٥٢٣ نظرت هذه المسألة فى المكاتبات المتعلقة بمحاكم التفتيش ، وحاول المفتش العام فى يناير سنة ١٥٢٤ أن يعقد

اجتماعاً لمناقشة قضية المدجنين الذين عـادوا إلى الإسلام سنة ١٥٢١ ، وبعد تأجيلات متعددة افتتحت الجلسات فى ١٩ فبراير سنة ١٥٢٥ ، واستمرت مداولاتها حتى ٢٢ يونيو ، وانتهت إلى نتيجة محددة هي أن تعميد هؤلاء سارى المفعول وأن من تنصر يلزمه أن يعيش مسيحياً ، وعلى أثر هذا عين مندوبون مهمتهم إعادة المدجنين إلى عقيدة الكاثوليكية فى جنوب مملكة بلنسية ، وكانت مهمة هؤلاء من الصعوبة بمكان ، فقد ثار المسلمون عليهم ، وكونوا قوات تحصنت بسلسلة جبال " بيرنيا " فى " اليكانتى " وفى أحواز سرقطة وفى بلنسية وغيرها ، ثم استسلم هؤلاء عندما أيقنوا أن المقاومة لن تفيدهم فى شىء (١) ، بإستثناء بلنسية ، فقد كانت تضم عددا من المسلمين يصل إلى ٢٧ إلف أسرة ، ثم إن وقوعها على البحر كان ييسر لها الإتصال بالعدوة الأخرى فى المغرب ، ومن هنا فقد أبدت مقاومة عنيفة عندما فرض عليها التنصير ، ولجأت جماعات كثيرة منهم إلى ضاحية بنى وزير Benguacil فاضطرت الحكومة أن تجرد لهم حملة كبيرة مزودة بالمدافع حملت المسلمين على التسليم ، ثم أرسل إليهم الإمبراطور عهد أمان على أن ينصروا وعدلت عقوبتهم من ضرب الـــرق عليهم إلـــــى الإكتفاء بغــرامة مالية (٢) .

أما فى باقى ولايات اراجون ، فقد كان السادة وأصحاب الإقطاع يخشون على مصالحهم ويخافون تعرضهم للخراب إذا ما تمزق المسلمون كما حدث فى بلنسية ، ولهذا فقد اتصلوا بالإمبراطور وبينوا له مخاطر هذه السياســـة ، وأكـــدوا له أن المورسكييـــن فى " اراجون " مجموعة عاملة نشطة مسالمة ، لم ترتكب خطأ دينيا أو سياسيا ، وبينهم زراع فى أراضى الملك والسادة ، وبينهم صنـاع مهرة ، وأخراجهم من البلاد تترتب عليه

١- أنظر : Bernard Vincent : Historia de los moriscos, P.23 .

٢-أنظر : H. Ch . Lea : History of the moriscos of spain ... P. 91,92 .

خسارة ، كما أنه ليس هناك ما يدعو لحملهم على التنصير ، فالإخلاص لدين لا يتأتى من وراء ذلك الإكراه ، لكن الملك أصرَّ على ضرورة تطبيق التشريع الجديد على كل مسلمى " اراجون " ، وأصدر أوامره إلى ديوان التفتيش كى يقوم بتلك المهمة ، يعْنى تنصير المسلمين قبل ٨ ديسمبر سنة ١٥٢٥، وبالفعل لم يأت عام ١٥٢٦ إلاّ وقد تمّ تحويل الجميع إلى المسيحية .

ليس هذا فقط ، فقد توالت الأوامر المتعنتة تحرم على المسلمين بيع الحرير والذهب والفضة والأحجار الكريمة ، وتحتم على كل مسلم حمل شارة زرقاء على قبعته ، وحظر عليهم حمل السلاح مهما كات الأسباب ، وأمروا بالسجود فى الشارع عندما يمر كبير الأحبار ، كذلك فرض على المسلمين فى بلنسية مغادرة الأراضى الأسبانية عن طريق الشمال ، ومنع السادة من أبقائهم فى ضياعهم وإلا تعرضوا لغرامات فادحة ، ورغم تذمر المسلمين إلا أنهم ما لبثوا أن خضعوا وأرسلوا وفداً منهم إلى البلاط يعرضون الرضى باعتناق النصرانية على ألا يخضعوا لديوان التفتيش مدة أربعين سنة وأن يحتفظوا بلغتهم وملابسهم القومية وأن يطبقوا شعائرهم فى الدفن والزواج الميراث وأن ينفق على فقهائهم من إيرادات أوقاف البّر الإسلامية وأن يسمح لهم بحمل السلاح وتخفف عنهم الضرائب (١) . ولكن مجلس الدولة رأى أن يطبق عليهم كل ما طبق على مورسكى غرناطة ، وأن يسمح لهم بالإحتفاظ بأزيائهم ولغتهم مدة عشرة أعوام فقط وأن تكون لهم بعض المزايا فيما يتعلق بالزواج والميراث والضرائب ، ولا تتدخل محاكم التفتيش فى المسائل الخاصة بهم ، مع الإعتراف بزيجاتهم

١- أنظر : Pedro longas : Vida religios de los moriscos. P. XLI y XLII, Madeid 1915.'

التى تتم بين أقرباء من ناحية الأب ، وسمح لهم بمقابر مختلفة ، كما سمح بدفع رواتب الفقهاء الذين تحولوا إلى المسيحية ، وكانوا يستفيدون من الأوقاف المرصودة على المساجد التى تحولت إلى كنائس ، كما تقرر تسويتهم فى الضرائب بالمسيحين القدامى ، وقد دفع المسلمون فى مقابل ذلك ٤٠ ألف دوقية (حوالى ٧٠ مليون بيزتة الآن) ، (يساوى الدولار الأمريكى حوالى ٢٠٠ بيزتة أسبانية الآن) .

وبرغم أن المباحثات قد انتهت فى يناير سنة ١٥٢٦ ، فإن الإتفاق بقى سرا حتى سنة ١٥٢٨ ، ولم يحل كل المشاكل ، فقد كان المندوبون المسلمون معتدلين من الناحية السياسية ، وعاون بعض النبلاء فى إنجاح المفاوضات ، وتلقوا مكافآت من الملك ، لتعاونهم فى إنجاح المفاوضات ، منهم مثلا قاضى " بال دى شلفا " أو عبد الله بن عامر أحد أغنياء " بناجوائيل " ، وإذا كان سكان " أراجون " قد حافظوا على هدوئهم ، فإن الثورة قد تفجرت فى أقاليم مختلفة من " بلنسية " ، ومع أنه كان من المستحيل على المورسكيين إقامة جيوش منظمة ، إلا أن مقاومتهم كانت شرسة فى جبال " بيرنيا " فى الجنوب ، وفى " بناجوائيل " فى الوسط ، وبالدرجة الأولى فى سلسلة جبال " اسبادان (كاستيون) Castillon فى الشمال ، حيث يتركز الوجود الإسلامى بقوة وحيث لجأ إلى هذه المنطقة كثير من سكان وادى بلنسية ، ولم يكن الصراع متكافئا بين القوات النظامية وبين الجماهير المتمردة ، وقد استسلمت " الموناثيد " بسرعة فى ١٤ فبراير سنة ١٥٢٦ ، واستسلمت " بنوجوائيل " فى ١٧ مارس ، لكن المتمردين فى " اسبادن " ظلوا يقاومون حتى ١٨ سبتمبر ، أما البؤرة الأخيرة فى " مويلا دى كورتس " فقد ثابرت حتى العاشر من أكتوبر (١)

١- أنظر : Bernand vincent : Historia de los moriscos, P.24, 25

ثم أقبل المسلمون فى بلنسية على الدخول فى النصرانية أفواجا ، فلم يكن أمامهم سوى هذا السبيل .

وقد أراد المورسكيون فى غرناطة أن يحذوا حـــذو زملائهم فى بلنسية ، فانتهزوا فرصة زيارة الإمبراطور لغرناطة سنة ١٥٢٦ ، وأرسلوا إليه - نيابة عنهم - ثلاثة من سلالة امرائها الذين تنصروا عندما استسلمت هذه المدينة للملكيين الكاثوليكيين وهم" الدون فرناندوبنجاس والدون ميشيل داراجون وديجو لوبث بنشارا " وقد شرحوا فى مذكرتهم للإمبراطور ما يعانى منه المورسكيون من آلام المطاردة والمضايقات ، خاصة على يدى القساوسة ورجال القضاء الدينى ، فتقرر ندب لجنة للتحقيق فى أوضاع المورسكيين بكل نواحى غرناطة ، وقد عرضت ما توصلت إليه على مجلس دينى ، فقرر المجلس مايلى :-

أن يترك المورسكيون استخدام لغتهم وملابسهم القومية وألا يستعملوا الحمامات وأن تفتح أبواب منازلهم أيام الحفلات وألا يتسموا بأسماء إسلامية ولا يحتفلون بأعيادهم إلا داخل بيوتهم وعليهم إغلاق أبوابها يومى الجمعة والسبت وعليهم استخدام الرقص والضجيج ، وألا يستخدموا الحناء فى أيديهم أو أرجلهم أو على رءووس نسائهم ، وألاَّ يستخدموا التقاليد الإسلامية فى حفلات الخطبة والزواج وغيرها ، وأن يذهبوا لسماع الموعظة فى الكنيسة ، وألا يكون عندهم أطفال لقطاء ، وألا يكون بينهم Gacis من البرابرة الأحرار أو العبيد ، وللتأكد من الإلتزام بكل ذلك تقرر نقل محكمة التفتيش من جيّان إلى غرناطة .

وقد أرجىء تنفيذ هذه الأوامر بأمر الأمبراطور أكثر من مرة ، وتقـرر العفو عن الذنوب التى ارتكبت فى الماضى ، كما تقرر مضاعفة العقوبات

على من يخالف من جديد ، فأذعن المورسكيون مضطرين ، ولكنهم افتدوا حق ارتداء الملابس القومية وحق الإعفاء من المطاردة للإتهام بالردة ، نظير مبلغ كبير من المال دفعوه للإمبراطور (١) .

وقد حدث توقف فى قمع المورسكيين ومعاداتهم سنة ١٥٢٦ ، فتحول بعض المدجنين رسمياً إلى المسيحية واتخذت بعض الإجراءات التي تطمئن أصحاب الأقطاع على مصالحهم ، وتأجل تنفيذ المراسيم المعادية للمورسكيين ، وبدا أن احتمال ذوبانهم فى المجتمع المسيحى أمر ممكن ، ورضيت كل القطاعات المشتركة فى المشكلة ، ولم تختلف الحالة فى مملكة غرناطة عنها فى مملكة اراجون ، لأن ما تضمنته وثائق تحريم العادات المورسكية بقى معطلا دون تنفيذ .

وقد وصل الإمبراطور كارلوس الخامس إلى مدينة " دارّو " فى يونيو سنة ١٥٢٦ ، واستمر بها حتى ديسمبر ، واستقبل فيها ممثلين لأطراف المشكلة المورسكية ، بهدف فهم أبعادها ، وليطمئن أكثر ، أمر بإجراء تحقيق حول أوضاع هؤلاء المورسكيين تولاه " جاسبر دى افالوس " و " انطونيو دى جيبارا " و " خوان دى كثناتا " ومن الكهنة القانوتيين " فرنسسكو دى أوتيل " و " بدرو لويث " وقد أنجز هؤلاء مهمتهم فى سبتمبر ، وأنتهوا إلى أن المورسكيين يعانون من ابتزاز وسب المسيحين لهم ، وخلع حجاب نسائهم وسلبهم ونهبهم ، لقد كان المسيحيون " ذئاب سارقة بلا شفقة ، إن مهنتهم التكبر والعظمة واللواط والفخامة ، والرمى بالكفر وسبّ الدين والفخفخة والتبجح والطغيان والسرقة وكل ما لا عدالة

١- أنظر : H. Ch . Lea : the history of the moriscos ... P. 214,.215, 216'.
وكذلك : P.Longas : Vida religcosa de los moriscos .. P. XLIII
وأيضا : Juan regla : estudios sobre los moriscos, P.53

فيه " لقد واجه الورسكيون سلسلة من التهديدات التي لا تنقطع ، وكانت تنفذ بلا رحمة ، من جانب أكبر الملوك قوة على الأرض . على الأقل من ناحية المظهر . . . " (١)

وقد اجتمعت الجمعية العمومية فى الكنيسة الملكية نغرناطة ، ورأى الحاضرون ضرورة حصر كل المماراسات الممنوعـة بغيـة إيقافها ، وفى ٢٩ سبتمبر تم توقيع ٤٠ وثيقة بالغاء أو تحديد التعسف ضد الموريسكيين ، لكن المجتمعين لم يحددوا ألى مدى كان الموريسكيون مسئولين عن ردتهم ، ولهذا كتب " كارلوس الخامس " إلى البابا يقول :

" إن التحول إلى المسيحية لم يتم بإرادة كاملة عند معظمهم ، وأهم من ذلك أن هؤلاء ما عُلّموا ولأدربوا ولا تثقفوا بعقيدتنا الكاثوليكية المقدسة " وعندما نتحدث عن العمل المورسكي فى السابع من ديسمبر سنة ١٥٢٦ ، فإنه لابد أن نشير إلى تعليمات العاشر إلى اسقف غرناطة إنها توحى بالرغبة فى أن تنضم هذه الأقلية إلى المسيحية فى أقصر وقت ممكن . ولا بّد من الإشارة أيضاً إلى عرض الموريسكيين دفع ضريبة خاصة مقدارها ٩٠ ألف دوقية أى ١٥.٧٥٠٠٠ بيزتة فى ست سنوات . وقد قدمنا أن الدولار الأمريكى يساوى حوالى ٢٠٠ بيزتة أسبانية الآن ، فهذا المبلغ إذن يساوى ٧٨٧٥٠ دولار أمريكى تقريبا .

لقد عاش الموريسكيون والمسيحيون القدماء خلال ثلاثين سنة على الأسس التي تحددت سنة ١٥٢٦ وكانت العلاقات تتراوح بين القمع والإضطهاد وبين الذوبان والإنصهار ، وإن كان الخيار الأخير هو الذى

أنظر : Julio caro Baroja : los moriscos del reino de Granada, P.5

نقلا عن :

Sasvadro (Eduard) : Literature aljamiada, P.159. Madrid : 1878

سيطر على الفترة فى مجموعها ، من المؤكد أن وعود سنة ١٥٢٦ لم تحترم دائما ، فقد كانت محاكم التفتيش تطارد الموركسيين فى بلنسية منذ سنة ١٥٢٨ ، وفى غرناطة منذ ١٥٢٩ ، وحافظ أصحاب الإقطاع على كل مالهم من حقوق على رعاياهم ، وتعرضت حفلات الرقص والغناء التى كان يمارسها الموركسيون للجدل والمناقشة اعتبارا من سنة ١٥٣٢ . وتتميز هذه الفترة بما شهدته من حملات التبشير والتنظيم الدقيق لتعليم أصول العقيدة المسيحية . وفى هذا الصدد نشير إلى محاضر جلسات برلمان " سيجوبيا " سنة ١٥٣٢ ، وبلد الوليد ١٥٣٧ كنموذج لما جرى فى مملكة قشتالة ، وإلى محاضر برلمان " مونثون " سنة ١٥٣٧ نموذجاً لما جرى فى " أراجون "

هذه المحاضر جميعا تصرّ على ضرورة التبشير الجيد ، وإن ابتعد برنامج سنة ١٥٢٦ ، عن التطبيق بطبيعة الحال ، أما المجامع الدينية التى كان ينبغى لها أن تعقد اجتماعاتها كل خمسة أعوام ، فما كانت تنعقد إلا من حين لآخر ، وألغيت الزيارات التى كانت منظمة للكنائس وما عادت تتم إلاّ نادراً ، وبرغم كل هذا فإنه لابد من الإشارة إلى أهمية واستمرارية الجهود التي بذلت ، وبرغم كل هذا فقد استمر الموركسيون مسيحيين غير جيدين وحتى منتصف القرن .

فما هو السبب الرئيسى وراء هذه الإرادة والرغبة فى المقاومة ؟

إنه تتوافر معلومات فيما يتعلق بمملكة غرناطة ، فقد أنشئت المدارس والمساكن وخصصت لهؤلاء الموركسيين ، ونظمت لهم بعثات مختلفة ، وهناك زيارة قامت بها الأسقفية العامة سنة ١٥٣٧ ، وزيارتان قام بهما اسقف قادش بين سنتى ١٥٥٠ - ١٥٥٤ ، وانعقد المجمع الدينى مرتين احداهما فى غرناطة سنة ١٥٤١ والثانيـة فى قادش سنة ١٥٥٤ ، وكان واضحاً أن المسيحيين يرغبون فى صهر الأقلية المسلمة والعمل على أن تذوب فى المجتمع المسيحى ، وقد وضعت السياسة الملكية فى خدمتهم

خبراء فى المشكلة المورسكية ، واستعانت بكبار الأساقفة ، لتستفيد بطاقات و مقدرة هؤلاء المتخصصين للوصول إلى ذلك الهدف ، من هؤلاء " فراى انطونيو دى جيبارا " واعظ الملك والشخصية اللامعة بين أدباء عصر النهضة الأوربية ، وكان قد عمل مبشراً بين المورسكيين في بلنسية سنة ١٥٢٥ ، واشترك فى اجتماع غرناطة العام التالى ، وعين أسقفاً لقادش فى يناير سنة ١٥٢٩ وظل فى هذا المنصب حتى سنة ١٥٣٧ . وكان منهم " دون جسبر دى افالوس " الذى كان يشبه " جيبارا " فى مهمته ، وكان اسقفاً لقادش سنة ١٥٢٥ ، واشترك فى بعثات بلنسية وفى احتمع غرناطة وعمل اسقفاً لهذه المدينة من سنة ١٥٢٨ حتى سنة ١٥٤٢ ، ويمكن أن يضاف إليهما " دون مارتين بيريث دي ايالا " الأستاذ بجامعة غرناطة ، واسقف قادش من سنة ١٥٤٨ إلى ١٥٦٠ ، ثم نقل إلى " سيجوبيا " لبعض الوقت ، وعين أسقفا لبلنسية سنة ١٥٦٤ وظل فى هذا المنصب حتى وفاته ، كذلك " دون بدرو جيريرو " أسقف غرناطة من سنة ١٥٤٦ إلى ١٥٧٦ ، فقد لعب هؤلاء دورا أساسياً فى سياسة التذويب ، وكانوا الشخصيات الرئيسية خلال تلك الفترة التى غلب عليها طابع التبشير والتعليم .

إن دراسة النصوص المتعلقة بالتبشير تؤكد أن العمل كان مستمرا وواضحا ومركزاً للوصول إلى الإنصهار ، ابتداء من تعليمات أسقف غرناطة فى ١٠ ديسمبر سنة ١٥٢٦ إلى المجمع الدينى الذى انعقد فى يناير / فبراير سنة ١٥٥٤ ، مرورا بمذكرات أسلوب تعليم الديانة المسيحية للمورسكيين ابتداء من سنة ١٥٣٠ .

وكان الأساقفة ورجال الدين على وعى تام بأن التحول التام للمسيحية يمكن أن يكون فقط ثمرة عمل مشترك ، فالصلاة الربانية يوم الأحد ، والصوم الكبير (صوم الأربعين عند المسيحين) وكذلك الإعتراف ، كلها

أمور ينبغى أن تتم مع تعليم أصول العقيدة ، ومع نشاط الجمعيات الدينية الأخوية ، هذا المنهج الذى يمكن وصفه بأنه منهج شعبى ، كان يتضمن جذب الأسر المشهورة على أمل أن تتبعها الجماهير ، وإن توجهت محاولات التذويب إلى كل الموريسكيين دون استثناء ، وخاصة النساء والأطفال الذين تعلقت بهم معظم التعليمات ، وقد أشارت الوثائق أيضا إلى بعض الغرامات ، لكنها كانت تحتل المرتبة الثانية وكان خفيفة فى مجموعها ، لقد كان الإعتماد بالدرجة الأولى على أساليب وطرق الإقناع وليس على وسائل الإكراه والقسر ، وهذه تحتاج إلى وقت طويل وإلى صبر كى تؤتى ثمارها .

وبرغم كل هذا فقد استمر التعارض بين الجماعتين : المسلمة المنصرة والمسيحية معلناً عن نفسه ، ويعتبر مؤتمر " سان بدرو مارتير " الذى انعقد بطليطلة فى الفترة من ٤ فبراير إلى ٢٧ مارس سنة ١٥٣٩ مثالاً جيداً لإستمرار التوترات ، وكان للموريسكيين الغرناطيين مطالب تتعلق بمحاكم التفتيش وبالإحتجاج على السماح بممارسة الطقوس اليهودية بينما لا يسمح لهم بممارسة الشعائر الإسلامية ، كما طالبوا السلطات بالعفو عن الجرائم الماضية . . . وقد أجيبوا إلى بعض ما طلبوا (١) فقد أبلغ الإمبراطور المفتشين العامين في سنة ١٥٤٣ ، بأنه تحقيقا لرغبة المحقق العام بطليطلة ، فإنه قد أصدر أوامره بالعفو عن المسلمين المنصرين من أهالى مدينتى " دل كامبو " و " أريفالو " فيما ارتكبوه من ذنوب الكفر ، وأنه يطلب منهم فقط الإعتراف أمام ديوان التفتيش العام ثم ترد إليهم

١- فى تفصيل كل ذلك أنظر Bernard Vincent :
وما عنده من مصادر : Historia de los moriscos, P.27,28 .

أملاكهم الثابتة والمنقولة ، ويسمح لهم بتزويج أبنائهم وبناتهم من المسيحيين القدامى ، ولا تصادر الأموال التى دفعوها للخزينة العامة بسبب ما ارتكبوه من ذنوب بل تبقى وديعة تستفيد بها الذرية من هذا الزواج ، ويتمتع بنفس الإمتيازات النصرانيات القديمات اللائى تزوجن من مورسكيين ، وذلك فيما يتعلق بالأموال التى قدمها الأزواج المورسكيون برسم الزواج أو الميراث (١) .

وهكذا نشهد بجلاء أن السياسة الأسبانية فى مواجهة مشكلة المسلمين المنصرين ، قد تراوحت بين اللين والشدة أيام الإمبراطور كارلوس الخامس (شرلكان) (١٥١٦ - ١٥٦٦) وكانت بصفة عامة أكثر اعتدالا ، حيث نال المورسكيون بعض التسامح والرفق ، ومع ذلك فإنه يمكن القول بأن سياسة التذويب قد فشلت ، بل إن النصوص المتعلقة بهذه الفترة تؤكد أن المورسكيين كانوا أكثر إسلاماً بصورة لم تحدث من قبل قط ، فقد صمدوا محافظين على عاداتهم وتقاليدهم ، مدركين أن رغبة المسيحيين فى صهرهم لم تتوقف ، وأن السياسة إزاءهم لم تتغير برغم استسلام اعداد كبيرة منهم ، بل أنه بمرور السنين أصبحت الهوة بينهم وبين المسحيين عميقة (٢) ، وقد مال كثير من هؤلاء إلى الهجرة للعدوة المغربية ، وشعرت السلطات الأسبانية بوجود هذه الرغبة لديهم ، فصدر فى سنة ١٥٤١ قرار يحرم عليه تغيير مساكنهم أو النزوح إلى بلنسية ، وكانت دائما طريقهم المفضل لركوب البحر ، ثم صدر قرار يحرم الهجرة من أى ثغر إلا بتصريح ملكي نظير مبلغ مالى كبير ، ورغم أن السياسة الأسبانية

1- Archivo general de simancas, P.R. leg. 28, fol. 49

نقلا عن : عنان : نهاية الأندلس ... ص ٣٥٥ ، ٣٥٦

٢- أنظر : Bernard Vincent: Historia de los moriscos, P.28.

كانت تخشى دائما اتصال الموريسكيين بمسلمي المغرب ، وكانت محاكم التفتيش تعمل على قمع ذلك بكل شدة ، فإن الأنباء كانت تأتي من سفراء أسبانيا في البندقية وغيرها من الثغور الإيطالية تفيد مرور كثير من الموريسكيين - معهم نساؤهم وأطفالهم - في طريقهم إلى بلاد المشرق الإسلامي (١) .

إن من بين المشكلات السياسية التي أقضت مضاجع السلطات الأسبانية آنئذ ، وكانت من أشد المشكلات خطورة : مشكلة الأتراك والبربر ، إنهم يهددون حوض غربي البحر الأبيض المتوسط ، وكان وضع الموريسكيين يفرض عليهم أن يبحثوا عن عنصر للأمل ، وقد كانوا يتشجعون عندما تأتي سفينة من تونس أو الجزائر وتقترب من السواحل الشرقية ، وكانوا يساعدون القراصنة على غزو قرى المسيحيين مع ما في ذلك من خطر (٢) .

وكانت طرابلس - مثلما كانت تونس والجزائر- موطنا للصراع بين القوات المسيحية الأسبانية من جانب وبين قوات الدولة العثمانية المسلمة من جانب آخر .

فلنفرد كلمة لتطور هذا الصراع :

استولت أسبانيا على طرابلس عام ١٥١٥ لتجعل منها واحدا من الجيوب الصليبية التي تناثرت على طول الساحل الأفريقي ، ثم عهد

١- H.Ch. lea : The history of the moriscos of spain ... P. 187 - 189

وكذلك عنان : نهاية الأندلس ص ٣٥٥ .

٢- أنظر : Julio caro baroja: los moriscos ... P. 57

نقلا عن : Marco de Guadolajara: Memorable expulsion ... Fols 53v, 56

أنظر التعليق رقم ٦٨ في نفس الصفحة وما به من مصادر .

الأمبراطور شارل الخامس إلى فرسان القديس يوحنا بحكم طرابلس عام ١٥٣٥ ، ليفرغ لمواجهة العثمانين فى تونس والجزائر بالإضافة إلى مشاكله الأخرى ، وقد قاوم أهل طرابلس الإحتلال الأجنبى ، وبسبب ضعف مواردهم الحربية والمالية ، استنجدوا بالسلطان سليمان القانونى لإنقاذهم من الحكم الصليبى معلنين ولاءهم للدولة العثمانية ، وقد أرسل إليهم السلطان قوات متتالية وأسطولاً دخل المدينة سنة ١٥٥١ ، وتم القضاء على فلول فرسان القديس يوحنا وامتد النفوذ العثمانى ليشمل كل سواحل ليبيا تقريبا وأصبحت طرابلس ولاية عربية تابعة للدولة العثمانية منذ العام المذكور آنفا .

أما ما يتعلق بتونس فقد استدعى السلطان سليمان القانونى خير الدين بربروس إليه فى استنابول وعهد إليه بتنظيم الأسطول ثم الإستيلاء على تونس وإعلانها ولاية خاضعة للدولة العثمانية نظراً لما لها من موقع استراتيجى هام ، وقد حقق القائد هذا الهدف حيث استولى على تونس عام ١٥٣٤ واعلن انهاء حكم بنى حفص فيها ، وسقطت المدن الساحلية ثم توغلت قواته فى الداخل جنوبا ، وأعلنت القبائل ولاءها للعثمانين . وكان لذلك الإنتصار صدى بعيد فى أوربا ، نظرا لما لموقع تونس من أهمية فى السيطرة على البحر الأبيض ، ولأن ذلك مثل تهديدا مباشرا للمواصلات بين إيطاليا وأسبانيا ـ جناحى الدولة الرومانية المقدسة ـ ثم لما لهذا من تشجيع لمجاهدى الشمال الأفريقى على مهاجمة السواحل الأسبانية وانقاذ المورسكيين ؛ ولهذا كله لم يرتح خاطر شارل الخامس ، وأعد حملة هائلة خرجت من ميناء برشلونه بأسبانيا سنة ١٥٣٥ واستولت على تونس بسبب التفوق العسكرى وخيانة آل حفص واتباعهم بالإضافة إلى أسباب أخرى . وقد حكم مولاى الحسن – الأمير الحفصى – البلاد باسم الأسبان وتنازل

لهم عن ميناء حلق الوادى حيث أقاموا قاعدة عسكرية قوية ، وقد ردّ خير الدين على ذلك بغارة على جزر البليار وأسر ستة آلاف مسيحى جاء بهم إلى قاعدته فى الجزائر ثم حل حسن باشا - ابن خير الدين - وشهرته حسن الأغا - محل أبيه الذى عينه السلطان قائداً عاما للأسطول العثمانى ، ولم تتوقف جهود حسن الأغا عن مهاجمة الأسبان فى غربى البحر الأبيض المتوسط .

وقد أعد شارل الخامس اسطولاً ضخماً ، يعتبر من أكبر التجمعات البحرية المقاتلة فى القرن السادس عشر وكان يتكون من ٥١٦ سفينة ، تضم ٣٦٢٥٠ جنديا من جنسيات أوربية مختلفة ، وضم إليه كبار القادة البحريين ، وقد نزلت قوات الحملة فى أرض مجاورة لميناء الجزائر فى ٢٣ أكتوبر سنة ١٥٤١ ، وكان الجو صحوا ، لكن المناخ ما لبث أن تغير وهطلت أمطار السماء وهبت الرياح ، فطارت الخيام وغرق كثير من السفن وفسد مفعول البارود ، وخرجت القوات الإسلامية المدافعة فألحقت بالإمبراطور هزيمة مريرة واضطرته للإنسحاب ، وكان لإلتفاف الجزائريين جميعا حول حسن الأغا ، ولنجدات السلطان سليمان المستمرة آثارها فى تحقيق هذاا لنصر .

وقد أرسل أهل الجزائر - سواء الأصليون أو مسلمو الأندلس الذين قدموا إلى هذه البلاد - رسالة إلى السلطان سليمان القانونى ، مؤرخة فى نوفمبر سنة ١٥٤١ ، تتحدث عن الأوضاع المريرة التى يعيش فى ظلها المسلمون المنصرون فى أسبانيا ، وتذكر اضطهاد السلطات المسيحية ومحكام التفتيش لهم وإحراقهم وتقول أنهم " عبيدك الفقراء المساكين المنقطعون بجزيرة الأندلس ، وجملة عدتهم ثلاثمائة ألف وأربعة وستون ألفا وأنهم يشكون للسلطان ما يلاقون من بلواهم باكين متضرعين

مستنصرين بعناية مولانا السلطان دام عزه ونصره ، لما أصابهم من أعداء الدين وطغاة المشركين وما هم فيه من مكابدة الكفار ووصفته بأنه المجاهد فى سبيل الله ، وناصر الدين ، وسيف الله على الكافرين . . . وأنه كان سببا فى خلاص كثير من المسلمين من أيدى الكفرة المتمردين ، ونقلهم إلى أرض الإسلام ، وطالبت الرسالة بإرسال نجدات عسكرية لأهل الجزائر وبإعادة "خير الدين بربروس" إلى موقعه السابق لأنه " لهذا الوطن نعم ناصر ، وجميع أهل الشرك منه خائف وحائر " .

وبعد هزيمة الإمبراطور شارل الخامس فى الجزائر ، انتقل الصراع بين القوى الإسلامية والقوى المسيحية إلى تونس ، حيث استطاع القائد البحرى الأسبانى " اندريه دوريا " أن يستولى على عدة مدن تونسية بمعاونـــة بنى حفـص ، وقد تصدى له القائد العثمانـى " دراجوت باشا " الذى اتخذ من " طرابلس " قاعدة عسكرية لعملياته ، واحتل ميناء قفصة عام ١٥٥٦ وتوغل إلى الداخل حيث وصل إلى القيروان واحتلها وأقام بها حامية سنة ١٥٥٨ ، واستمر الأسبان محتفظين بالسواحل التونسية ، وأراد السلطان الإستيلاء على جزيرة مالطة ، فأرسل إليها دراجوت مع قواداً آخرين ، فاستشهد فى معركتها سنة ١٥٦٥ ، وخلفه فى نيابة الجزائر قادة مشهورون مثل صالح ريس والعلج على الذى فكر فى مشروع لإعادة الحكم الإسلامى فى أسبانيا ، وله جهود عسكرية مشكورة اثناء المعارك العديدة ضد أعداء الدولة العثمانية . وكان إذا أقبل فصل الربيع خرج فى سفن حربية كبيرة متعرضا للسفن الأسبانية فى رحلاتها غربى البحر الأبيض المتوسط ، ليعوق خطوط المواصلات البحرية بين أسبانيا وغيرها ويعرض التجارة الأسبانية للخسارة ، كذلك كان ينزل فى مواقع معينة بالسواحل الأسبانية ، مسترشدا بإشارت ضوئية يبعث بها إليه المسلمون الأسبان أو

بناء على معلومات مسبقة تصل منهم ، فيقوم بتدمير منشآت هذه الأماكن وأسر سكانها ، ولذلك كان أهل السواحل من الأسبان يبعدون إلى الداخل مسافة بين خمسة وستة فراسخ فى فصل الربيع تجنبا لهذه الغارات وما يترتب عليها من أضرار .

وقد استطاع " العلج على " أن يهجم بستين ألف مقاتل على الصليبين فى تونس وأن يبيد الحامية الأسبانية بها وأن يدخلها عام ١٥٧٤ ، وبذلك عادت تونس مرة أخرى إلى رحاب الدولة العثمانية . ثم بدأ اهتمام اسبانيا ببلاد الشمال الأفريقى يضعف بعد ذلك ، بسبب ما واجه فيليب الثانى ملك أسبانيا من مصاعب داخلية ، وللأعباء المالية المتزايدة التى كانت تنفقها أسبانيا فى الشمال الأفريقى ولأن العاهل الأسبانى ركز كل جهوده على المستعمرات الأسبانية فى المكسيك وأمريكا الوسطى وأمريكان الجنوبية وما ترتب على ذلك من تدفق الفضة على الموانى الأسبانية .

وقد طلب فيليب الثانى سنة ١٥٨١ عقد هدنة مع السلطان العثمانى مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٦) فاستجاب الأخير ، وبذلك قبلت أسبانيا خضوع نيابات الشمال الأفريقى الثلاث للدولة العثمانية ، وإن استمر النزاع يتجدد بين أسبانيا ونيابة الجزائر طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، بسبب احتلال الأسبان لمدينة "وهران" التى لم يتم جلاؤهم عنها إلا سنة ١٧٩١ م .

وهكذا استمر النزاع قويا وعنيفا بين القوات الإسلامية وبين القوات المسيحية والأسبانية خاصة ، وكان المسيحيون ينظرون إلى المسلمين فى بلاد الأندلس على أنهم بمثابة " طابور خامس " يعمل ضد الدول المسيحية

ويعاون المسلمين ، فيصبون جام غضبهم على المسلمين ويضطهدونهم بكل ما يتصور من وسائل ويبالغون فى التضيق عليهم ، ولم يكن أمام المسلمين إلا اللجوء للقوى الإسلامية ممثلة فى الدولة العثمانية أو الحكام فى المغرب العربى ، لإنقاذهم مما يتعرضون له من بطش وقتل وإحراق ومصادرة املاك . . . إلخ وكانوا يجدون استجابة أحيانا ، وأحيانا كانت الظروف تحول دون تحقيق ما يريدون (١).

لقد أعاد الأتراك فتح طرابلس عام ١٥٥١ ، وعانى أمير البحار العام التالى من هزيمة فى " بونا " ، وفقد الأسبان " ينيون دى بيليث دى لاجوبييرا " سنة ١٥٥٤ ، وفقدوا " بيجيا " فى سنة ١٥٥٥ ، وفى بداية حكم فيليب الثانى (١٥٥٥ - ١٥٩٨) لم يكن لأسبانيا على الشواطىء الأفريقية إلاّ " مليلة وأوران ومازا الكبير وجولتيا " ، وكان ينظر إلى المورسكيين على أنهم يمثلون فى ذلك طابورا إسلاميا خامساً يعمل على تسهيل ودعم الهجمات المعادية ، ومن المؤكد أن الإتصالات كانت تجرى بين القسطنطينية من ناحية وبين الغرناطين والبلنسيين من ناحية أخرى بصورة ثابتة ودائمة ، وقد كُشف عن المراسلات المتبادلة بين الفريقين ، وتبين أن كثيراً منها يتعلق بالستينات من القرن السادس عشر ، وكان هناك مشروع تحالف بين سلاطين المغرب وتركيا ضد فيليب الثانى ، وكذلك

١- انظر : محمد عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية ، دولة إسلامية مفترى عليها جـ ٢ من ص٩١٥:ص٩٣٣.

عبد الجليل التميمى:أول رسالة من أهالى مدينة الجزائر الى السلطان سليم الأول سنة ١٩١٥ ، مقال بالمجلة التاريخية المغربية ، تونس ، العدد السادس يولية ١٩٧٦ص ١١٧ وما بعدها ، وانظر كذلك :

Jamil M. Abun-nasr : A history of Maghrib in the Islamic period. PP 131-205 Cambridge unversity press. 1987.

استنجد المورسكيون بالسلطان العثمانى كما سبقت الإشارة (١) وكان يعزز ذلك بين المورسكيين وجود نبوّات تدور بينهم تتحدث عن نجدة عاجلة تأتيهم من قبل الأتراك ، كشفت عنها تحقيقات محاكم التفتيش بغرناطة :

" موجود فى كتبهم وقصصهم أن هذه الأرض سيعجل بعودتها إلى سيطرتهم وسيعجل بحيازة المسلمين البرابرة لها " (٢) .

أكثر من هذا اتخذت المشكلة المورسكية شكلا آخر هو شكل التلصص والقرصنة ، فاللصوص - الذين اتخذوا أسماء مختلفة ، أحيانا اسم اللصوص وأحياناً اسم قطاع الطرق وأحيانا اسم المتفيين - حسب الأقاليم - كانوا كثيرين جدا بين المورسكيين فى القرن ١٦ ، وقد تحولوا فى نهايته إلى شغل شاغل للسلطات منذ بدء الستينات ، وفى الفترة من ١٥٦٤ إلى ١٥٦٦ قدمت اللصوصية الأراجونية ، مدعومة ببعض الفرنسيين الخارجين من بلادهم ، ضربات موجعات للسلطات الأسبانية ،

١- أنظر دراسة : حول ذلك الموضوع عند " داريو كابانيلاس " فى مجلة :

Miscelanea de estudios arabes and hebricos, Granada 1957'.

تحت عنوان :

proyecto de alianza entre los sultanes de marruecos y turquia contra Felipe II, PP. . 57' - 76'

وانظر أيضا :

J.T.Monroe : A curious appeal on the ottoman empire. Al-Andalus 1966, PP. 281-303 '.

وقد سبقت الإشارة الى هذا المقال فى هذا البحث .

Anderew C.Hess: the moriscos , an ottoman fifth column in XVI Century spain. the American historical review. LXXIV, 1968, PP. 1-25

٢- انظر : Bernard Vincent: Historia de los moriscaos, P.29

نقلا عن : Archivo historico nacional, legajo 2603 I

وقد عرض "أنور ج جيختى" بعض هذه النبوّات فى كتابه :

Islam and the west : the morsicos. PP. 25' - 29

وكانت طوائف النبلاء وباء فى جنوب بلنسية ، وقد استخدموا رعاياهم الموركسيين فى الثأر وتحقيق الإنتقام ، وفى الأندلس قام المنفيون بدعم من مواطنيهم الموركسيين بمواجهة القوات النظامية ، وهناك قطاع طرق زرعوا الأرض حركات وأعمالا معادية للمسيحيين منذ سنة ١٥٦٥ إلى سنة ١٥٦٨ .

وقد وصلت عمليات القرصنة أشدها من جانب المغاربة والموركسيين فى سنة ١٥٦٠ حتى إن " البرى دى بلنسية " حرم الصيد على الموركسيين فى ٢٠ يوليو من نفس السنة بسبب أنه اشتبه فى تورطهم جميعا فى عمليات القرصنة ، ولأن البحر الأبيض المتوسط قد أصبح تحت سيطرة الدول الإسلامية ، وكانت ضربات القراصنة أشد إيلاماً فى كل مرة ، وقد ترك بعضها تأثيرا قويا ، كذلك الذى حدث سنة ١٥٦٠ وبدأ بإنزال بحرى فى " كاسنتيل دى فيرو " أو الذى حدث فى سنة ١٥٦٥ ، وكان هدفه " أورجيفا " عاصمة اقطاع الدوق دي سيسا " ، أو الذى جرى سنة ١٥٦٦ وكان ضحاياه سكان المناطق الساحلية فى المرية " تابيرناس " و " لوكابينينا " ، وبرغم نظام الدفاع الساحلى المعقّد ووجود ميلشيات كثيرة ، فإن المهاجمين كانوا يمارسون نشاطاتهم دون أن يواجهوا أية مقاومة ، ويكفى أن نعرف أنه خلال الحملة ضد " أورجيفا " فإنه بقى ٤٠٠ شخص حوالى ٤٠ ساعة دون أن يتعرضوا لمقاومة أحدٍ لهم ، كذلك بقى منظموا الهجوم علي " تابيرنا " مدة ٢٤ ساعة دون أن يتم التفكير فى مطاردتهم .

لقد عبر " دون لوى دى اوبريجون " - أحد القادة الغرناطيين - عن الانطباع الذى سببته هذه الأعمال عندما كتب إلى الملك بعد حادث "اورجيفا " إنه لشىء جديد مفزع فى هذه المملكة ، وقد سيطر العجب منه

على الجميع ، وأن المسيحيين القدماء الذين يعيشون فى مناطق الموركسيين يمتلؤن خوفاً ، ويبدو لهم أن آخرين سيأتون فى وقت قريب ، بسبب نظام الدفاع فى الوقت الحاضر ، وبسبب الاتصالات التي يبدو أن الموركسيين فى هذه الأرض يقومون بها مع المسلمين فى العدوة الأخرى " (١)

وعندما شعر المسيحيون بأن الخطر قد أحاط بهم ، وأنه اتخذ أشكالا متعددة ، وجدناهم يعودون إلى سياسة العنف ، ويلاحظ أن التسامح النسبى الذى تميزت به العلاقة والتعامل بين المسيحيين والموركسيين اعتبارا من سنة ١٥٢٦ لم يعد له وجود ، ومنذ سنة ١٥٥٥ يعنى منذ وصل فيليب الثانى إلى الحكم تستطيع أن تلمس الهوة وبعد اللقاء بين المجموعتين : الموركسية والمسيحية ، ونشطت محكام التفتيش وعملت بصورة مضاعفة ، وتحمس الموركسيون فذهب الكثيرون منهم ضحايا ، وبدأ تجديد إجراءات سنة ١٥٢٦ ، واتهم المسلمون المنصرون بحيازة الأسلحة ، وقضت محكام التفتيش الأراجونية سنة ١٥٥٩ باتخاذ وسائل تكفل نزع سلاح الموركسيين تماما ،ولم يحل دون تنفيذ ذلك إلاّ معارضة رجال الإقطاع القوية بسبب تضررهم من هذا النزع للسلاح (٢) ، وقد أمكن إلغاء هذا القرار بعد .. تقديم بعض الأموال لمفتشى التحقيق فى سرقسطة فى مقابل هذا الإلغاء (٣) ، وفى نفس الوقت جرت محاولة لنزع سلاح البلنسيين أيضا ،

١- أنظر : Bernard Vincent : Historia de los moriscos, P. 30

إعتمادا على :

Archivo del instituto de Valencia de Don Juan, Madrid envio, P.174, y Archivo general de simmancas " camara de Castilla " leg. 2 . 180 .

٢- أنظر : B.Vincent : Historia de los moriscos, P. 29 , 30

٣- أنظر : J. regla : Estudios sobre los moriscos, P.70.

ولكن أصحاب الإقطاعات عارضوا وأمكنهم تأجيل إصدار المرسوم ، ومع ذلك فقد صدر مرسوم حظر استخدام الأسلحة على الموروسكيين ببلنسية فى ٢ يناير سنة ١٥٦٣ ، بعد أن فقدت خمس وعشرون سفينة كبيرة ، فاجأتها عاصفة في ميناء بغرناطة خلال شهر أكتوبر سنة ١٥٦٢ بالإضافة إلى ما لمسته السلطات من استعداد القوات الجزائرية لمهاجمة " أورَن " . وقد تعرض ١٦٣٧٧ منزلا مورسكيا موزعة على ٤١٥ مكانا للتفتيش بحثاً عن الأسلحة ، وقد أمكن ضط ٣٣٠ سلاحاً نارياً ، ٢٧١٤٥ قطعة سلاح أبيض ، وواجهت مدينة غرناطة نفس عملية التفتيش بحثاً عن الأسلحة سنة ١٥٦٥ ، وبرغم أهمية ما عثر عليه فإن المشكلة لم تحل تماما ، فكثير من الأسلحة كان مخبأ فى أماكن سرية ، وفى سنتى ١٥٦٤ ، ١٥٦٥ اكتشف أن الأراجونيين فى قرى دائرتى " كالاتايود " و " بياقيلتش " يقومون بتصنيع السلاح ويرسلونه إلى إخوانهم المسلمين فى منطقة " بلنسية "

يعبر " فرنسسكو نونيث مولوى " فى مذكراته سنة ١٥٦٦ عن استمرار أعمال الإضطهاد والإساءة للمورسكيين فيقول " فى كل يوم نرى سوء معاملة أسوأ وأكثر فى كل شيء وبكل الطرق والوسائل ، سواء من جانب سلطات العدالة المدنية وموظفيها أو من جانب رجال الدين ، وهذا شيء ملاحظ ، ولسنا فى حاجة لى معرفته أو الاستعلام عنه " (١)

وقد تعرض المورسكيون فى مملكة غرناطة للون جديد من ألوان سلب وابتزاز أموالهم ، فقد أصدرالدكتور " سنتياجو " - المستشار القانونى لبلد الوليد - أمرا فى الفترة من ١٥٥٩ - ١٥٦٨ يقضى بمراجعة حدود

١- أنظــــــر : B. Vincent: Historia de los moriscos, P.31.

الأراضى والعقارات وإبراز مستندات ملكيتها ، وفى حالة عدم توفرها فإن المستولى عليها سيكون عليه أن يدفع غرامة وإلاّ صودرت الأراضى وأعيد بيعها ، ويبدو أن حوالى مائة ألف هيكتار قد تغيّر واضعوا اليد عليها لهذا السبب ، وقد استفاد من هذه العملية بالدرجة الأولى رجال البيروقراطية بغرناطة والأديرة الموجودة بالمدينة ، وقد كتب " دون بدرو دى ديثا " رئيس مجلس سكان غرناطة ، رسالة إل الملك فى ١٢ مايو سنة ١٥٧٣ يقول فيها " إنه نتيجة لعمل الدكتور " سنتياجو " فقد تم تسليم المحاسب الملكـــى مبلغ ٢٤٢٥٩٩٧ مرابطــــى أو أكثر من ٧١ ألف دوقية (١) .

ويمكن للإنسان أن يتخيل تأثيرهذه الأعمال على المورسكيين ضحايا هذا السلب ، فإذا أضفت إليها صعوبات أخرى تمت الإشارة إلى بعضها ، أدركت ما تعرض له هؤلاء من معاناة ، لقد حظر عليهم اعتبارا من سنة ١٥٥٥ إنتاج دودة القز أو تصنيع الحرير وقد كان هذا هو النشاط المفيد الذى يمارسه معظم سكان مملكة غرناطة ، وكان بالنسبة لسكان منطقة " البوخارا " خاصة ، الزراعة المثمرة التي يمارسونها ، فالفلاح يزرع مواد الحرير الخام خلال الشتاء ، ويبيعه بعد فترة انصهار الجليد يعنى من يونيو إلى سبتمبر ، وذلك فى منطقة غرناطة والمرية ومالقة ، وكان يعمل فى صناعة الحرير آلاف العمال المحليين ، وكان لحرير غرناطة بالذات شهرة عالمية ، ولكن أسعاره كانت غالية بسبب الضرائب الباهظة التى كانت تفرض عليه ، ولهذا فقد كان يعانى من منافسة حرير " مرسية " الذى كانت تفرض عليه ضرائب أقل ، والذى كان يتسرب إلى غرناطة بطرق

١- أنظـــــر : B. Vincent: Historia de los moriscos, P.31.

ملتوية ، وكل هذه الظروف الجديدة تركت تأثيرها بالتأكيد على الفلاحين من سكان الأندلس العليا .

وهكذا نرى فى كل يوم تزايد خطورة الإحتكاكات بين الجماعتين : المسلمة والمسيحية ، ولسنا نرى مبررا لهذا الجفاء ، وقد جاء أساقفة مملكة غرناطة وخطوا خطوة جديدة فى الاتجاه الصاعد نحو التنافر وعدم التلاقى ، فقد دعوا فى سنة ١٥٦٥ إلى عقد مجمع دينى اقليمى فى غرناطة ، وكان لقراراتهم فيه أهمية كبرى ، لأنها قطعت وبشكل متعمد خط رجال الدين السابق ، وصدر قرار من تسع مواد يعلن ضرورة تطبيق كل الإجراءات والمرسومات التى صدرت منذ عام ١٥١١ ثم تأجل تطبيقها ، ولا نرى فى هذا القرار استخدام مصطلحات مثل التبشير والنبوءة والإقناع وتعليم أصول العقيدة . . . إلخ وإنما نرى كلاما كله توبيخ وتأنيب ، ولم يبق جانب من جوانب الثقافة الإسلامية إلا وأشير إليه ، فتتابعت كلها يتلو بعضها بعضا ، وقد أشار الأساقفة على الملك بتحريم كل الخصائص المورسكية من استخدام اللغة العربية وتحريم اللباس الإسلامى وحظر الاستحمام وتحريم العبادات والحفلات الإسلامية وما يصاحبها من شعائر ، كما مُنع الموريسكيون من تملك العبيد من أصل أفريقى Los Gaces ، وقضى عليهم الا يقيموا فى مملكة غرناطة ، وقد طلب من محاكم التفتيش أن تضاعف من قسوتها عليهم وأن تعاقب أى مخالف بالأشغال الشاقة المؤبدة أو النفى أو الإعدام ، كما قضت الإجراءات بوجود اثنتى عشرة أسرة على الأقل - من المسيحيين القدامى فى أى مكان يوجد به المورسكيون ، وأجبر أصحاب الإقطاع على استقبال هذه الأسر فى اقطاعاتهم ، وأوجبوا عليهم زيارة منازل المورسكيين بانتظام فى أيام الجمعة والسبت والأعياد ، كذلك عبر الأساقفة عن أملهم فى أن

يخضع البارزون من الموركسيين لرقابة صارمة ، وأن يعاملوا معاملة خاصة فيؤخذوا بالشدة حتى يكونوا عبرة لغيرهم ، وأن يؤخذ بأبناء هؤلاء فيبعث بهم الملك إلى منطقة قشتالة القديمة ويأمر بتربيتهم هناك على نفقة آبائهم " كى يتمكنوا من العادات المسيحية هناك ، وينسوا ما هو موجود هنا إلى أن يصبحوا رجالا (١) .

وقد وجدت دعوة الأساقفة آذانا مصغية ، ولذلك نرى أن المتخصصين فى العقيدة من قانونيين وعسكريين ، يعقدون اجتماعا فى نفس السنة بمدريد ، ويطالبون بالأشياء نفسها ، وطبع النص الذى أسفرت عنه مداولاتهم فى يناير سنة ١٥٦٧ ، وأضافوا فيه إلى ما طالب به الأساقفة تحريم اقتناء وتداول الكتب العربية ووجوب التخلص منها فى مدى لا يتجاوز ثلاث سنوات ، وكان إحراز الكتب العربية ولا سيما القرآن الكريم من أقوى الأدلة على ردة المتهم ، ويعرضه لأقسى ألوان العقاب (٢) .

وقد أعلن هذا القانون فى أول يناير ١٥٦٧ ، لأنه اليوم الذى استسلمت وسقطت فيه غرناطة منذ أكثر من سبعين سنة ، وقد اعتبر عيداً قومياً تحتفل به أسبانيا فى كل عام ، وقد أمر رئيس المجلس الملكى بإذاعته فى كل مملكة غرناطة ، وتولى هذا الأمر موكب من القضاة شق المدينة ومن حوله الطبل والزمر ، وعلق فى ميدان البنود ، أعظم ميادين غرناطة القديمة ، وفى الميادين الأخرى وفى بعض أماكن بحى البيازين .

وقد رفض الموركسيون من جانبهم الخضوع لهذه الإجراءات البالغة

١- أنظر : B. Vincent: Historia de los moriscos, P.32.

٢- أنظر : نفس المرجع والموضع السابق .

القسوة والتى تهدد وجودهم نفسه ؛ ولأن الوضع قد أصبح من الخطورة بمكان ، فقد قرروا ايفاد شخصية وجيهة موضع تقدير ولا يشك فى إخلاصها ، وهذه الشخصية هى رئيس جماعتهم السيد " فرنسسكو تونيث مولوى " إلى رئيس المحكمة العليا الجديد السيد "بدرو دى ديسا " فأوضح له قسوة القانون الجديد وتناقضه مع العهود ، وطالب بالغائه أو على الأقل تأجيل تنفيذه ، ولكن مهمته فشلت ولم يلتفت إلى ما قدمه ، ومع ذلك فقد قرر المورسكيون التظلم لدى العرش ، ورجوا ميسحيا قديماً معروفاً بتعاطفه مع هذا الشعب البائس ومدركا لخطر ابادته هو " السيد خوان هنريكث " . أن يتولى الدفاع عن قضيتهم لدى الملك ووزيره الطاغية الكاردينال " اسبينوسا " ، فذهب إلى مدريد ، يرافقه اثنان من أعيان المورسكيين هما " ايرناندو الحباقى " - من أعيان وادى آش - و " خوان ايرنندث مودافال " - من أعيان غرناطة - وقد قابلوا رئيس مجلس قشتالة وأرسلوا مذكرة إلى كل أعضاء مجلس الملك ، بينوا فيها ما يترتب على تنفيذ هذا القانون من قلق واضطراب ، ولكن الكردينال لم يلن وزاد تشددا على تشدده ، كذلك أجرى الماركيز دى مونديخر - حاكم غزناطة - مقابلة مماثلة واجهت نفس الطريق المسدود . ورغم أن حاكم غرناطة قد أوضح خطورة الموقف ، وبين أن اليأس قد يدفع المورسكيين إلى الثورة وأن الأتراك قد أصبحوا فى شواطىء المغرب على مقربة من أسبانيا ، لكن لم يلتفت إلى كل ذلك وأجاب رئيس المجلس بأن جلالة الملك مصمم على تنفيذ القانون وأنه قد أصبح أمرا واقعاً ، وليست هناك شخصية لدى المورسكيين ، فهم شعب جبان لا سلاح لديه ولا حصون . وقد رأى فيليب الثاني - الملك الشديد التعصب الخاضع لسيطرة رجال الكنيسة - أن يستجيب لضغط رجال الدين ، فكرر الأمر بتحريم اللغة العربية ادراكاً لأهمية اللغة وأنها من أشد العوامل التى تمنع تغلغل المسيحية فى نفوس

المورسكيين ، وقضى بمنع المورسكيين مهلة ثلاثة أعوام لتعلم القشتالية ثم يمتعون من الكلام أو التخاطب أو القراءة أ الكتابة باللغة العربية ويمنع تحرير العقود والمعاملات بتلك اللغة ولا يعتد بها أمام القضاء ، وعلى من عنده كتب عربية أن يسلمها فى ظرف ثلاثين يوما إلى رئيس المجلس الملكى بغرناطة ، وسترد إليه إن لم تكن مادتها ممنوعة خلال الثلاثة الأعوام فقط ، أما الثياب فيجب أن تكون مصنوعة وفقاً للأسلوب المسيحى ويسمح للمسلمين بارتداء ملابسهم الحريرية لمدة عام والصوفية لمدة عامين ثم يمنع استخدامها بعد ذلك ، كما تمنع النساء من استخدام الحجاب الإسلامى ، وعليهن كشف وجوههن ، وارتداء المعاطف والقبعات كما تفعل النصرانيات ، وعلى المورسكيين هدم الحمامات العامة والخاصة فورا . . . وقد نفذت الإجراءات الجديدة جميعا دون رحمة أو رفق ، اللهم إلا بالنسبة لشعب بلنسية ، فقد تمكن زعيمهم وهو أحد المقربين إلى البلاط - من الحصول على بعض التخفيف ، فتقرر الرفق بهم فى جالة الردة وإلا تنتزع أملاكهم بتهمة المروق ، وتقرر أن يدفعوا فى مقابل ذلك اتاوة سنوية قدرها إلفان وخمسمائة مثقال لديوان التفتيش (١)

هل هناك شدة بعد هذه الشدة ؟ هل ترك شيء يميز المسلمين دون التنبيه على تحريمه فى قسوة ؟ ، لقد كان هذا الموقف سببا فى أن يعيش الجانبان الإسلامى والمسيحى خــلال سنتى ١٥٦٧ ، ١٥٦٨ ، ينظر كلاهما إلى الآخر ويترقب ما عسى أن تسفر عنه الأحداث ، ويتهيأ لما عسى أن يتمخض عنه المستقبل ، فالمورسكيون - كما يقول مارمول - يدعون إلى الثورة ، وتكثر اجتماعاتهم السرية فى حى البيازين مع شيء

١- أنظر فى ذلك كله : Luis del Marmol : historia de la rebelion y Castigo de los moriscos del Reino de Granada. P. 123 y ss.

B. Vincent : historia de los moriscos, P. 33 =

من المدارة ، مثل ذلك الإجتماع الذى عقدته الجمعية الموريسكية الأخوية للنهضة (١) وكانوا يرون فى المناطق الجبلية القريبة من غرناطة ملاذاً لثورة قد تفلح فى الغاء هذا القانون الهمجى أو التخفيف منه على الأقل أمّا المسيحيون القدامى فكانوا يخشون من ثورة يقوم بها الموريسكيون بمناسبة احتفالات الخميس المقدس لعام ١٥٦٨ ، ولهذا فقد ضاعفوا من تحذيراتهم واعتقالاتهم ، وجرت استعدادات وحدثت اجراءات لطرد الموريسكيين الغرناطيين واحلال سكان من الشمال فى مواطنهم ، ونشطت السلطات لتلبية طلبات عديدة بهذا الخصوص .

لقد لجأت السلطات الأسبانية لكل ما لجأت إليه منذ سقوط غرناطة مع عنف شديد وقسوة بالغة فى معظم الأحيان ، ومن رفق نسبى فى فترات محدودة ، بهدف أن تكسب هؤلاء للعقيدة الكاثوليكية و ما دروا أن العقيدة لا يمكن فرضها ، وأنك مهما بالغت فى ايذاء الناس وتعذيبهم كى يؤمنوا بما تريد ، فإن ذلك لن يفيد إلا شيئاً من الخضوع الظاهرى ، أما أن يمتلأ القلب حبًا فى العقيدة ويدخل فيها راضيا فذلك لا يكون إلا عن ثقة ويقين واقتناع كامل ، وبسبب غياب هذه الحقيقة الواضحة ، وصلت العلاقة بين المجموعتين : الإسلامية المنصرة والمسيحية إلى مستوى من التدنى لم يعد يمكن معه مناقشة كيفية ذوبان الأقلية أو صهرها فى الأكثرية المسيحية ، لقد أصبح الموريسكيون فى أيدى المسيحيين " أشبه

=P.longas : Vida relegiosa de los moriscos, P. XLV,XLVI,XLVII.

. Prescott : Philp II of Spain, V.III, P.12-29

H.Ch. lea : The history of the moriscos of spain, 150, 151,229,230, 240 y ss.

- عنان : نهاية الأندلس . . . ص ٣٦٠ .

باليمامة فى مخالب النسر " (١) وليس أمام المسئولين الآن إلا التفكير فى افناء المسلمين والقضاء عليهم فتفنى حضارتهم بفنائهم أو طردهم نهائياً من التراب الأسبانى ، وقد قدم المورسكيون الإختيار الحاسم عن طريق الثورة التى قاموا بها فى الرابع والعشرين من شهر ديسمبر سنة ١٥٦٨ والتى استمرت فترة وصلت إلى عامين قبل أن يقضى عليها بأبشع ما يتصور من قسوة ، أحداث وتطورات ونتائج هذه الثورة هو ما نحاول معالجته فى الصفحات التالية إن شاء الله ، وسيكون علينا أن نعتمد على الرواية الأوربية وحدها ، إذ تنعدم منذ الآن ذكر أحداث الأندلس فى كل الحوليات والمصادر المكتوبة باللغة العربية .

١- أنظر : Julio Caro Baroja : los moriscos del reino de Granada, P. 172.

الفصل الثانى

الثورة الغرناطية ١٥٦٨ - ١٥٧٠ م

اتضح مما سبق أن العلاقات بين الجماعتين الإسلامية والمسيحية قد وصلت إلى أقصى حالات التدنى ، وأن تعنت وعسف واضطهاد وعنف وتعصب السلطات المسيحية ضد المسلمين فى أسبانيا قد بلغ ذروته ، لقد نظروا إلى الموركسيين باعتبارهم عنصرا غريبا فى مجتمعهم الكاثوليكى ، ورأت الكنيسة أنه لن يهدأ لها بال إلا إذا قضت على هويتهم ومحت كل عناصر ثقافتهم وحضارتهم فذابوا وانصهروا فى أغلبية السكان ، وإلا فلن يكون أمامها إلا التخلص منهم . أما المسلمون المتنصرون فقد سيطر عليهم يأس مطبق وسخط عميق ، وبرغم ما تعرضوا له من جور مضن على أيدى السلطات الدينية والمدنية والعسكرية ، وأيدى قضاة محاكم التفتيش ، فإن جذوة الكرامة والعزة والإعتداد بالتراث الإسلامى ، وبما لهم من ماض ، وما عندهم من رغبة فى الذود عنه ، كانت لا تزال تضطرم فى نفوسهم فعولوا على الثورة والتعبير عن الغضب والرفض مهما كان الثمن ، وكانت قوانين أول يناير سنة ١٥٦٧هى الشرارة التي فجرت مخازن البارود فى نفوس هذه الأقلية البائسة المضطهدة .

وقد نبتتْ فكرة الثورة أولا فى غرناطة ، موطن إقامة أعيان الموركسيين ، وكانت جمهرة كبيرة منهم تحتشد فى ضاحية " البيازين "حيث كان للموركسيين مستشفى وجمعية دينية للنهضة فى غرناطة وكانوا يلتقون فى هذين المكانين لجمع الأخبار والتخطيط ، وكانت اجتماعات زعمائهم تتم فى منازل الأسر المشهورة بالحى المشار إليه ، وكان بعضهم من" البوخارا " كما كان على هؤلاء تجهيز التعليمات التي تقدم للشعب المسلم وفقاً - لما يذكره بعض المؤرخين - وكان على كل فرد أن يطمئن على ولاء نظيره ويطلب منه التكتم بعد أن يأنس الى حرصه ، وقد احتفظوا في الكهوف بكميات كبيرة من الأغذية ، وكميات كبيرة من

الأسلحة ، ومن دقيق القمح والشعير والزيت وأصناف غذائية أخرى تكفى لأكثر من ست سنوات (١) .

وكان زعيم الفكرة الذى أذكى لهيبها رجل اسمه فرج بن فرج ، وهو صباغ من أسرة " بنى السراج " - أشراف وفرسان غرناطة أيام مجد الدولة الإسلامية - وتذكر المصادر النصرانية أنه كان جرئياً يفيض حماسة وبغضاً للنصارى ، وتملؤه الرغبة فى الإنتقام منهم ، ولم يكن هناك أشجع ولا أجرأ من فرج هذا الأسود (٢) الذى كان وثيق الصلة بمواطنى البشرات كثير التردد عليهم ،وقد ولاه الزعماء قيادتهم ، واتفقوا على حشد جمع كبير يزحف بهم سراً إلى غرناطة ، ويخترق ضاحية البيازين ثم يفاجىء حامية الحمراء ويقضى عليها ، وحددوا للتنفيذ يوم الخميس المقدس من شهر ابريل سنة ١٥٦٨ انتهازاً لفرصة انشغال النصاري بطقوسهم واحتفلاتهم بهذه المناسبة ، ولكن أخبار هذا المخطط تسربت إلى السلطات الأسبانية فتنبهت للأمر وأتخذت إجراءات احتياطية وعززت حماية غرناطة وحاميات الثغور ، الشىء الذى اضطر المورسكيون ازاءه إلى تأجيل خطتهم إلى فرصة أخرى مواتية .

وكان المورسكيون يتميزون من بين العناصر السكانية الآتية التى أقامت فى مملكة غرناطة :

(١) جماعة الغزاه Los gaces وهم مسلمون مهاجرون من أفريقية ، عبيدا

١- أنظر : Julio caro Baroja: los moriscos ... P. 173'
نقلا عن : Cabrera de Cordolc, PP: 554, libro VII, Cap. XXI
وانظر كذلك :
. Parez de Hita (Gines) : guerras civiles de Granada, part II, cap. I , cuence 1619'
وما بها من مصادر
2- J.C. baroja : los moriscos ... P.89

كانوا أو مزارعين تحرروا فيما بعد ، وقد أقاموا فى الجنوب وصاهروا أهله وامتزجوا بهم بعد استرداد المسيحيين لغرناطة ، وكثير من هؤلاء كان لهم أولاد وأحفاد متزوجين سنة ١٥٦٨ وكونوا جذورا مختلفة .

(٢) المدجنون القدامى وهم كما يشير - بعض المؤرخين - السادة الذين قدموا من الشمال فى زمن الملوك المسيحيين وحملوا من بلادهم إلى غرناطة وهم مسلمون ، وخضعوا قبل استرداد هذه المدينة وكان هؤلاء يعاملون معاملة خاصة - كما يقول مارمول - لأنهم أتوا خاضعين للأمة المسيحية وقت ازدهارها ولم يضايقوها وقت حاجتها إليهم ، وقد خدموا أجداد المسيحيين فى حروبهم وفقاً للمبادىء المسيحية فى الوقت الذى كان بإمكانهم فيه خدمة المسلمين .

(٣) أبناء المسيحيين الذين ارتدوا عن دينهم أى ذرية هؤلاء الآباء الذين كانوا قد غادروا المسيحية حوالى القرنين ١٤ ، ١٥ ، وكان يوجد عدد كبير من هؤلاء وقت استرداد غرناطة وقد اتخذت ضدهم الإجراءات التى سببت تمردهم .

(٤) مجموعة Los Tagarinos أى الذين قدموا من اراجون وقشتالة وأصبحوا مسيحيين على الأقل من ناحيـة المظهـر الخارجى ، ويقال إنهم تخصصوا فى الأنشطة التجارية بالدرجة الأولى ، أما مجموعة الغزاة فقد كانوا رجال زرع وحرب قبل أى شىء آخر (١) .

ولعل من المناسب أن نشير إلى أن أديبا وزعيما من زعماء المورسكيين اسمه محمد بن محمد بن داوود كتب قصيدة فى تلك الظروف التى عاشها بنو قومه ، يتحدث فيها عن آلام المورسكيين ويطلب الغوث من الله ويستنجد بالنبى صلى الله عليه وسلم ، وقد ضبطت هذه القصيدة

١- أنظر المرجع السابق ص ٩١ . ٩٢ . ٩٣ ولمعلومات أكثر تفصيلا أنظر التعليق رقم ٥٦ فى ص ٩٣

معه فى ثغر " ادره " وأرسلت مع ترجمتها القشتالية إلى القصر الملكى ، ويستهل هذا الأديب قصيدته بحمد الله والثناء عليه والإشادة بقدرته وخضوع الناس والكائنات لحكمه ، ثم يطلب من الناس أن يستمعوا لقصة الأندلس المحزنة ، الأمة العظيمة التى أصبحت مهيضة الجناح يحيط بها الكفر من كل جانب ، وأصبح أبناؤها كالأنعام لا راعى لها ، ثم يقول : إننا نسام سوء العذاب فى كل يوم ، وليس أمامنا إلا أن نداهن إلى أن يُنْقذنا الموت من عذاب أمرّ منه وأدهى ، لقد حكّموا فينا اليهود الذين لا عهد لهم ولا ذمة ، والذين يبحثون فى كل يوم عن أكاذيب وضلالات وانتقامات جديدة ، إننا نُكره على أداء الشعائر النصرانية وعبادة الصور ، مما يعُد مسخاً للواحد القهار ، ولا يجرؤ أحد على التذمر أو الكلام ، وإذا ما قرع الناقوس القى القسيس موعظته بصوت أجش ، يشيد بالنبيذ ولحم الخنزير ، ثم تنحنى الجماعة أمام الأوثان دون ما حياء أو خجل . . . ومَنْ عَبَدَ اللهَ بِلُغَتِه قُضى عليه بالموت ، ومن ضُبط القى به فى السجن وعذب ليل نهار حتى يستكين لباطلهم .

بعد ذلك يقدم وصفاً لوسائل الإرهاق والتضييق على المسلمين من التسجيل إلى التفتيش إلى غير ذلك ، ويتحدث عن فداحة الضرائب المفروضة عليهم ، وكيف أنه يتم تحصيلها على الأحياء والأموات والصغار والكبار والأغنياء والفقراء ، وكيف يرهقهم القضاة الظلمة ولا يفلت من ظلمهم كائن ، وكيف يلقى بهم فى غياهيب السجن فيعتقلون ويعذبون ويرغمون على التنصير ، وكيف يهشم الغدو أوصالهم . ثم يحمل أشلاءهم إلى الميدان لتحرق أمام الجمع الحاشد ، وكيف تتكدس المظالم على رءوسهم تكديساً ، ويسومهم أصاغر النصارى الخسف ، وكل منهم يتفنن فى ضروب الأضطهاد ، ثم يتحدث عن القانون الجديد السابق الإشارة إليه

فيقول :

لقد علقوا يوم العيد (عيد سقوط غرناطة) فى ميدان باب البنود قانوناً جديداً ، وأخذوا يفاجؤون الناس أثناء نومهم ويفتحون الأبواب ، يهدفون إلى تجريدنا من ثيابنا وقديم عاداتنا ويمزقون ملابسنا ويحطمون حماماتنا ، ونحن إذا يئسنا من عدل الإنسان ، فإننا نستغيث بالنبى صلى الله عليه وسلم أملين ثواب الآخرة ، وقد حثنا مشايخنا على الصلاة والصوم وأن نقصد وجه الله ، فمنه رحمتنا آخر الأمر (١) .

وقد عثر مع ابن داوود أيضا على خطاب موجه من أحد زعماء البيازين إلى رؤساء المغرب وإلى اخوانهم فى الدين ، فحمل إلى حاكم غرناطة قبل الثورة بقليل ونقله من العربية المترجم " كاستيو " وهو واحد من كتب كثيرة ، وجهت خفية إلى أمراء الثغور المغربية طلباً للغوث والنجدة ، ويناشد كاتب الكتاب المذكور إخوانه فى المغرب ويستخلفهم النجدة بحق روابط الدين والدم ويصف ما يفعله النصارى بهم " من ارغامهم على ترك اللغة ، وتركها فَقْد للشريعة ، وكشف الوجوه الحيية المحتشمة ، وفتح الأبواب ، وما أنزل بهم من محن السجن والأسر ونهب الأملاك ، ويطلب منهم أن يبلغوا استغاثاتهم إلى سلطان المشرق ، قاهر أعدائه ثم يقول :" لقد غمرتنا الهموم وأعداؤنا يحيطون بنا إحاطة النار المهلكة ، إن مصائبنا لأعظم من أن تحتمل ، ولقد كتبنا إليكم فى ليال

١- نشر "مارمول " القصيدة كاملة مترجمة الى اللغة القشتالية " (الأسبانية) ولخصها الأستاذ محمد عبدالله عنان ، وعلى نصه اعتمدت هنا ، أنظر :

Marmol (Carvajal, luis de) : Historia de la rebelion y castigo de los moriscos del reino de Granada, libro III, cap. IX
P. 217' - '219

وأيضـــا :

- عنان : نهاية الأ‍ ‍ ص ٣٦٣ .

تفيض بالعذاب والدمع ، وفى قلوبنا قبس من الأمل ، إذا كانت ثمة بقية من الأمل فى أعماق الروح المعذب " (١)

لكنّ الحكومات المغربية التى وجه إليها هذا النداء كانت فى شغل عن الموريسكيين ، بما تعانية من تمزقات داخلية ، ولذلك لم يُلَب هذا النداء إلا مجموعة من المتطوعين ، عبرت سرا إلى اخوانهم فى البشّرات ، وكانوا من البحارة المجاهدين الذين طالما كانوا حرباً على الثغور والسفن المغربية فى ذلك العصر .

وعلي الرغم من كل ذلك ، فقد واصل الموريسكيون استعداداتهم ، انتظاراً ليوم الثورة الذى يتحينون فرصته ، وأرسل فرج بن فرج وزملاؤه رسائل إلى مختلف الأنحاء يدعون فيها إلى التأهب وإبلاغ كل الإخوان .

وخلال شهر ديسمبر سنة ١٥٦٨ جرى حادث كان نذيراً بالإنفجار ، فقد اعتدى بعض الموريسكيين على نفرٍ من القضاة والمأمورين الأسبان ، كانوا فى طريقهم إلى غرناطة ، ووثبت جماعة منهم بمجموعة من الجنود كانت تحمل كمية كبيرة من البنادق وقضت عليها . أما ابن فرج فقد سار على رأس مائتين من اتباعه واخترق المدينة ليلا ، وحاول تحريض المواطنين فى حى البيازين " على نصرته ، لكن هؤلاء أبوا ، لأنهم يقيمون بالقرب من الحامية النصرانية ولهم - بالإضافة إلى ذلك - مصالح عظيمة ، وكانوا يخشون انتقام السلطات أو الشعب النصرانى منهم إذا أيدوا الثورة

١- أشار "خوليو كارو باروخا " فى كتابه " الموريسكيون فى مملكة غرناطة " الى هذه الرسالة ملمحا الى المصادر العديدة التى وجدت بها ، وأورد "مارمول " ترجمة قشتالية لها فى كتابه المشار اليه آنفا ،

أنظر : Marmol : Ibid, libero III, cap. IX, P. 219- '223

والتعليق رقم ١٠٣ من نفس الصفحة J. Caro Baroja: Ibid, P.172

- عنان : المرجع السابق ص ٣٦٤

علانية ، ولذلك اكتفوا بتأييدها بالعطف والنصح والمال ، إزاء ذلك اضطر ابن فرج إلى العودة حيث اجتاز شُعب جبل شلّير (سيِرا نفادا) إلى الهضاب الجنوبية ، فى المنطقة بين " بلسن والمرية " ، ولم تمض أيام حتى عمّ لهيب الثورة فى كل القرى والمواقع المورسكية بأنحاء البشّرات ، والتفت الجموع حول ابن فرج وفتك المسلمون ببعض النصارى المقيمون معهم ، وارتفع لهيب الثورة فى كل أرجاء الأندلس وأعلن المورسكيون استقلالهم واستعدوا لخوض معركة مصيرية فإما حياة كريمة أو الموت أعزاء وبدأ الزعماء يفكرون فى اختيار رجل يلتفون حوله يكون رمزاً لملكهم القديم ، فاجتمعوا فى منازل مختلفة فى ليال مختلفة متتالية وكان أبرز المجتمعتين ، وفقاً لكابريرا دي قرطبة ، ابن فرج ودياجو لويث ابن أبيه وميجيل دى روساس وآخرون من " البوخارا " ، وفى الليلة السابقة على أعياد الميلاد - يوم سان ميجيل سنة ١٥٦٨ - اعترف قادة الثائرين ، المجتمعين فى قرية بزنار " وادى لكْرن " برجل اسمه (ايرناندو ذى قرطبة وبالور " - من سلالة عبد الرحمن الأول - ملكا عليهم ، فهو إذن سليل الخلفاء من بنى أمية الذين ازدهرت فى أيامهم حضارة الإسلام بالأندلس ، وقد روت زوجته كيف نصبوه ملكا عليهم محاولين إحياء الشعائر القديمة ، وتذكر أن أغنياء المسلمين ذهبوا إلى مكان الحفل متشحين بالسواد ظاهرين بمظهر حسن ، وقد استقبلوا استقبالاً حسناً ، وقد اصطف الأرامل فى جانب من مكان الإحتفال وغير المتزوجين فى جانب واصطف المتزوجون فى جانب آخر ، واحتلت النسوة ربع الدائرة (١) ، وفرشت على الأرض أعلام إسلامية رسمت عليها أهلّة ، وقد صلى عليها محمد بن أمية صاحب الأندلس

أنظر : Julio Caro Baroja : los moriscos .. P.119

نقلا عن : Hurtado de Mendoza (Diego) : guerra de Granada, P.25, 26'.

وغرناطة ، وسيعرف بذلك منذ الآن ، واتجه فى صلاته نحو الكعبة ، وقبلّ أحد أتباعه الأرض رمزاً للطاعة والخضوع ، وأقسم هو أن يموت فى سبيل دينه وأمته ، وبعد إنتهاء مراسيم الإحتفال ظهرت مجموعة من الأسرة ، وأخذت توزع الحلوى والكعك بأنواعه مع بعض الأشياء الأخري . وكان هذا الملك يعمل مستشارا فى بلدية غرناطة قبل أن ينضم للثوار كما كان من ذوى المال والوجاهة ، وقد اختار عمه فرناندو الزغوير (الصغير) ليكون قائداً لجيشه وسمى باسم إسلامي هو ابن جوهر ، وإليه يرجع فضل اختيار ابن أمية للخلافة . أما ابن فرج فقد اختير كبيراً للوزراء ، ثم بعث به مع بعض قواته إلى جبال البشرات لجمع ما يستطيع من أموال الكنائس ، واتخذ له مواقع منيعة فى أعماق الجبال وأرسل رسلا إلى كافة البلاد يدعون المورسكيين إلى خلع طاعة النصارى والعودة إلى اعتناق الدين الإسلامى (١) .

وقد قوبل اختيار ابن أمية بشيء من عدم الإقتناع من جانب فرج بن فرج رغم تعينه فى منصب الوزير الأعظم ومنفذ المهام الأولى ، وعلى كل حال فقد توجه الثائرون إلى ناحية البيازين بغرناطة ، لكنهم مالبثوا أن ارتدوا خائبين - كما سبقت الإشارة - لأن الترحيب بهم لم يكن بالمستوى اللائق ، وقد غادر ابن فرج الحى يتبعه بضع مئآت من الموالى المخلصين (٢) . يروى بعض المؤرخين أنهم عندما مروا بالشوارع العامرة بالمورسكيين فى هدأة الليل ، صادفوا عجوزا مسلما صعد إلى أعلى مكان وأخذ ينشد بالعربية :"لقد جئت متأخرا يازيد،أحضرت قليلين وجئت متأخرا" ويروى " مارمول " شيئا مشابها ، بينما يقول " اورتادو دى مندوثا" أن

١- أنظر : B. Vincent: Historio de los morisco .. P. 35'
وأيضا : J. Caro learoja : Los moriscos, P.173 - 180'
عنان : نهاية الأندلس ص ٣٦٥ ، ٣٦٦ .

2- B. Vincent : Historia de los moriscos ... P. 35'

العجوز سأل عن عددهم فقيل له ستة آلاف فأجاب إن هذا قليل وإنهم جاءوا متعجلين . إن رفض المورسكيين بالبيازين الإنضمام إلى الثورة أعطاها طابعا يختلف عما ستكون عليه الأحوال لو انضم إليها عشرة آلاف مواطن ، ويرهن على ضعف روح الثورة عند مواطنى المدينة وقوة البأس والإيمان بالفكرة عند سكان المناطق الجبلية . لقد كان أقوى المورسكيين فى منطقة " البوخارا " هم سكان " لاطايا دي خوبيلس " التى شهدت ميلاد الثورة ، وقد ثار فى نفس الوقت تقريبا سكان وادى " لثرين " وبعض الأراضى فى منطقة " دي المونيكار " وأراضى " دي جواديس " وماركيزية " خينيتى " ونهـر آلمرية ، وتأخرت كثيرا المناطق الجبلية فى " روندا " وفى " بنتو ميز " والأماكن التابعة لـ " أوخر كياس اويـا" في مالقــة ، ومنخفضـات " باتيه " و " أويسكر " ونهر المنصورة ومناطق جبال " لوس فيلابريس "، وهذا يعنى أن الثورة بدأت فى بؤرة جبلية مركزية ومنها انتشرت إلى الأطراف الأخرى (١) .

وهكذا ثارت فى اليوم الأول قرى عديدة فى " تاياس دى أورجيفا " "و بوكيرا " و " خويلس " وبعدها ثارت معظم قرى المسلمين المنصرين فى " البوخارا " وكان مسرح العمليات يتسع بصورة مستمرة ، وما بدا فى الأمر نزاعاً ليست له أهمية تذكر ، تحول إلى شغل شاغل للملك " فيليب الثانى " لدرجة أنه تقرر دعوة برلمان قشتالة فى مدينة قرطبة ليكون قريبا من مسرح العمليات العسكرية ، وهذا الإجتماع تم فى دسيمبر سنة ١٥٦٩ ، وفى الأيام الأولى من سنة ١٥٦٩ تميزت الثورة بملمحين أساسيين هما الطابع الدينى وهو الرئيسى ثم طابع الرغبة فى احياء كل مظاهر الثقافة

1-Julio Caro baroja: los moriscos ... P. 175' - 177'

الإسلامية ، وهناك اربع مظاهر تعكس الطابع الأول هى :-

أ- قتل وتعذيب المسيحيين الذين تحولوا عن الإسلام إلى المسيحية .

ب- تحطيم وتخريب الأماكن المقدسة ودور العبادة .

ج- اهانة وتحطيم الصور والتماثيل المرتبطة بنفس العبادة المسيحية .

د- السخرية والإستهزاء من طقوس وعقائد الكاثوليكيين .

وهناك رواية قديمة جدا محفوظة فى المكتبة الوطنية بمدريد (١) تقول إنه قتل خلال الثورة ٤٩ كاهنا وثلاثة عشر راهبا فى منطقة البوخارا ووادى لكرين ، ويجب أن نضيف إلى هؤلاء كثيرين من الرجال والنساء والأطفال ، ويقدم واحد من المؤرخين المحدثين (٢) إسماء القتلى ويقول لقد كانوا ستة وثمانين راهبا وكاهنا ، ومائة وأحد عشر مسيحياً بخلاف الكثير من المجهولين الذين يمكن أن يصل عددهم إلى ٥٠ من الأطفال وعدد من النساء بينهم أربع موريسكيات ، وكان الموريسكيون يسخرون من القساوسة والرهبان ويذكّرونهم بسوء المعاملة والقسوة التى طالما عانى منها المسلمون المتنصرون ممن لم يحضر القداس ، وبالعقوبات التى كانت تفرض عليهم والإهانات التي كثيرا ما وجهوها للنساء بسبب تغطية وجوههن أو بسبب

1-Memoria de los curas y beneficiados y an amartirizado los moros levantados de Gra-
. nade en los alpujarras y val de lecin, folios 110r - 112 v del MS - '6074

2- Elpadre Hitos Francisco A : Martires de la Alpujarra en la rebelion de los moriscos 1568, PP. 227 - 231, Madrid '1935.

وانظر فى المرضعين السابقين :

. J.C. Barojo : los moriscos ... P. 177 - '178

احترامهن للتقاليد الإسلامية ، وكان الثائرون يحاولون إعادة الناس إلى الإسلام ، فإذا رفضوا بدأ تعذيبهم ، وكانت جماعة المنفيين وفرج بن فرج من أشد الناس تعصبا وتعذيبا ، أما ابن أمية وزاجير فكانا أكثر اعتدالا وكانت أماكن العبادة تحرق وتنهب بصورة مستمرة ، كما قام المورسكيون بالإستيلاء على منازل القساوسة وعلى الخزائن المقدسة فى الكنائس وعلى ممتلكات المسيحيين ، وقد أسهمت النساء فى هذه العمليات ، فكن يمزقن الصور ويضربن عنقها ويفقـأن عيونها ويحرقنها . يذكر الأب " هيتوس" بعض هذه الأعمال نقلاً عن سجلات الأسقف " اسكولاند " فيقول : لقد جلد المورسكيون صورة للمسيح داخل كنيسته وبعد ذلك مزقوها بطعنات صوبنها إليها ، ومزقوا صورة للعذراء على درجات المذبح وهم يرددون استهزاء " اعتن بها ، لا تلحق بها ضررا " وكانت هناك فى " باياركال " صورة أخرى للعذراء ، اعتدوا عليها بصورة أكثر شراسة ، إن هذا تعبير عن رفض لمجتمع يؤمن بهؤلاء العذروات. . . لقد ذهبوا إلى الكنائس فى كل مكان وحطموا اللوحات والصور ومزقوها وأحرقوها ، وأتو على أحواض التعميد والمناطق المقدسة مرتدين ثياب القسس الكهنوتية استهزاء وسخرية منهم ، وهذا البغض للطقوس المسيحية وكل ما هو مسيحى ، والذى يعتبر ردً فعل لما حدث للمسلمين بصورة لا تحتمل الشك ، تجده معبرا عنه أيضا فى رسالة ابن داود التى وجهها لحكام المغرب يطلب فيها نجدتهم .

وعلى العكس من ذلك نجد مظاهر إحياء الحضارة الإسلامية متمثلة فى إحياء رسالة المسجد وإقامة الشعائر الإسلامية بكل فخر واعتزاز فى منطقة " أوجيخر " خاصة ، وكذلك العودة إلى استخدام الزى القديم ،

والوعي بالعادات والآداب القديمة . وقد رأينا أنه عند تنصيب ابن أمية ملكا اتبعت التقاليد القديمة التي كانت تتبع عند تنصيب ملوك الأندلس وغـــرناطـة ، حيث كانوا يرتدون ملابس باللون الأرجواني ، وتوجد أعلام تحت أرجلهم يجلونها ويحترمونها ، واستخدموا كل الإشارات والألقاب التي استعملت فى أزمنة سابقة .

وقد عينوا للملك الجديد ثلاثة من المستشارين بينهم واحد من كبار المحرضين على الثورة هو مارتين الجواثيل (الوزير) ، وكان هو الآخر من أصل نبيل ، فشرّفوه بإركابه بغلة بيضاء مزخرفة ومكفتة بالذهب والحرير وقبّلوا يده وملابسه .

كذلك قاموا بعمل مسابقات عامة ورياضية وفقاً للأسلوب القديم ، اشترك فيها أبرز الفرسان ، ويمكن أن نأخذ مثلا للأعياد الموريسكية فى ذلك الأحتفال الذى قام به ابن أمية فى " بورشيتا " وقـــد وصفــــه بدقة " بيريث دى هيتا ".

وقد كانت هناك مسابقات فى العدو والقفز ورفع الأثقال ورقص مشترك بين رجال ونساء ورقص للنساء وحدهن مع عزف وغناء بالعربية والرومانسية ومسابقات فى استخدام المقاليع والأقواس وبنادق الصيد ، وكان التنافس شديداً بين المسلمين الأسبان والمسلمين الأتراك فى هذه المسابقات (١) .

١- أنظـر : Perez de hita : parte 11, cap. XIV, PP. 629' - '638

نقلاً عن :

. J.C. Baroja: los moriscos .. PP. 177 - '180

وقد اعترفت الرواية المسيحية بأن ما قام به المسيحيون وخاصة رجال الدين من معاملة سيئة للموركسيين ، كان أحد الأسباب الرئيسية للثورة ، فقد أرسل " ارناندو دى مندوثا " رسالة للكاردنيـــال " اسبيونيسا " يذكر فيها ما لم يذكره فى تاريخه ، فيتكلم عن قسوة رجال الدين المسيحيين ضد المسلمين ، وهوالشيء الذى سبب ذلك الفوران ومحاصرة " البيازين " بصورة لا يمكن إيقافها ، فدور رجال الأكليروس من طبقة رجال الدين الدنيا ومن الرهبان فى عمل هذا الهيجان أمر مقطوع به (١) .

وهناك أوامر صدرت للقساوسة والكهان ، تشعرك بنوع المعاملة التى كان يتلقاها المسلمون المنصرون على أيدى هؤلاء ، لقد طلب منهم ألا يأخذوا أكثر من حقوقهم فى مراسيم الزواج وألا يتلقوا خرافاً أو دجاجاً أو قطعاً من اللحم . . . وألا يفرضوا ضرائب جديدة على الرعايا وخاصة الموركسيين ، فلا يأخذوا منهم خبزا ولا خمرا ولا عنبا ولا صيدا ولا ورق شجرة التوت وعليهم ألا يكلفوهم بالعمل فى أيام الأعياد ولا فى الأيام العادية لمنافع خاصة ، ولا يستخدمون معهم كلمات سيئة فينادونهم بـ "الكلاب المسلمين " ولا يرتكبون ضدهم أى غش أو ضرر . . . (٢) .

ولعل هذا يؤكد أن ما قام به هؤلاء فى تعاملهم مع المسلمين كان سببا فى أن نقمة الموركسيين انصبت بالدرجة الأولى على القسس وموظفى الحكومة بالدرجة الأولى ، وكانت كلتا الجماعتين تتربص بالأخرى ، وكان الموركسيون يخشون انتقام السلطات المسيحية منهم بسبب ما فعلوه بمواطنيهم ، بينما يخشى النصارى أن يزحف الجيش الموركسى علي غرناطة

1- Julio Caro Baroja: los moriscos ... P. 182'

٢- المرجع السابق ص ١٧١ .

فتسقط المدينة فى أيدهم وينكلون بهم ، ومع ذلك فقد انصف مؤرخو الفترة محمد بن أمية وقالوا إنه لم يحرض على هذه المذابح ولم يوافق عليها بل حاول دون وقوعها ، وقد عزل ابن فرج عن القيادة العامة لهذا السبب ، وقد تقبل الرجل هذا العزل برضى وانضم لصفوف الثائرين ولم نعد نسمع اسمه منذ ذلك الحين (١) .

تلك هى ملامح الصورة فى الجانب الإسلامى عند بدء الثورة ، فماذا عن رد الفعل لدى الجانب المسيحى ؟

لقد كان يحكم غرناطة " الماركيز دي مونديخر " وقد بدأ استعداداته لقمع الثورة منذ اللحظات الأولى ، لكنه لم يستطع أن يقدّر حجمها الحقيقى ، وقد غصت غرناطة بالجنود ، ووضع سكان حى البيازين من الموريسكيين تحت الرقابة ، رغم تأكيدهم أنهم لا علاقة لهم بالثائرين ، وعلى كل حال ، خرج " دى مونديخر " بقواته فى ٢ يناير سنة ١٥٦٩ وعبر جبل " شلير " أى " سييرا نفادا " وسار إلى أعماق البشرات حيث التقى بالثائرين ، وكانت الثورة فى هذه الآونة قد اتسعت وشملت كل النواحى الشرقية والجنوبية من البشرات . واشتد أوارها فى أجيجر وبرجه وأدره وأندرش ودلاية ولوشار ومرشانه وشلويانية وغيرها من القرى والدساكر التى قضى الثوار على ما كان بها من حاميات ، بل إن الثورة سرت إلى اطراف مملكة غرناطة القديمة فى قرى وادى المنصورة ، ولم يتخلف عن الإشتراك فيها إلا رنده ومريله ومالقة ، فقد كانت حاميتها

1- H. Ch. lea : the history of the moriscos ... PP. 236'
Prescot : Philp II, V.III, ch. II

وأيضا : عنان : نهاية الأندلس ص ٣٦٦ .

الأسبانية قديمة ، كذلك نشبت الثورة فى معظم أنحاء المرية ، وهكذا ارتجت معظم نواحى الأندلس ، وبصفة خـاصة "بسـطة ووادى آش والمرية" (١) .

وكان محمد بن أمية يتحصن بقواته فى الممرات الجبلية الوعرة، وقد تمكنت قواته من حرب الجبال ومفاجآتها ، وما كادت القوات الأسبانية تقترب منهم حتى انقضوا عليها ، ونشبت معركة قاسية اضطر المورسكيون بعدها إلى التراجع إلى سهول " بطرنة " وتخلف الكثيرون منهم ، ففتك المسيحيون بهؤلاء دون ما تيميز أو رحمة ، ثم حاول الماركيز " دى مونديخار " بعد ذلك أن يتفاهم مع الثائرين على أن يعودوا للهدوء ، وبعث إليهم بعض بنى جنسهم من المسالمين ، وكتب واحد من أبناء الأسر الغرناطية القديمة إلى ابن أمية يعاتبة وينصحه بالتماس العفو حتى لا يعرض شعبه للخطر ، وكان ابن أمية نفسه يميل للصلح فى هذه المرحلة ، وتبادل بالفعـل بعـض الرسائـل مـع " الماركيز دى مونديخر " حول هذا المعنى ، لكن أنصاره خاصة المتطوعون والمغاربة رفضوا الصلح ، فاشتعلت المعارك مرة أخرى ، وتعرض المورسكيون لهزيمة جديدة ، وفرّ ابن آمية نفسه حيث اختفى فى منزل قريب وطاردته السلطات الأسبانية دون جدوى أما أمه وزوجته وإخوانه فقد وقعوا جميعا فى الأسر ، ومع كل هذا فقد تعرض المسيحيون لهزيمة شنيعة فى آكام " جواخاريس " ، وقتل ١٥٠ من قوادهم ، ومع ذلك فقد آثر المورسكيون الإرتداد فتعرض من تخلف للقتل بل للتمثيل الشنيع (٢)

1- Marmol : Ibid, libro IV, Cap. XXXV y XXXVI, PP. 363, y ss

وكذلك عنان نفس المرجع ص ٣٦٧ .

٢- يذكر : " برنارد بنثنت " ثلاثة نماذج من معاملة المسيحيين السيئة بل الوحشية للمسلمين أنظر :
Historia de los mariscos ... P. 37'.

ومع ذلك فإن هذه الهزائم لم تنل من عزم المسلمين الذين تجمعوا من جديد بأعداد هائلة فى شرقى البشرات وأخذوا يهددون المرية ، فسار إليهم الماركيز " لوس فيليس " على رأس جيش آخر ووقعت معارك شديدة راح ضحيتها قتلى كثيرون ، وفتك الأسبان بالأسرى ولم يرحموا حتى النساء والأطفال .

ووقعت فى غرناطة نفسها حادثة أليمة ، فقد كان فى سجنها ١٥٠ من أعيان الموركسيين كان قد تم اعتقالهم رهينة عند الجانب الأسبانى ، وقد أذاع الأسبان أن الثائرين سيهجمون على غرناطة لانقاذ هؤلاء السجناء بدعم من مواطنى " البيازين " ، فصدر أمر بإعدام المعتقلين الموركسيين ، فانقض عليهم الجنود وذبحوهم ذبحا ، وسفكوا دماءهم بشكل مفزع مروع . وقد ساعد هذا الحادث على إذكاء نيران الثورة فى نفوس المسلمين وامتلأوا غيظا وحنقا، وتأكد لديهم أن الموت فى ساحة القتال خير من ذبحهم كما تذبح النعاج ، فهاجموا الحاميات الموزعة فى مختلف انحاء البشرات ، وأعملوا فيها سيوفهم قتلاً وتمزيقاً ، وهزموا فرقة أسبانية تعرضت لهم ، وامتلأت بجموعهم السهول والهضاب ، وظهر محمد بن أمية من جديد ، والتف الموركسيون حوله أضعاف ما كانوا وأقوى مما كانوا ، وبعث الملك الجديد أخاه عبد الله برسالة إلى السلطان العثمانى فى القسطنطينية يطلب عونه ، وبعث برسالة أخرى إلى أمير الجزائر وبثالثة إلى سلطان مراكش يطلب المدد والنجدة ، ولكن رد الفعل لم يكن مشجعا ، فلم يلب سلاطين القسطنطينية طلبات الموركسيين المتجددة للنجدة منذ سقطت غرناطة ، واعتذر أمير الجزائر عن عدم ارسال السفن واكتفى بالتشجيع والحث على الثبات ، أما سلطان مراكش فقد وعد بتقديم المعونة ، ولكن يبدو أن الظروف حالت دون الوفاء بما وعد ، واستجاب

لنداء الموريسكيين مجموعة من المجاهدين الأفارقة ، وعبرت جموع جريئة منهم العدوة إلى الشواطىء الأسبانية ، كما جازها إليهم فرقة من الأتراك المتطوعين ، أسرعوا لنجدة إخوانهم المنكوبين .

وهكذا احتدم الموقف وعاد الصراع أشد ما يكون من جديد ، وخشيت السلطات الأسبانية تجمع الموريسكيين فى ضاحية غرناطة والبيازين فأصدرت قرارها بتهجيرهم إلى النواحى الشمالية ، وتعرض هؤلاء لمأساة جديدة حيث افترق المرء عن أبيه والزوج عن زوجته ، وفى نفس الوقت طلب من الماركيز " لوس فيلبس " أن يذهب على رأس قواته لمقاتلة الموريسكيين فى سهول المنصورة - بالقـــرب من أراضى مرسية - ونشبت بينه وبينهم معارك حامية ، ونقصت لديه المؤن والمعدات فلم يتمكن من متابعة القتال . وكانت هناك خصومة ومنافسة بين هذا القائد وبين نظيره " الماركيز دى مونديخار " ، وكان ذلك سببا فى اضطراب الخطط المشتركة ، وأتهم الأخير بالعطف على الموريسكيين ، فاستدعى إلى العاصمة حيث أقيل من قيادة القوات المسيحية .

وبينما كانت الأحداث تجرى بهذه الصورة ، وتنتشر الفوضى والدماء فى كل الهضاب والسهول الأندلسية ، إذا بحادث خطير يقع فى الجانب الموريسكى هو مصرع محمد بن أمية نتيجة للتآمر والخيانة ، وكان هذا الملك يتمتع برقة الشمائل لكن مع صرامة ، فسبب هذا حقد بعض رجاله عليه ، وكانت الضغائن والأحقاء توجد بين الزعماء : المسلمين و المسيحيين على السواء ، ومن قبل تعرض فرج بن فرج لمحاولة اغتـــيال قـــام بها زميل له (١) .

1- B. Vincent: Historia de los moriscos ... P. 38'

لكن ما الدافع وراء اغتيال الخليفة الجديد ؟ يقال أنه كان يوجد فى معسكره أحد القادة واسمه الجوازيل (الوزير) ، وكانت له عشيقة حسناء اسمها زهرة ، انتزعها الملك منه قسرا ، فعمل على التخلص منه بمعاونة خليلته ، ولذلك كتب على لسان الملك رسالة مُزورة موجهة إلى القائد العام يحرضه فيها على التخلص من جماعة الأتراك الموجودين فى معسكر المسلمين ، وقد علم الأتراك بأمر هذه الرسالة ، فاقتحموا معسكر الخليفة وختقوه فى " لاوخارا " ولم يصغوا لما أكده هو من براءته ، حدث ذلك فى ليلةً ما نحو ٢٠ أكتوبر سنة ١٥٦٩ ويقال أنه أعلن مسيحيته وحاول أن ينتقم لما لحقه من ذل بسبب ثورته وهذا يعنى أن الذى كان يحركه هو التضامن العصبى وليس الدينى (١) .

وقد اختار الزعماء ملكاً جديدا للأندلس هو " ابن عبو " وهو ابن عم القتيل الذى اشترك فى التآمر عليه (٢) واسمه " ديجو لوبيث " ولقب بمولاى عبد الله ، وقد أجريت له نفس مظاهر الإحتفال البسيطة التي أجريت من قبل لإبن أمية وقد إهتم الملك الجديد بتنظيم الجيش وزوده بالسلاح اللازم والذخيرة من المغرب ، ونجح فى أن يجمع حوله قوات مدربة بلغ تعدادها عشرة آلاف مقاتل من المجاهدين من داخل وخارج البلاد ، ونال احترام الجميع بما تمتع به من روية وتدبر .

وفى أواخر أكتوبر سنة ١٥٦٩ سار مولاى عبد الله بقواته تجاه "أرجبة " - مفتاح غرناطة - واستولى عِليها بعد حصارٍ قصير ، فذاعت شهرته ، وأعلن الموركسيون فى شرقى البشرات دخولهم فى طاعته وامتدت سلطته فى اتجاه الجنوب إلى بسائط رنده ومالقه ، وكثرت غارات

1- J.C. Barojo : los moriscos ... P. 198'

٢- انظر نفس المرجع السابق .

المسلمين المنصرين على فحص غرناطة ، وكانت قبل سقوطها ميدانا لمعارك حاسمة بين المسلمين النصارى ، وحقق المورسكيون بعض النجاح فى الفترة من أواخر أكتوبر إلى ديسمبر سنة ١٥٦٩ .

ورأى الملك الأسبانى فيليب الثانى أن الثورة المورسكية قد استفحل خطرها ، وأن القادة المحليين قد عجزوا عن قمعها ،فعين أخاه "دون خوان " قائداً عاماً لولاية غرناطة ، وقرر هذا بدوره - وبسبب خطورة الثورة المورسكية - أن يخرج بنفسه لمحاربتها ، وبعد فترة لم نكن نسمع خلالها إلا كلمات الفشل والفوز والكر والفر ، وجدنا "دون خوان" يخرج على رأس جيش جديد فى ٢٩ ديسمبر سنة ١٥٦٩ متجها نحو وادى آش ، وحاصر بلدة " جاليرا " - أمنع المواقع المورسكية - فقد كان يتحصن بها ثلاثة آلاف مورسكى بينهم فرقة تركية ، وقد هاجمتها القوات الأسبانية بشدة عدة مرات ، وصوبت إليها نيران مدافعها ، وأبدى الشعب المورسكى ، رجالا ونساء ، بسالة فائقة وبطولات ، ولكن البلدة سقطت آخر الأمر بعد أن قتل عدد كبير من الجند والقادة المسيحيين ، وقد انتقم الجيش الأسبانى من سكان تلك البلدة ، وارتكبوا ضدهم مذبحة مريعة قتل فيها الكثيرون حتى النساء والأطفال ، وكان ذلك فى فبراير سنة ١٥٧٠ ، وحدثت مراسلات بين الملك وأخيه القائد دون خوان ، تعكس تسلط الملك ، وقلق واستياء القائد ، وعلى كل حال ، فقد كان سقوط قلعة " جاليرا " معّجلا بسقوط القلاع الأخرى المجاورة ، فقد توغل دون خوان فى شعب الجبال إلى " سيرون " بالقرب من بسطة ، حيث كانت توجد قوة من المورسكيين تصل إلي عدة آلاف بقيادة زعيم اسمه " الحبقى " ، وقد فاجأت هذه القوة المسلمة الجند الأسبانى فى " سيرون " وأوقعت الخلل والرعب بين صفوفه وقتلت عدداً كبيراً منهم ، ولكن " دون خوان " لمّ شمل جيشه بصعوبة ،

واستطاع مطاردة المورسكيين وواصل سيره حتى انتهى إلى " اندرش " فى مايو سنة ١٥٧٠ .

وإذا نظرت إلى تكتيك الثوار منذ البداية ، يتضح أنه كان بدائيا ، وإذا كان جنود " دى مونديخر " ثم " خوان دى استوريا " لم ينتهوا فى الحال معهم ، فإن ذلك لا يعزى لنقص القيادة بقدر ما يعزى إلى وعورة الأرض الجبلية فى سلسلة جبال " سييرا مورينا " ، وإلى عوامل أخرى . إن المورسكيين ، ما أن قاموا بأعمالهم المعادية للمسيحيين فى اللحظات الأولى ، حتى غادروا العديد من القرى وذهبوا مع نسائهم وأولادهم ومواشيهم وثرواتهم إلى سلاسل الجبال وتحصنوا فيها وكانت جبال " لاس بنْيتوس " مشهورة بموقعها الإستراتيجى ،وكذلك سلسلة جبال "جوا خارس " الواقعة حول "جروخر الأعلى" ، حيث كان يتمركز ماركوس الزامر (الوزير) بأكثر من ألف محارب ، كذلك كان جبل " فريخليانا " - وهو من سلسلة جبال " بنتو ميث "-ملجأ المسلمين ، ونذكر أيضا جبل " أيناكس " والربوة المستديرة "رستابال" وحصن " اربوتا " فى سلسلة جبال " رندا " وكان المسلمون يخرجون من القلاع والجبال لتوجيه ضربات ثم يهربون من المجموعات المعادية محتمين بظهور هذه القلاع والجبال ، وكانوا يطبقون حرب العصابات ويتجنبون إقامة معركة فى أرض مكشوفة ، إن وصف بعض المؤرخين لتكتيكهم يجعلنا نفكر فى الأنظمة التقليدية يعني أسلوب الغارة أو الهجوم المفاجىء بمجموعات صغيرة فرساناً أو رجّالة وكذلك نصب الكمائن ، وكانوا يعلنون عن هجماتهم من خلال الصياح وكذلك من خلال ضوضاء الطبل والناى ، وكانوا يستخدمون أسلحة قديمة مثل البنادق القديمة والسيف والمنجنيق والمقلاع ، وقد أشتهر الثائرون فى "آلمرية" باستخدام المقاليع.ولإنذار المحاربين استخدمت المداخن نهارا ، واستخدم

رفع النيران على الأماكن العالية ليلا . وقد حاول ابن أمية تقليد النظام العسكرى المسيحى فى لحظة معينة بسبب تواضع نتائج الحرب ، يعنى أنه قسم قواته إلى فصائل كل فصيلة تتكون من عشرة جنود ، وكل مجموعة من الفصائل تكون كتيبة لها قائد ، وكل مجموعة من القواد تتبع قائداً أعلى ، وكل أقليم أو Taa له حاكمه أو عمدته ، ومع ذلك فلم تعط هذه المحاولة الثمار المرجوة . يقول " اورتادو دى مندوثا " لقد كثر الأعداء بعد خمسة أشهر من بدء الحرب يعنى فى مايو سنة ١٥٦٩ ، فقد وصل عدد الجند المعادى فى تقديره إلى سبعة آلاف ، لكن بدون سلاح و بدون استعداد أو عقول أو ذخائر ، ولابد أن نضيف " الإنسان " إلى هذا كله ، ذلك أن الذى يعتبر حافزاً للإنسان ، هو واحد من الأهداف المباشرة للحرب ومن حسن الحظ أن المسلمين انجزوا :

أ- قطع الأشجار فى الحقول وتحريق المحاصيل .

ب ـ تحطيم طواحين الحبوب .

جـ ـ سرقة المواشى .

يروى " بيريث دي هيتا " أحـــداث غارة قـــــام بها فـرج بن فـرج (الأسود) بهذه الكلمات : " القائد الأسود فرج " اغتاظ وجرى ، لأن فرسان " لوركا " غنموا منه مغانم وعاملوا رجاله معاملة سيئة ، فعاد وانضم لحملته ، وفى جرأة شيطانية خرج من " كورخينا " ، عبر حقـــــول " جواركل " ، ووصل إلى ميناء " يوركا " ، حيث تمتلأ المناطق بمحاصيل القمح والشعير مع كثير من الحبوب المدروسة والمعدة للدرس ، وكل هذا حرقه الشرير " .

واحدة أخري من حيل الحرب كانت حرق عجلات ومحاور ماكينات ومعاصر الزيتون ليصعب التزود بالدقيق ، وقد استخدمت السرقات والنهب خلال فترة الحرب ، والنهب الذى مارسه فرج بصفة خاصة كان مشهورا ، حتى أنه فى ٢٧ أبريل سنة ١٥٧٠ كتب " اورتادو دى مندوثا " إن الأعداء يأتون إلينا يأتون إلى أبواب المكان ، حيث يحملون فى كل يوم مواشى وأناس ودقيق حتى أنهم يحملون الطحّانين أنفسهم " ، وكانت القوات تحمل معها كميات كبيرة من المواشى ، يستخدمونها مصـــيدة ، يعـــبر " اورتادو دي مندوثا " فى رسالة بعث بها إلى الكاردينال " اسبينوسا " عن الأسلوب الذى تبناه الموسيكون للتنقل بدوابهم وممتلكاتهم الأخرى من هنا إلى هناك ، ويذكر " مارمول " أنهم كانوا يطلقون الأبقار المنهوبة فى اتجاه نهر " سيرون " بهدف إثارة طمع الجنود ثم الهجوم عليهم بعد ذلك (١) وكانت حملات المسيحيين تتكون من فرق المدفعية ومن الميليشيات المدعمة بالفرسان ، لكن القوات فقدت نظامها ، وانكبت على نهب المواشى والحرير والذهب والعبيد ، وفرّ الكثيرن من الجندية (٢) .

ومهما يكن من أمر ، فقدمالت الكفة لصالح المسيحيين بعد سقوط القلاع وانتصارات "دون خوان" كما سبق أن أسلفنا ، وكان هذا سببا فى تدهور الروح المعنوية لدى الجند المسلم ، ورأت السلطات الأسبانية من ناحية أخري أن تجنح إلى شيء من اللين ، لأنها لا تعرف ماذا يخبأ القدر من مصير لهذا القتال ، فبدأت مفاوضات الإستـــسلام التي لعـــب فيهـــا " ارناندو الحباقى " دور بارزاً ، وكان لهـذا الرجل أعداء من المتطرفين فى الفريقين ، وقد قتل فى يونيو سنة ١٥٧٠ بيدى أتباعه . كما حدثت حملة فى سلسة جبال " رنده " كانت نتيجتها لصالح المسيحيين ، عندئذ أيقن كل

١- أنظـــــــــــر J. Caro Baroja: los moriscos ... PP: 181' - 187'

والمصادر المبينة بها

2- B. Vincent: historio de los moriscos ... P. 37'

المحاربين من المورسكيين أنه ليس أمامهم إلا الإستسلام ، وتشجيعا لهذا الإتجاه صدر أمر ملكى بالعفو عن كل المورسكيين الذين يختارون الخضوع ووعد من لديه أية مظلمة بفحصها فى الحال ، ومن يرفض الخضوع فسيتعرض للقتل ما عدا النساء والأطفال دون الرابع عشرة سنة ، فلم يستجب لهذا النداء أحد ، وكانت تجارب المسلمين السابقة مع المسيحيين تؤكد أنهم لا عهد لهم ولا ذمام ، فاستأنف " دون خوان " المطاردة والقتال وانقض على المسلمين قتلا وأسراً بلا رحمة ، وسارت بعض القوات إلى شمال البشرات واشتبكت مع قوات أبى عبد الله .

يذكر " دياجو دى مندوثا " فى رسالة منه إلى الكاردينال " اسبينوسا " " أنه بقى من المسلمين أكثر من عشرة وخمسمائة ، لكنهم منقسمون وجائعون ، البعض يحاول اللجوء إلى الكهوف العديدة فى " البوخارا " كما فعلوا فى البداية ، لكن حظهم كان سيئا فهم يموتون مختنقين بدخان النيران التي وضعت فى المداخل أو يسقطون أسرى " ، يقول مارمول حول الحملات على كهف " ميثنيا بومبارون " " أخذ المسيحيون ٢٦٠ شخصا أسرى ، واختنق من الدخان ١٢٠ أخرون ، وفى كهف آخر قرب " بارشول " اختنق ستون شخصاً بينهم امرأة ، وكان "ابن عبو" وولدان له فى الداخل ، وأمكنه الخروج من فتحة سرية مع شخصين تبعاه ، وفى كهف " كاستاراس " قتل ٣٧ شخصا ،وفى كهف " تيار " أخذ ٦٢ أحياء ، وفى كل الحالات عثر على أسلحة كثيرة وأقوات وملابس ، ويشير " مارمول " بعد ذلك أنهم استولوا من المسلمين على ستة كهوف كبيرة ، كان يقف فى اثنين منها فقط ٨٠٠ شخص ، وفى أخر كهف استسلم فى ١٠ أكتوبر وهو كهف " ديتيار " عثر على مائة مسلم من الأندلس ، ٣٠ من البربر وتركى واحد ، وكانوا جميعا مسلحين بصورة

جيدة ، كل هذا بخلاف ٣٠٠ امرأة وطفل ، وفى كهف آخر أكثر بعدا ناحية البحر هو كهف" موررتاس " استسلم دون "فرنسسكو دى قرطبة" وقد أصبح هؤلاء الذين أسروا فى أخر لحظة من ممتلكات بعض المسيحيين فى جنوب ووسط أسبانيا (١) .

وقد رأى الملك عبد الله أن جنده يتساقطون من حوله ، وأن النصارى يبالغون فى الأساءة إليهم والتنكيل بهم ، فمال إلى المسالمة ، وتقدم للوساطة بين أبى عبد الله وبين دون خوان ، رجل من أكـــابر وادى آش هو " دون ارناردو دي براداس " ، وكانت علاقته طيبة بالمورسكيين قبل الثورة وهناك وثيقة كتبها ابو عبد الله هذا بلغة عربية ركيكة وجهها إلـــى دون " ارناردو " المذكور يبدى فيها استعداده للصلح والمفاوضة (٢) ، كذلك كتب الدوق الونسو " بينجاس " إلى مولاى عبد الله يحثه على المسالمة ، وقد ردّ عليه أبو عبد الله بما يتضمن تحمل أولى الأمر المسئولية ، لأنهم أحدثوا بدعا جعلت الحياة مستحيلة على الشعب المورسكى ، وعلى كل حال فقد استمرت المفاوضات وتم الإتفاق على أن يتقدم الحبقى - قائد قوات الثورة - وكان ذلك قبل أن يغتال - إلى دون خوان ويعلن الخضوع ويطلب العفو فيصدر عفو عام للمورسكيين وتتكفل الحكومة بحمايتهم فى أى مكان تراه وقد نفذ " الحبقى " ذلك عندما اتجه مع سرية من فرسانه إلى

١- أنظر : والمراجع الموضحة بها J.C. baroja: los moriscos, PP. 198' - 201'

٢- نشر الأستاذ محمد عبد الله عنان ـ رحمة الله عليه ـ صورة وترجمة لهذه الرسالة ، نقلا عن :
M. Alarcon : Miscelanea de estudios y texos Arobes,pp 691, Madrid 1915'
وانظر : نهاية الأندلس ص ٣٧٢ حيث يقول أنه عثر على الرسالة المذكورة فى مجموعة المخطوطات الشرقية للماركيز " بينا فلور" Pena Flor ، والنسخة العربية منها تحت رقم ٢٤٦ وترجمتها القشتالية تحت رقم ٢٤٥ ، هذا وقد ذكر " مارمول " الترجمة القشتالية (الأسبانية) فى كتابه المشار اليه أكثر من مرة فيما سبق ، أنظر منه الكتاب التاسع الفصل التاسع :
libro IX, cap. IX, P.393 y ss

معسكر" دون خوان" فى " اندرش" واعلن الخضوع وحصل على العفو العام لكن ذلك الصلح لم يرق لا لمولاى عبد الله ولا لغيره من الزعماء ، وقدم " الحبقى" حياته ثمنا لهذا الصلح ، لأن بقية القادة اشتموا منه نية السلطات الأسبانية فى نفيهم وإبعادهم عن مواطنهم ، وأماكن أمجادهم وتاريخهم ، ولهذا قرروا رفضه ، وارتابوا فى موقف " الحبقى " الذى كان يروج له بكل ما أوتي من قوة ، ولذلك احتالوا عليه وقتلوه فى يوليو سنة ١٥٧٠ كما سبقت الإشارة .

بعد ذلك بأسابيع بعث" دون خوان" إلى مولاى عبد الله يستكشف حقيقة الأمر ، فأجاب الأخير بأنه للمورسكيين أن يتصرفوا بحرية كما يحبون ، أما هو فقد أعلن أنه لن يخضع ما بقى فيه عرق ينبض ، وأنه يؤثر الموت مسلماً مخلصا لدينه ووطنه على أن يحصل على ملك أسبانيا كله ، ويبدو أنه كانت قد وصلته قوات من المغرب اشتد بها ساعده ، وعلى كل حال فقد اضطرمت الثورة من جديد حول " رنده " وأرسل مولاى عبد الله أخاه "الغالب" لقيادة الثوار بهذه المناطق .أما السلطة الأسبانية فقد أغضبها هذا الذى حدث ، واعتبرته لوناً من التحدى ، وصممت على سحق المورسكيين بكل ما أوتيت من قوة ، ولذلك سار دون خوان إلى "وادى آش" على رأس قواته ، بينما سار جيش آخر يقوده "دون ركيصانص " إلى شمال البشرات ، وسار جيش ثالث إلى بسائط "رنده" ، وأمعنت القوات الأسبانية قتلا وتخريبا حيثما حلت ، وحاولت السرايا المورسكية أن تتصدي لها ، فمزقها سيل القوات المسيحية ، حيث هدمت قوات الحكومة المعاقل والقرى والضياع وأحرقت الحشائش والحقول حتى تحرم القوات المورسكية من مصادر القوت ، فاضطر كثير من المورسكيين للهجرة إلى بلاد المغرب والشمال الأفريقى ، ولم يبق إلا مولاى عبد الله وقواته

المحدودة ، وكان معتصما بعمق الجبال يخشي مغبة الظهور أمام هذه القوات الجـارفة .

وفى ٢٨ أكتوبر سنة ١٥٧٠ أصدر فيليب الثانى قرارا بنفى الموركسيين من مملكة غرناطة إلى داخل البلاد مع مصادرة ممتلكاتهم غير المنقولة ، أما الممتلكات المنقولة فقد ترك لهم حرية التصرف فيها . ويقضى القرار بأن يؤخذ الموريسكيون المقيمون فى غرناطة والفحص ووادى "لكرين" وجبال "بنتوفر" حتى "مالقة" وجبال "رنده" و"مربلة" إلى ولاية "قرطبة" ، ومن هناك يوزعون فى أراضى ولايتى "استريمادوره وجليقيه" . أما الموريسكيون المقيمون فى وادى "آش وبسطة" ووادى المنصورة ، فيؤخذون إلى "جنجالة والبسط" ثم يفرقون فى أراضى قلعة "رباح ومونتيل" ، والموريسكيون المقيمون فى المرية يؤخذون إلى ولاية اشبيلية . وقد نفذ القرار الجديد بمنتهى الصرامة والدقة ، وجمع الموريسكيون المسالمون فى هذه الأماكن ، وسيقوا إلى الكنائس أكداساً - يحاطون بالجند من كل مكان - ثم شتتوا فى مختلف أنحاء قشتالة وليون (١) ففى أول نوفمبر سنة ١٥٧٠ . أمر بإرسال كل الموريسكين الغرناطيين إلى الأندلس الغربى و"استريمادوره" ، وقد غادر حوالى ٥٠ ألف أماكنهم الأصلية إلى الأبد فى أيام قليلة ، وفى ٣٠ نوفمبر سنة ١٥٧٠ انتهت مهمة دون خوان الذى قاد الجند المسيحى فى الحرب ، وغادر غرناطة فى ١٥ مارس سنة ١٥٧١ (٢). وقد جرت حوادث مؤسفة أثناء تنفيذ قرار ابعاد الموريسكيين عن مواطنهم الأصلية ، فلجأ رجال السلطة إلى نهبهم والفتـك بهم وبنسـائهم

1- Marmol: Historia de la rebelion ... libero X, Cap . VI P. 437 y ss

وكذلك :عنان : نهاية الأندلس ص ٣٧٥ .

2- B. Vincent, Historia de los moriscos ... P. 35'.

وأطفالهم خاصة فى منطقة " رنده " وقد وصل إلى سمع الجنود المسلمين فى الجبال أخبار ما يحدث لزملائهم ، فانحدوا إلى السهل وقتلوا كثيرا من الجند المسيحى المثقل بالمغانم ، وكانت نهاية الموريسكيين المنفيين مؤلمة ، فمنهم من هلك بسبب ما تعرض له من آلام ومنغصات ، أما من سلم فقد عانى من غربة مؤلمة مع وضعه تحت رقابة دائمة ، وسجلت أسماؤهم وأماكن مساكنهم فى سجلات خاصة ، وتقرر تعيين مشرف خاص يتولى كل ما يتعلق بهم ، وحرم عليهم تغيير مسكنهم إلا بإذن ملكي كما حظر عليهم السفر إلى غرناطة مهما كانت الأسباب ، ومن يخالف تعرض لعقوبات تصل إلى درجة الإعدام ، وهكذا تم تشريد كل الموريسكيين وتحطم مجتمعهم المتماسك فى مملكة غرناطة ، ولم يبق إلا مولاى عبد الله وجيشه الصغير (١) .

وكان مولاي عبد الله قد استمر مختفيا فى أعماق جبال البشرات بين آكام "برشول وترفليس" مع عدد من جنده المخلصين ، وفى مارس سنة ١٥٧١ أرشد بعض الأسرى إلى مخبئه ، فأوفدوا رسلهم إلى معسكره بإحدى الغارات ، وهناك أمكنهم اغراء ضابط مغربى من خاصته اسمه " جونثالثو الشنيش " ، وكان الأخير قد بدأ يحقد على أبى عبد الله لأنه منعه من الفرار إلى بلاد المغرب ، فأغدق عليه الأسبان ، وتعهدوا له بضمان عفو شامل مع حفظ النفس والمال ، كما تعهدوا برّد زوجته وأبنته ، وكانت كلتاهما أسيرة عندهم ، إذا سلمهم مولاى أبا عبد الله حيًا أو ميتا،

وقد قام هذا الضابط بتدبير خطة لإغتيال سيده وفاجأه يوما فى قليل من أصحابه ، فقاوم عبد الله ما استطاع ، لكنه سقط أخيرا مثخنا بجراحه ،

1- H. Ch. Lea : the history of the moriscos ... PP. 258' - 265'

وكذلك : عنان : نهاية الأندلس . . . ص ٣٧٥

فألقى الخونة هؤلاء جثته من فوق الصخور لكى يراها الجميع ، ثم نقل الأسبان جثته إلى غرناطة وأعدوا له موكبا وضعوا فيه تلك الجثة مسندة إلى بغل ، وعليها ثيابها كاملة كما لو كانت حية ، ومشى وراءها أعداد غفيرة من المورسكيين الذين سلموا عقب مصرع ملكهم ، ثم حملت إلى النطع ونفذ فيها حكم الإعدام فقطعت رأسها ثم طيف بها فى غرناطة مبالغة فى التمثيل ، ومزقت أربعا ، وأحرقت بعد ذلك فى الميدان الكبير، ووضع الرأس فى قفص من الحديد ، رفع فوق سارية فى ضاحية المدينة تجاه جبال البشرات (١) .

وهكذا كان سبب الثورة والإنتفاضة العنيفة هو المعاملات القاسية الوحشية بل واللاانسانية التي لقيها المسلمون على أيدى السلطات الأسبانية من شنق إلى حرق إلى محن مروعة ، لقد أوسعوهم قتلا وتشريداً وإهانة ، وخرقوا المعاهدات معهم ومنعوهم من ممارسة شعائرهم واحترام تقاليدهم وصادروا حرياتهم وأرهقوهم بالضرائب والغرامات المالية ، حتى القسس ورجال الدين ، أحصوا على المسلمين أنفاسهم وأجبروهم على اداء الطقوس الكاثوليكية واغتصبوا ممتلكاتهم ودوابهم حتى كأصبح المسلمون فى أيدى النصارى أشبه باليمامة بين براثن الصقر الجارح ، حسب تعبير واحد منهم (٢) ، وإذا كان هؤلاء المسلمون قد ارتكبوا أثناء ثورتهم بعض مظاهر القسوة والعنف والنهب ، فإن ذلك لم يكن إلا ردّ فعل ، وشيئاً من جنس ما تلقوه مما لا يمكن وصفه ، سواء على أيدى السلطات المدنية أو الدينية .

وواضح مما سبق أن الخيانة والتآمر كانت وراء ما تعرض له هؤلاء

---

١ - أنظر Marmol: ibid, lib. X, cap VIII, PP. 449
عنان المرجع السابق ص ٣٧٦ .

٢- أنظر ص ٧٨ من هذا البحث .

الأبطال من حظ تعس ومصير مؤلم وهزيمة ونكسات و ولولا ذلك لكان لثورتهم شأن ولتغير وجه التاريخ .

ويمكن أن يقال ، اعتماداً على مسيرة أحداث الثورة ، أن الثورة قد مرت بأربع مراحل :

أ - من ديسمبر ١٥٦٨ إلى مارس ١٥٦٩.

ب - من نهاية مارس إلى ديسمبر من نفس العام .

ح - من يناير سنة ١٥٧٠ إلى أبريل ١٥٧٠ .

د - من أبريل إلى نوفمبر من السنة نفسها .

وقد تميزت المرحلة الأولى بالحملات التى قام بها الماركيز "دي مونديخر" والماركيز" بيليث" ، وقد خرج الأول من غرناطة إلى طريق الجبال فى ٣ يناير واجتاز " البوخارا " حتى " لاوخر " وأقام معسكرا عاما فـى " اورجيفا " وقد حاول المسيحيون القدماء المقاومة عن طريق الأبراج المختلفة التى كانت متوفرة فى كل قرية واستغلت فى الدفاع ، وكانت الأبراج مملوكة لبعض مشاهير المورسكيين ، ويبدو أنه كان فى " ياريخا " عدد كبير وقوي من هذه القلاع كما وجدت قلاع قديمة فى طرق نهر المنصورة مثبته فى أماكن من الصعب مهاجمتها ، كذلك استعملت الكنائس حصونا وقد تمكن بعض المسيحيين من المقاومة اليومية ، وأمكنتهم التوفيق بين العمل اليومى ومتطلبات الحرب ، فمثلا فى " توراس " أقاموا فى برج وكانوا يخرجون نهارا للعمل بالحقل ويتركون رجلاً واحدا مع النساء ، ومن الطبيعى أن يكون نجاح هؤلاء محدوداً بصفة عامة ، أما " دى مونديخر " فقد قام بحملاته على " البوخارا " من يناير إلى مارس

وأنقذ " دوركـال " وعبــر قنـطـرة " تبلاتى " مع كثير من الخسائر حيث نزل فى " اورجيفا " وأقام بها معسكره وصعد إلى مرتفعات " بوكيرا " و" فيريّرا " . . . إلخ وقد استولى على جيكر (فى غرناطة) ، وأصبح لديه احساس بأن المسلمين استسلموا أو على الأقل عندهم استعداد للتسليم برغم ما منى به من فشل فى بعض المناطق الجبلية ، وبرغم ما قدم فقد انتقده عوام الناس كما انتقدت الإدارة عمله ، وعهد إلى منافسه الماركيز" دى بيليث " بالتدخل من الجانب الشرقى (١) ، وكان هذا قد خرج أو ل يناير من " بيليث الأبيض " ، وأقام معسكر قواته فى اليوم الثالث منه فى " تركى " شرقى " البوخارا " ، وحدثت بعض المحن ، ومع ذلك فقد كان لدى المسيحيين أمل فى التوصل إلى حل ، فقد استسلم كثير من المورسكيين ، وكان ابن أمية والزاجير ، من كبار قاداتهم ، قاب قوسين أو أدنى من الأسر ، لكن حدثت اختلافات كبيرة فى الجانب المسيحى ، فكلا من الماركيزين كان يبغض الآخر ، وكان " مونديخار " هدفا لحملة منظمة للوشاية به عند الملك ، اشترك فيها كبار رجال المحكمة العليا ، أما الماركيز " دى مونديخر " فقد اعتبر اشراك " دى بيليث " معه عملا مهيناً له ، فقد كان يرى أن الحرب قد انتهت من الناحية العملية وأن المفاوضات قد بدأت بالفعل ، بينما أكد " دون بدرو دى ديثا " أن الأمر ليس كذلك ، وعلى كل حال فقد حل " دون خوان دى استوريا " محل " دى مونديخر " ، وتصادف وصول رسالة توليته مع المذبحة الرهيبة التي ارتكبت ضد من كانوا رهائن فى سجن غرناطة من المورسكيين كما سبقت الإشارة ، وفقد المسلمون كل أمل فى معاملة حسنة فوسعوا نطاق الثورة ، وسقطت القوات

١- أنظر: Julio caro Baroja : los moriscos ... PP. 191' - 192'

فى حالة من الفوضى وأخذت ترتكب كثيرا من ألوان العنف وهربت بعض القوات من الجندية وأخذت تبالغ فى سلوكها المسىء إلى المورسكيين .

يقول " خينيث بيريث دي هيتا " متحدثا عن قوات الماركيز دي مونديخر : " إن نصفها أو أكثر قد اســـتبدل ، ليحل محله أكبر اللصوص فى العالم ، تدفعهم فكرة أن يسرقوا ويسلبوا ويحطموا شعوب قرى المورسكيين الوادعة . . " ويقول فى مناسبة أخري " إن هناك أناس كانوا يخونون فيسرقون الكثير حتى القطط وأشياء أخرى مشابهة . . . " ، وهذه الحرب أتت على المحاصيل كلها ، وأخذ الجنود بعد الإنتصار أواخر سنة ١٥٦٩ غنائم عديدة منها (١) :

(١) الفواكه والحبوب والزبيب والتين والموز ، وكان الجنود يحضرونها بأقصي ما يستطيعون للتجار والرهبان المسئولين عن تموين الأديرة .

(٢) الماشية ، مع الأسرى الذين تحتفظ بهم القوات أحيانا ، كما حدث عند الهجوم والإستيلاء على بعض الحصون .

(٣) الحرير وكميات كبيرة من الذهب واللؤلؤ والحراير ، وعند الوصول إلى حقل " ببيون " ، استولى المسيحيون من المسلمين على كميات كبيرة من الأمتعة المليئة بالثياب والحراير ، كانوا قد حملوها لإخفائها فى الغابات ، وغنم الماركيز " دى بيليث " من مسلمى فاس جقائب مملوءة بالحراير والملابس وكثير من الذهب والفضة ، وعند فتح " جاليرا " وجدت بها كميات من القمح والشعير تكفى لمدة عام ، واستولى القادة والجنود على أمتعة من الحراير والذهب واللؤلؤ وأشياء أخرى نفيسه ، وكان رؤساء

1- Perez de hita (Gines), guerras civiles de Granada, parte II, cap. IV P. 600'

نقلا عن

J. caro baroja: los moriscos ... P. 194' وانظر المصادر المدونة عنده ص ١٩٤، ١٩٥

المورسكيين قد جمعوا هذه الثروات وغيرها وأخفوها فى الرُبى والجبال المنعزلـة مثل جبـال " يارا " وجبل " انوكس " وبطون ربوتى " ريستافيل وحصن " فريخليانا " .

(٤) الأسرى من الرجال والنساء والأولاد ، وقد أثار هذا شكاً حول مشروعية هذا النوع من الغنيمة باعتبار أن هؤلاء قد أصبحوا مسيحيين ولكن مجلس غرناطة أفتى بأنه وفقاً لقرارات مجمع طليطلة ، فإن المورسكى يمكن أن يضرب عليه الرق ، لأن هؤلاء يسمون باسم محمد ، ويحتفظون بإسلامهم ، وكان هذا واحدا من الأسباب التى أدت إلى تطويل أمد الثورة بسبب الرغبة فى أسر نسوة مسلمات كما حدث فى " لارالس " و " جيخر " ، لكن مسئولية الجشع لا تقع على الجنود وحدهم ، فقد بيع كثير من المسلمين فى مزاد عام بغرناطة لحساب الملك ، واقتسم القادة والرسميون مرات عديدة مجموعات من الأسرى تشمل أطفالاً ، وبعضهم مات فى الأسر ، وكانوا أسعد حظا ممن تعرضوا لمذابح عامة كتلك التى رواها " بيريث دي هيتا " عندما هزم " فـرج " ؛ فقد خرج الجنود يسلبون النساء القتيلات ويجمعون الثياب وعقود الحلى والقرط ، وكل مظاهر الزينة ، بل إن سكان غرناطة ، انتظروا انتفاضة حى البيـازين للقيـام بالسلب والنهب (١) ورغـم أن " دون خوان دي استوريا " هو الذى تولى قيادة القوات المسيحية خلال المرحلة الثانية الطويلة ، فإن الجيش المسيحى لم يتوصل إلى نتائج إيجابية ، لقد تسلم " دون خوان " مهام عمله فى ١٣ أبريل سنة ١٥٦٩ ، وبقيت حالة المسيحيين سيئة طوال باقى شهور الربيع وأوائل الصيف ، وكات المبادرة فى أيدى المورسكيين لشهور فهاجموا "برخا" حيث يوجد معسكر الماركيز دي لوس بيليث فى ٢٢ مايو ،

١- خوليو كارو باروخا : المرجع السابق ص ١٩٢ - ١٩٦ .

وحاصروا " سيرون " فى ١٠ يونيو واستولوا عليها في ١١ يوليو كما استولوا على " بيزا " فى سبتمبر و " ارجيفا " فى أكتوبر ، ومع أن الزاجير قد مات فى يوليو ، واغتيل ابن أمية فى ٢٠ أكتوبر فإن ذلك لم يترتب عليه تغيير فى سير الحرب ، فقد اختير أبو عبد الله (ابن عبو) ليحل محل الخليفة القتيل وبدون منازع .

لكن اتجاه الحرب بدأ يتغير اعتباراً من ديسمبر سنة ١٥٦٩ ، ويناير سنة ١٥٧٠ ، فقد استولى حاكم الجزائر على تونس بدون قتال فى ١٩ يناير ، ولا يشك أنه حاول تقديم امدادات للثورة المورسكية بل هناك من يقول أن العلج على - الحاكم العثمانى بالجزائر - كان يفكر فى إعادة الحكم الإسلامى إلى أسبانيا، فهذه هى الوسيلة الوحيدة لوضع حد للتهديد الأسبانى المستمر لبلاد الشمال الأفريقى وطرد الأسبان والبرتغاليين من مراكزهم فى هذه البلاء ، ولهذا عقد اتفاقا سريا سنة ١٥٦٩ مع الثوار المسلمين فى بلاد الأندلس كان عليهم بمقتضاه أن يقوموا بثورة عارمة ، فى الوقت الذى تصل فيه القوات الإسلامية من الجزائر إلى مراكز مخصوصة على الساحل الأسبانى " ونجح العلج فى انزال الأسلحة والمتطوعين على الساحل الأسبانى عام ١٥٦٩ ، وفى هذا الوقت ترامت إليه أنباء عن استعداد دون خوان أمير النمسا لغـــزو الجزائر فعدل عن مشـــروعه مؤقتا (١) . . . "

وفى نفس الوقت تقريبا حـل " دون خوان دى استوريا " محـل " الماركيز دي لوس بيليث " وحاصر " جاليرا " فى ديسمبر واستولى عليها فى ١٠ فبراير بعد معارك مريرة ، وكات هناك عندئذ ثلاثة جيوش تجوب أرجاء المملكة : دون خوان على رأس الجيش منحدرا من سهل المنصورة ،

١- أنظر : عبد العزيز محمد الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج ٢ ص ٩٢٦.

وقد فتح "سيرون" فى شهر مارس ثم اتجه ناحية " البوخارا " حيث وصل إليها فى نهايات أبريل ، وهناك أقام معسكـر " دى لوس بادوليس " حيث التقى به " الدوق دي سيسا " رئيس الجيش الثاني الذى خرج من غرناطة في فبراير ، واجتاز " البوخاراً " من الغرب إلى الشرق ، أخيرا وصل دون " انطونيو دى لونا " إلى سلسلة جبال " بنتوميث " قادماً من " انتكير " فى الأيام الأولى من مارس .

فى هذه الآونة انقسم المسلمون حول الموقف الواجب اتباعه ، فمنهم من رغب فى الإستسلام وعلى رأسهم الحباقى ، ومنهم من أراد مواصلة القتال ، وتزعم هؤلاء ابن عبو (مولاى عبد الله) كما ذكرنا من قبل ، ولهذا فإن المرحلة الرابعة والأخيرة تتميز بكونها خليطا من الإتصالات الغامضة والعمليات العسكرية المتفرقة ، وقد حدثت مواجهات عسكرية كانت لها نتائج حاسمة فى اقليم " رندا " ، ففى ٧ يوليو حاصر المورسكيون " الوثاينا " ثم تمركزت قواتهم فى " اربوتو " فى سلسلة جبال " بيرميخا " ، لكن " الدوق دي اركوس " يرافقه حاكم مالجه ، طردوهم منها فى ٢٠ سبتمبر ، ومنذ هذه اللحظة أصبح ممكنا تنفيذ المشروع الذى تم التفكير فيه من قبل وهو طرد المورسكيين من كل مملكة غرناطة (١) ، ومن الطبيعى بعد هذا العرض أن يبرز أمامنا سؤال حول المورسكيين الذين ثاروا ضد السلطات المسيحية وكم كان عددهم ؟

تبالغ القيادات المسيحية فى أعداد خصومها " فالدوق دي سيسا " يذكر أن عدد المتمردين فى فبراير سنة ١٥٦٩ وصل إلى مائة وخمسين ألفا منهم ٤٥ يمكنهم حمل السلاح ، وهذا الإحصاء مبالغ فيه ، لأن سكان غرناطة كلها فى هذا الوقت تجاوزوا الـ ٥٠ ألف بقليل ، أما بيانات

١- أنظر : Bernard Vincent: Historia de los moriscos ... PP. 35' - 37'

المعارك العسكرية فهى مبالغ فيها أيضا ، فهى تذكر وفقا " لمارمول " (١) أن الماركيز دي مونديخر قتل فى الحملات الأولية ٢٠٠ من الأعداء فى " دوكال " ، ١٥٠ فى " طابلاطى " ، بالإضافة إلى ١٥٠ فى بوكيرا ، أما الماركيز دي بيليث فقد قتل ألفا فى " اوهانس " ، أوائل فبراير سنة ١٥٦٩ ، ١٥٠٠ فى " بيزخا " خلال شهر مايو ، وقتلت قوات " الماركيز دى ريكسنيس " الفين عند الهجوم على " بنيون " فى " فيرخليانا " خلال يونيو عام ١٥٦٩ .

كل هذه مبالغات مألوفة من رؤساء عسكريين يحاولون اخفاء صعوباتهم ، أما الخسائر التى منى بها المسيحيون فهى قليلة - بصفة عامة - حسب عبارة مارمول :

" قتل فى هذه المرحلة ٢٠٠ مسلم ، وأسر ٨٠٠ امرأة وطفل ، واستولى على كميات كبيرة من المتاع وخسر المسيحيون ١٨ ، وكان هناك بعض الجرحى ، لكن المؤرخ نفسه يعترف فى مناسبة أخرى بأنه قتل من المسيحين ٤٠٠ وجرح الكثيرون، وفقدت أسلحة كثيرة حسب الرواية الإسلامية أما نحن فقد علمتنا الحروب اخفاء الخسائر ، فقط قتل منا ستون وألحقنا خسائر عديدة بالأعداء " (٢) ، ومع ذلك فإنه يمكن الإعتماد على مصادر أجنبية معقولة فى تقدير عدد المسلمين الثائرين ، ووفقا لسفير فرنسا وسفير جنوه ، فإن المورسكيين الثائرين كانوا فى البداية أربعة آلاف ثم أصبحوا ثلاثين ألفا فى أوج الحركة و٢٥ ألف فى ربيع عام ١٥٧٠ منهم أربعة آلاف تركى وبربرى . وكل هذا يبدو محتملا إذا نظر إليه على أنه يمثل الحد الأقصى ، لأن رقم ٣٠ ألفا يعنى تجنيد كل القادرين على حمل السلاح ، قيمة هذه التقديرات أنها تبرهن إلى أى مدى تحركت

١- أنظر : مارمول : المرجع السابق ص ٣٠٥ وبرنارد بنثنث : المرجع السابق ص ٣٩

٢- أنظر : مارمول : نفسه ص ٢٩٨ ، وبرنارد بنثنث : نفس المرجع والموضع السابق .

الأغلبية العظمى للموركسيين ، وقد قدم كل من " ارتادو دى مندوثا " و " مارمول كارياخال " نفس الأرقام تقريبا (١) ، كان عدد القوات قليلا فى الجانب المسيحى على امتداد سنة ١٥٦٩ فقد تعرض سهل " انوكس " لهجوم عدد يتراوح بين ٧٠٠ إلى ٨٠٠ جندى مسلح ببندقية قديمة ، و ٤٠ فارساً ، أما جيش " مونديخر " فقد اشتمل على ٢٠٠٠ جندى مشاه ، ٤٠٠ فارس ، وغارة " جواخار " بقيادة دون خوان والدوق دى سيسا قام بها ٩٠٠٠ من المشاة ، ٦٠٠ فارس ولمحاصرة " جليرا " أعدّ دون خوان حوالى ١٢ ألف جندى و " دون دي سيسا " من ثمانية إلى عشرة آلاف فى نفس الوقت . إذن كان هناك أكثر من ٢٠ ألف بقليل استخدموا فى المرحلة الحاسمة للحرب . والفرق الأساسى بينهم وبين المسلمين كان فى النوعية أكثر منه فى العدد . وكان الجنود المحنكون أيضا مشغولين بالقتال خارج حدود البلاد ، ولهذا اضطر الملك أن يطلب قوات طوارىء لحماية المدن وكان التدريب والحماس ينقص هؤلاء ، ولهذا استسلمت بعض المدن فى المرحلة الحاسمة للثورة بسهولة وكان ذلك أمْراً عادياً ، برّره المستسلمون بأنه " ليس هناك رجال يمكن أن يوجدوا فقد هربوا إلى الفلاه وفى قري أصحاب الإقطاع حيث يتوافر أمن أكثر ، ، وأنها لخطيئة كبري أن يبقى محصول القمح بلا حصاد ، وأن يبقى الكرم بلا عناية ، وإن حدث شئ من ذلك ، فإن النساء يقمن به " (٢) .

لقد كان المسلمون فى هذه المرحلة يقاتلون فى شجاعة قتال اليائسين ،

1- Marmol: Ibid, libero Octavo, P.243 y , Hurtado de mendoza : P. 209'

2- Diego torrente perez: Documentos para la historia de sanclemente II,.109, Madrid 1975'

B. Vincent: Historia de los moriscos, P.40

ويذكر أن قرية "سانت كليمنت " طلبت ٤١ جنديا لحمايتها ولكن البلدية ردت فى ١٢ مارس ١٥٧٠ بالعبارة الموجودة فى الأصل

وقد الحقوا بالمسيحيين خسائر كبيرة ، واشتهروا بالصلابة فى القتال ، وأرهبوا المتطوعين طمعا فى المغانم ، وسببوا رعبا حقيقيا.

مشكلتان كبيرتان تحتاجان إلى بحث هما : من هؤلاء الذين ثاروا ومن كان المعبّر عن حركتهم ؟ ثم ماذا عن موقف القوى الإسلامية من تلك الثورة الموريسكية وإلى أى مدى كانوا معهم أو عليهم ؟ بالنسبة للسؤال الأول فإن " كارو باروخا " يلفت نظرنا إلى أن زعماء المسلمين كانوا يتنافسون ويتباغضون منذ البداية ، وقد انتمى هؤلاء الزعماء إلى جذور متعادية بصورة تقليدية (١) . وهذه الملاحظة لها قيمتها.

وسيكون من المفيد دراسة الأواصر الأسرية ، ومهن الرؤساء الذين يذكرهم ل . جراد . إنه من ناحيته يشير إلى أهمية مشكلة الحرير بين أسباب عديدة للثورة ، مؤكدا أن العدد الكبير من زعماء الموريسكيين كان نشاطهم المهنى له علاقة بالحرير (٢) ، وهناك عامل ثالث أشار إليه كل من "براوديل " و " خ . كارو باروخا "حيث أكد كلاهما أنه فى سنة ١٥٦٩ انحدرت الثورة من الجبل نحو السهل ، أى أنها بدأت فى بؤرة جبلية فى الوسط ، ومنها انتشرت فى نواحٍ أخري (٣) وهذا يعنى تعصب سكان الجبل إذا ما قورنوا بسكان المدن ، وقد درس " مارمول كارباخال " مواطن

1- Los moriscos ... PP. 189'

2- K. Garrad: la industria sedra granadina en el siglo XVI y su conexion con el levantamiento de las Alpujarras.

(Miscelanea de estudios Analeas y hebraicas, ano 1956, PP. 73' - 104.)

3- Braudel : Fernando: la mediterranance et le monde mediterranecn a l'epoque de phelippe II, paris 1949, 1966,1976'

وقد ترجم هذا العمل الى الأسبانية ماريو مونتى فورت توليدو وزميلاه بعنوان : Mario Montefortc To ledo

El mediterraneo y el mundo mediterraneo en la epoca de Felipe II

وقد صدر بالمكسيك فى عدة طبعات آخرها ١٩٨٧ ، والحديث عن الثورة الغرناطية بها يبدأ فى ص ٥٤٥ من المجلد الثانى أنظر خاصة ص ٥٤٨ وانظر أيضا :

J. C. Baroja: Los moriscos ... P. 177'.

الثورة ، مجتهدا فى تحديد المناطق التي ثارت والتى لم تثر ، ووضع فى اعتباره ما أعلنته بعض الجماعات الريفية حيث قالت أنها لم تدخل الحرب وكان ينبغى ، بالتالي ، استثناؤها من النفى ، وقد توصل ذلك الباحث إلى القائمتين التاليتين :

أ- المناطق التي ثارت وتحديد زمن ثورتها :

وادى المنصورة وجبال فيلا بريس (ماعدا سيرون ، لاس كويبس ، اوريا ، بيلاث بلنكا) يونيو ١٥٦٩

سيرون يوليو ١٥٦٩ ، لاس كويباس (الكهوف) سبتمبر ١٥٦٩ ، جاليرا اكتوبر ١٥٦٩ سيبرا دى روندا (جبال روندا) ابريل ١٥٧٠

ب ـ مناطق أوقرى لم تشترك فى الثورة :

غرناطة . غوطة غرناطة ، تيورتاخار ، بادول ، دوركال ، بنجويلس المريا ، فينيانا ؛ بيليث بلانكو وأوريا ، قادش ، أراضى قادش (باستثناء لابثيا) باثار ، أويسكر (باستثناء جاليرا وكاستيخا) ، موتريل الموخيا ، بيناكى ، ازناتى ، ماتشارا بيانا ، جبال روندا (مونتخاكى ، بينا اوخان ، الجاتوثين ، بينّارابا) .

وهناك قرى فى سلسلة جبال " روندا " مشكوك فى موقفها ، وإن بقيت مسالمة بدون شك وهى : موندا ، تولوس ، كاسارا بونيلا ، البنذير ، خوكر ، فاراخان . (١)

من هذه اللوحة يمكن استنباط بعض الحقائق الأساسية ، ولابد من التفرقة بين الحركة العفوية التى بدأت فى ديسمبر سنة ١٥٦٨ ، وأوائل

١- أعد "مارمول " هذا الجدول إعتمادا على الحوليات والوثائق المتنوعة فى دور المحفوظات المختلفة بسمنقة وغراطة ومدريد . أنظر الملحق الموجود فى أواخر الجزء الثانى من عمله المشار اليه مرات سابقة ص ٤٨١ وما بعدها ، وانظر أيضا :B. Vincent: Historis ... P. 42 , Nota 17'

يناير ١٩٦٩ ، وبين اتساع الثورة الذى جاء نتيجة اقناع أو تحريض رسل الثوار ابتداء من مايو سنة ١٥٦٩ ، وقد ثارت القرى فى سلسلة جبال روندا " فى فترة متأخرة بسبب حماقات وابتزازات جيش (البرودى لـونا) وليس هناك شك فى أن قاعدة الحركة الثورية كانت جبلية ، وفى لحظات مختلفة دخل فيها كل سكان المرتفعـــات ذات الأهمية ومثلث مرتفعــات "البوخارا" روح المقاومة على مدار عامين ، وان انضم اليها رجال من السهل ومن الهضبة ، أما المورسكيون فى المدن أو السهول المتصلة بها فلم يشتركوا فى الثورة ، وكذلك سكان بعض القرى المنعزلة : فنيانا ، بيناكى ماشارا فيبيايا ، ازنات ، رغم أن الثلاثة الأخيرة ليست بعيدة عن مالقة ، ترى ماالأسباب التى يمكن أن تكون وراء موقفها ؟ .

" فينيانا " كانت على مدار سنتين جزيرة صغيرة فى وسط أراض ثائرة ، وهناك سبب واحد يمكن الاعتماد عليه فى تفسير هذه الظاهرة هو الطابع المختلط لسكانها ، ففى سنة ١٥٦٢ كان فيها ٩٠ مسكنا مسيحيا ١٢٠ مسكنا مورسكيا ، وفى سنة ١٥٦٨ كان فيها ١٠٠ مسكن مسيحى ، ١٥٠ مسكنا مورسكيا ، ويرغم أن أغلبية سكانها من المورسكيين الا انها لم تثر ، نفس الشئ بالنسبة لمجموعة " ازنات ، وماشارابيايا ، وبيناكس " ، رغم أن السكان المورسكيين كانت نسبتهم العددية أكبر . أما " الملوخيا" فكان يوجد فيها سنة ١٥٦١ أربعون منزلا مورسكيا من مجموع منازلها ال ١٢٨ ، ويمكن أن نضيف مثال " لابيثا " التى حمل سكانها على مغادرتها الى سلسلة الجبال ، ووفقا لمارمول فانه كان بها ٢٦١ أســـرة مسيحيــــة منها ٤١ أســـرة مسيحية . وكــانت "البوخاراس" على العكس من ذلك حيث كانت توجد فقط أسرتان أو ثلاث أسر مسيحية فى كل قرية ، أما " انستان " فهى القرية الوحيدة التى ثارت من أسقفية مالقة فى ديسمبر سنة ١٥٦٨ ، وكان فيها عندئذ ١٤٧

مواطنا ، المسيحى الوحيد بينهم كان القسيس " اسكالانتى " ، ومن المحتمل أن يكون التعايش الذى يسرّته أسباب متنوعة ، كان حقيقة واقعة فى قطاعات كبيرة .

أما موقف المدن ، فهو فى حاجة الى تفسير ، كيف نفسر فشل محاولة "فرج بن فرج" فى تأليب حى " البيازين " ؟ إن الامر يبدو غريبا للوهلة الأولى ، وهو ليس كذلك فى الواقع وحقيقة الأمر ، ذلك أن المورسكيين عايشوا المسيحيين مئات السنين فى حى البيازين ، ولم تكن التفرقة السكنية كبيرة كما يظن الآن ، يدل على ذلك احصاء منازل المورسكيين فى الفترة السابقة على الثورة ثم فى سنة ١٥٧٦ أى بعد الثورة بسنوات قليلة ، وهنا نقدم موجزا لذلك .

سان ثيثيليو	١٠٣(٤٩٠)
سان خوسيه	١٤٨(٥٠١)
سان ميجيل	٢٩٣(٤٠١)
سان نيقولاس	٥٢٩(٧٣٦)
سان جريجوريو	٢٣١(٢٤٩)
سان لويس	٣٣٣(٣٧٤)
سان بارتولومى وسان لورنثو :	٢٨٦(٢٥٧)
سانتا ايزابيل	٢٧٢(٢٧١)
سان كرستوبال وسان ماتيو :	٥١٣(٦٥١)
سان الديفونسو	١٥٨(٦٧٥)
سان سلفادور ، وسان بلاس وسان مارتين ، وسانتا اتيس :	٨٥٦(٨٨٣)
سنتا ماريادى الحمراء	– (١٧٠)
منازل بمحلات الكنيسة الكبرى	..

وسان خيل ولاماجدالينا ٥٩ (٠)

٤٨٢٨ المجموع (١)

ثلاث دوائر كنسية فقط من بين ٢٣ لم يكن فيها منزل موركسى ، وهناك ٨٨٤ منزلا أو منزلا مع محلات (١٨٪ من الاجمالى) كانت تقع فى دوائر كنسية أغلب سكانها من المسيحيين عكس ماكان يظن ، وقد وجد مسيحيون فى معظم الدوائر الكنسية التى يسيطر عليها الموركسيون. فقط المنطقة الاكثر ارتفاعا فى حى البيازين ، كانت القطاع الغرناطى الوحيد الذى سيطر عليه الموركسيون سيطرة مطلقة ، وهناك غرناطيون قليلون حملوا السلاح ، فبين أكثر من ٣٠٠ حالة لم تر الأ اشارة الى ٥٠ فقط هم الذين ثاروا ، وهم جميعا تقريبا (٤٤ من ٥٠) ينتمون الى الجزء الاعلى من الربوة ، ولم تكن هناك معاشرة فى السكن فقط بل اختلاط فى عالم العمل أيضا ، لقد كانت هناك خلايا تعمل وتذهب وتجئ وفيها يختلط المسيحيون بالموركسيين ، هؤلاء وأولئك كانت لهم محلات ومصالح مشتركة هناك ، خاصة حول ميدان " بيبارامبلا " ، وبصفة مستمرة أخص " الكايثاريا ". إن عمل وتجارة الحرير الذى برز فيه الموركسيون لم يكن احتكارا عليهم ، وكذلك النقل عن طريق الدواب أو البغال ، لم يكن عمل الموركسين فقط ، فقد مارس هذه المهنة ١٥ مسيحيا

١- الرقم المذكور أولا يمثل مانويتا به احصاء سنة ١٥٧٦ ، وهو موجود بدار المحفوظات فى سمنقه - القسم الخاص بقشتالة ، الورقة ٢١٩٢ ، وفى سنة ١٥٦٨ كان يوجد ٥٢٨٠ منزلا موركسيا فى غرناطة ، وبالاضافة الى ٤٨٢٨ منزلا الموجودة فى احصاء سنة ١٥٧٦ ، لابد أن نضيف ٤١ مسكنا خاصا ، ومساكن الرسميين (الموظفين) ، وقد تهدم منها ٤٢١. ، أما الرقم الموجود بين قوسين فهو يمثل منازل كل دارئرة كنيسة فى سنة ١٥٦١ ، وفقا للبيانات التى زودنا بها ، ق . رويث مارتين :
Movemientos demográficos y economicos en el reino de Granada durante la segunda mitad del siglo XVI (anuario de historia economica y social, 1968, PP. 144', 145'
B. Vincent : historia de los moriscos ... P. 44, Nota . 18'

فى سان " الديفونسو " سمة ١٥٦١ .

ويمكن لفت النظر الى ملاحظات مشابهة تتعلق" بقادش وبازا والمرية أو موترل" ففى هذه المدينة الأخيرة كان تعيش معا ١١٧ أسرة مورسكية ، ٢٨٦ أسرة مسيحية فى عام ١٥٦١، أما مايتعلق بالغوطات التى كانت تحيط بهذه المدن ، فإن الوضع مختلف ، فبعضها كان سكانه كلهم بلا استثناء من المورسكيين ، خاصة فى متخفضات "قادش وبازا" ، لكن هذه القرى كانت بصفة عامة أماكن عبور أو تشهد تغييرات مستمرة فى علاقاتها مع المدنية عبر السوق ، وبعض سكان هذه القرى حملوا السلاح بصفة فردية بأعداد أكبر من أعداد من كانوا فى المدن ، لكن لم تكن هناك ثورة جماعية ، ولابد أن نشير الى أن سكان " وادى لِكْرِنّ " فى القرى اللصيقة بغرناطة لم يثوروا ، رغم أن كثيرين منهم كانوا فى سلسلة الجبل ، وهؤلاء لم يتعاونوا مع المسيحيين ، وكان ميلهم أكثر نحو الثائرين ، حيث كانوا يساعدونهم بالمعلومات والمؤن عرضا .

أما نظام الإقطاع فيمكن أن يكون له تأثيره على عدم ثورة بعض المجموعات الريفية ، وكقاعدة عامة يمكن أن نقول إن أصحاب الاقطاعات دافعوا عن رعاياهم المورسكيين وفى مقابل هذا استمر هؤلاء على هدوئهم فى مناسبات عديدة (١) .

وإذا نظرنا إلى زعماء الثورة أو إلى جذورهم العرقية ، نجد بينهم بعض الغرناطيين وقد عينهم لـ . جرأد ، مثل ابن داود ، فرج بن فرج ، ابن عبو (مولاى عبد الله) ، والأخير هذا لا ينتمى إلى المدينة بل إلى القرية البوخارية ،وابن أمية ، وكان عمره أربعا وعشرين سنة ، كما كان نائباً فى مجلس غرناطة ومسئولاً عن الرى ، لكنه كان مرتبطا بقريته " دى بالور" ،

١- يذكر " بيرنارد بنثنت " بعض قرى ورجال الاقطاع ومواقفهم ، أنظر ص ٤٥ من كتابه المشار إليه اكثر من مره فيما سبق .

وكذلك " ارناندو دى ثاجـــيرا " ، وكان مأمورا قضائيا فى " قـــاديار " و " ميجيل دى دوخاس " وهو مواطن من " أوجيخر ، و " وايرناندو الحباقى " ، وكان مأمورا قضائيا فى " الكودياه و " الرامى " ، وكان يقوم بنفس العمل فـى " انستيثـون " ، و " ايرناردو الدآرا " سليل أسرة المأمورين القاضئيين فى " فرى خيليانا " و " خيرونمو المالح " المأمور القضائى لـ " فيرى يرا " ، وكل هؤلاء الأخيرون ينتمون إلى مناطق جبلية إلا " الحباقى " ، لهذا رأينا هذا الأخير وحده يحتفظ بعلاقات مودة وصداقة مع المسيحيين سمحت له أن يكون المفاوض أثناء مفاوضات الإستسلام .

ودراسة الحالة الاجتماعية لهؤلاء ليست أقل أهمية ، لقد كانوا جميعا من المشهورين ذوى النفوذ ، وقد بقى التنظيم الاجتماعى المرتبط بالسلف يعمل عمله عند المورسكيين ، كان يكفى أن يقرر واحد من هؤلاء المأمورين القضائيين المذكورين أى اتجاه فيتبعه الآخرون ، ونفس الشىء لم يحدث فى أوساط المدن ، فالأسر الكبيرة ، حتى لو كانت محترمة دائماً ، ارتبطت مع جماهير المورسكيين بصورة أقل بسبب قربها من المسيحيين . وعندما انتقل "ايرنادو دى بالور" وقـرطبة (ابن أمية) من غرناطـــة إلى "بالور" قام بعمل له مغزاه هو العودة إلى منابع وأصول الحضارة الإسلامية التي استمرت كامنة فى القرى ، فقد اتخذت الحرب فى أسابيعها الأول طابعاً متعصباً ، ترتب عليه قتل الرهبان والقساوسة مع تعذيبهم ، بالإضافة إلى تحطيم الكنائس ، وانتهاك الحرمات ، وهذا يفسر ذوبان السفاحين والمنفيين بين قوى الثورة ، ولسنا نعرف أنه كان بينهم واحد من أصل مدنى .

لقد كشفت الثورة ايضا عن قوة أواصر النسب بيـن المورسكيين ، فلم تكن هناك انشقاقات داخل المجموعات الأسرية ، وكان على كل أصل

أن يختار بين الولاء للحكومة القائمة أو الثورة . ونحن نـرى أن الجـــذر "بالور" - الذين يفتخرون بانتمائهم إلى عبد الرحمن الأول - ومعهم حلفاؤهم اشتركوا فى الصراع المسلح ، فابن أمية وجد بجواره ابن اخته " ميجيل دى دوخاس " معاضدا مساندا ، وكذلك " ارناندو الزاجير " وأخوه " لويس دي بالور " وابنى عمه ابن عيـو والغالـب ، وكلهم قاموا بدور بارز . أما والد ابـن أمية " انطونيو دى بالور " فيمكن أن يقال أنه رسم الطريق لأقربائه ، وقد حكم عليه بالسجن لمدة ٢٥ عاما ، وأمكنه أن يهرب ولكنه عاد إلى السجن ، وبُعث به إلى " جاليثيا " برفقة واحد من أبنائه كان موجودا خلال العمليات مع زوجته ومع بناته وصهره زوج ابنته ، وقد عاد هذا الأخير بعد مصرع حميه إلى " البوخارا " على رأس مجموعة من الجنود الموريسكيين بهدف اقناع الثائرين المستمرين فى قتـــالهم والذين ينتمـــون إلـــى قبيلة "زجريس" بالخضوع ، وكل هؤلاء استمروا على ولائهـم .أما القصور فقد بقيت مترددة لبعض الوقت ، وكان أصدقاء مجموعة "بالور" مخلصين للفريق الواقعى ، و "ايرنان بِّى" كان له - مع الحباقى - دور بارز فى المفاوضات ، كما كان هناك تنافس بين أفراد المجموعة الواحدة ، مثلا بين فرج الذى ينتمى إلى بنى السراج وبين لوس بالور ، وكذلك بين الحباقى وابن عبو ، بل وداخل أبناء الأصل الواحد ، بين أبناء العمومة ، مثلا بين ابن عبو من ناحية والغالب من ناحية أخرى ، ويلاحظ أن المفاوضين الأساسيين كانوا جميعا من سكان اقليم قادش ، وينتسبون ، بصورة أو بأخري ، إلى المعتدلين . وهكذا نرى أن كل مجموعة من الجذور العرقية تتخذ موقفاً موحداً .

إن الأسباب التى تكمن وراد قيام الثورة الموريسكية ، ليس مـن السهل احصاؤها ، ومع ذلك فهذه الثورة لا يمكن اخفاء طابعها الريفى بصورة جوهرية ، وهناك قليلون من الفنيين المشتغلين بالحرير وما يتصل

بصناعته ، أسهموا فى الإعداد واشتركوا فى الثورة بصوورة نشطة ، ولكنهم كانوا يمثلون استثناءات فقط ، فالأوساط الريفية هى التى عانت بسبب مشكلة الحرير وبسبب ابتزازات السلطـات المسيحية .

لقد كان الشعور السائد بين الجماعتين : الإسلامية والمسيحية ، هو شعور الحقد والبغضاء ، الذي غذاه سلوك المسيحيين خاصة . وبعض المسلمين – على مدار عقود من السنين ، يستوى فى ذلك ســـكان منطقة "البوخارا" أو سكان سلسلة جبال " نبتو مينث " ، لقد اصطف الموريسكيون تلقائيا خلف قادتهم الثائرين ، فكانت الثورة أشبه ما تكون بحفرة عمقت الفصل بين حضارتين ، كما كانت تعبيرا عن خيبة أمل أقلية ارادت المحافظة على هويتها (١) ، وقد أبرزت فى الآن نفسه التضامن الموريسكى داخل مملكة غرناطة ، فقليلون هؤلاء الذين قطعوا صلتهم بأبناء دينهم تعبيرا عن وحدتهم فى مواجهة الخصم المسيحى ، وكمْ كانت كثيرة أعداد الفلاحين الذين أسرهم المسيحيون ، ففعل زملاؤهـم كل ما فى وسعهـم لإنقاذ هؤلاء الأسرى ، وقد ذكر " نيكولاس كابريانا " بعض الحالات التى لها مغزى ، مثلا حالة الزوجين " جاريثا نابارّو " و " لينورساتا " ، فقد رهنا أرضهما لمعاونة ثلاثة من الموريسكيين فى جمع المطلوب لإنقاذهم من الأسر (٢) .

لكن هل نجد نفس روح ومستوى التضامن بين الموريسكيين من ناحية والأتراك والمغاربة من ناحية أخرى ؟

لقد عاش المسيحيون فترة من القلق ، خاصة عندما كانت أحداث الثورة تجرى فى عملها لمصلحة المسلمين ، ولقد كانت السلطات الأسبانية

1- B. Vincent: Historia de los morisc, PP. 45'

2- Nicolas Cabrellana: Esclavos moriscos del siglo XVI.

مقال منشور بمجلة الأندلس

Al- andalus XXiI, 1957', PP. 114' - 123'

وفى المقال أمثلة أخرى غير ما جاء فى الأصل .

تخشى أن تحمل على مواجهة مع القوي الإسلامية ، خاصة فى النصف الثانى لعام ١٥٦٩، يعنى عندما كان الموقف فى صالح المسلمين الثائرين . وليس من شك فى أن ثورة المورسكيين فى غرناطة ، كان لها صدى خارجى عظيم ، وهذا جعل " فرنارد براوديل " يتساءل عما إذا كانت الإنتصارات العثمانية اللامعة التى حققها " سليمان القانونى " ابتداء من سنة ١٥٣٨ تعتبر مؤشرا على بداية مرحلة من السيطرة الإسلامية على البحر الأبيض المتوسط ؟ أنه لا يمكن انكار أن ازدهار وانتصار الأتراك أحيا آمالاً عظيمة لدى المورسكيين ، وقد تكلم هؤلاء سنة ١٥٦١ عن قرب محاولات تركية ضد الشواطىء الأسبانية وعن غارة ضد بلنسية ، وفى سنة ١٥٦٥ أحاط السفير الأسبانى فى باريس - فرنسيس دى الابا- الملك علما بتردد أحد المورسكيين جيئة وذهابا بين أراجون وفرنسا ، وفى سنة ١٥٦٩ قدر حاكم الجزائر " العلج على " عدد الثائرين فى غرناطة بين ٦٠٠ ألف ، ٨٠٠ ألف ، وإن كان هذا التقدير مبالغاً فيه ، وقد ناقشت القسطنطينية امكانية انزال عثمانى فى البحر الأبيض المتوسط ، ووصل هذا الخبر إلي مدريد ، ويرى " براوديل " أن ثورة المورسكيين سببت عدم توازن لصالح الشرق فى صراع السيطرة على البحر الأبيض المتوسط بين الأسبان والأتراك وقد ظهرت الأصداء العاجلة لذلك عام ١٥٧٠ ، وتمثلت فى استيلاء حاكم الجزائر على تونس وفى الهجوم على جزيرة قبرص ، وترك هذا بدوره آثاره على انهاء الجامعة المقدسة ، وعلى معركة " ليبانتو الكبرى " عام ١٥٧١ ، وفى ربيع سنة ١٥٧٠ حدد الملك فيليب الثانى الوضع الإستراتيجى فى حوض البحر الأبيض المتوسط فى رسالة موجهة إلى " برى دى سردينيا " يتحدث فيها عن خطر تهديد اسطول الترك لهذه الأجزاء مستغلاً ثورة المورسكيين فى غرناطة ، واحتمال مناصرة إخوانهم فى " اراجون وبلنسيه وقرب تلك المناطق من إفريقية ، وفى ١١ مارس سنة ١٥٧٠ توجه الملك

من قرطبة إلى السلطات الدينية موجها أنظارهم إلى أن اسطول الترك ، العدو المشترك للمسيحية ، لابد أن يأتى هذا الصيف لتشجيع المورسكيين المتمردين فى غرناطة ، ويوصيهم بالصلاة والعبادة حتى يمكن تجنب ذلك الخطر (١) . وكتب السفير " فرنسيس دى البا " فى أوائل أغسطس ١٥٦٩ يقول " إن الله يريد معاقبة هؤلاء المثيرين للاضطرابات فى "البوخارا" قبل أن يتمكن هذا الكلب السلطان من تسليحهم " (٢) ، ولاحظ بعض السفراء بعد ذلك بعدة أيام أنه إذا اشترك المورسكيون الأراجونيون فى المعركة ، يعنى الثورة ، وهو ما يخشى منه ، فإن قوات الثائرين ستصبح مائة ألف وليس فقط ثلاثين ألفا . ورغم أن موقف المسيحيين كان قد تحسن فى الربيع التالى ، إلا أن الخوف من تدخل المورسكيين الأراجونيين ومن تدخل الأتراك كان لايزال قائما ، وهذا ما عبر عنه فيليب الثانى فى رسائله المشار إليها آنفاً (٣) ، كذلك تتحدث وثيقة أخرى عن نفس الشئ فتقول : إنه فى " بيًّا " وسكانها جميعا موريسكيون بنسبة ١٠٠٪ - جرت استعدادات كبيرة ، حتى الأطفال يتدربون على

1- Fernord Braudel: la mediterrance et le monde meditrramein al, epoque de philip II, Paris 1949, P. 902'

وانظر صفحات ١٨٣، ١٨٦ ، ٣٤٠، ٣٤١ ، ٥٥٢، ٥٥٣، ٥٥٦، ٥٥٧، ٥٦٤، ٥٧٣، ٥٨٤ من الجزء الثانى للترجمة الأسبانية حيث تجد حديثا عن الاثار الداخلية والخارجية لثورة غرناطة ، وراجع أحداث الثورة وتطوراتها من ص ١٧٤ : ٢٠٠ وانظر أيضا :

Anderson: Naval Wars en the levant, PP. 855 liverpool 1953,pp,8 y ss-Juan regla: Estudios sobre los moriscos, PP. 204,205,248, 249 Barcelona 1974'.

٢- والترجمة الأسبانية ص ٥٥١ Braudel : Op.cit, P. 362'

٣- وهناك نص بنفس المعنى فى دار محفوظات التاريخ القومى أنظر

J. regla: Estudios ... PP. 248' , 249'

Osuna, leg. 419, Fol . 115'.

استخدام الاسلحة ، ويضيف " أنهم كانوا سيتعاقدون بالتأكيد مع المورسكيين في غرناطة وبعضهم قد جاء إلى هذا المكان ، بينما جاء آخرون من أمكان أخرى ، وعندهم طريق سرى يمكنهم أن يذهبوا خلاله دون أن يختلطوا بالسكان ، وفى وسعهم أن يقدموا خدمات كثيرة إلى ملكهم ، وأن يحملوا كثيرا من سهام النبال إلى أقربائهم ، وهم فى الآن نفسه يحاولون ويعملون على الإتصال بالمورسكيين فى المناطق الأخرى أكثر مما تعودوا أن يفعلوا قبل الثورة (١) .

ويرغم مبالغات بعض المصادر المشار إليها ، إلا أنه لابد من الإعتراف بأن خطر الإتصال بالقوى الخارجية كان قائما ، وكان الأسبانيون والبرتغاليون يقومون بشن حروب متصلة على أقاليم الشمال الأفريقى لأنها تضم تجمعا إسلاميا هائلا يمكن له شد أزر مسلمى الأندلس فى كفاحهم الدينى أى أن هؤلاء عملوا على إحتلال الشمال الأفريقى للفصل بين المغاربة وأخوانهم المسلمين فى العدوة الأخرى .

وقد احتل الأسبان المرسى الكبير غربى الجزائر عام ١٥٠٥ وقتلوا أربعة آلاف مسلم وأسروا ثمانية آلاف ، واحتلوا مليلة ومدينة الجزائر ، وفى عام ١٥٠٨ احتلوا حجر باديس ، وفى العام التالى استولواعلى بجاية وفى عام ١٥١٥ احتلوا ميناء طرابلس ودمروا منشآت المدينة كما استولوا على وهران وغيرها من المدن الساحلية ، وتناثرت على طول الساحل الشمالى لأفريقية محطات عسكرية اتخذهاالأسبان جيوبا صليبية .

ومع ذلك فإن انتصارات الدولة العثمانية الباهرة فى اوربا وآسيا ، وفتح السلطان محمد الفاتح للقسطنطينية ، وصل صيتها إلى مسامع الدنيا

1- Instituto de valencia de Don juan, envio 1, P. 37, texto del 17 de mayo de 1569' 1570'

وانظر فى ذلك كله أيضا : B. Vincent : Historia de los moriscos .. P. 48'.

بأسرها ، ودفع المسلمين إلى أن يلجأوا طالبين نجدة الدولة العثمانية وإنقاذها على النحو الذى سبق ذكره ، فأصبحت بلاد وبحار الشمال الأفريقى موطنا للصراع بين قوات الخلافة العثمانية وأعدائها من البرتغاليين والأسبان .

وقد جذب هذا الصراع عددا كبيرا من البحارة المسلمين من شمالى أفريقية ، من هؤلاء الذين خدموا الأسطول العثمانى أول أمر ثم ما لبثوا أن كونوا سفنا تعمل فى النقل البحرى لحسابهم الخاص وتجاهد فى نفس الوقت ضد الأعداء ، وقد عرفت هذه السفن باسم " مراكب الجهاد " وكان من أبرز قادتها : عروج وأخوه خير الدين بربروس وحس باشا وصالح ريس ودراجوت باشا وغيرهم ، وقد حرص المؤرخون الأوربيون على تجريح هؤلاء القادة وسخروا منهم وألصقوا بهم كل نقيصه ، وأسموهم قراصنة ، وصمموا على ذكر اسم كل منهم مسبوقا بصفة " قرصان " وأمير بحر تركى وتبعهم فى ذلك بعض الباحثين المسلمين (١) ، والواقع أن هؤلاء مجاهدون مسلمون ، شقوا طريقهم فى البحر دفاعا عن دينهم ، وخاضوا صراعا ضاريا ضد دولتين بحريتين تمتعتا آنئذ بمصادر مالية وحربية رهيبة هما اسبانيا والبرتغال ، وليس لذلك من تبرير سوى شعور هؤلاء الأوربيين بالكراهية والمقت لهؤلاء القادة ، بسبب ما أنزلوه من خسائر بالأوربيين وبفرسان القديس يوحنا .

ولعل من المناسب هنا أن نلمح إلى جهاد " بابا عروج " في منطقة الشمال الأفريقى ، فقد كان شخصية قوية ولديه خبرة فى مهاجمة الأسبان وقد انتصر عليهم مرارا فذاع صيته ، وطلب إليه رجال القبائل فى الجزائر أن يعاونهم فى استرداد ميناء " بجايه " من الأسبانيين ، وهى أكبر

١- أنظر مثلا : أحمد عبد الرحيم مصطفى : فى أصول التاريخ العثمانى ص ٩٢ ، القاهرة ١٩٨٢

ميناء فى شرقى المغرب الأوسط آنئذ ، وقد نجح فى تحقيق ذلك وحرر هذا الميناء وخلصه من قبضة الأسبان ، ثم طلب منه مواطنو بلدة الجزائر أن يساعدهم فى صمودهم أمام الأسبان الذين أقاموا قلعة منيعة اسمها "بينون " Penon على الجزيرة المواجهة للساحل والبلدة ، وحصنوها جيداً بحيث تهدد سكان الساحل وتمنع وصول سفن المسلمين فى نفس الوقت ، فسار "بابا عروج" بطريق البر على رأس ثمانمائة جندى نظامى وخمسة آلاف متطوع ، وأرسل فى الآن نفسه سفنا محملة بالمجاهدين ومسلحة بالمدفعية وهدد الحصن وصد هجوم أسبانى على البلدة ١٥١٦ ، واتخذ مقرا لحكمه فى الساحل المواجه للجزيرة الخاضعة للأسبانيين وأسس حكومة عسكرية قادها وانضم إليها كبار رجال القبائل وسكان المدن ، واستولى على اقاليم المغرب الأوسط مثل "مليانه ومرية وتناس" الواحدة تلو الأخرى ثم عهد لاخيه خير الدين بإدارة كل شرقى البلاد ، وكان لنجاح بابا عروج أصداء فى تلمسان عاصمة بنى زيان غربى الجزائر ، وظهر فيها اتجاه إلى توحيد الجهود مع هؤلاء المجاهدين خاصة وقد هادن بنو زيان الأسبان واستنجدوا بهم وكان هؤلاء يحتلون "وهران والمرسى الكبير" فى ذلك الوقت وكان بنو زيان يخشون هجوم بابا عروج على وهران ، وقد ارسلت أسبانيا حملة قوامها خمسة عشر ألف مقاتل ، توغلت فى أرض الجزائر وحاصرت تلمسان ، وأسروا بابا عروج وقتلوه عام ١٥١٨ ، ولم يبلغ من العمر ٤٤ عاما ، وبسبب ما كان له من لحية حمراء اطلقوا عليه لقب عروج بربروس أى صاحب اللحية الحمراء ، وقد حمل نفس اللقب من بعده أخوه خير الدين ووصلت شهرته إلى مدى أوسع ، وكان اسمه الحقيقى " خرزريس" .

ويُذكر لعروج أنه نجح فى توحيد معظم صفوف الشعب الجزائرى ، وقرب بينه وبين باقى المسلمين فى شمالى أفريقية فى كفاحهم ضد عدو مشترك .

وبسبب ضعف المركز السياسى والعسكرى لخير الدين بسبب مقتل أخيه ، وتكالب بنى حفص وبنى زيان والأسبان عليه ، وما كان يواجهه من نقص فى العتاد ، طلب من الدولة العثمانية أن تعمل على نجدته ، فى صورة رسالة بعث بها على لسان سكان مدينة الجزائر الى السلطان سليم الأول الذى كان فى أوج إنتصاراته بعد نجاحه ضد الدولة الصفوية فى فارس وضم الشام ومصر والحجاز وسواحل اليمن الى دولته ، وقد استجاب السلطان للنداء ، وعين خير الدين قائدا أعلى ممثلا للسلطان بالإقليم وأمده بالعتاد والجند ، وأصبحت الجزائر بذلك أول إقليم بشمال أفريقية يدخل تحت السيادة العثمانية ، وأصبحت منطلقا لمد النفوذ العثمانى الى إقليمين آخرين هما طرابلس وتونس ، وكان على خير الدين بربروس فى وضعه الجديد أن يحارب الأسبانيين لطردهم من الجيوب التى أقاموها على ساحل الجزائر ، وقد نجح فى تحقيق هذا الهدف ، فضم "عنابة وقالة" وشرقى الجزائر ثم إستولى على حصن " بنيون " الأسبانى المواجه لبلدة الجزائر بعد قذف مركز دام عشرين يوما ، بعد ذلك إقتحمه بقوات كثيفة محمولة على خمس وأربعين سفينة جاءت من الساحل ، وأسر قائد الحصن "مارتين دى فرج " Martin De Verge وكبار الضباط .. ثم أقام خير الدين حاجز أمواج يصل أطلال الحصن والجزيرة بالساحل ويستخدم من ناحيتة الداخلية كرصيف للسفن ، وبذلك أوجد ميناء حصينا وآمنا ترفأ إليه السفن ، ولكن ظلت " وهران " قاعدة اسبانية تهدد الجزائر حتى سنة ١٧٩٢ ، كذل نجح خير الدين فى محاولاته بالداخل ، وأعلنت بعض المدن الهامة مثل قسنطينة الإعتراف بالسلطة والنفوذ العثمانى .

وقد أمكن بفضل المساعدات التى تلقاها من السلطان سليمان القانونى أن يوجه ضربات موجعة للسواحل الأسبانية ، وأمكنه أن ينقذ آلاف المورسكيين من عنت الحكومة الأسبانية وساعدهم على اللجوء لبلاد

الشمال الأفريقى ، حيث قام فى سنة ١٥٢٩ بتوجيه ست وثلاثين سفينة إلى السواحل الأسبانية حملت سبعين ألف مسلم فى سبع رحلات ونقلتهم إلى العدوة الأخرى ، الشىء الذى جعل المسلمين فى غرناطة وبلنسية وغيرها يلجأون إلى خير الدين لإنقاذهم ، وبذلك أصبحت الجزائر قاعدة عثمانية لصد الهجوم الأسبانى " وغدا خير الدين بربروس الحارس الأمامى للدولة العثمانية فى الحوض الغربى للبحر الأبيض المتوسط ، وكانت تساندة قوات وموارد الدولة العثمانية فى الصراع ضد شارل الخامس وامبرطور الدولة الرومانية المقدسة ، والتى كانت تضم وقتذاك "اسبانيا وبلجيكا وهولندا وألمانيا والنمسا وإيطاليا "(١) ومن المحتمل أن تكون قد جرت إتصالات بين المورسكين فى غرناطة وبين زملائهم من بلنسية وان تكون قد ارسلت شعارات عديدة الى بعض بلدان الشمال الأفريقى مثل الجزائر وتطوان ، وايضا الى القسطنطينية . لقد كانت الاتصالات نشطة مع هذه العواصم . ولدينا رسالة ابن داود - احد زعماء وادباء الثورة - والتى كتبت فى فترة مبكرة ، ووجهت الى زعماء المغرب الذين طلب غوثهم ونجدتهم(٢) كذلك إنتقل " لويس دى بالور" أخو "ايرناندو " - إبن اميه - الى الجزائر فى يناير سنة ١٥٦٩ ، وسافر منها الى القسطنطينية فى نفس العام . كذلك حصل " الحباقى" على وعود مؤكدة قدمها اليه " أولاد ج على" حاكم الجزائر . وفى فبراير ١٥٧٠ ارسل ابن عبو (مولاى عبدالله) رسلا جديدة الى المدينتين الصديقتين . وقد أرسل حاكم الجزائر اسلحة الى الثائرين وكتب الى مولاى عبدالله بأنه "بهذا تتضاعف الرغبة فى وجوب

١- أنظر : عبد العزيز محمد الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج ٢ ص ٩٠٤ الى ص ٩١٤ ، وكذلك : أحمد عبد الرحيم مصطفى فى أصول التاريخ العثمانى ص ٩٢ وما بعدها ، القاهرة ١٩٨٢ م .

٢- أنظر ص٨٣-٨٥من هذا البحث .

مساندتكم لأننا نكون معكم اليوم جسما واحدا "(١) .

لقد كان الصراع عاتيا وعنيفا بين القوات العثمانية من جانب وبين القوات الصليبية الأوربية من جانب آخر ، وقد حمل " الأسطول العثمانى راية الجهاد البحرى الدينى الإسلامى ، ضد تكتلات بحرية صليبية أوربية عاتية سواء فى حوض البحر الأبيض المتوسط أو البحر الأسود أو المحيط الهندى أو منطقة الخليج العربى ، ودافع عن الإسلام وأمن الحدود الجنوبية والشرقية للولايات العربية فى آسيا من الغزو الصليبى البرتغالى بوجه خاص " .

وابتداء من الثلاثينات فى القرن السادس عشر ، ظهر الأسطول العثمانى قوة ضاربة عملاقة فى مناطق متعددة من الحوض الغربى للبحر الأبيض المتوسط : فى جنوبى ايطاليا وصقلية وجنوبى فرنسا وسواحل اسبانيا بالإضافة إلى أقاليم الجزائر وتونس وطرابلس ، وقد مثل نشاط الأسطول العثماني انعكاسا لسياسة الدولة على عهد السلطان سليمان القانونى التى استهدفت مزيدا من التعاون بين الدولة العثمانية وفرنسا المتحالفة معها ، فقد أصبح فى مقدور الدولة العثمانية أن تتغلغل بأسطولها وأن تتخذ وحداتها من الموانى الفرنسية قواعد تحتمى بها ، وأن تهاجم ممتلكات الأمبراطور "شارل الخامس" فى إيطاليا وأسبانيا ، بهدف تخفيف الضغط على القوات الفرنسية فى حربها ضد الإمبراطور ، كذلك ساعدت انتصارات العثمانين فى غربي البحر الأبيض المتوسط على انقاذ افريقية من الغزو الصليبى ، ودخول الأقاليم الإسلامية المذكورة آنفا تحت النفوذ العثمانى .

وقد أسفر التعاون العثمانى الفرنسى عن الإستيلاء على بعض

1- Marmol : op. cit. p.318.

الموانى المهمة ، وتطهير المنطقة الواقعة فى منتصف حوض البحر الأبيض المتوسط من السفن الأسبانية ، وفى سبتمبر سنة ١٥٤٣ حدث أمر فريد وهو تحول ميناء طولون - الميناء الحربى لفرنسا فى حوض البحر المتوسط - إلى قاعدة حربية عثمانية إسلامية ، وهذا أمر بالغ الأهمية فقد كان الأسطول العثمانى يقوم بمهاجمة الأهداف العسكرية الأسبانية ، ولكنه كان فى حاجة إلى قاعدة يستند إليها فى عملياته ، فقامت الحكومة الفرنسية بإخلاء الثغر المشار إليه من جميع سكانه وحولته إلى قاعدة عسكرية للإسطول العثمانى ، وقضى خير الدين بربروس شتاء ١٥٤٣ - ١٥٤٤ فى هذه المدينة واستطاع أسر اربعة عشر ألف من قوات شارل الخامس وعامل الناس معاملة حسنة ، ولكن هذا التحالف بين السلطان المسلم وبين "فرانسوا الأول" ملك فرنسا لم يرق لدى الرأى العام الأوربى فأطلقوا عليه عبارة " الإتحاد المدّنس بين فرنسا وبين الهلال " .

ورغم أن خير الدين بربروس اعتزل حياة البحر بعد معركة"طولون " فإن الأسطول العثمانى واصل انتصاراته واستولى على العديد من الموانى فى مواقع مختلفة ، إلى أن كانت موقعة " لبانت " التى تعرض فيها الأسطول العثمانى لهزيمة مريرة على عهد السلطان سليم الأول سنة ١٥٧١ وهكذا قامت قوات الدولة العثمانية ، وبرهنت على وجودها وإنتشرت أخبار انتصاراتها واتجهت إليها حشود المسلمين فى أسبانيا وغيرها تطلب نجدتها وانقاذها ، وخشيت السلطات الأسبانية آثار ونتائج الإتصال بين المسلمين فيها وبين الدولة العثمانية ، فصبت جام غضبها على المسلمين المنصرين (١) .

١- أنظر : عبد العزيز محمد الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج ٢ من ص ٨٨٧ الى ٩٠٤ ، القاهرة ١٩٨٦ م .

وقد درس " اندريو هيث" Andrew C. Hess قضية العلاقات بين الموريسكيين وبين الدولة العثمانية ، معتمدا عـــــلى مصادر تركية لأول مرة (١) ، وبالبحث فى السجلات أو فى دور المحفوظات لم يجد ما يدل على أن الثوار قد طلبوا مساعدة الحكومة التركية ، لكن هناك بعض القرارات التى تشير إلى اهتمام السلطان العثمانى سليمان القانونى بهذه القضية ، وقد كتب مرة إلى الموريسكيين يقول :

" لقد علمت أن عندكم عشرين ألف رجل يحملون السلاح ، وأن هناك ١٠٠ ألف آخرون ليس لديهـم أسلحة ، وإنه بوصول الأسلحة من الجزائر امتلأوا ثقة وارتفعت معنوياتهم وسببوا هزائـــم كثيرة للمسيحيين الأشـــــرار " (٢).

وقد فكر السلطان العثمانى فى تقديم المساعدة بصورة مباشرة بمجرد أن ينتهى من فتح قبرص ، وقد أكّد لهم - ضمن أشياء أخري - أن عونه لهم من خلال الجزائر سوف يستمر ، ويؤكد " هيث " أن السلطان العثمانى لم يحاول فقط استخدام الطابور الخامس الموريسكى بل وضد أسبانيا وضد البروتستانت أيضا (٣) .

---

١) هـــذه الدراســـة بعنـــوان :

The Moriscos:anottoman fifth column XVI century Spain

وقد نشرت فى مجلة :

"The American Historical Review"(LXXIV)1968, PP.1-25

2- Andrew C.Hess: the moriscos: an ottoman Fifth columm, P. 14'

ويقـــــول :

" أن السلطان سليم الثـــانى قد تلقى معلومـــات عن ثورة غرناطة قبل ربيع عام ١٥٧٠ وأن حـــاكم الجزائر - لا ندرى بأمر السلطان أو بمبادرة منه قام بإرسال أسلحة ومعـــدات للثورة " أنـــظر ص ١٥ و١٦ و١٨ و ٢٠ من البحث المذكور " .

ومع ذلك فإن المساعدة المؤثرة التى تلقاها الموريسكيون كانت محدودة وبالتأكيد كانت هناك مشاكل بين جانبى البحر الأبيض المتوسط ، مثلا فى أغسطس سنة ١٥٦٩ أرسل " الهوس ثين " ٤٠٠ جندي نزلوا على الشواطىء الأندلسية ، وفى ربيع سنة ١٥٧٠ عثر على أربعة آلاف جندى من الأتراك والمغاربة بين ٢٥ ألف مقاتل ، وفى يونيو جاءت قوات أخري ، لكن اعترض طريقها وأخذوا جميعا أسرى ، ومن ناحية أخري يحدثنا " اسكولانو " عن تدخل الموريسكيين البلنسيين وعن ثورة قرية بهذا الإقليم فى مارس سنة ١٥٧٠ (١) ، لكن هذا كله يعتبر شيئا قليلا إذا قورن بالإحتمالات التى كان يجب أن يتلقاها الثائرون الغرناطيون القائمون بانتفاضة جماهيرية من جانب اخوانهم فى الدين الذين تدعمهم امكانيات أو قوات بحرية مهمة ، كل ذلك فى فترة شغلت فيها القوات الأسبانية بمعاركها فى ايطاليا وفى فنلندا ، وقد ادرك الموريسكيون الغرناطيون أن المساعدة التى يتلقونها غير كافية ، وشكوا من ذلك بلا ريب ، وقد أجاب " اولادج على " حاكم الجزائر ابن عبو (مولاى عبد الله) قائلا " أما ما يقال من أننا لم نسعفكم ؛ لأن المدن عندنا سكانها قليلون ، فأنا أقسم بالله أننى ما عرفت أن ذلك قد قيل . . . " (٢)

وهنا لابد من بحث الأسباب التى جعلت الموريسكيين لا يتلقون مساعدة فعّالة من أخوانهم المسلمين خارج البلاد الأسبانية . فيما يتعلق

1- Escolano: Decada primera de la historia de ... Valencia, II col. 1775 (Cit. por Garcia Martinez Bandolerismo, pirateria y control de moriscos en Valencia durante el reinado de felipe 11 .

وانظـر :

"Estudis" 1972,p.123

B. Vincent. Ibid, P.49.

2- Marmol : Ibid,p.318

بالأتراك ، مرّ بنا أنهم كانوا مشغولين بفتح قبرص فقد تم ارسال حملة بقيادة سنان باشا سنة ١٥٧٠ لإعادة السيطرة العثمانية على اليمن ، وفى العام التالى ١٥٧١ أرسلت حملة لفتح جزيرة قبرص وانتزاعها من جمهورية البندقية ، فوق أن الدولة العثمانية تعرضت لكارثة فقد أسطولها فى معركة لبانت سنة ١٥٧١ (١) ، بالإضافة إلى انشغال الأتراك بالقضايا التى كانت معلقة مع روسيا ، وقد تمّ فتح قبرص فى خريف عام ١٥٧٠ ، وكان الوقت قد أصبح متأخرا فيما يتعلق بنجدة المورسكيين ، وفى العام التالى ، جرت موقعة " ليبانت " Lepanto ، وأصبحت تركيا شيئا فشيئاً لا تهتم بأحداث غربى البحر الأيض المتوسط ، ثم توصلت إلى هدنة ضمنية مع فليب الثانى (٢) . ذلك أن هزيمة الأسطول العثماني على عهد السلطان سليم الثاني فى هذه الموقعة كان بمثابة كارثة وكان عدد وحدات الأسطول العثمانى ٣٠٠ بينما كان سفن الأعداء ٢٥٠ ، ولم تستمر المعركة أكثر من ثلاث ساعات فى السابع من أكتوبر عام ١٥٧١ ، ورغم أن خسائر الأوربيين فى العتاد والأرواح كانت جسيمة ، إلا أن غالبية وحدات الأسطول العثمانى قد تحطمت ولم يتمكن من الفرار إلا ١٣ سفينة وقتل وغرق عدد كبير من قادته وبحارته المدربين وضباطه المتمرسين فى شئون الملاحة والقتال البحرى منهم القبطان باشا وبعض البشوات والبكوات وحكام بعض الأقاليم وعشرين ألفا من الأفراد ، ولم تتمكن الدولة من تعويض خسارتها إلا بعد ذلك بسنوات ، وقد أسمت الدولة تلك المعركة باسم " معركة الأسطول الذى غرق " وتعرف فى المصادر باسم " لبانت " ، لأنها دارت فى المنطقة الواقعة بين خليج لبانت وخليج

١- أنظر تفصيل ذلك عند : عبد العزيز محمد الشناوى : الدولة العثمانية ... ج٢ ص ٩٢٥-٩٢٧.

2- Braudel: op. cit. tomo II, P. 365 y ss

باتراس ، ولبانت حاليا ثغر يونانى ، وكان من أسباب هزيمة البحرية العثمانية أنها واجهت تحالفا رهيبا من البابوية وأسبانيا والبندقية وتوسكانيا وجنوه وفلورانس وسافوى ومانتو وبارما وفرسان القديس يوحنا بجزيرة مالطة وكان البابا بيوس الخامس هو المحـــرك والمخطط لـــهذه المعركة (١) .

ثم وقع مراد الثالث عدة معاهدات مع أسبانيا ، ضمنت له التفرغ لمواجهة الصفويين فى إيران (٢) أما " أولادج على " صاحب الجزائر ، فقد اهتم فى أكتوبر سنة ١٥٦٩ بصنع وتجميع الأسطول الذى سمح له بالسيطرة على تونس سنة ١٥٧٠

باختصار لقد فضل الحلفاء الرئيسيون للموريسكيين استغلال اللحظات الحرجة بالنسبة لأسبانيا ، وعملوا لصالحهم الخاص وتحقيق أهدافهم هم ، بل إن بعض المؤرخين يقول : " إن " اولادج على " منع المتطوعين الذين رغبوا فى الذهاب إلى الأندلس ؛ ليستخدمهم فى تحقيق أغراضه فى تونس ، ولم يسمح بالإبحار لمملكة غرناطة إلاّ لمقاتلين من النوع المتوسط (٣) ، ومع ذلك فقد قامت القوات التركية وقوات الشمال الأفريقى بدور لا يستهان به فى الدفاع عن " عنـوس " القبطـان التركى ، وحارب " الكوسالى " بشجاعة حتى الموت ، وهناك زعماء آخرون تدخلوا فى اللحظات الحاسمة مثل"حوسثين ، وكاراكاس ونبيل وعلى و محمد"، لقد عملوا على اغتيال " ابن آمية " فى أكتوبـر ١٥٦٩ ، وأقنعوا ابن عبو

١- أنظر : الشناوى الدولة العثمانية ج ٢ ص ٨٩٦ -٨٩٩، وكذلك :

–Jamil M. Abu nasr: A history of the Maghrib in the Islamic period, P. 169 , 214 .

2- Andrew C. Hess: the moriscos ... P. 22

3- Beraudel: op.cit. tomo 2 P.365 y ss

(مولاى عبد الله) فى يونيو سنة ١٥٧٠ بوجوب مواصلة استمرارَ الثورة وأيّدوا استمرار المقاومة مهما كلف الأمر ، وهذا ربما يخدم مصالح الجزائر أو القسطنطينية أو هما معاً.

أما عذوف الموريسكيين فى مملكة " اراجون " عن مناصرة إخوانهم فى غرناطة ، فإنه يبدو أمرا غريباً للوهلة الأولى ، لكن يبدو أن الإنشقاقات العديدة فى الوطن الموريسكى ، كانت وراء ذلك ، كما كان الموريسكيون فى منطقة بلنسية منزوعِى السلاح منذ عام ١٥٦٣ ، وكانوا يتعرضون للرقابة عن قرب كما هو الحال مع موريسكيى اراجون ، ويشير لـ . "جاريثا كارثل " فى بحث تقدم به إلى المؤتمر الأول لتاريخ الأندلس ، أنه أقيم " عزل صحى " عزل بين الغرناطيين والبلنسيين ، لقد أدرك هؤلاء أنهم سيشتركون فى حرب لا يمكن تحقيق نصرٍ فيها ، ووعوا أن أسبانيا التى يمكن إعادة فتحها باسم الإسلام أصبحت وهْماً ، وقد تنبه الموريسكيون الغرناطيون من جانبهم أن التضامن الإسلامى له حدود (١) .

مهما يكن من أمر ، فقد تم تجميع الموريسكيين من كل القرى فى مملكة غرناطة ، وتمّ حشدهم فى سفينة كبيرة بهدف نفيهم إلى مناطق أخرى وكان ذلك فى نوفمبر سنة ١٥٧٠ ، ويرجع التفكير فى هذا الأمر إلى سنوات ماضِيات ، وتقرر منذ مارس ١٥٧٠ ، وهو الآن فى دور التنفيذ ولم يتم ابعاد الموريسكيين الذين اشتركوا فى الثورة وحملوا السلاح فحسب بل وأيضا الذين كان يطلق عليهم لقب " موريسكيو السلام " أى الذين لم يشتركوا فى الثورة ، وقد رئى أن هذه هى الوسيلة الوحيدة المؤثرة لوضع حدٍ للثورة ، وعزل الذين رفضوا الهزيمة واختبأوا فى شعاب الجبال بهدف مواصلة القتال .

1- B. Vincent: Ibid, p.50

وكان هذا الإجراء سببا فى امتعاض وكآبة من عاشوا مطيعين خانعين وقد عارض هذه الفكرة الماركيز دى موندخير ضمن آخرين بما فى ذلك بعض المطارنة ورجال الدين ، وكانوا يتساءلون : كيف يمكن اخلاء المملكة من هؤلاء السكان فتضيع الثمار والفواكه وهى ملك لهذه الأمة ؟ ! إن هؤلاء يعيشون بين سلاسل الجبال ويقتاتون بالقليل جدا ، بينما لايستطيع المسيحيون أداء اعمالهم أو الحلول محلهم (١) .

وعلى كل حال فقد تم تقسيم مملكة غرناطة إلى سبعة مناطق ، وأوكل إلى عدد من المسئولين فى كل منطقة - بمعونة المأمورين - القيام بمهمة جمع الموركسيين من القري المختلفة إلى مراكز التجمع فى (روندا ومالقة وغرناطة وقادش وبازا وبيرا وآلمرية) ، وكان على كل مسئول أن يجمع السكان من عشرة من القرى .

وقد استغرقت هذه المرحلة الأخيرة اسبوعا واحدا ، وتمكن بعض الموركسيين من الإختفاء وهرب آخرون ، وتمكن فريق ثالث من مقاومة استفزازات القوات المسيحية ، ومع ذلك أمكن تجميع أكثر من ٥٠ ألف شخص فى الأماكن المذكورة تم حشدهم داخل المستشفيات والكنائس وكان توزيع هؤلاء كما يلى :

خمسة آلاف تم تجميعهم فى "مالقة ورنده"، ١٢ ألف فى "غرناطة"، ١٢ ألف فى "قادش" ، وستة آلاف فى "بيرا"، ٨٥٠٠ فى "المرية"، يضاف لهؤلاء ٤٣٥٠٠ من "بازا"، بينهم ٢٤٠٠ شخص تزيد أعمارهم عن ١٤ سنة وتقل عن ٦٠ ، يرافقهم عدد كبير من النساء والشيوخ والأطفال ، وقد تجاوز مجموعهم الـ ٥٠ ألفا ، وهو الرقم الذى قدمه الوكلاء المسئولون عن

. 1- J. caro Baroja: los moriscos ... P. 203

النفى ، فقد كتب واحد منهم يقول أن أكثر من ٥٠ ألف مورسكى قد تم ارسالهم إلى قشتالة . وكيل آخر يذكر فى رسالة بعث بها إلى الكاردينال يقول فيها : إن تقريرا يذكر أن المسلمين الذين أخرجوا من هذه المملكة هذه المرة أكثر من ٣٥ ألف نسمة ، وهذا الرقم تقريبى ، فقد عرفنا بعد هذا أنه خرج - بالإضافة إلى هؤلاء - أحد عشر ألف آخرين عن طريق نهر المنصورة ، ومفهوم من هذا أن عدد من خرج من المملكة ٥٠ ألف نسمة تقريبا " وتلك هى المرحلة الأولى لإخراج الموريسكيين من مملكة غرناطة (١)

أما المرحلة الثانية فهى عبارة عن السير فى طريق طويل باتجاه الشمال أو الغرب ، لقد كان كل شىء معداً ، وقد قسم الموريسكيون إلى مجموعات كل منها تتكون من ١٥٠٠ شخص يتبعهم ٢٠٠ من الجنود و ٢٠ من الفرسان ، وكان على كل مجموعة أن تسير مسافة ٢٠ كيلو متر يوميا ، وتتبع المجموعة صفوف من العربات تحمل الأمتعة وما يمتلكه هؤلاء المطرودون ، أما المؤونة فكانت مضمونة حيث كانت توزع وجبتان يومياً أحداهما خفيفة فى الصباح والأخرى فى المساء فى نهاية الرحلة اليومية ، وكانت قيمتها الغذائية أكثر ، وقد تلقى المشرفون تعليمات استخدام الكلمات الطيبة مع الموريسكيين قبل ترحيلهم ، بل قيل لهم : دعهم يبالغون فى الأحلام والأمانى الكاذبة ، هذا مايستشف من الأوامر المعطاة لمندوب " بازا " ، وقد حاول من لم يثوروا أن يعاملوا معاملة خاصة ولكن لم يستجب لهم (٢) .

1- Archivo del instituto de valencia de don juan , Madrid

envio 62, P. 466, documento del 14 - XI - 1570

B. Vincent: Ibid, P. 51.' نقلا عن

2- J. caro. baroja: los moriscos ... P. 204'. وأنظر فيه ذكر لأسماء قادة المجموعات

وقد برر اخراج المورسكيين بجدب مملكة غرناطة وعدم توافر المحاصيل بها ، وبأن الحياة بها أصبحت مستحيلة بسبب الحروب المتواصلة وما ترتب عليهـا ، وهذا هـو السبــب فى أن الملك قد اتخذ قراره بأن يخرج المسيحيون الجدد من هذه المملكـة ويحملـون إلى " قشتالة " والمحافظات الأخرى حيث تتوافر المحاصيل ولا يتعرض الناس لمعاناة بسبب الحروب ، وحيث توجد المؤن والزاد بصورة مريحة تغطى حاجات الناس لهذا العام ، وقد بُيّن لهم أنه يمكن أن يعودوا مستقبلا إلى منازلهم ، بل ولهم أن يحملوا معهم كل ممتلكاتهم المنقولة دون ترك شيء منها ، والخلاصة أنه ينبغى أن نريحهم عن طريق الكلمات الطيبة التى نعرفها ، وفى الواقع فإن الخطة المبدئية لنقل المجموعات التى كان مقررا أن تتجه نحو " البثيتى واشبيلية " لم تنفذ ، لأن الأحوال الجوية حالت دون الإنتقالات ، فقد هبت عاصفة من البحر الأبيض المتوسط تعذر معها السير وهطلت سحب وأمطار غزيرة حالت دون نقل المؤن والزاد على طول الطريق إلى " البثيتى " ، وكان على المورسكيين أن يسيروا فى ظل أوضاع فى غاية الصعوبة وعلى مدار أسابيع عديدة حتى استوجب الأمر تأثر وشفقة الوكلاء المسئولين انفسهم عن تنفيذ قرار الطرد هذا ، وأنها لمعروفة تلك الوثيقة المعبرة التى كتبها " دون خوان دي استوريا " ويمكن ذكر أخرى مثل شهادة " خيرونمو دى قونتس " التى كتبها إلى الكاردينال : " إنه من المؤلم جدا أن ترى أعدادا غفيرة من الأطفال الرضع ومن النساء ، وأن ترى التعاسة والنكبة التى تعرضوا لها والتى لا يمكن أن تنتهى ولأن الجو رديء وأعدادهم كثيـرة ، والأخطـار عديدة ، فإنه من غير الممكن اتخاذ اجراءات وقائية للجميع " (١) .

1- Archivo del in stituto de valencia ... envio 1, P. 49

B. Vincent : Historia de los moriscos, P. 52.

وأياما كان الأمر فقد وصل فى النهاية إلى اشبيلية ٥٥٠٠ وإلى " البيثنتى " ٢١ ألف وإلى قرطبة ١٢ ألف وإلى طليطلة ستة آلاف ، وكان هذا يمثل ، بالنسبة لكثيرين ، نهاية مرحلة من مراحل تهجيرهم بالعنف من أوطانهم ، فقد كانت السلطات الأسبانية تنوى توزيعهم بين القري التابعة للأقاليم أو المدن المذكورة ، بهدف التفريق بينهم إلي أقصى حد ممكن وعدم تركهم يتمركزون فى مكان واحد ، وقد واصل سبعة ألاف من هؤلاء الذين تجمعوا فى قرطبة ، طريقهم نحو " استريما دورا " وذهب ٧٥٠٠ من " البثنتى " إلى " جـوادا لاخـارا " (وادى الحجارة) وإلى طليطلة أو طلبيره دي لارْينا ، وغادر ستة آلاف طليطلة ، متجهين ناحية " سيجوبيا " و " بلد الوليد " و " بلنسية Palencia و " سلمنقه " ، ثم كان على هؤلاء أن ينتظروا توزيعهم على قرى الأقاليم المشار إليها ، وقد انتهت هذه العملية فى ديسمبر ، واستغرقت شهرين من النفى والإبعاد المريع (١) .

وينبغى أن نشير إلى أن المورسكيين الذين طردوا أثناء القتال كانوا يقطنون قرى فى الممالك القديمة باشبيلية وقرطبة وجيّان ، والذين خرجوا بعد ذلك أقاموا فى المناطق الشمالية وفقاً لتوزيع منظم ، فمن كانوا يعيشون فى غرناطة وغوطتها ووادى " لثرين " وسلسـلـة جبـال " بنتوميث " و " لاخاركيا " ومنخفض مالقه وجبال ردنه وماربيّا يعنى فى القسم الغربى من

١- درس " برنارد بيشى " طرد المورسكيين الغرناطيين وتوزيعهم فى قشتالة دراسة دقيقة فى كتاب بالفرنسية عنوانه : Le expulsion des morisques du Royaume de Granada et leur reparti-tion en castilla (1570 - 1571) en melanges de la caso de velazquez, VI, paris 1970 PP. 211 - 246

وتؤكد هذه الدراسة كل ماذكره مارمول قديما تقريبا وإن وجد الجديد فيما يتعلق بأماكن الخروج وعدد وتوزيع المنفيين وطرق الهجرة (نوفمبر / ديسمبر ١٥٧٠) وانعكس ذلك فى خريطتين لذلك النفى الذى ضاعت فيه أرواح كثيرة بسبب عدوى التيفوس وإنظر :
J.C. Baroja : les moriscos .. P. 201 .

المملكة كان عليهـم أن يخرجـوا فى اتجاه قرطبة ، ثم يوزعون بعد ذلك من اكستريما دورا إلى جاليثا فى منطقة الغرب .

والذين قدموا من قادش وبازا وحوض نهر المنصورة والأجزاء الجنوبية البعيدة والمناطق المأهولة في " منشا " كان عليهم أن يذهبوا إلى مملكة "طليطلة وقشتالة" القديمة بما فى ذلك " ليون " ، والقادمون من "المرية" ونواحيها يبحرون فى سفن كبيرة من " دون سانشو دى ليبيا " إلى اشبيلية حيث يتم توزيعهم بعناية بحيث لا يسمح لأحد أن يستوطن لا فى مملكة مرسية ولا في ماركيزية " بيتا " ولا فى أية أماكن قريبة من مملكة بلنسية التى يعيش فيها مورسكيون منذ القدم . ونفس الشيء تم فى الأندلس الشرقى . وبرغم كل هذا فقد بقى فى غرناطة عدد كبير من المورسـكيين . " مارمول " نفسه يذكر أنه تكلم مع مورسكى عندما كان هناك سنة ١٥٧١ وأنه أطلعه على وثيقة تتعلق بأجداده ، كذلك يلفت " ساباديرا " النظر إلى مخطوط مورسكى يشير إلى معاهدة من المحتمل أن تكون قد تمت هناك عام ١٥٧٤ (١)

وقد تعلل البعض للبقاء بأنه من المسيحيين القدماء ، وزعم آخرون أنهم كانوا مدجنين ، وطلب فريق ثالث البقاء لتصفية أعماله التجارية ، ومعروف أنه عاد فى سنة ١٥٨٢ مورسكيون كثيرون إلى غرناطة وعاشوا مع ٥٠٠ أو ٦٠٠ أسرة من المدجنين ممن لم يتركوا المدينة قط ، وقد أفزع هؤلاء السلطات يوما عندما رأوهم يتحدثون فى الشوارع والميادين عن مشروعات ومؤامـرات ينوى المورسكيـون فى " بلنسية واراجون " القيام بها ، وكان لهؤلاء محالفـات وتعـاقدات معهم (٢) .

1- J. C. Baroja: los moriscos ... P. 204 , 205
Saavadera : P. 251 (Num XVII).

٢- أنظر المرجع السابق لخوليو كارو باروخا ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ .

المصادر الأصلية للموريسكيين الذين استقروا في مواطن مختلفة من قشتالة (١) :

الباثنتى سنشيا :

قادش - ماركيزية دى لوس بيليث - يورشينا - بازا - أويسكر - أوجيخر .قلعة دى اينارس (قلعة عبد السلام) :

بازا - كانيلاس

القنطرة :

الموخيا

الكاراز :

انتاس - أوهانيز - تيخولا .

الكاثار (قصر) - سان خوان - كونوجرا :

ماركيزية الثينيتى - بنا موارل

الماجرو - مانثانارس :

ماركيزية دل ثنيتى

بالدبنياس :

١ - أنظر فى ذلك بحث " برنارد بنثنتى " عن طرد موريسكيى غرناطة وإعادة توزيعهم فى قشتالة ، المنشور باللغة الفرنسية والسابق الإشارة اليه .

تيِّرا (أرض) قادش

كاثيرس :

فيريرا - أورجيفا

كارمونا :

غرناطة - غوطة غرناطة - البوخاراس - نهر المنصورة - سارباس - بيدار - لوبْرِن - توروس - كايناس دى اثيتونا - كومارِس .

أثيخا - ايستيا - أوسونا :

كاسارا بونيلا - غرناطة - سرانيا دى روندا - تولوس - موندا - كُوارو .

جواد الكنال (وادى القناة) :

ازنائى

جوادا لخارا (وادى الحجارة) زورتيا :

ماركيزية دلثنيتى .

خاين (جيّان) :

غرناطة - البوخاراس - قادش - روندا .

لوركا :

أويسكار

مارتوس :

كنتنار دى لاأوردت :

ماركيزية دى لوس فيليث .

سيجورا دى ليون :

أويا دى مالجه .

سيجوبيا :

قادش - تيرا (أرض) قادش .

اشبيلية :

الميرية .

تيمبلوكى :

السالار .

طليطلة :

تيّرا دى قادش (أرض قادش) - البوخاراس - ماركيزية دلثنيتى

أوكليس ويتى :

نهر المنصورة .

قشتالة القديمة :

غرناطة ، غومطة غرناطة – مَوْتِرل – تِرْبيليز .

وقبل أن تتخذ السلطات اجراء الطرد العام هذا ، فإنها كانت قد قامت بطرد جزئى يهدف إلى تيسر العمليات العسكرية فى بعض القطاعات فطرد نوفمبر سنة ١٥٧٠ لم يكن الوحيدالذى عانى منه المورسكيون ، لكنه كان أكثرها أهمية ، لأنه الطرد الرئيسى ، ومن ناحية أخري فإن المورسكيين الذين بقوا مختفين أو متمردين بعد نوفمبر سنة ١٥٧٠ فى أراضى مملكة غرناطة ، قد تم البحث عنهم وألقى القبض عليهم وارسل بهم فى إتجاه الشمال .

والآن ترى ما حجم الفوائد أو المزايا التى قدمها هذا الطرد الجزئى ؟

قبل كل شيئ لابد من تقديم إحصائيات ، وقد قام "ماريو كاراباخال " بذكر مايتعلق بحى البيازين بغرناطةفى يونيو سنة ١٥٦٩ ، وما يتعلق "بأويسكر" فى نوفمبر من نفس العام ، وما يتصل "بالبورجى وكوتار وكومارس وبينامارجوس وغوطة غرناطة" فى مارس ١٥٧٠ ، أما "تولوس وموندا" فقد قدم احصاء عنها فى مايو ١٥٧٠

ونستطيع أن نلمس من هذه الاحصاءات أن الطرد قد شمل قطاعا هاما منها ، وليس مجموع السكان في الأماكن المذكورة ، فقد استثنى البعض ، وتمكن البعض الآخر من الهرب، وقد تم إلقاء القبض على بعض الشخصيات فى "مالقة" لأنهم أخفوا مورسكيين من " تولوس وجوارو " وفى نوفمبر سنة ١٥٧٠ كان قد بقى بضعة آلاف و١٦٥ فردا فى " كومارس " ـ ولا ريب ـ فى حى البيازين ، وكانت السلطات تدرك أن

الإجراءات لم تطبق بصورة كاملة ، ومع ذلك فقد كانوا سعداء بما حصلوا عليه ، معتبرين أنفسهم قد حققوا شيئا ملموساً ، هذا ما عبر عنه " بدرو لويث دى ميسا " فى رسالة إلى الكاردينال معلقا على طرد يونيو ١٥٦٩ :

" الذين يوجدون فى السجون يمكن أن يكونوا أربعة آلاف ، وإذا استبعدنا الأطفال والشيوخ فإن كثيرين غابوا وآخرين اختفوا ، ومع هذا فنحن قانعون ، لأن اخراج أربعة ألاف من الأعداء الأساسيين فى غرناطة سيكون له تأثير كبير جدا ؛ إذْ أنهم سيخرجون ويتركون نساءهم وأبناءهم ومساكنهم رهينة . . . " (١)

ورغم أن تدوين عمليات الخروج أمر غير مألوف فى حينه تقريبا ، إلا أن " بدرو لويث دي ميسا " ترك لنا وصفاً لإحدي عمليات الخروج التى جرت فى ديسمبر سنة ١٥٦٩ قال فيه "

" لقد أرسل إلىّ " السيد خوان دى استوريا " أن احْبس كل المورسكيين الذين بقوا بهذه المملكة فى أربعة كنائس ، تمهيدا لإخراجهم ، وقد حبسنا ٢٨٠٠ شخص ، أرسلنا للخارج أكثر من نصفهم ، وبقى الآخرون لكبر سنهم ومرضهم ، فقط استبقينا ١٥٠ من الرسميين بين خبّازين وفرّانين وحدادين ومهن أخرى ، وبقى البعض للتجارة ، والبعض كى يتصرفوا فى محلاتهم وممتلكاتهم المنقولة ، وقد منحوا لهذا الغرض خمسة عشر يوما ، وكلهم بدأ يتصرف فى ممتلكاته كى يغادر وفى كل يوم يذهبون . . . " (٢)

1- Archivo de la casa de Medinacceli (Sevilla) Marquesado de camares.

B. Vincent: historia de los moriscos, P. 55 . نقلا عن

2- Archivo del instituto de valencia de Don Juan Madrid, envio 1 , P. 68

Bernard Vincent : Ibid ,p.55

وبالإضافة إلى طرد الغرناطيين فى ديسمبر سنة ١٥٦٩ ، فقدتم طرد سكان كهوف المنصورة فى فبراير ١٥٧٠ ، وسكان بازا فى مايو ،وسكان غرناطة نفسها ، ربما فى يوليو ، وقد وجدت أقلية منهم فى معسكر " موتيل " ، بينما توجه القسم الأكبر نحو الأندلس الغربي .

وإجمالى عدد من طرد من غرناطة يمكن أن يكون قريبا من ٢٠ ألف ما بين أربعة إلى خمسة آلاف طردوا من مدينة غرناطة فى يونيو سنة ١٥٦٩ ، وأكثر من ألفين ما بين ديسمبر ويناير سنة ١٥٧٠ ، ومن خمسة إلى ستة آلاف من غوطة غرناطة فى مارس سنة ١٥٧٠ ، وألف من كل من "تولوس ومونـدا وجـوارو" – بدون عدّ النساء – فى مايو سنة ١٥٧٠ ، وبصفة عامة يمكن أن يقال أنه قد تمّ التخلص من الرجال بعد تهجير النساء والأطفال ، ولهذا يمكن أن ينظر إلى الرقم ٢٠ ألف باعتباره الحد الأدنى أكثر من اعتباره الحد الأقصى .

أما موجة الطرد الثالثة والأخيرة فى هذه المرحلة ، فقد بدأت عام ١٥٧٠ ، وكانت أكثرها تعقيدا ، ومن الصعب أن نعرف على وجه اليقين ما إذا كـان ضحايـاها من المجمـوعة التى بقيـت فى قراها الأصلية ؟ أم أنهم من المقاومين يعتاد ممن أسروا فى تاريخ متأخر ؟ أم هم من المسلمين الذين عادوا إلى أراضيهم بصورة سرية بعد إخراجهم ؟

على كل حال ، مجموعة كبيرة من هؤلاء ينتمون إلى أماكن اقطاع ، وقد حاول رجال الإقطاع المحافظة على رعاياهم فى أحوال كثيرة ، وجرت بينهم وبين الملك مفاوضات فى هذاالخصوص حصلوا بعدها على ما أرادوا ، وهناك أصحاب اقطاع فى قشتالة ضموا إليهم مورسكيين ممن طردوا من غرناطة وقد أقام هؤلاء مع سادتهم ، ومن المعروف أن ٣٥٠٠ مورسكى

قد توجهوا إلى قشتالة فى ديسمبر سنة ١٥٧٠ ، كما توجه إليها آخرون بعد ذلك التاريخ ، وقد وصل ٥١ موريسكى من ماركيزية " بيليث " إلى طليطلة فى أبريل سنة ١٥٧٤ وتحولت هذه المدينة إلى مركز لاستقبال المسلمين الغرناطيين ، وقد استقبلت منهم مجموعة قوية فى يونيو ١٥٧١ وقدم إليها ٧٤ من آلمرية فى نوفمبر ١٥٧٢ ، ٧٢ موريسكى من "بورشينا ومورتبيل" فى فبراير ١٥٧٣ ، ١١ من "المونيكار ومورتيل" فى اغسطس من نفس العام ، وهكذا فإن عدد ضحايا الطرد فى المرحلة التالية لنوفمبر ١٥٧٠ يجب أن يرتفع عن خمسة آلاف بل ربما اقترب من عشرة آلاف .

ويمكن أن يقال أن مجموع من تأثروا بمراحل الطرد الثلاث يصل إلى ٨٠ ألف نسمة ، وهذا المجموع قريب جدا من الواقع ، وهو مستخرج من المجموع الكلى لإجمالى مراحل الطرد الثلاث ، فقد طرد فى المرحلة الأولى ٢٠ ألف وفى الثانية ٥٠ ألف وفى الثالثة عشرة آلاف .

وهذه هى النتيجة الرئيسية التي ترتبت على الثورة الغرناطية ، وسيكون لها صدى واسع فى الحياة الأسبانية وفى الوجهة النهائية لمجموع تلك الأقلية الموريسكية . (١)

أما المناطق التى تركها الموريسكيون فقد بدت آثار الإهمال عليها ، وتمثل فيها القحط والخراب لأن الدولة حاولت الحصول على أموال كثيرة منها ، فأجّرت أراضيها ومنازلها بأسعار عالية جدا ، وحمّلت السكان الجدد ضرائب عينية ومالية أكثر من تلك التى تحملها الموريسكيون .

١- أنظر فى ذلك كله : Bernard vincent : Historia de los moriscos PP. 39 - 56.

وفي سنة ١٥٩٣ أقفرت المناطق المجاورة لـ " البوخارا " من السكان تقريبا ، ومن بقى عاش بائساً ، واستمر التدهور على امتداد النصف الأول من القرن السابع عشر . لكن ماذا عن هؤلاء المنفيين فى أماكنهم أو مواطنهم الجديدة ؟

لقد صدر فى أكتوبر سنة ١٥٧٢ مرسوم ينظم حياة المسلمين هناك ، ويلزم القري التى نزلوا فيها بأعداد سجل خاص بهم ، فيه إشارة إلى ملامحهم الخاصة وحالات الولادة والموت بينهم ، مع تنظيم دخولهم وخروجهم ، ومنح تصريحات مؤقتة لهم لممارسة التجارة والعقود ، وفرض عليهم أن يعيشوا فى مناطق خاصة بهم بين المسحيين القدامى ، وفرضت عقوبات قاسية على من يحاولون العودة إلى بلادهم الأصلية أو من يحاولون مخالفة القوانين التى تحرم عليهم استخدام اللغة العربية والملابس والعادات والتقاليد الإسلامية واستخدام السلاح ، ومنح الأطفال والشباب عناية خاصة ، وفرض عليهم أن يعملوا فى مصانع المسيحيين ، وطولب هؤلاء بتربيتهم وفقاً لأسلوب الحياة المسيحية ، وقد ارتكبت تعسفات وتحكمات ضد هؤلاء الأطفال ، وبيع الكثيرون منهم عبيدا بطريقة غير قانونية وغير مبررة . (١)

وقد غصت أراضى طليطلة خاصة بأناس من هذا الأصل الموريسكي كما أشرنا ، وقد واصلوا حياتهم بنفس أسلوبهم محافظين على لغتهم ، برغم قوانين الحظر ، وكانوا يتكاثرون بشكل مخيف حسبما لاحظ المسئولون هناك عام ١٥٨٩ ، ولأن وجودهم أزعج السلطات ، فقد وجدنا

1- Julio caro baroja: los moriscos .. P. 206.

من نصح بأن يعودوا إلى أراضيهم الأصلية ، وأن ينظموا مناطقهم وينتظمون فيها بشروط قاسية جدا ، وقد وجدت هذه الفكرة مفيدة ومجدية ليس بين السلطات الدينية فى وسط أسبانيا فحسب ، بل بين الشخصيات المهمة فى غرناطة نفسها ، وإن عارضها البعض قائلا أنه :

" رغم المكاسب المادية التي يمكن أن تفيدها من العودة الموريسكية ، ورغم الإعتراف بأنهم فلأحون جيّدون ، فإنه يجب أن نضع فى الإعتبار المصالح الدينية والسياسية ، وأنهم سوف يشكّلون تهديداً " (١)

تلك هى الثورة الغرناطية ، أحداثها وتطورها ونتائجها ، فماذا عن المسألة الموريسكية بعد تلك الثورة ؟ هذا ما سنحاوله بإذن الله فى الفصل التالى .

1- Boronat y Barrachina: los moriscos espanoles y su expulsion 1 , PP. 351 , 352 Valencia 1901'

وانظر أيضا : خوليو كارو باروخا : المرجع السابق ص ٢١٠ والمراجع المذكورة بها .

الفصل الثالث

العلاقات المتوترة بين
المسلمين والمسيحيين
١٥٧٠ - ١٥٩٨

تشير أحداث سنة ١٥٧٠ إلى واحد من أفظع الجروح فى جسم الموروسكيين ، وقد عَدَّلت هجرة هؤلاء وإعادة توزيعهم فى مناطق جديدة بالصورة السابق بيانها فى الفصل السابق ، عدلت من وضع المشكلة الموروسكية ، ومن الآن فصاعدا ، يصبح المسلمـــون المنصَّرون فى مملكـــة "أراجون" هى المجموعة الأكثر من ناحية الحجم وهى التى سيتم التزكيز عليها وستستقطب كل اهتمام السلطات الرسمية ، ولقد كان من النتائج الأساسية لتهجير هذا الشعب من مواطنه الأصلية أن تفاقمت الخصومة بين الجماعتين الإسلامية والمسيحية فى مناطق واسعة من قشتالة ، كان قد استقر فيها موروسكيون منذ زمن بعيد ، كذلك برهنت الثورة الغرناطية على أن الموروثات كانت عميقة وأنه لم يكن من السهل إزالة الجروح بسهولة ، كذلك بينت أن التضامن الإسلامى يمكن أن يكون حقيقة قد تمثل تهديدا قويا ، وكان نوعاً من السيوف المسلطة على رءووس المسيحيين ، وأصبح كل مسيحى ينظر إلى أى موروسكيى باعتـــباره جاسوســاً أو فراد فى " طابور خامس " يهدد أمن أسبانيا ومصالحها القومية .

فى ظل هذه الظروف كان يعتقد فى ضرورة حل المشكلة الموروسكية حلا جذريا ، ولم يعد من المقبول فى الوقت الحاضر أن يتحدث أحد عن صهر الأقلية أو ذوبانها أو إستيعاب الأكثرية لها ، أو على الأقل لم يصادف من يتحدثون عن ذلك آذانا مصغية ، ولم يكن أمام السلطات إلا الحظر العام لكلِّ أنواع الأسلحة أو حمل المسلمين على الذوبان فى الأكثرية باستخدام وسائل القهر والعنف ، أو طردهم طردا عاما من كل الأراضى الأسبانية ، وقد تغلب هذا الخيار الأخير - كما سترى - وعلينا الآن أن نتعرف على المبررات والوسائل التى قادت إليه .

لقد سيطر الرعب على المسيحيين ، فقد كان الموروسكيون يتحركون

بحرية لم تحدث من قبل ، وكان طرد هؤلاء المسلمين المنصرين من مملكتهم الأصلية سببا فى حركة دائبة ، فهناك من حاول جمع المشتتين من أسرهم ، وهناك من حاول العودة إلى أراضيهم الأصلية بصورة حماسية ، وهناك كثير من الأراجونيين والبلنسيين اجتازوا الشمال إلى الجنوب : أراضى مملكة أراجون ، وأسسوا شبكة للإتصالات القومية مع الممالك الإسلامية فى العدوة الأخرى ، ومع الأتراك ، وكذلك مع الفرنسيين والبروتستانت ، على رأسهم أمير " بيرنى " ، ولم تكن هناك خشية من مؤامرات مع العالم الإسلامى فحسب ، بل كان يخشى من تحالف كل أعداء الملك الكاثوليكى " فيليب الثانى " ، وكان يعتقد أن المسلمين المنصرين سيكونون العملاء الأساسيين لتحقيق هذه المهمة الواسعة ، وقد وصلت العاهل الأسبانى تنبيهات من كل الأرجاء ، من نوع ذلك التنبيه الذى وجهه إليه اسقف طليطلة :" أتوسل إلى فخامتكم بكل تواضع أن تضعوا في الإعتبار احتمال وصول الأسطول التركى بقوة إلى بلادنا كما تعود أن يفعل ، إنه يوجد فى مملكة بلنسية وحدها ٥٠ ألف جندى مسلح ، بخلاف الموجودين فى غرناطة وأراجون من المورسكيين ، وسيلتقى هؤلاء جميعا فيما بعد ؛ لأنهم يعرفون كل الطرق والسبل ، وفى هذا مشقه على هذه الممالك التى ينقصها الفرسان والسلاح والرجال المتمرسون ، وكل هذا لايجهله المورسكيون ، وهو عندهم محسوب ومدروس جيدا ، وبانضمام الفرنسيين - اتباع كلفينوس - إليهم ، لازعاجنا مع الملحدين " البروتستانت " فإن العناء سيكون كبيراً " (١)

1- Archivo del instituta de valencia de Don juan, Madrid envio 1,P. 138, Madrid 17—3 - 1582.

نقلا عن :

B. Vincent: Historia de los mariscos ... P . 58'.

أو ذلك الذى وجهه رجال محاكم التفتيش فى سرقطة :

إن هناك ترتيبا يعدون به للثورة ، ذلك أن " دون انطونيو من البرتغال " وأمير " أورنخى " بينهما وبين المسلمين المغاربة اتفاقيات من خلال بعض التجار البرتغاليين والموركسيين الغرناطيين الذين يأتون إلى تلك الأراضى . وقد شوهد " الأمير دى بيرنى " مع ملك فرنسا وطلب منه الوفاء بالوعد الذى قطعه على نفسه عندما تزوج أخته ، وهو أن يزوده برجال يسهلون له الإستيلاء علي " نابّارا ، وبينه وبين الموركسيين فى " أراجون " اتفاق يتضمن مساعدتهم له ، أما بالنسبة لموركسى " بلنسية " فيجب عليهم إنتظار وصول الأسطول التركى الذى لا يعرفون من أين يأتى ، فقط يعرفون أنه لابّد أن يكون بالجزائر فى الحادى عشر من أغسطس

وهناك اتفاق مع الفرنسيين ، يتضمن ادخال " القطـران " عبر " رونثيسن بيّس " فى أوعية من الشحم ، ثم يحمل من هناك إلى الموركسيين فى " الكاريا " ليحرقوا بـه سفـن ومراكـب المسيحـيين . . . " (١)

أساس هذه التنبيهات شائعات مختلفة راجت ، وسواء أكانت حقيقة أم خيالا ، جرت بصورة تلقائية أم جاءت عن طريق القوة ، إلا أنها أصبحت أشبه بمرض عقلي يعطى قيمة قوية لأحداث تافهة ، مثلا حداد موركيى أخبر فى سنة ١٥٧٣ كلا من القسيس والمأمور القضائى فى محلته عن خطة تدبر للقيام بثورة عامة ، يقول : إن كل الموركسيين الذين أخرجوا من مملكة غرناطة يريدون المجىء والعودة إلى سلسلة الجبال التى

١- أنظر المصدر السابق P.144,15-3-1582.

إعتمادا على مرجع برنارد بيثنتى ص ٥٨ .

نشأوا فيها ، ويفكرون في القيام بهذا زمن الحصاد ، مجتازين " أراجون " إلى هناك أى الى Alcarse مع من فى هذه المملكة ، مصدر هذه الهمسات التى وصلت إلى المكاتب الرسمية محادثة بسيطة بين اثنين أو ثلاثة موريسكيين من إحدى القرى . (١)

وقد حدث رعب عند محققي محاكم التفتيش ببلنسية مرات عديدة فى بدايات عام ١٥٨٢ سببه إجتماع عدد من البّغالين فى قرية أو قريتين . . هذه الأشياء - على ضعفها - تشكل خرافة المؤامرة التى أقلقت العديدين حتى عندما بدا أن الملك فيليب الثاني لم يعرها كثيرا من الإهتمام ، لقد عاش البعض فى كرب منتظراً أن يتحقق التهديد ، وانتظره آخرون معلما على حريتهم الحاسمة . والكل اعتقد فى صحة النبوءات التى لن يتأخر انتشارها مثلما ينتشر البارود ، وهكذا فى سنة ١٥٧٤ تنبأ تركى فى أراجون " بالإنتقام العاجل للموريسكيين (٢) .

فى سنة ١٥٨٢ احتفل الموريسكيون فى مملكة " أراجون " بعودة موريسكيى كان قد سافر إلى تركيا عام ١٥٦٠ ، وعاد إلى بلده الأصلى ليتأكد من تحقق امارات التنبؤ بالإنهيار المسيحى ، وفقاً لنبوءة تقول " سيوجد شاب غير متناسق البنية يهمله الآخرون كثيرا ، يعيش

1- Archivo general de simancas, camara de castilla leg. . 2. 174'.

نقلا عن :

B. Vincent: Historia de los moriscos, P. 58'

2- Archivo historico nacional: leg . 4'. 529

ذكر ذلك :

cardaillac: Morsques et chretiens: un afferentement pole'mque (1492 - 1640) Paris 1977, P. 51

وكذلك :

B. Vincent: Historia ... P. 59, Nota 5 .

خمسة أو ستة أشهر يتيما بدون أب ، يرأس الموريسكيين فى هذه المملكة ويكون مظفرا جدا فى الحروب " وقد وصف أحد القشتاليين هذه الشخصية وذكر أن عدم تناسقها يتمثل فى أنها ذات زراع يشبه ذراعين ، وأنها كبيرة وضخمة ولها فى إحدى اليدين ستة أصابع " (١)

وخلال تحقيق قام به رجال محاكم التفتيش فى " كونيكا " عام ١٥٨٤ ، كشف موريسكيى عن أمل قومه فى أن يأتى الأتراك لإنقاذهم وإن شارة التعارف بين الموريسكيين والأتراك ستكون عن طريق رفع الإصبع

ولم تكن هذه النبؤات خاصة بالموريسكيين ، بل إن المسيحيين أيضا لم يكونوا مقلين فى هذه الناحية ، ففى سنة ١٥٧٢ وجه رئيس مجلس السكان بمملكة غرناطة ، رسالة إلى الكاردينال رئيس المجلس الملكى ، يلفت نظره إلى مضمون كتاب سلمه له موريسكيى صانع أحذية " كونترجى " فى بدايات الثورة الغرناطية ، فى هذا الكتاب تنبؤ بقدوم منقذ ، اسمه "المختفى" ووفقاً للملامح التى قدمت وصفاً له ، فإنها تدل على أنه دون خوان دى استوريا . كذلك ذكر " دون بدرو ". كتابا آخر كتب باللغة الإيطالية يشير إلى نبوءة مضمونها أن انتصار " ليبانتو " سيتلوه تحطيم الإمبراطورية التركية قبل عام ١٥٧٥ ، وبرغم بعض الأمور التى استبعدت فى الحال ، فإن مؤلف الرسالة عبر أمله فى أن تتحقق تلك النبؤات " لأن النبؤات السابقة قد تحققت كاملة ، فإن ثقتى فى الله كبيرة جدا فى أن تفيد فى ازدهار المبادىء السعيدة ، وأن تسير قدما إلى الأمام ليحصل الازدهار " (٢)

. 1- Archivo del instituta de valcncia dc Don juan. Madrid, envio 1, P. 163

إعتمادا على : B. Vinccnt : Ibid, P 59.

٢- وثيقة بنفس دار المحفوظات المذكورة فى الملاحظة السابقة نقلا عن المرجع السابق ص ٥٩ . Envio 1, 29 - 1 - 1572

وسرعان ما انتشرت نبؤآت أخرى تقول إن المورسكيين سيطردون ، وإن النفوذ التركى سيتحطم فى بدايات القرن السابع عشر ، وسيختفى أمره وهناك نبـوّة أخـرى تنسب إلى الأميـر " فرناندو " بن فيليب الثالث - وهو الذى سيقال له الكاردينال الطفل فى المستقبل - تنسب إليه دور المنتصر على العدو المسلم (١) (وفى الواقع فإن شهرته العسكرية تمثلت فى أنه انتصر على السويديين فى نورد لنخن) .

وقد وصلت سرعة التصديق إلى أقصى مداها ، ولم يقتصر الأمر على الملهمين من الناس دون غيرهم ، إن تاريخ رغبة المورسكيين الملحة فى العودة لوطنهم الأصلى لجدير بأن يروى ، وفى حوالى شهر أبريل سنة ١٥٧٧ إجتاحت موجة كبيرة من الأمل مفاجئة ، كل الجماعات المورسكية الغرناطية سواء المقيمة فى قشتالة أو الأندلس الغربى ، ويقال إن الملك الأسبانى كان قاب قوسين أو أدنى من التصريح لهم بالرجوع مقابل ضريبة عالية يدفعونها ، وقد وصلت المفاوضات التى اشترك فيها " الونسو دى بانيجاس " إلى مرحلة متقدمة وجرت اتصالات بشأن هذه المسألة مع كل المدن ، يشهد على ذلك مثلا الرسالة التى وقعها ثمانية من المورسكيين المقيمين فى طليطلة والموجهة فى ١١ أبريل إلى السادة المحترمين " دون ايرناندو مولى " و " انريكث دى بيادراهيت " ، و " الونسو ايرنانذث كاميد " والسادة الآخرين ، وأصدقاء اشبيلية وقد طلب الموقوعـون أن ينص - على الأقل - على كل الذين لم يحملوا السلاح خلال الثورة ، وربما يشمل النص الآخرين جميعا ، وأن تدفع تعويضات عن كل الممتلكات المصادرة . وقد طلبت أموال لمواصلة المساعى ، وتم تنظيم جمع التبرعات

1- T. Halperin Donghi; unconflecto nocional ... P. 11

والمرجع السابق لبرنارد بيشنتى ص ٦٠ .

فى الواقع ، وهناك مجموعات من المورسكيين مثل مجموعة (قلعة عبد السلام) ، عينت ممثلين مسئولين عن ارسال الضرائب غير العادية هذه .

ويمكن أن نتخيل صدى خبر من هذا النوع ، رغم أن الاحتمال الأقرب أنه لم يقم على أساس ، أنه يدل على أن المورسكيين لم يفكروا فى شىء " فالذين يعيشون فى اشبيلية وقرطبة وأراضيهما وفى بلاد أخرى ، كانوا يمشون لإثارة الفتن بين الناس . . . انهم يريدون المحافظة على أموالهم على أمل أن يقدموها للشخصيات التى يُقال أنها ترتب لهذه الصفقة مع القصر ، لما يعود عليهم من فائدة من جراء ذلك " (١)

لقد امتد القلق ليشمل"بلدالوليد ووادى الحجارة وجيان" ومواطن أخرى بالإضافة إلى قرطبة وأشبيلية ، وكان مركز هذه الحركة مدينة طليطلة التى لم يتردد مأمورها القضائى فى الكتابة إلى الملك بهدف أن يقنعه بالعدول عن هذا الإجراء وإلا يحوله إلى حيز التنفيذ " سيكون من غير الممكن معالجة الضرر المفترض حدوثه على الشاطىء ؛ لأنه ليس هناك شىء يرغب فيه الأتراك أكثر من أن يتمكنوا من إنزال بحرى ، ذلك أن السكان اليوم مسلمون ، كما كانوا بالأمس ، وإذا كان ذلك هناك ، فللنصيحة . . . إننى أتكلم كإنسان مجرب تجاوز السبعين من عمره ، وجاب كثيرا أرجاء هذه المملكة "

وكان هناك صدى من الضيق عند من أعادوا تعمير مملكة غرناطة ، أشار إليه السيد " بدرو دى ديثا " " إنه شائع أنه قد حدث ما يكفى لإزعاج السكان الجدد ، وأن لديهم شكًا فى أن منازلهم ستؤخذ منهم حقيقة وهم يتركون العمل ولن يستفيدوا كما جرت العادة ، إلى أن نرى ماذا

1- Pedro de daza al rey: 28 - IV - 1577

Bernard Vincent: Historia de los moriscos ... P. 60

سيحدث للسكان الجدد "

وكان من الضروري رفع وإزالة حماس المورسكيين عن طريق وضع الأشياء في مواضعها بدون تردد ، فقد كان يخشى كثيرا من حدوث انفجار وفي نهاية يونيو فإن الهـدوء يبدو أنه سـيطر على كـل النواحي . (١)

كيف يمكن تفسير ظاهرة من هذا النوع انطلاقا من مبدأ عدم امكانية الاعتقاد في حقيقة حدوث المفاوضات ؟ كل النصوص تحدد الأخوين " لورنثو وميلتشو برِّيو ، بالإضافة إلى كاسيـر دي رايا " على أساس أنهما وراء إثارة هذه الشائعات ، وقد عرف عن الأخير منهما أنه عاش في طليطلة ، وكان كلا الأخوين " برِّيو " معروفاً أكثر ، فقد كان لها حظ وافر في تجارة الشمع وكانا يمتلكان مصنعاً لهذا الصنف في غرناطة ، موطنهما الأصلي ، كما كان لهما منزلا في حي " البيازين " وحديقتين وطاحونة ، وكانت لهما علاقات تجارية واسعة جدا ، كما كانت لهما تعاقدات مع تجار من مدينة" دل الكامبو" (مدينة الحقل) ، وقد أتهم كلاهما بأنه كان رأس الثروة المدبر لها ، وأنهما آويا الاجتماعات التمهيدية لها ؛ لأن كلاهما كان صديقا " لـ " ارنادو دي بالور " (ابن أمية) ، وقد اعتقلا في ابريل سنة ١٥٦٩ ، وأطلق سراحهما ونفيا إلى طليطلة في أكتوبر ١٥٧٢ ، فهل استفادت هذه الشخصيات الثلاثة من مكانتهم عند زملائهم المسلمين في تلفيق احتيال ونصب ضخم لحسابهم ؟ هل أرادوا التوصل إلى أغراض سياسية محاولين أن تستمر الإثارة والدعوة إلى ثورة جديدة ؟ لكي نجيب على هذين السؤالين لابدّ أن نعرف إذا كانوا قد حركوا في فلكهم

1- El expediente completo en Halla en
Archivo general de simancas, Camara de castella, leg . 2'. 179

ذكره برنارد بنثنت : تاريخ المورسكيين ص ٦١ .

شخصيات أخرى مهمة ، هل كان "دون الونسو دى غرناطة بالجاس " مشتركا أو ذكر أسمه تعلة ؟ من المؤكد أن العملية كانت معروفة جدا ، فقد حدثت سابقة المفاوضات من قبل ، تلك المفاوضات التى حاول الموريسكيون فيها تحقيق أغراضهم عن طريق دفع المال ، وعلى كلٍ حال فقد انكشف مدى الإهتمام الذى كان من خلاله يتم الترحيب بأية شائعة والذى سبب رواج النبؤات ، ومن ناحية أخرى اتضحت متانة التضامن الإسلامي .
إننا نحتاج إلى جو نفسى لتغذية الشائعات والآمال المنطلقة ، لكن لا تنقصنا الوقائع ، إن الحقائق متوافرة ، فالخطر الموريسكى بقى كبيراً ما دامت العلاقات مستمرة بين الموريسكيين وبين القسطنطينية ، وقد جهز الأتراك أسطولاً ضخما خصصوه لإنقاذ الموريسكيين فى سنة ١٥٨٩ (١) ثم فى سنة ١٥٩١ ، وكانت تضبط باستمرار رسائل بين الجزائريين والموريسكيين البلنسيين ، وقد اعتقل موريسكيون أثناء عبورهم شاطىء أو آخر من شواطىء البحر الأبيض المتوسط (٢) .

وكان نشاط المنفيين يتم أحيانا فى نفس الوقت الذى تجرى فيه عمليات الأتراك والمغاربة.وبين وثائق وقرارات الملك فيليب الثانى التى نشرت بغرناطة سنة ١٥٦٨، توجد وثائق بعضها يرجع إلى سنة ١٥١٤ وتتحدث عن المنفيين والأتراك المسلمين ، وقد قامت البحرية التركية والمغربية بتهديدات كبيرة أثرت على الروح الأسبانية فى القرن السـادس عشر ، وقد كان يخشى تعرض أسبانيا لغزو إسلامى جديد ، فقد كانت تهديدات البحارة (المجاهدين) من الجزائر وتطوان وأماكن أخرى على الشاطىء الأفريقى مصدر قلق دائم ، والأعمال الأدبية فى أواخـر القرن

1- F. Braudel: op. Cit. 11, P. 480

2- Archivo del instituto de Valencia de don juan, Madrid
envio 1 - 183

B. Vincent: Ibid, P. 61 .

السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر حافلة بالإشارات إلى الجرائم التى ارتكبها هؤلاء ، وأيضا إلى المساعدات المنظمة التي كان يتلقاها المورسكيون الغرناطيون والبلنسيون ، وقد حدثت الثورة الغرناطية فى فترة كانت السيادة البحرية فيها للأسطول التركى ، . . ويكفى أن نشير إلى نص عند " مارمول " يشير إلى أن سكان شاطىء " البوخارا " كانوا يستقبلون الأتراك والبربر فى قراهم ومنازلهم ، وكانوا يقدمون لهم البوارج كى يقتلوا وينهبوا ويأسروا المسيحيين ويبيعونهم (١) ونذكر هنا بعض ما يتعلق بهذا الجانب :

علمت السلطات الأسبانية سنة ١٥٧٣ أن أمراء تلمسان والجزائر يدبرون حملة بحرية لمهاجمة المرسى الكبير فى " بلنسية " ويعاونهم المورسكيون بالثورة ، فبادرت السلطات إلى نزع سلاح المورسكيين ببلنسية وقيل فيما بعد أن هذه الحملة كانت ستقترن بغزوة فرنسية لأراجون ، ينظمها حاكم " بيارن " الفرنسى ، وأن سلطان الأتراك وباى الجزائر يؤيد كلاهما المشروع ، وأن أساطيل الغزو كانت تزمع النزول فى مياه "برشلونة ودانية" وفيما بين "مرسية وبلنسية" حيث يعيش حشد كبير من المورسكيين ، وإن زعماء هؤلاء وعدوا القيام بثورة وتقديم عدد كبير من الجند ، وكان من المنتظر أن تقوم تلك الثورة المورسكية سنة ١٦٠٥ ، ولكن المشروع اكتشف فى الوقت المناسب . وهذه الروايات جمعها رجال ديوان التفتيش ، وتعوزها الأدلة التاريخية . على أن الخطر الحقيقى تمثل فى غارات

1- Marmol : libro 11, cap1, pag. 129'

- J. Caro. Baroja: los moriscos ... PP: 169 - 1 70'

ويذكر أن هناك كتابا بالفرنسية حول البحرية فى زمن سليمان القانونى عنوانه :

Les corsaries barbaresques et la marine de soliman le grande

وهناك مثال للإنقلابات التى نظمها الأتراك رواه " بدروباز نتس مادونادو " فى حواره حول نهب جبل طارق سنة ١٥٤٠ مطبوع فى :

Coleccion de libros raros y curiosos XIX PP. 1 - 27'.

المجاهدين من الشواطىء المغربية على الثغور الأسبانية ، وقد استمرت طوال القرن السادس عشر وبعد انتهاء الحكم الإسلامى فى أسبانيا ، ويقول " المقرى " - الذي كتب كتابه سنة ١٦٣٠ - إن المورسكيين انتظموا فى جيش سلطان المغرب وسكنوا " سلا " وكان منهم من الجهاد فى البحر ما هو مشهور . . . (١) وقد ظهر المغامرون المسلمون ابتداء من القرن الخامس عشر حينما ضعف أمر الأندلس والمغرب وسادت الفوضى ، وكانت الشواطىء المغربية تقدم إليهم المراسى الصالحة ، ولما اشتد ساعد البحرية التركية بعد استيلاء الأتراك على القسطنطينية ، زاد نشاط المغامرين المسلمين ، وكان سقوط غرناطة واضطهاد الأسبان للمسلمين ايذاناً بتطور هذه المغامرات البحرية ونزول الأندلسيين والمورسكيين المنفيين إلى ميدانها.

وقد بدأت هذه الغارات البحرية على الثغور الأسبانية عقب استيلاء الأسبان على غرناطة وحملهم المسلمين على التنصير ، عندئذ غادر الأندلس آلاف من المجاهدين ، عبروا البحر إلى عدوة المغرب واستقروا فى وهران والجزائر وبجاية وغيرها . . . ومنها قاموا بحملاتهم ، وكانت شواطىء المغرب بطبيعتها الوعرة ومراسيها وخلجانها الكثيرة التى تحميها الصخور العالية ، توفر مكاناً ملائماً للقراصنة ، وكانت الغزوة تعتمد على عنصر المفاجأة . . . يصـــف " بترو مارتيرى " هذه الغارات فيقول : إن فيرناندو الخامس أمر سنة ١٥٠٧ بإخلاء الشاطىء الجنوبى لجبل طارق إلى المرية فرسخين إلى الداخل تحوطا من هذه الغارات ، ثم صدرت مرسومات عدة تمنع المورسكيين من السفر إلى أبعاد معينة ، ولكن ذلك لم يفد فى شىء واستمرت حملات الهجوم ، وكان المورسكيون يزودون رجال الحملات بالمعلومات وكل مايتعلق بالشواطىء ومواطن الضعف فيها ، ويمدونهم

١- أنظر : المقرى : نفح الطيب ، الباب الثامن ج ٤ ص ٥٢٨ من نشرة إحسان عباس .

بالمؤن والزاد ، وكانت تتم بعض الحملات أحيانا بهدف المساعدة فى نقل راغبى الهجرة من المورسكيين . وفى أوائل القرن السادس عشر ظهر عنصر جديد أذكى روح المغامرات فى هذه المياه ، ذلك أن البحارة الأتراك وعلى رأسهم "عروج وخير الدين» ، اندفعوا من شرقى البحر الأبيض المتوسط إلى غربيه . وفى سنة ١٥١٧ سار "عروج" على رأس بعض القوات والسفن واستولى على الجزائر ، ولما قتل فى العام التالى بإحدى المعارك ضد الأسبان ، عين أخوه " خير الدين " حاكما للجزائر واستولى على معظم الثغور المغربية الساحلية ، فعينه السلطان العثمانى سليم حاكما عليها وأمده بالجند فتألق اسم ذلك القائد ، وقرن اسمه بأسماء أعظم أمراء البحر فى هذا العصر ، وكان يعاونه نخبة من أكابر الربابنة الأتراك ، بسطوا سلطانهم على معظم شواطىء البحر الأبيض المتوسط (١) ، وقد بدأ غاراته فى المياه الأسبانية بمهاجمة الشواطىء الشرقية واستمر يهاجمها لمدة ثلاثة أشهر ، وجمع فى سفنه كثيرا من الراغبين فى الهجرة وعرج أثناء عودته على جزيرة " منورقة " ، ومن أهم غارات خير الدين على الشواطىء الأسبانية غارة وقعت سنة ١٥٢٩ ، ذلك أن جماعة من الموسكيين البلنسيين كانواقد فاوضوه لينقلهم خلسة إلى العدوة المغربية ، فأرسل سفناً رست ليلاً عند " أوليفا " شمال غربي "دانية" ، أمام مصب نهر ". اليتا " ثم نزلت إلى البر قوة جمعت نحو ٦٠٠ من المورسكيين الراغبين فى الهجرة وهنا فاجأتها عدة من السفن الأسبانية وطاردتها إلى مياه الجزائر الشرقية (جزر البليار) ، وفجأة انقضت سفن المسلمين على السفن الأسبانية وأغرقت بعضها وأسرت البعض الآخر ، ورجعت إلى الجزائر تحمل هؤلاء الذين رغبوا فى الهجرة . . . وكان صريخ المورسكيين يتوالى إلى "خير

١- يعرف الأخوان عروج وخير الدين فى الرواية الأوربية باسم " بارباروسا "يعنى» ذو اللحية الحمراء » وقد نشر عنهما كتاب فى الجزائر عام ١٩٣٤ عنوانه " " غزوات عروج وخير الدين "

الدين[1] وحلفائه من أمراء المغرب ولا سيما أثناء الثورات المحلية التي كات تشتد فيها وطأة السلطات الأسبانية حتى أنه نقل ٧٠ ألفا من أخوانه المورسكيين إلى الشواطىء المغربية (١) .

فى سنة ١٥٥٩ قام أمير البحر التركى - طرغود - خليفة خير الدين بغارة على الشواطىء الأسبانية ، واستطاع أن يحمل معه ٥٢٠٠ مورسكيى ، وفى سنة ١٥٧٠ حملت السفن المغيرة جميع المورسكيين فى " باليرا " ، وفى سنة ١٥٨٤ سار أسطول من الجزائر إلى ثغر "بلنسية" وحمل ٢٣٠٠ مورسكيى ، وفى العام التالى حملت السفن كل سكان مدينة " كالوسا " ، وبلغت الغارات البحرية على الشواطىء الأسبانية بين سنتى ١٥٢٨ ، ١٥٨٤ ثلاثا وثلاثين غارة ، عدا الغارات التى قامت بها سفن صغيرة حملت المهاجرين . وقد وصف " ثرفانتس " هذه الغارات البحرية وكان من بين ضحاياها حيث أسر سنة ١٥٧٥ وحمل إلى الجزائر وظل بها حتى تم فداؤه سنة ١٥٨٠ ، وهناك زعماء من بين المنفيين ، كانوا من أشد أعداء أسبانيا فى البحر ، من بينهم "بلانيكو والريس أحمد أبو على" من " أشونية " "ومراد الكبير جواد يانو" من مدينة "ثيوداد ريال" (المدينة الملكية) وغيرهم .

وفى سنة ١٦٠٢ وقعت غارة على مدينة " لورقة " ، قرب "قرطاجنة" حيث قام مغامر اسمه "مراد الريس" بحملة بحرية وحمل عددا من الأسرى ، وكثرت الغارات فى الأعوام التالية على الشاطىء الجنوبى ، وكانت ثغور تونس أيضا أيام حاكمها عثمان داى ١٥٩٨ - ١٦١٠ ملاذاً لطائفة قوية من البحارة المغامرين ، وكانت غاراتهم تتوالى على الشواطىء الأسبانية

١- انظر الفصول الثلاثة الأولى من كتاب :

1- Stanly lone poole: the barbary corsairs.

الجنوبية بلا انقطاع (١) .

وهكذا لبثت الغارات البحرية مصدر ازعاج للسلطات الأسبانية ، وخصوصا منذ منتصف القرن السادس عشر . . . وكان اللوم يقع دائما على المورسكيين ، وخاصة سكان الثغور منهم ، لأنهم هم الذين يمدون الحملات المغيرة بالمعلومات ويزودونها بالمؤن ، ويعينون عليها مواضع الرسو والإقلاع ، وكانت السفن تأتى فى الغالب - كما يتضح مماسبق - لمعاونة المسلمين فى الفرار إلى بلاد المغرب ، فقد كان هؤلاء على اتصال مستمر بمسلمى أفريقية وأمراء المغرب برغم اضطهادهم وإخضاعهم لرقابة متشددة . ولم تجد السلطات الأسبانية حيلة للتخلص من هذه الغارات البحرية التى مثل المورسكيون العنصر البارز فى توجيهها وتنظيمها على امتداد القرن السادس عشر. وحتي بعد نفي المورسكيين من أسبانيا ، واصلت الغارات هجومها بشدة بما انتظم فى صفوفها من المنفيين المجاهدين وأصبحت " سلا " بمرفئها الذى تحميه الخلجان مركزا لأولئك المجاهدين ، وكانت تخرج منها أقوى الحملات وتغير على الشواطىء الأسبانية (٢) .

ونحن لكى نفهم لب المشكلة المورسكية ، لابد أن نفهم الخطر التركى فى نهاية القرن ١٦ ، وأوائل القرن ١٧ ، لقد كانت التعبيرات مثل. " جاء الترك " " نزل الترك " شائعة فى المحادثات اليومية كما رواها" كابريرو دى قرطبة" فى العلاقات صفحات ٧٤ . ١١٥ . ١٥٣ . ٢٤٠ ، كذلك فإن مسيرة الأحداث فى المغرب كان لها تأثيرها : إن هزيمة مـــولاى "ســـيفى" (الشيخ) على يدى مولاى "زيدان" فى ربيع سنة ١٦٠٩ ساعد على طرد

١- أنظر : إبن أبى دينار : أبو عبد الله محمد بن أبى القاسم : المؤنس فى أخبار أفريقية وتونس ص ١٩٢ طبع تونس ١٩٦٧م

٢- أنظر : المقرى : نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٧ .

الموريسكيين من أسبانيا ، ومنذ فترة والموركسيون في "اراجون وبلنسية" - فيما يبدو - يتفاوضون مع قوى مختلفة على أمل أن تعاونهم في الثورة ، وقد اكتشف في الحال معاهدات مع "انريكى الرابع" ملك فرنسا ، وهكذا كانت الإضطراب يتزايد محاولا الاستفادة من المشكلات التى تعاني منها أسبانيا . . وقد روى " كابريرا دى قرطبة " انتصار مولاى "زيدان" (١). وأشـار " فـراى الونسـو فير ننداث " إلى نفس الموضـوع (٢) . . . وقد اعتقل كثير من الموريسكيين في بلنسية بسبب مراسلات معينة بعث بها ملك انجلترا ، عثر عليها بين أوراق الملكة السابقة ، وقد كتبها موريسكيون يطلبون معونة للقيام بثورة ، وقدموا معلومات عن مدن يمكن نهبها ، وقد تم تعذيب الكثيرين منهم وعوقب بعضهم (٣) وقيل أن بعض الموريسكيين عبروا إلى أفريقية برسالة إلى مولاى زيدان ، وعرضـوا أمولاً ، و٦٠ ألف شخص مسلم ، ولكن السلطان لم يعبأ بذلك كما سيأتى ، ويقول نفس " كابريرا - أن هناك كتاب بالفرنسية يتبين منه أن الموريسكيين عرضوا وضعهم على الملك انريكى الرابع وبينوا أنهم أصحاب مصلحة كبرى ، وحددوا أرقام السكان الموريسكيين كمـا يلـى :

ا - الغرناطيون المتناثرون يصلون إلى ١٣٠ ألف منزل .

ب - البلنسيون ٧٧ ألف أو أكثر .

ج - المسلمون التاجارنيوس ٤٠ ألف منزل أو أكثر .

د - المدجنون ٥٠٠٠ منزل في قشتالة ، ٣٠٠٠ في قطالونية .

هذا في عام ١٦٠٢ (٤).

١- أنظر كتابه : العلاقات . . . ص ٣٣٦ .

٢- أنظر كتابه : تاريخ ... ص ٤٨٩ .

٣- أنظر كابريرا ... العلاقات ص ٢٤٠ .

٤- أنظر خوليو كارو باروخا : الموريسكيون ... ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ وما بهما من تعليقات

ولقد لبث البحارة الأتراك عصرا يتزعمون الغارات البحرية ، وجل اعتمادهم على النواتية المغامرين من المغاربة والموركسيين . . . وبمرور الزمن تحولت هذهالغارات إلى حملات للنهب على السواحل الأسبانية والإيطالية واشترك فيها الفرنجة الاوربيون ، وكانت تأخذ الأسرى وتبيعهم عبيداً فى الأسواق .

وفى الوقت نفسه الذى اشتدت فيه الغارات البحرية على الشواطىء الأسبانية ، حدثت فى بلاد المغرب أحداث زادت من توجس السياسة الأسبانية من مساعى الموركسيين وعملهم على استعداء مسلمى افريقية ، ذلك أنه بعد موت السلطان "أحمد المنصور" ملك المغرب سنة ١٦٠٣ ، قامت حرب أهلية بين أبنائه الثلاثة ، وقد استعان فيها ابنه الشيخ بالملك الأسبانى "فيليب الثالث" فأعانه ، ولكن ذلك لم يُجده . . . أما الموركسيون فى " بلنسية " فقد أرسلوا إلى مولاى "زيدان" يوضحون له سهولة غزو اسبانيا وأنهم على استعداد أن يقدموا له مائتى ألف مقاتل متى أقدم على فتح هذه البلاد واحتل أحد الثغور الهامة . . . لكن مولاى زيدان لم يحفل بهذا العرض ، وأجاب الرسل بأنه لن يقاتل خارج بلاده (١) .

يتضح مما سبق أن المجاهدين الأتراك والمغاربة أنجـدوا إخوانهم ، وعاونوهم بالحملات البحرية وساعدوهم على الهجرة والفرار من الاضطهاد الأسبانى ، وإذا كانت الخلافة العثمانية لم تتمكن من إرسال حملات منظمة ، ومثلها حكومات المغرب ، فإنها قد شجعت المجاهدين فى البحر وأمدتهم بكل ما تستطيع على أمل أن يتمكنوا من نجدة وإنقاذ اخوانهم المسلمين ، وهذا ما حدث بالفعل ، فقد ألحقوا خسائر كبيرة بالقوات

١- أنظر :

Lea: the morisco . PP: 289 - 290'

وأيضا : عنان : نهاية الأندلس ٣٨٢-٣٩٢ .

الأسبانية ، وتمكنوا من نقل عدد يزيد على سبعين ألف إلى العدوة المغربية لكن كان هناك أمر آخر يشغل فيليب الثانى ملك أسبانيا دائما ، هو : إقامة علاقات عادية بين الموريسكيين ، وبصفة خاصة المقيمون فى اراجون ، من ناحية ، وبين البروتستانت فى " بيرنى " من ناحية أخرى ، دون أن يكون هناك ما يبرر ذلك . بيان ذلك أن رسل المسيحين الجدد (الموريسكيين) بدأت تسافر إلى هذا الإقليم فى جنوب فرنسا اعتبارا من سنة ٥٧٠ ، بهدف التوصل إلى توقيع معاهدة تحالف ، بل وصل الأمر إلـــى درجـــه أن " مونسيـــر دي روس " حاكم " بيرنى " أعلن أنه " سنذهب إلى أسبانيا . ونعطى هذه الأرض ونتسلم " ناباراً " وفى سنة ١٥٧٥ اقترح على الموريسكيين من جديد إرسال مساعدة عسكرية مقابل مبلغ مقداره عشرة آلاف ، أو إثنا عشر ألفا " أوسكودوس " ، وقد درس الموريسكيون العرض وفقط بدا لهم أن المبلغ المطلوب أكثر من اللازم ، ولوحظ أن فى حوزتهم كثيرا من الأسلحة المخبأة (١) وقد طلبوا من القسطنطينية فى نفس الوقت مساعدة مالية عن طريق وفد أُرسلوا به لهذا الغرض . وقد قرر المرسكيون فى مناسبات عديدة تجاوز الأحداث ، تدعمهم هذه المساندة الخارجية . وسيحدث الإنذار الأول بالأندلس فى يونيو سنة ١٥٨٠ ، فهناك حديث عن مؤامرة دبرت فى "اشبيلية"، وكان لها فروع فى المدن الأندلسية الأخرى : "قرطبة ، اثيخا ، جيّان"، واكتشفت مؤامرة فى الوقت المناسب كات تدبر إنزالا بحريا من بلاد الشمال الأفريقى ، وقد فكّر أطراف هذا المخطط فى الهرب إلى البرتغال أو إلى الجبال فى حالة فشل مخططهم ، واكتشف أمرهم قبل أن يتمكنوا من التنفيذ ، وفى الواقع فإن أحد الموريسكيين قد كشف منذ فبراير أن شيئا يحاك فى الأندلس ، فاتخـــذت السـلطات

1- Cardaillac : Morisques et protestat. - Al - Andalus - 1971 , P. 44'

أهبتها (١) وربما كان زعيم هذه الحركة هو " فرناندو انريكث " واسمه أيضا فرناندو مولى " وكان قد تورط فى مسألة عودة الموركيين إلى غرناطة سنة ١٥٧٧ .

وبرغم أن المؤامرة قد اكتشفت فى الحال ، إلاّ أنها تسببت في رعب كبير لدى السكان المسيحيين فى المدن التى تعرضت للتهديد ، كما تعرضت الجماعات المورسكية لألوان من الإنتقام على أيدى المسيحيين خاصة فى "اشبيلية وجيان"، وقد سمع صوت يقول إن عدة مئات من المورسكيين أمكنهم أن يتجمعوا فى سلسلة من الجبال قريبة من"قادش"وإنهم يستعدون للعبور ناحية"مالقة وماربية"(٢) وقد تم تنظيم حملات لاغتيالهم ، ولكنها لم تعثر على أثر لفردٍ واحد ، ومع ذلك فقد سجن كل العبيد المورسكيين والبربر فى مالقة كإجراء وقائى ، وفى مايو سنة ١٥٨١ استمر الاضطراب خطيرا فى اشبيلة حيث اعتقل ثلاثة من المورسكيين بدا أنه مشكوك فيهم وقد اطلق سراحهم بعد استجوابهم ، وبعد أن شفع لهم بعض الجيران المسيحيين .

وفى سنة ١٥٨٢ ألقى القبض على مورسكى من " أراجون " ، وقد كشف القبض عليه عن شبكة اتصالات خفـــية كان مركــزها فى " اراجون " ولها شعب تمتد إلى "قشتالة وبَيْرنى" وبلاد الشمال الأفريقى ، وقد تمّ

1- Archivo general de simancas. camera de castilla, leg . 2. 178'.

نقلا عن :بيرنارد بيشنتى : تاريخ المورسكين بالاسبانية ص ٦٢ .

2- ID. id leg. 2. 182. carta de Don pedro de castro a juan vazquez, 19' - VII - 1580', para el levantamiento de 1580, vease:

Celestina lopez martinez: Mudejaros y moriscos sevillanos , sevilla 1953'

Ruth pike: An urban minority: the moriscos of sevillanos

"International Journal of middle east estudies" 1971, PP: 368 - 377'

B. Vincent: Ibed, P.62. نقلا عن :

الاستيلاء على رسائل مكتوبة باللغة العربية وبلغة " الالخميادو " تكشف عن الدور الذى يقوم به المورسكيون المقيمون في الجزائر ، وكان المورسكى المشار إليه أنفا قد ركب من هذه المدينة ونزل فى " كارتاخينا " وقام باتصالات فى " مرسية " واشترك فى اجتماعات سرية فى " سيجوربى " ، ومع ذلك فهناك احتمال أن يكون اسقف تلك المدينة ورجال محكمة التفتيش فى"سرقطة"قد بالغوا فى تصوير الأحداث ، وتخيلوا قيام ثورة فى الحال ومع ذلك فقد كان قلقهم له ما يبرره (١) فبعد ذلك بسنة ، وفى مارس سنة ١٥٨٣ كشفت محكمة التفتيش فى "بلنسية" بدورها عن مؤامرة تورط فيها مورسكيون وفرنسيون (٢) .

وفى سنة ١٥٨٥ بدأ الصراع بين المسيحيين الجدد فى" اراجون"يعنى بين هؤلاء الذين يعيشون فى الجبال وبين المورسكيين الذين يعيشون فى السهول ، وعلى امتداد ثلاث سنوات واصلت الجماعات المتصارعة ضرباتها بعنف دون أن تتعرض لعقاب على الإطلاق ، الشيء الذى أبرزه أحد رؤساء الأديرة ، يقول " خلال تسعة أشهر خلّفت هذه الفرق كثيرا من الموتى فى المملكة ، إنه لم يبق فى سرقطة طوال تلك الفترة إلاّ إنسان حزين حطمّه النفى ، لقد سقطت العدالة " (٣) .

وكان اغتيال اثنين من سكان الجبال سببا فى حملة انتقام ضد المورسكيين فى اغسطس سنة ١٥٨٦ ، كذلك أدى اغتيال خمسة عشر

1- Archivo de valencia de Donjuan, Madrid, envio 1 y envio 183'

B. Vincent: Historia ... P. 63'. ذكر ذلك

2- S. Garcia Martinez: Bandolerismo, pirateria y control de moriscos en valencia durante el reindo de Felipe 11, " Studis " 1972 - P. 144'.

3- A. Melon: lupercio latras y la guerra de moriscos y montaneses en Aragon a final del siglo XVI, Zaragoza 1917, P.X. وانظر

B. Vincent: Historia de los moriscos ... P. 63'.

آخرين فى مطعم " ما " فى أكتوبر سنة ١٥٨٨ من قبل بعض الفرق العسكرية رداً على نهب بعض القري المورسكية ، أدى ذلك الإغتيال إلى صدور صيحات تقول " المسلمون كلاب " (١) .

لقد استمرت الفوضى على مدار عدة سنوات فى المنطقة الواقعة على طول نهر " الابرو " والمياه أسفل سرقطة ، وقد تميز استمرار الصراع بالخطورة المستمرة مما ضاعف الشك فى أن حماة المورسكيين يقفون وراءهم سواء في ذلك الإقطاعيون وأتباعهم ، أو البروتستانت من " بيرنى " .

وقد كان أصحاب الاقطاع فى أراجون مدافعين كبار عن رعاياهم المورسكيين الذين يجنون من ورائهم مكاسب هائلة ، ونفس الشيء يمكن أن يقال عن البلنسنين ، أن حالة أمير البحر المسئول عن " أراجون " الذى مثل أمام محاكم التفتيش بسبب دفاعه الحازم عن رعاياه هى الأكثر تعبيرا (٢)

وهناك تحذير آخر أكثر حدة حدث فى هذه الفترة ، عامى ١٥٩٢ ، ١٥٩٣ ، فلا يشك فى أن " انطونيو بيريث " اللاجيء فى فرنسا والمدعوم بمن سيدعى مستقبلا " انريكى الرابع " كان يضع في حسابه التعاون مع المورسكيين عندما كان يجهز لغزو أراجون " (٣) .

وفى النهاية فإن الخوف كان مسيطرا ، ربما بصورة أكثر مما يستلزم واقع الأمر ، فلم يحدث قط أن قام المورسكيون بعمليات جماعية والمهم أن الأمر وصل إلى اعتقاد له ما يبرره فى إمكانية القيام بثورة ، وقد أشار

١- المرجع والموضع السابق

2- Julio caro baroja: los moriscos ... P. 224'.

3- Juan regla: studios sobere los moriscos ... PP. 150 - 151'

بعض المؤلفين إلى استمرار حالة التوتر منذ عام ١٦٠٥ - ١٦١٣ (١)

وهناك أمر آخر هو أن التلصص الموريسكي استمر ينشر الفوضى بصورة لم تتوقف منذ عام ١٥٧٠ وما بعدها ، وقد كانت أراضى جنوب أسبانيا منذ عهد الرومان مرتعا خصبا للصوصية ، وهناك مواطن فيه تعتبر مستوطنا لهذا الشر مثل جبال " مورنيا " وسلسلة جبال " رنده " ، وكان وراء هذه اللصوصية عوامل منها سوء الوضع الاقتصادى للطبقات الدنيا بما فى ذلك الموريسكيون ومنها وعورة الأراضى مع الإتساع الخالي من السكان ومنها تراكم الثروات فى المدن ، وهناك أسماء مشهورة لقطاع طرق وضعوا خلفاء قرطبة فى مأزق خطير ، وهناك نص للجغرافى " ابن حوقل " يبرز علاقة الوضع البائس للفلاحين من أصل مسيحى (٢) ، ويروى " المقرى " أنه فى عصر المعتمد ، اشتهر قاطع طريق اسمه " البازى الاشهب " ارتكب كثيرا من الجرائم ثم حوله "المعتمد" إلى حارس على مدينة آهلة بالسكان . وفى زمن الموريسكيين حدث نفس الشيء واتهم بسادة الاقطاع بمملكة غرناطة فى القرن السادس عشر بأنهم يشجعون اللصوصية ، وقد حاول " الماركيز دى مونديخر "،تبرير عمليات اللصوص ،يقول "مارمول " : "إن سادة القرى عاونوا الموريسكيين الذين ارتكبوا بعض الجرائم ، وإن هؤلاء لجـأوا إلى أراضى الاقطاعيين ، كى يخططوا لانقلابهم ، وقد استفاد هؤلاء كثيرا من اللصوص التابعين لهم ، وهؤلاء هم الذين يســمون " المنفيين " باللغة العربية ، وقد درس حالتهم " بيرموديث دي بيدراثا " بصورة وافية ، يقول : من يرتكب جريمة يصبح آمناً فى أماكن سادة الاقطاع ، وهذا تسبب فى جرائم كثيرة . . . وهؤلاء كانوا يعيشون فى

1- J. caro Baroja: Ibid, P. 225'

٢- أنظر ليفى بروفنسال : تاريخ أسبانيا الإسلامية بالفرنسية ج٣ ص ٢٠٨ ، التعليق رقم ١ .

الجبال ويصبحون أقوياء بها ، ومنها يخرجون للنهب والقتل والاختلاس . .
وقد تم تنظيم "المنفيين" في عصابات يقودها قباطنة ممن حققوا شهرة في بعض المناسبات ، ويتحدث " مارمول " عن أخوين من " البوخارا " هما " لوبي وجونثالو سينيث" ، ارتكبا جرائم لا حصر لها ، وكان هؤلاء المنفيون يتسلحون بقاذفات ويكونون مجموعات أشبه بالعصابات العسكرية ، وقد تجاسروا على كل شيء ، وقد استفاد فرج بن فرج ، أحد قادة ثورة غرناطة بمائتين من هؤلاء كانوامعاونين أساسين له (١) .

إنه لم ينج اقليم من الأقاليم الأسبانية من هذا الداء اللهم إلا القليل وفي مملكة غرناطة خاصة وجدت عصابات عديدة زرعت الرعب فيها ، كان من بينهم مورسكيون ، عاشوا في هذه البلاد وعرفوا أراضيها شبراشبرا ، ويرغم الجهود التي قامت بها السلطات ، فإنها لم تتمكن من استئصال هذا الشرّ بسرعة (٢) ، وكانت أكثرهذه العصابات نشرا للرعب عصابة " الخورايكي" وكانت تعمل في منطقة المرية بين سنتي ١٥٧١ / ١٥٧٣ وعصابتي " خوان اسفيلي " و " ماركوس الملنتي " ، وكانت دائرة عملهما في نواحي "مالقة ورنده" بين سنتي ١٥٧٣ - ١٥٧٦ ، ولم يحدث قط أن القي القبض على واحد من هؤلاء الثلاثة ، وقد عبر " الخورايكي " إلى الشمال الأفريقي بعد مفاوضات أجريت معه ، أما الآخران فقد استسلما بعد أن منحا ضمانات ، لكن " الملنتي " ألقي القبض عليه ثانية عام ١٥٧٩ .

1- Permudez de pedraza: Historia eclesiastic ... Fols 239 V - 240 r libro IV cap .L XXXV.
Cabrera de cordoba, 1, P. 642 - 644 - lib. VIII, cap. XV.
Marmol: libro 11, cap. IV,p 139'. ذكر هؤلاء وغيرهم
. Julio caro baraja: los mariscos ... PP. 165 - 169'
2- B. Vincent : les bandist morisques en andalosie au XVI siecle
" Revue di Histoire moderne et contemporaine" 1974, PP: 397 - 399'

بعد ذلك قضى على اللصوصية المورسكية فى شرق الأندلس، ولكنها نشأت مرة أخري في اتجاه الشمال ، وابتداء من سنة ١٥٧٧ وحتى نهاية القرن ، فإن المنفيين ارتكبوا سلسلة من الاعتداءات المؤلمة مثل تلك التى قام بها أسلافهم ، وكان من الصعب إلقاء القبض عليهم ؛ لأنهم استفادوا من تعقيدات نظام المجموعة المورسكية ، وقد عانت نواحي بلد الوليد وباسترانا واوبيدا واشبيلية وباداخوس ونواح أخرى من سيآتهم ، لقد وصل الأمر إلى درجة أن الدكتور " فرنسسكو ايرناندث ليبانا " ، رئيس مجلس بلد الوليد عهد إلى بعثة أن تنتهى منهم ، وقد صدق على اعدام حوالى مائتى شخص كانوا أعضاء فى ست أو سبع عصابات ، قامت بعمليات بين سنتي ١٥٧٧ - ١٥٨١ ، وفى نهاية عام ١٥٨٢ ، تمكن من تحويل ميزان العمليات لصالحه ، لكن هذا كان نجاحا مؤقتا فقط .

وقد عانت بلاد مملكة " أراجون " من نفس المشكلات ، فاللصوصية كانت مستوطنة فى"بلنسية"خاصة فى الثمانيات من القرن السادس عشر ، وفى أكتوبر سنة ١٥٨٤ اغتيل أحد الزعماء - من الأشراف - بواسطة رعاياه المورسكيين وفى ١٨ يناير شنق ستة من المورسكيين - من أصل غرناطي - فى بلنسية ، وقد زرعت عصابة " سولايا " - بصفة خاصة - الرعب ، وكان زعيمها مسئولا عن عديد من الإغتيالات . لقد كانت فى حاجة إلى كل مهارات الوالى الذى جمع بين الديبلوماسية والقسوة ليفرغ من هؤلاء المتمردين قطاع الطريق . وفى ٧ يونيو سنة ١٥٨٦ تم إعلان قرارٌ يقضى بفرض عقوبات قاسية ليس فقط على اللصوص بل وعلى آبائهم وكل من يدافع عنهم ، بل وضد الذين لا يطادونهم بما ينبغى من قوة ، وحكم على آباء هؤلاء القطاع بالنفى إلى " قشتالة " ، وقد تفاوض الوالى مع أسر رجال وزعماء العصابات متعهدا أن يحفظ ويحترم حياة قطاع

الطريق إذا استسلموا (١) ، وخلال أيام قليلة من صيف عام ١٥٨٦ مَثل ٢١ لصًا فى"بلنسية"، بينهم أحد كبار الزعماء ، لكن الوعد بالا يتعرضوا لعقوبة كبرى ، كان فى الوقاع فخًا نصب لهم ، ذلك أنه فى ٤ نوفمبرتمت إدانتهم وعذّبوا وحكم عليهـم بالأشغـال الشاقة فى المناجم لمدة ٣٠ سنة وكان هذا معناه موتهم خلال زمن قصير .

وخلال الحرب بين الجبليين والموريسكيين بأراجون ، فإن جرائم الموريسكى " توريكو " لم تكن أقل شهرة من جرائم الموريسكى " لويريثيو لتراس " الذي اعتبر اعتقالـه فى يونيـو سنة ١٥٩١ حدثا هاما ، وقد أنهى مجلس " أراجون " إلى الملك فيليب الثانى خبـر اعتقاله ، ووصفه بأنه شرير عظيم وقاتل وأنه هو الذى بدأ التمرد بين الجبليين والموريسكيين ، وقد ربط فى حوذى بحبل من البرتغال وفقاً لوصية أحـد كبـار المسئولين (يراجع فى هذا رجلا ص ١٥١)

وقد ردّ المسيحيون القدماء على أعمال العنف من جانب المسلمين بعنف أشد ، بل كانوا هم البادئون ، وباستثناء حملات التبشير التي شهدتها مملكة بلنسية بين سنتى ١٥٨٧ / ١٥٩٩ فإن سياسة :-Ocul " Luracion " ، أصبحت تستخـدم أساليـب عنيفة ، وكان مؤيدو هذه الحملات يثقون فى نتائجها وحدها كما برهن على ذلك بعض الباحثين (٢) لقد هوجمت هذه المؤسسات بشدة حتى يهدأ ضمير رجالات الكنيسة ، ولقد

1- S. Garcia martinez. Op. Cit. P. 145, 150, 154, y apendice XII

B. Vincent: Historia ... P.64. ذكره

2- Haperin Donghi tulio: un conflicto nacional: moriscos y cristianos Viejos en va- lencia, " cuadernos de historia de Espana, Buenos aires, XXIII,XXIV,1955, PP. 115 y XXV - XXVI, 1957, PP83-250

B. Vincent: obra citada, P. 65'.

كشفت النغمة التى استخدمها الخطباء عن تغيير هام ، لقد كانوا من قبل يتسلحون بالصبر الجميل ويحاولون اقناع المتمردين ، أم الآن فإنهم يستفزونهم ويتوعدونهم مثلا أحد الآباء تحدث للموريسكيين فى أبريل سنة ١٥٨٧ قائلا : أنكم لا تريدون أن تضعوا فى اعتباركم ، ولا تخلعوا من قلوبكم المتحجرة ، هذه العقيدة الخبيثة الملعونة المنسوبة لمحمد (صلى الله عليه وسلم) فلتعلموا أنه ولد اليوم فى أسبانيا الأمير الذى لابد أن يخرجكم منها " (١)

وقد حدث تغيير مماثل على مستوى التعايش ، فبينما كان يمتدح فى الزمن الماضى صهر الجماعتين المسلمة والمسيحية من خلال الزواج المشترك فإن الفصل الكامل هو المفضّل الآن ، لقد طلب بعض المتعصبين أن يجبر الموريسكيون على حمل شارة معينة ، كان هذا فى رسالة منه موجهة إلى الملك فى يناير سنة ١٥٨٨ (٢) .

ومن بين الإجراءات التي اتخذت توقيا للشرور التى خشوها ، ضرورة أن نضع فى الإعتبار وبالدرجة الأولى ، نزع سلاح الموريسكيين الأرجونيين والبلنسيين ، وقد قام الأخيرون بذلك عام ١٥٦٣ ، ومع ذلك فمن المنطقى أن تكون هناك أسلحة كثيرة أمكن تهريبها دون أن يلتفت إليها من قاموا بعمليات التحرى والجمع والتقصى ، وأيضا فإن هناك أسلحة كثيرة أدخلت فى البلاد ، وهذا هو السر في بقاء المشلكة بلا حل ، ومن ناحية أخرى فإن الأراجونيين أمكنهم أن يهربوا من إجراء مماثل عام ١٥٥٥ بفضل معارضة أصحاب الاقطاع ، أضف لهذا أن حكام بلنسية كانوا مهتمين فى الثلث الأخير من القرن السادس عشر بتحديد ما يمتلكه الموريسكيون من الأسلحة

١- النص يشير الى فيليب الثالث

T. Hapcrin Donghi: op. cit, PP, 118 - 119'
2- Id. P. 119'.

وكان الكونت "دي بيتا بنتى " أول من أمر بذلك بتاريخ ١٦ يونيو ١٥٦٧ وكرر هذا النداء فى أعوام ١٥٧٣ ، ١٥٧٥ ، ١٥٧٨ ، ١٥٨١ وهذا النص له أهمية عامة من الناحية النظرية : تحديد سلاح كل السكان فى المملكة ، ولكن " برونات " يلفت النظر - بحق - إلى أن السبب الجوهرى وراء اصدار السلطات لهذا الأمر ، كان احصاء ومصادرة أسلحة المورسكيين (١) وقد كان النص الذى أصدره " الكونت دى ايتونا " يتعلق بالمسلمين المنصرين أو المسيحيين الجدد وحدهم ، وقد اكتملت هذ السلسلة من الممنوعات باصدار أمرين آخرين :

الأول التعليمات الصادرة بتاريخ ١٦ أكتوبر ١٥٧٥ ، ثم تكررت فى تواريخ لاحقة ، وتقضي بمنع المورسكيين البلنسيين من الاقتراب من الساحل بدون إذن الوالى ، ويعاقب المخالف بالأشغال الشاقة لمدة ثلاث سنوات ، فقط استثنى البغالون - أصحاب وسائل النقل - من هذا النص والثانى مرسوم صادر فى أول أغسطس سنة ١٥٨٦ يكرر ترتيبات اجراء مرسوم سنة ١٥٥٩ ، ويقضى بمنع أى تغيير فى مواطن إقامة المورسكيين ، ويهدد كل من ليس من أصل بلنسيى بالطرد من البلاد .

إذا أضفنا إلى هذه الإجراءات ، تلك الترتيبات التى اتخذت ضد اللصوصية ، مع المجهودات التى بذلت من أجل مراقبة أفضل للشواطىء ، أمكننا أن نكون فكرة عما كانت عليه السياسة الأسبانية ضد الأقلية المسلمة أو المورسكية على امتداد ثلاثة عقود ، إن تكرار صدور الإجراءات والترتيبات يجعلنا نميل إلى التفكير فى أن فاعليتها كانت محدودة ، ومع ذلك فلا يمكن إنكار أن هذه المثابرة وذلك التصميم قد أثمرا ما علق عليهما من نتائج ، على الأقل فى بعض الجوانب ، فالقرصنة والتلصص قلت بصورة ملموسة بعد ١٥٨٥ ، ١٥٨٦ وهو التاريخ الذى يتفق مع

1- P. Bronat: los moriscos españolcs y su cxpulsion, 1, P. 285'.

مرحلة الرد التى اشتد فيها العمل المركز ضد هذين النوعين من النشاط ، وهى نفسها فترة ولاية الكونت دى ايتونا للمرة الثانية ١٥٨٤ / ١٥٨٦ (١)

إن نزع سلاح المورسكيين الأراجونيين مهم أيضا وله خطورته ، لأنهم فوق ما يمثلونه من تهديد ، لم يمتنعوا عن تزويد إخوانهم فى الدين بالسلاح وقد تم تنفيذ نزع سلاحهم عام ١٥٧٥ على الرغم من معارضة العديدين من أصحاب الاقطاع مثل " الدوق دي بيًا ارموسا " و " والكونت دى ارندا " والسيد فرنسيس ايرنييو " ، فقط المورسكيون المملوكون لأصحاب اقطاع سمح لهم بامتلاك تلك الأسلحة ، وكان إجمالى الأسلحة المصادرة :

من ٣٠٥٣ إلى ٥٤٠٦ بندقية ، ٩٦١ منجنيق ، ١٣٨٢ رمح ، يعنى بواقع قطعة سلاح لكل منزلين مورسكيين تقريبا ، وما جمع لم يكن شيئاً تافها ، لكن لا أحد يستطيع أن يتخيل الأسلوب الذى عبر به رجال الاقطاع فى رسالة منهم موجهة إلى الملك - فى فبراير سنة ١٥٨١ ، يقولون : " فى سنة ١٥٧٥ نزعنا سلاحهم ، تنفيذاً لأمر صاحب الجلالة ، وقد رأينا أن هذا كله ، لم يفد في تصحيح عاداتهم السيئة " (٢)

وقد عقد اجتماع بالقصر الملكى فى مدريد سنة ١٥٨٨ ، واتخذ قرار بصفة نهائية يبين إن المورسكيين الأراجونيين لهم نفس النوايا والأهداف ، ويقترح نزع سلاحهم من جديد " واضعين فى الإعتبار العدد الكثير جدا من المورسكيين المسلحين جيدا ، والذين يعيشون فس ظل مذهبهم الباطل الفاسد " ، ويفضل أن يكون نزع سلاحهم فى فصل الشتاء (٣) . ومع ذلك

1- S. Garcia martinez : op . cit, p.155.

2- Archivo de valencia de Don juan , Madrid, envio 1, P. 185'

ذكره

٣.Vincent : Historia ... P. 66'

٤ ٤. regla : studios sobre los moriscos. PP. 44 - 48'

فإن تطبيق الإجراء لم يتم فى الحال ، فقد كان تهديد ثورة الموريسكيين محدودا كما أن ذلك قد اقترن بالحملة التى تبناها " انطونيو بيريث " من أجل تجاوز الأحداث . وفى سنة ١٥٩٣ تم نزع سلاح الموريسكيين من جديد برغم النزاع بين " البرى كونت دي سستجو " وبين الماركيزيين فى "كمارسا" لكن ليس بصورة أفضل مما سبق ، ولهذا أوصى مجلس الدولة سنة ١٥٩٦ فى رسالة موجهة منه إلى بعض رجال الاقطاع أن يكلف أصحاب الاقطاع أنفسهم بجمع الأسلحة التى يمتلكهـا رعاياهم من الموريسكيين .

الخطورة الكبرى الأخرى التى يمثلها الموريسكيون تأتى من توزعهم فى الأراضى وسهولة تحركهم ، وقد حاولت السلطات أن تجعلهم مستقرين بعيدا عن الشواطىء وأن تمنعهم من أية تنقلات ليست لها ضرورة حتمية ، وقد رأينا هذا الوضع بضورة مستمرة فى مملكة بلنسية ، ونفس الشىء نراه بصورة مماثلة فى نطاق مملكة قشتالة ، أما توزيع الغرناطيين المنفيين إلى أراضى هذه المملكة فقد بدا مُرْضيا إلى حد ما ، فقد كان هناك موريسكيون يتمركزون بأعداد كبيرة فى مناطق قريبة جدا من شواطىء البحر الأبيض المتوسط ، وبالقرب من مملكتى بلنسية وغرناطة ، وقد تنبه الموظفون الرسميون لهذه الحقيقة ، فأعدوا فى الحال ، فى ديسمبر سنة ١٥٧٥ ، خطة واسعة النطاق تعمل على تفريق هؤلاء المسيحيين الجدد وإبعادهم عن الأندلس كلما كان ذلك ممكنا ، وهكذا فإن الموريسكيين الغرناطيين الذين كانوا قد أبعدوا عن أوطانهم اعتبارا من أول نوفمـبر سنة ١٥٧٠ ، كان عليهم أن يعانوا من طرد جديد ، ولكن تقرر عم تنفيذ هذا المخطط ؛ لأنه كان معقّدا ويتطلب وسائل كثيرة ليصبح حقيقة واقعة (١) ، ولذلك نرى أن

1- B. Vincent: L'expulsion des morisquos du rayaume de Granade ... PP. 227'- 229'.

الموظفين الرسميين قد ركزوا اهتماماتهم بعد ذلك على مشروع أيسر تنفيذا وهو تغيير مواطن إقامة المجموعات التى تستوطن الأندلس ، وقد تأثر بهذاالمشروع أو ناله ضرر من جرائه عدد لايقل عن ٢٠ ألف شخـص ، ويرجع تفكيـر سكرتير الملك فيليب الثانى فى هذا المشروع إلى شهر مارس سنة ١٥٧١ ، رغم اعترافه بأن تموين القوافل يمكن ضمانه بصعوبة فى ظل ذلك المشروع (١) .

ومهما يكن من أمر فقد اتفق على تفصيلات العملية بعد تردد كبير وأعلنت بمرسوم صدر فى ٢٢ نوفمبر ، وفى ديسمبر ، غادر آلاف الموركسيين ، على الأقل عشرة آلاف بدون شك - الأندلس ، متجهين إلى أرض أكثر عمقا ناحية الشمال ، فالموركسيون من " جيّآن واندوخر " وجّهوا ناحية " جوادا لاخارا " (وادى الحجارة) ، والموركسيون من " اوبيدا وبايثا وكارولا " سيقوا ناحية "اوكاينا وييبيس" . أما الموركسيون من كامبو دى لا ترابا " فى الأندلس ، فقد وجهوا ناحية طليطلة ، وتوجه الموركسيون فى " دى اثيخا " نحو " بلا سنثيا " (٢) ، وقد كلفت المدن الموكول إليها أمر استقبالهم أن تفرق بينهم من جديد إ لى مسافات بعيدة ما أمكن ، ولهذا وجدنا أن الموركسيين قد بعث بهم من "طليطلة" إلى مدينة " دى الكامبو وتورديسيو " ، وأن الموركسيين من " بلاسنيثا " أرسل بهم إلى مدينة " رودريجو " حيث وصل إليها ٥١٣ موركسكى فى ٣ يناير ١٥٧٢ . أما الموركسيون الآخـــرون الذين كانوا فى " قــرطبة واسبيخوا " و " الكـــواديتى " و تريجو " فقد أمكنهم البقاء فى "قرطبة" بفضل تدخل سلطات المدينة بصورةقوية لصالح الاحتفاظ بهم ،وفى نفس الوقت استمر

1- Archivo general de simancas. Camera de castilla, leg. 2. 161, Fol. 15'

2- ID. id. leg.2. 167'

B. Vincent: Historia ... P. 67'. أنظر فى الموضعين السابقين

طرد المجموعات الصغيرة من مملكة غرناطة .

وكان يعتقد أن نفى ديسمبر سنة ١٥٧١ صحح - ولو بصورة جزئية - الطرد الذى سبق تنفيذه فى العام الماضى ، ويدا أنه أمكن حل مشكلة توزيع المورسكيين فى مملكة قشتالة ، والواقع أن ذلك خطأ ؛ لأن المجموعات الكبيرة التى استقرت فى اشبيلية وقرطبة ، كان الواحدة منها تتكون من عدة آلاف من الأفراد ، وهذا يعتبر أمراً خطيرا ، ومن ناحية أخرى فإن هناك مورسكيين كثيريين رجعوا خفية إلى مملكة غرناطة ، خاصة من المدن القريبة ، وبصفة أخص مملكة " جيان " إن صح ما أعلنه " دون بدرو دي ديثا " فى رسالة أول نوفمبر ١٥٧٣ (١) . وقد بذلت السلطات قصارى جهدها مع تصميم شديد علي امتداد عشر سنوات من أجل احترام التوزيع الذى تم بين سنتى ١٥٧٠-١٥٧١ ، لكنها لم تحقق نجاحاً كبيراً. أن موقف مدينة "قرطبة" وما تقرر بشأنها في خريف ١٥٧١ ، كان سببا فى ظهور مواقف أخرى مماثلة ، فقد عارض نواب المدن المعنية مغادرة المورسكيين لبلادهم متعلليين بمبررات اقتصادية ، يعنى أن وجهة نظرهم هى أن المكاسب التى يجنونها من وراء وجود هذه الأقلية الفعالة ، أعلى من الخطر السياسى الذى يحتمل أن تمثله ، وهكذا نرى بلادا مثل "القلعة دى انيارس" (قلعة عبد السلام) ، "وانتيكيرا" ترفض فى سنة ١٥٧٣ السماح بتوزيع من ٢٥٠ إلى ٣٣٧ عبدا مورسكيا ، وتكرر هذا من جديد فى العام التالى .

وقد نقل السيد "بدرو دى ديثا " إلى الملك ، شهادة المأمور القضائى بالقلعة الملكية : " ما يريدونه هو رجم السكان ، لأنهم يشعرون أنهم

1- Archivo general de simancas, Camara de castilla, leg. 2. 174'

B. Vincent: Historia ... P. 68 '.

يخرجون أكثر من أبنائهم أنفسهم ، إنها المحبة لهم ، والكراهية نحو الذين ينفذون ما أمروابه " (١) .

بعد ذلك بعدة سنوات ١٥٧٩ - ١٥٨٠ ذهب المسئولون إلى "كرمونا وبايثا ومرسية"، ووجهوا باعتراضات كذلك ، وكان رد "مرسية" معبرا ، يقـــول:

" الآن يأمر مجلسنا الموريسكيين المذكورين بأن يخرجوا من المدينة ، ويعودوا إلى محل سكنهم القديم ، لأن وجودهم أذى عظيم ويضر هذه المدينة ، وينقص من إيرادتكم ومن الثروة الملكية ، إننا نتوسل لصاحب الجلالة الا يسمح ولوبمكان واحد ، إن الـ ٥٠٠ منزل الموجودة للموريسكيين فى المدينة المذكورة ، والمعدة منذ زمن فى هذا الجزء ، ينبغى أن تنهب ، ولا يحملون إلى أماكن أخرى " (٢)

وكان الوضع مماثلا لذلك تماما داخل مملكة غرناطة نفسها ، فقد كانت المجموعة الموريسكية تتكاثر بشكل عادي ، وقد كشف إحصاء أجرى عام ١٥٧٧ عن وجود ١٤٧٨ أسرة موريسكية (٣) ، إحصاء آخر ، أكثر دقة وأكثر تعبيرا وصل بهم إلى ٨٦٩٨ موريسكيى عام ١٥٨٠ (٤) ، دون أن ندخل فى الاعتبار أولئك الذين هربوا من الإحصاء ، وكان هؤلاء الموريسكيون يتجمعون فى المدن ويشكلون خطرا لا ترضى به السلطات الرسمية ، وقد كان فى مدينة "غرناطة" وحدها ثلاثة آلاف موريسكى وفقاً

١- نفس دار المحفوظات العامة بسيمنقة ـ الورقة ٢١٧٥ بتاريخ ١٥٧٤/١١/٢ .

٢- المصدر السابق ٢١٨٢ بتاريخ ١٥٨٠/١/١٢ .

٣- نفسه ورقة ٢١٧٩ " بدرو دى ديثا " فى ١٥٧٧/٦/٩ .

٤- نفسه ورقة ٢١٨١ وانظر أيضا

N. Cabrillana: Esclavos moriscos en la Almeria del siglo XVI- AL-Andolus, 1975', . PP. 53 - 128'

لتقدير أحد القادة ، ولهذا فإن المرسومات الملكية الصادرة فى ٦ مايو سنة ١٥٧٦ ، ٢١ يوليو سنة ١٥٧٨ ، ٤ أبريل ١٥٧٩ ، ٢٦ يناير ١٥٨١ ، أمرت بتوزيع معظهم ، لكن الإجراءات التنفيذية كانت تصطدم دائما بالإعتداءات المورسكية ، حقيقة إن نصف الـ ٨٦٩٨ مورسكى فى احصاء ١٥٨٠ كانوا عبيدا يعملون فى المنازل ، قد تعود أسيادهم أن يؤجروهم للعمل لدى الغير ، ومع ذلك فإن المرسوم الأخير الصادر سنة ١٥٨١ ترك تأثيرا ، لكن بعد ثلاث سنوات طويلة من التعسفات والإلتزامات ، بل أنه حتى اللحظة الأخيرة وفى يناير سنة ١٥٨٤ ، فإن اسقفى "غرناطة وقادش" مع بعض المدن كانوا يحاولون تعديل الموقف الملكيى ، ومن المحتمل أن تكون هذه الضغوط قد أفلحت فى تخفيض عدد المورسكيين المطرودين ، وقد اجتمع سبعة من المندوبين فى النصف الثانى من يناير من نفس العام مع عدد يتراوح بين ٣٠٠٠ ، ٣٥٠٠ شخص ، بدأوا طريق الرحلة إلى القشتالتين : قشتالة القديمة وقشتالة الجديدة ،وخصص أكثر من مائتين للعمل فى المناجم كما تمكن الملك فى أغسطس ١٥٨٥ من توزيع ٤٠٤ غرناطيين أخرين فى اتجاه " استريما دروا " ، وقد باشرت المجموعة الأخيرة هجرة شاقة ، وبعد ذلك فإن السلطات لم تتمكن أو لم ترغب فى تنظيم توزيع جديد برغم تحركات المورسكيين المستمرة ؛ السبب أن ذلك كان قريبا من حادثة الطرد النهائى من أسبانيا والذى تم ١٦٠٩ - ١٦١٤ كما سنبين فى الفصل التالى .

من ناحية أخرى فإن زمن العمليات المحدودة أصبح ينظر إليه على إنه فترة قد انتهت ، فأى فائدة تجنيها من وراء إعادة توزيع المورسكيين أو اجراء احصاءات لهم ؟ وأى مكسب يأتينا من تحرك القساوسة والرهبان من أجل تبشير أفضل بالمسيحية ؟ إن المورسكيين يصرون على موقفهم ولو

كان خطأ من وجهة النظر المسيحية ، ويسخرون من التحذيرات التي توجه إليهم ، ويواصلون عداوتهم التى لا تلين ، ومن هنا فإنه لابدّ من البحث عن حل جذري لهذه المشكلة ، ولابد من العمل على تجنب الخطر الذى يمثله هؤلاء عند المسيحيين القدامى ، وفى هذا الصدد فإن لدى السلطات الرسمية سابقة ، هى سابقة طرد الغرناطيين من وطنهم الأم ، وكان هذا العلاج يبدو ممتازا فى حينه ، لأنه بالإضافة إلى حل النزاع ، أمكن أن يفيد كمثال أو باعتباره تحذيرا للجماعات الموريسكية الأخرى ، وبالفعل استمر أثر هذا الإجراء الذى نفذ عام ١٥٧٠ لبعض الوقت ، وكانت نهايته تتمثل فى ذلك النفى البسيط الذى جرى فى أغسطس ١٥٨٥ . وعلى كل حال فقد وصلت إلى الملك معلومات وآراء حرة من كل الجهات ، وكلها يقترح أشكالا متنوعة لحل المشكلة الموريسكية ، وكان القاسم المشترك بينها جميعا هو طابها الراديكالي .

فلننظر فى الطرد العام بصفة خاصة ؛ ربما لأن هذا الشكل هو الذى كانت له الغلبة وإلاّ فإن دائرة الأمور التى اقترحها الاساقفة والمستشارون ورجال الدولة كانت واسعة ، فبالإضافة للطرد العام من كل أسبانيا ، ظهر اقتراحان فرضا نفسيهما بالقوة ، أولهماتشكيل جيتوس Guettos والثانى التخلص من الأقلية الموريسكية بصورة تدريجية ، وكلا الأمرين يستحق وقفة .

لقد كان " فراى فرنسســـكو دى ريبس " من بين مؤيدى اســـلوب " الجيتو" وقد أخطأ " بورنات " عندما عَد هذا الراهب بين مؤيدى الطرد ، وقدم معلومات خاطئة ونظرة قاصرة فى معالجته الطويلة لموقفه (١) ،

1- P. Boronat: los moriscos Espanoles y su expulsion, 1, PP. 296 - 297'

الشيء الذى كان يدافع عنه الراهب المذكور هو منح كل مورسكي حرية الاختيار ، يعنى أن يكون فى مقدوره أن يختار إما الاندماج فى المجموعة المسيحية بدون تحفظات أو البقاء مخلصا للإسلام . الحالة الأولى فإن المسيحيين القدماء سيكون واجبا عليهم ملاحظة سلوك المورسكيين عن قرب وفى الحالة الثانية فإنه يبعدون فى " الجيتو " ، وبهذا يزول الغموض الشامل فى المسألة المورسكية :

" الذى يريد تعميد ابنه فليعمده ، ومن لا يرد فلا يعمد ، والذين يرغبون من هؤلاء فى تعميد أبنائهم بإرادتهم وحريتهم يقبلون العقيدة الكاثوليكية ، فليعلنوا ذلك على الملأ ، وليتعاونوا مع المسيحيين على الطريقة المسيحية ، وسيكون مفروضا عليهم الإعتراف والإشتراك فى القربان وكل الأعمال المسيحية الأخرى ، ويكتبون فى قائمة المسيحيين ويكون معهم مراقب ، ويجرى عليهم ما يجرى على المسيحيين من حيث أسلوب الحياة وطريقة الزواج وبالصورة التى تسمح لهم أن يتزوجوا منا . . . ولنحذرهم بأننا سنستخدم القسوة معهم إذا انفصلوا عن عقيدتنا الكاثوليكية ، كما هو جارٍ اليوم مع اتباع مذهب " لوتيروس " ، والذين ينفصلون هؤلاء سيكونون قليلين ، وإذا حدث ذلك فإننا يمكن أن نعدّ لهم برنامج تعليم خاص ، ويمكن أن نمنحهم بعض الأمل ، والذين لا يريدون تعميد أبنائهم سوف نعتبرهم جميعا أعداء لنا ، ولن نشرب ماء معهم ولن نعاملهم ، ولأنهم مسلمون فإنه يحتفظ لهم بالقانون الطبيعي ، وتكون حماية أماكنهم على نفقتهم ، ويكون بينهم جنودٌ منا ممن نطمئن إليهم ، ويكون قضاتهم وقوانينهم وحكامهم من المسيحيين وفيما يمّس مذْهبهم فإننا لن نعاونهم ولن نعوقهم ، وسيكون حسنا أن نسمح لهم ببعض الأماكن التى تشبه مخازن التبن ، ليمارسوا فيها شعائرهم ، ذلك أنه ليس هناك

أخطر من أن تحول مسيحيا ليصبح مسلماً " (١)

قريب من هذا النص . وإن اختلفت فيه الوسائل المقترحة ، رأى من "اشبيلية" بعث به " الونسو جيتيراً " ، سنة ١٥٨٨ (٢) مقترحا جعل الموركسيين مجموعات بحسب الانساب ، فنصل إلى ٢٠٠ أسرة أى ٢٠٠ شخص تزيد أعمارهم عن ١٦ سنة ، وهؤلاء يوضعون تحت اشراف رئيس مسيحى ، يمارس عليهم رقابة دائمة ، ولا يتم أى زواج بدون موافقته ، ولا يسمح لهؤلاء بتملك أسلحة ، وسيكون مفروضا على كل أصل من حيث النسب (أصل النسب) أن يدفع ضريبة سنوية عالية للملك ، وسيتسلم الملك أيضا خمس التركات . وقد حذّر نفس صاحب الرسالة من فرض عقوبات قاسية فى حالة مخالفة الأوامر ، ابتداء من الغرامات المالية إلى ضرب الرق ، مرورا بمصادرة الأموال والأشغال الشاقة فى المناجم إلى الأشغال الشاقة المؤبدة ، وقد رأى أيضا وجوب منعهم من الإنتقال أو تغيير محل الإقامة ، ووجوب وضع علامة مميزة عبارة عن خط أو شارة فى الوجه بحيث لا يمكن إخفاؤها ويكون معروفاً أن حاملها من الموركسيين (٣)

.

أما المطالبون بإبادة الأقلية الموريسكية ، فقد برهنوا على أنهم عنصريون أكثر من غيرهم ، مثلا " بدرو بونثى دي ليون " الذى أمضى فى الخدمة الملكية ٢٠ سنة ، كان حساساً بالنسبة للمشكلات التى نشأت من تجنيد المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة وفرض العمل عليهم بالسفن أو فى

1- Archive de valencia de Don juan , Madrid, 1 , p. 183, año 1582'
وانظر B. vincent: lo historia de los moriscos, P. 70'.
وانظر 2- P. Boronat y Barrachina, op. cit, PP. 634 y ss.
3- Ver: supra, P. 65, los proposiciones identicas de alonso chacon
B. Vincent : historia ... P. 70'.

المناجم ، ولهذا فقد فكّر منذ ١٥٨١ فى حل مشكلة الموريسكيين ، ونصح بأن يرسل كل الذكور ممن تتراوح أعمارهم بين ١٨ إلى ٤٠ سنة رسميا إلى السجون ، حتى يمكن عزل العناصر القوية التى تسبب ازعاجا للدولة وينتهى الأمر باختفائهم ، أما من هن فى سن الأربعين وما بعدها ، فلا بأس من تكاثرهم قليلا ، سيأتي وقت قريب ، ينتهى فيه من كل أسبانيا هذا الجيل الشرير،من هؤلاء الأعداء المؤكدة عداوتهم لصاحب الجلالة " (١) ومنذ سنوات خلت ، وعلى وجه التحديد فى سنـة ١٥٧٣ ، فإن " توريخوس " قد وصل إلى نتائج مشابهة ، وكان ذلك الشخص يعمل قسيسا في " دَرِيّكال " عندما قامت الثورة الغرناطية وقد أنقذه من مصير غيره أنه ابن لأب مسيحى وأم موريسكية ، فحمته الأبوة المرتبطة بتلك الأمومة ، ومع ذلك فإن هذا لم يمنعه من عمل خطة تهدف إلى اخفاء الموريسكيين عن طريق خطف كل الأطفال الذين تقل أعمارهم عن ٦ سنوات ثم نطمئن على إعطاء كل طفل لمسيحى قديم يحافظ عليه ويرعاه ، ثم نمنع الزواج بين الموريسكيين ، وبذلك نفرغ من هؤلاء بسرعة .

" فليأمر جلالتكم بالا يتزوج موريسكيي من موريسكية ، ولا موريسكية من موريسكيى ، ومن يرغب فى الزواج منهم ، فليتزوج من المسيحيين القدماء ، وهذا سيكون سببا فى بقائهم أو بقائهن بدون زواج ، وإذا استمر الوضع هكذا ، فسنرى نقص هذا الجيل وقلته ثم يقضى عليه ؛ لأنه بدون الزواج من المسيحيين القدماء ، سوف نرتاح ، وإذا تزوج البعض فسيكون هؤلاء أقلية قليلة جدا ، ويناسب أن يكون لنا مع هؤلاء موقف فيما يتعلق بنقاء الدم ، ولن يكون هذا عائقـاً كبيرا ، فيهود "قشتالة" كان

1- Archivo de valencia de Don juan, Madrid, envio 1, P. 110'

ذكره برنارد بيثنتى : تاريخ الموريسكيين .. ص ٧٠

عددهم مثل عدد هؤلاء ، ولم يعد أحد يشعر بهم تقريباً الآن ، لأن المورسكيى الذى يتزوج مسيحية قديمة سكون أبناؤه مسيحيين خوفاً من الزوجة ، ونفس الشيء بالنسبة للمورسكية التي تتزوج من مسيحى قديم ، وبهذا الأسلوب لن يتزوج هؤلاء ، وسنرى نقص جيلهم والتقليل منهم ثم انتهاؤهم . . . " (١)

مذكرتان حملتا هذا المنطق الذى لا يرحم إلي أبعد مدى ، وأيضا فإن خصاء المورسكيين ، كان عبارة عن اقتراح لأسقف " سيجورتى " الذى كتب سنة ١٥٨٧ يقول :

" سوف نفرغ من كل شيء ، وننتهى من كل الذكور كبارا وصغارا ومن كل النساء بهذا الأسلوب " ، بينما رأى " الونسو جيتيرث " اللجوء إلى هذه الوسيلة فقط لمنع الانتشار المتكاثر للجذور النسبية . (٢)

لقد كان هناك اذن تياران من الأفكار تم التعبير عنهما بشكل موسع رغم أن أصحابها كانوا أقلية فى العقدين الأخيرين من القرن السادس عشر لكن التيار القادر والذى كان ينصت إليه أكثر فى الأوساط الحكومية ، كان ذلك التيار الذى يحبذ طرد المورسكيين من كل أسبانيا ، يبدو هذا بوضوح فى الآراء المعلنة بالاجتماعات التي عقدت فى " لشبونة " ، وكانت لها أهمية سياسية ، وكان "فيليب الثانى" موجودا فى هذه المدينة قد فرغ لتوه من تنصيبه ملكا على البرتغال،وقد عقد الاجتماع الأول فى الرابع من ديسبمر سنة ١٥٨١ ، وحضره كبار رجال المملكة ، وتم فى هذا

1- Archivo general de simancas, camara de castilla, leg. 2. 178'
Madrid 29 - VIII - 1573'
نقلا عن : B. Vincent: Historia de los moriscos, P. 71'.
2- P. Boronat y Barrachina, op. Cit, 1, P. 346 y634.

الإجتماع دراسة الوضع الداخلي الصعب والوضع الخارجي ، وما يمثله الدور الموركسي من خطر ، كما درست الحلول المقترحة ، وعقد اجتماعان آخران فى ١٩ يونيو ، ١٣ سبتمبر سنة ١٥٨٢ ، انصب كلاهما على اقتراح النفى العام الذى انتهي مجلس الدولة من صياغته فى ١٩ سبتمـبر من نفس العام .

فلنركز الحديث عما جري خلال الحقبة موضع الدراسة :

لقد اكتشفت أمور تستوجب الفزع فى الفترة من ١٥٦٤ - ١٥٦٦ وهى فترة نشاط اللصوصية الأراجونية المدعومة بالمهاجرين الفرنسيين الذين هربوا من المشكلة الدينية فى فرنسا - فقد كان الموركسيون فى اقليمى " كالاتيادا " و " فيلا فتشى " ، يصنعون أسلحة ويرسلونها لاخوانهم فى "بلنسية" وفى سنة ١٥٧٠ اتخذ الملك فيليب الثانى إجراءات احتياطية ازاء امكانية قيام هجوم تركيى بسبب الثورة فى "غرناطة واسبيرنكا" ، ولابد أن الموركسيين فى "اراجون وبلنسية" وجزيرة "سردينا" يشعرون بالتعاطف مع إخوانهم فى غرناطة ، ولأن أفريقية قريبة فإنه من الممكن أن يعاون هؤلاء بعضهم البعض الآخر . وقبل ذلك بقليل فإن مفتش " سرقسطة " لفت نظر الملك والمفتش العام إلى الموقف الخطير الذى لاحظه لدي جماعات المسلمين الأراجونيين ، وفى ١٥٧٥ أصبح التوتر خطيرا وبدأنا نسمع عن اقتراحات بنزع سلاح الموركسيين وإلغاء كل التنظيمات التى تقف عقبة فى سبيل هذا الأمر . وقد تلقى الملك اقتراحات نائب مستشار "أراجون" حول الإجراءآت الوقائية الواجب اتخاذها ضد الموركسيين وهـــى :

أ- تعيين حراسة على منطقة تجمع المسلمين .

ب- تعيين مساعد عسكري لمساعدة والى اراجون .

ج- إرسال قوات اضافية لاقاليم المملكة ودعم وتقوية الأماكن التى يمكن أن يتخذها الترك للهجوم على أسبانيا .

د- التسليح الكامل بحيث يرهب الأعداء الحصون الأسبانية .

هـ- تسليح المسيحيين القدامى ونزع سلاح المورسكيين .

و- انتقاء الرؤساء والقادة المسئولين عن المورسكيين .

ز- تقوية الشواطىء والطرق فيما بين اراجون وبلنسية .

ح- أن يصدر أمر لسادة المورسكيين بأن يقيم هؤلاء فى أماكنهم .

ط- أن يستمر الإتصال دائما بين الولاة وبين الملك بهدف اتخاذ القرارات الفعالة ، وأخيرا يصر نائب المستشار على ضرورة ارسال أسلحة إلى منطقة اراجون بصورة عاجلة ، ويختم مهددا البارونات بتحويلهم إلى محاكم التفتيش إذا لم يقوموا بواجبهم .

وفى سنة ١٥٧٥ أمر بنزع سلاح المورسكيين الاراجونيين على أساس أن لهؤلاء اتصالات مع البربر ومع اتباع مذهب " كلفينوس " بفرنسا ، ويبدوأن هناك مبالغات فى تقرير مرفوع إلى الملك من نائب مستشار إراجون يقول أن عدد المورسكيين فى المملكة عشرون ألفا ، فعدد منازل هؤلاء لم يتجاوز أحد عشر ألفا ، من المحتمل قليلا أن يضم كل منزل اثنين من المورسكيين المسلحين ، خاصة وأنه لم يكن يملك السلاح إلا العبيد عند بعض السادة ، ممن لهم عداءات مع غيرهم ، لحاجتهم إليه فى كفاحهم عن سادتهم ، أما المورسكيون الذين عاشوا مع سادة بلا مشاكل فلم يكونوا

بحاجـة إلى هذا السلاح ، وكان نائب مستشار اراجون يرى أن احتمال الإتصال بملوك المغرب أو أتباع مذهب " كلفينوس " بفرنسا ، احتمال غير وارد بسبب ضيق جبال البرانس ، بالإضافة إلى أن الموركسيين لم يكن لديهم ميناء بحري يمكنهم من التحصن والدفاع ولو لمدة يومين ، فوق أن كل موركيي كان يقابله مائة مسيحيى ، ولهذا كله استبعد حدوث ثورة أو تمرد . أما عدد منازل الموركسيين فكان ١٠٨٢٥ ، وقد عثر عندهم على ٥٤٠٦ قطعة سلاح و ٣٠٥٣ بندقية من الطراز القديم و ٩٦١ منجنيق و ١٣٨٢ سلاحا من نوع آخر (١) .

وفى سنة ١٥٨٥ بدأت الحرب الأهلية بين الموركسيين يدعهمهم سادة الاقطاع "ولوس برتيسس" (مستقبلا انريكى الرابع ملك فرنسا) بعد ذلك بثلاث سنوات، دعا الملك إلى اجتماع غير عادي بقصر " البرادو " لدراسة المشاكل الناجمة عن الموركسيين ، وكانت نتيجة المناقشات ضرورة نزع سلاح الموركسيين اجباريا على أن يوضـــع فى الإعتبار الأعداد الكبيرة المسلحة منهم وأن لهم اتصالات مع الأتراك ومع الملحدين وأنهم يعيشون فى اقطاعياتهم النائية ، ولهذا فلا يمكن أن ينتظر منهم إلا التمرد ، ولهذا فإنه من المناسب أن ينزع سلاحهم خلال فصل الشتاء وحتى نهاية أبريل ، ويجب ألا ترسل قوات أجنبية حتى لا تثير الشبهات كما يجب التعامل مع السادة بمودة وإقناعهم بأن نزع سلاح الموركسيين أمر لابد منه ، ومن الضرورى تقوية الحصون والحدود الفرنسية وكل الأماكن التى يمكن أن تستقبل الموركسيين ، ولابد من العمل على عدم التقائهم مع الموركسيين فى بلنسية مهما كلف الأمر ..

1- Juan regla: Estudios ... PP. 70 - 73'.

وقد أخبرت السلطات فى " سرقطة " الملك فيليب الثانى عن بعض المؤامرات وطلبت منه ارسال تعزيزات عسكرية عاجلة وأضافت أن الخطر الأكبر هو الخشية من تمرد مورسكيى وأنه يناسب أن يشير الملك بما ينبغى عمله اذا تحرك المورسكيون ، وكان أسقف " سرقطة " يرى أن الأسلوب الأمثل لنزع سلاح المورسكيين هو أن يتم ذلك بمعرفة السادة أنفسهم ، لأن البعض يقول إنه مادامت المملكة مضطربة وأن رجال الجبل يثيرون المورسكيين فانه ليس من العدالة تجريدهم من سلاحهم حتى يمكنهم الدفاع عن أنفسهم .

إن التطورات التى حدثت فى "أراجون" بسبب بعض المؤمرات الداخلية ومحاولات ملك فرنسا التى تلت ذلك، رفعت التوتر فى المشكلة المورسكية ويقال أنه جرى حديث فى القسطنطينية بين سنتى ١٥٨٩ - ١٥٩١ عن تجهيز ٣ من السفن الكبيرة القديمة لارسالها نجدة للمورسكيين الذين كانوا يثيرون الفتن فى اسبانيا(١) وقد نظم أحد المتآمرين واسمه " انطونيوبيرث " هجوما فاشلا ضد الاراضى الأراجونية سنة ١٥٩٢ ، بدعم من "انريكى" ملك فرنسا مستقبلا ، وقد تصادف هذا مع تمرد مورسكى ، وقد حاول المتآمرون توجيه المسألة المورسكية لصالحهم اكثر من مرة ، وكشف "انريكى" نفسه سنة ١٥٩٣ عن خطة جديدة لتمرد فى اسبانيا يعتمد على المورسكيين فى بلنسية الذين يزيد عددهم عن ٢٠ الف سيتحدون مع اخوانهم فى اراجون ، كما سيهاجم " سرقطسة " الفان من Gascones وسوف يعلن بعض المتمردين العصيان فى بعض القلاع المهمة فى الطريق بين " اراجون وبرشلونه " . وسيتجاوب عملاء آخرون مع هذا

١- نقلا عن براوديل : البحر الأبيض بالفرنسية ص ١٠٤٧ .

التمرد فى المدينة الأخيرة وفى اشبيلية ومدريد ، كما سيشترك فيه الملكة " ايزابيل " ملكة انجلترا ، وقد وصلت كل هذه المعلومات الى الملك عن طريق جاسوس مشترك : فكتب يقول أنه يرى كل هذا بل ويعلم انه حقيقة ولهذا اصدرت أمرا بنزع سلاح المورسكيين فى " أراجون " ، وقد تم ذلك بصورة فعالة سنة ١٥٩٣ وتأخر عاما بسبب النزاع بين الوالى وبين الماركيزات .

وفى ديسمبر سنة ١٩٥٦ عاد مجلس الدولة الى الاهتمام بالمورسكيين الاراجونيين ، واتفق على أمور طلب من الوالى تنفيذها وهـــى :

أ - أن يسلح المسيحيون القدامى وأن يوزعوا على معسكرات ويعين لهم رؤساء ويعنى بهم الى أن يطلب منهم القيام بنشاط .

ب - أن يقوم السادة أنفسهم بنزع سلاح المورسكيين ووضعه فى أماكن آمنة .

جـ - حتى يقوم المورسكيون بذلك فى سهولة فإن محكمة التفتيش تعفيهم مما جرى فى الماضى ، ومن لايقدم سلاحه لن يستفيد منه ويصبح بلاقيمة .

د - يؤمر الذكور بالاقامة فى اراضيهم وتحترم الاتفاقيات معهم الا اذا اكتشفت تحركاتهم ونواياهم الشريرة ، على أن يتم إبعادهم عن تأثير السادة الاقطاعيين .

هـ - أن يحمل المسئولون ومن بيده سلطة منهم على العيش بين المسيحيين القدامى

و - مراقبة الطرق لمنع الاتصال بين المورسكيين فى اراجون واخوانهم فى بلنسية .

وبالنسبة لفرنسا فان المورسكيين يعيشون فى ركن قصى بعيد عن حدود وموانيى فرنسا ، لهذا ، وبسبب وجود عصابة قشتالة ، فان الخوف ليس كبيرا ، ومن الواجب اتخاذ القرار وبسرعة قبل انهاء فصل الشتاء وإرسال القوات اذا لزم الأمر ، والتصرف بسرعة حسبما تملى الظروف .

وبعد موت "فيليب الثانى" بفترة قصيرة ، وعلى وجه التحديد سنة ١٥٩٥ ، خطط "انريكى الرابع" ملك فرنسا لمؤامرة جديدة ضد اسبانيا اعتمادا على تمرد مورسكيى ، لقد كانت هناك نوايا لهجوم على عمق اسبانيا يحتمل جدا أن يكون قد تم الاعداد له بالاشتراك مع المتآمر "أنطونيو بيرث" ، وقد قام فى قسم رئيسى منه على اضطراب الجذور النسبية داخل شبه الجزيرة . وكان " باسكوال سأنتى ستيبان " - وهو جاسوس مشهور جدا - أحد الضالعين فى المؤامرة ، وقد نقل خبرا الى انريكى الرابع مؤداه أن المورسكيين يعملون فى صمت لرفع نير العبودية والظلم ، وقد طاف نفسه بكل الاقاليم والأراضى الاسبانية بهدف اعداد الارض وتقديم هبات ووعود كثيرة باسم ملك فرنسا ، لكن الحكومة الاسبانية فضحت المؤامرة بعد تمام الإعداد لها .

يقول " مارنيون " إن الثورة التى اعد لها بشكل جيد جدا فشلت لسوء الحظ ، ليس بسبب وشاية " سانتى ستيبان " هذه المرة ، بل بسبب حائك مورسكى تحول الى المسيحية وأراد تقديم خدمة للملك الكاثوليكى ، وكذلك بسبب اخلاص ملك انجلترا الذى دعى للاشتراك فى المشروع ولكنه أخبره " مدريد " لصداقته مع ملك اسبانيا .

وهكذا يتضح من التحليلات السابقة أن المشكلة الموركسية " باراجون " - خلال عهد فيليب الثانى شهدت مجموعة من العناصر عاونت على زيادة التوتر وهم الاتراك والبربر واتباع " كلفينوس " بفرنسا ومصالح سادة الاقطاع والامتيازات ، وستتميز المشكلة بنفس الصورة خلال عصر فيليب الثالث (١)

إن معظم الأراء المؤيدة لاقتراح الطرد ، كانت تنبنى على شئ واحد هو دراسة مايترتب على ذلك من مكاسب وخسائر ، وكانت الخسائر اقتصادية بالدرجة الاولى وتتمثل فى نقص الايرادات الملكية ودخول أصحاب الاقطاع ، لكن كانت هناك خسائر سياسية تتمثل فى الحوادث الخطيرة التى قد تحدث عند تنفيذ هذا الاجراء ، وهناك موانع دينية يعنى الخوف من أن تفقد المسيحية أرواح المسيحين بشكل لايمكن تداركه أو تعويضه ، وقد اعتبر هذا كله - بصفة عامة - أقل من المزايا التى ستترتب على الطرد والمتمثلة فى الوحدة والسلام ، لهذا فإن كل الدرجات الدينية تقريبا كانت تؤيد اتجاه طرد المورسكيين جميعا من كل اسبانيا مثل اسقف "طليطلة واسقف بلنسية" وكذلك مفتشو التحقيق فى "بلنسبية" وقد تخيل البعض اجراء معينا حتى لايدخلوا فى الاسلام ، فرأى الاسقف " سيجوزميى" (٢) نفيهم الى جزيرة صحراوية نائية يمكن أن تكون جزيرة " تيرانويا " ، وقد رئى أن قبول هذا الاقتراح ليس ضروريا مادام صاحبه قد وافق على الطرد من حيث المبدأ ، على أن اجراء النفى فى هذه الآونة قد لايتم بسبب ذلك وبسبب المعارضة التى يقوم بها أصحاب الاقطاع ممن يضر بهم هذا الاجراء ، وأيضا بسبب صعوبة توفير الوسائل العديدة التى

1- Juan regla: Estudios ... PP. 73 - 83'.

2- P. Boronat. op. cit. 1,606, 633'.

يتطلبها تنفيذ هذا الاقتراح ، وأخيرا بسبب خطورة الوضع الدولى الذى استحوذ على اهتمام الملك أنئذ .

لقد هبطت درجة التوتر - الى حد ما - بين الجماعتين : الاسلامية المنصرة والمسيحية ،حتى إنه نصح ببعثة تبشيرية وبادرة رسولية جديدة فى إجتماع عقد بمدريد بتاريخ ١٧ يونيو ١٥٨٧ ، ومع ذلك فلم يعتقد أحد من أعماق ضميره فى فاعلية هذه البادرة ، وواصلت فكرة الطرد سيطرتها الكامنة باعتبارها الوسيلة الوحيدة المجدية . وفى سنة ١٥٩٨ تم توقيع معاهدة " بيرتيس " مع فرنسا خطوة أولى نحو سلام عام

وبدأت الارستقراطية المالكة فى " أراجون " و " بلنسيه " تفكر فى الفوائد التى يمكن جنيها من وراء احلال مواطنين جدد محل المورسكيين أو المسلمين المنصرين (١) ، وهكذا بدأ مصير المورسكيين هؤلاء يتحدد منذ ١٥٩٨ م .

بعد هذا العرض الذى قدمناه فى هذا الفصل ، فإن الباحث يعجب من موقف السلطات الرسمية إزاء هذه الأقلية المسلمة ، لماذا كل هذه المضايقات ؟ ولماذا كل هذه المطاردات ؟ ما أن يستقر هؤلاء فى منطقة وتكاد أحوالهم تستقيم حتى يقضى عليهم أن يتفرقوا من جديد حتى كأن التشتت هو قدرهم المقدور ، ويحكم عليهم بأن يخضعوا لرقابة دائمة مستمرة ولا يمتلكون وسائل للدفاع عن أنفسهم إذا لزم الأمر ، فهم مجرمون آثمون دائما وإن كانوا برآء ، ولاهّم لرجال السلطة من مذنبين ودنيين الا أن يقدحوا زناد أفكارهم بهدف الوصول الى أنجع الوسائل للقضاء على هذا الشعب قضاء مبرما .يكفى أن نشير الى ماذكره "انريكث

1- Juan regla : Estudios ... P.8.

دى خوكيرا " من انه كان يحتفل فى غرناطة فى أوائل القرن السابع عشر باعدام الملحدين حرقا ، حدث ذلك فى سنوات ١٦٠٦ ، ١٦٠٨ ، ١٦٠٩ حيث حكم على شخصيات إسلامية بما فيها بعض من كانوا يشغلون مناصب هامة ، وقد خرجت آلاف نتيجة لمرسوم الطرد . وفى سنة ١٦٠٨ خرج ثمانون شخصا وأحرق أثنان أحياء بينهما امرأة لفظت أنفاسها وهى تنطق الشهادتين ، وفى سنة ١٦٠٩ خرج ٣٢ شخصا ثبتت عليهم تهمة الردة ، بينهم محلف مدينة غرناطة وكان من الرجال الأقوياء ذوى النفوذ والمال ... ويقول " ريبيرا " " ان الانطباع العام أن المورسكيين يواصلون الاخلاص لاسلامهم ، ليس فقط فى غرناطة بل وفى قشتالة وبلنسية وأراجون ... " هذا كل ذنبهم (١).

وقد تباينت اقتراحات المسيحيين فى رسائلهم الى الملك فيما يتعلق بمستقبل هؤلاء ووصلوا فيها الى أبعد مايتخيله إنسان ، فهل نلوم هذه الأقلية اذا شعرت بالمرارة من هذه المعاملة القاسية ؟ وهل نلومها اذا لجأ بعض أفرادها حتى الى قطع الطريق لينتقموا من بعض ماله يتعرضون ، وليثأروا من جزء من الاهانات التى تقع بهم على أيدى المسئولين دون ذنب اقترفموه اللهم الا إصرارهم على الاحتفاظ بعقيدتهم الاسلامية ورفضهم أن يكرهوا على التنصير ؟!

إن بعض ماقام به بعض أفراد من المورسكيين ليس الا ردّ فعل لما لحقهم ، ولو استقامت السلطة معهم وعاملتهم معاملة طيبة لكان الحال غيرَ

١-أنظر: Henriquez de jorquera (Francisco) .. Cronica de la reconquesta (1482 - 1492). Succsos de los aňos 1588 a 1646' Edicion de Don Antonia Marin 1934 Vca sc, 2 P. 550, 558, 563'. occte, 2 Volumcnes, Granada

وأنظر أيضا J.C. Baroja: Los Moriscos, P. 210, 212 y Nota 24, P 210'.

ماعرفناه ، ولتغيرت النتائج . وعلى كل حال ، فقد استقر الأمر على نفى هؤلاء وطردهم كلية من الأراضى الاسبانية جميعها ، وقصة هذا النفى هى ماسيعرضه الفصل التالى .

الفصل الرابع

نفى الموركسيين من أسبانيا ،

مبررات ذلك النفى

إتضح مما سبق أن الحكومة الاسبانية كانت تنظر الى المسلمين المتصرين على أساس أنهم خطر على أمن وسلامة البلاد ، وترى لهم اتصالات بالممالك الاسلامية فى افريقية وبالدولة العثمانية فى القسطنطينية ، وبأعداء اسبانيا الكاثوليكية من الفرنسيين والبروتستانت ، وأنهم وراء غارات القراصنة على السواحل الاسبانية ، وأنهم قد يقومون بثورات بايعاز من هؤلاء الأجانب ، وقد يتعاونون معهم على احتلال الثغور وتعريض البلاد للغزو الأجنبى ، أضف لهذا أنهم لايزالون يصرون على هويتهم الاسلامية ، ويلتزمون العادات والتقاليد ويحترمون مظاهر الحضارة الاسلامية ، سرا أو علنا ، ولم تجد ألوان المعاملة القاسية أو وسائل التبشير فى تحويلهم حقيقة الى العقيدة الكاثوليكية . ومن هنا اتجه التفكير للبحث عن وسيلة ناجحة تستأصل هذه المجموعة من جذورها .

وقد إتجهت السياسة الاسبانية الى التفكير فى نفى المورسكيين جملة من البلاد منذ أواخر عهد فيليب الثانى ، وظهرت هذه الفكرة على وجه التحديد عام ١٥٨٢ فى ذلك الاجتماع الذى عقد بلشبونه السابق الاشارة اليه (١) ، وكان ذلك بعد الثورة الغرناطية وماسببته من رعب للسلطات ، بل وضع بالفعل مشروع هذا النفى ، وتأجل تنفيذه الى حين بسبب مشاغل السياسة الخارجية .

ولم يكن النفى هو الخطوة الحاسمة الوحيدة التى فكر فيها المسئولون الاسبان للقضاء على خطر المورسكيين ، فقد رأى بعض كبار الأحبار ضرورة القضاء على المورسكيين أنفسهم حتى يتم التأكد من القضاء على مايمثلونه من أخطار ، واقترح المطران " ريبيرا " أن يضرب عليهم الرق جميعا وأن يؤخذ فى كل عام بضعة آلاف منهم للعمل فى

1- J. regla: studios sobre los moriscos P. 49'

السفن ومناجم الهند حتى تجتث جذورهم بهذا الأسلوب ، واقترح البعض وجوب قتل كل المورسكيين دفعة واحدة أو قتل البالغين واسترقاق الباقين وبيعهم عبيدا ، ورأى أحد وزراء فيليب الثانى أن يجمعوا ويحملوا فى سفن ويلقى بهم فى عرض البحر (١) ، ولكن لابد من أن نشير الى أن هناك من عارض فكرة الطرد لمبررات دينية أو اقتصادية حتى بعد أن استقر الرأى عليه ، ومن هؤلاء السيد " مانويل بونثى دى ليون " ، فقد أرسل رسالة الى الملك بتاريخ ١٦٠٩/٨/٢٨ يشير فيها الى مخاطر اتصالات المورسكيين فى بلنسية بالبربر ، وأتصال المورسكيين فى " أراجون " بفرنسا ولكنه تساءل كيف يسمح لهذا العدد الكبير بالانتقال الى افريقية بعد انخراطه فى العقيدة المقدسة ، واشتراكه فى الطقوس المسيحية واعتناقه لها ؟ من يملأ هذا الفراغ ويعوض سادة الاقطاع ؟ من يملك السلاح حتى ولو لعبيد واحد يترك العقيدة.؟ وقد اقترح الاستفادة بما حدث فى بلاد أوروبية أخرى يعنى اقامة ثلاثة حصون فى مملكة بلنسية على نفقة المورسكيين تشبه قلاع ميلان وغيرها ، ويمنع أى اتصال بين المورسكيين وبين المغاربة ، ويقول إن هذا حدث فى الدولة العثمانية حيث تحمل السكان المسيحيون فى البلقان نفقات قلاع بدلماثيا والبانيا وقبرص واليونان ، أما فيما يتعلق بالمورسكيين فى أراجون ، وعددهم أقل ، فانه يقترح بناء حصن يحصرون فيه ويمنعون من الاتصال بفرنسا ، ويحرم عليهم حمل السلاح ، ويجبرون على تعلم القشتالية خلال عامين ، ولايعملون الا فى الزراعة ، ويتزوجون من مسيحيات قديمات ... (٢)

وعلى كل حال فقد استمر المسئولون فى تخبطهم الى أن مات

1- lea. the moriscos ... PP. 296' - 299'

2- Juan regla: estudios sobre los moriscos PP. 52 - '53

فيليب الثانى سنة ١٥٩٨ وخلفه ابنه فيليب الثالث ، وكان الأخير شابا لا إرادة له ، قد سيطر عليه الأحبار وكبار رجال الدين وكان يتحكم فى قراراته ويصرف أموره " الدوق دى ليرما " ، وكان هذا الوزير من أشد الناس مناصرة لفكرة القضاء على هذا الشعب المسلم المنصر ، وقد وضع بالفعل خطوط تنفيذها منذ سنة ١٥٩٩ ، فالمورسكيون فى نظره عرب مسلمون ، ويجب إعدامهم من تتراوح أعمارهم بين الخامسة عشرة والستين أو يضرب عليهم الرق ويبعث بهم للعمل فى السفن مع مصادرة ممتلكاتهم ، أما من جاوز الستين ، ذكرا كان أو أنثى ، فينفى الى المغرب ، ويُربَّى الاطفال فى المعاهد الدينية . وقد أقر مجلس الدولة هذا المشروع فعلا ، وبدأ حصر المورسكيين ، بصورة سرية ، فى كل أنحاء اسبانيا .

وفى سنة ١٦٠١ عاد المطران " ريبيرا " الى كتابة تقرير عن هذه المشكلة قدمه الى الملك قال فيه : إن الدين الكاثوليكى هو دعامة المملكة الاسبانية " وإن المورسكيين لايعترفون ولايتقبلون البركة ولا الواجبات الدينية الأخيرة ، ولايأكلون لحم الخنزير ، ولايشربون النبيذ ، ولايعملون شيئا من الأمور التى يقوم بها النصارى ... " ثم يقول : إننا لانثق فى ولائهم لأنهم مارقون ، وإن هذا المروق العام لايرجع الى مسألة العقيدة ، ولكنه يرجع الى العزم الراسخ فى أن يبقوا مسلمين ، كما كان أباؤهم وأجدادهم ، ويعرف مفتشو العموم أن المورسكيين بعد أن يحجزوا عامين أو ثلاثة وتشرح لهم العقيدة فى كل مناسبة ، فانهم يخرجون دون أن يعرفوا كلمة منها ، والخلاصة أنهم لايعرفون العقيدة ، لأنهم لايريدون معرفتها ، ولأنهم لايريدون أن يعملوا شيئا يجعلهم يبدون نصارى " (١)

1- P. Longas: Vida religiosa de los moriscos, P.LXIII

وفى تقرير آخر يقول نفس المطران " إن الموريسكيين كفرة متعنتون يستحقون القتل ، وأن كل وسيلة للرفق بهم فشلت ، وإن اسبانيا تتعرض من جراء وجودهم فيها الى أخطار كثيرة وتتكبد فى رقابتهم والسهر على حركاتهم واخماد ثوراتهم كثيرا من الرجال والمال ، ويرى أنه لابأس أن تتألف محكمة سرية من الأحبار ، تحكم بردتهم وأنهم خونة ، ثم تقضى علانية بوجوب نفيهم ومصادرة أملاكهم ، ولكن هذا المشروع لم ينفذ ، لأن مجلس الدولة كان يريد المضى الى غايته بصورة سرية ، ويريد الا تصطبغ اجراءات النفى بالطابع الدينى . (١)

وفى سنة ١٦٠٧ نسب الى الموريسكيين من بلنسية أنهم إتصلوا بمولاى زيدان ، وعرضوا معاونته على خططه لغزو اسبانيا وعزمهم الثورة ضد السلطات ، كما سبق أن اسلفنا ، عندئذ عقد مجلس الدولة اجتماعا فى أواخر يناير ١٦٠٨ ودرس المسألة الموريسكية واستعرض المقترحات من جديد ، وقد كرر المطران " ريبيرا " وجهة نظره السابقة وأنه يجب طرد الموريسكيين الى المغرب ، ومؤكدا أن هذا أرفق ما يمكن اتخاذه من اجراء ، وقد أيده معظم الأعضاء ، ولفتوا الأنظار الى تكاثر الشعب الموريسكى بصورة غير عادية فى الوقت الذى ينتاقص فيه المسيحيون ، ولهذا فالنفى ضرورة لامناص منها ، وقد عُهد الى لجنة خاصة يرأسها " الدوق دى ليرما" بدراسة المشروع كله وإعداد وسائل وتفاصيل تنفيذه والضمانات الازمة لنجاحه ، فتوصلت الى أسس مضمونها أن يمنح الموريسكيون شهرا لبيع أملاكهم ومغادرة اسبانيا الى حيث يشاؤون فمن جاز منهم الى أفريقية ، يسر له السفر فى أمان ، ومن جاز الى أرض نصرانية ، أوصى به خيرا ،

١- أنظر عنـــان : نهاية الأندلس ص ٣٩٥ .

ومن تخلف عن الرحيل بعد هذه المدة ، قضى عليه بالموت والمصادرة ، وبرغم مافى هذه الأسس من رفق الى حد ما ، الا أنه لم يؤخذ بها . (١)

وقد استشف بعض الموريسكيين من الاجتماعات المتكررة ومايدور فيها أن شيئا ما سيحدث ، فبدأوا هجرة اختيارية سنة ١٦٠٨ ، ورأوا أن ذلك يمكن أن يتم بصورة أفضل مما لو حملوا على مغادرة البلاد ، وقد قام بتلك الرحلة أكثر الناس ثراء ممن يمكنهم الإنفاق على رحلة طويلة ، ومن هؤلاء الذين رغبوا فى حماية ثرواتهم قبل أن تتعرض للمصادرة ، وكان بين هؤلاء المهاجرين أسر غنية من مناطق مختلفة ، وقد بدأت أخبار هؤلاء الهاربين تصل الى الحكومة ، فكتب اسقف " سرقطة " أن أفواجا من الموريسكيين يجتازون جبال " البرانس " ، ويتصرفون بطريقة تجعل الحراس لايتعرفون على هويتهم ، وبعرض الأمر على مجلس الدولة ، أفتى أنه فيما يتعلق بالموريسكيين الذين يجتازون الى فرنسا ، فان والى " قطالونيا" يمكنه أن يأمر بالتعرف عليهم ، فان كان بينهم بعض الأغنياء أو ذوى النفوذ ، فانه يلقى القبض عليهم ، ويحملهم غرامات ويحاول معرفة نواياهم ، أما الناس العاديون فيتغاضى عنهم ، لأنه كلما قل عدد الباقين كلما كان ذلك أفضل ، وقد اختار هؤلاء طريق الشمال ، لأن الهرب الى البلاد الاسلامية كان يمثل جريمة ، وكان يمكنهم الابحار من فرنسا الى بلاد الشمال الإفريقى ، وكانت " تونس " هى نقطة الوصول المفضلة لديهم ، وربما فضل بعضهم البقاء فى الأراضى الفرنسية ، منتهزين فرصة استعداد - انريكى الرابع - ملك فرنسا - لتوطينهم فى بلاده ، أما فرنسا فقد استفادت مما حمله الهاربون من ثروة ، ويقول واحد ممن اسروا أنهم أخلوا

١- أنظـر : المرجع السابق ص ٣٩٥-٣٩٦ .

المملكة من الذهب وحملوه معهم ، وكان حراس الحدود يتركونهم لقاء مبلغ من المال يدفعونه لهم ، وكان هناك مهاجر موريسكى دخل مرسلية بفرنسا يقال له " الأخ ابراهيم " وهو الذى اتصل بالموريسكيين الذين اجتازوا الى فرنسا ، وأكد لهم قبل المغادرة ، أنهم سيكونون أحرارا وسيعيشون وفقا لعقيدتهم الاسلامية ، وكان مع الموريسكيين المهاجرين بعض الصبية الهاربين من أسبانيا ، وهناك رسالة صادرة بتاريخ ٢٩ مارس سنة ١٦٠٨ يقول كاتبها أنه عندما كان فى تونس وصلت سفينة فرنسية على متنها أكثر من مائتى موريسكى مابين رجال ونساء وأطفال ، وعندما وصلنا وجدنا مركبة انجليزية تحمل مابين ٢٥٠ الى ٣٠٠ موريسكى متجهة الى تونس ، وكان هناك عدد يتراوح بين ٤٠٠ الى ٥٠٠ موريسكى ، جاءوا من مملكة أراجون الى فرنسا ، ينتظرون الاقلاع منها الى بلاد الشمال الافريقى (١).

وهكذا نرى أن هنالك قوما أرادوا الخروج بأنفسهم هاربين من فظاعة الطرد القهرى نفسه .

وعلى كل حال فقد بحث مجلس الدولة المسألة الموريسكية للمرة الأخيرة فى يناير سنة ١٦٠٩ ، وقدم تقريرا ينصح فيه بطرد الموريسكيين ، ذلك أن اسبانيا تتعرض لخطر الغزو من مراكش وغيرها ، كذلك صحت الأدلة على أن الموريسكيين خونة مارقون وأنهم يستحقون الموت أو الرق ، ولكن اسبانيا تؤثر الرفق معهم وتكتفى بطردهم من أراضيها ، وتقرر أن ينفذ المشروع كله فى خريف العام نفسه ، وبالفعل صدرت الأوامر الى حكام "صقلية ونابلى وميلان" بإعداد السفن اللازمة لنقل الموريسكيين وجمع

أنظر : Antonio Dominguez ortiz: historia de los moriscos, PP. 178 - 179'

وقد نقل الرسالة المذكورة عن مخطوط أكاديمية التاريخ بمدريد رقم 3-6436-9

القوات اللازمة لحراستهم ، وفى مطلع الصيف كان فى مياه " ميورقة " عشرات من السفن ، واتخذت الأهمية للتنفيذ بكل همه ونشاط ، وعلى وجه التحديد اتخذ القرار فى ابريل سنة ١٦٠٩ ـ مؤسسا على أسباب سياسية وليس دينية الا بصورة قانونية ـ وقد اتخذ القرار فى نفس يوم توقيع هدنة ال ١٢ سنة مع هولنده ، وصدق عليه مجلس الدولة ووقعه الملك وهو فى إجتماع مغلق مع مستشاريه المخلصين بقصر "سيجوبيا" ، وفى ٢٢ سبتمبر سنة ١٦٠٩ ، أعلن الوالى الماركيز دى كاراثينا المرسوم النهائى الخاص بنفى المورسكيين أو المسلمين المنصرين ، فاستقبلوه بكثير من الهلع والاضطراب ، وترتبت عليه بعض أحداث العنف ، هذا المرسوم يتضمن مايلى :

بدأ بالحديث عن خيانة المورسكيين واتصالاتهم بأعداء اسبانيا وفشل كل المجهودات التى بذلت لتنصريهم وأن يكون ولاؤهم لاسبانيا ، وأن ما استقر عليه رأى الملك هو نفيهم جميعا الى بلاد المغرب ، وبناء عليه فانه يجب على المورسكيين من الجنسين أن يرحلوا مع أولادهم فى ظرف ثلاثة أيام من نشر هذا القرار ، من المدن والقرى الى الثغور التى يعينها لهم مأمورو الحكومة ، ومن يخالف يعاقب بالإعدام ، ولهم أن يأخذوا من متاعهم مايمكن حمله على ظهورهم وذكر أن السفن قد أعدت لنقلهم الى بلاد المغرب ، وسوف تتكفل الحكومة بإطعامهم أثناء السفر ، ولكن عليهم أن يأخذوا ما يستطيعون من المؤن ، ويجب عليهم البقاء فى أماكنهم خلال مهلة الأيام الثلاثة ليكونوا رهن اشارة المأمورين ، ومن يخالف يعرض نفسه للنهب والمحاكمة أو الإعدام فى حالة المقاومة ، وقد منح الملك كل الاملاك العقارية ، وكذلك المواشى والحبوب والزيوت التى عدل المرسوم ليمنع المورسكيون من بيعها ، ومثلها الامتعة الشخصية التى

لاتحمل ، كل ذلك منحه الملك لأصحاب الاقطاع الذين رحل رعاياهم ، واذا حاول واحد اخفاء الامتعة أو دفنها أو أضرم النار فى المنازل أو المحاصيل عوقب سكان الناحية جميعا بالموت . ونص المرسوم على أن يبقى فقط ٦٪ من أسر الموركسيين مع تفضيل الاكبر سنا ومن يحظى بثقة المسيحيين لاخلاصه للكاثوليكية وذلك للإنتفاع بهم فى صيانة المنازل والعناية بمعامل السكر ومحصول الأرز وتنظيم الرى وإرشاد السكان الجدد ، ويختار السادة هذه النسبة من هؤلاء الذين يتميزون بالخبرة وشدة الولاء للنصرانية ، أما الأطفال الذين تقل أعمارهم عن أربع سنوات فانه يسمح لهم بالبقاء اذا شاءوا ورضى آباؤهم وأولياؤهم ، واذا كانوا دون السادسة سمح لهم بالبقاء شريطة أن يكونوا من أبناء النصارى القدماء ، ويسمح كذلك لأمهم الموركسية بالبقاء ، فان كان الأب موركسيا والأم مسيحية ، نفى الأب وبقى الأولاد الذين هم دون السادسة مع أمهم ، كذلك يسمح ببقاء الموركسيين الذين أقاموا بين المسيحيين مدة لاتقل عن عامين دون أن يختلطوا بالجماعة الموركسية أو يحضروا احتفالات المسلمين اذا زكاهم القساوسة ، وحظر القرار من اخفاء الهاربين أو حمايتهم ، وهدد المخالف بالاشغال الشاقة لمدة ستة أعوام ، ومن ناحية أخرى منع المرسوم المسيحيين القدماء من التعرض للموركسيين أو اهانتهم بالقول أو الفعل ، كى يفهم الموركسيون أن هدف صاحب الجلالة هو طردهم من المملكة فقط ، ولهذا لاينبغى تعريضهم لمضايقات ، وأخيرا نص المرسوم على السماح لعشرة من الموركسيين بالعودة عقب كل رحلة كى يشرحوا لإخوانهم كيف أن النقل الى عدوة المغرب قد تم على أكمل وجه (١) .

1- P. Boronat: Los moriscos españoles y su expulsíon, 11, P. 158 y '190 y ss

- J. regla: estudios ... P. 57 y ss

- Antonia Dominguez ortiz: Historía ... P. 226 y ss

عنان نهاية الأندلس ص ٣٩٦ ،٣٩٧ .

أما رد الفعل عند المورسكيين فكان الاضطراب ، ولم تكن أمامهم حيلة الا الخضوع ، وقد يجدون فى أرض المغرب معاملة أفضل مما لقوا هنا ، فقد نهكت قواهم ونضبت مواردهم ولم تكن عندهم مقدرة على المقاومة ، بالاضافة الى أن الحكومة الاسبانية قد اتخذت أهبتها وحشدت قواتها فى كل مواطن المورسكيين ، وقد اجتمع زعماء هؤلاء وفقهاؤهم وقرروا الاستسلام والرحيل والايبقى منهم أحد حتى نسبة ال ٦٪ التى سمح ببقائها ومن بقى منهم اعتبر مرتدا ومارقا ، ومع ذلك فقد حدثت بعض الثورات المحلية وتحصنت بعض الجماعات فى المناطق الجبلية تأهبا للمقاومة وقامت ببعض الأعمال فى تلك المناطق ، ولكن ذلك لم يلبث أن قضى عليه بعد قتل عدد جم .

وقد تظلم المدجنون من هذا القرار وقالوا أنهم اعتنقوا النصرانية طوعا قبل التنصير الإجبارى ، وهم مسيحيون اسبانيون بمحض إرادتهم ، فصدر الأمر الى الاساقفة ببحث ذلك والسماح بالبقاء لمن توافر له الإخلاص والولاء . (١)

أما الأغلبية الساحقة فقد بدأت تستعد للرحيل ، وحتى هم أنفسهم لم يجدوا بينهم من يرغب فى البقاء ، وقد حاول بعض أصحاب الإقطاع ابقاءهم بالقوة فى حدود النسبة المقررة ، ولكن السلطات غيرت رأيها بضغط من " ريبيرا " الذى كان يرى أن الطرد يجب أن يكون كاملا ما أمكن ، فلا يبقى الا بعض الاطفال ، بل هناك من سرق الأولاد من

1- Henry charles lea: History of the inquisition in spain vol 111, P. 399'

وقد ترجم هذا الكتاب الى اللغة الأسبانية كل من :

Angel Alcala y jesus Tobio

وصدر فى ثلاثة مجلدات بمدريد ـ أسبانيا ـ سنة ١٩٨٣ تحت عنوان :

Historia de la inquisicion espanola.

أبائهم حتى لايذهبوا فيعيشوا فى أراضى غير المؤمنين يعنى الكفار من المسلمين ، وقد حاول البطريرك الأبقاء على من تقل أعمارهم عن ١٢ سنة ولكن مجلس الدولة تشدد ، وقرر طرد كل من تزيد أعمارهم عن خمس أو ست سنوات ، ففى هذا العمر لايمكن للطفل أن يحتفظ بشئ من ذكريات دينه الاسلامى ، وقد أثار هذا جدلا بين الطوائف اللاهوتية ، اذ كيف يصح من الناحية العقدية والقانونية نفى الاطفال المعمدين ، وقد أودت انفعالات من هذا النوع بحياة المطران سان خوان ريبيرا فى ٦ يناير سنة ١٦١١(١) .

وقد تدفق المورسكيون الى الأسواق لبيع ماتيسر لهم ، وكان أسقف " بلنسية " يصر على ضرورة البدء بمورسكى قشتالة ، لأنهم أكثر خطورة من البلنسيين ، ولكن الأسباب الحقيقية تستشف من الرسالة التى يقول فيها ، " إن المدن والأماكن الكبيرة تعتمد على المؤونة التى يحضرها هؤلاء المورسكيون إلى الكنائس والأديرة والمستشفيات والجمعيات والنبلاء والفرسان والمواطنين ، انهم ضروريون للحكومة والخدمات الروحية والزمنية التى تعتمد على هؤلاء المورسكيين . (٢)

وعندما بدأت الشائعات فى بلنسية حول قرار نفى المورسكيين ، فان النبلاء وسادة العبيد عقدوا اجتماعات عديدة وقرروا إرسال وفد منهم الى مدريد ، وقد استقبل الملك والدوق دى ليرما أعضاء الوفد ، وبدأوا يعرضون الآثار الجسيمة التى تترتب على طرد المورسكيين ومنها تحطيم كل البارونات وأصحاب الإقطاع وضياع ملايين النقود المفروضة ضرائب على

١- أنظر : أنطونيو دو منجث أورتيث : تاريخ المورسكيين بالأسبانية ص ١٨٦ .

2- P. Boronat: la obra citada anteriorment : 11, Documentos Justificativos N. 9, P. 501'.

المورسكيين ، بالإضافة الى خسائر أخرى ، وكان الكونت دى قشتالة هو المعارض الرئيسى لفكرة الطرد وكان يؤكد أن الخراب الشامل والدمار للمملكة يأتى من هذه الفكرة (١) .

وعلى كل حال فقد تقرر البدء بالمورسكيين فى بلنسية ، وبدأت الإستعدادات بسرية كبيرة ، وتقرر إعداد السفن ، كما تقرر عمل احصاءات بالقوات المسلحة التى يمكن الإستفادة بها إذا قاوم المورسكيون ، وقد تجمعت ٥٠ سفينة بها حوالى ٤٠٠٠ جندى ، وكلفت مدفعية قشتالة بمراقبة الحدود ، كما كلفت سفن الأسطول بمراقبة الشواطئ الأفريقية ، وكل هذا لايمكن أن يمر بدون ملاحظة ، ولذلك ترى أن ملاك العبيد والنبلاء والطبقة العسكرية فى البرلمان إجتمعوا وأرسلوا مندوبين عنهم إلى القصر فتحدثوا عن الخراب الذى سينزل بهم والإمتيازات التى ستضيع منهم ، والاجراءات التى يمكن إتخاذها لتجنب هذا الاجراء المتطرف ، ولكنهما لم يحصلا على شئ سوى اعلامهما بأن مرسوم الطرد قد حرر ، وأنه سيعلن قريبا ، وعندما عرف هؤلاء بنود المرسوم وأن ممتلكات المورسكيين ستؤول اليهم على سبيل التعويض ، عدلوا عن موقفهم (٢) .

وبالفعل بدأ تنفيذ القرار أولا فى مملكة بالنسية فى أكتوبر ، وكان موقف أصحاب الإقطاع من رعاياهم مختلفا ، فمنهم من تصرف مع اتباعه بصورة انسانية ، وصحبهم الى موانى الرحيل بل وعلى متن السفن أحيانا وجنبوهم كثيرا من المضايقات ، بينما كان سلوك آخرين مؤلما بغيضا مثل "الكونت دى كوثنتينا " الذى اشتهر ببخله وصرامته ، وقد استولى من

1- P. Boronat: los moriscos ... 11, P. 183'

. - J. regla : Estudios ... P. 56'

2- Antonio dominguez ortiz: Historia de los moriscos. PP. 178' - '180

رعاياه على كل شى حتى المتلكات المنقولة وأدوات الاستعمال الشخصى من ملابس ومجوهرات وغيرها ، كذلك شكل بعض المسيحيين القدامى عصابات عملت على اهانة ونهب بل وقتل المورسكيين ، كل هذا بدافع الحقد والرغبة فى سلب الجماعات المورسكية (١) .

لقد سيطرت الحركة والنشاط العظيم على كل موانى الساحل من "الكنتى" حتى " بيناروث " اعتبارا من شهر أكتوبر ، يصف ذلك مؤرخ من " الكنتى " فيقول : " كانت الطرق مزروعة نملا ، وكان العديدون يأتون ، وفى يوم الإبحار لايمكنك العبور فى الشوارع ، وقد استمر هذا وقتا طويلا" أن السفن الكبيرة والزوارق كانت تقوم برحلات عديدة ، وهناك روايات عديدة عن مجموع عن أبحروا حتى يناير سنة ١٦١٠ ، فالبعض يصل بهم الى ٣٠ ألفا ، والبعض ينزل بهم الى ٥٦٩٠٠ ، وهذا - بالتأكيد - أقل من الحقيقة ، فقد جرى الإبحار من عدة موانى ، وكان هناك من اتخذ طريق البر عبر فرنسا ، وهذا هو سبب تعدد الروايات . (٢)

وقد خرجت أول شحنة من المسلمين المنصرين ، وتقدر ب ٢٨ ألف نفس ، على سفن حكومة من ثغر "دانية" وبعض الثغور القريبة منها الى ثغر وهران ، وكان يومئذ بيد الاسبان ، ومن وهران نقلوا الى تلمسان بحماية فرقة من الجند المرتزقة ، ويقول " ماركوس جوادا لاخارا " أنه قد اجتاز الى المغرب ١٥٠ ألف شخص ، وفقا لسجل الجمارك وسجل القادة الأربعة

1- Gaspar de Aguilar: expulsion de los moriscos de España Valencia 1610'

وراجع أيضا : A. Dominguez Ortiz: Historia ... PP. 180' - 183'

وبها تعليقات تتضمن بعض التفصيلات .

2- A.D.ortiz: la obra citada, P. 183'

وفيها ينقل بعض التفصيلات عن :

Bendicho: Cronica ... de Alicante, P. 202, edicion y notas de : F. Figueras. Alicante, España 1960'.

وسيفعل الباقون الشئ نفسه فى زمن متأخر (١) ، وقد عاد بعض من رحل الى اسبانيا ليروى لإخوانه كيف تمت الرحلة فى أمان ، ومع ذلك فقد آثر معظم المسافرين استخدام السفن بأجر ، على تلك السفن التى أعدتها الحكومة الأسبانية ، الشئ الذى أضطر الحكومة أن تستدعى عددا كبيرا من السفن الى موانى بلنسية ، وقد رحل بهذه الطريقة من بلنسية حوالى ١٥ ألف معظمهم من الموسرين ومتوسطى الحال ، وقد رحل المنفيون من ثغر " لقنت " وسط الأغانى وأناشيد الشكر لله عز وجل ، وقد سئل أحد فقهائهم عن سبب غبطتهم فقال : إنهم كثيرا ماسعوا الى شراء قارب أو الاستيلاء عليه للفرار الى المغرب ، مستهدفين كثيرا من المخاطر ، فكيف تعرض لنا فرصة السفر الأمين مجانا ولانتتهزها للعودة الى أرض الأجداد حيث نستظل بحماية سلطاننا سلطان الترك ، وهناك نعيش أحرارا مسلمين لا عبيدا كما كنا !! (٢)

وكانت الجنود تحرس المطرودين حماية لهم من جشع العصابات النصرانية التى تشكلت لمهاجمة الموريسكيين ونهبهم بل وقتلهم أحيانا (٣).

ومع ذلك فان تنفيذ مرسوم النفى لم يكن أمرا سهلا ، وهاقد رأينا أن بعض الموريسكيين قد إعتصموا بالمناطق الجبلية ورفضوا الاستجابة للأمر مؤثرين المقاومة الى أبعد مدى ، لعدم ثقتهم فى ولاء الحكومة ، وقد

1- Marmol: expulsion ... Fols 119 r - 119v

- Danvila y collado: PP: 296' - 303'

- P. Boronat: los moriscos ... 11, PP. 219' - 249'

- J. Caro. baroja: los moriscos ... 227'.

٢- أنظر : عنان : نهاية الأندلس ص ٣٩٨

3- J. regla: Ibid, PP, 94' - 95'

احتشد فى " وادى اجوار " بصفة خاصة حوالى خمسة عشر ألف وفى "مويلا دى كورتيس " حوالى تسعة آلاف ، وقد حاصرت قوات الحكومة هذه المناطق ، وفتكت بمن فيها من المورسكين ، وقتلت منهم آلافا ، فوق من ماتوا بسبب الجوع أو البرد ، أما من سلموا فقد حملوا قسرا الى ميناء الرحيل وسبى كثير من النساء والاطفال بيعوا عبيدا فى الأسواق ، ولم يصل الى الموانى المغربية الا القليل ، وأبحر من " مويلادى كورتيس " فقط ثلاثة آلاف ، وبقيت فلول قلـيلة فى هذا الموقـع سببت ازعاجا للسلطات لمدة عام (١) .

فالمورسكيون اذن عانوا من أعمال العنف ، وهذه - بالإضافة الى الأخبار السيئة التى بدأت تصل عن حظ من أإست مراكبهم فى بلاد المغرب ـ جعلت جماعة من المورسكيين يقومون بمحاولة مقاومة يائسة فى بعض المناطق الجبلية داخل بلنسية ، لقد صعدوا مع نسائهم وأبنائهم الى ربوة عالية ، فيها قمم يزيد ارتفاعها على الف متر ، وفى المنطقة كثير من الأكمة وشجر الصنوبر وشجر البلوط ولاتصلح للحياة فيها ، وقد اختاروا من بينهم رجلا خبيرا أشيب ذكى ، ليولوه رئاستهم ، لكنه رفض ، فعرضوها على مسلم غنى اسمه " الطورخى " فقبل ، وعين بعض الفقهاء نائبا عنه ، وقد جمعوا بعض الأسلحة وقاموا ببعض الأعمال الدفاعية ومات منهم عدد لايعرف ، فقط نعرف أنه بقى على قيد الحياة ثلاثة آلاف أبحروا ، وقد رفض رئيسهم عرضا بالتسليم ، واستمر مع قلة يقاومون مقاومة اليائسين حتى أعتقل وقتل فى بلنسية .

وقد حدثت اضطرابات ايضا فى " مارينا دى اليكانتى " وهى

1- Lea: history of the inquisition, vol. 111, PP. 397' - 398'.

عنـان : نهاية الأندلس ص ٤٠٠ .

أرض وعرة يسكن فيها كثير من المورسكيين ، لقد غادروا قراهم ، ووضعت القرى المسيحية المجاورة فى حالة طوارئ ، وأثناء سيرهم دنسوا بعض أماكن العبادة المسيحية والكنائس ، وجمعوا كميات كبيرة من الزاد فى المناطق الجبلية القريبة ، ولكنهم احتاجوا الى الماء اللازم لحشد يزيد على عشرين الف ، وقد حاصرتهم القوات المسيحية ، وهجموا عليهم فى هذه المسالك الوعرة ، وعاملوهم معاملة سيئة ، ومن بقوا على قيد الحياة نزلوا هلكى من العطش ، يصف " ايسكولانو " حال هؤلاء فيقول :

« فى سلسلة جبال " بوب " وجدت كميات هائلة من أجسام الموتى الباقون وصل بهم البؤس الى وضع لايتصور ، وبسبب الجوع ، أعطى الآباء أبناءهم لمن يعرفونهم من المسيحيين ، أكثر من هذا ، لقد باعوهم للجنود الأجانب مقابل قطعة من الخبز أو حفنة من التين ، وكانوا يحملونهم الى الطرق نصف مجرورين الى المراكب ، وتنتزع النساء والأبناء ، وتسرق الحقائب والأمتعة ، وترى البعض نصف عار ، والبعض عار تماما ويدفع بهم الى الابحار ... بقى البعض عبيدا نتيجة للبيان الشنيع الذى أعلنه الماركيز " دى كاراثينا " فى مايو سنة ١٦١١ ، وفيه يطلب مطاردة الهاربين ويعد مكافأة مقدارها ستون جنيها عن كل شخص يسلم حيًا ، وثلاثون جنيها عن كل رأس كل قتيل ... فإذا رغب الشخص المطارد فى أن يكون عبدا ، فإنه يمنح لمن يمكنه القبض عليه وتسليمه ويكون عبدا عنده ... » (١) .

1- Escolano, Gaspar: Decadas de la insigne y corona de-ciudad y reyno de valencia, ed. por, J.B.Berales, valencia 1878 - 80 ... columna 19

- Fonseca: libro V capitulas 4 y 5'

نقلا عن :

A. Dominguez ortiz: Historia ... PP. 183' - 185'.

أما قشتالة فقد وقع وصدر قرار النفى الخاص بالموركسيين فيها بتاريخ ١٥ سبتمبر سنة ١٦٠٩ ، لكن تأجل تنفيذه الى أن يتم الفراغ من نفى الموركسيين فى بلنسية ، وقد بدئ فى ذلك فعلا فى أواخر ديسمبر سنة ١٦٠٩ ، ونشر المرسوم فى ١٠ يناير سنة ١٦١٠ ، ومنح الموركسيون شهراً المغادرة البلاد بنفس الشروط التى تضمنها قرار النفى فى بلنسية ، ولكن طرد الموركسيين من قشتاله لم يتسم بنفس الطابع الذى حدث فى بلنسية ، لأن الموركسيين فى قشتالة كانوا قلة مشتتة لاتخضع فى معظمها لأصحاب الاقطاع ولايحققون مصالح كبيرة وليس فى مقدورهم التمرد بل هم يعرفون حظهم ويصبرون عليه ، واذا قارنا بين مرسوم الطرد الخاص بالموركسيين فى الأندلس ومرسيه وبين المرسوم الخاص ببلنسية ، وجدنا أن الأول يتضمن عنصرين رئيسيين أساسيين الأول خاص بالممتلكات فمن حقهم بيها جميعا باستثناء الأصول التى تصادر لصالح الملك ، أما المراعى والفواكه وأثاثات البيوت ، فلا يجوز أخراجها فى صورة ذهب أو فضة أو مجوهرات أو كمبيالات قابلة للتحويل ، فقط يسمح بحمل المال الضرورى للرحلة ويشترى بالباقى بضائع مصرح بنقلها مثل الحراير والتوابل .....

ويدفع عنها الضرائب المستحقة وتحمل الى خارج البلاد ، ويرغم مافى هذا من مصادرة جزئية الا أنه قدم باعتباره دليلا على أريحية الملك ، لإنه كان يمكنه مصادرة كل شئ بل وضرب الرق على الموركسيين أنفسهم ، وقد اتخذ هذا الإجراء بتأثير المسيحيين فى بلنسية ، فقد زعموا أن الموركسيين حملوا معهم أكثر من مليون " اسكودو " (عمله قديمة) من الذهب والفضة تاركين المملكة بدون نقود . والأمر الثانى مسألة صغار السن ، فقد نص المرسوم على أنه على الآباء أن يتركوا من تقل أعمارهم عن سبع سنوات ويمكنهم - على الأقل - أن يرحلوا الى أراض مسيحية ، وهذا هو الذى دفع الكثيرين أن يقوموا برحلة طويلة جدا عبر فرنسا للوصول إلـــى

بلاد المغرب ، وتظاهر آخرون بالتوجه ناحية إيطاليا أو فرنسا لكنهم بعد ذلك اتفقوا مع الربابنة وحملوهم الى أفريقية ، وقد نص مرسوم الماركيز دى سان جيرمن - المسئول عن تنفيذ الطرد فى الأندلس - على أن تبقى أسرة المسيحى القديم المتزوج من موركسية ، أما الموركسى المتزوج من مسيحية فانه يمكنه أن يبقى كما يمكنه أن يرحل مع زوجته ، كذلك ذرية المغاربة والاتراك الذين تحولوا الى المسيحية ، ومثلهم من شهد القساوسة بولائهم للكاثوليكية ، وقد بقى فى غرناطة عدد قليل - نسبيا - من الموركسيين

يقول " خوان رجلا " إن فيليب الثالث وقع أمر الطرد الخاص بالأندلس ومرسية ووادى أوناكوش فى ٩ نوفمبر سنة ١٦٠٩ ونشره مندوب التنفيذ فى ١٦١٠/١/١٢ وحدد الملك ٣٠ يوما لبيع الممتلكات والتهيؤ للرحيل ولكن الماركيز مندوب التنفيذ قلل المدة الى ٢٠ يوما ، وقد أجمع المتخصصون على هجرة ٢٠ ألف من الأندلس قبل صدور البيان ، وقد خرج من الأندلس ٦٠ ألف بخلاف العشرين ألف المذكورة ، فيكون إجمـالى من خرج ٨٠ ألف ، وهو رقم يقبله كل المتخصصين بالإجماع .
أما وادي " أوناش" فقد كان سكانه الألف من الموركسيين الذين كانوا قد هاجروا من أشبيلية ، ولم يكن فيه من المسيحيين القدامى الا أربعة .
أما مرسوم " مرسية " فقد وقعه الملك فى ٩ ديسمبر سنة ١٦٠٩ ونشر فى ١٨ يناير سنة ١٦١٠ ، وتضمن طرد كل الموركسيين رجالا ونســـاءاً وأطفالا ماعدا العبيد وكل " المودخر " لأن الأخيرين كانوا يعيشون المسيحية بصورة جيدة ، وكانوا يقيمون فى " وادى ريكوتى " ، وقد طلب نواب مرسية - بلا جدوى - الغاء خروج الموركسيين من المملكة " حتى لانرى الفتون وقد تركت والزراعة وقد فقدت.وقد خرج من مرسية حوالى ١٥ ألف موركسى (١) وقد سجل " لابيرى قيام ١١٢١ رحلة بحرية من

١- أنظر:وما بها من مصادر Juan regla: Esludios ... PP. 103 - 104'

مالقة سنة ١٦١٠ ، ٨٢٥ من مالقة والمونيكر سنة ١٦١١ ، هذا بخلاف من أتخذوا طريق البر فى اتجاه الشمال ، وبقيت البيوت الشهيرة من الفرسان والنبلاء وبعض ذوى المكانة مستثناه من الطرد وخرج من العاصمة وحدها ٦٠٠ أسرة من الموركسيين القادرين ، كما تبقى صانعو المواسير ومن يعرفون السباكة المعقدة ممن يمكنهم تزويد غرناطة والقرى المجاورة بالمياه ، كما بقى ستة من الموركسيين الخبراء فى الشئون المالية الملكية بأمر من المحكمة العليا ، وهؤلاء الذين بقوا امتزجوا بالسكان المسيحيين القدامى واختلطوا معهم واختفت بينهم روح العداوة التى توجد فى بعض الأقاليم الأخرى . (١)

وفى مملكة " جيان " وجد عدد كبير من الموركسيين ، جاءوا نتيجة للطرد الذى حدث حوالى سنة ١٥٧٠ بسبب الثورة الغرناطية ، وقد قدر عدد هؤلاء بـ ٨٠٠ فى " أندوخر " ، ١٠٠٠ فى " أوبدا " ، ٢٠٠٠ فى "بايثا " ، ٢٢٥٥ فى العاصمة ، وعدد أقل فى القرى ، وقد توجه معظمهم الى " مالقة " للإبحار منها ، ولم يحدث عنف كالذى حدث فى بلنسية ، وان حاول بعض رجال السلطة تحقيق مكاسب غير مشروعة على حساب هؤلاء التعساء .

أما مملكة " قرطبة " ، فقد وجد بها تجمعان موركسيان مهمان ، أحدهما تجمع " دى بريجو " والأماكن الأخرى فى تلك المقاطعة ، وقد وصل عددهم الى ٢٢٦٤ نسمة ، والثانى تجمع العاصمة وهو الأكثر أهمية

1- Lapeyre, Henri: Geographic de l'Espagne morisque P. 205 paris 1959'
وقد ترجم هذا الكتاب الى اللغة الأسبانية Luis C. rodriguez Garcia
تحت عنوان Geografia de la españa morisca
وصدر فى بلنسية بأسبانيا سنة ١٩٨٦
وانظر أيضا :
A. Dominguez ortiz: historia ... apendice VIII.

وقد وصل الى أربعة آلاف ، ثلثهم تقريبا من العبيد ، وكان اجمالى سكان المدينة آنئذ حوالى ٤٠ ألف مواطن ، فنسبة المورسكيين اذن تزيد على ١٠٪ ، بينما كانت نسبة المورسكيين فى أشبلية ٦٪ ، فهم يمثلون نسبة قوية من السكان النشيطين الذين يمثلون أيد عاملة رخيصة ، ولهذا فان الكثيرين سيتأثرون من جراء طردهم وان رفضت كل الالتماسات والتوسلات التى طالبت بابقائهم .

وكل من كانوا فى مملكة اشبيلية ، أصلهم من غرناطة ، وكان بالعاصمة وحدها ٧٥٠٣ وربما مثّل هؤلاء المجموعة الأكثر كثافة ، وهذا هو سر الإضطرابات التى جرت فى هذا الإقليم لعدة سنوات بسبب الشائعات التى ترددت حول تآمرهم ، وبرغم كل ذلك فقد كانت الصورة التى تم بها النفى سببا فى كثير من الآثار المكتوبة .

كتب "روخاس كاساتانى " يقول : كلهم يبكون ، وليس هناك قلب لايتأثر من رؤية اقتلاع هذه المنازل ونفى هؤلاء المكروبين" ، خاصة اذا وضعنا فى الإعتبار انه كان هناك كثير من الأثرياء كما برهن الزمن " (١) . لقد كان اجمالى الراحلين من اشبلية ١٨٤٧١ ، وقد دفعوا مليونا وثلاثة وخمسين ألف ريال أجرة للسفن ، وكان على الأثرياء أن يحملوا نفقات رحلة الفقراء ، لأن العرش الذى ورث ضياعهم لم يشر اشارة واحدة الى تحمله تلك التكاليف ، وكان ملاك السفن يحصلون عشرة ريالات عن كل رأس ثم أصبحت ٢٠ ريالا ، بالإضافة الى خمسين ريالا عن كل طن متاع ، بينما التكلفة العادية على النصف من ذلك . ويقول المؤرخون – متابعين

---

1 - Relacion de algunos sucesos postreros de Berberia, capitulo IV, Lisbona 1613'

إعتمادا على

A. Dominguez ortiz: historia ... P. 189'

" جوادا لاخارا وبليدا " أنه خرج من الأندلس ٢٠ ألف موريسكى قبل صدور مرسوم الطرد ، وخرج بعد صدور ذلك المرسوم ٦٠ ألفا ، وهذا الرقم وإن كان محتملا ، الا انه فى حاجة الى براهين تؤكده .

وفى نفس الوقت الذى خرج فيه المورسكيون من الأندلس تقريبا ، خرج زملاؤهم من استمريما دورا والقشتالتين ، وقد بدأ الكثيرون منهم هجرة اختيارية سنة ١٦٠٩ .

وقد صدر مرسوم ملكى فى ٢٨ ديسمبر سنة ١٦٠٩ يسمح للمورسكيين فى قلعتى قشتالة واستمر يمادورا بالخروج الحر الاختيارى ، وقد استفاد بهذا المرسوم ١٦٧١٣ ، وبقيت آلاف كثيرة لم ترد الإستفادة به وكان ترحيب الفرنسيين بهم سببا فى الغاء الملك المرور من " بورجوس " ، ففى مايو سنة ١٦١٠ صدرت أوامر بضرورة أنه " برغم أنهم أمروا السفن بأن تتجه نحو أراضى المسيحيين ، الا انهم توسلوا لقبطان السفينة أن ينزلهم فى ميناء الجزائر وموانى أفريقية أخرى ، ودفعوا له جيدا " (١) .

وفى ١٠ يوليو من نفس العام ١٦١٠ أصدر الملك مرسوما خاصا بمن لجأ من المورسكيين الى قلعتى استريمادورا ولامانش قادمين من بلنسية والأندلس وغرناطة وقطالونيا وأراجون وكل من بقى فى اسبانيا ، وقد تكرر هذا نفسه فى أوامر ملكية أخرى مؤرخة ٢١ أغسطس سنة ١٦١١ ، ١٦ يناير ، ٢٠ ابريل سنة ١٦١٣ ، ووفقا للأرقام التى قبلها المؤلفون بشكل عام فان مجموع من طرد من القلعتين المذكورتين ٦٤ ألف موريسكى ومن مناطق كالاترابا ستة آلاف(٢) وبسبب ما حدث فى بلنسية من مناظر

١- أنظر : وما بهما من مصادر

1- J. regla: estudios ... PP. 104 - 105'

٢- المرجع السابق ص ١٠٥ .

العنف والرعب ، فقد أصدر الملك مرسومًا فحواه أن الموريسكيين الذين يعيشون فى ممالك "قشتالة القديمة وقتشالة الجديدة واستريمادورا ولا منشا" قد سببوا بعض القلاقل وأن لهم رغبة فى أن يعيشوا خارج هذه المملكة ؛ ولذلك بدأوا يتصرفون فى ثرواتهم ويبيعونها بأقل من قيمتها " ولأنه ليس فى نيتى أن يعيشوا ضد رغبتهم ، فاننى أمنحهم تصريحا يتصرفون بمقتضاه فى ممتلكاتهم المنقولة خلال ثلاثين يوما " وما يحصلونه من ذلك يشترون به بضائع يصرح لهم بها ، ولا يحملون من النقود إلا ما هو ضرورى للرحلة فقط ، وينبغى إلا يكون خروج هؤلاء عبر الأندلس أو بلنسية أو مرسية أو أرجون ، وأشير عليهم بالخروج عبر فرنسا دون تعينها بالإسم (١) .

وقد خرج حوالى ٤٤ الف نسمة معظمهم غرناطي الأصل ، أما من مشوا بشكل اختياري فكان عليهم دفع رسوم الخروج فى " بورجوس " يقول مؤرخ من الفترة : " لقد مر بالمدينة المذكورة حوالى ٣٠ الف اجتازوها من منتصف يناير إلى أوائل مايو " وكان شيئا طبيعيا أن ترى دخولهم فى هذه المدينة مع صخب وضجيج تحدثها الدواب والمركبات والعربات التى يحضرونها ، الجميع فى موكب ، مشاة وممتطون فرسانا ، بعضهم شباب وبعضهم فى منتصف العمر ، لقد كان شيئا يستحق أن يرى ، وعندما كانوا يسجلون ويعطون جوازات سفرهم ، يؤمرون باتخاذ طريقهم نحو فرنسا " .

لقد خرج من بلدالوليد ١١١٩ ومن طليطلة ٣٧٨٩ ومن قلعة

١- انظر نص المرسوم الملكى عند P. Boronat: Los moriscos ... 11, PP. 288 - 289'

عبدالسلام ١٢٠٦ ومن " بترانا " ٢٢١٤ ، ومن أوكانيا ١٥١٨ ومن مدريد ١٧١ فقط ، وكتب الكونت " دى سالاز " - المسئول عن تنفيذ العملية - فى تقاريره للسلطات الرسمية أن العملية تمت بدون مشاكل ، وأنهم كانوا يبعثون معهم مرشدين حتى مدينة " إيرون " ، وكانوا يمنحون مساعدة للفقراء . (١)

وقد استقبل هؤلاء استقبالا حسنا بفرنسا أول الأمر ، بل وصرح لهم بالبقاء ، والبعض فعل ذلك .

ويقول الأستاذ عبدالله عنان أنه دخل فرنسا من قشتالة سبعة عشر ألفا بخلاف خمسة وعشرين ألفا من أراجون قصدوا اليها عبر ولاية نافارا الفرنسية ، وقد صرح لهم " هنرى الرابع " ملك فرنسا بالتوطن فيما وراء نهر الجارون شريطة احتفاظهم بالدين المسيحى ، ومن يرغب منهم فى السفر الى المغرب تهيأله وسائل هذا السفر (٢) .

ولكن الأغلبية اشمأزت عندما طلب منهم اعتناق العقيدة الكاثوليكية.ومن ناحية أخرى كان ازدياد اعداد المهاجرين سببا فى تغيير سلوك الفرنسيين معهم ، وكان اغتيال انريكى الرابع فى ١٤ مايو سنة ١٦١٠ ، عائقا كبيرا أمامهم . ويقال أنه كان فى" سان خوان دى لالوث " سنة ١٦١٢ أربعة آلاف مورسكيى ، بعضهم كان يستعد للرحيل الى بلاد المغرب على متن سفن محملة بالأسلحة ، والبعض الآخر حاول الحصول على

١- هذا النص لمؤرخ مجهول وهو موجود عند :

Eloy Garcia de Quevedo: Libros burgalesces de memorias y noticias
P. 35, Burgos 1931' وفقا لما ذكره
A. Dominguez ortiz: Historia.. P. 190'

٢- أنظر : عنان : نهاية الأندلس .... ص ٤٠٠

وثائق مزورة من أجل العودة الى أسبانيا ، وقد توجه معظم المورسكيين من قشتالة واستريمادورا - الذين كانوا قد خرجوا قبل صدور مرسوم الطرد - نحو " كارتاخينا " وموان أخرى فى الجنوب ، ومنها توجهوا نحو الجزائر ، ثم عاد بعضهم الى أسبانيا .

أما المورسكيون فى " استريمادورا " فكانوا كثيرين ، لكنهم مشتتون .وشكل المورسكيون فى " أورناتشوز " باداخوس " مجموعة قوية ومعظم الألف ساكن الذين أقاموا بالضيعة كانوا فى دائرة نظام سنتياجو " الذى كان يحقق لصاحبه - قبل الطرد - دخلا مقداره ستة آلاف دوكاس . وكان المورسكيون هناك يسيطرون على معظم المهن ، وقد ساعدت هذه الظروف هؤلاء على أن يعلنوا مشاعرهم الحقيقية بحرية كاملة ، وكان تفرد وضعهم سببا فى كتابة أدب كثير يدور حولهم ، بعضه حقيقة وبعضه مبالغات دفع اليها جو العداء العام .

أما صروف الدهر التى تعرض لها المورسكيون الأراجونيون فقد عرضها " خوان رحلا (١)" ومنه نعرف أنهم كانوا حوالى سبعين ألف رجل، يمثلون سدس إجمالى السكان ، لقد ذكر أن والى أراجون أمر بعمل إحصاء مفصل عن المسيحيين الجدد عندما كانت الإجراءات تتم لطرد المورسكيين الأراجونيين ، وقد دلت وثيقة الإحصاء هذه على أن هؤلاء يتمركزون فى المناطق الساحلية لنهر الإبرو وعلى روافده اليمنى ، أما الروافد اليسرى فقد تركها المورسكيون ، وقد قدر العدد الإجمالى لمنازل المورسكيون ب ١٤١٠٩ منزلا ، فإذا كان متوسط سكان الوحدة السكنية خمسة أفراد فمعنى ذلك أن عدد المورسكيون فى أراجون كان ٧٠٥٤٥

1- Estudios ... P. 55 y ss

نسمة وقد قسمت الى ٣٥ مجموعة وطلب من المطرودين التمركز فى مناطق معينة ، ووثيقة الوالى هذه بالغة الأهمية فى دراسة القضية الموركسية ، وبمقارنتها بما قدمه " توماس جونثالث " نصل الى نتيجة مؤداها أن الموركسيين الأجوانيين كانوا يعادلون ٢٠٪ من سكان مملكة أراجون .. (١) ، لكنهم يكونون أغلبية مطلقة فى غطوطات قليلة من غوطات الرى ، خاصة على امتداد نهر " الابرو " وروافده ويتفقون مع موركيى " بلنسية " فى أنهم يخضعون جميعا تقريبا لنظام إقطاعى ، يقدم لهم مكاسب ومعوقات فى آن واحد ، فهم يتعرضون لغرامات ظالمة ، لكن أصحاب الإقطاع يدافعون عنهم ، ويعتنون بحقوقهم ومصالحهم . وإذا كان استخدام اللغة العربية أمرا عاما فى بلنسية ، فقد كان ذلك الإستخدام نادرا جدا فى " أراجون " وقد جرت أمور معهم لكى لاتحقق معهم محاكم التفتيش.، لأنهم أرادوا الحياة كمسيحيين ، لكن هناك براهين تدل على أنهم عبروا عن ضجرهم بسبب ما تعرضوا له من ظلم ، وأسعدهم أن ينهزم الملك الكاثوليكى سواء على أيدى المسلمين أو البروتستانت (٢) ، فمثلا أخبر مجلس أراجون الملك ببعض مواقف مفتشى التحقيق فى " سرقسطة " ضد الموركسيين ، إعتمادا على رواية تقول أن موركسيا من " رودن " عمره ١٦ سنة قال لآخر فى نفس سنه معتقدا أنه موركسى مثله : إن الترك قد فرغوا من استعدادهم لغزو البلد وقتل كل المسيحيين ، وأن موثق المنطقة ـ وهو موركسى ـ قد تلقى معلومات مفيدة حول هذا الأمر من القسطنطينية، وكذلك عازف حملة " بيليا " ـ الذى تتلوه أحداث عظيمة وفقا للتقاليد ـ سبب كثيرا من المسرة عند الموركسيين بينما جلب الحزن

1- Estudios ... P. 55 y ss,PP. 78 - 79 y 93

2- Fray M. Garcia miralles: Historia de calanda, cap. VIII Valencia 1969

وكذلك

A. Dominguez ortiz : obra citada, P. 194 .

للمسيحيين ، وقد رأى عقلاء المجلس أنه لا ينبغى أن نعطى أهمية لمثل هذه الشائعات .

وقد انتهز مجلس أراجون فرصة الإحتياجات المالية المتزايدة سنة ١٦٠٢ وأشار على فيليب الثالث بفرض ضرائب جديدة على المورسكيين مؤكدا أنه بعرض الأمر على ذوى المقدرة منهم ، فإن موقفهم كان طيبا وباعثا على الأمل ، وقد أشير الى أن المورسكيين فى بلنسية دفعوا ٤٠ ألف جنيه منذ زمن قصير (١) .

وقد وافق فيليب الثالث سنة ١٦٠٨ على طلب المورسكيين فى أراجون وبلنسية والخاص بالتماس الموافقة على تعيين محام عنهم ولا تعرف إلىأى مدى كان هذا الطلب مخلصا ، فقد كان تعيين المدافعين وسيلة من وسائل استخراج المال من المورسكيين الفقراء فى مقابل حماية لم تكن تتم .

لقد طالبت محاكم التفتيش فى سرقسطة بتطبيق اجراءات الطرد على المورسكيين فى : أراجون " ، لأن هؤلاء رأوا ماحدث لاخوانهم فى بلنسية وقشتالة ، فقاموا ببيع كل ممتلكاتهم ورفضوا العمل ووصل بهم الأمر الى إعلان أنهم سيقاومون محاولات إخراجهم ، كما قاموا بإرسال معظم أموالهم الى فرنسا ، وقد يضربون عن الطعام حتى الموت جوعا وقد يرتكبون جرائم ، وقد غادر كثير منهم البلاد فعلا وتوجهوا ناحية فرنسا حيث يفيدون هناك بذكائهم ومقدرتهم (٢) .

1- J. regla . Estudios ... P. 84

وعن تقليد حملة "بيليا" أنظر :

Conde de cerdillo: las campanas de velilla, madrid 1886

نقلا عن المرجع السابق

٢- نقلا عن بوروناث ، تاريخ .... ج٢ ص ٢٩٨ ، ٢٩٩

وقد أصر نائب المستشار أمام الملك على أن محاكم التفتيش المرعبة الفعالة هى التى ينبغى أن تتولى عقوبة المورسكيين الهاربين ومن يساعدونهم على الهرب أو يخفونهم ، وليدعم وجهة نظره قال إن محاكم التفتيش منذ عشرين سنة هى السلطة الوحيدة التى أمكنها إيقاف تهريب الفرسان الى فونسا بحجة أن هؤلاء متورطون فى علاقات مع الملحدين .

وقد بلغ صاحب الجلالة أن المورسكيين غير راضين عن تفضل الملك عليهم بإعطائهم حق استخدام ثرواتهم فى التجارة وثمار الأرض ، وأنهم يحاولون اخراجها عن طريق بعض التجار أو فى صورة كمبيالات ، وقد أمر بألا يتسلم أحد أموالا من المورسكيين ولا يعطيهم كمبيالات مقابل ذلك ويعاقب المخالف بمصادرة ممتلكاته وقد يسجن .

وهكذا فإن الفترة التى خلت بين طرد المورسكيين فى بلنسية وطردهم فى " أراجون " كانت تتميز بالحركة المستمرة من جانب هؤلاء الأخيرين (١) .

وكان المورسكيون قد بدأوا يشعرون بما يبيت لهم ، فتركوا زراعة بعض الحقول وشرعوا يبيعون ممتلكاتهم بثمن بخس وأعدو الزاد لرحلة طويلة ، فكتب فيليب الثالث الى والى " أراجون " فى ٢٠ أكتوبر سنة ١٦٠٩ يطلب منه أن يحاول تهدئة المورسكيين ، مبينا أنه لن يحاول طردهم وقد قام النبلاء والاكليروس بارسال مندوبين عنهما توجها الى البلاط فى محاولة أخيرة لإقناع الملك بعدم طرد المورسكيين فى " أراجون " ، ولكن الملك وقع أمر الطرد فى ١٨ أبريل سنة ١٩١٠ ، وبقى سرا لبعض الوقت

1- Juan regla : estudios sobre los moriscos. PP. 88 - 89'.

الى أن يتم الإستعدادات والى أن تحل المشكلة المعقدة : مشكلة الصغار المعمدين ، وقد صدر البيان الرسمى حول هذه النقطة فى ١٥ مايو مقررا أنه يمكن إبقاء الذين تقل أعمارهم عن أربع سنوات إذا صرح لهم آباؤهم ، أما البنود الأخرى فكانت مناظرة لسابقاتها .

كثير من المورسكيين كانوا قد سبقوا صدور المرسوم وخرجوا عبر الحدود مع فرنسا ، ووفقا للسجلات الرسمية ، فقد خرج من "بيرا ، وورنثينس فيس وسمبورت" ٢٢٥٣٢ ،وأبحر من" لوس ألفاكيس "٣٨٢٨٦ وكان الإجمالى ٦٠٨١٨ ، بالإضافه الى من خرجوا سرا . وبمجرد صدور قرار النفى خرج عشرة آلاف عن طريق جبال البرانس عبر " نافارا " ومابين ١٢ الى ١٤ ألف عبر " كان فرانك " ، وقد دفعوا لحاكم " بيرنى " عشرة ريالات عن كل رأس ، أما من أبحروا من " ألفاكيس " فإن عددهم تجاوز ٤١٩٥٢ (١) .

وقد تم كل شيئ دون آثار خطيرة من التعاسة أو الآلام ، وقد قدم لنا " اثنار كاردونا " لوحة واقعية عن خروجهم ، قال :

" فى شكل موكب غير منظم ، يختلط فيه المشاه والركبان ، يمضى هؤلاء مجموعة تلو أخرى ، ينفجرون من الالم والدموع ، يحدثون صخبا عظيما وصراخا مركبا ، حاملين ابناءهم ونساءهم ومرضاهم ، مابين عجائز وأطفال ، يغطيهم التراب ، ويتصبب العرق منهم ، بعضهم فى مركبات مشدودون بأفرادهم وحليهم وزينتهم الرخيصة ، والبعض على

1- P. Boronat: los moriscos ... II, PP. 301 - 302'

- J. regla: Estudios ... P. 96'.

٢- نقلا عن وثيقة بدار محفوظات سيمنقة رقمها ٢٢٥ " سكرتارية الدولة" حسب برونات .

دواب ، معهم أمتعتهم الغريبة : الكراسى والبرازع والقفف (الزنبيل) والسقاءات ، محاطون بالتلافيع مع الأباريق وأدوات العزف والسلالات مع الملابس والتنورات والقمصان واللوح والسماطات (أدوات السفرة) وكسر من القنب وقطع من الكتان ، والبعض يذهبون مشاه محطمين ، ثيابهم رديئة ، أحذيتهم ونعالهم ممزقة ، بعضهم يضع دثارا على رقبته وبعضهم يستخدم أربطة وأغطية متنوعة ، وكلهم يتقدم بالتحية لمن ينظر اليه قائلا " ليجزيكم الله ويحرسكم ويديم عليكم حمايته " ، وبين المذكورين ، ترى بين الحين والآخر ، نساء كثيرات زوجات لبعض المسلمين الأغنياء ، يضعن زينات متنوعة من الفضة على صدورهن ، ويعلق فى الرقبة بعض العقود والأطواق ، بالإضافة الى بعض الأقراط والأسوار والمرجان والحلى الأخرى وملابسهن مزركشة ذات ألوان ، بهذا يخفون بعض آلام القلب ، أما الأخريات فكن كثيرات ، تذهبن مشاة ، يبدو عليهن الألم ، يشعرن بالضياع والتعب . ويتألم الجميع من أشياء لاتحتمل ويشعرون بمرارات عظيمة جدا ، ويموت منهم الكثير بسبب المحن الخالصة ، وهم يبحثون عن الماء والظل على امتداد الطريق ، فقد كان الوقت صيفا " (١) .

بقى المورسكيون القطلان ، وقد تقرر طردهم فى نفس وقت طرد المورسكيين من " أراجون " ولم يكن عددهم يتجاوز الستة آلاف نسمة وقد وقع فيليب الثالث أمر طردهم فى بلد الوليد بتاريخ ١٧ ابريل سنة ١٦١٠ ونشر البيان الخاص بذلك فى ٢٩ مايو من نفس العام بمدينة برشلونة ، وقد وصل البعض بعدد المورسكيين القطلان الى ٥٠ ألف وهو رقم مبالغ فيه ، فعددهم لم يتجاوز العشرة آلاف ، ولعل السبب فى ذكر الرقم الكبير هو أن

1- Aznor cardona: expulsion Justificada de los moriscos Españoles, 11', cap 2'

-- A. Dominguez ortiz: obra citada, P.196.

المسيحيين الجدد فى الإقليم كانوا عبيدا ممتازين ، وعلى كل حال فعددهم قليل اذا قارناه باعداد المورسكيين فى بلنسية وأراجون .

وقد بدأ هؤلاء الهجرة إلى فرنسا قبل صدور قرار الطرد ، وأصدر مجلس الدولة فى ١٦١٠/٦/٢٤ قرارا فحواه أنه يجب تفتيش المورسكيين المتوجهين الى فرنسا ، ويعتقل الأغنياء والمشهورين ويوضعون فى مأمن بهدف معرفة نواياهم ، أما الناس العاديون فيسمح لهم بالمرور ، لأنه كلما كان المتبقى أقل كان أفضل .(١)

وتمثل سنتى ١٦٠٩ ، ١٦١٠ واحدة من أكثر فترات إزدهار اللصوصية القطالونية ، لقد كانت هناك فوضى أتاحت لمنعدمى الضمير إرتكاب ظلم ضد أشخاص وممتلكات المورسكيين حيث كانت تسرق حقائب المتوجهين الى بلاد البربر ، وقد تقاضى بعض المسيحيين القدامى مبالغ كبيرة لتقديم بيانات مزورة عن عقيدة بعض المورسكيين الدينية حتى يسمح لهم بالبقاء ، وقد طالبت بعض البلاغات الملك بمضاعفة اجراءات القمع ضد اللصوص الذين أرتكبوا ظلما فى ظل الفوضى المتحكمة فى قطالونيا ، وقد أكد بعض المسئولين أن كثيرا من المسيحيين الجدد من "طرطوشة" ممن هاجروا الى فرنسا أو الى بلاد البربر ، قد عادوا واستقروا من جديد فى منازلهم .(٢)

وقد أستثنى معظمهم من النفى بفضل أسقف " طرطوشة " الذين زودهم بشهادات حسن سلوك ، حتى الذين خرجوا ، عادوا مرة أخرى

1- P.Boronat: los moriscos .. 11, P. 498'

2- J. regla. Estudios ... PP. 97 - 102'

واستقروا على شاطئ نهر " الابرو " والمجرى الأدنى لنهر " سجرى " ، وكان بلاغ الطرد قد أعلن فى ٨ أكتوبر ، وانحصر فى المورسكيين الغرناطيين الذين دخلوا المملكة حديثا ، برغم أنهم كانوا موضع تقدير كبير بفضل معارفهم الفنية وخبرتهم فى صناعة الحرير ، أما الآخرون فقد تم استدعاؤهم ليستوطن معظمهم " بوادى ريكوتى " وقد تأجل تنفيذ طردهم نظرا للمعلومات الجيدة التى وردت عن اخلاص مسيحيتهم .

وهكذا تم الأنتهاء من القسم الرئيسى للعملية فى كل أسبانيا خلال عام ١٦١٠ ، لكن بقيت بعض العمليات المتممة خلال السنوات الثلاث التاليات ، وبهذا انتصرت الآراء المتشددة آخر الأمر ، وفشلت التماسات بعض أصحاب الإقطاع وبعض الرسميين لإبقاء القادرين على العمل ممن يمكنهم تحمل المشقات ، ولكن نظرية " نقاء الدم " هى التى تغلبت وقيل " إنه من الأفضل طرد المشكوك فيهم جميعا ، فهذا خير من ترك تلك البذرة الرديئة فى الأرض الأسبانية " (١)

هل يعتبر العرش الأسبانى مسئولا عن هذا القرار ؟ إن مسئوليته فى هذا الخصوص ليست موضع شك ، وبرغم كل شئ فقد استمر بعض المورسكيين فى الأراضى الاسبانية لسبب أو لآخر ، بعضهم أمكنه إلحصول على شهادات من رجال الدين ، ومنهم من حمته الامتيازات القديمة ، ولكن كل هذه الحيل تصدى لها الكونت دى سالازار - المسئول عن تنفيذ العملية . فقد استصدر مرسومات ملكية سنة ١٦١١ وزعت من خلال المفتشين فى كل أسبانيا وألغت كل التصريحات السابقة بالبقاء أو كل مبررات ابقاء المورسكيين السابقة ، وحتى بعد هذا بقى البعض ، ففى الأندلس زعم

1- A. Dominguez ortiz : Historia ... P. 197'

بعض رجال الإقطاع أن رعاياه لهم مزايا ، فلم يحدث قط أن عاقبتهم المحاكم الدينية ، ومن كانوا فى بعض المناطق قدموا التماسا باعفائهم من ضريبة " الفرضا ". التى كانت تفرض على المسيحيين الجدد ، فهم من القدامى الجيدين ، وقد بقى كذلك بعض من أمكنهم الاختفاء فى غرناطة ، كما بقى فى " مالقة " العبيد العديدون من أصل مسلم ، لأنهم كانوا يعتبرون من الممتلكات الخاصة ، وفى قشتالة تمركز من بقوا فى معسكرين بمنطقتين هناك وبقيت بعض الأسر من أصل غرناطيى ، بعضهم لأن الاسقف شهد بمسيحيتهم ، وآخرون لأنهم برهنوا على انحدارهم من أصل اسلامى وأنهم أتوا الى " البشرات " فى عهد الملكيين الكاثوليكيين " لكن هؤلاء أمروا بمغادرة البلاد فى ٣ مايو سنة ١٦١١ .

نفس الشئ تقرر بالنسبة للمدجنين الذين استقروا فى المدينة منذ زمن بعيد وانصهروا مع المسيحيين بصورة جزئية ، لقد كانت الأوامر قاطعة فكل الذين يعيشون فى احياء منفصلة ويدفعون ضريبة (لافرضا) يجب عليهم أن يخرجوا ، ووفقا " لجونثالث دافيلا " فإن هؤلاء كانوا ١٧٠ أسرة يبلغ عدد أفرادها ٧٧٠ نسمة ، وقد باعوا ممتلكاتهم بثمن بخس وخرجوا الى فرنسا ، وقد بقى عدد كبير منهم فى " تولوز " ووصل آخرون حتى دوقية " مانتو " (١)

فى ٢٢ مارس سنة ١٦١١ كان لابد من صدور مرسوم جديد يأمر باخراج المورسكيين الذين بقوا وتظاهروا بالحياة باعتبارهم مسيحيين جيدين وقد خرج لهذا السبب من قشتالة ١١٣١٧ عن طريق " بورجوس " كما

1- Gonzalez Davila: teatro eclesiastico de espana. teatro de la iglesia de Avila.
إعتمادا على
A. Dominguez ortiz: obra citada, P.198.

خرج عشرة آلاف عن طريق " كارتاخينا " ، نسبة كبيرة منهم كانت من الفرناطيين الذين سبق نفيهم من غرناطة عقب الثورة الفرناطية ، ونص المرسوم على الا يحمل المسلمون الذين جاءوا من المغرب بارادتهم الخاصة ليكونوا مسيحيين ، الا يحملوا على الخروج ، ولا الرهبان أو القساوسة من أصل مورسكي ولا العبيد الذين بقوا منذ ثورة غرناطة حتى لو كان عددهم كبيرا .(١)

وفى ٢٥ مارس سنة ١٦١١ انعقد موكب ضخم " حضره صاحب الجلالة فى كامل أبهته بملابسه البيضاء " يهدف الى التعبير عن الشكر لإنتهاء العملية التى بدأت منذ سنتين تقريبا (٢) ، ومع ذلك فلم تصل الى نهايتها ، ولسوف يحدث بعد ذلك أن يدل بعض المسلمين على إخوانهم ، وتواصل قصة الإكراه على مغادرة البلاد مسيرتها .

ولعل من المناسب أن نشير الى الحادث المر من حوادث الطرد الأخيرة ، أعنى حادث طرد المورسكيين الذين كانوا يقيمون فى " وادى ريكوتى " . وهذا الاسم يطلق على خمس قرى من غوطة " سيجورا " ، أتمت نظام دائرة " سنتياجو " وكان صاحب اقطاعها " دون لويس فاخاردو " ماركيز دى لوس بيليث ، وهو واحد من الشخصيات ذات التقدير ، وكانت له مصلحة فى الا تخرب دائرته ، وعندما وقع الملك مرسوما الطرد من بلنسية ، أستغاث به كثيرون وهتفوا بأنهم مسيحيون ، فتقرر إرسال شخصية دينية موضع ثقة لتحرى أحوالهم ، فزارتهم تلك الشخصية ثم رفعت تقريرا عن أحوال المورسكيين وعن الباقين منهم فى مملكة

1- J. Caro. baroja: Historia de los moriscos...PP. 131 - 132'.

2- Don Diego de Guzman: Vida y muerte de Doña Margarita de Asturia , 11, cap . 20' نقلا عن :

A. Domingues ortiz : Historia ... P. 198'.

مرسية (١) ، وأصرت على أن من يقطنون " وادى ريكوتى " من المسيحيين الجيدين ، فقد أعلنوا نصرانيتهم فى احتفال عام ، بشاهدهم الناس وعاشروهم وشهدوا بإخلاصهم ، وعندما عرفوا بمرسوم الطرد قاموا بعمل مواكب وصلوات وأعلنوا التوبة وعبروا بمظاهر أخرى عن تدينهم المسيحى ، وفوق ذلك ، فهم منذ زمن طويل يشربون الخمر ويأكلون لحم الخنزير ويستخدمون شحمه ، ومن تقل أعمارهم عن أربعين سنة لايتكلمون العربية ولايفهمونها ، فطردهم من البلاد لايليق للأسباب السابقة جميعها . (٢)

وبرغم هذا فان ما أمكنهم الوصول اليه هو التأجيل فقط ، فقد مال المتشددون فى المجلس الملكى الى اعتقاد أن هذه البراهين ليست الا كوميديا خالصة ، وأنهم فى أعماقهم مسلمون مثل الآخرين ، وكان الملك نفسه يرى نفس الرأى فصدر مرسوم ملكى باستثنائهم من الطرد فى ١٨ يناير سنة ١٦١٠ ، وفى ٨ أكتوبر سنة ١٦١٤ وقع الملك مرسوما بالغاء هذا الاستثناء ، وكان عدد هؤلاء ٢٥٠٠ وقد منحوا مهلة ٣٠ يوما لمغادرة اسبانيا وبرر هذا الإجراء الخطير بأنه " الآن معلوم من طرق معينة أن بعضهم يتصرف بشكل فاضح ضد خدمة الاله وضدى وضد قلة من المسيحيين القدامى الذين يسكنون فى هذه الاماكن ، مبرهنين بكل شئ على نواياهم المؤذية " وقد شمل الطرد الجميع رجالا ونساءا وأطفالا مهما كانت أعمارهم ، وحظر عليهم الخروج الا من ميناء " كارتاخينا " فقط ، واستثنى من الطرد العبيد وحدهم ،. وفيما يتعلق بالممتلكات فقد منحهم المرسوم الحق فى أن يتصرفوا فى الممتلكات المنقولة خلال ٣٠ يوما وأن

١- من الترجمة الأسبانية Reproducido por lopeyre, apendice XVI, P. 325, 326'

2- A. Dominguez ortiz: historia ... P. 199'.

يحملوا معهم مايستخرج من ذلك على أن يتركوا نصف مامعهم للموظف المسئول عن استقبالهم فى مرسية .(١)

ولهذا فقد فوض الكونت دى سالار - مسئول العملية - فى أكتوبر سنة ١٦١٣ فى طرد ٢٥٠٠ موريسكى من " وادى ريكوتى " مع كل الموريسكيين البلنسيين الذين تراوحت اعدادهم من ستة آلاف إلى سبعة آلاف ، وقد ابحروا جميعا من ميناء " كارتاخينا " فى اتجاه ايطاليا وفرنسا ، ورفض كل طلب بالبقاء فى أى منطقة وبشكل متشدد .

وهذه القسوة فى معاملة هؤلاء سببت استنكارا ، وقد تساءلت بعض الشخصيات الكبيرة ، كيف يمكن أن يمثل هؤلاء الفقراء ، بقايا الاقلية المضطهدة ، خطرا على الدولة ؟ وعلى أى أساس لاهوتى يمكن طرد رعايا معمدين يرغبون فى الحياة باعتبارهم مسيحيين ؟ الكونت دى سالاز نفسه يقول : " لقد كانت زيجات كثيرة تتم بين موريسكيين وموريسكيات من أجل البقاء ... الآن أصبح عدد من لايتزوج كبيرا ، لقد دخل الرجال فى الرهبنة وأصبحت النساء راهبات ، وفى الأديره يبيعون التصريح للدخول فى سلك الرهبنة كما تباع سلة من الكمثرى ، انه لشئ فاضح ، هذا الذى فعله الرهبان مع هؤلاء الناس ، جشعا ورغبة فى ممتلكاتهم " (٢)

وقد أعطى الأديب الاسبانى الكبير " ثيرفانتس " اسم "ريكوتى " لفصل هام من فصول روايته الشهيرة " دون كيخوتى " ، إن هذا ليس صدفة ، إنه يعكس وقع القرار بطرد هؤلاء فى هذه المرحلة النهائية لدى الرأى العام ، وقد شغل كل من علق على " ثيرفنتس " بهذا الأمر يقـــول

1- P. Boronat: Los moriscos ... 11, PP. 285 - 286'.

-- J. regla - Estudios ... P. 106'

.2- Antonio Dominguez ortiz: historia .. P. 199'

" ف . ماركيز دى بيا نويبا " - مثلا :-

" لقد كان الموريسكيون فى " ريكوتى " ضحايا جدل بين الراديكاليين والمعتدلين انتهى بانتصار الفريق الأول ، وتأكدت سيطرة المقاييس الانغلاقية فى كل جوانب السياسة الاسبانية (١) " لقد أصبح قاطعا أن الموريسكيى المنتسب الى " لامنشا " هو بدوره نموذج لضحية برئية ، إن " ثيرفنتس " يريد أن تعبر شخصيته عن الذكرى الحية لآخر فصول هذا الطرد وأكثرها إيلاما والتى رآها تمجد من حوله كما لـــو كـانت مأثره كريمة . (٢)

وهكذا يمكن أن نوجز مامضى فنقول أن قرار نفى الموريسكيين من بلنسية صدر فى ٢٢ سبتمبر سمة ١٦٠٩ ، وصدر قرار قشتالة فى نفس الوقت تقريبا وتأجل تنفيذه الى أواخر ديسمبر من نفس العام ، أما غرناطة وسائر بلاد الاندلس فقد صدور قرار نفى الموريسكيين بها فى يناير سنة ١٦١٠ ، وصدر قرار قطالونيه وأراجون بمدينة سرقطة ثم فى أشيلية واستريمادوره ثم مرسية فى ٨ أكتوبر سنة ١٦١٠ ، وتأجل تنفيذه فى مرسية الى يناير سنة ١٦١٤ حيث اتجهت جموع كثيرة منهم الى الثغور الجنوبية وغادر بعضهم الى ايطاليا أو فرنسا ومنها أبحروا الى مصر

1- F. Marquez de Villanueva

A.D.Ortiz : La mismo obra . P. 199'. ذكــره

2- personoje y temas del qeuijote ... PP. 256 - 257'

وقد قدم نفس العمل تعريفا كاملا بفكر "ثيرفينتس" حول موضوع الموريسكيين ، وقدم الشروح التى عرضت له ، أنظره ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، وكذلك نفس الموضع فى المرجع السابق لدومنجيث أورتيث .

والشام والقسطنطينية . (١)

وقد بلغ السلطان احمد - الخليفة العثمانى - ما أصاب الكثيرين ممن ذهبوا الى أراضى فرنسا من النهب والإعتداء ، فأرسل الى ملكتها يحتج على مايتعرض له هؤلاء المسلمين ويطلب حمايتهم (٢) .

وقد حفلت الروايات بالأحاديث المحزنة عن مصير المسلمين المنفيين فقد كان مايحملونه من أموال وحلى نفيسة ، سببا فى تعرضهم لهجوم العصابات وقطاع الطريق أثناء انتقالهم من "وهران" الى داخل البلاد المغربية وقد استولوا على مامعهم وأسروا نساءهم.وكان معظم هؤلاء من الأغنياء والأشراف وخاصة أهل أشبلية ، وقد كتب - حاكم وهران - يقول : إن الكثيرين بقوا فى وهران خوفا من اعتداءات هذه العصابات ، وقيل أن أكثر من جاءوا الى " وهران " هلكوا نتيجة الاعتداء أو المرض ، وأن الكثيرين منهم عادوا الى اسبانيا ، وطلبوا من السلطات فيها الأبقاء عليهم نصارى وأن يضرب عليهم الرق ، وبالفعل قبلت بعض الأسر استرقاق هؤلاء ، ولكن رجال الدين اعترضوا ، فصدرت الأوامر برفض انزالهم بالشواطئ الأسبانية ، ومع ذلك فقد تسرب بعضهم الى بلنسية وغيرها من البلاد وبقوا هناك فى الأراضى الأسبانية .

١- المقرى : نفح الطيب ج٢ ص ٦١٧ ، ج٤ ص ٥٢٨ من نشرة إحسان عباس ، أما مرسومات الطرد فقد ذكرتها مصادر عديدة من بينها مثلا :

- P. Boromat: Los moriscos Españoles y su expulsion, tomo 11, PP. 190 - 305'
- J . Caro boroja: los moriscos, PP. 210 y ss
- J. regla : Estudios ... PP. 84 : 108;
- A. Dominguez ortiz : Historia ... PP. 177 - 200'

عنان : نهاية الأندلس : ٣٩٣ - ٤٠٢ .

2- Lea : the moriscos ... P. 364'

وهنا قد يطرأ سؤال مضمونة ، كم عدد المورسكيين الذين أخرجوا قسرا من اسبانيا ؟

الواقع أن هناك من يتجه الى تفخيم الرقم ، ويستوى فى ذلك من أيدوا الطرد ومن عارضوه ، مثلا باحث مدقق مثل " دون ماتويل دنفيلا " يقدر عددهم بنصف مليون ، وقد تبعه آخرون مثل " ليا و بيريث و يوستامنت ورجلا" ،بل وصل بهم البعض الى مليون نسمة . بينما يميل "هاملتون" الى الطرف المقابل فينزل بهم الى مايزيد قليلا على مائة ألف . ومع ذلك فقد نشر الرقم الدقيق كتاب لابد أن لهم مداخلهم الى المصادر الرسمية ، كتب " الونسوفرناندث " مؤلف "تاريخ بلاسنثيا" يقول :

" وفقا للبيان الحقيقى لسكرتارية الدولة ، فان عدد المورسكيين الذين طردوا من هذه المملكة ٢٧٠ ألف وقد كرر هذا الرقم " كاسكالس " مؤرخ مرسية. أما " بليدا " الذى إعتمد على وثائق رسمية ، فقد وصل الى الرقم ٦٧٢ر٣٤٠ ، بينما تكلم " بنيالوسا " و " سالازادى مندوثا " عن شئ أكثر قليلا من ٣٠٠ ألف . أما رقم ٢٧٠ ألف تقريبا فهو ماتوصل اليه " لابيرى " معتمدا على السجلات الرسمية الخاصة بخروج المورسكيين وموجزها :

بلنسية ١٧٤٦٤ ، مرسية ١٣٥٥٢ ، أراجون ٦٠٨١٨ ، الاندلس الغربية ٢٩٩٣٩ ، قطالونيا ٣٧١٦ ، غرناطة ٢٠٢٦ ، قشتالة واستيرمادورا ٤٤٦٢٥ المجموع الكلى ٢٧٢١٤٠ .

ويرى " لابيرى " نفسه أن رقمى مرسية والأندلس غير دقيق ، فهو أقل من الواقع ، ولهذا فإن الإجمالى يمكن أن يرتفع الى ٢٧٥ ألف ، اذا وضعنا فى الاعتبار أن المتوفر بعض الوثائق وليست جميعا وأن هناك

خروجا تم بصورة سرية ، فوق ضياع الاحصاء الاسبانى ، فهذا كله يجعلنا نتحدث عن ٣٠٠ ألف نسمة على الأقل ، بالاضافة الى عشرة آلاف أو أثنى عشر ألفا ، ماتوا أثناء الثورات والإضطرابات فى بلنسية ، وأثناء ما تعرضوا له من ويلات فى طريقهم الى موانى الإبحار (١) .

وقد نشر "لايبرى" كذلك احصاءات مفصلة عن رحيل المورسكيين من بلنسية وبمن طردوا من أراجون وقطالونيا، وقد عبر كثير من المورسكيين الى فرنسا من خلال " سوم بورث " و" نافارا " وبلاد الباسك ويقول : كان المورسكيون قلة فى الغرب (محافظتى ولباوقاوش) وكثـــرة فى الشــرق (قرطبة وجيان) وفى اشبيليه كونوا ١٠ ٪ من السكان البالغ عددهم ٨٠ ألف نسمة وقد نشر ملحقا يتضمن عدد المورسكيين سنة ١٦٠٩ وفقا لاجابات موجهة الى المجلس العلمي للدولة ، وكذلك الرحلات التى تمت من اشبيلية ، فقد غادر من ميناء الجراو ١٧٧٧٦ ومن البيكانتى ٣٠٢٠٤ ومن دنيا وخابيا ٣٢٧٨٠ ومن بينا روث ١٥٢٠٨ ومن مونوكوفر ٥٦٩٠ ، ومن بيشلاس دى لاسيرا دى لاجوار ١١٣٦٤ كما رحل من دينا وخابيا بدون تفتيش دقيق ٣٠٠٠ ، المجموع ١١٦٫٠٢٢ .

١- يذكر : خ . كارو باروخا تقديرات أخرى عند مؤلفين آخرين من القدماء والمحدثين ويناقش " برونات" الأرقام التى ذكرها القدماء ويرى مثلما يرى دانفيلاى كويادوا أن رقم ٥٠٠ ألف هو الأقرب الى الحقيقة ، أنظر :

- P. Boronat: abro citada, 11, PP. 304 - 307'
- Danvila y collado (manuel)., la expulsion de los moriscos españoles, PP. 337'-339' 339 Madrid 1889'.
- J. caro baroja: Los moriscos ... Note N. 131, P. 253' وما بها من مصادر
- Lea. the moriscos ... P. 359'
- A. Dominguez ortiz - la historia .. P. 200'
- lapeyre: Geography d' l'Espagne morisque apendice,p.245-254 من الترجمة الأسبانية
- J. regla : Estudios ... P. 35 - 39'

لقد قدم احصائيات شاملة عن السكان فى أعوام ١٥٧٠ ، ١٦٠٩ ، ١٦٦٤ .

وإحصائيات تتعلق بالموركسيين فقط فى أعوام ١٥٢٧ ، ١٥٦٣ ، ١٥٨٥ ، ١٦٠٢ ومنها تبين أن المسيحيين القدامى شكلوا أغلبية سكان المدن ، وكان الموركسيون قلة متمركزة فى الضواحى ، وسيطر المسيحيون القدامى على الصناعة والتجارة ، بينما سيطر الموركسيون على الأراضى التى تعتمد على الرى فى زراعتها ، باستثناء محافظة قشتالة الحالية ، حيث كونت الأراضى العليا فى " موريا والميسترازائجو " تكتلا مسيحيا متينا ، وهذه الأراضى نفسها كانت حصن قوات الإمبراطور "كارلوس الخامس" خلال حرب النقابات فى بداية القرن السادس عشر .

يقول " لابيرى ": أنه ابتداء من نهر ميخارس " فان كل المناطق الجبلية ، بما فى ذلك مناطق التلال ، كتلك التى تمتد غرب بلنسية فى اتجاه شيفا وبونياول " كانت مأهولة بأغلبية موركسية ، ونتيجة لهذا فان أراضى الرى ببلنسية كانت كلها تقريبا مسيحية ، كذلك الأراضى المستوية فى Castellos وشاطئ الخوكر وأراضى الرى فى اليكانتى والشى وأورى ويلا . وندر الوجود الموركسى فى مناطق الرى الأخرى ، كما كانوا أعدادا قليلة فى اراضى السادة من رجال الدين ، وعلى العكس كانوا كثرة فى أراضى البارونات وأراضى العلمانيين .

وقد فحص " لابيرى " التطور الجغرافى لمملكة بلنسية حتى سنة ١٦٠٩ ،فوجدأته قد انخفض عدد السكان الموركسيين فى ٩٠ مكانا موركسيا فى الفترة من ١٥٢٧ إلى ١٥٦٣ ، ويفسر المؤلف ذلك بالهجرة الى بلاد البربر ، وعلى العكس من ذلك تعرض ٨٠ موضعا موركسيا

لارتفاع يمكن تقديره ب ٧٪ بصفة عامة خلال نفس الفترة .

أثناء الفترة من ١٥٦٣- ١٦٠٩ تجاوز العدد الاجمالى لمملكة بلنسية ٦٤٠٧٥ منزلا أو Focs ٩٦٧٣١ بزيادة قدرها ٥٠٫٠٩ ٪ ، وكانت نسبة الزيادة بين الموركسيين ٦٩٫٧ وبين المسيحيين القدامى ٤٤٫٧٪ ، وقد احتكرت العاصمة وحدها حوالى ٥٠ ألف دون أن تزيد على نسبة الزيادة فى المملكة .

ويمكن أن يفسر عدم الزواج بين المسيحيين القدامى إرتفاع السكان الموركسيين ، وكان هذا ينظر اليه بصورة جيدة من جانب السادة أصحاب الأماكن ، لأن هذا يساعد على زيادة دخولهم ، وكانت الخصوبة الموركسية أحد الاسباب المهمة فى خرابها .

وهكذا فان انتصار الارستقراطية الواسعة الثراء المتحالفة بإخلاص مع التاج ، ترتب عليه انتصار الحقل على المدينة فى حرب التقابات ، ولكن طرد الموركسيين فى القرن التالى ترتب عليه قلب القضية يعنى انتصار المدينة على الحقل ، ان النتائج الإقتصادية لطرد الموركسيين من بلنسية كانت كبيرة ، واستمرت فترة طويلة فى الداخل وكان تأثيرها أكبر على التجارة الجنوبية للمملكة (١) .

فيما يتعلق بالعدد الكلى للموركسين المطرودين ، فان السكان فى بلنسية أمكن تقديرهم ب ١٧٠ نسمة سنة ١٦٠٩ أى بنسبة ٣٤٪ من إجمالى السكان ، أما الموركسيون فى مملكة " أراجون " حسب الإحصاء المفصل الذى قام به ماركيز دى ايتونا خاصا بسنة ١٦١٠ فإن

1- Lapeyre: Geographie ... PP. 27'
-- J. regla : Estudios ... PP. 226 - 228'.

عددهم ٧٠٥٤٥ نسمة يعنى ٢٠٪ من اجمالى السكان ، ومجموع الرقمين هو ٢٤٠٥٤٥ يضاف اليهم عشرة آلاف كانوا فى مملكة قطالونيا ، أما من طردوا من الاقاليم المختلفة لمملكة أراجون فلايشك أنهم فى حدود ٢٥٠ ألف من اجمالى سكان هذه المملكة البالغ مليون ، ١٨٠ ألف شخص فى نهاية القرن السادس عشر .

فيما يتعلق بمجموع المطرودين من البلاد يقول هاملتون : إنه لا الاسعار ولا المرتبات تعكس العدد بشكل حاسم ـ وقد كان المورسكيون المطرودون قلة ، والرقم ١٠١٦٩٤ - مع استبعاد الاطفال الرضع - هو المذكور فى احصائية اللجنة المكلفة بالطرد والمنشور فى احصاء "توماس جونثالث" وهو الأكثر دقة . أما " بيريث بوستامنت " فيقبل الرقم ٥٠٠ الف والبيانات التى قدمناها عن مملكة " أراجون " تجعلنا لانؤيد نظرية "هاملتون " ، وبناء على استشارة منشورة عن مجلس الدولة عام ١٦٠١ فإن العدد الإجمالى للمورسكيين يقدر ب ٥٠٠ ألف ، وهذا الرقم قبله "ليا " باعتباره الأكثر معقولية فى حصرنا للمورسكيين الذين طردوا اعتبارا من سنة ١٦٠٩ (١) .

ويرى نابا ريتى " وهو من كبار المؤرخين الاسبان - أنه قد نفى من اسبانيا فى مختلف العصور نحو مليونين من اليهود وثلاثة ملايين من المورسكيين ، بينما يقدهم " دون لورنثى " مؤرخ ديوان التحقيق بمليون ، ويرى المستشرق " فون هامار " أنهم كانوا ٣١٠ ألف ويرى " خوليو كاروباروخا " أن الأرقام التى أعطيت قبيل الطرد مباشرة ، تبدو غير ممكنة

أنظر : رجلا : دراسات بالأسبانية ص ١١٨ . ١١٩

برونات : المورسكيون الأسبان .. بالأسبانية ج٢ ص ٣٠٤ .

براوديل : البحر الأبيض المتوسط ، بالفرنسية ص ٥٩٤ و العمل مترجم للأسبانية .

ففى محضر مجلس الدولة بتاريخ ٣٠ يناير سنة ١٦٠٨ مايفيد - على لسان رئيس الاساقفة فى اسبانياأن مورسكـي البشرات الذين وصلوا الى أراضى طليطلة كانوا فى الأصل ١٥٠٠ ، وفى نفس وقت انعقاد جلسة التشاور تجاوزوا الرقم ١٣ الف ويقدر أنه قد وصل الى محكمة بلنسية فى نفس الظروف ٣٠٠٠ مخالفا للقانون ، وقد أرسل أغلب هؤلاء الى قشتالة التى هربوا منها . وفى برلمان سنة ٣٩٥١ حرص الأعضاء على ابراز الخطر وطالبوا السلطات باتخاذ اجراءات قاسية ، ولفتوا نظرها الى ما أتسم به المورسكيون فى منفاهم الجديد ، حيث عاشوا منعزلين ، ولم يكن يسمح لهم بالتجمع أو التمركز فى احياء معينة ، وكانوا أحرارا فلم يخضعوا لسيد أو صاحب اقطاع ، عكس من كانوا يعيشون فى بلنسية وأراجون خاضعين لسادة الإقطاع (١).

أما الرواية العربية فتقول أنهم كانوا ٦٠٠ ألف ، ويبدو أن هذا العدد هو الاقرب الى الصواب فقد كان مجموع هؤلاد فى أواخر القرن ١٦ هو نفس هذا الرقم تقريبا ، وقد مات منهم عدد وأسر عددا آخر أثناء مأساة الطرد ، فاذا وضعنا فى الإعتبار ماكان عندهم من إخصاب وسرعة تكاثر ، أمكننا أن نقول أنهم لم يتجاوزوا الرقم المذكور (٢) .

●مبررات إخراج المورسكيين من أسبانيا :

خلف فيليب الثالث والده فيليب الثانى على العرش الأسبانى سنة ١٥٩٨ ، وكان الملك الجديد مختلفا عن السابق فى كل شئ ، فالوالد كان شخصية مستبدة ذات إرادة قوية ومقدرة عظيمة على العمل ، أما الإبن

١- أنظر : تاريخ المورسكيين فى مملكة غرناطة ص ٢١١ وما بها من مصادر ، وهامش ٣٥ فى ص ٢١٢ .

٢- أنظر : المقرى : نفح الطيب ج٢ ص ٦١٧ ، وعنان : نهاية الأندلس ... ص٤٠٢ .

فكان رقيقا مسالما يسهل على الآخرين اخضاعه ، وكان تدين فيليب الثانى من النوع العسكري يعنى أنه لم يكن فقط متحمسا للسلطة بل كان مقتنعا أن الله أودع فى يديه مسئولية الكنيسة أيضا ، أما ابنه فكان تدينه تقليديا عاطفيا بدون مضمون ثقافـي ، وقد نالت طائفة اليسوعيين خطوة لاحدود لها عنده .

وفى نظام حكم ملكـي مطلق ، فان القرار النهائى يكون دائما فى يد الملك ، وبرغم هذا فإن الإبن فيليب الثالث أقدم على مالم يقدم عليه والده ، ولنا أن نتساءل ، لماذا جرؤ هذا على اتخاذ قرار تراجع سلفه عنه ولم يستطع اتخاذه ، أعنى قرار طرد الموريسكيين من كل أسبانيا ؟

إن المبررات التى جعلت الملك يميل فى النهاية الى تبنى هذا الإتجاه غير واضحة تماما ، لقد اتخذ القرار بعد عشر سنوات من التردد ، عشر سنوات ، قلبت فيها الأوراق وطرحت آراء كثيرة متباينة ، فهل كان الرأى العام وراء هذا القرار ؟ الواقع أنه ليس هناك مايؤيد ذلك ، لافى مناقشات البرلمان ولافى أدب الفترة ، هناك فقط مطالبة بإتخاذ اجراءات ضد التلصص، وأن يحال بين الموريسكيين وبين ممارسة بعض الحرف ، أما الأصوات التى تنادى بالنفى ، فقد بدأ بها أشخاص معدودون .

أما مسئولية الكنيسة فى اتخاذ هذا القرار ، فهى موضع جدل كبير ، لأن هذا الإجراء قدمت له بعض المبررات الدينية ، والواقع أنه لاينبغى أن نقلل من دور بعض كبار رجال الدين وخاصة البطريرك " ريبيرا أسقف بلنسية "، " وخيمى بليدا " مسئول الكنيسة فى المنطقة التى تضم كثيرا من الموريسكيين ، فى نفس مملكة بلنسية ، وكان قلب هذا القس يمتلئ غيظا على الموريسكيين ، لأن مهمته التبشيرية فشلت بينهم ، ولذلك ، ما

أن تولى العرش فيليب الثالث حتى توالت زياراته ومذكراته له فى محاولة لإقناعه بضرورة مباشرة الطرد العاجل والكامل لكل هؤلاء ، فلم يجد لفكرته حماسا كبيرا عند معظم الوزراء ، وقد فشل فى إقناع السلطات بأن المورسكيين - كمجموعة - مرتدون تجب معاملتهم على هذا الأساس ، ونصحته قيادة الكنيسة فى روما أن يستمر فى تبشير المورسكيين وتعليمهم أصول الدين ، ففكرة الطرد لم تنطلق من الكنيسة وان كان هناك من أيدها وشارك فيها ، لكن ليس جمهور القساوسة ، لأن هذا سيعود بالخسارة عليهم ، بل إن مفتشى التحقيق - الذين طالما أرهبوا هذا الشعب المورسكى بوسائلهم المرعبة - لابد أنهم أدركوا أن ايراداتهم ستنخفض بصورة محسوسة ، عندما لايجدون ضحاياهم التى ينفذون عليهم إرهابهم ، وربما كان " لمرجرتيا " - زوجة الملك الضعيف المتردد - دور فى اتخاذ القرار ، فقد مدحها واحد من رؤساء الأديرة فى غرناطة " لمقتها المقدس الذى تضمره تجاه المورسكيين والذى يحركها للعمل لإنجاز أكبر مشروع شهدته اسبانيا : الطرد (١) .

وقال البعض - ممن عرضوا لهذا الموضوع فى القرن الماضى - إن هذا النفى كان وراءه وحدة اسبانيا الكاثوليكية ، لقد كان لزاما عليها أن تلقى عن كاهلها هذا الجسم الغريب :تلك الأقلية غير المسيحية البقية الباقية من الإسلام الذى ولى ، وهذه النظرية ، وإن كانت تتضمن جزءا من الواقع ، الا انها غير صحيحة فى صورتها الراديكالية ، لقد ردّ البعض ذلك الطرد لأسباب اجتماعية أو إقتصادية أو هما معا . وليس من الممكن

1- Fray Juan galvano: sermon de los leomas y obsequias de la ... reyna margarite de Asturia. Granada 1611, p.9

-- A. Dominguez: Historia ... P. 161 y note N.3 en la misma Pagina.

الحديث عن ضغط سكانى ، فقد شهدت البلاد وباء فى الفترة من ١٥٩٧ : ١٦٠٢ ترتب عليه ندره فى الأيدى العاملة بكل أسبانيا ، عوضتها هجرة بعض الأيدى العاملة الأجنبية لهذه البلاد ، نعم كانت هناك منافسة بين العمالية الإسلامية والمسيحية فى مملكة " بلنسية " ، فقد كان الأولون أكثر كفاءة وأكثر رخصا ، لكن هذه المنافسة قديمة وترجع إلى زمن بعيد ، نعم . يمكن أن يقال أنه كانت هناك ضغينة ضد الأقلية الموريسكية فى بلنسية وحدها ، وأن قطاعات واسعة من شعب هذه المملكة وافقت على ابعاد الموريسكيين ، ولكن هذا لم يكن حال الأقاليم الأخرى ، ولا وجد له أثر فى الاجتماعات والمجالس الاستشارية التى سبقت الطرد والتى يمكن الاعتماد عليها قليلا فى معرفة اتجاه الرأى العام ، لأن أصلها أرستقراطى (١).

هل يمثل ذلك الطرد مواجهة بين الارستقراطية والبرجوازية كما يقول خـوان رجـلا ؟ (٢) هذا احتمال محدود ، لأن اضرار الطرد وقعت بالدرجة الاولى على الارستقراطيين ، وكان له صدى عليهم أنفسهم ، إن تأثير "الدوق دى ليرما" على الملكة التى تدعم فكرة الطرد وعلى كبار رجال الدين ، أثر على الاتجاه السياسى العسكرى فى مجلس الدولة وجعله يميل الى إخراج الموريسكيين لأسباب تتعلق بالأمن القومى ، وهنا لابد أن نعود الى الثورة الغرناطية سنة ١٥٦٨ ، فقد ترتب عليها - كما مر - توزيع الموريسكيين ونشرهم فى كل مملكة قشتالة ، وأصبح يشعر بالمشكلة الموريسكية طبقات واسعة من الموريسكيين لم تكن تبالى بها من قبل ، وتعقدت المشكلة أكثر بالتدخل الخارجى ، وربما كانت هناك مبالغة فى الخوف من امكانية هذا التدخل : تدخل ماسمى بالطابور الخامس ، مثلا

1- A.D. Ortiz : Historia ... PP 161 - 162'

2- Estudios sobre los moriscos ... PP. 29 - 30'.

فى سنة ١٥٩٥ قيل أن الإنجليز اقتربوا من " قادش " فصدرت أوامر للمورسكيين باشبيلية أن يلزموا العزلة الصارمة . والواقع أنه لم تكن هناك قوات ، ولم تكن هناك رغبة فى دعم أى إعتداء خارجى ، ونفس الشئ حدث فى باقى مناطق قشتالة .

وقد كان الوضع فى " أراجون " و" بلنسية " مختلفا ، لأنه كان وراء حدود جبال البرانس مايدعو الى القلق دائما ، بسبب أنه كان يوجد فى الجانب الشمالى منها بؤرة مشاكل مستمرة ، سببها تمركز المناصرين لمذهب " كلفينوس " بهذه المنطقة ، بل أن ذلك يرجع الى الفترة التى اعترف فيها ب (انريكى الرابع) ملكا على فرنسا ، وكانت صداقته ونواياه تجاه اسبانيا موضع شك . فالعلاقات مع فرنسا كانت من أكثر الأشياء الباعثة على قلق أعضاء مجلس الدولة ، ذلك المجلس الذى نظر الى المسألة من وجهة النظر السياسية والعسكرية قبل أى شئ آخر ، ولقد لاحظ " دانفيلا" التعارض بين المنشورات الصادرة عن هذا الجهاز العالى ، إنه فى عام ١٥٩٩ كان ينصح بأن يحكم على المورسكيين بالأشغال الشاقة إذا كانت أعمارهم تتراوح بين ١٥ الى ٦٠ عاما ، وتصادر ثرواتهم ، والذين تزيد أعمارهم عن ستين سنة ، يبعث بهم مع النساء الى بلاد المغرب ، ويحتفظ بالاولاد فى المدارس .

وموقف الاكليروس العالى يختلف كثيرا ، وهو أكثر انسجاما مع اعتبارات الرحمة والشفقة التى تميز مجلس من كبار رجال الدين (١) ومختلف المدارس الدينية ، وان كان " ربيرا " يعبر فى كل يوم عن عناد أكبر ، وزادت خطورته بعدما جمع بين منصبى الوالى وبطريرك بلنسية

1- Danvila y callado (Manuel): La expulsion de los moriscos Españoles, P. 241'

فكتب للملك مذكرتين يقترح فيهما تحديد تاريخ لنفى المسلمين .

الأولى منهما مؤرخة أواخر سنة ١٦٠١ وفيها يصّر على عناده ويبرز الخطر الذى يمثله الموركسيون من وجهة نظره ، ويؤكد إنهم إن لم يطردوا " فانى لابد أن أرى فى أيامى ضياع أسبانيا " ، وبعد ذلك بفترة قليلة - فى يناير ١٦٠٢ - ثنّى بمذكرة أخرى يصّر فيها على طرد الموركسيين " لكونهم ملحدين وخائنين للعرش الملكى " ، وحتى الآن لانرى الا إشارة أساسية للموركسيين من " بلنسية " ، وربما اشارة اليهم وحدهم ، ثم الى الأراجونيين بالدرجة الثانية ، لأن هؤلاءهم الذين يخشى منهم بعض التحركات الخطيرة ، وتطلب المذكرة اجراءات أكثر صرامة ضد الموركسيين الذين لم يخضعوا لواحد من سادة الإقطاع ، فهؤلاء يجب نفيهم الا الذين يريد الملك احتجازهم للعمل فى السجون أو فى مناجم أمريكا ، وهو مايجب أن نعمله دون أن تتردد ضمائرنا ، أما الذين يخضعون للسادة الاقطاعيين - وهم تقريبا - كل البلنسيين والأراجونيين - فهؤلاء يجب أن يستمروا وأن نواصل تعليمهم وتبشيرهم ، وهناك تناقض ظاهر فى هذا الموقف ويمكن أن يعزى الى الضغوط التى كانت تمارسها الطبقات العليا البلنسية على البطريرك وإقناعه بجسامة النتائج المدمرة التى تعود على هذه المملكة من جراء قرار مرغوب فيه ، ولكن يخشى منه فى نفس الوقت .

فالخوف من التدخل الخارجي أذن كان وراء ذلك القرار ، فقد كان يخشى أن يساعد الشعب الموركسي أى هجوم على البلاد الأسبانية ، وكان التهديد من ناحية " بلنسية " أقل فى هذا الزمن ، لأن احتمال قيام الأتراك العثمانيين بعملية انزال بحرى على شواطئ اسبانيا كان احتمالا ضعيفا آنئذ ، ويقال أنه كانت هناك محاولة عثمانية - باشتراك موركسي نشط - للاستيلاء على جزيرة مالطة ، وقد تمت نجدة الجزيرة بأسطول سنة

١٥٦٤ ، وقد شن الاتراك هجوما مضادا أعان عليه أحد المورسكيين حين أخبر أحد القادة الأتراك أن عدد المسيحيين الذين نزلوا على الشاطئ ، يتجاوز خمسة آلاف (١) ، وقد انتظر المورسكيين بغرناطة فى العام التالى وصول الأسطول التركى ، ظانين أنه قد انتصر فى مالطة ، حتى يمكن لهم بدء ثورتهم فى الأندلس (٢) .

وهكذا يقال أنه كان يكفى تهريب الاسلحة من ناحية البحر الى مناطق المورسكيين لتكون بؤرة إزعاج ومشاكل اذا حدثت حرب خارجية ، فالمورسكيون لايمكنهم فعل شئ من تلقاء أنفسهم فاذا ما جاءهم دعم من الخارج ، أمكن أن يمثلوا خطرا ، على الأقل ، هذا مايعتقده أعضاء لهم تأثيرهم فى مجلس الدولة ، وكل المؤلفين تقريبا متفقون على أن هذا كان واحدا من الأسباب التى ألقت بثقلها لحظة طرد المورسكيين .

لكن هذا التحليل لايصل الى عمق القضية ، فهل الأقلية المسلمة مسئولة عن توقع الخظر حقيقة ، وهل الذنب الأساسي ذنب غيرهم ؟ إنهم نسبة من السكان قليلة فى مجموعها ، عالية فى أقاليم معينة ، وليس يشك فى إنتمائهم للتراب الأسبانى ، فهم ملتصقون بالأرض وبقيم ثقافية خاصة ، لكنهم لم يلتحموا بالمجتمع المسيحى ، وتحولوا ليس فقط الى مجموعة غريبة بل ومضطهدة ، وكان من الصعب على هذه الأقلية أن تخلص لملك يرعى أجهزة انتقامية مرعبة ، ابتداء من محاكم التفتيش ، الخاضعة لسلطة الملك رغم طابعها الدينى ، الى غيرها من وسائل القمع ، فعدم التضامن السياسى إذن كان انعكاسا لعدم التضامن الإجتماعي، إنه

١- أنظر : براوديل : البحر الأبيض المتوسط ص ٨٤٩ من الأصل الفرنسيى ، ص ٤٩٢-٤٩٦ - ج٢-من الترجمة الأسبانية .

٢- المرجع والموضع السابق ، وأيضا : J. regla. Estudios ... P. 201' .

الوضع الذى يجعل من الموركسيين أقلية نائية عن المجتمع ومضطهدة فيه ، وكل هذا يرجع لسبب دينى ، فحول هذه النواة الدينية صارت كل أشكال الكينونة والحياة ، لقد طردت اسبانيا الموركسيين ، لأن الموركسى بقى لايقبل الانصهار فلم يكن الاكراه على النفى من البلاد بسبب الأصل أو الجذر ، لكن لما للموركسى من حضارة مختلفة ودين ، فقد بقى بعد مرور قرن واثنين وثلاثة محافظا على مظاهر اسلامه ، كما عرفت عنه دائما عادات ومظاهر خاصة : من اللباس ، والدين ، واللغة ، والمساكن المحكمة السد ، والحمامات الاسلامية ... الخ ، نعم كان الموركسى يحافظ على هذا كله ، وعلى كل مايميزه ، حقيقة ، ليس الموركسيون فى المدن لباس المتنصرين ، لكن هذا لم يغير شيئا من عمق الأشياء ، لأن الموركسى كان يجول ببصره نحو عالم شاسع الأرجاء : العالم الاسلامى البعيد ، ومن هنا كان اختيار اسبانيا لأكثر الحلول راديكالية : حل النفى أو الاستئصال الكامل لهذه النبتة من الأرض .

وربما كان من غير المناسب أن يجرى حديث عن الموركسيين فى كلمات عامة ، ناسين أنه كانت هناك اختلافات كبيرة ليس فقط بين الأفراد بل وبين المجموعات ، فهناك فرق كبير بين الغرناطيين القدماء وبين مجموعات المدجنين " Los Mudejares " القدماء فى منطقة قشتالة ، بين الموركسيين الذين ذابوا فى المجتمع تقريبا وبين البلنسيين ، بين الذين نسوا لغتهم والذين يحافظون عليها ، وبين الذين يعيشون يغمرهم جو من الحقد المتبادل ، والذين يحتفظون بعلاقات طيبة مع جيرانهم من المسيحيين القدماء . لقد كانت مأساة الموركسى مأساة ثقافية ، إنه معلق بين ثقافتين تجذبه كلتاهما ولايقبل واحدة منهما بشكل كامل . إن التعصب وعدم التسامح - الذى كان سمة العصر الوسيط - يجعلنا ندرك كيف تم

التوصل الى قرار فى المشكلة المورسكية ، قرار الطرد ، بسبب المسافة البعيدة التى تفصل الجماعتين : الإسلامية والمسيحية ، ولم يكن هذا النفى عملا وراءه القوي الداخلية المحركة للأحداث فى الداخل ، يقدر ماتقع مسئوليته على الملك فيليب الثالث والشخصيات التى أحاطت به .

ولعل من المناسب فى ضؤ هذا ، ذكر بعض الحوادث التى سبقت الطرد مباشرة ، فقد يساعد ذلك على تصور المشكلة ، وما كان ومن كان وراءها .

ما أن اعتلى " فيليب الثالث " العرش وتوج ملكا على أسبانيا ، حتى توجه الى " بلنسية " بدعوة من صديقه " الماركينر دى دينا " وتزوج الملكة " مارجريتا " فى عام ١٥٩٩ . ومن المحتمل أنه خلال هذه الرحلة عرف معلومات مباشرة عن المشكلة المورسكية التى كانت موضوع محادثات مطولة مع الشخصيات التى رافقته ، وبرغم النصيحة التى توصى بنفى المورسكيين والتى ترجع الى سنة ١٥٨٢ ، الا أن الملك ما كان يفكر فى تنفيذ هذا الاجراء فى تلك الآونة ، ذلك أنه عند انتهاء زيارته لمملكة " بلنسية " فى ٢٣ مايو سنة ١٥٩٩ كتب رسالة الى " خوان دى ريبيرا " - مطران بلنسية - يتحدث فيها عن تعليمات تتعلق بالتبشير مثل : ينبغى تعيين رؤساء أديرة فى الأماكن المحتاجة والبحث فيها عن وعاظ وتعيينهم ، وطبع كتاب "أصول الدين المسيحى" الذى تم تأليفه لأغراض تعليمية وترقية " البارونات " الذين يوظفون المعلمين للعمل فى أماكنهم ويدفعون رواتبهم والإهتمام بمن تحولوا حديثا الى المسيحية وانشاء جمعيات أخوية لخدمتهم ... الخ (١) فمن هذه الوثيقة بما تضمنته من

١- ومن هناك من مصادر . P. Boronat: Los moriscos ... 11, PP. 8 - 10'

تعليمات يمكن استنتاج أن الملك لم يفكر فى طرد المسلمين عندما أنتهت جولته بمملكة بلنسية،بالعكس ، أعد خططا بعيدة المدى للحصول على نتائج فعالة من التبشير بين هؤلاء .

يكمل هذا مرسوم صدر بالعفو العام أصدره المفتش العام فى يوليو من نفس العام ، ويبدو أن هذا قد ترك أثرا ، يقول " دون خوسيه استبيان " - أسقف " أوريهولا " : " إنه رغم حصوله على بعض الثمار من أسقفيته ، الا انها قليلة ، فقد تحول ٨٤ موركسيى الى المسيحية بإخلاص فيما يبدو ، وتركت بعض النسوة ملابسهن الاسلامية ليلبسن ملابس المسيحيات " لكن تلت ذلك رسالة أخرى تقول أن النساء اللاتى تركن ملابسهن عدن لها بعد اجتماع سرى للجماعة المورسكية (١) .

وفى سنة ١٦٠٤ رأس الملك اجتماع المجلس الملكى فى بلنسية ، وليس فى محاضر هذا الإجتماع ذكر للمورسكيين للمطالبة بطردهم ، على العكس ، يرد أسمهم للاحتجاج على أن المبالغ المخصصة للاتفاق على الكنائس المنشأة سنة ١٥٧٢ لخدمة المورسكيين ، أنفقتها السلطات فى أغراض أخرى (٢) .

وفى نفس العام طلب من " بدور دى ديثا " إعداد تقرير عن القضية المورسكية ، فمال الى الرأى المعتدل وقال : " اذا نظرنا الى المورسكيين بصفة عامة ، فسنرى أنهم كانوا مسلمين وفعلوا كل ماهو ممكن لتميزهم عن المسيحيين ، انهم لايريدون اكثر من أن يكونوا مع وطنهم

1- P. Boronat: los moriscos ... 11, P. 18

2- E. Ciscar Pallares : Las cortes Valencianas de Felipe 111

– P. 11 y 18, Valencia 1973 نقلا عن :

-- A.D. ortiz: Historia ... P. 168.

وشعبهم ، يعتقدون أن أسبانيا كانت وطنهم ، وتنتمى اليهم " وبعد أن تحدث عن فكرة تناسل هذا الشعب ، اقترح وسائل معتدلة لصهره ودمجه مع المسيحيين القدامى ، فطالب بتفريقهم فى مجموعات صغيرة وبأساليب لينة تجعلهم ينسون عاداتهم وطبائعهم ، فى كلمة واحدة : يجب ممارسة سياسة التذويب (١) .

وهكذا نرى أن هذه السنوات حاولت التيسير ، وحتى مايو سنة ١٦٠٦ صدرت رسائل تهتم بتبشير المورسكيين ، ولم يطالب أحد بهذا الطرد لافى بلنسية ولافى قشتالة ولافى غيرهما ، وهناك مؤلفون عديدون عرضوا مشاكل عدة وماتحدث واحد منهم عن استئصال المورسكيين من أرض اسبانيا ، لقد كان هذا الرأى المتطرف موروثا عن بعض المستشارين الحساسين ازاء مارأوه خطرا عسكريا ، أو هو رأى عن بعض المتعصبين لنظرية نقاء الدم وهو رأى البعض من رجال الاكليروس ، وقد كان هؤلاء أقلية الا أنهم ملأوا الدنيا ضجيجا باعتراضاتهم وأصواتهم التى كانت تقطر مرارة وغيظا ، نعم ، هناك مذكرة رفعها البعض الى الملك يطلبون القسوة الشديدة فى معاملة المورسكيين باعتبارهم ملاحدة وخونة يستحقون الموت ، فإذا رأفنا بهم لجأنا الى النفى أو ضرب الرق ، ولكن مذكرة كهذه لاتغير شيئا من سياسة الإعتدال التى اتبعتها الحكومة فى هذه السنوات ، يؤكد ذلك محضر إجتماع الثلاثة الذى انعقد فى يناير سنة ١٦٠٧ ، هؤلاء الثلاثة هم قسيس الملك الرسمى ، وحامل وسام الرهبانيات العسكرية والكونت " ميراندا " فقد طالبوا جميعا بتعليم المورسكيين وتثقيفهم وتعيين قساوسة من ذوى الخبرة العالية يمكن الإعتماد عليهم فى تحقيق المنفعة .

1- Biblioteca nacional - Madrid, Ms. 8888 hojas 3 - 160'

نقلا عن المرجع والموضع السابق

وطالب البعض بمنح الموريسكيين حرية الانتقال الى بلاد المغرب اذا رغبوا ، بالاضافة الى تبشيرهم وتجلية أصول العقيدة لهم ، وفى ٢٩ أكتوبر من نفس السنة عقد الثلاثة إجتماعا آخر ، ركزوا فيه على أهمية الاستمرار فى التبشير ، وأضاف البعض اقتراحا بتوزيع الموريسكيين فى "قشتالة" على شكل مجموعات صغيرة مع منعهم من ممارسة مهنة النقل وقصر أعمالهم على الزراعة وحدها ، وأكدوا أنه ليس من المعقول إرسال البعثات التبشيرية الى الصين واليابان ، بينما الموريسكيون فى أراجون وبلنسية يحتاجون الى هذه العناية ، وقد وافق الملك على هذا الرأى (١) .

وبهذا يتضح أنه حتى أواخر سنة ١٦٠٧ لم يفكر أحد فى اخراج الموريسكيين جميعا من كل الأراضى الاسبانية ، على الأقل باعتبار ذلك اجراء عاجل ، والكلام كله يدور حول الوعظ والتبشير والتعليم ، وتلك مهمة يفترض فيها طول الأمد .

لكن بعد ذلك بفترة قليلة ، وعلى وجه التحديد فى ٣٠ يناير سنة ١٦٠٨ اجتمع مجلس الدولة كاملا ، وقرر بالاجماع طرد الموريسكيين من اسبانيا ، والذين لم يكونوا مع اجراء الطرد منذ شهرين فقط ، اتفقوا مع الأغلبية دون تقديم مبررات تستدعى تغيير موقفهم ، كيف يمكن تفسير ذلك ؟ السبب هو " الدوق دى ليرما " الذى أشار الى النجاح البسيط الذى حققه التعليم والتبشير فى مملكة " بلنسية " ، ورأى هو - ثم وافقه " ريبيرا " وتبعهم الآخرون - أن نبعث بالرجال الأشداء للخدمة فى السفن ، وأن نرسل الشيوخ والنساء الى بلاد المغرب ، أما الأطفال فيربون بين المسيحيين القدماء ، وعضدوا وجهة نظرهم بأن خطر معاونة الموريسكيين لهجوم تركى

1- P. Boronat: obracitade, 11, 104 - 111'

والأصل موجود فى :

-- Archivo general de simancás, Estado 208'.

أو مغربى ضد أسبانيا لايزال قائما ، وكانت المشكلة التى تواجه تنفيذ ذلك القرار تتمثل فى الإنهيار الإقتصادى الذى سيعانى منه أصحاب الاقطاع فى بلنسية ، وحلاً لهذا الإشكال ، استقر الرأى على أن يبقى العبيد ، وأن تسلم أصول ممتلكات المورسكيين للسادة تعويضا لهم .

ويمكننا أن نقول أنه حتى هذه اللحظة لانرى الا محاولة لطرد المسلمين المنصرين فى مملكة " بلنسية " وحدها ، وذلك الطرد لم يتم سريعا فقد كان لابد أن يظهر أمام الجميع أنه قائم على حكم عادل مبنى على عدم اخلاص المورسكيين وخيانتهم ، ولما رفض المقر البابوى التصديق على تلك الإدانة الجماعية ، رفعت المسألة الى لجنة اجتمعت فى ٢٢ نوفمبر سنة ١٦٠٨ برئاسة الوالى " ماركيز دى كارثينا " وتكونت من بعض الأساقفة وعلماء اللاهوت ، ومن الغريب أنها قررت مواصلة التنصير بالحسنى وأن يطلب من " البابا " الموافقة على عفو آخر لعدة سنوات ، لاتلجأ خلالها الحكومة لمحاكم التفتيش حتى لاتمارس وسائلها القاسية العنيفة، لكن الطرد كان قد تقرر ، وأمر الملك باعتماده وتنفيذه حتى بدون الدعم القانونى الذى طلبته الكنيسة ، بل وأمر بالتعجيل بذلك التنفيذ بناء على التماس من الدوق " دى ليرما " (١) ، وعلى كل حال فقد تقرر الطرد العام وقال " فيليب الثالث " بضمير مطمئن : " يجب أن نقذف بهم ، اعتقد أن هذا هو الرأى الأكثر مناسبة ، مع البدء بالمورسكيين فى بلنسية . و اذا أمكن أن تطرد معهم المورسكيين باراجون - فى وقت واحد - فان هذا يكون أفضل ، بسبب مالهم من ذكاء وعلاقات طيبة مع الفرنسيين " (٢) .

1- Jaime beleda. Coronica de los moros de España, Valencia 1618'.

-- A. Dominguez ortiz: Los moriscos ... P. 172'

٢- أنظر المرجع الأخير ص ١٦٨ .

واذا كان الملك قد إتخذ القرار ، فإن " الدوق دى ليرما " كان هو اليد المحركة وراء هذا القرار ، وقد أقامه على دعامات سياسية وليس على مبررات دينية أى أسسه على الخطر على أمن الدولة ممثلا فى الموريسكيين ، فهل كان هذا الخطر حقيقيا وعاجلا ؟ هناك مبالغات فى هذا الشأن ، نعم كان هناك بين هذه الرعية من كان يعبر عن سروره لفشل السياسة أو القوات أو الأسطول الأسبانى ، ويتحدث بفخر عن إنجازات القراصنة وانتصارات الأسطول التركى ، خاصة بين أحياء المسلمين فى مملكة " أراجون " ، وكان بعضهم يشعر بالطرب لفشل الأسطول الاسبانى في مواجهة اسطول انجلترا وللإعتداءات الفرنسية المدعومة بقوات انصار مذهب " كلفينوس " على بعض الأقاليم الأسبانية .

يقول رجلا : " انه ابتداء من سنة ١٥٨٠ فان القضية الموريسكية فى مملكة " أراجون " تبدو متلبسة فى الصراع الأسبانى - الفرنسى ، وقد صمم فيليب الثانى سنة ١٥٨٨ على ضرورة " وضع الحصون والحدود مع فرنسا فى مأمن ، كذلك الأماكن التى يمكن أن تستقبل الموريسكيين مع الحيلولة بينهم وبين الإتصال بإخوانهم الموريسكيين فى بلنسية " (١) ، وقد ألقى بكثير من الموريسكيين ببلنسية فى السجن لانهم أرسلوا رسائل الى ملك إنجلترا ، عثر عليها بين أوراق الملكة الإنجليزية السابقة له (ايزابيل) كما وجدت بين الأوراق المرسلة براهين تدل على أنهم كانوا يحاولون الإتصال بالبروتستانت فى سويسرا للحصول على دعمهم (٢) .

لقد كانت سياسة ملك فرنسا خاصة ، استخدام الموريسكيين

1- J. regla: Estudios ... P. 16'.

2- Cabrera: relaciones de la corte de España ... 240 Abril 1605'

-- OHume : spain, its greatness and decay, P. 211, combridge 1905'

-- A.D. Ortiz : Historia ... P. 173, Nota N. 30'. ذكـــرها

كطابور خامس فى صراعه ضد المنافسين الأسبان ، وقد استخدام شخصية رئيسية فى مؤامراته ، تلك الشخصية هى " باسكوال دى سانتى ستيبان " وهو ينتمى لقرية على الحدود الفرنسية - الأسبانية ، وقد عمل جاسوسا لوالى " نافارا " ثم انضم الى مجموعة أخرى ، وقد أرسل هذا الجاسوس الى بلنسية ، حيث اتصل بواحد من الفرنسيين الباسك ،. وعمل معه هو وخمسة من المورسكيين ، وقد أرسل واحد منها رسالة الى " أنريكى الرابع" يشكو فيها من محاكم التفتيش ومعاملاتها السيئة ، ويتحدث عن ضعف دفاعات بلنسية وعن امكانية التجهيز لثورة بغاية السرية ، لانه لايوجد فى قرى المورسكيين الا اثنين أو ثلاثة يتولون السلطة ، واذا جاء اسطول فرنسى الى " دانية " ، وزودنا بالأسلحة ، فإنه من الممكن اعداد ٦٠ ألف شخص ، وسيصبح سقوط بلنسية أمرا مؤكدا ، ويمكن للمورسكيين فى "أراجون " أن يمدوننا بأربعين الف شخص ، وسيجد التدخل الفرنسى دعما من الاقاليم الأخرى ، من البروتستانت واليهود بل ومن المسيحيين القدامى الناقمين .

ولابد أن ملك فرنسا قد أدرك أن هذه روايات يتمناها ، وليس من الممكن أن تكون موضع ثقة يعتمد عليها ، فالمهمة ليست بهذه السهولة وقد أرسل " سابستيان " الى إنجلترا ، حيث بقى هناك على أمل فى زمن الملكة " ايزابيل " ثم قام خلفها يعقوب (خاكوب الأول) بتوقيع معاهدة سلام مع أسبانيا سنة ١٦٠٣ ، و أرسل الى مدريد - أمارة على حسن النوايا - المعاهدات التى عقدت مع المورسكيين البلنسيين ، كما سبقت الإشارة .. . وقد عاد نفس الجاسوس الى اسبانيا حيث توجه الى بلنسية

فى زى تاجر ، وحضر اجتماعا شارك فيه ٦٦ مندوبا عن المورسكيين وعشرة جزائريين ، وقد اختاروا أحد المورسكيين زعيما لهم ، وكان اجتماعهم فى ديسمبر سنة ١٦٠٤ وأعدوا خطة للقيام بثورة يوم الخميس المقدس سنة ١٦٠٥ حيث يلتقى عشرة آلاف مورسكى ، يعاونهم الفرنسيين المقيمين فى مدينة بلنسية ، وسيقومون بإشعال النيران فى النصب التذكارى بالكنائس ، ثم ينتهزون فرصة الفوضى ويستولون على المدينة ، وستكون الإشارة وصول أربع سفن فرنسية حاملة قمحا ، بينما غرضها الحقيقى تزويد المتآمرين بالأسلحة ، وستحاصر المدينة ، وسينال " لافورثى " – وهو جاسوس فيما يبدو – عمولة سخية قيمتها ١٢٠ ألف " دوكاس " وسيتبع سقوط العاصمة سقوط كل بلنسية ، لكن المؤامرة أكتشفت وعذب المتآمرون حتى اعترفوا وأعدموا . (١)

وجود هذه المؤامرات وأمثالها ليس موضع مناقشة ، لكن المهم هو هل عندما صدر مرسوم الطرد كان هناك شئ جديد ؟ نعم ، إن المورسكيين غير راضيين ، لكن أغلبيتهم لم تصل الى مستوى حمل السلاح ، وقد سببت هجمات السفن المغربية هجرات بعض المجموعات من مناطق الشواطئ ، لكن لم يصل الأمر الى درجة الثورة ، أما المخططات التى ذكرت من قبل فليست الأ تخيلات لا أساس لها ، ولا يمكن أن يكون ملك فرنسا قد أخذها مأخذ الجد على الرغم من أن المورسكيين كان فى امكانهم تقديم مساعدات عسكرية نشطة له فى حالة اعتدائه على اسبانيا ، ولم

1- Escolano (Gaspar) : El Capitulo 42 del libro Decimo de la decada primera de la . historia de valencia, Valencia 1878 - 1888'

– Cardaillac, Luis : Morisques et protestantes, Al - AndQlus, XXXVI, 1971, PP. 29' . 63'

يكن يتوقع الأ ذلك بسبب ماتعرضوا له من معاناة وقسوة ، أكثر من هذا ، لقد عبر الموريسكيون فى " أراجون " فى سنة ١٦٠٦ ، سنة ١٦٠٧ عن ولائهم ورغبوا فى أن يكونوا نصارى مخلصين شريطة أن تتوقف قسوة محاكم التفتيش معهم ، وأن تختفى الصورة السيئة عنهم ، وقد شهد بذلك رجال الدين ، ورحبت به مجالس الدولة (١) ، لقد بلغت القسوة مع الموريسكين أقصى مداها ، وكانوا مستعدين أن يضحوا بكل شئ حتى التظاهر بالتخلى عن عقيدتهم ، اذا كفل لهم ذلك حقوق المواطن العادى ونجاهم من شدة التعذيب وسوء المعاملة والكراهية لهم .

باختصار ان الخطر الذى مثله الموريسكيون لم يكن فى سنة ١٦٠٩ أكثر منه فى أى وقت مضى.لقد كان دائما سببا مساعدا ، وليس السبب الرئيسى الذى من أجله يتقرر نفى ذلك العنصر الفعال من البلاد ، فهل أراد الدوق " دى ليرما " أن يستولى على ممتلكاتهم وأن يصادرها لصالح الملكة فى وقت كانت علاقته بها تمرّ بمرحلة حرجة ، وبذلك ينال رضاها دون أن يخسر شيئا ؟ إن من يعرف شخصية ذلك الدوق ، يدرك "انه من الصعب عليه اعتقاد أن تتخذ قرارا مهما دون أن تجنى من ورائه أموالا ، ومهما يكن من أمر ، فإن الأسباب العميقة ليس لها أثر فى الوثائق ، أننا أمام قرار شخصى . لايتطلبه أى قدر تاريخى مزعوم (٢) .

وعلى كل حال فقد تم نفى الموريسكيين أو المسلمين المنصرين من كل أراضى مملكة اسبانيا وترتب علي هذا الإخراج القسرى لهذه الأقلية الفعالة من البلاد ، آثار ، وكانت له نتائج ، هذه الآثار وتلك النتائج هى موضوع الفصل التالى .

1- Vea se la note 32 en la P. 174 de . A.D. ortiz : Historia ...

. 2-A. Dominguez ortiz: la historia ... PP. 159 - 175'

الفصل الخامس

النتائج الإقتصادية
لإخراج المسلمين المنصرين

يدور الجدل منذ قرون حول نتائج نفى المسلمين المنصرين ، لكن بذلت فى السنوات الأخيرة جهود مخلصة ، تنظر للموضوع من زاوية حيادية بحتة ، ولقد كان هناك من يخشى انتقاد قرار ملكى منذ زمن الطرد خاصة اذا قام على مبررات دينية ، ولا أحد ينكر أن النتائج الإقتصادية كانت وبيلة وإن حاول البعض تلطيفها لأسباب يستشف منها الضغينة ، فالرجل القشتالى يحترم المال ويجتاز المحيطات من أجله ، لكن ليس باعتباره مطلبا فى حدّ ذاته بل باعتباره وسيله لنيل المجد والشهرة ، بينما العامل المورسكى يقدّم باعتباره بخيلا مقتّرا .

يقول " كرستوبال بيريث ايريرا " فى مذكراته عن الموريسكيين " أنهم يظنون أنهم ممتازون خاصة فى زراعة الأراضى ، لكنهم حاولوا جمع أموالنا ، لأنهم يعملون فى النقل ويبيعون من الباطن بضائع البقالة ، ويمتصون مصادرنا ويتعاونون فيما بينهم حتى لايكون فيهم فقير ... ولاينفقون شيئا مما يدخل فى حوزتهم ، ولايشربون الخمر التى يستعملها أكثر الناس ، ولايساعدون بدفع أنواع والوان الضرائب،ولايستخدمون شحوم الخنزير ولا أشياء أخرى مكلفة ، أنهم يسهمون أقل بكثير من اسهامنها " (١) .

هذا النص يكثف الأفكار الشائعة عن الموريسكيين ، ومع ذلك فالذين يقللون من نتائج الطرد ، لاينكرون كدّ الموريسكيين وجدّهم ، ونحن

١- من أنواع الضرائب ضريبة تسمى ضريبة " لوس مينوس" Los Millones وهى ضريبة مفروضة على الأشياء الضرورية مثل اللحوم والزيوت والخمرة والخل وكانت موجودة آخر أيام فيليب الثانى وضريبة أخرى تدعى " لا الكابالا: la Alcabala وهى تمثل ١٠٪ من قيمة المنتجات وكانت الخمر من أكثر الأشياء المثقلة بالضريبة ، أنظر :

- Michelcavillac.: Amparo de pobres " clasicós castillonos " Madrid 1975'.

A.Dominguez ortiz: Historia ... P. 201' .-

نجد نفس الشئ عند أديب اسبانيا الكبير " ثيرفنتس " فى فقرة معروفة من عمله " حوار الكلاب " يقول فيها :

" كل فرد من المورسكيين هدفه الحصول على المال والمحافظة عليه ومن أجل الوصول الى ذلك يعملون ولا يأكلون ويحرصون على إدخال الريال (ربع بيزته وهو مبلغ بسيط جدا) فى حوزتهم ... يكسبون دائما ولا ينفقون قط ، يجمعون ويكدسون أكبر كمية من المال الموجود فى أسبانيا ، هذا المال هو ديدنهم ، الكل يصل إليه ويخفيه قل أو كثر ، يسرقوننا بأقدام ثابتة ، ويحصلون على ثمار مزارعنا ، ويبيعونها لنا من الباطن ، فيصبحون أغنياء ... " .

المورسكيون الذين يقصدهم الأديب الكبير قبل أى شئ : الغرناطيون المطرودين والمشتتون فى مناطق قشتالة والكثيرون منهم يعملون بالتجارة ، وهناك أصداء عند كتاب معاصرين حول الضرر الذى سببه غيابهم ، مثلا : " كابريرودى قرطبة "(١) لفت الأنظار الى البلية التى حدثت فى " أراجون " بسبب نقص ستة ملايين كانت عبارة عن ضرائب مفروضة على المورسكيين . وإذا كان البعض قد بالغ فى عدد المنفيين فإن هناك من بالغ فى الخراب الذى مثله لأسبانيا ، ومن الحقائق أنه حتى من أيدوا اخراج المورسكيين ، لا ينكرون آثار ذلك ونتائجه ، لهذا فإن موقف المؤرخ " إيرل خ هاملتون " يوجب ضرورة التوقف عنده ، فقد انطلق من دراساته للأسعار فى أسبانيا خلال القرن السادس عشر الى فكرة يصر عليها هى أن عدد المورسكيين لابد أن يكون أقل بكثير مما يقال ، وأن أهميتهم الإقتصادية ليست كبيرة ، لأنه بعد سنة ١٦٠٩ لم يظهر الغلاء

1- Relaciones de la corte de España, P. 408 Madrid 1857'.

الفجائى الذى لابد أن يكون قد نتج عن غياب جمهور كبير من العاملين المجدين ، وقد أيد هذه النظرية ـ كما هى ـ " جون . ث سالير " يقول " هاملتون " المؤلفون الذين كتبوا ابتداء من القرن السابع عشر أمثال ليا . أوراتون ، أنسياكس ،كولميرو .. اعتبروا بالاجماع الكامل تقريبا ـ أن طرد المورسكيين هو السبب الجوهرى للتدهور الأسبانى ، ومن الصعب أن نفهم أن عنصرا محروما الى حد كبير من فرص التعليم ومن المزايا الإجتماعية ومن الحريات المدنية ، والمساواه أمام القانون ، أمكنه أن يكون القسم الأكثر شهرة فى الأمة الأسبانية " ، ويرى ذلك المؤرخ أننا إذا تأملنا استقرار الأسعار فى العشر سنوات السابقة على الطرد ، أمكننا أن نرفض أن يكون طرد المورسكيين هو السبب الرئيسى فى التدهور الإقتصادي ، ويشير الى مذكرة شائعة صدرت عن مجلس قشتالة سنة ١٦١٩ لا تذكر نفى المسلمين المنصرين بين أسباب الإضطراب الإقتصادى ، وينتهى مؤكدا إن إخراج المورسكيين لم يخرب حقول الأرز فى بلنسية ، ولا صناعة السكر فى غرناطة ولا أشجار الكرم الأسبانى ولا نظام الرى الصناعى (١)

ولكن باحثا آخرا هو " خ . كاسى " حطم رأى " هاملتون " الذى اعتمد على ثبات الأسعار بعد سنة ١٦٠٩ ، وقال انه اعتمد على المدينة

1- Earl J. Hamilton: El florecimiento de capitalismo y otros ensayos, P. 124'.

A. Dominguez ortiz: obra citoda, P. 202'.

وقد أشار فى التعليق رقم ٥ فى نفس الصفحة إلا أن المؤلف قد كرر رأيه فى البحث الذى قدمه لمؤتمر تاريخ الأندلس الأول ، وانظر أيضا :

John C. Salyer: la importancia economic de los moriscos en Espana ("Anales de economia, IX, 1949 ").

فيما أخذ من أسعار وربما كانت المدنية أقل تأثرا ، لكن الإجراء أثر على بعض المدن وعلى النواحى الأخرى بصورة خطيرة ، على أن نظرية " هاملتون " سقطت من أساسها عندما برهن الباحث الفرنسى " لابيرى " على أن الفاقد الإنسانى المترتب على مرسومى ١٦٠٩ ، ١٦١٠ وصل الى ٣٠٠ ألف نسمة وهذه النسبة تمثل ٤٪ من من السكان الأسبان ، وهذه النسبة المئوية تبدو ضئيلة ، ولكن إذا عرفنا أن عنصر السكان الموركسيين كان عنصرا فعالا نشطا ، ولم يكن بينهم نبلاء ولا صعاليك ولا جنود ولا رهبان ولا متشردين ولا متسولين ، أدركنا أن فاعليتهم كانت كبيرة ، كتب " الونسوفيرناندث " - مؤرخ بلاسنثيا - انه لا مكان بينهم لمن يتسول ، ولا يمثلون نسبة عالية فقط بين السكان النشطين بل العمل والميل للحرفة عادة عندهم ، وهذا كله تعززه شهادات معاصرين من نفس الفترة.

فمثلا قام الألمانى " مونتز " بزيارة لأسبانيا بعد سقوط غرناطة فى أيدى المسيحيين بفترة قليلة وترك لنا رواية تتضمن ملاحظات جيدة : لاحظ عند عبوره نهر أراجون أن ٦٠ موريسكيا يعيشون فى مكان لا يمكن أن يعيش فيه إلا ١٥ مسيحيا ، لأنهم يجيدون الرى والأعمال الزراعية الأخرى ، وهم قانعون فى طعامهم وأغنياء جدا فى الباطن " ، بعد ذلك تمكن اليسوعى " بدرو دى ليون " من جمع معلومات وذكريات عن الموركسيين القدماء فى منطقة البشرات وهو وإن لم يتمكن من رؤية الجماعة الموركسية نفسها بصورة مباشرة ، إلا أنه استطاع أن يعقد مقارنة بين ما جمعه وبين النتائج الرسمية لاعادة التوطين وانتهى الى نتيجة مؤداها : رغم أن السلطات الرسمية قد أعطت ثروة ثلاثة أو أربعة موركسيين لفرد واحد من السكان الجدد ، إلا أنهم يموتون جوعا ، لأنهم لا يعملون مثلما كان يعمل هؤلاء الموركسيون "(١)

. 1- Vea se: A. D. ortiz: la historia ... P. 203'

فى الجانب المقابل لنظرية هاملتون نجد نظرية " بيرى شاونو " الذى يرى فى نفى الموريسكيين واحدا من عوامل ضياع التجارة الأسبانية فى المحيط الأطلسى وبوارها فى طريق الهند ، وربما كان فى هذا أيضا مبالغة، لأن الوجود الموريسكى كان يتمركز فى بعض الأماكن ، وكان فى أماكن أخرى قليلا وربما منعدما ، ولذلك ليس صحيحا أن يقال إن النفى الموريسكى قد انعكست آثاره على كل جوانب الاقتصاد الأسبانى ، فالإقتصاد الإقليمى كان قائما ، ولذلك تأثرت بعض الأقاليم بصورة ملحوظة ، بينما كان تأثر أقاليم أخرى محدودا ، مع ذلك فقد ترتب على ذلك النفى(١) إخلاء ضيعات وقرى كثيرة ، وانخفضت الضرائب نتيجة لذلك ، وتضاءلت الصفقات وتضررت التجارة ،لأن الموريسكيين كانوا تجارا يكسبون من الصفقات ويشتغلون فى عقدها كما يعملون فى زراعة الأرض ولذلك نرى أن قشتالة قد تدهورت تماما بعد عقود من السنين (١)، وقد كتب الفرنسيسكان " فراى خوان دى سولاتا " عن أمراض أسبانيا ، ولم ينس أن يذكر طرد الموريسكيين سنة ١٦٠٩ ، ويقول إنه إجراء فرضه التدين ، ولكن غيابهم مثل نقصا ملحوظا ، حتى أن ملاك المزارع لم يجدوا من يزرعها ومرت البلاد بفقر ملحوظ " (٢)

1- Pierre chaunu : Minorites et conjoncture. L'expulsion des Morisques en 1609'
(" Revue Historique" N. 457 - 81 - 98 .)

ولمعلومات أكثر يحيل صاحب المقال على الجزء الثامن من كتاب له عنوانه :

- Sevilla et l' atlatique "

وانظر مرجع أنطونيو دومنجيث السابق ص ٢٠٣ .

2- Bibliotica nacional, Madrid. MS. 2471 (Folios 89 - 193) tratado 30'
. A.D. ortiz : Historia ... P. 204'

إن وثائق مجلس أراجون تتضمن إشارات وفيرة لإقليمين أساسيين تضررا بطرد المورسكيين هما بلنسية وأراجون ، وليس من الممكن انكار جد المسلمين المنصرين وحرصهم على العمل والإنتاج و أنه لا يمكن فى الآن نفسه تقرير أنهم وحدهم يشكلون الطبقات المنتجة فى البلاد ، نعم ، لقد بقيت الأراضى قاحلة وغير منتجة إلا أنه أمكن زرعها بعد فترة قلت أو كثرت ، ولفترة طويلة تأثرت كثيرمن الأقاليم بهذا الإجراء ، وعانت بلنسية وارجوان منه بصورة عميقة ملحوظة.ومن المنطقي أن يكون لهذا الاجراء أصداء على مجموع الإقتصاد الأسبانى ، خاصة عندما اضطرت لخوض غمار الحروب اعتبارا من سنة ١٦٣٥ .

ومن الضرورى أن نعرف الوضع الإجتماعى للمورسكيين فى مملكة أراجون فهم إما عبيد خاضعون للإقطاعيين أو مزارعون فى مزارع وضياع السادة الكبار أو فلاحون أحرارا فى بقية البلاد بالمنطقة (١) ، والمشكلة التى تلح عليها الوثائق هى أن كثيرا من المسلمين في بلاد النصارى وكثيرا من سادة العبيد المورسكيين ، كانت لديهم أراض مرهونة ، وبطرد هؤلاء المورسكيين لم تستوف الفوائد على هذه الأراضى ، وهذا سبب خراب الدائنين ، هذه المسألة لم تكن معروفة عند قدامى المؤرخين فلم يعطوها الإهتمام الكافى الذى تستحقه ، ولو أمكن القيام بإعادة تعمير المناطق التى أخلاها المسلمون المنصرون فى الحال ، لكان الضرر بسيطا ، لكن هذا التعمير كان بطيئا وصعبا ، والنتيجة التى ترتبت على ذلك هى أن الصعوبات تراكمت ونشأت المشاكل التى عاونت على غرق الإقتصاد الأسبانى فى مملكتى أراجون وبلنسية ، وكان رأس هذه المشاكل نفى المورسكيين ، يعرض الدكتور " كاسانويا " أسقف " سيجورى " هذه

1- P. Boronat: los moriscos españoles, 11, P. 39'

المشكلة على الملك فيقول " الآن وبمناسبة طرد هؤلاء الشريرين من الناس ، ينتهزون - يقصد الملاك - الفرصة ولا يريدون دفع الضرائب العينية ، البعض يقول ، لأنه لا يوجد مسلمون فى بلاد النصارى ، ويحاولون أن يثبطوا ، والبعض الآخر يقول : ليس عندى عبيد ؛ ولهذا فقد فقدت دخلى ، وهؤلاء وأولئك لا يريدون دفع الضرائب العينية (١) .

وقد أعطى بعض المعاصرين لطرد المورسكيين اهتماما للنتائج التى يسببها نفى هذه المجموعة النشطة من البلاد خاصة الجوانب الإقتصادية ، لقد جاءت الفقرة التالية ضمن رسالة موجهة من مطران بلنسية - ريبيرا - الى الملك فيليب الثالث مؤرخة ١٩ ديسمبر سنة ١٩٠٨ أى قبيل تنفيذ الطرد :

" المدن والأماكن الكبيرة تعتمد فى مؤونتها على ما يجلبه هؤلاء المورسكيون ، الكنائس وأديرة الرهبان والراهبات والجمعيات الدينية والمستشفيات .. . النبلاء والفرسان والمواطنون وكل من هم ضروريون فى البلاد للحكومة والخدمات الروحية والدنيوية ، هم جميعا يعتمدون على خدمات المورسكيين ، ويستفيدون من الضرائب التى فرضوها وأسلافهم على أماكن هؤلاء ، وهكذا نرى أنهم عاجزون عن إمكانية الحياة بدون هؤلاء (٢) .

وفى مرسوم لفيليب الرابع صادر بمدريد فى ٢٨ سبتمبر سنة ١٦٢٢ نرى التأكيدات التالية :

" إذا نظرنا الى الجامعات والمدن والأماكن الصغيرة ونواحى المملكة ، فإننا سنرى شيئا مشتركا ومتيقنا منه ، هو الضرر الذى لحق بها

1- P. Boronat: los moriscos españoles, 11, P. 234-237.'

2- P. Boronat : obra citada, 11, P. 500 - 503'

-- J. regla : estudios ... P. 228'

بسبب نفى المورسكيين ، فقد خرج من هذه البلاد كثير من الشخصيات التى عاشت فيها وعمرتها وأصبحت صحراء خالية بعد خروج المورسكيين ، وبسبب نقص السكان فى قسم كبير منها ، فإن الإيرادات فيها نقصت بشكل ملحوظ (١) وفى واقعية كاملة كتب " رامون كارندى " يقول القسوة الكبرى التى بمقتضاها وضعت ماكينات الغزل تحت الرقابة ، خلال حكم كارلوس الخامس ، فى المنطقة الريفية العامرة بالمورسكيين ، تلك القسوة كان وراءها عداء الإكليروس والعادات ، ولم تكبحها المصالح المترتبة على هذه الصناعة التقليدية الممتازة ، لقد كانت تنقصنا السياسة القادرة على إبعاد الهوى والميل وتقدير الحسابات ووزن العلاقة بين الحاكم والمحكوم فى مملكة قشتالة . (٢) ونفس الشيئ يؤكده " بورونات " حين يقرر :

" إنكار أن طرد المورسكيين الأسبان كانت له نتائج مشؤومة على النظام الإقتصادى ، يساوى فى مجموعه احساسنا بانكار ماهو بديهى (٣)

وقد أبرز" بنياس مى " الأهمية الكبرى لاحصاء القروض المضمونة فى أسبانيا ، وأكد أن نتائجها كانت فضائح بالنسبة لصغار الفلاحين فى القرن السابع عشر ، فالذى لا يستطيع دفع الفوائد المتزايدة على الأموال التى اقترضها بضمان ضياعه ، كان يرى نفسه مضطرا للتنازل عنها لدائنيه وهؤلاء بدورهم ما كانوا يستطيعون زراعتها ، فتركوها قفرا ، وفى سنة

1- Janera, Florencio : Condicíon social de moriscos en España, sausa de su expulsíon y consecuencia que este produjo en el orden politico y economico, P. 367, Madrid 1857'.

2-Ramon carande : Gobernantes y gobrnados en la hacienda de castilla (1536'- 1556) Arbor, XVIII, 1951, P. 195. Reproducido en siete estudios de historia de España, Barclona 1969'.

. J. regla. Estudios ... P. 123'

3- P. Boronat: Los moriscos ... 11, P. 313'

١٦١١ كان هناك أكثر من مائة مليون تستخدم فى القروض ، وكان المقرض أو الدائن قد أصبح هو الإنسان الذى يعـيش " بالكـوبون " كما نقول اليوم (١)، فالقروض المضمونة برهن كانت سببا فى خطورة النتائج التى ترتبت على نفى الموسكيين بصورة ملحوظة ، وأكثر الأماكن تأثرا بذلك كانت بلنسية واراجون ، فقد عاونت على خراب المزارعين الصغار . . . ومع انتشار الديون لم تؤد الأرض ما عليها من فوائد وضرائب مما سبب خراب المقرضين (٢) وإذا عرفنا أن نصف السكان المورسكيين كانوا يعيشون فى بلنسية وارجوان ، يعنى ٢٥٠ ألف نسمة منهم ١٧٠ ألف نسمة فى بلنسية ، ٧٠ ألف فى أراجوان وعشرة آلاف فى قطالونيا ، يعنى ما يعادل ٢٠٪ الى ٢٥٪ من إجمالى السكان الذى يمكن تقديره بمليون ومأتى الف نسمة فى بداية القرن السابع عشر كل ذلك،وفقا لإحصاء سنة ١٦١٤. إذا عرفنا ذلك أدركنا ماترتب من نتائج على إخلاء البلاد من هذا العنصر الفعال .

وإذا وضعنا فى الإعتبار أن المورسكيين المطرودين كانوا فلاحين وعبيداً للأرستقراطية الثرية جدا ، فإنه من المنطقى أن تكـون الزراعة هى النشاط الإقتصادى الذى عانى بدرجة عالية من جراء هذا الإجراء ، إن مؤرخاً معاصرا لهذا الطرد هو " اسكولاند " يصف منظر بلنسية الحزين والتى تحولت الى صحراء جافة لايهتم بها أحد بعد أن كان الإقليم الأكثر ازدهارا، لقد عانت المحاصيل الرئيسية وهى قصب السكر والأرز والقمح من ضربة قاسية ، لقد احتل قصب السكر والأرز المكانة الأولى بين المحاصيل منذ

1- Vinas Mey : El problema de la tierra de España en los siglos
-- XVI y XVII, PP. 32 y ss, Madrid 1942'.
-- J. regla: Estudios ... P. 124'.
2- J . regla : Estudios ... P. 224'.

الفتح الإسلامى ، وتأخر الكرم والزيتون ، وابتداء من القرن ١٧ وحتى منتصف القرن ١٨ تأثر قصب السكر كثيرا بسبب طرد الموريسكيين وبسبب منافسة السكر البرتغالي والأمريكي ، كما تأثرت صناعة الحرير ، لقد كان طرد الموريسكيين ضربة عنيفة جدا لقصب السكر والأرز ، وقد اضطر الملك أن يمنع تصدير الأرز لأنه الزاد الضروري والمفيد جدا والأكثر اعتدالا فى سعره والأكثرمناسبة للفقراء ، وقد سجل " براوديل " أنه قبل طرد الموريسكيين كانت هناك زيادة فى انتاج الأرز سمحت بتصدير القمح ، ولكن يكفى أن نشير أنه ابتداء من سنة ١٦٠٩ أصبح القمح من المحاصيل الرئيسية المستوردة من "سردينيا" نتيجة لفقر الحقل البلنسى .

وكان لطرد الموريسكيين علاقة بالصراع بين الزراعة ورعى الماشية ، فقد كانوا شهودا لصالح المزارعين فى الدعاوى التى لها علاقة بامتداد الزراعة داخل حقول رعى الماشية ، وكان الموريسكيون هم أول من حرث لأول مرة المساحات المحفوظة لرعاة الماشية " لهذا من الممكن أن يكون تأثير رعاة الماشية على الملكية الأسبانية أحد الأسباب التى من أجلها كان الطرد " لقد ترك ذلك الطرد آثاره على الأراضى الزراعية وعلى طريقة تقسيمها ، كما ساعد على خراب الطبقات الوسطى ، لقد ألحق طرد الموريسكيين إضرارا ملحوظة بالأوضاع الإقتصادية فى مملكة "بلنسية" التى فقدت سيطرتها على "أراجوان"، وأصبحت تلك السيطرة "لقطالونيا" وكانت الهيمنة لبلنسية ابتداء من منتصف القرن الخامس عشر (١) .

وكانت نسبة الموريسكيين نسبة ضئيلة فى مملكة قشتالة ، فهم لم يتعدوا ٥٢٠ ألف نسمة من إجمالى السكان البالغ سبعة ملايين نسمة (١)

1- P. Boronat: los moriscos ... 11, P. 329'

-- Braudel , (Fernand) : La mediterrance .. 1, P. 205, 504'.

-- J. regla : Estudios ... PP. 235 - 243'.

ومع ذلك فقد كان تأثير طردهم ملحوظا لما تميزوا به من جد ونشاط ومهارة وفاعلية فى كثير من جوانب الحياة فى المجتمع .

وقد أبرزت البحوث الحديثة أن القروض فى مملكة اراجون ، قد ارتفعت بصورة سريعة جدا منذ منتصف القرن الرابع عشر ، وأنها كان لها أهمية كبرى فى زمن الملـوك المسيحيين وملوك مملكة أو منطقة اســـتوريا (Las Asturias) ، وقد أمدنا " اجناثيو دى اسو " بملحوظات جوهرية عن هذه المملكة ، يقول : " إنه فى القرن الخامس عشر كانت إيرادات المملكة بدائية ، وتعودت أن تعتمد على إيرادات الجمارك والأشياء العامة حتى يمكن أن تقوم بأداء ما عليها من خدمات . . . وفى سنة ١٦١٠ وبسبب طرد المورسكيين ، فإن معظم أراضى المملكة بقيت بلا سكان ، خاصة أراضى الأقطاع التى كانت تفرض عليها ضرائب متنوعة . . . وقد أصبح مستحيلا على السكان القلائل الباقين أن يدفعوا ذلك ، وترتب على هذا الأمر مشاكل ودعاوى ونوقش الوضع حتى فى جلسات للبرلمان . . . (١)

وربما كان فى بيانات الولاة المرسلة إلى فيليب الثالث ، إشارة إلي ما ترتب على نفى المورسكيين من ردود أفعال فى مملكتي بلنسية وأراجون ففى ١٨ مايو سنة ١٦١٠ ، كتب والى بلنسية يقول " بمراقبة ١٠٠ منزل للمورسكيين ، لمعرفة كم منهم تحول إلى مسيحى قديم ، فربما لم يزد العدد عن ٣٠ أو ٤٠ ، وانى أؤكد لصاحب الجلالة أنه ليس فى إمكانى أن أتحدث بكلمات عن الحالة الصعبة التي تمر بها هذه المملكة " لأن القسم الأكبر يعيشون على فوائد القروض ، وما حصّلوا شيئا ، وليس فى

1- I gnacio de asso : historía de la economia politica de Aragon,
-- P.241, Zaragoza, spain 1947'.
-- J. regla : Estudios ... P. 124'.

إستطاعتهم أن يجمعوا مبالغ منها لا مع Execuciones ولا بدونها ، والذين يحدث معهم ذلك ليسوا السادة أو الجماعات فقط ، بل حتى الأفراد ، لا يمكنهم الدفع لأنهم لا يجنون ثماراً . . . " (١) ، وفى ٢٢ يونيو سنة ١٦١٠ أبلغ والى اراجون الملك فيليب الثالث بما يلى :-

" إن سادة العبيد خسروا كثيرا بسبب خروج المورسكيين ، وبرغم أن هذا لا يمثل صعوبات ، فإن الآلام كبيرة ، وقد بدأت تظهر مشاكل مقلقة تتعلق بدفع الفوائد المفروضة على أماكن المورسكيين ، لأن السيد الذى يملك ٢٠ ألف " دوكادوس " يفقد منها ستة عشر الف ، ولايبقى له إلاّ أربعة ألاف ، ويدفع فوائد قروض مقدارها ١٢ ألف فى كل سنة . . . إن أصحاب الديون يريدون تحصيل أموالهم كاملة ، وسادة العبيد لا يمكنهم أن يدفعوا لهم ، ولابد أن يبقى لديهم شيء للأكل . . . وهكذا يحملون على ماهو مستحيل . . . والمشكلة ليست فى الممتلكات فحسب بل وفى الأشخاص الذين يحاولون وضعهم فى سجن لن يخرجوا منه أبداً ، لأنه ليس عندهم ما يدفعونه ، أنهم بائسون ومنكوبون . . . وهكذا نشأت قلاقل وعداوات . . . وإذا لم تتخذ اجراءات مناسبة ، فإن تلك المملكة لن تصبح محطمة والناس فيها بلا ممتلكات فحسب ، بل ستخسر وترجع القهقرى ، وستحمل كل جماعة السلاح ضد الأخرى ، لأن الدائنين كثيرون وليس عندهم مصدر آخر لما يلزمهم من نفقات . . . (٢)

ويصف " بوورونات " حالة مملكة بلنسية بعد إخراج المسلمين منها بهذه الكلمات :-

---

نقلا عـن : 1- A.C.A. y C.A. 221, V, 9'.
-- J. regla. Estudios ... P. 125, 229'.

ذكـر ذلك : 2- A.C.A. y C. A . 221 , 11, 18'
-- J. regla: obra citada. PP. 184, 185'.

" لقد كانت هناك مشكلة اقتصادية حقيقية ، لكنها لم تكن عميقة كما يظن ، لقد عانت الثروة الملكية معاناة ليست بالقليلة ، كما عانى السادة ، وقد عوض بعضهم ، كذلك عانى المقرضون برهون ، وكان الجزء الأكبر من هذه الديون يخص الجمعيات الدينية ، كذلك عانى آخرون ، فمحكمة التفتيش فقدت إيرادتها ورأسمالها الذى كان يأتيها منذ القديم عن طريق المصادرات وأشياء قانونية أخرى كان تتفق مع قوانين المملكة ، لقد عانى الجميع ابتداء من الملك حتى آخر عبد " لأن المشكلة كانت عميقة . . . وبعد الطرد واجهت المزارع الأميرية صعوبات أقل من غيرها ، فقد وجد بها الفلاحون ، ولم يكن الوضع كذلك بالنسبة لأراضى السادة أصحاب الأقطاع ، الشيء الذى جعل مؤرخ بلنسية " جاسيبير اسكولانو " يقول : الحقيقة الكاملة أن اقليم بلنسية - أكثر الأقاليم خصوبة فى أسبانيا - بقي صحراء مجدبة ، وفقد بهاءه بسبب طرد المورسكيين " (١)

فنفس المشاكل التى نشأت عن طرد المورسكيين فى أراجون ، نشأت فى بلنسية ، لكن بصورة أشد خطورة ، لأن هؤلاء ما كانوا يمثلون فقط سدس السكان ، كما هو الحال فى أراجون ، بل كانوا ثلث السكان ، فالتدهور الشديد بسبب طرد المسلمين المنصرين لاجدال فيه ، لكن الخلاف فى تصنيفه ، هل كان أمرا خطيرا فقط أو كان يمثل كارثة ؟ ان النتائج التى ترتبت على ذلك الإجراء لا ينكرها أحد حتى أشد الناس تأييدا لذلك النفى ، فالبطريك " ريبيرا " مثلا يكتب إلى الملك قبل الطرد بعام قائلا : " إن آثار الطرد ستكون خطيرة بالنسبة لمملكة بلنسية " ومع ذلك فقد آثر الفقر على الهرطقة والالحاد ، لقد هبطت ايرادات صناعة الحرير من ٧٠ ألف إلى ٥٠ ألف دوقية وفقا " لكابريرو دي قرطبة " ، كما انخفضت

1- P. Boranot: los moriscos ... 11, PP. 329 - 335'.

الإيرادات فى " اوريلا وسيجوزى " ، وكذلك ايرادات محاكم التفتيش والمؤسسات الدينية ، كل ذلك تأثر بالطرد ، وكل طبقات المملكة عانت بسبب غيابهم ، فقد كانوا الجماعة الأكثر عمقاً ونشاطاً ، وكانت تقع عليهم أعباء كبيرة . . . (١)

وعندما تأكد المورسكيون من مرسوم النفى الذى يتخذ ضدهم ، أسرعوا ببيع ممتلكاتهم وقايضوا أثمانها بذهب وحلى ، أى أنهم اشتروا بما معهم من عملات ذهبا وحليا ، واتخذوا لأنفسهم دارسكة سرية فى مكان خفى ، ضربوا فيها عملات مزيفة ، صنعوها بكميات وفيرة وروجوها فى الأسواق ، ولكى يقضى على هذه العملة اضطرت مدينة " جانديا " فيما بعد أن تستدين خمسين ألف " دوكادوس " ، واستغلت الفترة من صدور مرسوم النفى وحتى رحيل المورسكيين ، حيث باع هؤلاء ممتلكاتهم المنقولة وحبوبهم وفرسانهم بأسعار منخفضة جدا "(٢)

وكانت دوقية " جانديا " هي الأكثر تأثراً بطرد المورسكيين ، فقد خرج منها ١٣ ألف شخص ، تم تعويضهم عن طريق زيادة الأسر المسيحية التى زادت عن ١٢٧٨ أسرة سنة ١٦١٠ وأصبحت ١٦٧٤ سنة ١٦٤٦ ، وكانت الدوقية من أكثر الأماكن غنى فى أسبانيا وبرغم أن " هاملتون " يؤكد أنه لا محصول السكر ولا محصور الأرز عانى نتيجة للطرد إلا أنه ثابت بالدليل إن زراعة قصب السكر التي كانت مصدرا كبيرا للثروة فى

1- P. Boronat: obcra citada 11, P. 503'.

Janer : condicíon social de los moriscos, opendice 96'.

- Alvaro castillo : Laco y untura de la economío valenciana en el siglo XVI y XVII (
(" anuaria de historia economica y social" 11)

-- A. Dominguez ortiz: Historia ... PP. 214, 215'.

2- P.Boronat:los moriscos...11, P200

دوقية " جانديا " وغيرها قد عانت من ضريبة قاسية جدا (١) .

لقد اثقلت الديون كاهل دوقية " جانديا " حيث ارتفعت إلى ٥٤٦٦٦٣ جنيها ، وصلت فوائدها ومستلزماتها إلى ٥٣ ألف جنيه ، وازداد الحال سوءاً سنة بعد أخرى . وكان السكان الجدد الذين وصلوا من اقليم بلنسية فى معظمهم إما حرفيون أرادوا أن يتحولوا إلى عاملين وإما عاملون تطلعوا إلى تحسين مستواهم ، وهؤلاء لم ترق لهم قري الموريسكيين وكان هناك ٤٥٣ قرية بقيت منها ٢٠٥ قرية خالية فى مناطق جبليه حتى سنة ١٦٣٨ ، أما ال ٢٤٨ الأخرى فقد عمرها ١٣٧٠٠ أسرة مسيحية ، وقد أراد الاقطاعيون معاملة هؤلاء بنفس الاسلوب الذى عاملوا به الموريسكيين ، متناسين العوامل النفسية والإقتصادية التى تفرق بين الجماعتين ، فالموريسكيون أقلية مضطهدة سلسلة ، تقدم خدمات وتضمن سداد ديون السيد صاحب الاقطاع ، ولم يكن المسحيون كذلك ، وما حدث فى مناطق الاقطاعيين ، حدث فى ضيعات الأديرة ، وعندنا مثل من اقطاع " مورو " كتب عنه " مومبلاتش " سنة ١٦٠١ يقول : " ما لم نكن رأينا فى الوثائق القضائية مضايقات الاقطاعى لرعاياه ، ما اعتقدنا ذلك " لقد تضاعفت عليهم الضرائب ، وفرض عليهم تزويد السيد بالدجاج والفرسان بثمن منخفض ، وكان عليهم أن يحملوا له الحطب مجانا ، وأن يشيدوا له قصرا وأن يبنوا له ســـورا . . . وفى سنة ١٦٠٩ كـــان الوضع أكثر سوءا . . . (٢) لقد وصل سعر كيل الغلال في " جانديا " إلى عشرة سويلدوس (العملة فى بلنسية) على الأقل ووصل سعر الحصان الصغير

1- A. Dominguez ortiz: Historia de los moriscos ... P. 216'

2- A. Dominguez ortiz : Historia de los moriscos ... P. 218 y ss

والبغل والبقرة إلى ثمانية ريالات بلنسيّة وكانت المشكلة الكبرى هى تلك العملة المزيفة التى قام الموركسيون بتصنيعها .

وقد أصدر الوالي مرسوما نشر فى ١٥ أكتوبر سنة ١٦٠٩ حرم بمقتضاه الشراء والبيع أو تبادل العملة ، وقد أبلغ مجلس " اراجون " الملك بوجود عملة وفيرة مزفية في الأقاليم التابعة لعرشه ، وفى ٢٣ أكتوبر سنة ١٦٠٩ عرض بطريرك بلنسية على فيليب الثالث الصعوبة الخطيرة التى نشأت فى المملكة بسبب حمل الموركسيين لمبالغ وفيرة من المال معهم ، وتقدر هذه المبالغ فى رأى المعتدلين بحوالى أربعة ملايين ، ويقول البعض أنها أكبر من هذا المبلغ (١) .

وقد طرح البطريرك " ريبرا " مشكلة الديون المضمونة برهن بالصورة الآتية : " نقطتان يمكن ملاحظاتهما فى نظام الديون الموركسية : الأولي تتعلق بالديون التى ينبغى أن يدفعها هؤلاء ، والثانية تتعلق بالديون التى تدفع لهم ، فيما يتعلق بالنقطة الأولى فإن المبالغ يجب أن تكون مرضية للدائنين رغم أن الموركسيين الذين كانوا قد استفادوا منها أكثر ، قد غادروا البلاد ، وكان التساهل معهم مطروحا إزاء هذه الضرورة إلا أنه كان على صاحب الجلالة أن يعمل على تحقيق رضى الدائنين ، وفيما يتعلق بالنقطة الأخرى فقد أعلن أن ممتلكات الموركسين التي كانت اذّ ذاك في حوزة السادة أو شخصيات أخرى ، فإنها تستخدم فى السداد للمقرضين ، الذين منحوا قروضا من قبل لمسلمين ، ويرتب هؤلاء حسب درجات أسبقية ديونهم " (٢)

1- P. Boronat: Los moriscos ... 11, PP. 200, 201 y 223'.

2- P. Boronat: Los moriscos ... 11, PP. 223, 224'.

وهناك قضية مهمة ترتبط بالمسألة السابقة ، هى قضية الحصيلة الاقتصادية للأراضى التي تركها الموريسكيون ، لقد أريد حلها من خلال مرسوم ملكي صدر بمدريد فى ٩ نوفمبر سنة ١٦٠٩ واضعاً فى الاعتبار أن بعض البارونات وملاك الأماكن التى امتلكها الموريسكيون فى مملكة بلنسية لم يجرؤا على بذرها واستزراعها ، خاصة السكان الجدد ، فقد كانوا يخشون من أنه عندما تنضج ثمارها ويحين وقت حصادها ، سوف يتم الحجر عليها ، ويحتلها الدائنون أو الأشخاص الذين رهنت هذه الأراضى لصالحهم ، وقد استمرت هذه المشكلة قائمة حتى بسنة ١٦٤٥ ، فقد رفع برلمان هذه المملكة إلى الملك تقريرا يقول : انه توجد آلاف كثيرة من الأراضى الجيدة التربة للغاية ، وأنها قفر بلا زراعة ، ولا تؤجر ولا تباع بسبب الخوف من الديون الكثيرة والقروض المضروبة عليها ، ومن المفيد أن تزرع تلك الأراضى وما يماثلها ويستفيد من عائدها الملاك والدائنون.. (١)

أضف لهذا أن كثيرا من الملاك والبارونات المذكورين ، كانوا يرغبون فى ألا تستقر أوضاع هذه الأراضى لأهداف خاصة بهم ، وحتى يبرروا بهذا عدم دفع ما عليهم من ديون ، لذلك منح المرسوم المشار إليه آنفاً الملاك مهلة مقدارها عشرة أيام يبذرون الأرض خلالها أو يسمحون لآخرين بزراعتها لحسابهم . وإذا لم يفعلوا ذلك فإن الدائنين برهنها يمكنهم أن يفعلوا ذلك . . . وقد مضت الأيام العشرة واستمرت الأرض جرداء بدون بذر كما كانت ، ولهذا أذاع نفس الوالى بيانا فى ١٥ ديسمبر سنة ١٦٠٩ كرر فيه المطالبة والسماح بزراعة الأرض ، ويعلـــق علـــى ذلك " بورونات " بقوله : "إننا لم نعدم فالحين لهذه الأرض ، لكن المشكلة تأتي

1- Danvila: la expulsion de los moriscos ... PP. 333 - 339'

-- Boronat: Los moriscos ... 11, PP. 611 - 636'

-- A . Dominguez ortiz : Historia ... PP. 221, 222'.

من السادة الذين يطلبون من السكان الجدد ضرائب عالية ، نفس الضرائب التى كان يدفعها عبيدهم القدامى ، وهذا ما فجر المشكلة (١) .

وهناك بيان هام صدر عن مطران بلنسية مؤرخ ٨ يوليو سنة ١٦٩٣ يقدم معلومات عن تلك القروض المضمونة برهن ابتداء من اعادة التعمير ، وقد جاء فيه إن الملك اعترف بالضرر الخطير الذى عاناه ملاك الأراضى والأماكن بسبب طرد الموريسكيين ، وقد قدم لهم هبة تعوضهم عما فقدوه (٢)

وقد ترتب على نفى الموريسكيين كذلك مشكلة غذائية ، أمكن التغلب عليها جزئيا بفضل التسهيلات التي قدمها والى "سردينيا" لاستيراد القمح من جزيرته ، ثم سمح بعد ذلك فى سنة ١٦١٤ باستيراد كميات كبيرة من القمح والخمور من مملكة قشتالة (٣) .

وفى ٦ مايو سنة ١٦١٤ أمر فيليب الثالث سفيره فى روما أن يطلب من البابا الحصول علي التصريح المناسب كي تتعاون الجمعيات الدينية مع المسئولين عن الضرائب عن طريق تقديم تسهيلات خلال عشرة أعوام ، وتقدم الوثيقة أسبابا خمسة لهذا الطلب منها أن البلاد أصبحت منهكة حاليا وقد كانت قوية ومزدهرة فى الزمن السابق ، وأننا فى حاجة إلى توفير المال لاستيراد القمح الذي نشتريه من بلاد بعيدة وبأسعار عالية جدا ، ثم طرد الموريسكيين الذي ترتبت عليه أضرار خطيرة ، والعملة الكثيرة المزيفة والمصنوعة من جلد الحيوان والتى أردنا سحبها من التداول

1- Los moriscos ... 11, PP. 238, 239, 564 - 568'

2- P. Boronat: obra Citada. 11, PP : 369 - 373'.

3- P. Boronat: obra citada. 11, P. 346'

-- A. Dominguez: Historia - P. 217'

تحقيقاً للمصلحة العامة ، وأخيرا قلة الودائع وكثرة سحب الأموال أو ما يمكن أن يسمى بالإفلاس البنكى الذى يعنى أن الناس لا محالة يحتاجون إلى استهلاك مدخراتهم وإنفاق ايراداتهم العادية (١) .

وفى ٢٥ ديسمبر سنة ١٦١٠ صدر قرار من المجلس الملكى ببلنسية يتعلق بتعمير المملكة ، ويتحدث بالحاح عن الأضرار الخطيرة التى سببها طرد المسلمين المنصرين ، ويطلب من كل السادة أن يعمروا الأماكن بأقصى ما يستطيعون فى مدة لا تتجاوز ستة أشهر ، ويطلب من السكان الجدد أن يتعهدوا بالبقاء فى هذه الأراضى مدة لا تقل عن أربعة أعوام ، ويصرّ أن تدفع نسبة ٥٪ من الديون (٢) .

ليس هذا فقط بل قد تضررت بعض الأنشطة الصناعية والتجارية فى مملكة " بلنسية " بخروج هؤلاء الموركسيين ، خاصة صناعة الأحذية والمصنوعات الجلدية ، وها هو " ريبيرا " يتساءل من سيصنع لنا أحذيتنا ؟ وقد رفع صناع هذه المنتجات أسعار بضاعتهم بصورة ملحوظة سنة ١٦٠٩ : العام الذى أكره فيه المسلمون على الخروج ، حتى اضطرت البلدية أن تحدد الأسعار وهددت المخالفين بعقوبات مالية كبيرة (٣) .

وفى سنة ١٦٣٨ يعنى بعد طرد الموركسيين بتسعة وعشرين عاما ، وصلت الينا مذكرة مرفوعة لفيليب الرابع من قائد احدى الوحدات

1- P. Boronat : Los moriscos ... 11, P. 346'.

2- A.C.A y C.A. 221, V, 7' نقلا عـن :

3- J. regla: Estudios sobre los moriscos, P. 136'.

-- Jacinto comara: Estudios demograficos sobre la industeria en

-- Elche, P. 25, Alicante 1958'.

-- Braudel: La mediterrnee, 1, P. 640'.

-- J. regla ; Estudios ... P. 238'.

العسكرية بمملكة بلنسية (١) ، تتضمن بعض التفصيلات المهمة عن نتائج اخراج المسلمين المنصرين :

قبل الطــــرد :

المورسكيون		المسيحيون القدامى	
عدد المنازل	عدد السكان	عدد المنازل	عدد السكان
٢٨٧٠٠	٤٥٣ ألف	٦٣٧٠٠	٣٠٢ ألف

باستثناء مدينة بلنسية،والأجمالى هو ٩٢٤٠٠ منزلا ، ٧٥٥ الف نسمة .

بعد الطــــرد :

عدد المنازل	عدد السكان
٥٠ ألف فى المملكة بالإضافة الى ٢٠ ألف فى المدينة والقرى أو الضواحى المجاورة	٥٥٠ ألف

ومن هذا نستنتج أنه فى ١٦٣٨ فانه وجدت هناك ٢٤٨ قرية عمرها المسيحيون بعد أن أخلاها المورسكيون (٥٥٠-٣٠٢) وأن هناك ٢٠٥ قرية بقيت مهجورة -٧٦٦-٥٥٠) وأن إعادة التعمير تسببت فى

1- E. asenso: Estudios de historía moderna, IV, Barcelona 1954'. : نشــــرها

هجرات مهمة بين سكان المملكة ، ذلك أن هناك ١٣٧٠٠ منزلا للمسيحيين القدامى بقيت مهجورة (٦٣٧٠٠ - ٥٠٠٠٠ = ١٣٧٠٠).

وهناك مؤلف عاصر للطرد من جماعة " الدومينكان " إسمه " فونسيكا " يؤكد أن كثيرا من العمال النشطين قد تركوا مهنهم وتحولوا الى مزارعين ، ونبرز بصفة خاصة حالة الحائكين (الخياطين) (١) ولقد ترتب على إخراج المسلمين المنصرين انخفاض فى خدمات المستشفيات والجمعيات جميعا حتى أصحاب الألقاب والسادة والفرسان والمواطنون خسروا كثيرا بسبب نقص دخل الديون وغير ذلك ، لقد أصبح الناس يبحثون عن وسائل - حتى لو لم تكن مشروعة - من أجل الحصول على القوت (٢) وباختصار يمكن أن يقال إن طرد سنة ١٦٠٩ بالنسبة لبلنسية إن لم يكن كارثة ، فقد كان عائقا كبيرا وخطيرا ، عانى من نتائجه كثير من أصحاب الإقطاع والمؤجرين والفرسان ورجال الدين ، ومؤسسات كانت قد وضعت رأسمالها فى الإحتكارات والقروض (٣)

كل هذا يتعلق بمملكة " بلنسية " ، أما مملكة " أراجون " فإن تقرير " الماركيز دي ايتونا " (٤) يقدم لنا صورة واضحة عنها ، وهناك أيضا وثيقة اعتمدت على شهادة الجغرافيى البرتغالبي " لا بنيا " ، الذى تجول في البلاد بعد طرد المسلمين المنصرين بفترة وجيزة . كتب "إجناثيو دى

1- Fonseca: Justa expulsion de los moriscos de España, Roma 1612'.

إعتمادا على :

- Lapeyre : Geographie, PP. 67 y ss

-- J. regla : estudios ... P. 230'.

2- J. regla : estudios ... PP. 138, 139'.

3- A. Dominguez ortiz : la historia ... P. 222'.

4- A.C.A.CA. 221, V. 12' هذا التقرير موجود فى :

-- Estudios ... Doumento N. 4' ونشره " خوان رجلا " فى كتابه

أسو " يقول : الجدير بالذكر أن طرد الموريسكيين الذى تم سنة ١٦١٠ تقريبا قد أخرج من المملكة ٦٤ ألف شخص كلهم ماهر ومنتج . لقد تكلم " خوان باوتستا لا بنيا " - الذى طاف كل اقليم اراجون بين سنتى ٦١٣ ، ٦١٤ ، لرسم خريطة جغرافية - تكلم مرات عديدة عن الدمار المفزع الذى شاهده فى أماكن عديدة بالمملكة فى الرواية المخطوطة الخاصة برحلته والتى شاهدت نسختها الأصلية فى ليدن " ، ويؤكد هذا الرحالة أن ١٢ ألف موريسكى عبروا من ميناء " كان فرانث " وأن كل واحد منهم دفع ١٢ ريالا كما خرج من " لويخارس " أكثر من عشرة آلاف ، وبقى فيها فقط ١٦ نسمة ، وكان يوجد فى " ميداس " ٧٠٠ انخفضوا إلى ٨٠ ، وبقى فى "الفامن " ثلاثة أشخاص من أصل ١٢٠ موريسكى كانوا بهذا المكان ، وفى " كالاته " بقى ١٠٠ فقط من اجمالى ٣٠٠ ، ومثل هذا حدث فى أماكن أخرى (١)

وقد لفت " الماركيز دى ايتونا " النظر فى ٣٠ مايو سنة ١٦١٠ إلى الانخفاض الهائل فى الأسعار والذى قاست منه ملكية الأراضى ، بسبب العرض الكثير والمال القليل ، فبخروج الموريسكيين انخفضت أسعار كل الممتلكات والمنازل . . . ولم يكن هناك إقبال على الشراء ، فهناك أراضى وفيرة بلا ملاك ، وهناك أفراد قليلون ونقود أقل . . . ولهذا بيعت ممتلكات كثيرة بخمس السعر الذى تستحقه (٢) وقد تعقدت المسألة أكثر عندما أصدر اسقف "سرقطة" مرسوما مؤرخا ٣٠ يونيو سنة ١٦١٠ ، يأمر فيه بدفع عشر كل محصول أراضى الموريسكيين التى كانت معفاة من

1- Ignacio de Asso : Historia de la economia politica de A ragon, P. 205'

-- J. regla : Estudios ... P. 142'

2- J. regla. obra citada, P. 142 , y Documento N. 4, PP. 174 - 175' ACA, CA, 221', V , 6'

دفعه حتى هذا التاريخ ، وقد أبلغ الوالى الماركيز دى ايتونا ذلك للملك فى الحال بعبارات مؤثرة " كل من فى هذه المدينة يشعرون بذلك بكل قوة ، يستوى فى ذلك صغار الملاك وأصحاب الديون ، لأنه يشمل الجميع ، فالعشر تدفعه كل الأراضى ، وستكون ايرادات هذه الأماكن قليلة ، مع أنه لابدّ أن تعمر ، أى أن الضرر سيكون عاماً بين ملاك العبيد وأصحاب الديون . . . لقد تمّ الطرد مع هدوء ، والآن لقد اضطربت الهمم ، ولن ترتاح إلا إذا الغيت اجراءات الأسقف فى الوقف الحاضر . . . " وواضح من هذا أن الدخول قد تأثرت بطرد هؤلاء الموريسكيين ، أما محاكم التفتيش فى اراجون وبلنسية ، فقد طلبت التعويض المناسب ؛ لما لحق بها من أضرار بسبب نفي المسلمين المنصرين ، ووفقا للبيان المرسل إلى مجلس " اراجون " فإن قضاة التفتيش فى سرقطة قدروا الخسارة السنوية بمبلغ ٤٣٥٩٣ ريال وقدّر قضاة بلنسية خسائرهم بـ ٣٥٥٨ جنيها ، وقد أمر الملك بتعويضهم من ممتلكات الموريسكيين المصادرة (١) .

أما ممتلكات الموريسكيين التى صودرت لصالح الثروة الملكية فـــى " أراجون " فقد اشتملت على ١٤٣٠ منزلا وعقارا ، بالإضافة إلى ممتلكات أخرى ، وقد وصلت إلى الملك رسالة فى ٢ يناير ينة ١٦١١ ، تخبره أن ممتلكات الموريسكيين الذين بقوا فى اراجون وبلنسية وقطالونيا كثيرة جدا ، وقد قام الخبراء بتقدير هذه الممتلكات بـ ٤٧١٥٣٣ جنيها وخمسة " سويلدوس " (الجنيه = ١٠ ريال) ، كما قدرت ممتلكاتهم فـــى " بورخا " و " تورتوس " من ٢٥٠٠ إلى ٣٠٠٠ دوكادوس ، ودخلها السنوى ١٥٠ دوكادوس (٢) .

1- Estudios ... Documento N. 9. P. 190'.

وقد نشر ذلك خوان رجلا فى كتابه :

2- P. Boronat: Los mariscos ... PP. 667 - 672'

وكان الموريسكيون فى اراجون - كما سبق - ٧٠ ألف ، يشكلون بين سدس وسبع إجمالى السكان ، لكن توزعهم كان بلا نظام ، فهم يتجمعـون على امـتداد نهر " الابرو " وروافده . ويـرى " لابيرى " أنه كانت هناك منطقة تمتد بعمق أربعين كيلو مترا جنوبى نهر الابرو ، بقيت خرابا (١) ، وقد طاف الجغرافى البرتغالى " لا بانيا " السابق الاشارة إليه بهذه المنطقة (٢) ، ولاحظ أن اقطاعات " الماركيز دى كاما راسا " هى أكثر المناطق معاناة ، وأنه لم يبق بها إلا ستة عشر منزلا بسبب رحيل ألف موريسكي ، وكان فى " بورخا " ٣٠٠ أسرة من أصل ٨٠٠ كانوا بها ومثلها غيرها ، الشيء الذى ترتب عليه كثير من الضعف والفقر .

ان الأراضى الزراعية الخصبة هى أكثر الأشياء تضررا ، وقد كان التراجع الاقتصادى أكثر بروزا فى المحاصيل الزراعية ، مثل : الكَرْم الذى يتطلب وفرة فى الأيدى العاملة ، ولأن كل الموريسكيين تقريبا ، كانوا يعيشون فى مناطق إقطاع ، فإن السادة الأقطاعيين كانو من أكثر الناس تضررا . ويلاحظ " بيرى بونسوت " ارتباط المشكلة الزراعية الأراجونية بالتقاليد التاريخية والاجتماعية فى هذه المملكة ، حيث تعيش مجموعتان مختلفتان عنصريا ، كل منهما لا تختلط بالأخرى ، الموريسكيون تخصصوا فى زراعة أراضى الرى ، وأجادوا جوانب فنية لا يعرف المسيحيون تفاصيلها وتميزوا بالدقة ، وعندما تركوا البلاد انخفضت المحاصيل ووقع

1- Lapeyre : Geographie ... P. 212'.

2- Juan . B. Labana : Itinerario de Reyno de Aragon, a donde andou os ultimos meses de anno de 1610 e os primeiros- de 1611. zoragoza España. 1895'.

-- A. Dominguez ortiz: Historia ... P. 211'.

التدهور ، ويذكر المؤرخون أنه حتى نهاية القرن ١٨ (١) فإن المسيحيين لم يدركوا النواحى الفنية ، وكانوا يضعون بذور القمح فى كل مكان بصرف النظر عن طبيعة الأرض ، وكان من الصعب على المستوطنين الذين قدموا من الجبال أو من أراضي تعتمد على المطر أن يفهموا كيفية زراعة الأراضى التى اعتمدت فى نسبة عالية منها على المورسكيين ، وقد تحدث المؤلفون عن ازدهار القري زمن المسلمين وكيف اصبحت فقيرة جدا بعد ذهابهم ، وكان على المورسكيين أن يدفعوا ضرائب متنوعة وباهظة ، ورّثوها من جاء بعدهم ، لقد كانوا بدفعون لسيد الاقطاع خمس حبوب المزارع وسدس حبوب الجبل ، وسدس القُنب والكتان والفول والفاصوليا والفواكه الجافة ، وثمن محثول العنب والزّيتون ، وكانوا يكرهون على عصر الزيتون فى معصرة صاحب الاقطاع ، ويدفعون على ذلك أجرا قيمته ٣ ٪ تقريبا ، كذلك كان عليهم أن يسلمواسدس الخضار الذى لا يستخدمونه فى الاستهلاك ، وكان على المورسكى أن يدفع مكيالاً من القمح ، كما كان السيد يحصل على دجاجتين من كل منزل ، ويؤجر مراعى الجبل للقرية مقابل عشرة جنيهات . وهذا كله يمكن أن يعّد قمةً فى الحلم ، إذا قورن بقرى أخرى لأصحاب اقطاع آخرين أكثر تشددا ، وقد أمكن للسادة الاقطاعيين ، ذوي الحظوة لدى الملك ، الحصول علي تعويضات عن الأضرار التي لحقتهم بسبب نفى المسلمين المنصرين ، مثلا دوق " بيا ارموسا " رفع مذكرة إلى الملك سنة ١٦١٣ عرض فيها الأضرار التي جرت

1- Ponsot (Picrre) : Les morisques, la culture irriguee de blcct le probleme de la dcc-adance de l'agriculture espagnole

-- au XVII, eme, Siccle " Melanges dc la casa dc velazqucz, VII, 1971',

-- PP. 237 - 262'.

ذكـــره

-- A.D. ortiz : Historia dc los moriscos ... P. 211'.

لاقطاعاته ، فحصل على ضياع كانت للموريسكيين ، ودفع له العرش ٤٠٠٠ جنيها سنة ١٦٢١ ، ثم حصل علي ٣٠٠٠ سنويا ابتداء من سنة ١٦٤٦ .

وقد ظن مجلس ارجون أن اجراء سنة ١٦١٠ لن يترك آثارا على إيرادات اسقفية سرقطة ، لأنها لا تحصل عشورا من الموريسكيين ، لكن بعد ذلك بخمس سنتوات اعترف بانخفاض الإيرادات إلى ٣٦ ألف بعد أن كانت ٦٠ ألف جنيه ، وقد حصلت محكمة التفتيش على تعويض مقداره ٤٧١٥٣٣ من الممتلكات الموريسكية المصادرة فى "أراجون وطرطوشة"، وعانت الطبقة الوسطى أكثر من غيرها " لأنها كانت تستثمر أموالها فى إيجارات واحتكارات عن أصحاب الاقطاع ، وكان يقع على كاهل الموريسكيين عبء دفع الفوائد بصورة تضامنية ، فلما نفى المسلمون المنصرون ، أعلن سادة الاقطاع عجزهم عن سداد الديون وما عليها من فوائد (١) .

أما فى قطالونيا فقد منح الوالى فى ٣٠ مايو سنة ١٦١٠ سلطات كاملة لمسئول الخاصة الملكية ، وفوض فى التصرف فى ممتلكات الموريسكيين بعد رحيلهم (٢) وبسبب قلة العنصر الموريسكيى فى قطالونيا ، ولأنهم كانوا يتمركزون على ضفاف نهرى " سجر " و " ابرى " ، فإن النتائج الاقتصادية لطردالموريسكيين كانت محدودة ، وكان الوالى " ماركيز

1- JorseMaría Lacarra: Aragon en el passado, 193 - 194'

وانظر فى كل ذلك

A.Dominguez ortiz : Historia, PP. 210 - 214'.

2- ACA, CA. 208, 3' نقلا عن :

J. regla. Estudios ... Doucmento 8, PP. 187 - 189'

دى ايتونا " هو الأكثر تضررا بين أصحاب الأراضى الواسعة (١) .

وترتب على نفى المورسكيين فى ذلك الإقليم اغلاق المصانع والورش ، وتضاؤل الزاعة والرى ، وانخفاض الأجور بنسبة ٢٥ ٪ وفرضت ضرائب جديدة على العناصر المنتجة . وكان على الجماهير أن تصبر على ما آلت إليه أحوالها . . أما طبقة النبلاء التى اتحدت لحما ودما فقد حشدت ممتلكات واسعة وتضخمت ايراداتها ، فطرد المورسكيين خلق فراغا لم يكن من السهل تعويضه ، وترتب عليه اختلال عنصرى المجتمع الاسبانى . . وقد شغل عمال فرنسا قسماً كبيرا من المزارع التى تركها المورسكيون ، وتحملت الطبقة البرجوازية جزءا كبيرا من الأضرار التى عانت منها ارستقراطية الأراضى من خلال انخفاض أو ضياع ايرادات الديون ، وكان من الضرورى أن يترك افلاس البنوك فى بلنسية صداه على قوة اقتصاد قطالونيا خاصة فى اللحظات الحرجة (٢)

وبالنسبة لقشتالة ، فإن النكبات التى مرت بها تلك البلاد يعزى إلى غياب المورسكيين إلاّ أن آثار هذا الاجراء يمكن الاحساس بها أكثر فى المناطق والقرى التى كون هؤلاء فيها أغلبية ، ومع ذلك فلم تسجل الوثائق شكاوى من بلدية اشبيلية ، برغم نقص سبعة آلاف شخص كانوايمثلون نسبة ٦ ٪ من اجمالى السكان لم يترك غيابهم صدى على اقتصاد المدنية ، وفى مدن أخرى أقل صغرا ، كان الصدى أكبر بكثير ، ففى سنة ١٦٢٣

1- ACA, reg . 4893. Fol. 206 - 207'.

المرجع السابق ، الوثيقة العاشرة ص ١٩١-١٩٢

2- J. regla : Estudios ... PP. 151 - 152'

- Braudel : La Mediterrance ... P. 328'

وانظر عن نتائج طر المورسكيين فى قطالونيا وإعادة تعمير أماكنهم :

-- Francisco sevilleno : La villa de oropesa (castellon 1953).

أعلن المجمع الديرانى فى مدينة شيوداد ريال (المدينة الملكية) أن منازل السكان قلت بمقدار ألف منزل ، وأنهم كلهم تقريبا كانوا من الفقراء ، ومع طرد المورسكيين خرج خمسة آلاف شخص ، كانوا هم الأكثر تعاونا فى المسائل الضرورية ، وكانوا يقدمون الزاد والمؤونة (١) .

وقد أعلن نائب طليطلة فى برلمان سنة ١٦١٧ أنه من المستحيل عليه دفع ضريبة المكوس بسبب طرد ثلاثة آلاف مورسكى ، كان الكثيرون منهم رجال أعمال ، ولهم تجارات متنوعة ، وقد اعتمد على هذا أيضا فى تخفيض ضرائب " ابيلا " سنة ١٦١٢ ، ونجد شكاوى بسبب نفى المورسكيين فى العديد من القرى والضياع ، (٢) ، ويزعم " الونسوكانو " - اعمالا لنظرية نقاء الدم - أن اجداده من ناحية النسب ، قد قدموا إلى غرناطة من " بيّا روبليدو " لأن هذه المدينة كانت قد أخليت من سكانها بسبب طرد المورسكيين (٣) ، وهناك مؤرخ من " بايثا " (٤) يعدد أسباب تدهورها فيذكر من بينها نفى المورسكيين الذين كان يعمل عدد كبير منهم فى الفنادق ، وفى دثيا (سوريا) نقص كثير من الضرائب الواجب دفعها سنة ١٦١٤ " لنقص القسم الأكبر من سكانها بسبب طرد المورسكيين ، وفى سنة ١٦٥٤تعرضت لمشكلة جديدة فلم يكن قد بقى بها إلا ١٠٦منزلا

1- Delegado Merchān: Historia dc ciudad Real, capitulo VIII

-- caNla Rhna phillips : the Moriscos expulsion Form castile ver extract en New . letters " Mayo de 1975, PP. 52 - 54'

ذكرها -- A. Dominguez ortiz : La historia , P. 205'

2- Archivo generál de simancas. C J H . 1425'

ذكره نفس المرجع والموضع السابق :

نشره : 3-Don Manuel Casares en " Varia Velazquena ".

4- Cozar: Noticias y documentos para la historia de Baeza, . capitulo XIV - Jaen 1884'

ذكـــره أيضا أنطونيو دومنجيث أورتيث فى نفس المرجع والموضع المشار اليه آنفا :

، ١٧ساكن ، وضاع فيها ... ير من ثروات المور..كيين ، وفى " بتكنرثينا " من محافظة " توريخيو " وجد ٢٢٥ منزلا سنة ١٥٩١ ، ولكن خروج المورسكيين منها جعلها مقفرة تماما ، الشىء الذى ترتب عليه نقص حصتها السنوية من الخدمات من ١١١ ألف مرابطى إلي ٨٠ ألف ، وفى ١٦٧٠ استمر النقص فقد كانت حالتها أكثر بؤسا (١)

أما فى " مرسية " فقد كانت الآثار أكثر خطورة ، سواء فى العاصمة أو فى القسم الأكبر من المناطق الريفية ، وما أن طرد المورسكيون حتى بدأت شكاوى المدينة وممثليها فى البرلمان : المدينة طلبت تخفيضا فى ضرائب الخدمة ، لأنها فقدت ألف منزل ، ولأنها لم تعد ترسل إلى بلنسية ثمانية أو تسعة آلاف مورسكى تعودوا أن يذهبوا إليها كل سنة للعمل فى حقول وصناعة الحرير ، وهؤلاء هو الذين كانوا يدفعون ضرائب الخدمة العادية وغير العادية ويسببون ازدهار التجارة فى المدينة والمملكة ، أما الآن فلا يمكن دفع الضرائب وبرغم هذه الشكاوى فقد تم طرد آخر المسلمين المنصرين من "وادى ريكوتى " كما سبقت الاشارة ، وفى سنة ١٦٧٠ قال نائب من مرسية فى البرلمان " أن نقص الأسر فى العاصمة بلغ ٩٧٠ أسرة وأن هذا كان له أثره على محصول الحرير ، لكونهم رجال عمل ، ويفهمون صناعة الحرير بصورة جيدة جدا ، لقد أخلوا ٢٢ مكانا فى منطقة مرسية ، وستنتهى بالدمار ما لم تمنع دخول الحراير الأجنبية (٢) .

وأنه لمنطقى أن تعانى مملكة غرناطة أكثر من أى مملكة أخرى من نتائج طرد المورسكيين ، لأنه لم تكن نسبتهم عالية فى أى مكان مثلما

نقلا عن :
1- Archivo general de simancas, CJH. legajo. 1400'
-- A. Dominguez ortiz : La historia ... P. 206'.

ذكره المرجع السابق فى نفس الموضع :
2- Actes XXX, 344'.

كانت عالية فى غرناطة . إن نقص إيرادات " الاكليروس " الذى كان يعتمد عليه بصورة أساسية فى تحصيل عشر انتاج الزراعة والرى ، شيء معروف من خلال وثائق تاريخية ، وهى تخبرنا عن تأثيرات متنوعة وفقا للنواحى ، وكانت أعلى التأثيرات السلبية فى الشرق (آلمرية) وأقلها فى الغرب (مالقة) ، وقد تأثرت ايرادات المرية كثيرا ، فقد كتب المجمع الديرانى سنة ١٦٠٩ مذكرة توضح أن هذا البلد قد أصبح خرابا ، لكونه كله كان من المورسكيين ، ثم أعيد توطينه بأناس تأهيلهم سيء وليست لديهم رغبة فى العمل ، وأنه اليوم فى حاجة كبرى فبسبب قحط السنين افتقد هذا البلد كثيرا من سكانه تاركين الأرض والعقارات مهجورة ، وقد استمرت نفس الشكوى بعد ذلك بكثير ، فقد أخبرت " فرنسيسكات آلمرية " مجلس السكان سنة ١٥٨٤ أنهن بقين فقيرات حتى إن راهبتين منها ماتتا من الجوع ، حدث ذلك بعد مرور ١٦ سنة على الثورة الغرناطية وأكثر من ١٢ سنة على بدء اعادة التعمير ، وقد كان هذا التعمير بطيئا وغير كاف وبقيت نتائجه غير فعالة حتى الثمانينات من نفس القرن السادس عشر ، بسبب المشكلة الزراعية (١) ، نفس الشيء حدث فى دوائر أخري مثل آلمرية وقادش ، وكذلك فى " اوخيخر " بقلب جبل البشرات وغيرها .

وبرغم وصول أكثر من عشرة آلاف أسرة من "مرسية" واقليم "لامنشا" وغيرهما ، بهدف اعادة توطين الأندلس ، فإن الجمالى سكان المملكة انخفض من ٢٧٥ ألف مواطن سنة ١٥٦١ إلى ٢١٥ ألف سنة ١٥٩١ وكان هناك حوالى ١٣٠ قرية وناحية من اجمالى ٤٠٠ كان

1- A.Dominguez ortiz: La historia ... PP 206 , 207'

وفيها إشارات إلى بعض الوثائق الموجودة بدور المحفوظات والمؤكدة لما فى الأصل .

سكانها جميعا أو أغلبهم من المورسكيين كلها بقيت مهجورة خاصة فى منطقةالبشرات ، كما هُجِرت مناطق آخرى كثيرة فى المرية ، وهناك قرى اختفت تماما وإن بقى فى مواقعها عدد كبير ممن بقوا على قيد الحياة . وليست الكنائس وحدها هى التى تحطمت أو بقيت فى حالة سيئة جدا ، لكن الطواحين والأفران والمنازل أيضا ، كما افتقدت الأشجار المثمرة فى كثير من المواقع وتأثر كل اقتصاد الاقليم بالحرب . ثم بعد ذلك حرب العصابات التى حملت الفرق المتصارعة أن تبقى فى البلاد حتى لا تموت جوعا ، بالإضافة إلى أن الجيوش المسيحية حاولت ، خاصة فى الشهور الأخيرة من الحرب ، أن تمنع المورسكيين من تموين قواتهم ، وكانت لابّد من رد فعل من جانب هؤلا ، فبقيت المملكة خرابا ، وهناك أمثلة أخرى تبرهن على ذلك مثلا حالة الدير فى ماركيزية " ثنيتى " وحالة الطاحونة والكرم وبعض أشجار التوت وكثير من أشجار القَسْطل ، كل ذلك أصبح خرابا وفى " الميخيخرا " و " نوتايث " من قرى البشرات ، خربت أربعة طواحين للدقيق وطاحونة للزيت واحترق ربع أشجار الزيتون فى " كاْخار " وهى قرية فى غوطة غرناطة ، وتهدم ١٤ منزلا من بين ٤٤ كان يسكنها مورسكيون ، وكانت الثلاثون الأخرى فى حاجة إلى إصلاحات كبيرة ، ولك أن تتخيل خيبة الأمل التي قاسى منها من كان عليهم إعادة تعمير الإقليم فى ظل ظروف اقتصادية بالغة السوء بسبب طرد المورسكيين (١)

وكما قلنا من قبل فإن الجزء الغربى من مملكة غرناطة كانت

1- B. Vincent : Un Modele de decadence : La royaume de Grande Dans le dernier tiers du XVI Siecla (actas de las I Jornadas de Metodologia aplicada a las ciencias historicas " tomo III,Santiago de Compostela, 1976)

وانظـــر أيضا :

-- La Historia de los Moriscos , P. 208'.

معاناته أقل بكثير ، وفى قرى مالقه ، أعيد التعمير بلا صعوبات اللهم إلا الجانب الزراعى ، حيث فشلت حالات كثيرة ، وقد منح مرسومان ملكيان فى ٢٤ فبراير سنة ١٥٧٠ ، ٢٨ سبتمبر سنة ١٥٧١ ، منزلا وأرضا زراعية لكل مستوطن جديد ، مقابل جزء صغير من المحصول، لكن الآلاف الذين اختيروا لهذه العملية لم يصل منهم إلا القليل ، ومن وصل وصل مريضا منهكا ، ومات منهم عدد كبير فى المستشفيات .

وقد توصل " بنثنتى " فى البحث الذى أجراه حول الموطن الأصلى لعشرة آلاف مهاجر ، إلى أن معظمهم كانوا اندلسيين واستقروا فى مالقة وغرناطة ، ليمكنهم التجوال مستفيدين من المسافات القصيرة بين المواطن ، يأتى بعدهم من قدموا من إقليم " لامتشا " ثم القادمين من بلنسية ومرسية وهؤلاء استقروا فى القسم الشرقى من المملكة ، يأتى بعد هؤلاء من بقى على قيد الحياة ممن جاءوا من "جليقية"، أما القادمون من أقاليم أخري فكانوا ندرة ، وهذا الانتقال إلى مسافات بعيدة ثم الاستقرار فى بلد مدّمر لم يكن يغرى إلا البؤساء أو المغامرين الذين وصفوا أكثر من مرة بأنهم غثاء اسبانيا . وعندما استقر هؤلاء فى مملكة غرناطة ، لم تتوقف مشاكلهم ، ذلك أنه بالإضافة إلى حالة الخراب فى الإقليم ، فإنه كان عليهم أن يصارعوا العادات السيئة لدى السلطات المحلية التي تعودت على تسخير المورسكيين ، وحاولوا فعل الشىء نفسه مع من حلوا محلهم ، وكان عليهم أن يدخلوا فى حسباتهم خطر القرصنة من الخارج ، ولصوصية المنفيين من الداخل ، ولهذا لم يكن غريبا أن كثيرا ممّن جاءوا لإعادة التعمير ، قد خمدت عزائمهم ، وتركوا المهمة ، ومن هنا كانت إعادة التعمير بطيئة جدا (١) .

١- أنظر المرجعين السابقين .

وإذا أردنا أن نعرض النتائج الديموجرافية وما يتعلق بالإحصائيات والنتائج الاقتصادية التي ترتبت على نفي المسلمين جميعا من كل اراضي اسبانيا في الفترة من ١٦٠٩ - ١٦١٤ امكننا أن نقرر مطمئنين أن حالة الاضطراب والقلق قد سيطرت على الأقاليم المختلفة . لقد كثرت الشكاوى من ندرة الأيدى العاملة وغلاء الأجور ، وأخذ العمل الحرفى أهمية كبرى ، وقد وصل عدد العبيد والأيدى العاملة الأجنبية إلى أقصى مستوى له فى هذا التاريخ ، وبعض المهن التي تخصص فيها المورسكيون عانت بشكل خاص من غيابهم ، لقد رأينا " مرسية " تشكو من تدهور صناعة الحرير ، لأن شجرة التوت قد نقصت فى كثير ن المناطق ، وحدث الشيء نفسه فى مهن وحرف أخرى ، ويلاحظ هذا بصفة خاصة فى مهنة النقل عن طريق البغال ، وهى المهنة المفضّلة لدى الغرناطيين الذين تشتتوا فى اقاليم قشتالة ، ويقول " بدرو لويث دي رينو " إن تكاليف النقل قد ارتفعت بسبب نقص خمسة آلاف مورسكى كـــانوا يعملون فى هذه المهنة مستخدمين البـــغال (١) .

اخفاء وتزييف العملة كان من بين النتائج المهمة المترتبة على الطرد ، وقد أصبحت العملة نادرة بسبب الكميات العظيمة التى أخرجها المورسكيون بطريقة قانونية وغير قانونية ، فقد كان مصرحاً لهم بإخراج جزء من المال والمجوهرات ، ووفقا لبيانات " البرو كاستيو " فقد ضربت قشتالة فى القترة من ١٦٠٨ إلى ١٦١٣ ، ٥٠١٥٢٧ مارك من النحاس (المارك = نصف جنية يعنى ٢٣٠ جرام) ، وهذه الكمية الهائلة من العملة ازادادت بسبب المزورين الذين جذبهم الربح من الفرق بين القيمة

1- En su Memorial Ms . Bibliotica nocional N. 1092 , Folio 305'

أنظـــر :

A. Dominguez ortiz ; La Historia , P. 209 , Nota . N 23'.

الإسمية والقيمة الحقيقية للعملة النحاسية برغم أن العقوبات ضد المزورين كانت خطيرة ، وقد أخفى بعض المورسكيين كنوزهم حتى لا يستفيد منها العدو الكافر أو ربما على أمل كامن فى نفسه أن يعود يوما (١) وقد رجع عدد غير قليل من الفلاحين الذين هاجروا إلى افريقية وأحضروا مكتوبات بها معلومات عن الكنوز تتضمن اشارات إلي المواضع التى كانت مخبأة فيها ، نعم ، هناك بعض الأساطير والخرافات بهذا الصدد ، ولكن هناك أرضية من الحقيقة ، لقد أخفى المورسكيون كنوزا ، نفس الشيء فعلته من قبل ومن بعد فئات مضطهدة ، بل إن مرسوم ٢٤ فبراير سنة ١٥٧١ حول مصادرة ممتلكات المسلمين المنصرين يتحدث عن هذه المسألة ، ويذكر أن كميات من الذهب والفضة يصعب تقديرها ظلـت مفقـودة فى مملكة قشتالة (٢) ، ويمكن تلخيص ما سبق فى العبارات الموجزة الآتية :

نتائج نفي المسلمين المنصرين من الناحيتين الاقتصادية والديموجرافية ، فيما يتعلق بأسبانيا ككل يمكن أن تكون كما يلى :

لاشيء بالنسبة للأقاليم الشمالية من قشتالة ، ونتائج ملموسة محدودة فى عواصم ونواح معينة من باقى قشتالة ، ونتائج غير ملموسة فى قطالونيا ، ونتائج قاسية بالنسبة لأراجون ، ونتائج حادة بصورة واضحة فى مملكة بلنسية .

1- A. Dominguez ortiz : La Historia P. 210, 216'

ويشير فى تعليقاته بهاتين الصفحتين الى إهتمام المورسكيين بتزييف وإخفاء العملة فى أماكن سرية ببعض الأقاليم والى الدراسات العديدة التى عالجت هذه المسألة منها مثلا ما كتبه " Mateul Lopis من مقالات متعددة نشرت فى مجلة Numisma

2- Brigido ponce de Leon : Historia de Albendin , Madrid , 1960, P. 75'

وانظر أيضا :

أنطونيو دومنجيث أورتيث : تاريخ المورسكيين ص ٢١٠ ، والتعليق ٢٤ بنفس الصفحة .

لقد اعترف الكتاب منذ زمن فيليب الثالث بأنه إذا كان نفى الموركسيين مفيدا حقيقة من وجهة النظر السياسية والدينية ، فهو ضار إذا نظرنا إليه من الوجهة الاقتصادية والديموجرافية فهو سبب قفر وخراب اسبانيا ، مثلا يقول " فيرنانديث دى نابا ريتى " : " لقد طرد العديد من المسلمين واليهود أكثر من مرة ، انهم أعداء عقديتنا المقدسة الكاثوليكية ، فقد طرد من الأولين ثلاثة ملايين شخـــص ، وطـــــرد مليونان من الآخيرين " (١) والأرقام هنا غير دقيقة ، وذلك كان طابع العصر ، وهو يعنى جميع المطرودين ، وليس فقط من طردوا فى إللحظة الأخيرة ، وكان هذا هو الرأى الشائع ، ولكن مؤلفا آخر هو " سانشو دى مونكادا " يعترف بالتأثير الذي يمكن أن يكون الطرد قد أحدثه في مجالات التجارة والايرادات الملكية وفى تقدم الزراعة والفن ، ولكنه يرى أن نقص الإيرادات لا يرجع للطرد فحسب ، ويؤكد أن خروج الموركسيين قد عوضه عدد مساو من الأجانب . ومع ذلك فإن المسافرين الفرنسيين الذين زاروا اسبانيا فى زمن " فيليب الرابع " ذكروا أن فكرة الطرد لم تؤثر على المصالح الاقتصادية للبلاد فحسب ، بل كانت إجراء وحشياً وغير مهذب ، ويمتدحون فاعلية المسلمين المنصرين باعتبارهم فلاحين ممتازين (٢) . ورأى فلاسفة عصر النور المستمد من الوثائق والشهادات يمكن إيجازه فى عبارة الأديب الفرنسى " فولتير "

" الملك فيليب الثالث ، استطاع للأسف أن يطرد ستمائة أو

1- Fernandez de Navarrete : P. 150 , discurso VII, ذكـــره
-- J. Caro Baroja : Los Moriscos, P. 235'.
2- Villars, Memorias ... P. 5'
– Jose Carcia Mercadal, España Vista por los extran jeros II, P. 136' - '137
-- J. Caro barojo : Los Moriscos, P. 235', 236'. وما بها من تعليقات

سبعمائة ألف مسلم من بلاده ، وهو الذى لم يكن بإمكانه أن يتعامل مع عدد صغير من الهولنديين "

ومن الممكن تركيز نتائج نفى المسلمين المنصرين فى السطور التالية:-

لقد كان الطرد الضربة القاضية لرخاء اسبانيا ومواردها ، فانحط الانتاج الزراعى الذى برع فيه الموريسكيون ، وخربت الضياع الكبيرة بفقد الأيدى الماهرة ، وكسدت التجارة التى كات الموريسكيون من أنشط عناصرها ، وركدت ريح الصناعة ، وعفت كثير من الصناعات التى كان الموريسكيون أساتذتها وغاضت الفنون الرفيعة التس استأثروا بها منذ الدولة الإسلامية ، وأحدثت هذه العوامل بمرور الزمن نتائجها المخزية ، فتناقص عدد السكان وانكمشت المدن الكبيرة ، وذوى عمرانها وتضاءلت موارد الخزينة العامة ، وشلت جهود الاصلاح والتقدم ، ولم يمض على اخراج الموريسكيون زهاء قرن حتى أصبح سكان اسبانيا كلها ستة ملايين نسمة ، وكان سكان قشتالة وحدها أيام سقوط غرناطة سبعة ملايين ، وفقدت معظم المدن الكبرى مثل قرطبة واشبيلية وطليطلة وغرناطة أربعة أخماس سكانها ، وعم الفقر والخراب مئات المناطق والمدن ، وخيم على اسبانيا كلها جو من الفاقة والركود والانحلال ، لقد عمّ الدمار والبؤس والانحطاط وحرمت أسبانيا من الثروات العقلية والفنية والصناعية التى كانت تمتع بها الأمة الأندلسية .

وقد ظهرت هذه الآثار المخربة بالأخص في محيط الزراعة والصناعة ، وكان تدهور ايراد الضياع الكبيرة وايراد الكنائس والأديرة ، دليلا على ما أصاب قوة اسبانيا المنتجة الزراعية والصناعية ، بسبب نفى

طائفة كبيرة من أنشط طوائف السكان وأغزرهم انتاجا . . . وكان النبلاء والأحبار وأصحاب الضياع الكبيرة بوجه عام ، يعتمدون فى تعهد أراضيهم وفلاحتها على نشاط المورسكيين وبراعتهم ، فلما وقع النفى جمد النشاط الزراعى ، وخلت معظم الضياع من الزراع ، وأقفر كثير من القرى وهدمت بلاد كثيرة لخلوها من السكان ولا سيما فى مملكة بلنسية ، واضطر النبلاء إلى استجلاب العمال الزراعيين من جزر البليار الشرقية ومن انحاء غيرها ، ومع ذلك فقد حدث نقص ملحوظ فى غلات الضياع الكبيرة ، ولم يستفد اصحاب الأقطاع من استيلائهم على اراضى المسلمين التي صودرت وتعذر عليهم زراعتها وفلاحتها ، ووصل بهم الضيق إلى أن اضطر الملك إلى منح الكثيرين منهم نفقات أو تعويضات سنوية من أموال الخاصة الملكية ، هذا فضلا عما أصاب طوائف السكان الأخرى التى كانت لها صلات بالمورسكيين من عسر ما واجهته من مشكلات وضيق .

وليست فقط الكنائس والأديرة هى التى انحط دخلها ، بل إن التفتيش ومحاكمه قد خسرت كثيرا ، لأنه كان يعتمد فى مصادره على أموال المورسكيين ، ويصادر ممتلكاتهم ، ويوقع بهم الغرامات الشديدة ، واضطرت الحكومة إلى تعويض محاكم التفتيش كما سبقت الإشارة . . . وكانت أملاك المسلمين المنصرين وأراضيهم قد بيعت بمبالغ كبيرة استولي عليها العرش ، ووزع ريعها على الأحبار والوزراء والنبلاء .

وهناك مثل يقدم دليلا على ما أصاب اسبانيا من جراء النفى ، هو مدينة ثيوداد ريال (المدينة الملكية) فقد أسس " الفونسو العاشر " هذه المدينة فى القرن الثالث عشر ، ومنح سكانها شروطا مغرية شجعت كثيرا من المسلمين واليهود على النزوح إليها ، وفى سنة ١٢٩٠ وصل عدد دافعى الضرائب من اليهود فيها ٨٨٢٨ ، فلما أخرجوا منها سنة

١٤٩٢ حل محلهم الموريسكيون من عرناطة . ولما أخرج هؤلاء منها مع المدجنين القدماء ، خربت المدينة وانحطت زراعتها وتدهورت صناعة النسيج التي أدخلها الموريسكيون فيها ، وهبط عدد سكانها فى سنة ١٦٢١ إلى ٥٠٦٠ نسمة يعنى نحو ألف أسرة فقط ، فى حين أنها قبل نفى الموريسكيين كانت تضم اثنتى عشرة ألف أسرة .

وكان مما ترتب على نفى الموريسكيين أيضا ، ذيوع العملة الفضية الزائفة ، وقد ترك الموريسكيون منها كميات هائلة ، وكان لهم براعة فى صنعها ، وذاع هذا النقد الزائف ، وسبب اضطراباً شديداً فى المعاملات ، وحاولت الحكومة منعه وعاقبت عليه بعقوبات شديدة وصلت حدّ الإعدام ، ولكنها لم تفلح فى القضاء علي هذه الظاهرة الخطيرة التي دامت أعواما طوالا ، بل عمد الأسبان إلى التزييف بدورهم وعرضوا على المحاكم المختلفة وأوقعت بهم العقوبات وعانى التجار والشعب كله كثيرا ولحق بالناس ضرر بالغ (١) .

يقول " لى " : " أنه لا يمكن لفريق من السكان ، كان يعتمد عليه مدى القرون فى القيام بقسطٍ عظيم من الإنتاج والتنظيمات المالية للبلاد ، أن يمزق فجأة وينبذ دون أن يبث ذلك الخراب الواسع ويثير معتركا من المشاكل يمتد أثرها إلى أجيال مرهقة . . . وإنه لمن خواص السياسة الأسبانية ، أنه لم يفكر أحد فى هذه الشؤون ، ولم يحتط لها أحد فى المباحثات الطويلة التى جرت حول قضية الموريسكيين . وقد حدثت ثمة مناقشات لا نهاية لها حول مختلف المشاريع ومزاياها ، والوسائل التي ينفذ بها النفى ، وماذا يسمح به للمنفيين ، وماذا سيكون مصير الأطفال ،

1- J. Caro Baroja: Los Moriscos PP 216 v ss

وما بها من تعليقات

ولكن النتائج المحتملة تركت للمصادفة ، واحتقرت التفاصيل العملية ، واحتقر رخاء الفرد ، وهو ما يوضح فشل السياسة الأسبانية " (١)

وبعد ذلك كله من حق الباحث أن يعجب من جرأة السلطات الأسبانية فى اتخاذها هذا القرار المؤلم الفظيع ، رغم أن كثيرا من المسئولين كانوا على وعى بما قد يترتب عليه من نتائج بل إن المطـــــران " خوان ريبيرا " ، هو المحرك الأول وأحد المحرضين الرئيسين على نفى الموريسكيين ، قد أشار إلى خطورة نفى هذا العنصر الفعال ، وألمح إلى الآثار التي قد تترتب على ذلك . لقد عبر عن هذه الحقيقة - في رسالته إلى الملك قبل النفى بعام - فقال : " إن آثار الطرد ستكون خطيرة بالنسبة لمملكة بلنسية " ومع ذلك فقد آثر الفقر على الهرطقة والإلحاد ، (انظر ص٢٧٧ من هذا البحث) ، فهل اتخذ هذا القرار لدوافع سياسية كما يزعم البعض ولأن للمسلمين المنصرين اتصالات أجنبية تضر بسلامة الدولة وأمنها ؟ إن ما نسب إليهم فى هذا الصدد من اعداد مؤامرات تضر بالبلاد وتعرضها لمخاطر ، لم يكن أمرا حقيقيا ، ولم يكن الخطر داهما حتى نبرر به هذا الإجراء ، ومرة أخرى نقول نعم كانت هناك بعض المكاتبات والعلاقات الودية بين الموريسكيين فى بلنسية وبين المغاربة والأتراك ، وبين هؤلاء مع الفرنسيين ، لكن المسألة لم تكن بالجسامة التي صورها مؤيدو الطرد " ولم نقتنع بأن النصارى المحدثين (الموريسكيين) فى بلنسية كان لهم من القوة ، ما يمكن أن يثير مخاوف ذات شأن ، كما أنه لم يكن ثمة ما يثير المخاوف من جانب الموريسكيين فى اراجون ومرسية . . . وكذلك

1- Lea : the Moriscos, P. 387'.

وانظر :عن آثار نفى الموريسكيين أيضا :

عنان : نهاية الأندلس ٤١٢ - ٤١٦ وقد تلا ذلك مجموعة نصوص من أقوال كبار المؤرخين توضح موقف كل منها من هذا الإجراء وما ترتب عليه من آثار بين مؤيد ومعارض ، أنظر ص ٤١٧-٤٣٢

لم يكن المورسكيون فى قشتالة يعرفون التآمر أو يقدرون عليه . . إننا عندما لم نوفق إلى جعلهم نصارى واسبانيين . . . لجأنا بلا ضرورة إلى وسيلة افناء جيل برمته . متى ذكرنا ذلك فإننا لا نستطيع أن ننظر بعطف إلى مهارة فيليب الثالث والملوك الذين سبقوه ولا إلى حزمهم أو سياستهم " (١)

إن هذا الإجراء لم يكن له مبرر إلاّ ايثار فقر البلاد وتحطيمها وتخريب اقتصادها بل وإجاعة شعبها على رؤية هذه الفئة من الناس مصرة على إسلامها ، تأبى الإندماج فى مجتمع الأغلبية النصرانية المسيطرة ، بعد مرور أكثر من قرن على انتهاء الحكم الإسلامى فى شبه جزيرة ايبيريا كلها.فهم إما أن يكونوا كاثوليك وإما أن يغادروا البلاد حتى لو عانت تلك البلاد وخيّم عليها القلق والكآبة وتأثرت كل جوانب الحياة فيها ، وكأن السلطات الأسبانية تريد أن تقول " تؤثر البؤس والتأخر والشقاء على رؤية غير كاثوليكي على الأرض الأسبانية " .

وإذا كنا مقتنعين بوضع هؤلاء المسلمين المنصرين فى بلادهم ، ورأينا دورهم فى صنع نهضة وازدهار تلك البلاد ، فإن من حقنا أن نتساءل عن النشاطات التى مارسوها ، والمهن التى تخصصوا فيها ، والأعمال التي قاموا بها ، واستحقوا أن يكون لهم بها هذا الدور وتلك المكانة ؟ محاولة الإجابة على هذا التساؤل ، تعالجه الصفحات التاليات .

1- Modesto Lafuente : Historía general de España, Madrid, 1862, cap VIII, P. 211'-214'

الفصل السادس

ثروة ونشاطات ومهن
المسلمين المنصرين

يعتبر المسلم وفقا للرأى العام الذى يعكسه مؤرخو القرنين السادس عشر والسابع عشر ، مؤرخا ممتازا وفلكيا ماهرا ومعماريا عالما ، ومحاربا هماما وفارسا نبيلا ، وربما يرجع ذلك الى عهد الخلافة ، وفى الواقع فإن الثقافة الأندلسية كانت أعلى فى مجموعها من ثقافة الممالك المسيحية وان كانت صورة المقاتل الشجاع ترجع - فيما يبدو - الى فترة متأخرة عندما انقلب الوضع ، فاصبح للمسيحين ثقافة أعلى من ثقافة المملكة النصرية فى غـرنـاطة (١) .

وعندما انتهى الحكم الإسلامى من الاندلس ، بقى فيها بعض المسلمين ، وهم المورسكيون الذى كانو لا ينتمون الى المجتمع الطبقى الذى يحيط بهم ، ليس لاسباب ايديولوجيه وسياسة ، ولكن لانهم ينفصلون عنه بفروق عضوية عميقة ولم يعد ه هناك مجال للحديث عن نبل ومجد الايام الزاهرة زمن الدول الاسلامية التى خلت ، فليس يوجد الان الاآقلية فقيرة ، أما معظم المسلمين فقد تحول الى المسيحية ولو مظهريا ، وآثر آخرون الخروج من البلاد الاندلسية الى العدوة المغربية ، ولم تكن هناك معايير للتفرقة الامعيار واحد هو مصادر الثروة وأنواع المهن ، وكان الاختلاف بين المسيحى القديم وبين المورسكى آختلافا جوهريا قويا ، وكانت الجماعة المورسكية شيئا واحدا رغم بعض الاختلافات الداخلية التى لايمكن انكارها .

وكل الكتاب يؤكدون كد المورسكيين واجتهادهم فى العمل ف "بدرو دى ليون " يجمع أخبارا بعد فترة وجيزة من طرد المورسكيين الغرناطيين ، عقب ثورتهم الأولى ويقارن بينهم وبين السكان المسيحيين فى منطقة

1- Julio caro Baroja: Los Moriscos del reino de Granada, PP. 142' - 145'

وفيها يشير الى مجموعة من النصوص والمؤلفات والأعمال الأدبية التى تؤكد فكرته .

البشرات ، ويرى أن الآخرين تميزوا بالكسل وكانوا يعيشون بصعوبة رغم أن كل واحد منهم منح ثلاثة أو أربعة أضعاف المورسكى ، لقد تعود المورسكيون أن يقولوا : " عندما تشرق الشمس هناك وتنعكس على وجهى أخرج من منزلي الى الحقل ، وعندما آتى من هناك فإن الشمس تنعكس على قفاى ، ولست مثل المسيحيين القدامى الذين يعملون بلا رغبة " (١) .

فقط ب . " بليدا " يرمى المورسكيين بالكسل ، ويقول إنهم لا يصلحون للعمل فى الزراعة بدون رى ، وهم يعملون قليلا لأنهم لا يأكلون جيدا " ، اللهم إلا فى فترات معينة كان عليهم أن يقوموا فيها ببعض الأعمال العاجلة ، فكانوا عندئذ يعملون من ثلاث الى خمس ساعات يوميا ويقضون باقى اليوم مضطجعين فى الشمس (٢) . ورغم عداء هذا الدب الدومنيكانى ، إلا أن كلماته ربما كان لها ظل من الحقيقة ، فلم يكونوا مبرزين فى الزراعة التى لا تعتمد على مياه الرى لأنهم كانوا فلاحين (بستانيين) بالدرجة الأولى ، وكانت وجبتهم قليلة الغناء من حيث ما تحويه من سعرات حرارية ، ولكنهم كانوا من أكثر الناس جدا ونشاطا ، ومن ناحية أخرى فإن من يعنيهم ذلك الراهب بكلماته هم المورسكيون البلنسيون ، وهؤلاء كانوا مضطهدين للغاية ، يظلمهم سادة الإقطاع غاية الظلم ثم لا يمدونهم إلا بالقدر القليل الضرورى من القوت . لقد أرسلت الأكاديمية الملكية فى بلنسية بيانا هاما للملك يتحدث عن بعض المورسكيين

1- P. pedro de leon :-Vea se el extracto que di en crisis y decadencia de la Españã de los Austrais, PP:. 3'2 - 33'.

وكـذلك

-- A. Dominguez ortiz: La historia, PP. 109, 110 y la nota N. 1 en la pagina 110'.

2- P. Bleda Jaime : Coronica de los moros de Españã, Valencia 1618'

وكـذلك

-- A. Dominguez ortiz: la historia ... P. 110'

وضرورة أن يستمروا فى البلاد من أجل الحاجة اليهم فى الرى وتوزيع المياه وعمل السواقى وغيرهما مما لم يتدرب عليه المسيحيون القدامى ، كذلك من أجل صناعة السكر والآلات والحرير والكتان وجمع الزيتون وعمل الحلفاء ومساعدة العمال فى فهم أسرار بعض المهن ....(١) لقد كانوا طوال اليوم والليل يعملون في أراضيهم ومزارعهم كادين من أجل الخبز والعسل والزبيب والتين ولم يهملوا فى العمل قط مهما كان السبب و لقد كان على المورسكي فقط أن يعمل وكل ثمرة وناتج عمله إنما يكون فقط لاتخام سيده وزيادة ثروته ، وعندما كان هؤلاء المورسكيون ملاك أراضيهم كما كان الحال فى غرناطة ، فإنهم كانوا يعملون بهمة وجد .

وصف السائح الألمانى الذى طاف أسبانيا فى عهد الملكين الكاثوليكيين المورسكيين فى غرناطة بأنهم أناس أقوياء ، متعودون على أشد الأعمال خشونة ، ويذكر من بين المهن الشائعة بينهم أنهم كانوا حدادين وبنائين ونجارين ومهتمين بصناعة الخزف وبائعين للخمر والزيت .. الخ (٢) ، وكانت هناك وفرة فى المصانع المورسكية ، كان ذلك يبدو فى الإحتفال ببعض الأعياد مثل عيد كاربوس " وهو العيد الذى كانت تحتفل به غرناطة فى مهابة كبيرة ، وكانت رايات الهيئآت النقابية تظهر وفقا لترتيب معين ، تراعى فيه المهنة وليس الجنس أو الأصل فيظهر أولا صانعو الأسلحة وصانعو السكاكين ثم بعد ذلك الفنيون المتخصصون فى صناعة الحرير ثم التزية ... ونجد فى مرسومات ١٥٥٢ أسماء ٧٤ حرفة هذه الحرف لا ينقصها ـ بالإضافة الى الأسماء العربية الوفيرة والطابع التكنيكى ـ الإشارة الى أعمال يتخصص فيها المسلمون وخاصة المغاربة

1- J. regla : Estudios ... PP. 66 y 67'.

2- Aznar cardona (Pedro) Fol. 34v. ذكـره

-- J. Caro Baroja : los Moriscos, P. 218'.

منهم ، مثلا فيما يتعلق بحرفة النجارة نرى الإشارة الى تجارة الزخارف المفرغة المسبكة ، وفى فقرات أخرى نرى ذكرا لزخارف معمارية إسلامية ومسامير مورسكية ، ولم يكن هذا فى العاصمة وحدها ، وإنما كانت تلك العناصر الفنية موجودة فى القرى أيضا ويبدو أن الحياة رتبت خلال قرون بحيث يكون النشاط الإقتصادى محصورا فى عدد من المهن ، موزعة على المدن والشوارع والميادين ، وبالإضافة الى النشاط الذى وجد فى الشوارع والميادين ، وجدت محلات صغيرة على امتداد الضواحى ، كانت مملوكة لإناس فقراء ، إن صورة المورسكي البسيط صاحب الدكان الذى يبيع أشياء متواضعة القيمة ، تششبه ماتجده وأنت تتنقل بين الشوارع والأزقة فى مدينة مغــربية ، وكان هذا أمرا مألوفا حتى القرن الثامن عشر (١).

كما كان المورسكيى الغرناطى مجدا ، كان المورسكيون كذلك فى البلاد الأرجوانية التى كان سكانها منهم أو غلب فيها العنصر المورسكيى وكان من الممكن أن يعيش ستون من المسلمين المنصرين فى مكان لا يقيم فيه إلا خمسة عشر من المسيحيين القدماء ، لأن الأولين عمال مجدون وقانعون .

وهناك مؤرخ من " بلاسنيثا " يصف المورسكيين بأنهم يعملون فى الزراعة ، وبعضهم ليست له تعاملات مع المسيحيين القدماء والبعض الآخر كانت له علاقات بالمسيحيين ، وهذا النوع الأخير هو الذى كان يمتلك أفضل محلات الأطعمة والبقالة أو كانوا يعملون فى مهنة النقل وينقلون

1- J. Caro Baroja : Los Moriscos ... PP. 95 - 98'.

وفيه تفصيل عن الحرف وترتيبها وذكر لما كان يباع فى المحلات ، إعتمادا على بعض المصادر الأدبية أنظر التعليقات بالصفحات المذكورة .

التجارات من مكان لآخر ، ويذكر ذلك المؤرخ أنهم كانوا يقومون ببعض المهن الآلية مثل صناعة الغلايات وأعمال الحدادة وصناعة النعال وصناعة الصابون (١) .

أما " إثنار كاردونا " فيتهمهم بأنهم يتخصصون فى الأعمال التى لا تحتاج الا الى مجهود قليل ، ويقدم أمثلة على ذلك بأنهم نساجون وخياطون ، وهم يصنعون الحبال من الحلفاء ويصنعون الأواني وهم جزمجية وأطباء بيطرة وفلاحون وتجار من الباطن (٢) ، ويلاحظ "كازوباروخا " أن هذه المهن هى التى يشير اليها كتاب الحسبة فى سوق عربى ، لكنهم أيضا كانوا يعملون فى الأنشطة الأخرى التى لابد منها فى مجتمع بشرى " فهم حافظوا على النشاطات التقليدية للوسط التجارى والصناعى المسلم فى العصر الوسيط ، كما نجده فى كتب الحسبة ، ويمكن ملاحظتها فى سوق مدينة قديمة بالشمال الأفريقى مثل تطوان مثلا (٣) .

وبعض هذه المهن نفسها مثل التجارة من الباطن والخياطة وصناعة الأحذية ، كانت مهنا تقليدية عند اليهود كذلك وعند من تحول منهم الى المسيحية ، لقد كانوا يمارسون ذلك بالإضافة الى مهن أخرى مثل الإدارة والسمسرة والصرافة وتجارة الكتب والطباعة وكانت مهنة الطب حكرا عليهم تقريبا ، ونادرا ما كانوا يعملون فى زراعة الأرض ، لهذا لم يوصفوا بالكسل ، فهم كانوا يتجنبون المهن التى كانت تتطلب مجهودا

1- Alonso Fernandez : Anales de plasencia, libro III Capitulo 25'.

A. Doming ortiz : La Historia ... P. 110'

2- Aznar cardona. obra citada , Folio 53'

3- J. Caro Baroja : Los Moriscos ... PP. 218, 219'.

جسمانيا على عكس الموريسكيين الذين كانوا يبذلون كثيرا من الجهد والعرق (١) .

تؤكد الدراسات والبحوث الحديثة المعلومات السابقة وتعمقها ، وليس من الممكن أن نتكلم عن الموريسكيين بإعتبارهم كلا متجانسا ، لا فى هذا الجانب ولا فى غيره من الجوانب ، فهناك اختلافات إقليمية ومحلية مهمة ، فالموريسكيون المبعدون من مملكة غرناطة ، من الطبيعى أن تتخصص نسبة كبيرة مهم للتجارة والنقل ، لأنه كان من الصعب عليهم أن يعملوا فى الأرض ، على العكس من أقاليم أخرى خاصة بلنسية ومرسية وأرجون على وجه التحديد حيث كانوا يشكلون أغلبية كثيفة بين السكان إننا نجدهم ـ بالإضافة الى السيطرة البارزة ـ يعملون فى كل المهن الضرورية للحياة الإجتماعية ، وقد لاحظ بعض الباحثين أنه يوجد بين المسلمين المنصرين فى سرقسطة ، ليس فقط بنائين ونجارين وحدادين ... الخ بل وصانعى سيوف ،وتلك كانت المهنة التقليدية للمسيحيين القدامى على الأقل فى قشتالة (٢)، ولم تشر الإحصائيات التى أجريت للموريسكيين فى القرن السادس عشر الى مهنهم دائما ، وعندما تفعل فإنها تبرز نسبة كبيرة منهم باعتبارهم مزارعين ، وبينهم عدد من العمال الخدم وكثير من الحرفيين (٣).

1- Cronoca de los reys catolicos, capitulo 112'

-- A. Dominguez ortiz : los Moriscos, P. 111'

2- Judeoconversos,en España y America, 232'

3- Garcis A renal : Los Moriscos de cueñca y la inquisicion, tesis inedita, Madrid 1974'.

- Le flem : Los Moriscos en el noroest de España

ذكرها جميعا

-- A. Dominguez ortiz : los Moriscos, P. 111'

ولم يكن المورسكبي بصفة عامة صيادا ولاراعيا ، ولايبدوأنه استفاد من الجبل فى العمل حطابا أوفحاما ، ولكنه نال شهرة كبيرة باعتباره مزارعا ، ويعتبر فى هذا النشاط أعلى من المسيحى القديم بكثير. يقول "تابا خيرو" فى وصفه لغرناطة ان المورسكيين كانو يقلون باضطراد ، وكانو يمتلكون الاراضى الصالحة للزراعة جيدة التربة ، المليئة بالاشجار المتنوعة ويؤكد " داروكا " ان البساتين المزروعة هى صرح يمتلكه المسلمون ، وقد رأيت فى نواح كثيره من اسبانيا ان هؤلاء الناس يميلون الى الزرع والغرس أكثرمن أى شيئ آخر(١) ، ويقول مؤرخو الزراعه إن الازدهار الذى حمله العرب الى اسبانيا يتمثل فى زراعه الاراضى ، فالمسحيون يزرعون الاراضى التى لا تعتمد على مياه الرى ، ويوزعون البذور على مساحات شاسعه من الاراضى بينما يهتم المسلمون بزراعه ضياع تعتمد على الرى بها بساتين متنوعه ومحاصيل مختلفه من تلك التى تتوافر فى حوض البحر الابيض المتوسط ، مثلا يتكلم "فراى ماركوس " عن منطقه "ريكوتى " من اقليم مرسية وسكانه جميعا من المورسكيين فيقول " إن هذا المكان يحتوى على كميات هائلة من الليمون والبرتقال وكل أصناف الحمضيات ، لكنه مجدب فى القمح ونحوه مما هو ضرورى للحياه " ويؤكد آخر " أن اراضى مرسيه كانت من أفضل ما وجد فى اسبانيا (٢) وكان بين

1- Navajero (Andres) Viaje a España del Magnifico señor A ... N embajador de la republica de venecia ante el embrador carlos V valencia 1951'.

-- J. caro Baroja : La Historia ... P. 98 y la Nota 83 en la misma pagina

2- Fray Marcos de Guada la jara : Prodicion y destierro de los Moriscos de castilla hasta el valle de Ricote ... fol . 61 v

-- J. C. Baroja. los Moriscos, P. 99' ذكره

ويذكر نفس المؤلف التعليق رقم ٩٩ ص ١٠٠ أسماء بعض الحدائق المورسكية .

المورسكيين من يمتلك طواحين زيت وطواحين قمح وأ فران ومحـلات وفنادق ويقدم المؤرخ المسلم " الرازى " وصفا لمنتجات غرناطه فيقول آنهم كانوا ينتجون كل الفواكه ابتدا ءمن البرتقال وأنتها ء بالجوز واللوز ومرورا بالرمان وكانت الاماكن العالية غنيه بأشجار فواكه مثل الكمثرى والتفاح والجوز وأبى الفرو ، آما الاماكن المتوسطة الارتفاع فكان يزرع فيها البرتقال والليمون ، والاترنج ، وكان قصب السكر يتوفر فى الأراضى المنخفضة ، كما كانت توجد مصانع تكرير السكر فى المناطق التى تنتشر فيها تلك الزراعه ، وهكذا نرى آن كفاءة المورسكيين باعتبارهم رجال أو خبراء زراعه أمر مجمع عليه (١) ويذكر "اولتادو دى مندوثا " أن أهل البشرات لم يتركوا فراغا بدون زراعه ، وكان أسلوبهم يعتمد على تقسيم الأراضى الى أخاديد مدرجة ، ترويها قنوات منظمه وكانت قنوات الرى مشهوره بصفه خاصه فى مقاطعات ؛ أورجيفا ، وفيريرا وبوكيريا" حيث كان يكثر القمح والشعير والسلت وغيرها مما تقوم زراعته على الرى ، وكانت مقاطعة انداركس " أفضل أراضى منطقة البشرات حيث كان يعتنى المورسكيون بجمع المحاصيل والاحتفاظ بها فى صوامع تحت الارض ، والى جانب ذلك عنى المسلمون بزراعه شجره الحناء ، كماعنوا بزراعة شجرة التوت لإطعام القز والاستفاده بها فى صناعة الحرير ، خاصه فى منطقة البشرات وبعض نواحى الجنوب ، وكانت "غرناطه " هى المركز الصناعى والتجارى لكل ما

١- أبو بكر أحمد بن محمد بن موسى الرازى ، وصف الأندلس :

Al - Razi P. 37 de la edicíon de Gayangos, Madrid 1852'

J. C. Baroja : abro citada, P. 110'.

يتعلق بالحرير ، وكان بها فى زمن بنى نصـــر سوق مركزى للحرير يعقد فى مبنى اسمه " القيصويه " ، ويحضره رجال من بلدان كثيره ، وكانت تباع فيه ، بالاضافه الى الحرير الخام والمنسوجات الحريرية ،الأقمشه وضفائر الحرير والمشغولات الذهبيه والكتان ، وكانت بضائع هذا السوق تصل الى الصحراء والى ضفاف نهر" النيجر" حسب وثائق ترجع الى القرن الخامس عشر ، وكان بعض التجار يحملون مواد هذا السوق ويستبدلونها بعبيد سود يجلبونهم الي غرناطه ، ومعظم سكان غرناطه فى بداية القرن السابع عشر كانوا يلبسون حللا من الحرير ، وكان اللون الاسمر مخصصا للرجال ، والألوان الزاهيه للنساء ، ويؤكد " بعض المؤرخين "أنه كان هناك حوالى ٣٠٠٠ تاجر مهتمون بتجارة الحرير في حدود سنه ١٦١٤ (١) فتخصص المورسكي اكثر فى زراعه الأراضي والبساتين أصبح أمراطروقا علي كل لسان ، وكان معروفا أكثر في الزراعة التي تعتمد علي الرى حيث يتطلب الأمر عملا ومهارة وصبرا ، ومن الممكن أن يكون أسلوب الزراعه اعتمادا على الرى قد عرف فى اسبانيا منذ القديم ، لكن هذا لا ينفى أمـرا هاما وهو أن الكلمات الفنيه المستخدمه فى الرى من أصل عربى ، وكثير من النباتات المزروعة ، وبعضها مهم ، مثل الأرز و،البرتقال وقصب السكر من أصل عربى ولابد أن نضع فى الاعتبار أمرا آخر مهم هو حاجة هذا الشعب المورسكى الى ممارسة زراعة مركزة يمكن الاعتماد عليها فى مواجهة احتياجات شعب كثيف ، والحاجه الى ممارسة

١- عن هذا الموضـــــوع أنظـــــر :

Julio caro Baroja : Los Moriscos ... PP. 100 - 115'.

وما عنده من مصـــــادر

استثمار اقتصادى يجعلهم يستخرجون أقصى محصول من الأرض ، وقد مارس السكان المورسكيون فـــى " أراجوان " ، جميعا تقريبا ، الزراعة اعتمادا على الرى فى غوطات "نهر الايرو " وراوافده . وفى "بلنسية" لوحظ أن السكان المسحيين يسيطرون على البساتين فى المناطق الشرقية ، وإن كان لهذه القاعده استثناءات بعضها مهم ، لكن الشيء الجدير بالإبراز هو أن المورسكيين فى المناطق الجبلية قد إستفادوا من الجداول والحفر والفتحات ، وصنعوا مناجم تشبه مثيلتها البربرية ، للحصول على مياه يستفاد بها فى رى المنخفضات والأخاديد فى الحقول .

ويسبب توزع المورسكين الغرناطيين ، حاولت بعض الشخصيات والجماعات الاستفادة بخبرتهم وطاقاتهم باعتبارهم بستانيون وفلاحون جيدون ، وعندنا طلب تقدم به واحد من النبلاء يطلب من السلطات التصريح له باستقبال ٥٠ موركسيا من غرناطة ، لمساعدته فى صرف المياه وزراعة البساتين الكبيرة والكثيرة التى غمرتها وأفسدتها المياه ، وقد أجاب المجلس المختص بأنه يبدو انه فى الامكان السماح بقبول ٣٠منزلا مورسكيا مادامت هده رغبته الدوق وينبغى آن تخصص لهم أماكن فى منطقة معينةحتى يمكن إزاحتهم من هناك اذا ظهر عدم ملاء متهم للبيئة الجديدة ، وقد وافق الملك على ذلك (١)

وفـــى ١١ مـــايو سنة ١٦١٠ أرسل المجلس الملـكي فى بلنسية بيانا للملك يتعلق بحوالى ٧٠٠ مورسيـكيي بقوا فى البــلاد ، وقد شرح ا لبيان الضرورة الملحة لوجـــود هؤلاء من أجـــل الـــرى وتوزيـــع الميـــاه

1- Archivo Historico Nacional : Consejos, leg 4414 No. 64'

A. Dominguez ortiz : La Historia ... P. 11' : ذكـــــره

والسواقى فى الاماكن التى يعيشون فيها ، ولإعطاء ضوء للأشياء التي لايعرفها المسيحيون القدماء ، كذلك من أجل صناعة السكر والأرز والحرير واعداد الكتان وجمع الزيتون وعمل الحلفاء ، ومن أجل مساعدة العمال فى كل هذه الأشياء وفى فهم أسرار الصناعات التى تحتاجها المملكة ... لقد كانوا طوال اليوم والليل كادين فى أراضيهم ومزارعهم ، فقط من أجل توفير الخبز والعسل والزبيب أو التين ، ولم يهملوا العمل قط لأى سبب كان ، وقد طلب مجلس بلنسية الموافقة على بقاء هؤلاء على أن يكونوا عبيدا ..(١)

ولم يكن المورسكي فى بلنسية يعمل باعتباره مزارعا فحسب ، بل عمل - كما يذكر «توليوهالبيرن» حارسا وخفيرا فى المزارع لحمايتها من النهابين والرعاة ، ويؤكد المؤرخ المذكور أن المورسكبين الذين لم يتملكوا أراضي ، أو كانت لديهم قطع منها غير كافية ، فإنهم كانوا يؤجرون سواعدهم التى كانت أرخص من سواعد غيرهم ، ولعل هذا يفسر تصفيق الشعب فى بلنسية لقرار طرد المورسكين بينما خشى من هذا الأمر البرجوازيون وسادة الاقطاع (٢) .

وقد بادت زراعة الارز فى «بلنسية» بسبب طرد المورسكيين وبسبب حمى الملاريا التى أعقبت ذلك ولم يتح لها أن تزدهر من جديد إلا فى القرن الثامن عشر عندما اشتدت الكثافة السكانية . وأيضا عانت كثيرا زراعة قصب السكر - المحصول التقليدى للمورسكيين - فى منخفضات وسلاسل جبال «سيرامورنيا » وفى بعض مناطق الرى بشرقي البلاد ، وقد بقيت هذه الزراعة حتى اليوم فى منطقة الجبال ، واختفت من المناطق الاخرى تماما ، السبب الرئيسى فى ذلك هو غياب الأيدى العاملة المجرية والقانعة ،

(١) انظر : (1) regla ; Estudios sobre los Morissos, P.66

(2) Halperin dongui, tulio : un conflecto nacional : : Moriscos y cristianos viejos en valencia . Cuademos de H.de Eapans , buenos Aires XXIII, XXIV, 1955, PP.5-115 Y XXV-XXVI, 1957, PP.83-250

وانظر A.Dominguez ortiz : la historia ....p. 112

بالاضافة إلى أسباب أخرى لها صلة بالمناخ أو العوامل الاقتصادية ، لقد انقضت فترة كان الموريسيكون يذهبون خلالها من «جاندي» وحتي حقول «تاراجونا» لحصد المحصول ، وقد وصل فشل الزراعة إلى أقصى مداه بسبب غياب العنصر المورسكي .

إن النتائج الطيبة التى كانت تأتي من العناية بدودة القز كانت مقصورة على المورسكيين ، وعندما نفى الغرناطيون ، ومنعوا من تغيير محل إقامتهم ، فإن الكثيرين منهم برغم ذلك قد منحوا تصاريح للهجرة مؤقتا الى مرسية للقيام بهذه الأعمال . نفس الشئ بالنسبة لغرناطة وبلنسية ؛ فقد كان نفى المسلمين المنصرين معلما على التأخر ، ولم تنقطع استمرارية زراعة ذلك المحصول ، بفضل من بقى من المورسكيين ، بالإضافة إلى اسهام ملاك الأراضى ، وبفضل معاونة بعض المسيحيين القدامى الذين كانوا مبتدئين فى هذا النوع من الاستثمار .

وربما كان المورسكي فى «اراجون» مزارعا جيدا فى الأراضى التى تعتمد فى زراعتها على الرى أكثر منه فى أية منطقة اخري ، وان وجدنا ذلك خارج الغوطات ، ولكنهم لم يتمكنوا فى هذا الاقليم من زراعة كثير من الأنواع التي يسمح بها المناخ المتميز فى بلنسية ومرسية .

وقد برهن بعض الباحثين على أن زراعة القمح كانت هى السائدة فى ريف «طاراذونا» وقدم بعض الملحوظات التى لاتخلو من فائدة ؛ فبعد سنة ١٦١٠ لم تختف قنوات الرى ولكنها تلفت ، وقد أظهر الفلاحون الذين لايعتمدون على الرى والرعاة ، مهارة ومقدرة على استيعاب الأوضاع الجديدة المختلفة تماما عما عرفوه ، فهل كانوا تلاميذ لامعين للمورسكيين القلائل الذين بقوا بعد الطرد وتعلموا منهم ؟ أم أن التفاهم بين العنصرين كانت أعمق مما يظن ؟ أم أن المسحيين القدامى تعلموا من جيرانهم المورسكيين بعد فترة أسرار فن الرى ، وعلموه بدورهم لمن وصلوا حديثا ؟

اننا أمام اسئلة لانستطيع أن نعثر لها على إجابة الآن ، ومع ذلك فهناك شئ يبدو مؤكدا هو أن استرداد الوضع المزدهر ، ومستوي الاستيعاب كان بطيئا ولم يكن كاملا ، ولم يكن بالامكان الوصول إلى المستوي الفنى العالى والمحصولات الزراعية المورسكية الممتازة اللهم إلا فى ظل الثورة العلمية خلال القرن العشرين ، وفى ظل أوضاع مختلفة[1] وقد طلب النواب من مرسية إلغاء قرار نفي المورسكيين وبرروا ذلك بقولهم «حتى لانرى الفنون وقد تركت والزراعة وقد فقدت [2]

وكان العمال المورسيكون قلة فى قشتالة والاندلس - بعد طرد الغرناطيين - اذا قارناهم بغيرهم ، لم يكونوا مجموعات كثيفة ، ولم تكن القوة الجسمانية هى الوسيلة المناسبة لزراعة البساتين التى توجد بكثرة أكثر مما كان يوجد فى مناطق أخرى كبيرة مثل بلد الوليد مثلا . وفى هذه الاقاليم كان المألوف ان يعمل المورسكى أجيرا بسيطا بالمياومة ، وكان فلاحا قويا . يتحدث «خوليو كاروباروخا» عن المورسكيين فى وادى «أونانشو» - نقلا عن «سالزاردى مندوثا»[3] فيقول «انهم يعيشون مكونين جمهورية خاصة ، ولهم علاقاتهم بالغرناطيين المقيمين في طليطلة ، ولهم فى هذا الوادى الف منزل ، وهناك مناطق فى محافظة "ليون" كل سكانها من المورسكيين المحافظين على عقيدة الاسلام منذ تعميدهم فى عهد الملكيين الكاثوليكيين ، وهم يختنون أولادهم ويحاولون اقناع المفتشين أنهم ولدوا هكذا ، كما يخبرون القساوسة بأنهم ولدوا هكذا ، إنهم يتصرفون كجمهورية مستقلة ، ولهم مجلس دولة خاص بهم ويضربون عملة تخصهم وحدهم ،

(1) P. Ponsot : les Morisques , la culture irrigueé Du blé et le problém de la secadencé l'agricuetare espagno le au XVII siecle ("Melanges de la casa de velazquez" tomo-VII)

A. Dominguez ortez : la historia ... P. 114 : وانظر

(2) J. regla : Estudios sobre los Moriscoas : P 104 نقلا عن

Janer : Condicion Social, P.167

(3) Solzar de Mendoza (pedro) : Origen de las dignidades seglares de castilla y léon .. lib. 4 cop v. Parrafo vi

وكانوا يعملون فى النقل بالبغال ويعرفون الطرق ويستخدمونها بسهولة ولهم دراية بكل شئ داخل وخارج اسبانيا ، وكانت لهم مراسلات ومبعوثون الى الترك والى المسلمين .

وعندما جاء المورسكيون من غرناطة الى طليطلة قامت بينهم جميعا رابطة وصداقة حميمة والتقوا فى مستعمرات خاصة بهم اسموها «موررونو Morouno» أقاموها فى الطريق من طليطلة إلى «أورناشوس» بين الجبال والغابات ، وإذا كان هذا يحدث مع من يعيشون فى «استريما دورا» داخل اسبانيا ، فماذا نقول بالنسبة لمن عاشوا على الشاطئ ، وكانوا يذهبون ويعودون من وإلى الجزائر وغيرها يوميا ، فيعاملون معاملة الجيران ؟

ويقول نفس المؤلف نقلا عن البطريرك لقد رأيت فى الأندلس سكانا كثيرين ، انخفضت أعدادهم بشكل ملحوظ فى بعض الاماكن ، وسمعت انه تنقصهم أشياء كثيرة ، ونفس الشئ حدث فى قشتاله ، وليس لذلك من سبب سوى أنهم اشتغلوا الاشياء الآلية ، وكانوا عمالا بالمياومة وتجارا جيدين ، عاملوا الناس معاملة طيبة فى البيع والشراء ، وكانت أسعار أعمالهم أقل من أسعار المسيحيين القدامى (١) .

وينقل نفسه عن «كوك» فى كتابه عن العلاقات ، انه أشار إلى قرية مويل Muel وتحدث عن طريقة أو اسلوب صناعتهم للخزف (للمصنوعات الفخارية) التى تعكس زخارف طبيعية ، ويضيف أنهم قالوا له (أى لكوك) ان هذه القرية لم يكن فيها من المسيحيين القدامى الا ثلاثة : القيس والموثق والخمار وهو نفسه صاب فندق (٢) .

وأعمال المورسكيين هذه بدت بوضوح فى احصاء أجرى سنة ١٥٩٤ ،

(1) Marcos de Guadalajara, Memorable expulsion .. Folio 84 r 84 v

(2) Cock (H) : relaciones del viaje Hecho por Felipe 11 en 1585 a zaragoza , Barcelona y valencia .. Madrid 1876, P. 31

انظر النصوص الثلاثة السابقة ذكرها عند

على التوالى .J. caro Baroja : los Moriscos, P. 214 Nota 39 Y40 Y P. 224

وقام بتحليله «جارثيا ارنال» وتبين منه انه كان يوجد فى مكان ما بقشتالة ٢٢ أجيرا من الفلاحين وعمال اليومية ، وأحد عشر فلاحا فى مناطق تعتمد فى زراعتها على الرى ، وثمانية عمال فى مناطق زراعية لاتعتمد على الرى ، ووجد فى مكان آخر مالك دكان واحد ، وأربعة من المزارعين ، وثلاثة وعشرون أجيرا (١) .

ومن حسن الحظ أنه يوجد مرسوم أصدرته بعض السلطات يعود تاريخه سنة ١٤٦٥ ، وقداستمر سارى المفعول حتي مشارف العصر الحديث، وهذا المرسوم يمنع الموركسيين من زراعة أكثر من «فانيجا »Fanega واحدة من البقول . وهى وحدة قياسية تعادل أكثر من ٣ هيكتار لأن هذا يتسبب فى نقص أراضى المواطنين اللازم زراعتها حبوبا . إن هذا يمثل واحدا من المرسومات المماثلة التى كان هدفها تحديد أو تصعيب اقتناء المسلمين المتصرين أو الموركسيين للأراضى ، ويبدو هذا الامر واضحا فى الاندلس الغربى ، لأنها أرض يسيطر عليها أصحاب المزارع الواسعة للغاية ، ومن هنا كان من الصعب على الموركسيين الحصول على أراض خاصة ، بل ان دورهم باعتبارهم عمال مياومة كان ضئيلا للغاية . فى مقال «بونسوت» المذكور آنفا - وهو المرجع الأساسى لهذا الموضوع - نجده يقرر مايلى : «لم يذكر أحد أننا نعرف أن عمال اليومية من الموركسيين ، كانت لهم السيطرة بين العاملين ، لقد كون هؤلاء أقلية قليلة من بين جماهير الاجراء الذين شكلوا أغلبية بين السكان الفلاحين فى جنوب ووسط المملكة ، أما فى الضيعات والاملاك بالاندلس الغربى فقد كان وجود العمال الموركسيين قليلا وفقا لما توصلت اليه بحوثنا» (٢) . وهذا لايمنع من انه كان لهؤلاء وجود ، يدل على ذلك ماكتبه بعض المسئولين حول وجود ١٢٩ موركسى كانوا موجودين هناك قبيل نفى الموسكيين يقول «كل هؤلاء الناس مساكين ، وهم جيدون ، يستأجرون باليومية للعمل فى الحقل ، ومع كل هذا البؤس ،

(1) A. Dominguez ortiz : la historia ... P. 114
(2) A. Dominguez ortiz : Historia , ... P. 115

لايفكر واحد منهم ان يثبت ذاته ، ومعظمهم لايخرج ن منزله» وعلى كل حال فالفلاح المورسكى التقليدى كان مستأجرا أو مالكا بسيطا (١) .

وكان المورسكيون كثرة فى قرى كثيرة من «استريما دورا» ، كما كانوا كل السكان تقريبا فى «اورناتشو» لقد كانوا عمالا فى الأراضى التى لاتعتمد فى زراعتها على الرى ، دون أن يفقدوا مع ذلك ميلهم للعمل فى زراعة الرى التقليدية التى تسمح بها مقدرتهم الجسمانية ، وكانت «استريما دورا» عندئذ اقليم مقل جدا فى الزراعة اعتمادا على الرى . كتب مؤرخ بلاسنثيا - الفونسوفيرناندث - بعد الطرد بقليل «انهم يكرسون جهودهم فى الزراعة ويتقنونها إلى أقصى درجة من الكمال على الصورة التى نراها الآن مستخدمة على ضفة نهر «خيرتى» ، هذه المجموعة من الفلاحين يرجع قدمهم بالمدينة إلى قدم المدينة نفسها ، وهم يشكلون مجلسا اداريا يحكم بمقتضى لوائح «الجارابيادس» القديمة التى كان معمولا بها فى ٣١ اغسطس ١٥٥٠ بالنسبة لكل الفلاحين ، وكانوا يقولون : حيث أننا لانستطيع التفاهم لا من خلال اللغة ولانلتقى فى التعامل أو فى اسلوب الحياة الذى نتعامل به اليوم ، ولايمكننا الاستفادة من هذا كله : لانه قديم ، فاننا نوافق على تبنى قوانين ولوائح أخرى» (٢) .

وهكذا يمكن أن يعد المورسكيون شعبا قرويا فلاحا ، ويمكن أن يعدوا كذلك حرفيين أكثر مما يعد المسيحيون القدماء ، يفهم هذا من الاشارات العديدة للحرف والمهن التى مارسوها ، ويبدو هذا واضحا فى الإحصاءات والسجلات حتى تم اكتشافها . وقد ذكر «الونسوفيرناندث» المشار إليه فيما مضى أنهم كانوا يزرعون الأراضى التى تعتمد على الرى ، ولكنه يتوسع أكثر فينص على حرف أخرى مارسها هؤلاء «فبعضهم «يعمل فى التجارة ولديهم محلات فى أفضل المواقع بالمدن والضواحى ، تقدم المواد الغذائية ،

(1) Biblioteca nacional . Ms . 9577 Fol . 208 ذكره المرجع السابق ص ١١٥

(2) V. paredes Guillen : los zuniga, senores de plasencia

وانظر أيضا انطونيو دومنجيث أورتيث : نفس المرجع والموضع السابق (cacere) 1903) 138 - 132

وعن محكمة الرى وأسلوب عملها انظر محمد عبدالله عنان : اندلسيات صـ١٩٤ - ٢٠٠ نشر الكويت ١٩٨٨ .

ومهم من يعمل فى حرف آلية مثل صناعة الغلايات ، ومنهم الحدادون وصانعو النعال وصانعو الصابون ومن يستخدم البغال فى النقل ، ومعظهم يعيش من كَديده» (١) ، ويمكننا أن نقول أن الفلاحة وصناعة السلال والأشياء الاخرى المصنوعة من الجريد ، وكذلك التجول للتجارة وبيع التين الجاف والزبيب والجوز والعسل والدبس والحلوى التى تعد للأطفال والفواكه وعمل الطين وصنع الطين اللبن ودهان المنازل بالجير ، وعمل الجص وبيع الزيتون والخبز المحمص ، كل هذه أنشطة موروسكية .

ويقدم شعراء الفكاهة صورة عن المرأة الموروسكية على أنها فقيرة بائعة متجولة يحيط بها اللباس الحريمي وتغعطيها الأقمشة ، وتعيش فى حياء تبيع المناديل والحمضيات والمشروبات والمياه والتين والصابون فى شوارع غرناطة ، وفى المدن الأخرى بالوسط والجنوب الاسبانى (٢). يقدم «لى فليم» فى دراسته عن الموروسكيين فى شمال غربى اسبانيا بعض البيانات المستمدة من احصاء سنة ١٥٩٤ فيقول :

إن أنشطتهم كانت الصناعات التقليدية وزراعة الأراضى والتجارة البسيطة ووظائف الخدم ، وكان بين الحرفيين كثيرون ممن عملوا فى صناعة الجلود أو صناعة الخشب والخزف والحديد ، وكان بينهم عدد قليل من عمال النسيج (٣) . أما الأنشطة الثانوية وأنشطة الدرجة الثالثة فقد كانت متنوعة ، وحيث انهم كانوا يمثلون جمهرة بين السكان ، فقد كان من الأمور الحتمية أن يوجهوا عنايتهم نحو الأنشطة التى لابد منها للحياة الانسانية، ولقد كانوا أقلية ، ومع ذلك كانوا موضع تقدير ، لأستاذيتهم التقليدية فى قطاعات معينة ، وقد أعطى تشتت الموروسكيين الغرناطيين – عقب أحداث الثورة الغرناطية – دفعة قوية لهذا النوع من الأعمال ، لأن عددا قليلا منهم فقط هم لذين أمكنهم الحصول على أراض زراعية ، أما الكثيرون ممن كانوا

(1) obra citada ,libro 6 3 capitulo 25 .
(2) J. caro Baroja : los Moriscor, Pp. 145, 146.
ويذكر فى التعليقات بعض الاشعار الرومانسية التى تؤكد الحقائق المذكورة .
(3) le flem . les morisques du nord-oust de L'espagne ...

يعملون منذ القديم فى فلاحه الاراضى وزراعتها فقد اتجهوا إلى العمل فى نشاطات أخرى كانت مطلوبة فى قشتالة ، وبسبب قلة الأيدى العاملة ، ولأن المورسكيين من الناحية الاجتماعية لم يكونوا موضع تقدير ، فإن هذا كان سببا فى جذب الأيدى العاملة الأجنبية ، ولقد حدثت بعض الشكاوى ، لكنها كانت بدافع من الكراهية العمياء أو بسبب الخشية من المنافسة والرغبة فى توفر أيدى عاملة زراعية رخيصة ، وهذا هو السبب الذى يجب ان ترد إليه كل الطلبات المقدمة إلى برلمان قشتالة . ملتمسة أن يترك المورسكيون العقود والصفقات والحرف ، وأن يتخصصوا فى الزراعة وحدها (١) .

ويربط «فراى ماركوس» بين تدهور وخراب المدن القشتالية ووصول المورسكيين الغرناطيين ، لأن هؤلاء استولوا على كل الحرف اليدوية وكل التجارة ، وعلى خدمات العمالة والنظافة فى نفس الوقت . وكل هذا قاموا به بمنتهى اليسر ، لانهم زاهدون وبخلاء ، لايأكلون ولايشربون ولايكتسون(٢) .

وقد كان الاعتقاد فى نقاء الدم ، الذى تأخذ به اللوائح النقابية ، عائقا أمام المورسكيين ، ان هذا الاعتقاد لايمنع استقبال اعضاء السلالات الاجتماعية الادنى باعتبارهم أساتذة معلمين فحسب ، بل ويمنع انضمامهم باعتبارهم تلامذة أو موظفين ، ولم يكن الملوك من مؤيدى هذه السياسة بل كانوا يحبذون فكرة اندماج الاجناس ، ويكفى أن نشير إلى المرسوم الملكي الصادر سنة ١٥٠٢ بتعين «فرنسسكو ايرناندث» الذى تحول إلى المسيحية– معلما أكبر للقصور الملكية ولدور الصناعات فى اشبيلية (٣) أو الفقرة من المرسوم الخاص بالمورسكيين المبعدين من غرناطة سنة١٥٧٢ والتى نص فيها على أن المورسكيين الذين كانوا يعملون فى بيوت المسيحيين القدامى ، تدفع لهم رواتبهم (٣) .

---

(1) A. Dominguez ortiz : la historia ... P. 116

(2) انظر : J. caro Baroj : los Moriscos ... P. 219

(3) Archivo general de simancas . Diversos de castella, 42 - 6 .

وكذلك A.Domingue ortiz : obra citada . P .116

هذا المرسوم كان مهما فى مواجهة الاجحاف العظيم الذى طبع القرن السادس عشر بسبب الرغبة فى التوصل إلى نقاء الدم وشرف المهنة ، وليس ممكنا ان يعادل نقاء الدم عند الطبقات الأخرى ماكان يوجد من نقاء لدى الطبقات العليا ، لقد كانت هناك رغبة فى التوصل إلى الشرف وكان هذا هو طابع اسبانيا فى العصر الذهبى ، واذا كانت طليطلة هى القاعدة الأساسية للكفاح من أجل نقاء الدم ، فان مدنا مثل أشبيلية وبلنسية ، حيث كان يوجد عبيد كثيرون وموريسكيون فى نفس الوقت ، قد أدخلت قيودا ضد النوعين المذكورين فى المراسيم النقابية ، بحيث يحال بينهم وبين العضوية النقابية ، على الأقل فى نقابات المهن التى تحاول المحافظة على مرتبات اجتماعية عالية مثل الصيادلة والصاغة وسماسرة البورصة ، وفى بعض الحرف مثل ترزية السيدات ، فان من ينضم إليها يجب أن يكون له على الأقل درجة شهرة متحول إلى المسيحية ، وهذا أدى إلى رد فعل يتمثل فى الرغبة فى نقاء الدم . نفس الشئ يمكن أن يقال بالنسبة لمحترفى النجارة الذين كان يطلب منهم أن يعتمدوا فى عملهم على فن المودخر التقليدى ، وتحتم المرسومات الأشبيلية على معلمى النجارة الذين لديهم أعمال رسمية أن يكونوا على الأقل مسيحيين او من سلالة مسيحيين أنقياء ، ومع ذلك فإنه بعد فترة من بدء القرن السادس عشر ، وجدت نجارة الخشب الأبيض التى تركت طابعها على هؤلاء الفنانين الصناع الذين تجنبوا أى احتكاك عنصري فى الفن ، وواصلوا حفر الأبواب والأسقف بالطريقة الفنية الموريسكية ، ووفقا للقواعد الموروثة عن الخبير المسلم (١) .

فى بلنسية ، وصل شبح المبعدين من النقابات المختلفة مدى واسعا جدا : الموريسكيون ، والسود والعبيد ، الذين مثلوا أمام محاكم التفتيش ، حتى اللقطاء ، كل هؤلاء حرموا من الدخول فى نقابات ليست عالية الشهرة مثل نقابة المنجدين ، وكانت المبررات من النوع الذى أدلى به بعض أعضاء

---

(1) Ordenazas de seville , 2 part , titulo 1 ano 1632
A.Dominguez ortiz : historia .. P. 116 انظر أيضا

نقابة الجزمجية عندما رفضوا قبول التلاميذ السود لسنة ١٥٩٧ لتجنب الأضرار التى يمكن أن تنشأ بين أعضاء هذه النقابه وبين هؤلاء التلاميذ ، وبسبب الفضائح والآلام التى تحدث للشعب عندما يشاهد الناس عبدا أسود أو مسلما فى المواكب الدينية والعامة والاحتفالات الجماهيرية . إنه قد تحدث ضجة عند رؤية هؤلاء وقد أختلطوا بالشخصيات العامة حسنة الملبس والمظهر .(١)

فى القرن السابع عشر ، عممت هذه الأوضاع فى كثير من النقابات وتمثلت فى صورة ضريبة عن شرف جماعي يعتبر مرضا نفسيا اسمه نقاء الدم ، ولكن فاعلية ذلك لن تكون كبيرة ؛ لأن تطبيق ذلك بصورة صارمة كان أمرا صعبا ومكلفا . وقد كان الانتاج الفنى والصناعى خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر بأيدى المورسكيين فى معظمه ، وقد أثبت هذا علامة أشبيلى من خلال مجموعة كبيرة من الوثائق العامة والخاصة . يقول أنه «من خلال قراءتها توصل الى نتيجة هى أن المورسكيين كانوا هم الفخارون (رجال الخزف) الذين كانوا يسكنون أحياء أشبيلية تحت قناع أسماء مسيحية ، وهم أيضا الذين كانوا يقيمون فى مساكن فقيرة وينتجون أقمشة غنية وجلودا محفورة ، وأعمالا فنية من معدن النحاس او الفضة وأسلحة وأطقم للخيل وأشياء أخرى مما يدخل فى نطاق البذخ ... ان سجلات التعميد فى كنيسة «سانتاآنا» فى القرن السادس عشر ، تقدم لنا معلومات غنية عن نوعية سكان إحدى الضواحى الكبرى ، فالعقود ووثائق الدفاع عن حقوق الشعب وانشاء الأوقاف ومقاعد التلاميذ مع الأساتذة ... بأختصار كل الوثائق تقدم لنا صورة الحركة الفنية الصناعية فى الحى المذكور ، وكلها الحقيقة التى مر ذكرها (٢)

---

(1) Tramoyeres , Instituciones gremiales de Valencia , Capitulo VI Valencia 1889
A . Dominguez : La Historia .. P . 117 .
(2) Jose Gestos o : Historia de Los barros Vidriados Sevillanos (sevilla 1904) , P . 331

ذكره نفس المرجع فى نفس الموضع السابق .

وكانت هناك أنشطة مفضلة عند الموركيين فى داخل هذا النشاط الفنى المتنوع من بينها ما يتعلق بفن المعمار ، وقد مر بنا من قبل اسم المعلم الكبير لقصور اشبيلة و كان قد بدأ فى التاريخ نفسه سنه ١٥٠٥ بناء البرج الجميل والجديد فى مدينة سرقسطة والذى اختفى ولم يبق له أثر لسوء الحظ . وهذه الجوهرة من جواهر الفن الموديخر (المدجن) تعتبر برهانا على فترة من التسامح شهدتها اسبانيا ، فقد اشترك فى عملها مسيحيان قديمان ومسلمان ويهودى (١) ، وعندما صدر مرسوم الاجبار على التحول للكاثوليكية قبل ذلك بفترة ، فإن أساتذة فن «المودخر» فى أرجوان وفى الأقاليم الأخرى استمروا على حالهم ولم يخفوا هويتهم ، وكانوا يضيفون كلمة «مسلم» الى أسمائهم فى العقود الخاصة بهم ، وفى بعض الكنائس مثل كنيسة «مولندا» وكنيسة «تويدا» كانوا يوقعون ويضيفون شهادة التوحيد الإسلامية "لا إله إلا الله محمد رسول الله"رغم أن هذا لم يكن مصرحا به بهذه الصورة العلانية خلال القرن السادس عشر ، ولكن أساتذة فن المعمار والعاملين فى هذا المجال تمتعوا بسماحة لم يتمتع بها غيرهم ، ربما تكريما لأستاذيتهم يقول لابيرى ، محللا توزيع السكان فى بلنسيه :«إن التوزيع الفريد للسكان المسيحيين والموركسيين ، يجعلنا نفكر فى جمهورية الجزائر الحالية التى تقدم لنا التباين نفسه مع فرق هو ان النسب لا يمكن مقارنتها بصورة مطلقة . كما هو الحال فى الجزائر ، فإن لعنة حضارتين مختلفتين يفسر حادث غزو البلاد » (٢).

وكان العمال يعيشيون فى المستعمرات الخاصة بالموركسيين "las Morerias" بينما يعيش أساتذة المعمار مختلطين بالمسيحيين (٣) ، معظم هؤلاء

(1) للحصول على معلومات أوسع عن هذا الفن ، يمكن الرجوع الى Torres Balbas : arte mudejar وهو المجلد الرابع فى مجموعة Ars Hispaniae , 1949 .

(2) Henri Lapeyer :Geigraphie de L'Espagne morisqueP
أنظر الترجمة الأسبانية ص ٣٩ 27

(3) F. iniguez :Notas para la geografia de la arquitectura Mudejar en Aragon (Boletin de la real sociedad Geografica tomo 74 .)

الأساتذة الذين ندعوهم اليوم معمارين او مهندسين معماريين لا نعرف أكثر من أسمائهم ، ولا نعرف شيئا عن تكوينهم ولا عن توجهاتهم ، فقط تعرف ان واحدا منهم توجه لبناء سد على نهر الابرو فى إحدى المناطق سنه ١٥٤٢ ، وكان ممن يتتمون الى الطبقة الارستقراطية فى المهنة ، ونعرف ان واحدا منهم اسمه "زونزونيجى" وهذا لقب نادريين المورسكيين - قد تعاون مع "خوان دى أوريا" - حوالى منتصف القرن السادس عشر - فى تنفيذ بعض الأعمال المتنوعة وكان معظمهم نجارين مجهولين وبناءين وجصاصين وعمال تركيب قيشاني ....وقد ذكر أحد أفراد حراسة الملك فيليب الثانى ، نوعا من الخزف له إنعكاسات ، من إنتاج المورسكين فى منطقة بمحافظة سرقسطة ، نفس الشئ نجده فى "مانييس" وفى «اشبيلية دى طلبيره »(١) وفى العديد من الأماكن الأخرى التى تركت بصماتها على تاريخ الفنون الأسبانية ، أما الأعمال المعدنية التقليدية التى عرف بها المورسكيون فنجدها بصورة عادية فى كثر من الأماكن ، وقد احتكروا هذا النوع من الفنون تقريبا فى منطقة "كونيكا" وفقا «لجارثيا ارنال» وعندما وصل مرسوم الطرد العام الى قرطبة طلب مجلسها الاداري ان يستثنى من ذلك استاذان لما يتمتعان به من اتقان عند ممارستهما فن ركوب الخيل ولأنهما شيخان عجوزان وليس لهما أولاد(٢).

وقد كان يوجد بين المورسكيين فى «بلانثيا» صانعو غلايات وحدادون ، ونفس الشيء كان يوجد فى مناطق أخرى . وهذا قد يثير تساؤلا حول وجود نوع من العلاقة بين حدادة الخيتانو (الفجر) المتواضعة ، وبين الحدادة المورسكية ؟ . لكن المورسكيين لم يصنعوا الغلايات وحدوة نعال الخيول فقط ، بل إن واحدا منهم هو "خوان رود ريجز" قام سنة ١٤٧٨ بعمل صفائح رائعة من البرونز ، مغطاة بتوريقات وكتابات كوفية ، كانت موجودة على

---

(1) carmen Gonzalez Munoz :la pobolacion de Talavera de la reina . PP249 ,250. ,Madrid 1915 .

(2) janer (Florencio): condicion Social de los moriscos en Espana .. apendice 95 A . Dominguz artiz : la Historia .... P . 118 . وأنظر أيضا

بوابة العفو بإحدى الكاتدرائيات ، وفى نفس العاصمة أعد المعلم ابراهان والمعلم زايدى والمعلم هامية ، أعدوا آلة قيمة ، وصلت قيمتها الى ٢٠ ألف طن مرابطى وقدموها للملكين الكاثوليكيين (١)

أما المصنوعات الجلدية فقد نالت كثيرا من أهتمامات الموركسيين والموديخر (المدجنين) وقد ظهرت أعمال عديدة فى سجل الحالة المدنية الذى نشرة "لي فيلم" خاصا بهذه الاعمال . وقد جاء ذكر صناعة الاحذية بوفرة فى هذه الوثائق ، وفى القرن الثامن عشر نشر «أسو» كتابه عن "الاقتصاد السياسى لارجوان" وقال فيه «إن هذا الشعب الموركسي مشهور بصناعة المدبوغات ، حتى إنه يعتقد أن الموركسيين هم الذين أدخلوا هذه الصناعة ومن المؤكد أنه عندما صدر مرسوم الطرد العام سنة ١٦١٠ ، فإنهم منحوا تصريحا بالبقاء لمدة ستة أشهر بهدف تنظيم تجارتهم (٢) .

وكان الموركسيون أيضا يهتمون بصناعة السلال ، كما يصنعون أشياء أخرى من الحَلْفاء ، ويصنعون الحصير الذى يحملونه من شرقى البلاد الى العاصمة مدريد ، وقد ذكر ذلك «تيرسو» على لسان أحدى شخصياته التى تقول فى المشهد التاسع من الفصل الثالث ، الموركسيون ، ايها السيد هم الذين كانوا يبيعون فى الشوارع حصيرا مصنوعا من جريد النخل

ويبدو أيضا أن صناعة صواريخ الألعاب النارية كانت تقليدا موركسيا ، ولذلك فليس من باب المصادفة أن تحتفظ غرناطة ومرسية وبلنسية بهذا التقليد ، وقد أمكن لبعض القدامى أن يلاحظ اهتمام عدد كبير من المسلمين الأراجوانيين بصناعة البارود ، كذلك اتخذت محكمة التفتيش اجراء شهيرا ضد الموركسيين فى أراجون سنة ١٥٧٤ بسبب الأفراح التى أقاموها احتفالا بسقوط قلعة «جوليتا» وضياعها من أيدى القوات الاسبانية . وقد ثبت أن المسلمين كانوا يمتلكون مصانع البارود الذى كان

(1) Klaus Wagner : un padron desconocido de los mudejares de seville y la expulsion de 1502 / Al - Andalus' Vol xxxvi)

(2) Asso : Economia politica de Aragon , P . 150 أنظر.

A . Dominguez ortiz : obra citada , P 119 . وأنظر

يباع في بلنسية ، وكانوا يشترون ملح البارود من سرقسطة حيث كانوا يصنعون البنادق أيضا . كما كانوا يحتفظون بمخازن يحفظ فيها البارود داخل براميل في اماكن معينة .

وبالطبع فإن احتفالات القرى كانت تستخدم الرقصات والشعلات والصواريخ أو الأسهم النارية .

في سنه١٥٩٢ أمر فيليب الثاني بتوزيع الضرائب على المورسكيين الغرناطيين ، وهذا الأمر يعتبر مصدرا يمكن الاعتماد عليه لمعرفة ممتلكات وحرف المنفيين ، وقد درس "دون خوان ارنادا دونتيل" بايجاز ، مازودتنا به الوثيقة المذكورة خاصا بمدينة قرطبة ، ولاحظ فيها وجود قطاع زراعي مهم ، فقد كان يوجد بها مائة من الفلاحين الأجراء ، ٥٠ من المزارعين الخبراء في الزراعة اعتمادا على وسائل الري ، كما وجد أيضا كثير من الحرفيين الذين كانوا يمارسون مهنا متنوعة ، وكانوا يعملون إما لحسابهم الخاص أو لخدمة الآخرين ، وكان بين المورسكيين كذلك نجارون وحدادون وبناءون وجزمجية وأصحاب مصانع لعمل الحلويات ، ونساجون وصانعو نعال ، وخبازون ، ومن يصنع الحصر ويبيعها ... الخ وهكذا كون هؤلاء نواة تجارية ذات أهمية كبرى (١)

ويقول "لي" : «أما عن الناحية الاقتصادية فقد قيل إن المورسكيين كانوا يحتكرون تجارة الأغذية ، ويضعون يدهم على المحاصيل عند نضجها ، ومنهم تجار البقالة والماشية ، ومنهم القصابون والخبازون وأصحاب الفنادق وغيرهم ، وهم لا يشترون الأراضي قط احتفاظا بحرية استعمال أموالهم ، وكان ذلك من أسباب غناهم وقوتهم الاقتصادية »(٢)

---

(1) Don juan arnda Doncel : "Potencial económico de la poblacion Morisca en Cordoba" Boletin Real academia , ciéncian , Bellas letras y nobles Artes , 92 , 1972 , pp . 127 - 152 .

(2) Lea : the moriscos P . 210 - Y pp 207 . إنظر

أنظر عنان : نهاية الأندلس صفحات ٣٨١ ، ٤١٢ ، ٤١٦ ، ٤٢٣ ، ٤٢٦ ، ٤٣٠ .

وأنظر أيضا J : regla : Estudios sobre los Moriscos , pp . 235 - 238 حيث يذكر الاعمال الصناعية والتجارية عند المورسكيين ، وكيف ترك نفهيم آثاره على هذه النشاطات.

وكان النقل والتجارة البسيطة من الأعمال الموركسية التقليدية جدا ، وقد مارس هذا بصفة خاصة ، هؤلاء الذين طردوا من مملكة غرناطة ، وقد شكت المجالس البرلمانية الاقليمية من ممارستهم لهذه الاعمال ، ففى ١٥٩٣ مثلا قيل ان المورسكيين يتملكون دكاكين ومخازن للمواد الغذائية وأنهم يعملون خبازين وجزارين وسقاءين ، كما يمتلكون محلات لبيع المشروبات الروحية ، وكل هذا يعطيهم مجالا للكسب وتوفير الأموال الكثيرة (١) ، وفى مرات أخرى توجهت المدن مباشرة الى السلطات الجماهيرية ، مثلما فعلت وادى الحجارة فى ٢٩ يوليو سنة ١٥٩٨ عندما طالبت بوجوب أن يتخصص المورسكيون فى فلاحة الارض وزراعتها والعناية بالمراعى فقط ، لأنهم ربحوا كثيرا من عملهم» سماسرة (وسطاء) وتجار وأصحاب محلات ومن ممارستهم مهنا تجارية حصلوا منها على مكسب وفير من عمل قليل ، لأنهم طموحون ويعيشون متجاورين (٢) وقد أشار تقرير صادر من أشبيلية سنة ١٦٠٨ الى أن معظمهم كانوا تجارا ، متخصصون فى توفير والعناية بدودة القز وصناعة الحرير ، وهم يمارسون النقل بالبغال ويتملكون محلات للمشروبات الروحية .

وكان النقل على البغال يمثل جانبا من النشاط التجاري للمورسكيين ، ولأنه لم تكن هناك دوائر تجارية منظمة ، فكثيرا ما كان يعمل هؤلاء فى هذه المهنة لحسابهم الخاص ، وينقلون المنتجات من الأماكن التى يكثرون فيها الى تلك التى كانوا فيها قلة ، وكانت هذه المهنة ، وهى التى يندر وجود غيرهم فيها ، يجعل قيمتهم أكثر . والسر فى تكريس جهودهم لهذه الاعمال هو الرغبة فى الهرب من رقابة المسيحيين الشديدة عليهم ، والهرب من قسوة محاكم التفتيش ، ويمكن القول أيضا بأن المشكلة الغذائية فى

(١) محاضرات الجلسات ، المجلد الثالث عشر ص ٩٤ Actas , x III , P . 94 .
ذكره
A . Dominguez ortiz : la historia , p 120 ..
(2) Layna serrano : Historia de Guadalajara , III , 503 .
أشار الى ذلك والى غيره من المصادر
A. Dominguez ortiz :Historia ... p . 120 Y la nota 34 en la misma pagina .

الربع الأخير من القرن السادس عشر ، والتى يسرت جنى أرباح كثيرة من التجارة فى المواد الغذائية ، كانت وراء نزعة المورسكيين وطوافهم فى كل الطرق .

وهكذا يتضح أن هذا الشعب كون مجتمعا متماسكا ، قويا بنشاطه ودأبه وذكائه وقد قدر سفير البندقية عددهم بستمائة الف تقريبا فى اواخر القرن السادس عشر ، وقدرهم آخرون باربعمائة الف نسمة يومئذ ، وهو عدد ضخم بالنسبة لسكان اسبانيا الذى لم يتجاوز أنئذ ثمانية ملايين نسمة ، وقد وصفهم سفير البندقية فى سنة ١٥٩٥ أى بعد سقوط غرناطة فى أيدى المسيحيين بنحو قرن ، بأنهم شعب ينمو باضطراد فى العدد والثروة وانهم لا يشتركون فى الحروب ، ويكرسون جهودهم للتجارة واجتناء الربح، وذكر الأديب "ثيرفانتس" فى "حوار الكلاب" أن المورسكيين يتكاثرون ، وكلهم يتزوج ولا يدخلون أولادهم قط سلك الكهنوت أو الجيش ولا يدفعون نفقات لتعليمهم ويقتصدون فى الانفاق ، ويكتنزون المال . فهم الآن أغنى الطوائف فى اسبانيا .(١)

وقد واجهت هذا الشعب المورسكى عقبة تحول بينه وبين ممارسة نشاطه ، وهى منع الغرناطيين من تغيير محل أقامتهم ، لكننا نعرف أنهم أمكنهم التغلب على هذه العقبة بأكثر من حيلة ، وهناك طلب تقدم به سبعة من المورسكيين الى فيليب الثانى ١٥٧٧ ، يلتمسون فيه التصريح لهم بالغياب عن مساكنهم ودوابهم وقوافلهم «لإحضار زاد وشراء ثم العودة الى بيعه» والا فانهم سوف يواجهون الموت ، لأنه ليست لديهم وسيلة أخرى للحياة ، والتمسوا أيضا أن يمكنوا من حمل بعض الأسلحة ، بسبب عدم توفر الأمن الكافى فى الطرقات ، وعرضوا أن يقدموا كفالة فى مقابل ذلك» (٢) وليس معروفا ما اذا كان رجاؤهم قد تحقق أم لا ؟ ، لكن المؤكد أن المورسكيين

(١) انظر : J. Caro Baroji : los Moriscos ... PP. 213 - 215 -ومابها من مصادر وتعليقات ، وانظر كذلك

- lea : los Moriscos , p . 209

(2) E. Garcia chico : los Moriscos en Tordesillas (simancas) 1/440 - 441 .

سيطروا على نقل التجارات وغيرها عن طريق البغال فى منطقة قشتالة ، سواء حصلوا على ما أرادوه من تصريح أم لا ، وهذا هو الذى أشعر الناس بغيابهم عندما جرت أحداث النفى العام .

ولم يطرق الموريسكيون باب النقل البرى وحده ، بل وجدت فى "اراجون" نقابة لرؤساء أو قباطنة المراكب ، الذين وصل بهم الأمر الى احتكار الملاحة فى نهر الابرو[1] ، وقد برهن الموريسكيون بأساليب متعددة على كفاءتهم فى الملاحة ، رغم أن اهتمامهم بها لم يكن كثيرا ، وقد قدم لنا "ل . ب . هارفى " السيرة الذاتية لغرناطي طرد سنة ١٥٧٠ وأقام فى اشبيلية وأعجب بالبحر وما فى عالمه من عجائب ، ثم سافر فى السفن الكبيرة الى الهند ، وتعلم معارف عن المدفعية البحرية طبقت فيما بعد فى "جوليتا"[2] وقد أغمضت السلطات عيونها ازاء التطوع لهذا العمل وكان مضطرة لذلك بسبب ندرة الجنود والبحارة الذين يمكنهم مواجهة أخطار هذه الحرفة الهندية . وهناك احتمال ان كثيرين ممن ظهروا فى السجلات الرسمية بأسماء مسيحية ، وكانوا فى الحقيقة موريسكيين ، قد حصلوا على دراسات سمحت لهم فيما بعد أن يتحولوا الى قراصنة مخيفين . و بعض هؤلاء تمكن من إمساك سفن تحذير وتجارة ، وجدت منفصلة عن الأسطول الأم .

شئ بدا شائعا بين الموريسكيين هو مستواهم الثقافى المتدني ، واذا عرفنا أن نسبة الأمية بين المسيحيين القدماء كانت كبيرة ، أمكننا أن نتخيل المدى الذى وصلت اليه ثقافة الموريسكيين . لقد كان الرأى العام يصف الموريسكي بأنه شخص فظ غير مثقف ، يحتل آخر درجة فى السلم الاجتماعي بسبب عناده ، شخص ذو مقدرات خاصة ، تقنية ويدوية ، ولكنه بلا ثقافة . ولم يحظ العلماء والقضاة والبارزون فى هذه الجماعة باحترام المطارنة والأدباء ورجال القلم فى عهد كارلوس الاول وفيليب الثانى ، وكان

(1) Cabcudo Astrain : Noticias Y documentos sobre morescos aragoneses . Miscelanea de estudio Arabes Y Hebraicos . Granada, V, 1956 .
(2) The Morisco who was Muley zaidans spanish interpreta sama . Miscelenea de estudios ., VII, 1959 .

عوام المورسكيين موضع تندر وسخرية دائما(١)

ومع ذلك فلسنا نعدم بعض المثقفين بينهم ، ممن ظهروا فى ظل أوضاع معينة ، يقول "جونثالث دافيلا" إنه ظهر بين المدجنين فى تلك المدينة عدد غير قليل من الأطباء والكتاب العموميين والصيادلة ، يعنى عناصر البرجوازية المعتدلة المثقفة(٢) ، ويشير "فيرناندث نيفا" الى انه قد وجد فى احصاء "برينا" الذى أجرى ١٥٩٤ صيدلى وطبيب وكاتب عمومي ونائب وممثل فى المجلس البلدي ، أما "جاريثا ارنال" فقد وجد بين المورسكيين فى "كونيكا" (قونيه) كاتب عمومى وجراح ومتبل لبعض اللحوم المحروقة ، وهذا يدل على أن الفروق المحلية والاقليمية كانت عظيمة .

وبدلا من أن يعمل المجتمع المسيحى على رفع المستوى الثقافى لهؤلاء ، فانه كان يعارض تطوير الوضع الثقافى بينهم ، بل ان القرارات المهنية بل وحتى النقابات اليدوية قامت بدور نشط فى هذا الصدد ، مثلا من بين مرسومات "لوركا" مرسوم يرجع تاريخه الى حوالى سنة ١٥٢٨ يحرم على المورسكيين تولى وظيفة الكاتب ويحذر من ذلك(٣) وفى الالتماس الذى قدم بشأن السماح باحتفالات عام ١٥٧٣ ، طلب الا يتولى واحد من المورسكيين الذين قدموا الى قشتالة أية مسئولية عامة ، والا يكون من بينهم عرفاء ولا عالمين(٤)

نفس الشئ تعرض له العبرانيون ، وإن تميزوا بمقدرة ورغبة أقوى فى

---

(1) J. caro baroja : los Moriscos .. P. 145 انظر :

(2) Teatro eclesiastico de Avila (1618), historia de Felipe III obra Postuma Madrid 1771 نقلاعن

A. Dominguez ortiz : la historia ... P. 121

(3) ordenanzas de lorca, Granada, 1713,P. 108 .

نقلا عن نفس المرجع والموضع السابق

(٤) المقصود بكلمة عالمين Alamén - وواضح أنها عربية الأصل - تعنى المسئولين عن التفتيش على الموازين والمقاييس والأسعار فى الأسواق أما العريف Alarife فتعنى استاذ العمل أو «أسطى» المهنة ، وكانت شهرته أقل انظر التعليق رقم ٤٢ صـ١٢٢ من كتاب تاريخ المورسكيين لانطونيو دومنجيث اورتيث وزميله .

الاندماج ، وخير ما يمثل ذلك ممارسة المهن الطبية ، ففي العصور الوسطى كان اليهود يحتكرون هذه المهن ، ويأتي بعدهم من تحولوا الى المسيحية ، وان أضحى من غير الممكن القضاء على الأساطير التي زعمت ان الأطباء والصيادلة اليهود ، يقدمون السم ويقتلون المسيحيين بدافع الحقد الشيطاني نحوهم .

يتحدث أحد كبار الباحثين عن توزيع الاعمال في اسبانيا آتنذ فيقول: "ان المسلمين يعملون وينتجون ، بينما يسود المسيحيون في تكبر" ويتحدث آخر عن ذلك بقوله : "كان الايبيري الغالي يحتل مكان القيادة ، ويحتل اليهودي مكان الذكاء في الحياة الاقتصادية ، بينما يحتل العربي مهنة الكد في الحقول"(١)

ولكن هذا لا يمنع من الإعتراف بأن المسلمين كانت لهم مدرسة طبية قديمة وزاهرة ، وإن كانت أقل من المدرسة اليهودية ، وقد حظى علم هذه المدرسة بمؤيدين له من الشعب المسيحي ، ولكن "بليدا" يزعم أنه جرت محادثة مع واحد في بعض المقاطعات قال فيها : إن الأطباء المورسكين كانوا يقتلون - على الاقل - واحدا من كل عشرة من زبائنهم المسيحيين"(٢) وهناك أمر آخر واضح في الطب عند المسلمين ، هو الشك في أن علمهم كان مصحوبا بالسحر واستحضار الأرواح ، وأنه كان ينبثق عن مصادر تعتبر الحادا وهرطقة من الناحية العقدية ، وتعتبر شاذة من الناحية الادارية ، وإن كان هذا لم يحل دون لجوء كثير من المسيحيين يطلبون العلاج عند الأطباء المسلمين ، لأسباب شرحها بشكل واضح السيد "جارثيابييّ استير" (٣)

(1) Américocastro : Espana en su historia , cristionas, Moros Y Judiss, Buenos Aires, 1948, P. 57 .
- Orestes Ferrera : En el siglo XVI a la luz de los embajadores venecionos , Madrid 1952, P. 13 نقلا عن
Juan regla : Estudios .. P. 47, Nota 9.

(2) Bleda , jaime : Cronica de los Moros de Espana , Valencia
وقد ذكر المصدرين السابقين انطونيو دومنجيث : تاريخ المورسكيين صـ١٢٢

(3) El ejercicio medico morisco y la sociedad cristiana
بحث ألقى في الاكاديمية الطبية بغرناطة ١٩٧٥ وهو قسم من دراسة أوسع لم تنشر عنوانها : Medicina, Ciencia Y minorias marginadas : los Moriscos .

وقد ارتابت محاكم التفتيش فى الوصفات العلاجية التى كان يقدمها الموريسكيون ، ورأت انه ربما دخلها مس شيطانى ، وترتب على هذا القيام باجراءات عديدة ضد هؤلاء ، وقد قيل أن الطبيب الموريسكى لا يعتنى بالروح و اتهم بأنه يعتدى عليها حتى وهو يمارس الختان ؛ ولهذا فقد منعت القابلات الموريسكيات من ممارسة عملهن بمقتضى قرارات من المجامع الدينية صدرت فى قادش سنة ١٥٥٤ ، وبلنسية سنة ١٥٦١ وكونيكا (قونيه) سنة ١٦٠٢ .

ولم يكن الطبيب يعد اعدادا جامعيا ويمارس المهنة بعد التخرج ، ذلك أمر لم يعرفه المجتمع المسيحي الا فى نهاية العصور الوسطى . وعندما رأى الموريسكيون أن المجتمع ينظر اليهم بلا تقدير ، بالرغم من اعدادهم التقليدى ، واعتبرهم دخلاء ودجالين ، رغب بعضهم أن يصل الى الدرجة المهنية لزملائهم المسيحيين ، لكن عندئذ تدخلت عوائق التمييز والتفرقة ، ففى احدى جلسات البرلمان عام ١٦٠٧[1] ، شكا نائب من طليطلة من انه يوجد فى جامعة هذه المدينة ، وفى جامعات أخرى ، كثير من طلاب الطب من الموريسكيين ، والشئ الذى أضاع الثقة فى هذه المهنة أن المسيحيين القدماء لا يريدون مواصلة دراستها ، كما لا يرغبون فى مهنة الصيدلة ، حتى وصل الأمر الى أن أصبح كل الأطباء والصيادلة فى المملكة من الموريسكيين ، وامتلكوا مفاتيح حياة الجميع ، ولم يشك أحد النواب البرلمانيين فى صدق كل ما يشاع حول هذه النقطة ، ويقال أنه فى "مدريد وأماكن أخرى ؛ ألقت السلطات القبض على موريسكيين كانوا يسيرون ليلا لقتل المسيحيين ، لا لجرم الا بغضهم لهؤلاء المسيحيين ، وهناك طبيب ارتكب أمرا خطيرا ، فقد عرف من اعترافه هو نفسه أنه قتل ٣٠٤٨ نفس بظفر مسموم ، كذلك عاقبت السلطات الدينية فى بلنسية موريسكيا يعتبر اخصائيا وجراح عظام (مجبراتى) ، لأنه اعترف بأنه ترك داء الكساح بلا علاج عند من ترددوا عليه من المسحيين القدماء حتى لا يتمكنوا من حمل السلاح ..

(1) actas XXIII, 583

ويرغم كل هذه الشائعات السيئة ، ويرغم عدم تقدير المهنيين المسيحيين لزملائهم الموركسيين ، فإن هؤلاء الآخيرين كانوا اطباء ومعالجين ، ولم يعدموا زبائن بين المسيحيين القدامى ، فقط كان عدم حصولهم على شهادة رسمية هو الذى ينزل بمرتبتهم ، ويؤكد "أثنار كاردونا" أنه عندما تقرر طرد الموركسيين الآراجونين فإن طبيبا كبيرا إسمه «كالبيراوجد» هناك ، ولم يسمح له قط أن يبقى بين المسيحيين ، لأن الكثيرين اقنعوننا بذلك(١).

ومن الطبيعى أن يهتم الموركسى بالطبقات الفقيرة ، لأن الطبقات العليا تؤثر الطبيب الحاصل على مؤهل أكاديمى ، يعنى المسيحي القديم غالبا ، ومع ذلك فقد كان هؤلاء يلجأون أحيانا الى المصحات الموركسية خاصة عندما ينقطع الأمل من جدوى علاج أمراضهم عند المسيحين ، وعندئذ تحدث مواجهة بين الأسلوبين . يذكر بعض الباحثين ما حدث بين جراح مسيحي وبين جراح موركسي حول اسلوب علاج مرض الأمير "دون كارلوس" وهناك موركسي آخر حظى بشهرة كبرى عندما عالج من سيحمل مستقبلا لقب "فيليب الثالث" ، يعنى الملك الذى يسقوم بمهمة طرد الموركسيين أبناء جنس هذا الطبيب من كل البلاد عندما يؤول الأمر اليه ، طبيب موركسى آخر كان له فى بلنسية رواد من الطبقات العليا ، بينهم تجار ايطاليون أغنياء ، وما حققه هذا الطبيب من نجاح هو الذى يفسر دعوته الى البلاط وجداله مع المسيحيين القدامى الذين أساءوا به الظنون ، ويؤكد "بليدا" أن الطبيب الموركسى المسمى "رارو" هو الوحيد الذى لم تحدث منه صدامات عنيفة مع الأطباء المسيحيين الجامعيين ، وإن وصل البعض الى درجة الاعتداء الشخصي(٢)

وهناك طبيب موركسى آخر ، كان واحدا من بين الأطباء الموركسيين

(1) AZNAR CARDONA : EXPULSION ... FOLIO 68

فهل كان «كالبيرا» هذا واحد ممن حصلوا على درجة الدكتوراه فى الطب من جامعة بنلسية ، وفقا لـ «بليدات» ؟ سيكون من المفيد دراسة الوثائق الجامعية لمعرفته مدى الوجود الموركسي . وان كان اتجاه الموركسيين إلى اخفاء أصلهم ، سيكون عائقا امام هذا النوع من البحوث . انظر

A.Dominguez ortiz : la histori ... P, 123 Y nota 47 en la misma pagina .

(2)Defensio Fedei ... 368 ذكره نفس المرجع السابق صـ ١٢٣

العديدين الذين مثلوا أمام محاكم التفتيش ، وقد اتهم بأن له شيطانا يستأنسه ويخدمه ، وبفضل هذا الشيطان يصف العلاج الذى يجلب له الشهرة . واذا صح ما قاله "بورينيو" الذى الف مجموعة من الحكايات حول فيليب الثالث - فان الأمر وصل الى درجة كراهية الملك نفسه للأطباء الموريسكيين ، برغم أننا قد رأيناه يستعين بأطباء مسلمين لعلاج ماحل بأولاده من أمراض ، وقد لفت أحد كبار النبلاء نظر الملك الى الموريسكي النباتى العظيم ، الانسان الذى يقدم علاجا مفيدا جدا عن طريق استخدام الأعشاب لتسكين الآلام التى تنشأ فى الحلق ولكن الملك رفض وقال أنا لا أريد علاجا عن طريق هذه الوسائل السيئة(١)

إن التعارض بين أسلوب علاج هؤلاء الموريسكيين الأخيرين الذين ورثوا ثقافة ذات تقاليد قديمة وانتهى بها الامر الى التدهور والانحلال ، وبين ما تعلمه اليهود الذين تحولوا الى المسيحية من أساليب طبية ، أمر هام ، فاليهود منذ عهد الملكيين الكاثوليكيين وحتى عهد فيليب الخامس ، وبرغم ضحايا سوء الظنون وحتى ضحايا الاضطهادات ، الا أنهم برزوا بصورة واضحة من الناحية الاجتماعية ، بينما مثل الموريسكيون قسما من أقلية مثقفة ، كانت نوعيتها أدنى ، وما حظيت به من تقدير كان أقل ، بالأضافة الى عددها القليل . وليس من الممكن أن نضع مؤلفو الادب الألخميادى ذى المضمون المتواضع علميا بين المؤلفين البارزين ، ولا أن نضعهم مع الموريسكي الغرناطى "الونسوكاستيو" المترجم الرسمى فى زمن فيليب الثانى -، وهو نفسه الذى الف أو شارك مع موريسكى آخر هو ميجيل دى لوقا ، فى تأليف الحيل الموفقة بين تناقضات الكتب الكبيرة الموجودة فى "دير سكرومونتى الغرناطي"

---

(1) Porreno : Dichos Y hechos .. de Felipe II, Capitulo A .وانظر

Antonio Domunguez ortiz : la historia .. P. 124

(1) Dario Cabanelas : El Morisco granadino Alonsro del : انظر

castillo, Granada 1965 وكذلك

A.D . ortiz : la hiotoria .. P. 124

ويمكننا أن نذكر بين المثقفين البروتستانتى "كاسيو دودو دى رينا" الذى كانت له قيمة ثقافية لا يمكن إنكارها ، وهو صاحب الترجمة القشتالية للكتاب المقدس ، لكن نسبه المورسكي مشكوك فيه كثيرا(١)

واذا القينا نظرة على النشاطات التى أسهم فيها المورسكيون ، وفقا للمعلومات المقدمة فى الصفحات السابقة ، فسيكون من السهل علينا أن نلاحظ أنها جميعا تدخل في دائرة ما يسمى بالانشطة الحرة فى المجتمع ، ما بين أنشطة زراعية الى أخرى صناعية الى انشطة تجارية الى مهن حرة مثل ممارسة الطب والصيدلة وغيرها ، ولم يكن بينهم من التحق بعمل فى المؤسسات الرسمية للدولة أو الوظائف الحكومية ، وقد برعوا وأثبتوا وجودهم فى كل المهن والحرف ومجالات العمل التى مارسوها ، وقد كان نجاحهم سببا فى تبرم أعدائهم منهم وضيقهم بهم ، فأخذوا يلصقون التهم بهم ويستعدون محاكم التفتيش عليهم ، ويصفونهم بالشح والبخل والرغبة فى جمع المال واكتنازه تارة ، وتارة أخرى يرمونهم بأنهم يجمعون معلومات ويستغلون عملهم فى النقل والتجول للتجسس وتقديم تيسرات لأعداء اسبانيا تسهل هجومهم عليها ، واذا مارسوا الطب فهم دجالون يستعينون بالسحر والشعوذة والشياطين وليس لذلك من تفسير سوى الهوة الفاصلة والعداوة بين المجموعتين المتنافرتين والتى تنتمى كل منهما الى حضارة وفكر وثقافة ، تختلف عن فكر وحضارة وثقافة المجموعة الأخرى . وشعور المورسكيين بأنهم أقلية مظلومة مضطهدة ، تسىء معاملتها اكثرية مستبدة متغطرسة ظالمة .

وليس من شك فى أن هناك علاقة بين المستوى المهنى والاجتماعى وبين المقدرة الاقتصادية ، ومن كل ما قيل حول مهن أو حرف المورسكيين ، يمكننا أن نستنتج منه أن مستوى معيشتهم الاقتصادى لم يكن عاليا ، وأقصى ما يمكن اعتباره مستوى متوسطا ، ولا تنتظر أكثر من ذلك

---

(1) Ponsot توجد صور لبيوت قرية مورسكية فى «اراجون» اسمها Torelles فى مقال السابق ذكره

بالنسبة لأقلية تغلق أمامها مجالات النشاطات المنتجة كثيرا ، أقلية معظم أفرادها خدم فقراء أو عمال متواضعون ، أو أصحاب محلات بسيطة ، وليس بينهم من وصل الى درجة البرجوازية الحقيقية الا القليل ، ومع ذلك فقد شاع اتهامهم بالبخل ورميهم بإخفاء ثرواتهم تحت مظاهر بؤس خارجية ، وربما كان هذا حقيقيا فى بعض الحالات ، ولكنه لم يكن سمة الجميع .

ونحن نعلم أن المظهر الخارجي للمنزل الموريسكى كان متواضعا للغاية، ويتكون من مواد بناء بدائية ، وهو عبارة عن خشب وطين(١) وهو أقرب الى الأكواخ والكهوف فى النواحى الشرقية ، كما أنه مغارات يمكن مشاهدتها حتى اليوم بكثرة فى كل مناطق جنوب شرقي اسبانيا ، وكانت مظاهر البؤس والفقر بادية على هذه المساكن ، وان أخفت وراءها كنوزا حقيقية فى بعض الأحوال . يقول "كاسكالس" - الذى يعرفهم جيدا باعتباره من مرسية - إن بيوتهم تبنى بواجهة متواضعة خشنة من مواد بدائية وأساسات خشنة أيضا ، ومع بوابة منخفضة لا تسمح بدخول القزم بدون انحناء ، فإذا ما دخل الانسان ورفع رأسه ، اذا به أمام صالة وفراغ واسع مملوء بألف من الأشياء المدهشة ، السقف تغطيه فنون من زخارف ذهبية لامعة ، والحيطان تزينها كثير من التوريقات وصور الحيوانات المتنوعة ، ونجد هنا غرفة للفاكهة ، وهناك أخرى للحيوانات ، وثالثة للماشية ورابعة لأدوات الصيد والركائب ، والكل يُعَمّر فى مهارة فذة وعبقرية ، وترى أشكالا وألوانا متنوعة من المعمار تعشى العين ، وتأخذ باللب ، وتستولى على من ينظر اليها (٢)

من الطبيعى أن تكون المساكن الموريسكية التى تحتوى على هذا الرونق والبهاء قليلة جدا ، ذلك ان قلة من الموريسكيين هى التى تنطبق عليها عبارة «ثرفنتس» التى يكررها فى عمله الادبى «حوار الكلاب»

(1) Epistola a Juan de Arguijo en suscartas philologicas
A. Dominguez ortiz : la historia, P. 125 - Nota 54 وانظر
(2) Bennasar, B. Valladolid au siecle d' or, paris 1967

والتى تقول عنهم «أنهم يكدسون ويكومون أكبر كمية ممكنة من المال الموجود فى اسبانيا» ، ومثلها عبارات أخرى مشابهة ، نراها تصورة مألوفة فى أدب تلك الفترة ، فلسنا ننكر إمكانية أن يكون بعض المورسكيين الأثرياء ، وليس هذا غريبا ، فمن الممكن العثور على نماذج من هؤلاء الاغنياء مثل «لثرو لويث» - الذى ذكره «بناسار»(١) والذى امتلك مصبغة للحرير استغل بنى قومه للعمل فيها ، وعقد صفقات تجارية بلغت قيمتها ثمانية آلاف «دوكاس» سنويا ، ومثل فرنسكو الطليطلى - الذى جاء ذكره فى تقرير عام ١٥٩٦ - حيث أشار التقرير الى أنه مورسكي من طليطلة يقيم فى «مدريد» وهو أكثر تجار الحديد أهمية وكان يعقد صفقات تجارية ، كما عقد صفقات تجارية فى الاسلحة البيضاء والبنادق أيضا(٢) .

انه من الممكن أن توجد عقلية مثل تلك التى وصفت فى مسرحية «السيد واليهود» والتى تنظر بشئ من العطف الى امكانية توافر مورسكيين أغنياء ، يفكرون فى خداع وارهاب محاكم التفتيش ، وهناك فصل رئيس من هذا النوع نجده فى رواية "ثيسبيدس وميثيسيس" يقول : طلب صعلوك من تاجر مورسكي ، رحل من بلد الوليد الى اشبيلية ، أن يريه بضائعه ، فقدم له التاجر أقمشة مصنوعة فى "سيجوبيا" وفى "بايزا" وكان يخفى بينها صندوقا صغيرا فى شئ من المكر ، وفى اليوم التالي كرر الصعلوك ما فعله فى اليوم الأول ، وأراد أن يأخذ الصندوق فرفض التاجر أن يعطيه له وأصر ، ثم فتحاه ، ولما فتح وجدت بداخله صرة صغيرة من الذهب تضم صورة محمد صلى الله عليه وسلم مع ميدالية على شكل قمر ونسخة من القرآن، عندئذ ارتعد التاجر رعبا ، واشترى سكوت ذلك الرجل بـ ٤٠٠ دوكادوس.(٣)

ولكن نصل الى نتائج متيقنة عن ثروة المورسكيين ، فأنه لا محيص عن دراسة وثائق متنوعة ، مثل قوائم جرد ممتلكاتهم ، والمحاضر الرسمية

(1) Bennasar , B. Valladolid au siecle d, or paris 1967
(2) Braudel obra citada , 11 , 128
وانظر ايضا A. Dominguez ortiz : obra citada P. 125
(3) El soldado ?indaro, libro 1 , capitulo 22

وسجلات المتلكات التى تركوها ساعة إبعادهم من البلاد ، ورغم أن قسما صغيرا من هذه المادة قد ردس ، الا أنه يكفى لاستخلاص بعض النتائج .

لقد نشر "خوان مارتينيث رويث" عددا من الوثائق حول ممتلكات المورسكيين فى غرناطة (١) ، كما نشرت وثيقة عن العقارات التى تركها المسلمون فى "ابيلا" ضمن "دراسات سيجوبيانوس"(٢) وقدم "جارثيا ارنال" بعض معلومات عن ممتلكات المسلمين المنصرين فى محافظة كوينكا (قونيه) وتحتل وثائق ممتلكات المورسكيين قسما كبيرا من أوراق دار المحفوظات العامة فى "سيمنقة" وغيرها من دور المحفوظات (٣) وفيما يتعلق بممتلكات المورسكيين فى مملكة قشتالة ، تعرف أن قميتها الاجمالية وصلت الى ٣١٣ر٦٥٧ر٤٣٠ مرابطى ، بينها ٢٥٤ر٣٥٠ر١١٣ ممتلكات من ينتمون لقرى الاقطاع ، هذا فيما يتعلق بالأصول ، ومحتمل أن تكون هناك أشياء قد تركت ، وعلى كل حال فان هذا يؤكد أن المورسكيين لم يكونوا فى مجموعهم شعبا بائسا .

لكن يبدو واضحا أيضا أنه كانت بينهم اختلافات ملحوظة تتعلق بما لهم من ثروات ، فمعظم المورسكيين فى مملكة بلنسية ، كانوا يعيشون حياة مشحونة بالعمل ، يكدون ويتعبون ، فقط للوفاء بالإنفاق على المسئوليات التى كانت تثقل كاهلهم ، وهذا لا يمنع أنه كان بينهم أثرياء للدرجة التى تجعلهم يقرضون جيرانهم المسيحيين ، وعندما حدث الطرد فان اعتماداتهم تجاوزت قيمتها ٦٧٩ر١٩٧ جنيها وفقا للبيانات الرسمية ، وهذا مبلغ مهم حقيقة بالنسبة لهذا الزمن .(٤) ويشير "كابيثنودا" الى أن المورسكيين فى "اراجون" كانوا فقراء تقريبا ولكنه يضيف فى نفس الوقت ان أسرا معينة منهم ، كانت غنية فى الأثاث والأقمشة والحلى والفضة . وفى غرناطة

(1) Inventarios de bienes de moriscos en reino de Granada Madrid 1972

(2) ano 1962, PP. 472 - 475

(3) A. dominguez ortiz : los moriscos, P.126 ynota انظر

(4) E. Ciscar pallares : prestemistas moriscos en Valencia (cudernos de historia N. 5 .

وكان الجنيه البلنسى يساوى عشرة ريالات من الفضة ، وهى تساوى تقريبا ٧٠٠ بنرتة حسب اسعار سنة ١٩٧٦ ، انظر :

Antonio Dominguez ortiez : obra citada, P. 126 Y nota 61

كانت هناك أقلية ثرية أفرادها كثيرون ، ويمكن أن تكون قوائم الجرد المعروفة الآن ، مؤشرا يدل على مضمون مستوى الحياة آنئذ ، ويمكن تقديم مثل على ذلك ، يتمثل فى صداق امرأة أحد تجار الحرير الذى صادرت محكمة التفتيش ممتلكاته ، وحكم عليه بالاعدام حرقا ، واحتفل بتنفيذ الحكم فى فبراير سنة ١٥٦٦ ، وقد جاء فى الوثيقة أن هذا الصداق كان عبارة عن مساحة من أراضى الرى وصلت الى ثمانية قنوات ، ومجوهرات من الذهب ، وجلود مشغولة ملونة ، وأثواب من الحرير ، وأشياء أخرى بلغ اجمالى قيمتها ١٢٥ر١٤٢ مرابطى (١) وتوجد احصائية رسمية عن قيمة ممتلكات الموريسكيين فى مكانين فقط . أحدهما هو قرطبة وقد وصل الى هذه المدينة ٧٠٠ أسرة غرناطية ، وقد تم اجراء حصر لممتلكات هؤلاء الموريسكيين ، بمناسبة الضرائب التى تقرر فرضها عليهم سنة ١٥٩٢ ، وقد وجد أن نصفهم تقريبا لا يمتلك شيئا ، ووجد مجموع قيمة ما عند النصف الباقى ٤٢٠٢٥ دوكادوس ، بمعدل مائة دوكادوس تقريبا لكل أسرة . لكن بعض الأفراد كان له حظ أوفر من غيره، مثلا أحد تجار التوابل امتلك مع صهره ٢٨٠٠ دوكادوس ، وامتلك الأخوان ، "ميجيل وخيرنمو لويث" ، تاجرا الحراير ١٨٠٠ دوكادوس ، بينما اقترب البعض الآخر من الرقم ١٠٠٠(٢) وهذه ، وان كانت ارقاما معتدلة فى حد ذاتها ، الا أنها تتضمن أهمية خاصة داخل مستوى الدخل الموريسكى .

والمكان الثانى هو مدينة "أورناتشوس" وهذه المدينة تابعة لاقليم "استريمادورا" وكل سكانها تقريبا من الموريسكيين ، والقائمة التى دونت ماتبقى من ممتلكات الموريسكيين منذ نفيهم من البلاد ، تشتمل على البيانات الآتية :

١٠٠٠ مسكن قيمتها تقريبا ٣٠ ألف دوكادوس

١٠٠٠ فاينجاس (مقياس مساحي) من الأرض قيمتها ٣٠ ألف

(1) K. Garrad : la industria sedera granadina del siglo XVI, "Miscelanea de estudios arabes" V, ano 1956" .

(2) J . Arada Doncel : Potencial economica de la poblacion morisca en cordoba. "Boletin de la. R. academica de Cordoba.

دوكادوس

۱۰۰۰ من الكرم ، قيمتها عشرة آلاف دوكادوس .

٤۰۰۰ فاينجاس من الأراضي الزراعية قيمتها عشرة آلاف دوكادوس

۸۰۰ بستان قيمتها ۲۱ ألف دوكادوس

۷ أبراج حمام قيمتها ۳۰۰ دوكادوس

۱٥۰ من الخلايا قيمتها ۸۰۰۰ دوكادوس

۸ طواحين قيمتها ٥۰۰۰ دوكادوس

٤ مدابغ قيمتها ۱٥۰۰ دوكادوس

۱۹ مكتبا مخصصة للنواب وللكتاب العموميين فى المجلس الادارى قيمتها ٦٥۰۰ دوكادوس

۲۳۰۰ الاجمالى (۱)

وربما كان هذا الرقم أقل من الواقع ، فهناك أشياء أهملت وتركت ، وهناك أشياء يتوقع إخفاؤها أو كتمانها ، ويلاحظ ان القائمة تتضمن فقط الممتلكات الثابتة ، وتنفى أشياء أخرى لم تدخل فى التقدير مثل المجوهرات والأموال النقدية والأشياء المنقولة وكذلك الأشياء ذات الطبيعة الصناعية والتجارية ، وكانت هذه الأخيرة متوفرة بكثرة ، ولدينا معلومات عن بعض الأغنياء بين الفلاحين المورسكيين ، مثل "بيثنتى دى لاتورى" من توثينا" بمحافظة اشبيلية ، وكان يمتلك عنبا وزيتونا قيمته ۱۲ ألف دوكادوس ، وقد طلب تصريحا ليبيع منها ، حتى ما قيمته الفين ، لتغطية تكاليف رحلة السفر ومغادرة اسبانيا ، ولكن طلبه رفض (۲) ، ومثل هذه

(1) Archivo general de simancas . CJ H. 503
(2) Biblioteca Nacional ms . 9577 .

وانظر فى كل ماسبق

A. Dominguez ortiz : la historia .. P. 127 Y las notas

الحالات لا يمكننا انكار وجودها ولكنها كانت نادرة ، لا تمثل السمة العامة، أما الثروات المعتبرة فكان معظمها فى أيدى التجار والوسطاء .

ويمكننا من خلال ما سبق وفى حدود المعلومات المتاحة أن تكون انطباعا مؤداه أن الوضع الاقتصادي الادنى كان من حظ الموركسيين فى بلنسية وأراجون ، لأنهم جميعا تقريبا كانوا يعملون فى فلاحة الأرض ، وكانوا - بالاضافة إلى ذلك - عرضة لابتزازات سادة الاقطاع ، أما أعلى المستويات من حيث المستوى الاقتصادى ، فكان موجوداً بين المدجنين القشتاليين وخاصة الموركسيون الغرناطيون ، يستوى فى ذلك القلة التى بقيت فى مكانها الأصلى ، مع تلك الجماهير التى تشتت فى قشتالة والتى أمكنها ، فى معظم الحالات ، التغلب على الظروف الصعبة والوصول إلى مستوى من الرخاء الاقتصادى لابأس به ، وكان لهؤلاء ميزه على نظرائهم هى أنهم تحرروا وتفضوا عن كاهلهم قرونا من الظلم والاضطهاد بخلاف القشتاليين الأصليين أو البلنسيين أو الاراجونيين ، فهؤلاء لم يكونوا ضعافا من الناحية المادية فحسب بل وعاشوا أذلاء يقهرهم السادة ورجال الاقطاع .

أما الموركسيون الغرناطيون فقد حافظوا على تراث صنعوه بمجهوداتهم حتى جاء زمن نفيهم من البلاد . واذا كان لم يكثر بينهم عدد الاغنياء ، فقد وجد فيهم مجموعة من الطبقة الوسطى الريفية والغنية ، عاشوا نوعا من الرخاء المحقق . يؤكد هذا بالنسبة لمناطق "آلمرية" - البروتوكلات أو المراسيم التى درسها «نيوكولاس كابريانا» والتى أوضحت أن الموركسيين كانت عندهم ممتلكات كبيرة ، بفضل كدهم المتواصل وبفضل حاسة الادخار التى كانت متوفرة لديهم ، وقد وصل الامر إلى درجة أن معظم الموركسيين الذين أقاموا فى مناطق "آلمرية" الحالية كانوا جميعا تقريبا من الملاك ، وكان كل واحد يتملك منزلا وضيعة ريفية ، يدل على ذلك وثائق توزيع الممتلكات التى تدل على أن عدد السكان فى كل مكان ، كان يتساوى مع عدد الملاك بشكل مستمر ، ولابد أن نستبعد لهذا

السبب القول المطروق عن المورسكي من أنه تنقصه أكثر الاشياء الضرورية للحياة . لقد كانوا على العكس من ذلك يمتلكون - بعضهم على الأقل - أفرانا وطواحين للدقيق والزيت . وأراض تعتمد فى زراعتها على الرى ، وأخرى تعتمد على الامطار ، وبساتين وأشجار عنب وزيتون وتوت ، أما الاجراء البسطاء فكانوا قلة فى هذا الاقليم ، وتظهر لنا وثائق هذه المنطقة أيضا أن المورسكيين كانوا رعاة مهمين ، وكانت قطعان مواشيهم تنزل مراعى منطقة البشرات (١) .

وإذا كان ممكنا أن نؤكد هذا فى أشد الأجزاء فقرا من هذه المملكة ، فإنه من الممكن بالاحرى أن نتكلم عن ازدهار مادي للمورسكيين فى مالقة وغرناطة ، خاصة بقايا الارستقراطية القديمة والبرجوازية التي كانت تقيم فى منازل مريحة بعاصمة السلاطين القديمة حتى النصف الثانى من القرن السادس عشر ، ويذكر «كابيرانا» أن حسد المسيحي الفقير للمورسكيين ، كان من بين العناصر التي سممت العلاقات بين الجماعتين ، وهناك احتمال أن هذا الشعور لم يكن له وجود فى مملكة غرناطة القديمة وحدها بل وفى غيرها أيضا .

والآن نحاول أن نتعرف على جانب آخر من جوانب حياة هؤلاء المسلمين المنصرين ، هو ماتميزوا به من إقامة شعائر وتقاليد اسلامية ، ومحاولة أعدائهم محاربة هذا الجانب فيهم وإبعادهم عنه ، بالحسنى والتبشير مرة ، وبالقسوة والعنف مرات .

(1) Cabrillana ciezan Nicol1as : Esclavos Moriscos en la Almeria del siglo XVI, A.l-Andalus 1975, PP. 53 - 128

الفصل السابع

الموريسكيون والشعائر الإجتماعية والدينية

محاولات تبشيرهم وجذبهم ووسائل زجرهم

بعد أن استولى المسيحيون على غرناطة ، وأحكموا قبضتهم على كل بلاد الاندلس ، بدأت الشعائر الاسلامية تدخل دور الإضمحلال فى تلك البلاد ، ومنذ اللحظة التى كتب فيها على المسلمين أن يتنصروا بالقوة، فان مجتمعهم تحول إلى جمعية كبيرة شبة سرية ، وكان على الفقير أن يؤدى مهمته فى حذر شديد وعلى رئيس الجماعة أو كبير القوم أن يخفى رتبته حتى لايلفت الانظار إليه ، وكان على الغنى أن يتصنع الفقر ، وعلى المسلم المخلص الصادق الولاء أن يتكلف الاخلاص للكاثوليكية ، ومن لم يستطع ذلك ، فقد كان واجبا عليه أن يغادر البلاد ، ويمكن القول ان المسلمين الغرناطيين عاشوا فترة تصل إلى ٦٠ سنة تقريبا يدارون السلطات الرسمية ؛ لأن العادات والتقاليد والأفكار القديمة كانت تسيطر عليهم ، رغم أنها أصبحت أكثر تواضعا وفقرا من حيث النوعية والرتبة ، لقد اتبعوا النظم والأساليب الاسلامية فى كل مؤسساتهم ، واحترموا الآباء والكبار كثيرا ، وكان الجيمع يلتقون رجالا ونساء فى المناسبات الكبرى ، وتشارك النسوة فى المناسبات الاجتماعية بصورة تتواءم مع موضوع المناسبة(١) .

وقد اهتم بهذا الموضوع «دون بدور لونجاس» وكتب عنه كتابا بعنوان «الحياة الدينية للمورسكيين» صدر فى مدريد سنة ١٩١٥ ، وقد أوضح فى هذا الكتاب المعالم والفرائض الدينية التى حافظ عليها المورسكيون . وليس هناك بأس من محاولة التذكير بها اعتمادا على هذا المرجع بصورة أساسية .

التقويم الاسلامى : العنصر الأساسي فى ذلك التقويم هو صوم أيام شهر رمضان وإحياء لياليه ، وتناول وجبتين فقط تتكونان من عجينة تطبخ فى الزيت مع شئ من الجبن ، وفى نهاية هذا الشهر يحتفل المسلمون بانتهاء الصيام وبعيد الفطر ويكثرون من الاحسان إلى الفقراء ، وكان المسلمون الغرناطيون فى العهد النصيرى يدفعون زكاة الفطر فى شكل مقادير من القمح ، أما العيد التالى فكان عيد الأضحى أو العيد الكبير ، ويحتلفون به لمدة أربعة أيام ، وهو نفسه الذى يسميه المسيحيون عيد

(1) J. caro Baroja : los Moriscos .. PP. 118, 119

الفصح أو فصح الخروف ، لأن الكباش تذبح فيه لتذكرنا بفداء سيدنا ابراهيم لابنه الذبيح ، وبعد ذلك بأربعين يوما يحتفل المسلمون بليلة عاشوراء أو يوم الانبياء ويصومون ذلك اليوم ، وبعد ذلك بثلاثة أشهر يأتى الاحتفال بعيد اسلامي لعله عيد ميلاد النبى صلى الله عليه وسلم فهو الذى يأتى فى الشهر الثالث بعد العاشر من محرم أى يوم عاشوراء .

وكان الموريسكيون يخصصون أيام الجمع للصلاة وعمل البر والاحسان تحت اشراف الفقيه أو الرئيس الدينى للمجموعة ، وكانوا يتوجهون إلى المسجد فى منتصف النهار لأداء صلاة الجمعة بعد أن يغتسلوا ويرتدوا ملابسهم النظيفة ، ويستمعون إلى التلاوة والموعظة والذكر ، وقد يلتقون على طعام جماعى .

وهناك أوقات أخرى لها طابعها المميز فى الحياة الدينية عند الموريسكيين ، تلك التى تتفق مع الأحداث الكبرى المرتبطة بالأسرة ، فقد كان الموريسكيون يهتمون كثيرا بالاحتفال بالمناسبات الأسرية مثل الميلاد والختان والأفراح والموت ، وكان الطفل يعمد عند الولادة ، ولكن الموريسكي كان يلغى ذلك التعميد عن طريق غسل الابناء بماء ساخن لازالة آثار الزيت المقدس ثم يكملون الشعائر الاسلامية ، ويخلعون على الطفل اسما اسلاميا ذا وقع حسن ؛ ولهذا اذا نظرت إلى ثورة الموريسكيين بغرناطة تجد رؤساء حملوا اسماء وألقابا اسلامية مثل فرج بن فرج ، وآخرون عرفوا باسماء وألقاب مسيحية مثل ميجيل دى روخاس ، وآخرون عرفوا باسماء مشتركة مثل دياجولويث ابن ابو أو فرنسسكو نونيث مولي ، أخيرا لانعدم من نسبوا إلى الاماكن التقليدية لقبيلتهم مثل «لوس بالروس» los valores ورئيسهم «البالور» el valor ، وقد نجد من ينسب إلى العنصر أو الاصل مثل الحسينى ، الحباقي ، الغوري ... الخ ، ومأأن يبدأ الطفل الكلام حتى يعلمه آباؤه من المسلمين الحذر والاحتياط فى مواجهة المسيحيين ، ويذكر «أثناركاردونا» - وهو أحد أعداء الموريسكيين - روايات تعكس وضع الاطفال الموريسكيين فى «أراجونة» ، وعلاقاتهم بالمسيحيين ، وقد كانوا يلقنون أن النصرانى كائن حقير نجس قذر ، ليس عنده خلق فاضل ولاضمير ، وكان الموريسكيون يكرهون المسيحيين ، ليس فقط للاختلافات الدينية ، بل لأن العادات بين الجماعتين كانت متباينة من

جذورها وأصولها (١) .

إن هناك نقطة يتفق عليها كل المسيحيين تقريبا ، هى اعتبار أن المسلمين متساوون فى تطبيق التعاليم القرآنية وفى صور العادات والتقاليد والأساليب الفنية ، إن الثقافة الاسلامية فى عين المسلم تمثل كلا متكاملا ، وهي واحدة بلا اختلاف من اسبانيا إلى ايران .

يقول أحد الباحثين عن مسلمى غرناطة "أن محلاتهم ومنازلهم كانت تغلق بأبواب بسيطة من الخشب ومسامير من الزان ، كما هو الحال فى مصر وافريقية ، وكل المسلمين يستخدمون نفس الادوات فى المنازل ويقومون بنفس الشعائر"(٢) . بعد ذلك بزمن طويل جاء سفير الملك فيليب الثالث لدى البلاط الفارسي ليتحدث عن مدينة جاوه فيقول «إن نفس شكل الشبابيك فيها هو نفسه الشكل الذي رأيناه باقيا فى بعض المنازل الكبيرة القديمة فى اسبانيا أو هو ماشاهدناه فى غرف الحصون الرئيسية بنفس الفترة .. إن نفس اسلوب مبانيهم وملابسهم يشبه ماكان معمولا به فى الجزيرة العربية (٣) ....» ويقدم «مارمول» صورة مجملة لحياة الموريسكيين فيشير إلى أنهم عندما كانوا يتزوجون كان يحملون العروس إلى الكنيسة مرتدية ملابسها على الطريقة المسيحية بتكليف من القساوسة ، ثم يعودون إلى منازلهم فيخلعون تلك الملابس ويلبسون الملابس الاسلامية ، ويعقدون العقد وفقا للأسلوب الاسلامي ، ويقدمون أطعمة وأغان اسلامية ، وكان المرأة تحمل دبلة أو طوقا كما كانت تتحلى ببعض المجوهرات ذات الطابع الدينى وفى سنة ١٥٢٦ حرم على الموريسكيين الغرناطيين لبس الطوق كما حرم عليهم احضار بعض الصحف المقدسة ، التى كانوا قد تعودوا حملها فى أيديهم مكتوبة باللغة العربية (٤)

(١) انظر المرجع السابق صـ ١٢٠ - ١٢٢ وكذلك
نقلا عن المرجع السابق aznar cardona , Folio 112 r

(2) Jeronimo Munzer : vieje por espana Y portugal 1494 - 1495 traduccion de jose lopez toro, Madrid 1951, PP. 43, 44

(3) Garcia de silvo Y figuero : comentarios de D.. de la embajada que de parte del ray de espana don Felipe III hizo al rey Xa Abas de persia , T, Madridi 1903, II 1905, I , pp 205 , 206 .

(4) Marmol Carvajal (Luis de) libro ... cap. I, pag, 129 .
وعن ذلك كله راجع J. caro Baroja : los Moriscos ... PP 122 -125

ولقد كان الفقهاء يمارسون دورهم في هذا المجتمع بصورة سرية وكانت معرفة هؤلاء للقوانين الاسلامية أقل ، لكنها كانت تكفي وفاء بالحاجة ، وكان هؤلاء يشجعون على الزواج ويدعون إلى العمل ، وقد عاد المؤذنون إلى الظهور خلال الثورة ، وعادت الوظائف التى كانت قد اختفت مثل وظيفة المفتى الذى كانت مهمته ضرورية ، وظهر قديسون نسبت لهم الكرامات وعمت شهرتهم الآفاق .

وفى بداية القرن السابع عشر كان الموريسكيون فى مرسية وجيان والباقون منهم بغرناطة يصومون رمضان ويحتفلون بعيد الفصح (بعيد الأضحى) وبأول العام الهجرى ، ويحافظون على تقاليدهم الدينية والاجتماعية ، فكانوا يؤدون الصلاة ويتوضأون بدقة ، ويمتنعون عما تنهي عنه عقيدتهم ، وكان الالتزام بذلك علانية مدعاة لسخرية المسيحيين القدامى .. لقد كان الموريسكيون صارمين فى مراعاة المحرمات ، فهم لايشربون الخمر ، خاصة سكان المناطق الشرقية ومملكة بلنسية حيث توجد تجمعات موريسكية عظيمة ، وحيث وجدت مزارع عنب كثيرة ومع ذلك لم توجد معصرة عنب واحدة ، وكانوا لايأكلون لحم الخنزير ولايستخدمون شحمه ولايسمحون لثيابهم أن تمس هذا الحيوان ، كذلك لم يأكلوا اللحم غير المذكى زكاة شرعية ، ولا الاشياء التى يحتمل أن يكون قد دخلها شئ من الخنزير ، كذلك لم يأكلوا اللفت والفجل والجزر ، لاعتقادهم فى قذارتها ، وكانت علامات اختلافهم عن المسيحيين تتركز فى أمرين هما اللغة واللباس [1] .

وقد وصف أحد المطارنة الموريسكيين سنة ١٥٦٥ بقوله : «إنهم خضعوا للتنصير ، ولكنهم لبثوا كفرة فى سرائرهم ، وهم يذهبون إلى القداس تفاديا للعقاب . ويعملون خفية فى أيام الاعياد ، ويحتفلون يوم الجمعة أفضل من احتفالهم بيوم الاحد ، ويستحمون حتى فى ديسمبر ،

(1) A. Gonzalez palencia : cervantes Y los Moriscos P. 109 انظر

وانظر ايضا بعض التفصيلات عند

J. Caro paroja : los Moriscos 130 Y la nota 63 en la misma pagina Y PP 136 - 140

ويقيمون الصلاة سراً ويقدمون أولادهم للتنصير خضوعا للقانون ثم يغسلونهم لمحو آثار التنصير ، ويجرون ختان أولادهم ويطلقون عليهم أسماء عربية وتذهب عرائسهم إلى الكنيسة فى ثياب أوربية . فان عدن إلى المنزل استبدلها بثياب عربية ، واحتفل بالزواج طبقا للرسوم العربية(١).

ويعلق الاستاذ محمد عبد الله عنان على هذه النصوص فيقول :

والظاهر أن هذه الأقوال تنطوى على كثير من الصدق ، ذلك أن الامة الموريسكيين المهيضه ، بقيت ، بالرغم مما يصيبها من شنيع العسف والارهاق، متعلقة بتراثها الروحي القديم . وبالرغم مما فرض على الموريسكيين من نبذ دينهم ولغتهم ، فقد لبث الكثير منهم مسلمين فى سرائرهم ، يزاولون شعائر دينهم القديمة خفية ، ويكتبون أحكام الاسلام والأدعية والمدائح النبوية بالقشتالية الأصلية أو بالقشتالية المكتوبة بحروف عربية ، التى تعرف بـ« الالخميادو» أى الاعجمية ، وقد انتهى إلينا الكثير من الكتب الدينية والادعية والمدائح الاسلامية الموريسكية مكتوبة بها ، وكثير منها يدور حول سيرة النبى العربى صلى الله عليه وسلم ، وشرح تعاليم القرآن والسنة ، يتخللها كثير من الخرافات والاساطير المقدسة، بيد أنها تدلى بما كانت تجيش به هذه النفوس المعذبة من إخلاص راسخ لدينها القديم ، وإن التبست عليهم أصوله وشعائره بمضى الزمن (٢).

وقد جاء في تقرير من المطران «ريبيرا» إلى الملك سنة ١٦٠١ أن الدين هو دعامة المملكة الاسبانية «وأن الموريسكيين لايعترفون ولايتقبلون البركة ولا الواجبات الدينية الأخيرة ولايأكلون لحم الخنزير ولايشربون النبيذ ، ولايعملون شيئا من الأمور التى يعملها النصارى ، وان هذا المروق العام لايرجع إلى مسألة العقيدة ، ولكنه يرجع إلى العزم الراسخ فى أن يبقوا مسلمين كما كان آباؤهم وأجدادهم . ويعرف المفتشون العامون أن الموريسكيين بعد أن يعتقلوا عامين وثلاثة وتشرح لهم العقيدة في كل

(1) Lea : the moriscos .:. P.213, 214 - Marmol : qbra citada, libro 11, cap. 1 وكذلك

عنان : نهاية الأندلس .. ص ٣٧٨ ، ٣٧٩ .

(٢) عنان : نفس المرجع السابق والموضع السابق .

مناسبة يخرجون دون أن يعرفوا كلمة منها . والخلاصة أنهم لايعرفون العقيدة ، لأنهم لايريدون معرفتها ولانهم لايريدون أن يعملوا شئيا يجعلهم يبدون نصارى (١) .

لقد كانت الأحداث الأسرية اذن بما فيها من زواج وميلاد وموت تتسم بطابعها المميز فى الحياة الدينية عند المورسكيين ، وكانت أكثر شعائر الميلاد أهمية هى تلك التى يحتفل فيها بالمولود حديثاً ، ذلك أنه فى اليوم السابع لميلاد الطفل كان يغسل وينظف بهدف تطيره ، وتحفر له نقوش على الجبهة وتعلق على رقبته تمائم فيها آيات من القرآن الكريم ، ثم يختاوون له اسما اسلاميا ، ويذبحون ذبيحة بهذه المناسبة . يضاف إلي هذه الشعائر «الختان» الذى كان يتم في اليوم الثامن بطريقة بدائية ، ثم أصبح يتأخر حتي وصل إلي العام الثامن . وكان من تقاليد المورسكيين أنهم يغتسلون بمناسبة الزواج . وكانت العروس تضع خمارا ملونا على رأسها ، وتتجه إلي منزل زوجها وتدخله بالرجل اليمني . وعندما يموت المورسكي كانوا يغسلون جسمه بالماد المعطر ، ويلبسونه أفضل الثياب ، ويقرؤون على الجسد ابتهالات وآيات من القرآن الكريم ثم يقومون . بدفن الجسد خارج العمران بأرض خلاء ويوجهونه ناحية المشرق ، وكانوا يضعون ماءا وخبزا وعناقيد من العنب الجاف على القبر .

وهناك أشياء يحرم المورسكيون أكلها للأسباب دينية يمكن حصرها فى ثلاثة : يحرم أكل لحم الخنزير ، ولاتشرب الخمر ولايؤكل لحم حيوان لم يذك زكاة شرعية .

ويزعم : . كاردياك(٢) أن محمد صلى الله عليه وسلم لعن الخنزير لأن ذلك الحيوان مسه ولطخ ثوبا جديدا كان يرتديه ، ولسنا ندرى من أى مصدر أتى بهذه القصة المختلفة فالخنزير محرم بصريح نص القرآن الكريم .

---

(1)longas, pedro : vida relegiosa de los Moriscos Madrid , 1915 P. LXVIII

وانظر عنان : المرجع السابق ص ٣٩٥

(٢) أنظر : lca :the moriscos, P. 213 , 214

و Marmol : abra Citada , libro II , cap. 1

وكذلك عنان ، نهاية الاندلس ص ٣٧٨ ، ٣٧٩

وفى أكثر من موضع . والعجيب أيضا ما يقال من أن هذه المحرمات دفعت الموركسيين إلى عدم أكل الفجل واللفت والجزر ، لأنهم يعتقدون أنها أشـياء مشتقة من الخنزير ، ومرة أخري لاندرى مـن أين أتوا بـهذه الأمـور ؟!!

باختصار لقد حافظ الموركسيون قدر استطاعتهم على كل الواجبات الدينية والاسلامية من صيام ووضوء وصلوات وزكوات وابتهالات ، وكل هذا كانت له أهمية كبيرة عندهم ، لهذا يذكر «مرثيدس جارثيا ارنال» أن الموركسيين وصل بهم الأمر إلي اعتبار «الحمّام» معلما من معالم هويتهم الثقافية (١) . فواجب المؤمن عند الفجر وقبل الصلاة الأولى أن يغتسل (يتوضأ) ويجب أن يكون ماء الوضوء نظيفا لا لون له ولاطعم ولا رائحة ، وكذلك ينبغي الا يكون مغليا ولا تستخدم حرارة الشمس فى تسخينه ، ويجب غسل الفم بعد كل أكل ، وكان من الممكن أن يؤدى المسلمون الصلاة بركوعها وسجودها سرا دون أن يطلع المسيحيون على ذلك ؛ وكانت أدعية الصلوات ومايتلى فيها من قرآن يدور بين الموركسيين خفية ، وكانوا جميعا يحفظون أول سورة فى القرآن الكيرم وهى سورة الفاتحة (٢) وكان عندهم المام بشعائر حج بيت الله الحرام وزيارة الأماكن المقدسة ، يدل على ذلك مخطوط عثر عليه فى «اراجون» عنوانه «أدعية الحج : رحلة إلى مكة فى القرن السادس عشر تأليف «بومى منثرون» ، وهذا يؤكد أنهم لم يكونوا يجهلون هذه الشعيرة رغم أنها كانت نادرة بيهم . ويبدو واضحا من ذلك كله أنهم لم يختلفوا عن غيرهم من المسلمين فيما يتعلق بأداء الواجبات الاسلامية ككل(٣) يقول مارمول . وهو المؤرخ الاسبانى الذين ادرك الموركسيين وعاش بينهم حينا في غرناطة - أنهم كانوا يشعرون دائما بالحرج من الدين الجديد ، فاذا ذهبوا الى القداس ايام الآحاد فذلك من باب مراعاة

---

(1)Mercedes Garcia Arenal : los Moriscos y la inquisicion de cuenca , tesis mecanografiada , ذكرها

Bernard vincnt : Historia de los Moriscos .. P. 92

(2)L. cardaillac, obra citada, P. 40

(3) B. vincent : obra citada, P. 92†

العرف والنظام ، وهم لم يقولوا الحقائق قط خلال الاعتراف . وفى يوم الجمعة يحتجبون ويغتسلون ويقيمون الصلاة في منازلهم المغلقة وفى يوم الأحاد يحتجبون ويعملون ، واذا عمد أطفالهم عادوا فغسلوهم سرا بالماء الساخن ويسمون أولادهم بأسماء عربية ، وفى حفلات الزواج ، متى عادت العروس من الكنيسة بعد تلقى البركة ، تنزع ثيابها النصرانية ، وترتدى الثياب العربية ويقيمون حفلاتهم وفقا للتقاليدالعربية (١) .

إن ممارسة المسلمين لشعائر دينهم لم تختف عندما حملوا علي التحول إلى النصرانية عام ١٥٠٢ فى مملكة قشتالة ، ولم تنته عندما أجبروا على التنصير فى مملكة اراجون سنة ١٥٢٦ وهناك وثيقة وجهها واحد من فقهاء المغرب إلى المسلمين المنصرين بالاندلس الذين يسميهم «الغرباء» ينصحهم فيها بتنفيذ ، أحكام الاسلام خفية وبطريق التستر ، هذه الوثيقة مؤرخة غرة رجب ٩١٠ هـ (٢٨ نوفمبر سنة ١٥٠٤م) . وكان من المناسب أن تطرح منذ اللحظة الأولى لهذا التنصير مشكلة صحته من الوجهة الشرعية بمعنى أنه كان لابد من الاجابة على سؤال مضمونة ، هل التعميد والتحويل إلي المسيحية بالقوة له قيمة وتترتب عليه آثاره ؟

لقد ارتفعت أصوات خلال القرن السادس عشر تستنكرهذا التحول إلى المسيحية استفادا على سببين ، الأول أنه بطريق القهر والاكراه ، الثانى أن هذا يناقض المعاهدة التى وقعها المسيحيون مع المسلمين فى مملكة غرناطة فى الفترة ١٤٨٦ إلى ١٤٩٢ وأن هذه المعاهدة لم يحترم الجانب النصراني نصوصها (٢) وقد أعلن أحد الآباء الفرنسسكان - فى أواخر القرن نفسه «أن ذنب تحويل المسلمين إلى النصرانية يقع على كاهلنا نحن» (٣) وحتى

(١) انظر : له ما

Marmol carvajal , luis de : Historia de la relelion y castigo de los moriscos del reino de Granada libro 11, cap. 128, 129

وعنان : نهاية الاندلس ص٣٤٢

(2)Archivo general de simancas .patronato real 68 - 64

ذكره B. vincant : historia .. P. 93

(3) F. santo Niela : El prolelema Hispano - Morisca (siglo XVII "Revisto de Estudios Extrmenos" ano 1973, P. 47

انظر الوثيقة كاملة عند محمد عبد الله عنان : نهاية الاندلس ص ٣٤٢ ومابعدها

الملك نفسه لم يكن على يقين دائم من حقه في اتخاذ هذا الأجراء ، يدل على ذلك تردده فيما يخص تحويل المورسكيين فى بلنسية إلى النصرانية بنفس الأسلوب ، فقد مضى عام ونصف العام بين اللحظة التى تم فيها تحويل بعض المساجد نهائيا إلي كنائس ، وبين التاريخ الذى أعلن فيه التحويل العام إلى النصرانية وهو ١٣ سبتمبر ١٥٢٥ .

ومع ذلك فإن أحداثا كهذه لايمكن النظر إليها ، الا باعتبارها تأجيلا لإجراء لايمكن الفرار منه أو هى استثناء من وضع عام ، وكان هناك من يرى أن مجموع الشعب الاسبانى مع هذا الاجراء ، لأنه برغم القوة أو الاكراه ، إلا أن الاختيار كان هناك ، فقد كان لدى المسلمين امكانيات للهجرة ومغادرة البلاد مع المحافظة على إسلامهم ، لكن معظمهم آثر البقاء والتحول بالتالى إلى المسيحية ، كان هذا هو الموقف الرسمى ، وإن ادرك الكل عدم كفاية السر الكنسى الذى تلقاه هؤلاء المنصرون ، وأن الغالبية العظمى منهم تبدى استعدادها للدخول فيما حملوا عليه ، أنه عمل من أعمال التبشير ترجع فكرته إلى سنة ١٥٠١ ان لم يكن قبل ذلك ، وقد استمر على امتداد سنوات القرن السادس عشر ، وغطى جانبين أساسيين على مستويين مختلفين ، الأول ممكن أن يقال له مستوى علمى والآخر مستوى شعبى ، ويعنى الأول الجدل المستمر بين رجال اللاهوت والعقيدة مسلمين ومسيحيين (١) . والمسيحيون حاولوا اثبات أفضلية الانجيل على القرآن والتعميد على الختان ، هذا هو المضمون الاساسى لكتاب «ضد القران» الذى ألفه «برناردو بيريث دى شنشون» والذى طبع فى اشبيليه عام ١٥٢٨ ، وفى بلنسية عام ١٥٣٢ ، وهناك مؤلفون آخرون صمموا على عدم تقديرهم للنبى محمد صلى اله عليه وسلم ، لأنه فرض تعاليم القرآن بالسيف ، وخدع اتباعه حين قدم لهم أمورا أخلاقية سهلة التطبيق ، ثم اذا

---

(1)cardaillac : la polemique anti-chretinne du manuscrit aljamiad no 4944 de la bibliothaque nationle de madrid . Ejempler mecan grafiado , tomo, 1 PP 115 y siguintes .
B.vincent : la historia .. P. 93

ذكره

بالسيف ، وخدع اتباعه حين قدم لهم أمورا أخلاقية سهلة التطبيق ، ثم اذا كان هناك آيات فى القرآن الكريم تعد مقبولة ، وهي قليلة ، فانها مستمدة من نصوص مسيحية أو يهودية .

وهناك عمل آخر كتبه أحد الآباء الدومنيكان ، عنوانه improbatio Alcorani ، وكان مؤلف هذا الكتاب قد أقام لفترات طويلة فى بلاد اسلامية خاصة فى قارة آسيا ، وقدم مادة تعتبر نادرة ، وقد طبع الكتاب باللغة اللاتينية سنة ١٥٠٠ فى مدينة أشبيلية ، وطبع بعنوان «ذم القرآن» فى نفس المدينة سنة ١٥٠١ ، وطبع مرة أخرى فى طلطيلة سنة ١٥٠٢ (١)

وقد ظهر فى بلنسية سنة ٥١٩ كتاب آخر لمؤلف آخر بعنوان شعلة العقيدة فى مواجهة القرآن ، وفيه يشهر صاحبه - فيما يزعم - باللذات الشهوانية التى وصف بها القرآن الكريم جنة الفردوس ، ويتحدث عن الشبق الشهوانى عند محمد صلى الله عليه وسلم . وهناك كتب مناظرة تعالج أشياء مشابهة مثل كتاب آخر عنوانه «فى مواجهة القرآن والعقيدة الاسلامية" ، وقد حاول الاستدلال على أفكاره ببراهين مستمدة من نفس كتب المسلمين ومن نفس حياة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد نشرته محكمة التفتيش بغرناطة سنة ١٥٥٥ . وهناك كتيب من تأليف «خوان اندرس» يشتمل على أثنى عشر فصلا ، وهو أيضا يثير الجدل ويشبه فى مضمونه ولهجته الكتب السابقة ، ولكن شخصية مؤلفه وماحققه من نجاح يجعل له قيمة خاصة ، فقد زعم أنه أبرز التناقض بين تأكيد محمد صلى الله عليه وسلم أن القرآن وحى الله إليه جاءه عن طريق الملك ، وبدأ نزوله عليه فى مكة فى ليلة ما ، وبين أنه كان من الضرورى أن تمر عشرون سنة حتي يتم نزول القرآن ، وقد نشر الكتاب أولا فى بلنسية سنة ١٥١٥ ، وأعيد نشرة فى اشبيلية سنة ١٥٣٧ وفى غرناطة سنة ١٥٦٠ وهذا والمؤلف كان فقيها وابنا للفقية الرئيسي الديني للجماعة الاسلامية فى «خاطبة»

(1)M. Romero Martinez : veinte incunables Sevillanas que tratan de historia . Sevilla 1946

وكان اسمه ابن عبد الله وقد تحول إلى النصرانية في أغسطس سنة ١٤٨٧ ، ورقى إلى مرتبة قسيس ، وحمل اسم اثنين من الحواريين عمدا ، وقد عينه الملكان المسيحيان كاهنا ، وائتمنوه على حمل «الخير الجديد» أى اعتناق أبناء دينه القديم فى غرناطة للنصرانية ، ثم أرسل بعد ذلك إلى المسلمين فى «اراجون» لنفس المهمة ، وقد ترجم معانى القرآن الكريم إلى اللغة القشتالية ، كما ترجم كتب السنة السبعة (١) .

وهذه الأعمال التى أشير إليها توجهت إلى جمهور محدود ، لكن أمكن أن تكون مفيدة كقاعدة لمحاولة تحويل الجماهير المسلمة إلى المسيحية ، وقد ايد الملكان المسيحيان – فيرناندو وايزابيلا –.فكرة تخصيص قساوسة معينين لسكان مملكة غرناطة ، ودعما محاولات المطران «فراي ايرنندودى طلبيرة» الذين حاول عام ١٤٩٤ استماله من يعرفون العربية للقيام بالخدمات الدينية ، وقد اهتم طلبيرة نفسه سنة ١٥٠١ بنشر كتاب حول القواعد والمفردات العربية ، كان قد أعده أحد الآباء الفرنسيسكان وكان مكلفا بتزويد محاكم التفتيش بالمعلومات الضرورية عن هذه اللغة العربية ، وكان هو نفسه مثالا لفهم بعض أسسها (٢) .

وقد أثمرت هذه المجهودات إلى حد ماقبل ثورة سنة ١٤٩٩ ، ولكن آثارها بقيت محدودة فى أقلية بسيطة ، لهذا نرى أن الملكين الكاثوليكين ، أسرعا بطلب مساعدة مطران قشتالة عن طريق ارسال بعض رجال أوفرق الاكليروس إلى غرناطة ، وكان ذلك عقب صدور الأمر العام بتنصير غير الكاثوليك وتحويلهم إلى المسيحية ، وهذا هو مضمون الأمر الملكي المحرر فى ٢٤ اكتوبر سنة ١٥٠٠ وكان هناك اصرار على ضرورة تحقيق هذا الهدف خلال السنوات التالية بكل الوسائل ، وقد انتشر الرعاة القساوسة بكل الكنائس فى مملكة غرناطة ، ولم يخل منها إلا القليل ، ولم يحدث نفس الشئ فى بلنسية ، إذ كان عليها أن تنتظر عشرة أعوام حتي تقام فيها

---

(1)F. pons : Estudios Breves , Madrid .

(2)M.A. ladero quesado : los Mudejares de castilla en tiempo de Isa bel , valldolid 1969

شبكة من الكنائس تلبى بصورة مرضية - متطلبات المورسكيين الدينية بعد التحول الى المسيحية سنة ١٥٢٥ . وفى سنة ١٥٣٥ أسندالى اسقف ثيوداد رودريجو» واسمه - انطونيو راميث دى آرو- مسئولية انشاد كنائس فى الاماكن التى يسود فيها المورسكيون ، وقد تم عندئذ اقامة حوالى ١٢٠ كنيسة فى هذه الاماكن (١) وكان المشكلة الكبرى التى تحول دون أدائها لوظيفتها ذات طابع مالي ، يستوى فى ذلك الكنائس الغرناطية والبلنسية فلم تكن أى منها تمتلك شيئا وكان لابد من منحها الحد الأدنى من العشور أو الممتلكات التى كانت موقوفة على المساجد ، مثل تلك الاوقاف التى كانت محبوسة على مساجد غرناطة ، وهى عبارة عن أراضٍ وطواحين ومنازل يدفع مستأجروها ايجارا معينا للكنيسة ، وكان من الضرورى الاستعانة بمصادر دخل أخرى ، مثل تاج أسقفية بلنسية الذى قدم عائدا مقداره ٢.٠٠٠ دوكادوس ١٥٥٣ .

لكن اقامة الكنائس فى أماكن معينة شئ ، والحصول على ثمرة فعالة منها شئ آخر ، فنوعية من اختيروا للتبشير والخدمات الدينية فى القرى المورسكية ، كان يؤسف لها بصفة عامة ، والمعينون للعمل فى الكنائس كانوا فى أغلب الأحوال أشخاصا غير مناسبين أو كانوا موضع شبهة ، وكان يوجد بينهم مراهقون أو رجال مما كانت لهم قضايا أمام محاكم التفتيش ، ولهذا فقد تضاعفت الشكاوي التى قدمها المورسكيون ضد رعاتهم على امتداد هذا القرن ، وبعضها يندد بفرض ضرائب باهظة وبصورة تعسفية ، كان المورسكيون هدفا لها ، وبمناسبة أى احتفال أو شعيرة ، وهناك قساوسة حملوا المورسكيين علي هجرة الكنيسة وعدم القيام بواجبات أساسية لها ، ومنهم من استخدم الايدى المورسكية العاملة أيام الآحاد للعمل فى بساتينهم وأردضيهم ، وآخرون اتهموا بأن لهم علاقات مع رعاياهم ؛ وكان لمعظم هذه الاتهامات أساس حقيقى (٢) .

---

(1)T. Halperin Donghi : un conflecto nacional ...
(2)A. Dominguez : crisis y decadencia de la espana de los Austrias . Barcelona , P. 34 1969 .

وقد أمر «كارلوس الخامس» باجراء إحصاء فى مملكة غرناطة ، وظل متأثرا بنتيجتة طوال فترة اقامته بتلك المدنية سنة ١٥٢٦ ، وقد أوقع العقاب على كثير من القساوسة ، حيث وجد أن ٦٠٪ منهم يغيبون ، ويكرسون جهودهم ووقتهم لصناعة الحرير ، وقد نصحوا بأن يعطوا وقتهم للخدمات الدينية (١) ، فماذا كان يطلب منهم ؟

هذا يمكن معرفته من خلال القرارات المجمعية ومن خلال الزيارات الاسقفية مثلا قرارات مجمع غرناطة سنة ١٥٤١ ومجمع قادش سنة ١٥٥٤ ، ومثل زيارة أسقفية غرناطة سنة ١٥٣٧ ، لقد كان مطلوبا من القسيس أن يعلم المورسكيين الصلوات الأربع الرئيسية وهى الصلاة الربانية والكلام الملائكي وأساس المذهب المسيحى ، وصالة "أهلا" ، كما كان مطالبا أن يعلمهم الوصايا العشر وبنود العقيدة وعليهم يقع عبء تعليم اشارات الصليب المقدسة ، وعلى القسيس أن يراقب حضور المورسكي للصلاة فى أيام الاعياد وتأديته لصلاة الفصح ، وعليه أن يشرح لهم صلاة البشارة إن استطاعوا أداءها فى أيام الأعياد . أما فى أيام العمل فعلى القسيس أن يركز اهتمامه على التبشير والتعليم بصفة خاصة ، وعليه أن يعلم النساء أصول الدين فى يومى الاربعاء والجمعة ويهتم يوميا بتعليم العقائد للأطفال ، ومن الواجبات المناطة بالقسيس عقد امتحان فى أصول الدين لأبناء الدائرة ثلاث مرات في كل سنة ، هذه هى الواجبات الجوهرية للقسيس ، وان كان يشك فى تطبيق البرامج بصورة كاملة ، ولكن ذلك على أى حال دليل على اهتمام الملك وتمسكه بأداء الخدمات الدينية .

ومن الممكن - من خلال الزيارات الأسقفية التى جرت فى مملكة قشتالة سنة ١٥٨١ - أن نزن النتائج ونلمس مدى التطبيق ، فمثلا فى أسقفية "كونيكا" نرى أن كل المورسكيين الغرناطيين المقيمين حديثا يعرفون

(1)Archivo general de simancas : camara de castilla, cedulas 255, fol . 319, V. 321, 326 y archivo Municipal de Granada , libro de provisiones , 1, fol. 467
B. vincent : la historia ... P. 95 . وقد ذكر كل ذلك

كيفية أداء وترتيل الصلوات الاربع مع استثناءات قليلة ، ونفس الشئ بالنسبة للوصايا العشر وبنود العقيدة (١) ، ولكن ليس هناك شك أن هذا الترتيل كان بالنسبة لهم مجرد أنشاء لنصوص لا يحمل معنى الاقناع .

وحيث إنه قد اكتشف أن الاطار الدائم الذى وضعته الهيئة العليا للخدمات الدينية (الاكليروس) غير كاف ، فقد كان من الضرورى الاستعانة بأساليب إضافية يذكر من بينها ولابد تنظيم الإرساليات واقامة المدارس التى تخصص لابناء المورسكيين وحدهم . وخلال القرن السادس عشر أمكن تخريج ستة أفواج تبشيرية ، بمملكتبلنسيه ، كان أولها يمارس مهمته فى إطار المرسوم العالى الخاص بتحويل المورسكيين الى المسيحية والصادر فى ٢٠ اكتوبر سنة ١٥٢٥ . وفى مارس التالى عين كل من مندوبى التفتيش وأسقف قادش للتبشير فى جنوب نفس المملكة ، كما عين اثنان من الفرنسيسكان لنفس الغرض ، بالاضافة الى لويس دى بويرتا و "ميثيرخوان سونير" ، وقد طاف كل من "جيبارا" و"سونير" - وعلى امتداد ثلاثة أشهر من مايو الى يوليو - كل مناطق جنوب البلاد وفى شهر نوفمبر وديسمبر طاف نفس المندوبين كل شمال المملكة (٢)

لكن حملة من التبشير سريعة كهذه لا يمكن أن تثمر الا نتائج سطحية ، وقد اتضح أن هذا النشاط التبشيرى مخيب للآمال ولذلك حدث احساس بالحاجة الى تنظيم دورة ثانية من البعثات الارسالية وقد اتخذ قرار بهذا بناء على توصية من مجلس "موثنون" اويسكا سنة ١٥٣٧ ، وبناء على توصية اجتماع حضره قسيس الملك واسقف كارتاخينا وبعض أعضاء محاكم التفتيش . وكانت الشخصية الأساسية فى هذه المهمة هى شخصية الفرنسيسكان" باترولومى دى لوس انخلس" هذا الاندلسى الذى يعرف

(1) archivo general Le simancas , camara de castilla , leg . 2183 sin foliar .

(2) A. Redondo :Fray Antonio de Guerra . tesis Mecanograf iada 1974 . cap. 5.les activites inquisitoriales ذكره.

B. vincent :la Historia ...p . 96.

العربية ، والذى كان قد اشترك فى حملة ١٥٢٥ ، وفى الفترة بين التاريخين ١٥٢٥/١٥٣٤ كان قد عين رئيسا لأديرة الفرنسيسكان فى الاندلس . وفى سنة ١٥٤٣ توجه الى مناطق الجنوب فى مملكة بلنسية ، يرافقه مساعد كان مورسكيا ، وقد حققت مهمته نجاحا قليلا ، الا أنه وجه بمعارضة قوية سواء من السادة أو القساوسة الذين تفجرت أريحتهم الطيبة تجاه الممارسات مع المسلمين ، ويبدو أنه قد تم التوصل الى تسهيل حرية المسلمين الأسرى ، وقد توجه الاتهام الى الراهب "باترولومى" وقدم للمحاكمة وأمكنه الهرب من الدير الفرنيسكانى فى بلنسية وصدر ضده حكم غيابى ، وانتهت مهمة هذه البعثة سنة ١٥٤٧ (١) ثم قام أساقفة مملكة بلنسية بتنظيم حملة ارسالية ثالثة سنة ١٥٦٧ ، وقام اسقف "طرطوشة بالتبشير فى "وادى اكسو" مرة أخرى ، كما رأت مشروعات أخرى الضوء فى عام ١٥٨٧ ، وقبل ذلك بعام أرسلت حملة مكونة من خمسة فرنسيسكان وأثنين من اليسوعيين تحت رعاية المسئول الدينى لبلنسية ، ثم فى سنة ١٥٩٩ عهد الى السلطات المحلية الدينية بالاشراف على تلك البعثة ، وكان آخر مجهود فى هذا الصدد بعثة تم ارسالها بتشجيع من البابا سنة ١٦٠٦ ، ثم توقف التبشير مع طرد المورسكيين من كل اسبانيا .

ولم تكن حملات التبشير قاصرة على بلنسية وحدها ، بل كانت غرناطة ايضا هدفا لمبادرات مماثلة ، الأولى منها تزامنت مع بعثة بلنسية سنة ١٥٢٥ ، وإن رجعت المحاولات الى السنوات ١٥٠٠-١٥٠٢ ، وهذه كتلك ، كانت كلتاهما محاولة لتنصير مجموع سكان القرى الاسلامية وتلقينهم مبادئ العقيدة المسيحية ، ولاشك أنه قد تظمت بعثات أخرى وان كانت غير واضحة أو معروفة بنفس درجة معرفة بعثات بلنسية ، ونحن نعرف مثلا أن الراهب الفرنسسكاتى "خوان دي اوليفا" كلف بنشر والتبشير بالعقيدة المسيحية بين المسلمين فى حى "البيازين" بغرناطة ، وكان يتقاضى عن ذلك راتبا سنويا مقداره ١٥ ألف مرابطى (٢) وكان نشاطه موضع جدل كبير ،

(١) النصوص المتعلقة بهذه البعثة موجود عند .
Janer : condicion social de los Moriscos, Madrid 1857 .
(2) Archivo general le Simncas , Cedulas , 27 Fols . 206 vy 208 .

وقد كتب حاكم غرناطة الى الملك مبينا أن عظاته تسبب أضطرابا بين المسيحيين الجدد ، ويبدو أن راهبا فرنسيسكيا آخر أقام فترة طويلة لمهمة مماثلة فى مناطق "البشرات" ، وقد منح مكافأة له على عمله ، مع شخصية أخرى ، ١٥ ألف مرابطى ، آخذت من ايرادات الأوقاف ، وكان مهمته تنحصر فى محاولة الحصول على الاعتراف ، وتعليم العقيدة لمن تنصروا حديثا فى منطقة البشرات(١)

وكان لرجال الخدمات الدينية العادين دور بارز ، ظهر عندما تبين عدم كفاءة الدور الذى قامت به بعثات خصصت للتبشير ، وكان من الطبيعى أن يستعين القصر الملكى بالرهبان الدومينكان والأوغسطيين وخاصة الفرنسسكان واليسوعيين ، وهناك دليل يدل على نشاط الفرنسيسكان يتمثل فى وجود دير يتبع نظام هذه الطائفة فى وادى "اورناشوس" باستمريما دورا ، ونحن لا نعرف تاريخ نشأة هذا الدير ، ولكنه يرجع بلاشك الى فترة مبكرة من القرن السادس عشر ، ومن المؤكد ان رهبانه كانوا عملياًهم السميحيون الوحيدون الذين عاشوا فى هذا الموضع الى أن طرد المورسكيون سنة ١٦١٠ ، وقد قامت الجمعية الأخوية فى غرناطة سنة ١٥٢٦ بانشاء اربعة أديرة منها أثنان للفرنسيسكان واثنان للدومينكان .

وقد كان هناك تعاون بين اليسوعيين ، والذى كان يطلب منهم هو المساعدة فى تشكيل الاطفال المورسكيين ، وهذا جانب رئيس فى التنصير ، وكانت السلطات ترى أن هناك نوعان ينبغى أن توجه إليهما عناية خاصة هم الوجهاء والاطفال ، أما الاولون ، فلان نموذجهم يمكن ان يتحدد على اساسه التحول الحقيقى للنصرانية بين السكان المورسكيين ، أما الآخرون فلأنه ينتظر ان يكونوا على العكس من آبائهم ، يعنى يصبحون مسيحيون جيدون عندما يتولون مسئوليات فى سن مبكرة ، انها محاولة سياسية واعية ، طبقها الملوك الاسبان على نطاق واسع ، ونفس الشئ الذى حاولوه

(1) Archivo de la Alhambra , leg . 15,P.72 Y leg . 58,P.12
B. Vincent : Historia ... P.97. وانظر فى الموضعين السابقين

مع المورسكيين كان يتم فى نفس الفترة مع سكان امريكا الأصليين . وقدعبرعن ذلك الامبراطور " كارلوس الخامس" بوضوح شديد فى نفس تعليماته لمبشرى مملكة بلنسية "سيكون جيدا ... فى حالة ما اذا كانوا منتمين ومتقبلين فى مذهبهم ، وعازمين على أن يذهبوا خارج مملكتنا ... أن يتركوا أولادهم ولابد ، حتى يصبحوا مسيحيين ، وسيكون لهذا دور كبير فى تنصير الآباء" ، وقد نجد نفس الملك الى عبيد "الدوق دى سيجوربى" الذين أرادوا الهجرة وقال لهم "لابد أن تتركوا أبناءكم كى نعرفهم كلمة الله ونحولهم الى عقيدتنا قدس الأقداس الكاثوليكية (١)

وفى سنة ١٩٢٦ قرر المجلس الغرناطى انشاء مدن سكنة تعليمية خاصة بأولاد الموررسكين فى غرناطة والمرية وقادش ، وحتى الآن ، لاتوجد دلائل على وجود هذه المدن فى المدينتين الأخرتين ، على عكس مايتعلق بمملكة غرناطة التى نعرف إنها افتتحت فيها سنة ١٥٣٠ مدينة سكنية تعليمية يمكنها استيعاب مائة تلميذ ، وقد أكدت ذلك النشرة البابوية الصادرة سنة ١٥٣١ ، أما المدينة التعليمية فى سان ميجيل فقد تلقت تبرعا مقداره ٥٥٠ الف مرابطى ، كانت لها قيمة شرائية فى هذا التاريخ تزيد على ثلاثة ملايين بيزته فى الوقت الحاضر ، وكان أول مديرلها هو فرنسكودى أوتيل الكاهن القانونى لكاتدرائية غرناطة ، ومع ذلك فإن هذه المدينة لم تستطيع خدمة الأهداف المقررة لها سلفا لفترة طويلة ، ذلك أنه بعد زمن بسيط وعلى وجه التحديد سنة ١٥٥٨ ، كان كل تلاميذها من ابناء المسيحين القدامى .

وقد حدث مجهود مماثل فى «جانديا» بعناية الدوق الذى عرف مستقبلا بإسم «سان فرنسسكودى بورخا» وفى سنة ١٥٤٤ عهد إلى اليسوعيين بالإشراف ورعاية معهد تعليمى يخصص لإستقبال ١٨ ممنوحا

(1) Archivo historico nacional: inqusicion ; libro 256, Fol 462V libro 296 Fol .70. وانظر

B. Vincent : obra Citada , P. 98.

بينهم ١٢ من المورسكيين ، وكان الفشل سريعا ، يدل على ذلك قرار صادر فى ٣١ أغسطس سنة ١٥٤٨ لا يُصرّ على واجب أن يكون التلاميذ من المورسكين . وكانت هناك مدينة جامعيةَ فى بلنسية ، ربما كانت أسعد حظا ، لأنه فى نهاية القرن السادس عشر قامت الخطة على أساس أن يساعد المورسكيون الذين تعلموا فيها وتخرجوا منها ، رجال البعثات التبشيرية . ولكن المؤسسة المشهورة أكثر من غيرها كانت مؤسسة "بيت العقيدة «التى حلت محل المدينة الجامعية "سان ميجيل" وكانت تقع فى حى البيازين ، وهو الحى الذى يسيطر عليه المورسكيون ، وكان قد عهد إلى الأب "دون بدروجريرو" سنة ١٥٥٩بالإشراف على بعض المدن الجامعية ، وقد تحول قسم كبير منها ليكون مركز الأب "فرنسسكو البوتودو" وهو مورسكى ابن لحداد وتلميذ قديم فى المدرسة الجامعية "سان ميجيل" وكان من قَبْل قد قُبل فى جماعة أخوة المسيح ، لقد علم ابناء دينه القدامى مستخدما اللغة العربية وحقق بعض النجاح وله بعض التآليف . وقد واجه بيت العقيدة صعوبات خطيرة قبل طرد المورسكيين من غرناطة سنة ١٥٧٠ . (١)

ويؤخذ من مجموع الإجراءات المتجهة إلى التنصير ، رغبة المسيحيين فى صهر الإقلية المورسكية وتذويبها فى الأكثرية المسيحيّة ، ولكى ندرك كل مغزى لهذا الإجراء : يعنى لسياسة التذويب بصورة واضحة ، فإنه لابد من وضعه مرتبطا بالجانب المدمر ،يعنى جانب القمع والزجر . إن "طوليو البيرن دولجى" فى مؤلفه حول المورسكيين البلنسيين ، يميز بين المراحل الآتية فى مسيرة المشكلة المورسكينة ببلنسية : التحول الى المسيحية والتبشير بين سنتى ١٥٢٠ - ١٥٧٠ مع طرح العقيدة المورسكية إبتداء من مرحلة النزاع الاجتماعى بين البرجوازية وحَرفية الضواحى من ناحية ، وبين الأرستقراطية صاحبة الثروات الواسعة والعبيد المورسكيين من ناحية أخرى ب - القمع والتبشير وهذا بُعْد جديد للمشكلة ابتداء من ثورة غرناطة سنة ١٥٦٨ ، وقد تميز بالتحطيم التدريجى للتراكيب المورسكية بفعل محاكم

١- أنظر B . Vincent : Historia ... P.99 والمراجع المذكوره عنده

التفتيش مع ملاحظة أن اليسوعيين لم يشتركوا قط بصورة جلية فى مظاهرات العقلية المعادية للموركسيين . حـ - طرد الموركسيين بشكل محدد د - بلنسية بدون الموركسيين مع إشارات غزيرة عن مشكلة الديون وعن التعمير (١).

وواضح أنه يميل الي التمييز بين مرحلة لتذويب وصهر الموركسيين فى النصف الأول من القرن السادس عشر ، وبين مرحلة للقمع جرت أحداثها فى النصف الثانى من نفس القرن خاصة بعد سنة ١٥٧٠ ، وقد اشتدت السلطات فى القمع بسبب خيبة آمالها وضآلة النتائج التى حققتها ، ومع ذلك فإن عنصرى التذويب والقمع لم ينفصلا حقيقة قط ، وذلك أن اجراءات القمع كانت تمارس فى الحال ، وكان يلجأ اليها باعتبارها البديل الثانى منذ البداية .

وقد اتخذ أسلوب الردع مظهرين رئيسيين ، ودعم بجهاز قانوني واسع كان يتطور دائما . والهدف دائما هو إبعاد أى مظهر فردي أو جماعي للالتصاق بالاسلام ، وقد حاول الموركسيون مرات التوصل الى إلغاء أو تأجيل القوانين التى تهددهم ونجحوا فى ذلك أحيانا ، لكن ذلك لم يكن قاطعا . وقد كان هناك من يعارضهم ويخالفهم ، كما لجأت السلطات الى استخدام اسلوب اقامة الدعاوى القضائية ، لكن الجهاز البالغ الأهمية فى الردع كان جهاز محاكم التفتيش والنموذج الغرناطى له مغزى ، فمنذ مطلع القرن السادس عشر ، وروح السياسة محدودة . نجد هذا معبرا عنه بوضوح فى نص ربما يرجع الى سنة ١٥٠٠ او سنة ١٥٠١ ، هذا النص لواحد من الرهبان ، فقد تكلم عن جهود المبشرين ، وعن الاجراءات والمظاهر التى لابد

١- أنظر . (1) j . regla : Estudios sobre los Moriscos , p 226

وأنظر- Halpherin Dongi : Un conflecto nacional : Moriscos Y cristianos Viejo en valencia . Cuadernos de historia de espana xxIII - xxIv buenos Aires , 1955 , pp 5 - 115 xxv - xxvI 1957 , pp . 83 - 250 .

ولنفس المؤلف

Recou vrements de civilisation : les morisques de Royaume de valence au xvI siecle , snnales , xI , numero 2 , paris , 1956 , pp . 154 - 182 .

من الاصرار عليها ثم قال : «أن تنسوا كل شعيرة وكل شئ مورسكى فى الصلوات وفى الصيام وفى الفصح وفى الأعياد وعند ميلاد الأولاد وفى الأفراح وفى الغسل والجنائز وكل الأشياء الأخرى» (١)

فليس هناك تساهل مع أى شئ اسلامى ، والغاية هى تشكيل مسيحين حقيقيين والاستئصال الكامل للاسلام بكل مظاهرة فى نفس الوقت.

أنه توجد وثائق رسمية ترجع الى سنة ١٥٠١ ، واحدة منها تختص بالحمامات واستخدامها ، صادرة فى ٣٠ يوليو ، وأخرى تتناول الكتب صادرة بتاريخ ١٢ أكتوبر (٢) . الأولى تتصل بمدينة غرناطة وحدها وتذكر الرجال الذين يذهبون الى الحمامات فى الاوقات المخصصة للسيدات ، والثانية تذكر حرق كل المؤلفات الدينية التى كانت فى حوزة المورسكيين «اننا نعطى مهلة مدتها ثلاثون يوما ، يتلو ذلك إحضار كل الكتب فى الأقليم أمام عدالتنا ، ولا يبقى منها أيه نسخة من القرآن ولا أى كتاب عن الدين الاسلامي إلا وتحرقه النيران على الملأ»(٣)

فى الحال أصبح يحتفل بمنع المورسكيين من كل ما هو إسلامى . ووضحت مظاهر الحياة الدينية والاسلامية ملغاة شيئا فشيئا بين سنتى ١٥١١ - ١٥١٣ ، وتكرر حظر اقتناء الكتب فى ٢٠ يونيو سنة ١٥١١(٤) وكل من عنده شئ منها كان عليه أن يسلمه للسلطات خلال مدة

(1) Ouesada Ladero : los mudejares de castilla en tiempo de Isabel 1 valladolid p . 293 , 1969

كذلك . B . Vincent : Historia ...p 100

(2) Gallego y Burin y Antoniq Gomir sandoval , Al fonso : Los Moriscos del Reino de Granada Segun el sinodo de Cuadix en 1554 , Granada= 1968= = . p . 170 .

- M . S . Ladero Quesada : 0br ctada , p . 318 .

- B . Vincent p . 100

(3) B . Vincent : Historia .... " . " , p . 100 .

(4)Archivo municipal de Granada , libro de provisiones ,1, Fol 202

نقلا عن :

B . Vincent : Historia .... p . 100 .

لا تتجاوز خمسين يوما ، وإلاستثناء الوحيد كان يتعلق بكتب الطب والفلسفة والحوليات التاريخية ، ومع ذلك فقد كان واجبا أن تقدم لفحصها «لأننا نعرف أن الموركسيين يخفون نصوصا ممنوعة ، داخل نصوص مسموح بها » وهناك مرسوم ملكى جديد حول هذه المسألة نشر سنة ١٥٦٥ .

وقد كانت مقاومة الأقلية الموركسية لهذا الاجراء حية دائما ، وتم اكتشاف كتب عربية كثيرة جدا خلال القرن المذكور . مثلا فى فبراير سنة ١٥٧٠ اكتشف بعض الجنود فى جوف حائط بحى البيازين أكثر من ستين نسخة لمصاحف قرآنية ، وكتب حول الاسلام وابتهالات وتعليقات عليها ، مجلدة بطريقة جيدة ومزخرفة ومكتوبة بحروف لامعة ، وبعد أنتهاء حروب ثورة غرناطة ، بدأ الجنود فى منطقة البشرات ومناطق أخرى ، يحضرون كتبا لاحصر لها حول الدين الاسلامى ، ويفهم منها أن الموركسيين لا يزالون يعيشيون كمسلمين و أنه تنتشر بينهم كتب فقهائهم ودينهم (١) . وقد وجد مارثيدس جارثيا ارينال» نسختين من القرآن الكريم فى منزل صغير بمنطقة ركوس (خالون) وكان رجال التفتيش قد عثروا على نسخ من نفس النوع بدائرة مالطة سنة ١٥٦٧ (٢)

عادة أخرى ذات طابع دينى كان يحاربها المسيحيون ويضطهدون أصحابها كثيرا ، هى الطريقة الاسلامية فى زكاة الحيوان او ذبح الماشية ، فالمسلمون يذبحون الحيوانات بطريقة معينة ويسيلون دمائها مع توجيه رأسها ناحية الشرق ، وحتى لا يلجأ المسلمون لهذه الممارسات صدر قرار فى ٢٠ يونيو سنة ١٥١١ يوجب دعوة قصاب مسيحى لاجزاء عملية الذبح ، وتكرر نفس الأمر بنصه وكلماته فى ٨ فبراير سنة ١٥١٢ ، وفى حوالى ٢٩ يوليو سنة ١٥١٣ ، وفى ١٠ مايو سنة ١٥٢٠ . وقد شكا الموركسيون من عدم ملاءمة هذا الوضع لهم ، فقد لا يوجد مسيحيون فى المكان لتضيع

I(1) Archivo historico nacional . inquisicion , lag 2604 (3-6-1070
وأنظر B.Vincent:Historia ...P.100

(2) B. Vincent : olera Y lugar citados .

عليهم اللحوم ، وقد يتعسف المسيحيون معهم ، ويطالبونهم بما لا طاقة لهم به ، وقد أعيد النظر فى المسألة بعد التحرى ، وفى ٢٩ سبتمبر ١٥٢٦ صرح «كارلوس الخامس» لمورسكى واحد فى كل محلة بذبح الحيوانات فى الاماكن التى لا يقيم فيها نصرانى ، ومن المؤكد أن الذى استفاد من ذلك هو شخص القسيس (١)

الحمامات ايضا كانت موضوعا لتشريعات معينة ، فقد كان يخشى أن تستخدم هذه الاماكن فى ممارسات غير مشروعة او تستغل لاقامة شعائر اسلامية ، لهذا عملت السلطات على عدم ترميمها ، وأعدت اللوائح لتنظيم الدخول اليها ، وهنا يبرز نص مهم صدر فى ١٢ نوفمبر سنة ١٥٣٢ يحرم على المورسكيين ممارسة مهنة استثمار الحمامات ، ويحرم عليهم التردد عليها ايام الآحاد والأعياد (٢)

النقطة الرابعة فى هذه المرسومات المتعددة تتعلق بكل ما يتصل بالمواليد والزواج والدفن ، والأمر الذى يشيع ذكره بكثرة هو ما يخص عادات المواليد ، ولا يقتصر الامر على منع المورسكيات من ممارسة مهنة القابلة ، حتى لا تقمن بختان الأولاد ، بل أنه وفقا لوثيقة رسمية صادرة فى ٢٠ يونيو سنة ١٥١١ ، يشترط فى أب وأم العماد(الاب والام الروحيان) للمولدين الجدد ، ان يكون كلاهما مسيحيا قديما بشكل إجبارى ، وسينتهز المسيحيون الفرصة ، ويطلبون كثيرا من الاموال مقابل تبنيهم للأولاد ، الشئ الذى دفع المورسكيين الى رفع شكاواهم الى الملك ، فأدينت تعسفات المسيحيين القدماء فى نص صدر بتاريخ ٢٩ يوليو سنة ١٥١٣ ، ومع ذلك فلم تتوقف هذه الممارسات المتعسفة ، وهذا هو السبب فى مطالب جديدة تقدمت بها المجموعة المورسكية ، فصدرت أوامر ملكية فى ١٠ مايو سنة ١٥٢٠ تعطى الحق للمورسكيين أن يتخذوا آباء وأمهات التعميد من بينهم

(1) archivo general de simancas , camara de castilla , cedulas , 255 , Fol . 339v .

(2) Gallego Burin y Gamir sandoval , obra citada , p . 235

وانظر B . Vincent : Historia .... p . 101

، بالاشتراك مع المسيحين القدامى الذين كان عليهم أن يحضروا التعميد ، ويبدو أن هذا الاجراء قد حقق نتائج متواضعة ، لأن "فرنسيسكو نونيث دى مولوى" قدم طلب دراسة وتحرٍ حول هذا الموضوع نفسه وحول ممارسة المسيحيين القدامى له بتاريخ ١٥٢٣/٨/٢٥ ، ومن المعروف ان هذه المجموعة من الرسومات المتعلقة بالتعميد ترتبت عليها نتائج فعاله . ففى بعض قرى غرناطة ، نجد المسيحي القديم الواحد يعمل أبا روحيا او ابا تعميديا للعديد من الاطفال المورسكيين ، وفى قرية «الهندية» كانت «ماريادى ثا ياسا» وزوجها «خوان دى كاسترو» أما وابا فى التعميد لـ ٢٥ طفل فى الفترة ما بين سنتى ١٥٣٨ - ١٥٥٩ وفى قرية "سان نيكولاس" كان كل من "ربيل" وزوجته "فرنسا دى الاركون" يمارسان نفس العمل وقام بذلك الونسو رويث" لثمانية مرات فى ١٥٥٥ وقامت به "فرنسيسا دى بلاسكو" لست مرات (١) .

كذلك تقرر رسميا وبنفس الفعالية عدم استخدام الاسماء الاسلامية ، ولذلك نرى من الأمور المألوفة أن يكون لكل مورسكى اسمان ، أحدهما مسيحي معلن والأخر اسلامي سرى ويمكن ان نشعر - من خلال الوثائق - بتطور له دلالته ، ففى غرناطة وحتى سنة ١٥٠٠ ، تذكر تلك الوثائق الاسماء والالقاب الاسلامية ، وبعد التنصير وعلى مدى السنوات حتى ١٥١٠ تستخدم طريقة أنا (الاسم واللقب المسيحى) ، وما كنت أدعى به من قبل (الاسم واللقب الاسلامى) . أما بعد ذلك فلا نرى ذكرا إلا للاسم المسيحى .

وقد بذلت مجهودات كثيرة تهدف الى أن يترك المورسكيون عادة دفن موتاهم فى الارض الخلاء ، وفى مقبرة كانت تقع دائما خارج سور الضاحية ، وهدفت المحاولات الى نشر العادة المسيحية الخاصة بالدفن ، بحيث يدفن الموتى داخل الدائرة الكنسية او الدير ، وهذا مثلا هو مضمون قرار أحدى

(1) B . Vincent : Al Baicin de Grenada , pp 202 - 203
- B . Vincent : Historia .... p . 102 .

البلديات الصادر سنة ١٥٢٤ ، وبرغم ذلك كله فقد استمرت المقابر الاسلامية موجودة لزمن طويل .

ونلاحظ من بين المظاهر المرتبطة بالطقوس التى ترافق الشخص فى تواريخ او مناسبات معينة - وجود حفلة راقصة ، إنها رقصة كانت تمارس فى اعياد المورسكيين الغرناطيين ، وقد ظلت مسموحا بها لفترة طويلة ، فالأوامر المسجلة الصادرة من السيد «فرناندودى طليطلة» لرعاياه المورسكيين ، تسمح بها ، ولاننسى أن مواعظ الراهب "ايرناندو دى طلبيرة" تتجاوب مع تلك الحفلات المورسكية ، ومع ذلك فقد بدأ البحث سنة ١٥٢٦ حول منع استخدام ما اعتبر رقصا خليعا ، وفى ١٥٢٩ ، ١٥٣٠ صدرت نصوص تشريعية فى نفس الاتجاه ، لكن موقف السلطات ، فيما يتعلق بحفلات الصخب ، تَعَارض مع طابع الردع المتعمد لسياسة التذويب .

إن تكرار المراسيم الملكية دليل على النجاح القليل الذى تحققه السلطات ، وهذا أمر متيقن منه سواء فى بلنسية او اراجون او غرناطة ، ومن هنا جاء الدور الذى ادخر لمحاكم التفتيش .

لقد حاولت محاكم التفتيش الغاء كل الشعائر الاسلامية الغاء كليا ، وعملت على ان يلتصق المورسكى بالعقيدة المسيحية التصاقا كاملا ، وفى مثل هذه الاوضاع فأن محاكم التفتيش يمكنها ان تتدخل فى كل جونب الحياة الجارية ، بل تقوم بذلك مع تسهيلات أكثر عندما يصبح واجبا على كل مسيحى أن يقدم لها معاونته ويرشدها الى حالات الهرطقة اذا توافرت لديه معلومات عنها ، ولا ينبغى أن يدهشنا ان محاكم التفتيش كانت فى عيون المورسكيين رمز القمع نفسه ، وكان كل مورسكى يشعر فى كل لحظة أنه موضع اضطهاد هذه المحكمة ، وكان بالغ الحساسية ازاءها ، ولهذا فقد انعدمت ثقته فى كل ما يحيط به .

يقول الكتاب المورسكيون عن محكمة التفتيش انها محكمة الشيطان ، حيث يتولى رئاستها ابليس ويعاونه مستشاران فيها هما الغش او الخداع

والعمى . وهى كلمات تشير الى سرية وبشاعة أسلوب محاكم التفتيش ، وهناك مخطوط يسير فى نفس الاتجاه ، فيذكر الكفار رجال محاكم التفتيش ، اتباع ابليس بما لهم من أساليب شيطانية ، اوهم قضاة الارواح يضايقونها من الخارج للوصول الى آذاهم وشرهم بدون مبرر(١)

وتبرز نفس النصوص ظلم وجشع هذه المحاكم وتذكر أن اجراء مصادرة ممتلكات المتهم كان أمر عاديا ، كما تذكر الضرائب التى كان على كل موريسكى فى بلنسية أن يدفعها لها مرتين فى السنة ، فى مارس وسبتمبر من كل عام . وهذه النقطة الأخيرة مهمة ، لأنها توضح قسما كبيرا من سياسة محاكم التفتيش فى مواجهتها للمجموعة الموريسكية على امتداد القرن السادس عشر ، حيث لبث ديوان التفتيش على نشاطه ضد هذه الاقلية المسلمة طوال هذا القرن وحتى آخره دون أن يتعثر نشاطه ، مما يدل على أن آثار الاسلام الراسخة بقيت دفينه فى قلب هذا الشعب تبدو بين الحين والآخر ، برغم كر الاعوام ، وتوالي المحن ، يدل على ذلك ما تسجله محفوظات الديوان ، من أن قضايا الموريسكيين أمام محاكم التفتيش بلغت ٢٩١ قضية سنة ١٥٩١ ، ووصلت فى العام التالى ١١٧ قضية ; وظهر فى احتفال تنفيذ احكام محاكم التفتيش الذى أقيم فى ٥ سبتمبر سنة ١٦٠٨ ، ٦٨ موريسكيا نفذت فيهم الاحكام ، كما ظهر فى حفلة ٧ يناير سنة ١٦٠٧ ، ٣٣ موريسكيا استخدم اسلوب التعذيب فى محاكمتهم ١٥ مرة ، وكان الاتهام يوجه أحيانا الى الموريسكيين جملة على أثر بعض الحملات الفجائية على المحلات الموريسكية ، فقد حدث مثلا فى سنتى ١٥٨٩ ، ١٥٩٠ أن سجلت مائة قضية فى قرية «مسلاته» الموريسكية بالقرب من "بلنسية" وسجلت فى قرية "كارليت" مائتان ، واتهمت أربعون أسرة بصوم رمضان ..

وهكذا نرى أن الموريسكيين استطاعوا بالرغم من العسف المنظم ، الذى فرضته الدولة والكنيسة عليهم زهاء قرن ، أن يحتفظوا فى قرارة نفوسهم الكليمة ، ببقية راسخة من تراثهم الدينى القديم (٢) .

نعم كان نشاط محاكم التفتيش التى أنشئت في بلنسية وسرقسطة ،

(1) L . Cardaillac : obra citada , 200 , 201 .

(٢) انظر عنان نهاية الاندلس ص ٣٨٠ ، ٣٨١ .

كما أنشئت فى غرناطة ١٥٢٦ حدوداً فى أول الامر ، وقد منح المفتش العام - الغرناطيين مهلة لمدة ثلاث سنوات يراجعون فيها موقفهم ; لكن مالبث ان ظهر ثلاثة من المورسكيين أعدموا حرقا بسبب إلحادهم فى احتفالات عام ١٥٢٩ ، وفى بلنسية تم اتفاق لا يتدخل المفتشون بمقتضاه لمدة اربعين سنة فى شئون المورسكيين ، معتبرين الشعائر الاسلامية أمرا قليل الخطورة ، وفى ١٢ يناير سنة ١٥٣٤ طلب "كارلوس الخامس" من المفتشين البلنسيين الا يصادروا ممتلكات المورسكيين المتضطهدين بسبب الحادهم ، وفى ١٥٣٥ نصحهم المفتش العام بعدم تطبيق العقوبة الكبرى (الاعدام) أما سلطات ارجوان فقد الغت سنة ١٥٢٨ نشاط محاكم التفتيش بصورة عملية (١) ، وقد اتخذ معظم هذا الاجراء بضغط من احد رجال الاقطاع الذى كان معنيا بالمحافظة على حياة وممتلكات رعاياه المورسكيون

لكن هذه التيسيرات ما لبثت أن انتهت آثارها ، فلم يترك المورسكيون قط تغذية محاكم التفتيش او لم تستغن محاكم التفتيش عن مصادرة اموال المورسكيين ، وقد احتفل ببلنسية سنة ١٥٧١ بتوقيع اتفاق يدفع المورسكيون بمقتضاه ٥٠ ألف دوقية رواتب سنوية (٢) ، وقدم الغرناطيون للمحكمة وللتاج الملكى ١٢٠ الف دورقية سنة ١٥٤٣ ، ٢٠٠ الف فى سنة ١٥٥٥ بخلاف ١٠٠ ألف للتاج الملكى ، هذا غير ثلاثة آلاف كانت تقدم سنويا لمحاكم التفتيش ابتداء من ١٥٥٨ وحتى هذه دخلت مرحلة المساومات ، ولم تعد هذه المبالغ مرضية ، اذ أن العلاقات بين المرسكيين ومحكمة التفتيش كانت قد تحددت فى أهداف اقتصادية : فتلك المحكمة كما يقول "جارثيا كارثل" «كانت مؤسسة مخربة ، غارقة فى تناقضاتها التركيبية وفى البيروقراطية المجدية المفرطة (٣) وهذا التأكيد تدعمه مصروفات ونفقات محكمة التفتيش فى بلنسية ١٥٩٨ ، والموضحة فيما يلى :

(1) L . cardaillac : olera citada , p . 223 .
(2) P . Boronat : los moriscos y su expulsion ... 1,274 - 277
(3) R . Garcia Carcel : los cuentos de la inquisicion de valencia en el siglo xvI "anuario de historia moderna "y" contemporanea 11, 111, 1975 , 1976 p . 64 .

البند	المرتب الشهري	الاجمالى بالجنيهات
مرتبات المفتشين	١٩	٢١١٣
ضرائب	٣	٤٧٩
قاضى المتلكات	٢	٥٢
مستقبل		٣١٠
مأمور قضائى	١٧	٢٨١
كاتب عمومى للبحث والتحرى		١٥٥
اربعة للسكرتارية	٩١	١٠٠١
٢ للقيادة	١٥	٣٤١
٢ قاصد رسولى	٩	٢٢٥
كاتب النائب المحقق	٥	١٠١
٢ قسيس خصوصى للمحكمة	١٢	٣٣
٤ مستشارين		٦٠
طبيب وجراحان		٣٥
محاسب عام	٩	٢١٣
مصاريف مساعدة	١٣	١٠٠٤
أعمال وتقيدات		٥٠٠
تغذية مساجين		٤٠٠
نفقات فوق العادة		٧٠٠
اعانات مالية لمحكمة مايوركا		٥٢٨

المجموع ٨٥٣٨

ولم تكن نفقات محكمة تفتيش غرناطة أقل لأن عدد العاملين فيها وصل ٢٩ في العقد ١٥٧٠ - ١٥٨٠ وهو عدد يفوق بقليل عدد العاملين في محكمة بلنسية (١) .

لقد كان الموريسكيون منغما رئيسيا بالنسبة لمفتشي التحقيق في بلنسية وغرناطة خلال الثلاثة أرباع قرن السابقة على الطرد ، لقد أثبت هذا بأدلة قوية «كينيث جرادا» في الفترة من ١٥٥٠ - ١٥٨٠ (٢) ، يقول : ، لقد كان الموريسكيون يمثلون أغلبية المدانيين دائما ، باستثناء اعدام مارس سنة ١٥٨٠ الذى كان الموريسكيون فيه ربع المدانيين ، مع الوضع في الاعتبار أنهم طردوا من مملكة غرناطة ١٥٦٩ - ١٥٧١ ، وقد جرى على مدار الثلاثين سنة المشار اليها (١٥٥٠ - ١٥٨٠) أثنا عشر احتفالا لتنفيذ أحكام محاكم التفتيش ، كان عدد المدانين فيها من الموريسكيين ٧٨٠ من اجمالي ٩٩٨ أى بنسبة ٧٨٫١٪ . وهذه النسبة يمكن أن تجد ما يماثلها في المناطق الاخرى التى يشكل المسيحيون الجدد (الموريسكيون) فيها مجموعات عددية قوية . ففي سرقسطة نفذ حكم الاعدام علانية في ٦٨ شخص بتاريخ ٢٦ نوفمبر ١٥٤٦ (٣) وكان بين المحكوم عليهم ١٢ فقط ينتمون الى مذهب "لوتيروس" أما عدد الموريسكيين فكان ٢٧ بنسبة ٣٩٫٧ من اجمالي المدانيين ، وكان عدد المدانين من الموريسكيين في طليطلة ١٩٠ من أجمالي ٨٠٦ (٤) لكن عدد المحكوم عليهم من اليهود في مرسية كان أكثر من عدد الموريسكيين كما يبدو ، وفقا ل

---

(1) K . Garrad : la inquisicion y los Moriscos granadinos (1528 - 1580) Miscelanea de Estudios Arabes y Hebriacos , Granada , 1960 y archivo historico nacional inquis . leg . 2604 , 13 - xII - 1578 .
نقلا عن : B . Vincent : Historia ... p . 104

(2) K . Garrada : articulo citado , pp . 55 - 75

(3) archivo general de simancas . patronato real , leg . 28 , p . 56 .
أنظر B . Vincent : obra y pagina citada

.(4) Henry Kamen : the spanish inquinsition , london 1965
وله ترجمة اسبانية عنوانها
La inquisicion espanola Madrid 1973 , 3 _ ed . p 197 .

«لورنت» (١) وكان عدد المورسكيين ١٢ فى احتفال سبتمبر سنة ١٥٦٠ بين ٤٨ من اجمالى المدانين فهم يمثلون ربع المحكوم عليهم هذا عدا ١٦ تم اعدامهم لاسباب نجهلها ، وقد نظرت محكمة تنفتيش "كونيكا" ٥٠٠ دعوى لهاعلاقة بالمورسكيين فى الفترة من ١٥٢٠ - ١٦١٠ وقد صدر الحكم بالاعدام حرقا فى ١٥ حالة منها أما حفلة عام ١٥٨٨ ، فقد كان عدد المورسكيين وحدهم الذين تم اعدامهم ٢١ مورسكيا (2) .

لقد تراوحت أساليب محاكم التفتيش بين عقوبتين طبقتهما على المورسكيين ، الأولى المصالحة مصحوبة بمصادرة كل الممتلكات ، وكان هذه العقوبة تطبق على كل المشتبة فيهم من المورسكيين تقريبا ، والثانية الاعدام حرقا ، وقد طبقت هذه العقوبة على البعض . وكل سياسة محاكم التفتيش تجاه المورسكيين تكشف عن تراوح الاحكام بين هاتين العقوبتين ، لأن المورسكيين فى نظر قضاتهم معتنقون للاسلام ، وأقل ما يمكن اتهامهم به اعتبار حالتهم حالة هرطقة ، ولهذا فان عقوبات خفيفة مثل الضرب بالسياط واظهار فضائحهم ، كان يطبق بصورة نادرة . والمورسكى الذى يسقط أمام قضاء محكمة التفتيش ، يصبح محكوما عليه بتمويل خزينة المحكمة ، فوق ما ينالونه من معاملة تصل الى أقصى صور التعسف ، وغالبا ما يكون الضحايا فى هذه الحالات إما رؤساء الجماعات الدينية المورسكية أو من عادوا لاقتراف الذنب مرة أخرى ، بين هؤلاء الضحايا يمكن أن نذكر "خوان آلاس" فقية قرية "مويل" فقد كان المورسكى الوحيد الذى اعدم حرقا فى سرقسطة ١٥٤٦ ، وكذلك «مارى» المورسكية - من أصل غرناطى - وكان قد أصطلح معها سنة ١٥٧١ ثم اعدمت حرقا فى سنة ١٥٧٦ ونذكر أيضاً "تيريثا دى باديّا" التى كانت مقيمة فى "اركوس" واصطلح معها فى سنة ١٥٧٦ ، ثم شهر بها أكثر من مرة فى سنوات

---

(1) B . vincent : Historia ... p . 104 .
(2) Garcia Arenal , Mercedes : los moriscos de Cuenca y la inquisicion
رسالة علمية لم تنشر قدمت لجامعة مدريد ٩٧٤
V . Vincent : Historia . p . 105 ذكرها .

١٥٨١ ، ١٥٩٤ ، ١٥٩٦ ثم أعدمت فى كونيكا (قونيه) بتاريخ ١٣ ديسمبر ١٥٩٨ ، وفى غرناطة أحرق ١٤ مورسكيا فى ١٢ احتفال بسبب تهم تتعلق بالعقيدة وفى مرسية أدين واحد بسبب اسلامه بين مدانين آخرين .

وهكذا يظهر لنا تاريخ محكمة التفتيش أنه على امتدادسنوات طويلة وحتى فى القرن السابع عشر بل وكل القرن الثامن عشر يتعرض المسلمون المنصرون لاضطهاد لا معنى له . إن قسوة محكمة غرناطة كان أمرا يضرب به المثل ، والوان التعذيب التى مارستها بقت فى ذاكرة الناس لأجيال ، وبين سنتى ١٧٧٥ - ١٧٧٦ ، كتب رحالة انجليزى اسمه «هنرى سوين بورن» عدة رسائل من اسبانيا تضمنت ملاحظات طيبة وأخبار نشرت بعد ذلك فى مجلد ، لأن كل الاجانب الذين يمرون بالأندلس كانوا يبحثون عن أشياء مورسكية ، ووفقا لهذا الرحالة فان محاكم التفتيش كانت لاتزال تمارس اساليبها وتستخدم اجراءات قاسية فى ١٧٢٤ ضد البقية الباقية الأسلامية .

بعد ذلك بقليل مر رحالة انجليزى آخر اسمه «جوزيف توسته» كان على علاقة وثيقة بقاضى التحقيق ويقول انه فى سنة ١٧٢٦ تعرض ما لايقل عن ٣٦٠ أسرة غرناطية لاجراءات محاكم التفتيش ، وقد اتهمت بأنها تعتنق الاسلام سرا ، ويضيف أن هذا الاتهام كان حقيقيا لان محكمة التفتيش كانت جهازا مبالغا للغاية فى التحرى والبحث ، والفقرة التى تلى ذلك أكثر غرابة ، فيها يذكر المؤلف ان المسلمين واليهود من هذه النوعية كانت اعدادهم كبيرة فى اسبانيا : المسلمون فى مناطق الجبلية واليهود فى المدن الكبرى ،،، وإنه لمن الصعب فحص هذه التأكيدات ، لكن المتيقن منه أنه كانت هناك أحكام ومحاكمات واحتفالات ضد المسلمين فى غرناطة ، ليس فقط فى عام ١٧٢٤ أو ١٧٢٦ بل وفى عام ١٧٢٨ هذا شئ

معروف ليس موضع شك [١] .

فى آخر هذا العرض لابد من طرح سؤالين هما :

هل التزمت محاكم التفتيش باسلوب واحد فى اضطهادها للمسلمين المنصرين على امتداد القرن السادس عشر ، أو أن هذا الاسلوب كان يتغير بتغير المراحل . يعنى هل كان لها أسلوب فى مراحل العنف يختلف عن أسلوبها فى مراحل الهدوء ؟ ثم كم عدد المورسكيين الذين بقوا محبسوين فى شباك تلك المحكمة ؟

برغم ندرة الوثائق فانه فى الامكان اجابة السؤال الاول ، فقد أثبت «ك - جرادا» [٢] أن محكمة تفتيش غرناطة لم تتوقف سطوتها ضد المورسكيين فيما بين ١٥٣٠ - ١٥٧٠ ، فخلال هذه الفترة كان يمثل أمام المحكمة فى جلسة واحدة ثمانون وأكثر من المورسكيين ، ومثل ١٠٦ مرة واحدة فى جلسة ٢٤ أكتوبر سنة ١٥٦٣ مقابل ٥٢ فى جلسة ٢٨ سبتمبر سنة ١٥٥٢ ، وال ١٤ مورسكى الذين تم حرقهم والذين أشرنا اليهم من قبل كانوا جميعا فى الفترة بين ١٥٦٠ - ١٥٦٩ .

أما بالنسبة «لكونيكا» (القونية) فقد أبرز «جارثيا ارنيال» [٣] ان محكمة التفتيش المحلية شددت نشاطها ضد المورسكيين فى مراحل ثلاث : من ١٥٢٠ - ١٥٣٥ ، ومن ١٥٦٥ - ١٥٧٥ ، ومن ١٦٠٥ - ١٦١٠ يعنى أنه أعتبارا من بدء محاكم التفتيش لعملها ضد المورسكيين فإن

(1) Julio caro Baraja : los Moriscos ...p p 245 = 246

وانظر Lea : A history of the spanish inquisiction III p . 406

ويذكر "خوليو كارو" بعض الأسماء والبيانات المتعلقة بمن ادانتهم محاكم التفتيش في هذه الآونة بسبب اسلامهم ، ويؤكد أن معظمهم كانوا نساء ولم يتجاوز عدد الرجال أحد عشر مورسكيا من ذوى الاعمار والمهن والوظائف المختلفة ، وعن تلك الأجيال التى ولدت فى غرناطة بين ١٦٨٠ - ١٧٠٠ ، ولكنها حافظت على اسلامها وتنكرت وراء اسماء مسيحية ...انظر : كتابه السابق ص ٢٤٦ - ٢٤٨ .

(٢) انظر مقاله السابق الاشارة اليه آنفا ف ص ؟

(٣) أنظر رسالته الى جامعة مدريد المشار اليها فيما سبق .

فترات أقصى نشاط لها تتوافق مع حادثتين جرت فيها أقسى مواجهة بين الجماعتين الاسلامية والمسيحية ، حادثة الثورة الغرناطية ١٥٦٨ - ١٥٧٠ ، والطرد العام ١٦٠٩ - ١٦١٤ ، والمثالان الجغرافيان اللذان ذكرا : مثال غرناطة ومثال قونيه ، يبرزان الدور الأساسى الذى قامت به محاكم التفتيش فى الفترة من ١٥٦٠ - ١٥٧٠ والذى يمكن تعميمه على كل البلاد ، إن تشدد محاكم التفتيش فى تبنى وسائل القمع ، يبدو كما لو كان تعبيرا عن حساسية النزاع بين الحضارتين الاسلامية والمسيحية .

بالنسبة للسؤال الثانى من الصعب تقديم إجابة موكدة ، فقط نستطيع أن نقول أنه مثل أمام محكمة تنفتيش غرناطة ٧٨٠٠ مورسكى بسبب يتعلق بالعقيدة فى الفترة من ١٥٥٠ - ١٥٨٠ .. يضاف لهذا الرقم من مثلوا أمام محاكم التفتيش فى تواريخ سابقة ولاحقة والتى لم نعثر على أثر لأعداداهم ، وأن تأكد وجودهم ومثولهم ، ومن الممكن أن نقول دون أن نخطئ كثيرا فى التقدير أنه كان واجبا على عدد يتراوح بين ألف والف وخمسمائة مورسكى أن يواجهوا حتى النهاية رعب محاكم التفتيش خلال القرن السادس عشر ، إن هذا الرقم من بين شعب يتكون من ١٥٠ الف مواطن على الاقل ، وخلال جيل ونصف يمكن أن يعتبر قليلا ، يعنى نصف فى المائة من اجمالى السكان المورسكيين هو الذين ادين او أصدرت محاكم التفتيش أحكاما ضده ، لكن القسوة فى الاجراءات والاحكام والتنفيذ جعلت شهرة هذه المحاكم وما عرف عنها من عنف بالغ ، تطبق الآفاق .

بالنسبة لمحكمة «قونيه» يفترض أنه نظرت ٥٠٠ دعوى على امتداد ٩٠ سنة ، وهذا لا يعنى المدانين فقط بل كل من وجهت اليه اتهام وإن أعوزته الوثائق الدالة ، وبهذا نشعر أننا نتعامل مع ثلاثة او أربعة اجيال من المورسكيين كان عليهم أن يروا محكمة التفتيش . إن ٥٠٠ دعوى ضد سكان يقلون عن ٢٠٠٠ موسكى فى سنة ١٥٧٠ ، ثم يرتفعون الى خمسة آلاف ثم أثنى عشر او ثلاثة عشر الف بعدذلك ، يعنى أن ربع فى المائة من المورسكيين كان عليهم أن يمثلوا أمام محكمة تفتيش قونيه

وبرغم ضعف هذا التقدير ، فإن من الممكن استخراج بعض الدروس منه ، فمنه يفترض أن القمع الذى مارسته محاكم التفتيش كان معتدلا نسبيا لسببين ، لأن مؤسسات هذه المحاكم كانت فى حاجة الى المال ولأن المشرفين عليها كانوا يحاولون توجيه المورسكيين الى العقيدة الصحيحة والصواب من وجهة نظرهم ، ومن هنا كانت صدور احكام الاعدام فى حالات نادرة .

وفى الواقع فان محاكم التفتيش كانت أقل وحشية من محاكم أخرى ، فهناك محاكم أخرى أكثر وحشية وقسوة ، مثل محكمة دار القيادة العسكرية بغرناطة أو محكمة المجلس ، ومن ناحية أخرى فان مهمتها تعثرت أمام المقاومة المورسكية والتى أختلفت فعاليتها حسب الاقاليم ، وهذا ما تعبر عنه نسبة النصف فى المائة فى غرناطة والربع فى المائة بالنسبة لـ «قونيه» كما سبقت الاشارة .

وفى مملكة غرناطة حافظت الجماعة المورسكية على وحدتها بشكل كبير حتى سنة ١٥٧٠ ، وقد مثل هؤلاء المسلمون المنصرون او المسيحيون الجدد كل السكان تقريبا فى كثير من القرى ، ولم تجرؤ الأقلية من المسيحين القدامى على الوشاية بهم خوفا من الانتقام ، ولهذا فان محكمة تفتيش غرناطة كانت تميل الى التفاوض مع ممثلى المجموعة المورسكية حول الضرائب والغرامات التى يجب أن يدفعها هؤلاء ، وعلى العكس فى «قونيه» حيث ذابت الجماعة المورسكية وكانت عرضة للتشهير بها وإقامة الدعاوى عليها ، ولهذا جرى التفكير فى قانون بوقف فاعلية ماكينة محاكم التفتيش بحيث لا يحدث تعارض مع درجة الانصهار لدى تلك الأقلية المضطهدة . وهكذا كان عمل محاكم التفتيش محدودا فى غرناطة وبلنسية برغم ما كان لها من وسائل رهيبة ، وكان هذا العمل ملحوظا فى كل من قشتالة واستريمادورا ، بينما كان الوضع فيما يبدو متوسطا فى مملكة ارجوان .

وحيثما كان المورسكيون أكثرية ، فأننا نرى أنه توافرت لديهم الوسائل للمحافظة على جزء من هويهم الثقافية ، وحيثما كانوا أقلية فانهم كانوا

يقترنون من الأكثرية وفى فترة وجيزة يطاردون ثم ينصهرون ، لكن الشئ الذى جعل الكل يكره محاكم التفتيش بلا استثناء وأكثر من أى محكمة قضائية أخرى ، هو أنه بينما كانت المحاكم الأخرى تتدخل فقط فى حالات المقاومة العلنية ، فإن محاكم التفتيش تدخلت فى أكثر الثنايا عمقا وأكثر الأمور سرية لدى الوجود الموريسكى ، وبرغم أنها كانت تضرب بشدة تختلف من إقليم لآخر ، فإنها بقت ما ثلة فى كل أجزاء البلاد . وبسبب أساليبها وهيمنتها وصلاحيتها الواسعة المقتدرة بقى المسلمون المنصرون او الموريسكيون فى حالة قلق ورعب مستمر (١) .

لقد نقل الينا الدون لورنتى - مؤرخ ديوان التفتيش - وثيقة تعبر عن التضيق الشديد الذى كان يعانى منه الموريسكيون ، يقول : يعتبر الموريسكى او العربى المنصر قد عاد الى الاسلام اذا امتدح دين محمد أو قال إن يسوع المسيح ليس الها وليس الا رسولا ، او ان صفات العذراء او اسمها لا تتناسب مع كونها أما للمسيح الرب . ويجب على كل نصرانى ان يبلغ عن ذلك ، ويجب عليه أيضا أن يبلغ عما اذا كان قد رأى او سمع بأن أحدا من الموريسكيين يباشر بعض العادات الاسلامية ، ومنها أن يأكل اللحم فى يوم الجمعة وهو يعتقد ان ذلك مباح ، وأن يحتفل يوم الجمعة بأن يرتدى ثيابا أنظف من ثيابه العادية او يستقبل المشرق قائلا باسم الله ، أو يوثق رجل الماشية قبل ذبحها ، او يرفض أكل تلك التى لم تذبح أو ذبحتها أمرأة ، أو يختن أولاده أو يسميهم بأسماء عربية او يعرب عن رغبته فى اتباع هذه العادة او يقول انه يجب الا يعتقد الا فى الله وفى رسوله محمد ، او يقسم بايمان القرآن أو يصوم رمضان ويتصدق خلاله ولا يأكل ولا يشرب إلا عند الغروب أو يتناول طعام السحور قبل الفجر ، او يمتنع عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر أو يقوم بالوضوء والصلاة بأن يوجه وجهه نحو الشرق ويركع ويسجد ويتلو سورا من القرآن ، أو أن يتزوج طبقا لرسوم الشريعة الاسلامية ، او ينشد الأغانى العربية أو يقيم حفلات الرقص والموسيقى

(1) Bernard vincent : Historia de los Moriscos pp . 105 : 107 .

العربية ، أو أن تستعمل النساء الخضاب فى أيديهن او شعورهن ، أو يتبع قواعد محمد الخمس او يملس بيديه على رؤس اولاده أو غيرهم تنفيذا لهذه القواعد ، او يغسل الموتى ويكفنهم فى أثواب جديدة أو يدفنهم فى أرض خلاء او يغطى قبورهم بالأغصان الخضراء او أن يستغيث بمحمد وقت الحاجة منعتا اياه بالنبى ورسول الله ، او يقول إن الكعبة أول معابد الله أو يقول انه لم ينصر ولا آمن بالدين المسيحى المقدس او أن آباءه وأجداده قد غنموا رحمة الله لأنهم ماتوا مسلمين ..... الخ (١) .

أى واحدة من هذه كانت تكفى لتجعل المسلم يمثل أمام محاكم التفتيش الرهيبة لتقضى بادانته وتفرض عليه عقوبات مادية وبدنية فوق طاقة البشر علّه يترك مظاهر إسلامه .

وعلى كل حال فقد قضى الامر ، وأكره المسلمون المتصرون على ترك كل البلاد الاسبانية ، ومغادرة الاراضى التى ولدوا ونشأوا فيها ، والوطن الذى شبوا وترعرعوا فيه ، فماذا عن مقصدهم ، وما هى الأقطار التى انتقلوا اليها وواصلوا مسيرة حياتهم و أحتفظوا بتقاليدهم فيها ؟ هذا ما يحاول الفصل التالى تقديمه .

(1) Don Antonio llorente : Historia critica de la inquisicion de Espana

وأنظر ا ايضا . lea : the Moriscos , p . 130 - 13

وقد ذكر النص

الاستاذ محمد عبد الله . ن : نهاية الاندلس ٣٤٥ ، ٣٤٦ .

الفصل الثامن

الموريسكيون خارج اسبانيا

كانت هجرة المورسكيين ١٦٠٩-١٦١١ الفصل الأخير فى نزيف انسانى بدأ منذ فترة بعيدة فى العصر الوسيط ، ثم اشتد مع الفتوحات المسيحية الكبرى ، وواصل تطوره فى القرن السادس عشر ثم وصل فى القرن الذى يليه الى نهايته الاليمة ، وترتب عليه ضياع حيوية اسبانيا وخراب اقتصادها ونحن لا نعرف جيدا الاماكن التى توجه اليها المسلمون المنصرون . ومن عاصر خروجهم فى هذه المرحلة من المؤرخين يقدم معلومات مقتضبة ، نستشف منها مدى ما استقبلوا به من ترحيب ، وإن أصر البعض على أنهم عانوا من فواجع عقوبة على تماديهم فى الغى .

وهناك عمل شامل حول هذا الموضوع ، عبارة عن رسالة علمية غير منشورة أعدها "خوان بنيا" بعنوان "المورسكيون الاسبان المهاجرون الى الشمال الأفريقى بعد الطرد ، بالاضافة الى أعمال أعدها الباحث الفرنسى . ل . م . كارديلاك[١] .

ولقد دلت البراهين على أن بعض السكان المورسكيين كانت لديهم مقدرة وقابلية كبيرة على الحركة ، فالذين عاشوا بالقرب من الساحل عبروا الى الشاطئ الآخر من البحر الابيض المتوسط ، ربما بدافع شخصي ، أو منتهزين بعض الحملات العسكرية الإسلامية للهروب من ممالك غرناطة وبلنسية إلى بلاد الشمال الافريقى ، وقد وصل مجموع هؤلاء الى آلاف كثيرة خلال القرن السادس عشر ، كذلك ترتب على سقوط الاندلس ثم على الثورة الغرناطية : حركة من الهجرة الداخلية والخارجية ، فمن كانوا يعيشون فى القسم الغربي من الاندلس يعنى فى غرناطة والفحص ووادى الكرين وجبال بونتوفير حتى مالقه وجبال رنده ، فرض عليهم أن يخرجوا

(١) انظر مثلا L . Cardaillac : Morisques et protestantes , Al-Andalus 19.

فى اتجاه قرطبة على أن يوزعوا بعد ذلك ما بين استريمادورا الى جليقية ، والمورسكيون فى وادى آش وبسطه .. ووادى المنصورة ، كانوا يؤخذون الى جنجاله والبسيط ثم يفرقون فى أراضى قلعة رباح ومونتيل ، والمورسكيون فى آلمريه يؤخذون الى ولاية اشبيلية . وقد أصدر فيليب الثانى قرارا بذلك فى ٢٨ اكتوبر سنة ١٥٧٠ حتى يتوزع المسلمون ولا يتمركزون فى أماكن بعينها . ويقضى القرار بمصادرة الاملاك العقارية للمورسكيين المهجرين ، وتترك لهم أموالهم المنقولة يتصرفون فيها كيفما يشاءون[١] وقد سبق بيان ذلك من قبل ، ليس هذا فحسب بل ان مجموعة أخرى توجهت الى بلاد المغرب ، فقويت بهم الميليشيات الأندلسية هناك . وقاموا بدور لامع فى تاريخ المغرب (مراكش) فى القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر . ومع ذلك فقد استمر فى غرناطة عدد كبير ، بل بقيت أسر ذات أصول مسلمة بعد نفى سنة ١٦١١ الذى خرج فيه ١٣١٧ حسبما يذكر بعض المؤرخين [٢]

وقد ذكرت الرواية العربية بعض الأخبار المتعلقة بحالة الهجرة هذه .

يقول صاحب أخبار العصر "إن من بقى من المسلمين فى مالقه - عقب سقوط غرناطة - عبروا البحر الى باريس ، وعبر أهل المرية الى تلمسان ، وعبر أهل الجزيرة الخضراء الى طنجة وعبر أهل رنده وبسطة وحصن موجر وقرية فردوس وحصن مارتيل الى تطوان وأحوازها ، وعبر أهل لوشة وقرية الفخار وبعض أهل غرناطة ومرشانة وأهل البشرة الى أراضى قبيلة غماره وعبر أهل بيرة وبرجه واندرش الى ما بين طنجة وتطوان وعبر أهل بلش الى سلا وخرج كثير من أهل غرناطة الى بجاية ووهران وقابس وصفاقص وسوسة ، وخرج أهل مدينة طريف الى آسفى وازمور[٣]

وكان ممن هاجر الى العدوة عقب سقوط غرناطة جماعة من أهلها

---

(١) انظر . Marmol : obra citada libro cap . vI , p . 437 - 439 .

(٢) انظر . julio caro Baroja : los Moriscos ... p . 204 , 205 . 209 .

(٣) انظر : نبذة العصر فى أخبار ملوك بن نصر لمؤلف مجهول ، منشور بعناية معهد فرانكو ، العرائش سنة ١٩٤٠ ، ص ٤٨ .

برياسة زعيم جندى هو ابو الحسن المنظرى (المندرى) ، و كان من أكابر الجيش الغرناطي ، فنزلوا فى موقع قرية مرتيل (مرتين) الواقع على البحر على مقربة من تطوان ، وكانت يومئذقرية مهجورة ، فاستأذن الاندلسيون سلطان فاس محمد الشيخ الوطاسي فى تعميرها وسكناها ، فأذن لهم ، فأقاموا فوق موقعها القديم محلة حصينة بها مسجد وقبة سنة ٨٩٨ هـ (أواخر ١٤٩٢ م) . وفى رواية أخرى أن الاندلسيين الذين عمروا تطوان لأول مرة وفدوا الى العدوة قبل سقوط غرناطة ببضعة أعوام (٨٨٨هـ) (١٤٨٣م) وأنهم كانوا نحو ستين أو ثمانين ، ثم جاء بعد بعد سقوط غرناطة قوم آخرون قاموا بتوسيعها وتحصينها »

وعلى أى حال فان المرجح أن هجرة «المنظرى» وقومه كانت عقب سقوط غرناطة ، وأن هذا الفوج من المهاجرين الأندلسيين هو الذى يجب أن يحسب حسابه فى تعمير تطوان وتحصينها ، ومن ذلك الحين تغدو «تطوان» ملاذا لكثير من الأسر الأندلسية التى أرغمت على التنصير ، ثم آثرت الهجرة الى دار الاسلام فرارا من اضطهاد الاسبان ومحاكم التفتيش ، وعادت الى دينها القديم ، وما تزال بها أعقابهم الى اليوم[1] .

ولا شئ فى ذلك يبدو مستغربا ، خاصة اذا وضعنا فى الاعتبار السلوك المتعسف والأوضاع الصعبة التى عاش فى ظلها المورسكيون ، لكن تجد أحيانا ذكر المورسكيين فى أماكن لا يتوقع وجودهم فيها غالبا ، مثلا فى سنة ١٥٠٨ ، ١٥٠٩ ، وجد غرناطى اسمه «سيدى على» ولقب بـ «الترتو» كان يعمل مترجما فى الهند للوالي البرتغالى - وبعد ذلك بقليل وجدنا غرناطيا آخر اسمه «سيدى على» أيضا يترجم عن اللغة القشتالية ويعمل مندوبا لأحد التجار الأثرياء جدا ، والمسمى «مالك حوبى» . وقد درس "ل . كاردايلاك" الوجود المورسكى فى امريكا ، وقدم منظورات

---

(١) انظر السلاوى ، الاستقصاء لاخبار دول المغرب الاقصى ص ١٦٢ ، القاهرة حـ ٢ ومحمد داود : مختصر تاريخ تطوان ص ١٤ - ١٧ .
وعنان : نهاية الاندلس ص ٣١٢ ، ويذكر فى هامش نفس الصفحة أسماء بعض الأسر التى لا تزال تحتفظ بألقابها فى تطوان وغيرها من مدن المغرب مع ذكر مقابلها بالنصرانية ، نقلا عن كتاب محمد بن داود ص ٢١٥ .

مختلفة فى مقال منشور حديثا[1] .

لقد رغب من أكرهوا على التنصير فى الهجرة بحثا عن حرية يتسمونها وربما دفعتهم الأسباب الاقتصادية الى الرحيل للأرض الموعودة ، وهناك بعض آثار ، وإن كانت قليلة ، تدل على وجود البعض هناك ، فمثلا أحرق شخص اسمه "البروجونثالث" بسبب اسلامه فى "كوثكو" سنة ١٥٦٠ ، وكان مهاجرا من «اورناشوس» واعترفت «ماريا رويث» لمفتشى المكسيك سنة ١٥٩٦ أنها كانت تحافظ على عقيدتها الأصلية حتى سنوات مضت ،وكانت قد هاجرت من غرناطة وتزوجت من مسيحي ، وقد قضى بفرض غرامة عليها فقط . وكان هناك موريسكيون غرناطيون يعلمون عبيدا عند أسيادهم بهذه البلاد بعد ثورة غرناطة . باختصار كان هناك وجود موريسكي فى القارة الامريكية ربما لم ينتبه اليه احد ، وهنا يأتى تساؤل ، هل النجارون الذين أعدوا سقف «الفارخيس» ، هم أنفسهم الذين بنوا سقف سان فرنسيسكو دى كيتو ؟ ربما ، فالأثر الموريسكى لم يكن غائبا عن الفن الأسباني الامريكي .

وكل هذا الذى ذكرناه لايعتبر شيئا ، اذا قورن بفيضان الخروج من أسبانيا الذى سببته مرسومات طرد الموريسكيين من البلاد اعتبارا من ١٦٠٩ حسبما ذكرنا من قبل . لقد كانت النتيجة أن توجهت الأغلبية الكبيرة من الموريسكيين الإسبان الى الأراضى الإسلامية ، وهناك عدد ليس بالقليل آثر الإقامة فى أراض مسيحية ، وواجهوا صعوبات وعقبات قانونية تتأبى على القهر . يذكر الاب «بليدا» أنه عندما ذهب الى روما وجد هناك جماعة موريسكية مهاجرة من أشبيلية تقيم فى منطقة «أجدى» بالقرب من "تاربونا" وكان هؤلاء يتحسرون على الوطن المفقود ، وكثير منهم حاول الرجوع ، ويروى نفس الأب أن بعضهم كان فى فرنسا وأن أحد الاشياء التي جعلتهم يشمأزون من هذه البلاد «أن الخنازير كانت تمشى فى الشوارع بصورة

---

(١) انظر : Antonio Dominguez ortiz : Historia .. p . 225 , 226 .

مألوفة ، وكلما حاولوا الاحتراس ، لمست ملابسهم فى مرات عديدة ، وما كانوا يجرؤون على أكل الخبز الذى يصنع فى الافران ، حيث كانت توجد عادةً قدور من شحم أو دهن الخنزير ، ولذلك أعدوا لأنفسهم فرنا خاصا فى منزل معين ، وكانوا يصنعون خبزهم ويطبخون فى قدور لحومهم ، رغم أن هذا كان يكلفهم كثيرا ، لقد بكوا على الحرية التى اتيحت لهم فى أسبانيا مدركين أن ما يمنحونه فى فرنسا قليل ، لقد كانوا يتضررون من الخنازير ومن شحومها المنبعثة من منازل الجيران والتى لا تتركهم يهنأون حتى داخل منازلهم ؛ بسبب الدخان والرئحة التى كانت تزكم أنوفهم دائما »[١] .

وقد درس «يونى فائيو دى اتشيجارا» حديثا ، مسألة استقرار الموريسكيين المطرودين من اسبانيا فى الأراضى الفرنسية[٢] وأنتهى الى نتائج مضمونها : أنه عند طرد الموريسكيين من أسبانيا ، طلبوا من انريكى الرابع أن يصرح لهم بزراعة أقليم «لاس لانداس» ولسنا نعرف رد الفعل لدى الملك ، ولكن الدراسة الطوبوغرافية وأسماء الاعلام ، مثل بحيرة موريسكوت بالقرب من بيارتيث» وغيرها ، جعلت المؤلف يفترض استقرار الموريسكيين فى بلاد الباسك الفرنسية .لقد منح الملك نفسه تصريحا للموريسكيين بأن يتوجهوا من فرنسا وموانى البحر الابيض المتوسط الى الشمال الافريقي ، لكن هذا حدث فقط مع من لم يرغبوا فى اعتناق الكاثولكية ، أما الذين اعتنقوا هذه الديانة فقد سمح لهم بقرار من نفس الملك مؤرخ فى ٢٢ فبراير سنة ١٦١٠ بالبقاء فى فرنسا فى المناطق الواقعة بن نهري «جارونا» «ودوردونيا» ، منع بقاءهم على أي حال فى فى بلاد الباسك . وبعد ترتيبات انريكى الرابع لوحظ وجود الموريسكيين فى «بيرن ولان جويدك وجونيا وبروفنسا» وقد زودنا المؤلف أيضا ببعض التفصيلات عن العلاقة بين الموريسكيين فى أسبانيا وبين فرنسا فى نهاية القرن السادس

(١) انظر : Bleda , jaime : Coronica de Moros de espana , valencia 1618 capitulo 39 .
- A. Domnguez ortiz : Historia ..p 226 .
(2) Bulletin Hispanique XIVII , 1, 1945 , pp . 22 - 102 .

عشر ، ويذكر أن المورسكيين الأسبان اقترحوا على «انريكى الرابع» فى أواخر حكم «فليبب الثانى» ، أن يضعوا تحت تصرفه جيشا قوامه ٨٠ الف جندى يعملون تحت أمره القوات الفرنسية التى تحارب القوات الأسبانية ، وقد عثر على رسالة من زعيم المورسكيين موجهه الى الملك الفرنسي ضمن وثائق دار محفوظات «دوق دى لا فورث» حاكم بيرن(١) . ويؤكد «بردويل» بقاء بعض المورسكيين فى فرنسا حيث يذكر أن ١٢ الف عبروا جبال البرانس الى هذه البلاد ، وقد بقى بعضهم هناك . وتوجه البعض الآخر الى مارسيلية ومنها أبحروا الى بلدان اسلامية مختلفة (٢) .

وجلى مما سبق أن المورسكيين لقوا ترحيبا فى فرنسا ، لكن هذا كان فى البداية ، فقد مات انريكى الرابع فى مايو سنة ١٦١٠ ، يعنى فى وقت تزامن مع طردهم الأخير من أسبانيا ، وقد مثل هذا كارثة بالنسبة لهم ، لأن «بوربون الأول» قد انتقد بشدة اجراءات سلفه ، وبين أنه مستعد من حيث المبدأ بالسماح بالاستمرار واستقرار هؤلاء الذين يؤمنون بالكاثولكية . ولقد تغير الموقف بسبب ما ترتب على النفى العام من أوضاع ، وبسبب الاستعداد السئ لدى السكان الأصليين تجاه أناس غرباء ، دينهم مختلف وكثير منهم فى حالات يرثى لها ، فهم مرضى وليست لديهم موارد مالية ، وقد صدرت الاوامر لمدن جنوب فرنسا أن يوجهوهم بدون إبطاء نحو أقرب الموانى البحرية حتى يغادروا البلاد بحرا ، ومن يحاول منهم البقاء يقضى عليه بالسجن المؤبد ، وقد حدث هذا حتى قبل موت انريكى الرابع ، ويشك أن الملك كان يوافق على هذه الاجراءات القاسية ، ومع ذلك فإن السلطات الاقليمية والمحلية قامت بها مع كثير من العنف والشدة . وأوصت كل من بلدية «باينا» وبرلمان «تولوز» بأنه ينبغى أن تغلق الحدود أمامهم مستقبلا

---

(١) انظر las Memoires autenthiques de nompar de caumont duc de la Force (pairs , 1843 , 1 , jacques pp . 341 - 345 .

(٢) انظر : . la Mediterranee , p 594

وانظر عن الموضوع نفسه ،

Juan regla : estudios sobre los Moriscos pp . 115 . 116 y las notas en las mismas paginas .

، بل إن برلمان «لانجيدوك» هدد بشنق هؤلاء الذين يصرون على البقاء في فرنسا ، أما برلمان «برونيڤا» فقد منعهم من تجاوز «الروداتو» . ولأن الكثيرين منهم كان عليهم أن يبحروا من «مرسيلية» أو أن يقفوا للراحة بها في طريقهم الى افريقيا ، فقد نظم الامر بحيث يعبرون من مركب الى آخر مباشرة دون أن يؤذن لهم بالنزول على الارض ،أيضا نظمت تكاليف الرحلة ، نفرض على المورسكيين الأغنياء أن يتحملوا نفقات زملائهم الفقراء ، وإذا لزم الامر فان البلديات تقوم بتغطية ما قد يكون هناك من عجز (١)

أما خطر الوباء والخوف منه فقد كان موجودا باستمرار في هذه الازمنة ، وقد كان هناك ما يبرره ، ونحن نذكر ما صاحب المورسكيين الغرناطيين عند نفهيم الى قشتاله ، وقد واجهت فرنسا نفس التهديدات ، فقد كانت هناك مجموعة تعدادها الف أبحرت من اشبيلة في مركبين اندلسيين غرق أحدهما وسلم الآخر . ومن بقوا على قيد الحياة ، وصلوا الى «مرسيلية» في حالة يرثى لها وأمتلأت المستشفيات والمستوصفات بهم ، وأسرعت سلطات المدينة فأستأجرت سفنا لنقل هؤلاء الى «بونا» و «تاباركا» وموان أخرى في بلاد المغرب ، وأنتهز بعض الرجال وملاك السفن الحالة السيئة التى كان عليها هؤلاء الناس الفقراء فسرقوا أمتعتهم وحقائبهم ، بل وصل الأمر إن صح ما تردد من شائعات في بعض الشواطئ الفرنسية ، أن قذف بهم في الماء ليكونوا طعاما للسمك وأطلقوا كلمة «السردين الغرناطي» على هذه الاسماك التى كان البعض يتردد في أكلها . ومهما يكن من أمر فان النهب الذى قامت به بعض أجهزة السفن أمر موثوق منه كما توضح بعض الدعاوى القضائية . مثلا تعهد أحد الرجال بان ينقل ٤٠ مورسكيا ملتزما ان يحملهم الى تونس ، لكن عندما وصل نقطة معينة أنزلهم برا ، وبدأ في

---

(1) Louis cardaillac : Morisques en provence , Revue des langues Romanes XXIX 1971 , pp. 296 - 317

وقد أعاد ميجيل دى إپالثا نشره ضمن مجموعة تناولت دراسات حول المورسكيين صدرت عن المعهد العربى للثقافة بمدريد اسبانيا ١٩٧٣ تحت عنوان :

Etudes sun les Moriscos andalous en tunisie

وأنظر المقال المذكور من ص ٨٩ الى ص ١٠٢ .

تغيير وجهته واستولى على أموال ومجوهرات وأمتعة قيمتها ٩٣٢٤٥ اسكودوس ، وكان هناك راكب واحد يمتلك ٢٣٢٦٥ ، لكن الباقين كانوا فى غاية الفقر وتركتهم حادثة النهب بلا شئ . ومن الإنصاف ان نقول ان برلمان «لانجودكو» قد تعامل مع المجرمين بفاعلية وسرعة واعتقل المذنب وشركاءه قبل سنة ١٦١٠ ، وعوقبوا بأقصي العقوبات وصودرت ممتلكاتهم واسترد المورسكيون ما أخذ منهم [1] .

واذا وضعنا فى الاعتبار هذه الروح المعادية للمورسكيين ، اتضح انه من الصعب الحديث عن استقرار له شئ من الاهمية فى جنوب فرنسا ، وليس هناك إشارات الى عدة اسماء يمكن ان تكون مؤشرات على بقائهم أو مرورهم ببلاد الباسك الفرنسية [2]و معروف أن بعضهم وصل الى «باريس» ، ومعظمهم بقى لوقت طال أو قصر فى الأقاليم الجنوبية ، وهناك غموض شديد فيما يتعلق بحالتهم الدينية – وهى أسس كل مشكلتهم – فقد كانوا من الناحية الرسمية مسيحيين ، رغم أنهم طردوا من أسبانيا ، لأنهم لم يكونوا كذلك ، واختيارهم طريق فرنسا جعل البعض يفكر أن فيهم من كان مسيحيا حقيقة . والواقع أن الكاثوليك والبروتستانت فكروا فى ضم هذه الخراف الضالة اليهم ، وجعلهم بعض رجال الدين المسيحى هدفا لرسائلهم التبشيرية ، بينما حاول اتباع مذهب كلفينوس – وهم كثيرون فى جنوب فرنسا – تبشير هؤلاء وجذبهم الى مذهبهم ، ورأوا ان ذلك سيكون مثمرا ، واضعين فى الحسبان انهم يرتبطون معهم برباط مشترك يتمثل فى بعض الطائفتين للكاثوليك .

(١) انظر L . cardaillac : procec pour abus contre les Morisques en languedoc .

وهو قسم من البحث المشار اليه فى التعليق السابق منشور فى مجموعة ميجل دى إبالثا المشار اليها آنفا انظر المقال المذكور فيها من ص ١٠٣ الى ١١٣ .

Etudes sur les moriscos Andalous en Tunis

وهى مجموعة ....

(٢) انظر Bonifacio de Echegaray : se cstblicieron las moriscos en el pais vasco de Francia . Bulletin Hispanique xL VII , 1945 .

- A . Dominguez : historia ... p . 228 .

أما المورسكيون فقد دفعتهم الحاجة الى قبول الحماية من كل من أقترب منهم ، ولم يترددوا فى التظاهر باندماج لم يشعروا به فى حقيقة الامر ، ولا ينبغى أن نلومهم على هذا التظاهر ، فقد كان لزاما عليهم أن يفعلوا ذلك عبر أجيال وقبل مغادرتهم اسبانيا كى تبقى لهم حياتهم ، ولكن ذلك ما كان ممكنا أن يستمر لفترة طويلة ، فالمجمع الدينى البروتستانتى الذى انعقد سنة ١٦١٧ ، حذر الجماعات الاصلاحية من المسلمين المطرودين من أسبانيا ، والذين ينتقلون من كنيسة الى أخرى حتى لايكونوا موضع عطفهم . وبعد هذا التاريخ لا نجد لهم ذكرا ، مما يجعلنا نظن ان هولاء منذئذ بدأوا يتجهون الى الاراضى الاسلامية . ويذكر كارديلاك» ان تحولهم الطارئ الى البروتستاتينية ، كان فقط مرحلة فى مسيرة نفهيم ومع ذلك فان نفس المؤلف يذكر بعض من بقوا : كتب أحد المؤرخين يقول : لقد سمح لعدد كبير بالبقاء فى المدن حيث مارس بعضهم التجارة وبعضهم الطب ، وكثيرون منهم احترفوا زراعة الارض ، ويمكن أن نقدر أنه من بين ٣٠ الف مورسكي دخلوا فرنسا ، فإن عدة مئآت ، وربما لا تزيد على الالف ، بقوا فيها ، دون أن ندخل فى الاعتبار من مرضوا وماتوا ودفنوا فى الأراضى الفرنسية .(١)

ايطاليا ايضا يمكن أن تكون قد أعطت فرصتها لمن اراد البقاء بها من المورسكيين ، تظاهرا بأنه مسيحى ، وقد عبرها الكثيرون فى طريقهم الى تونس أو تركيا وبقى البعض فيها ، فقد تلقت السلطات ، الايطالية رساله بعث بها احد النبلاء ينبه ويحذر من انه وصلت على متن السفن اعداد كبيرة من المورسكيين والمورسكيات ، معظمهم صغار فى السن ، ويرفضون العبور الى بلاد البربر ويرغبون ان يستقروا فى صقلية وقد أعلن واحد من الملوك

(1) Cita por juan pignon en su resena de la obra de lapeyre

وأنظر كتاب دراسة عن المورسكيين الاندلسيين - بالفرنسية - لـ مجيل دى ابالثا والمذكور من قبل ص ٧٥ ، وأيضا :

A. Dominguez ortiz : Historia ... P. 228

استعداده لمنحهم ملجأ[1] كما حاول أحد النبلاء ان يعمل على استقرار ثلاثه آلاف متهم فى "ليورنا" تلك المدينه التى نمت وتطورت بالتعاون مع جالية من الاسبان واليهود ، ولسنا نعرف الاسباب التي من أجلها فشلت هذه المحاوله ، ربما لأنهم عملوا علي عمل مالم يمكن فى طاقتهم أو عمل مالم يكونوا يرغبون فيه ، أولأن المعامله الطيبة فى أول ألأمر تحولت الى سلوك سئ ازاءهم .يفهم ذلك من رسالة معبرة كتبها احد الموركسين المثقفين ووجهامن الجزائر احد الفرسان من "توريخيو" ذكر فيها المعاملة السيئة التى عومل بها فى مرسيليه ثم قال:

نحن جميعا ،الذين كنا أكثر من الف شخص تقرر أن نخرج من هذه المملكة وان نذهب الى مكان نجد فيه هدوءا أكثر وقد ذهبنا الى «ليورنا» فحدث لنا مثلما حدث فى مرسيلية ،ورأيت هناك وفى الاقطاعات الاخرى من ايطاليا انهم لايريدوننا لشئ أكثر من ان نخدم في زراعة الحقل وفى مهن اخرى حقيرة ، ومعظم الناس لايجيدون ذلك ، فمعظمهم كانوا تجارا وكثيرون يجيدون حرفا راقية...وقدواقفنا أن نذهب الى هناك لأن رغبة الملك كانت أن يبعث بنا وهكذا كل من كان منا فى "توريخيو" أتى الى هذه المدينة فى الجزائر ، ومعظم من فيها اصلا من استريمادورا ومنشا وأراجون[2]

ويذكر الاب "بليدا" ان موركسيين كثيريين دخلوا "روما" واكدوا أنهم كانوا مستيحيين وقد طلبوا وساطة ـ البابا لدي ملك اسبانيا كى يعودوا الى

---

(1)Codoin , tomo 44 , p . 129 نقلا عن

A. Dominguez ortiz : Historia ...p . 229

ويقول فى هامش ٨ بنفس الصفحة إن هذه الرسالة قد عرضت على المستشارين فرأى أثنان ترك الموركسيين يعيشيون هناك بينما رفض ذلك أثنان آخران .

(١) انظر. janer , florencio : Codicion social de los Moriiscos , apandice 132.

ويقول انطونيو دوميجث أنه يفهم من هذه الرسالة أن محاولة هذا الدوق قد حققت نجاحا وانه استخدم لها فلاحين من ارجوان وبلنسية ، ويبقى الشك فى نوعية هؤلاء الفلاحين وعما اذا كان بينهم من لم تكن الزراعة مهنته التقليدية ؟

انظر المرجع السابق ص ٢٢٩ هامش ٩ .

وطنهم ، لكن البابا عرف ان احدي المورسكيات رفضت الاعتراف بالمسيحة في لحظة الموت فأمر بطردهم جميعا[1] وربما كانت شدة عداء الرهبان الدومنيكان للمورسكيين وراء تشويه أمثال هذا الحادث ، وعلى كل حال فقد وصل مورسكيون الى "فينسيا" حتى قبل الطرد العام ، وهذا كان بالنسبة لهم مرحله من مراحل رحلة طويلة فى اتجاه تركيا . ويؤكد "فوسيكا" « انه وجد فى سالونيكا ٥٠٠ من أراجون ، وأن عدداً مثلهم وصل الى القسطنيطنية وان ٦٠٠ من اشبيلة أبحروا من ميناء اجدى[2]

ونحن نعرف طريقا من الطرق التى سلكها المورسكيون من خلال دليل جيد لرحلة كانت فى القرن السادس عشر موجوده ضمن مخطوط مكتوب بلغة "الالخميادو" فى المكتبة الملكية بباريس ،وقد عرفنا به "سلبسترى دى ساكي" فى القرن التاسع عشر ،ونشر بعد ذلك فى المجله الجغرافية ، نيويورك يوليو ١٩٣٩ وفى الدرسات الجغرافية ٧- ١٩٤٩ ١٣٦ -١٤١ : انه مختصر حقيقى للرحلة يتضمن بالاضافة الى ذلك بعض الاشارات المفيدة .يقول ان الرحلة تنطلق من "خاكا رجيت" إلى مكتشف الذهب ومضيق كانغرال ، بعد ذلك تمر "بترها تاريبس" ثم "تولوز" بعد ذلك الي "فليون" ثم يعرض علي المسافر احد طريقين : اما الطريق المؤدى الي "بالونيادى جراسيا أو الطريق المؤدى الى "ميلان" ، واظن أن عدداً قليلا جدا اختار طريق الاراضى المنخفضة : لان الهدف الحقيقى كان الامبراطورية العثمانية . وفي "خاكا" كان عليهم ان يبينوا ما إذا كانوا ذاهبين لان لهم ديونا فى فرنسا ويريدون استردادها ؟ ثم يصلون الي فرنسا اوالى ايطاليا هاربين من اراضي الكفار وفى "فينسيا" ، نقطة تفرع الطريقين ، ليس من الضرورى المداراة ، لكن كيف نعرف الوسطاء الذين سييسرون لهم المرحلة الأخيرة من

---

(1) Blead : corónica ... copitulo 36 .

(2) Fonseca Damian : justa expulsion de Moriscos de Espana ... pp 347 - 348 .

وتذكر وثيقة نشرها «خانير» فى كتابه الحالة الاجتماعية للمورسكيين والمشار اليه آنفا ص ٣١٩ أن هناك أربعة أسر مورسكية ذهبت من مرسية الى فينسيا سنة ١٦٠٨ ومنها الى "القسطنطينية" وقد أبحروا من "اليكانتى" وقدموا معلومات مزورة تقول أنهم مواطنون ونواب من مرسية .

أنظر : انطونيو دومينجث ، البحث المشار اليه قبلا ص ٢٢٩ التعليق رقم ١٠ .

رحلتهم ؟ اننا اذا ذهبنا الى ميدان "سان ماركوس" ، نرى هناك الاتراك فى أغطية الرأس البيضاء ، ونرى اليهود فى أغطية الرأس الصفراء ، وكل هؤلاء نسألهم عن الموجهين لهم ، وعما اذا كان لهم اخوة فى سالونيك ؟ فإذا كانوا يريدون الذهاب الى هناك ، فإن عليهم أن يدفعوا "دوكادوس" عن كل رأس تريد العبور ، ويحضرون زادا لمدة خمسة عشر يوما . ويبدو واضحا أن هذا الطريق الطويل والمكلف ، لم يكن من السهل على معظم المورسكيين المعوزين أن يسلكوه ، ومع ذلك فان الاعداد التى استخدمته زادت بشكل ملحوظ بعد سنة ١٦٠٩ ، ومن هؤلاء من ذهب الى القسطنطينية ، ومنهم من ذهب الى سالونيك وبعض الموانى الأخرى فى الشرق الادنى[1] ومنهم من ذهب الى القاهرة أو الى الأراضى التى تكون اليوم جمهورية لبنان حيث يوجد حتى الوقت الحاضر طائفة من الزعماء واعين لأصلهم الأندلسي [2]

، وكان التمركز الكبير فى القسطنطنية ، يحدثنا صاحب "كتاب الأنوار النبوية فى آباء خير البرية" عن هذه الرحلة فيقول .... «خرج منا بعض للمغرب وبعض للمشرق خفية ، كان ذلك سنة ١٠١٣ هـ مظهرا دين الكفار أبعدهم الله ، فخرج بعض أحبابنا واخواتنا وهو الفقيه الأجل محمد ابو العباس احمد الحنفي المعروف بعبد العزيز القرشي ومعه أحد أخواله الى مدينة بلغراد من عمالة القسطنطينية ، فالتقيا بالوزير مراد باشا وزير السلطان المعظم المرحوم السلطان أحمد بن السلطان محمد نجل آل عثمان ، نصرهم الله تعالى وأيدهم ، فأخبراه بما حل بإخواننا بالاندلس من الشدة بفرانسة (فرنسا) وغيرها ، فكتب أمراً لصاحب فرانسة دمرها الله ، باعلام السلطان نصره الله ، يأمره بأن يخرج من كان عنده من المسلمين بالأندلس ، وخدام آل عثمان ويوجههم اليه فى سفن من عنده مع مايحتاجون اليه ، فلماً قرئ الأمر السلطاني فى ديوان الفرنسيس ، فسمعه من كان عنده مرسلا من قبل صاحب الجزيرة الخضراء ، وهو اللعين ڤيليبو الثالث ، فأرسل لسيده يخبره بالواقع ، و أن السلطان أحمد آل عثمان أرسل أمره إلى فرانسة ،

(1) julio caro Baroja : los Moriscos , ...p . 241 .
(2) A . Dominguez ortiz : la historia ... p 230 .

وأمر صاحبها أن يخرج من كان عنده من الأندلس ، فقبل كلامه وأمر بإخراج المسلمين ، وأذنَ لمن جاء من الأندلس بأن لا بأس عليهم ، وأن يركبوا عنده في سواحله مراكبه ، ويبلغهم حيث شاؤا من بلاد المسلمين ، فلما أحس بهذا الأمر عدو الله فيليبو صاحب اسبانية ، دخله الرعب والخوف الشديد...[١]، وكان منطقيا أن يتمركز الغرناطيون فى القسطنيطنية ابتداء من سنة ١٤٩٢ وحتى ١٥٦٩ ، وقد استقروا فى حى "جالاتا" وسلمت لهم كنيسة "سان بابلو" القديمة والتى تحولت إلى مسجد ، وكان ضغط الواصلين حديثا كبيرا ، فاضطر المسيحيون أن يتركوا لهم هذا الحى ، وانتقلوا إلى حى "بيرا" .

يقول صاحب كتاب "رحلة إلى تركيا" : إنه كانت هناك فى القسطنطينةمورسكيات كثيرات ، من ارجوان وبلنسية ، وفى كل يوم كن يخرجن مع أزواجهن وثروتهن خوفاً من محاكم التفتيش [٢] وابتداء من سنة ١٦٠٩ بدأت اعدادهم تزداد بطريقة كبيرة ، وترسم لنا مكاتبات السفير الفرنسي والهولندي لدى الدولة العثمانية صورة لأقلية عديدة نشطة ومؤثرة[٣] وكذلك وجه أحمد بن قاسم بيخاراتو» ، المورسكى الذى عمل مترجما ورسولاً للسلطان المغربى مولاى زيدان ، رسالة من باريس سنة

---

(١) فصل عن المورسكيين المهاجرين ، ضمن مخطوطة بالمكتبة الكتانية بالرباط تحت رقم ٢٣٨ ، لمحمد ابن عبد الرفيع بن محمد الشريف الحسينى الجعفري الاندلسي ، عنوانه «الانوار النبوية فى اباء خير البرية» وكان المؤلف قد عاش في جنوب الاندلس ثم هاجر الى تونس ولمس مأساة المورسكيين عن قرب ، وقد نقل هذا الفصل بتصرف الشاعر المغربى محمد بوجندار فى كتابة «مقدمه الفتح من تاريخ رباط الفتح» . الرباط ١٣٤٥ هـ من ص ٢٠٠ - ٢١٤

وأنظر : عنان : نهاية الأندلس ٤٠٣ - ٤٠٧ حيث نقل نص هذا الفصل .

(١) Viaje de Turquia . Coloquio Ix .

وقد جرت العادة أن ينسب هذا العمل الى كريستوبال دى بيالون ، ولكن الدراسات التى قام بها م . باتون جعلت الاحتمال الأقوى نسبة هذا العمل الى طبيب من سيجوبيا اسمه اندرس لاجونا . أنظر : انطونيو دومنجيث : تاريخ المورسكيين ، التعليق رقم ١١ فى ص ٢٣٠ .

(2) Jean pignon : Une geographie de Lespagne mo. ~ue cahiers de tunisie , 14 , tunez , 1966 - pp . 286 - 300 .

١٦١٢ الى الاندلسيين الذين يقيمون فى القسطنطينية [(١)] . أما الأغلبية الكبرى من المسلمين فقد توجهت ناحية بلاد شمال افريقية ، منذ بدأ نجم هذه البلاد فى الأفول ، يذكر لنا ذلك صاحب كتاب «الأنوار النبوية» فيقول :

انتزعت غرناطة من أيدى المسلمين أجدادنا ، وقد أذن العدو فى ركوب البحر والخروج منها لمن أراده ، وبيع ما عنده وإيتانه لهذه الديار الاسلامية ... فلما تحرك أجدادنا لذلك ، وعزموا على ترك ديارهم وأموالهم ومفارقة أوطانهم للخروج من بينهم ، وجاز الى هذه الديار التونسية والحضرة الخضراء بغتة من جاز اليها حينئذ ودخلوا فى زقاق الاندلس المعروف الآن بهذا الاسم ، وذلك سنة أثنين وتسعمائة ، وكذا للجزائر وتطاون (كهذا) وفاس ومراكش وغيرها ، ورأي العدو العزم فيهم لذلك ، انقض العهد ، فردهم رغم أنوفهم من سواحل البحر إلى ديارهم ، ومنعهم قهرا من الخروج واللحوق بإخوانهم وقرابتهم بديار الاسلام ، وقد كان العدو يظهر شيئا ويفعل بهم شيئا آخر مع أن المسلمين أجدادنا ، استنجدوا مرارا ملوك الاسلام ، كملك فارس ومصر حينئذ ، فلم يقع من احدهما الا بعض المراسلات ، ليقضى الله امراً كان مفعولاً [(٢)]

ويقول المقرى - وكان من المعاصرين للمأساه ، اخرج النصارى المسلمين ... اعوام سبعة عشر والف ، فخرجت الوف بفاس وألوف آخر بتلمسان من وهران ، وجمهورهم خرج بتونس فتسلط عليهم الاعراب ، ومن لا يخشى الله تعالى في الطرقات ونهبوا أموالهم ، وهذا ببلاد تلمسان وفارس ونجا القليل من هذه المضرة . أما الذين خرجوا بنواحى تونس فسلم أكثرهم وهم لذلك العهد ، عمروا قراها الخالية وبلادها ، وكذلك بتطاون "تطوان" وسلا وقيجة الجزائر . ولما استخدم سلطان المغرب الأقصى منهم عسكرا جرارا ، وسكنوا سلا ، كان منهم من الجهاد فى البحر ما هو مشهور

(1) I . P . Harvery : the morisco who was muely Zaidans interpreter v, Miscelanea de estudios Arabes y Hebraicos , Granada , 1959 , P . 71 .
وأنظر فى الموضعين . A . Dominguez ortiz : la historia ... p 230

(٢) انظر عنان : نهاية الاندلس وما عنده من مصادر ص ٤٠٤ ، ص ٤٠٥ .

الآن ، وحصنوا قلعة «سلا» وبنوا بها القصور والحمامات والدور وهم الآن بهذه الحال ، ووصل جماعة الى القسطنطينية العظمى والى مصر والشام وغيرها من بلاد الاسلام ، وهم لهذا العهد على ما وصفت[1].

أما ابن أبى دينار التونسي فيقول فى أخبار سنة ١٠١٧ : وفى هذه السنة والتى تليها جاءت الاندلس من بلاد النصارى نفاهم صاحب اسبانية ، وكانوا خلقاً كثيرا ، فأوسع لهم عثمان داى فى البلاد ، وفرق ضعفاءهم على الناس ، وأذن لهم أن يعمروا حيث شاؤوا ، فاشتروا الهناشير وبنوا فيها واتسعوا فى البلاد فعمرت بهم ، واستوطنوا فى عدة أماكن ، وعمروا نحو عشرين بلدا ، وصارت لهم مدن عظيمة ، وغرسوا الكروم والزيتون والبساتين ، ومهدوا الطرقات وصاروا يعتبرون من أهل البلاد [2] .

ويقول واحد من الكتاب المتأخرين «وفى سنة ست عشرة وألف ، قدمت الامم الحالية من جزيرة الأندلس ، فأوسع لهم صاحب تونس عثمان داى كنفه ، وأباح لهم بناء القرى فى مملكته فبنوا نحو عشرين قرية ، وأغتبط بهم أهل الحضر ، وتعلموا حرفهم ، وقلدوا ترفهم[3] .

وانتقال المسلمين من الاندلس الى المغرب العربى ، ليس أمرا غريبا ، بل هو امتداد لأسلوب قديم لهذه البلاد القريبة من شبة جزيرة «ابيريا» وتشبهها فى كثير من المظاهر والأنماط ، واستقبال هذا المغرب للعديد من موجات الاندلسيين يرجع الى تواريخ بعيدة جدا ، ولكن حركة الانتقال من هذا الجانب او ذاك من المضيق ، أضحت مسيرة فى اتجاه واحد ، منذ أن تغلب المسحيون ، وأصبحت لهم السيادة على بلاد الاندلس ، فكل إقليم أو مدينة كبيرة ، أعاد المسيحيون فتحها ، كانت تعنى موجه جديدة من موجات الهجرة الى الشمال الافريقى تعمل على أغناء هذه البلاد وإفقار

(١) المقرى : نفح الطيب حـ ٢ ص ٢١٧ ، حـ ٤ ص ٥٢٨ من نشرة احسان عباس .
(٢) المؤنس فى اخبار افريقية وتونس ص ١٩٣ .
(٣) ابو عبد الله الباجي المسعودي : الخلاصة النقية فى امراء افريقية ، تونس ص ٩١ ويذكر السلاوى فى الاستقصا ، ... بار دول المغرب الأقصى هذه النصوص ، انظر حـ ٣ ص ١٠١ وما بعدها

الاندلس ، وكان القسم الاكبر من هؤلاء المهاجرين يتوجه ناحية المدن الكبرى ويكون فيها نواة برجوازية ، وكان سقوط غرناطة بأيدى المسيحيين بمثابة دفعة جديدة من هذه الهجرات . وقد استمرت هجرة المسلمين المنصرين تتوالى على امتداد القرن السادس عشر ، وانضم اليهم الكثير من الأسرى والمرتدين ، ليس من اسبانيا وحدها بل ومن كل الجنسيات الاوربية ، ووجود هذه العناصر المختلفة بالاضافة الى المبشرين ورجال الارساليات وبالاضافة التجار والمغامرين ، يفسر انتشار اللغة القشتالية فى بلاد المغرب ، ليس بين المهاجرين فقط بل بين المسلمين المرموقين [١] .

وبرغم قوة ونشاط السكان وتقدمهم من الناحية الفنية ، إلا إن وضع المغرب الكبير كان يرثى له فى مطلع القرن السابع عشر ، فقط أمكن لمراكش أن تقدم صورة الدولة المستقلة ، برغم أن أجهزة الحكم فيها كانت بدائية . أما الجزائر وتونس ، فكانت كلتاهما تتبع الامبراطورية العثمانية ، وتخضع لحكم الباوات العثمانيين ، ولم تعد كل من اسبانيا وتركيا تعادى احداهما الأخرى ، ولم تعد أى منهما تهتم بالبحر الابيض المتوسط بعد معركة «ليبانتو» ، ذلك ان تركيا قد غرقت فى مشاكلها بالشرق يعنى مع الصفويين فى بلاد فارس ، بينما غرقت اسبانيا فى مشاكلها شمال المحيط الاطلسى[٢] ، ولأن الاتراك لم تعد لهم السيطرة البحرية ، فقد فقدوا نفوذهم وضاعت هيبتهم وتجرأ عليهم المتمردون فى داخل البلاد ، بل إن نفس فرقهم العسكرية و هى الانكشارية ستعمل علي الاستقلال ، لقد أصبح من الامور المألوفة أن يختار ضباط الانكشارية من يكون حاكما (باى) عليهم فى الجزائر ، وانحصر دور السلطان فى التصديق على من يختارون ، وكان الوضع فى تونس يشبه ذلك مع فارق وحيد ، وهو أن الباى التركي تحول الى شخصية للزينة وتحولت السلطات ليستحوذ عليها من حل محله وهو

---

(١) يشهد بهذه الحقيقة Fray Matias de San Francisco ، الذى نشر سنة ١٦٤٣ كتابا بعنوان Un relacion del viaje que hizo a Marruecos Fray Juan de prado , Capitulo VIII

A . Dominguez ortiz : la historia ... p 231 Y Su notas .

(2) Braudel : la méditerranee ... II . p . 468 .

«الداى» الانكشاري .

فلم تكن الانكشارية ببساطة الافرقة عسكرية ، وانحصرت مهمتها فى القيام بغارات دورية ، هدفها السلب من داخل البلاد بحجة جمع الضرائب ، وكانت كل قرية وكل قبيلة تعيش مستقلة ، ويتعايش الأتراك والأشرار فى المدن الكبرى مع جماعات غير متجانسة ومع مجموعات البرجوازية ومن لا دين لهم من كل الجنسيات . وهؤلاء المارقون هم الذين كانوا يقومون بعمليات القرصنة ، ذلك العمل الذى جنوا من ورائه مكاسب هائلة والذى كان يشترك فيه حتى البرابرة أنفسهم بطريقة مباشرة

وقد اتجهت مجهودات الملوك الاسبان ، لمواجهة أخطار القرصنة هذه فى المراحل الأولى ، نحو الاستيلاء والسيطرة على موانى الشمال الافريقى مثل «طنجة وسبته ومليلية وأوران» حيث أنشأت قلاعا حقيقية للدفاع تكلفت كثيرا ولكن فاعليتها كانت محدودة ، وقد أقيمت علاقات سليمة أحيانا ومعادية أحيانا أخرى مع هؤلاء المغامرين من خلال تلك القلاع ، وعاش البعض فى ظل هذه الحصون ، وهناك من الاسبان من هرب اليها وقام بأنشطة معادية ، وكان الفشل فى احتلال تونس والجزائر مدعاة الى البحث عن وسائل أخرى لردع عمليات القرصنة ، فتم تسليح السفن وأستغلت فى ذلك الضرائب غير العادية التى كانت تجمع باسم الخدمات الدينية ، ولكن هذه السفن لم تكن تكفى لمراقبة سواحل بحرية بهذا الطول ، لا من حيث عددها ولا من حيث قدرتها البطيئة على الحركة ، أما الحصون التى أقيمت ،فإن ما يجنى منها من فوائد ، لم يكن كافيا لتعويض ما ينفق عليها . إزاء هذا كله كان لابد من اللجوء الى بديل ثالث تمثل فى تغطية كل ساحل البحر الابيض المتوسط بأبراج دفاعية تدعمها قوات متحركة ، وكان هذا يكفى لضمان أمن جزئى فقط .

ثم جاءت هجرة الغرناطيين ، فقدمت دفعة جديدة لعمليات القرصنة ، وكانت تلك العمليات مورد رزق بالنسبة لهم ، كما كانت تعبيرا عن مقتهم

للمسيحيين ، وبذلك اقترنت الخطورة الاسلامية فى بلاد الشمال الافريقى بالانتشار التركي على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، وهذا هو الذى جعل المشكلة تتسم بطابع الخطورة فى القرن السادس عشر . لقد رأت اسبانيا أن الخطر الحقيقى يتمثل فى غارات المجاهدين المسلمين على الثغور والشواطئ الاسبانية . وتملأ سيرة هذه الغارات فراغا كبيرا فى الرواية الاسبانية وتسبغ عليها صفة الانتقام لما حدث للاندلس المفقود ، وقد استمرت هذه الغارات طوال القرن المذكور آنفا ، واستمرت دهرا بعد اخراج المسلمين من اسبانيا ، ويشير «المقرى» الى مغزى هذه الغارات بعد اخراج المسلمين المنصرين فيقول: إن هؤلاء «انتظموا فى جيش سلطان المغرب وسكنوا سلا وكان منهم من الجهاد فى البحر ما هو مشهور الآن (١) .

وقد اشتد ساعد البحرية التركية بفتح القسطنطينية ، فزاد نشاط المسلمين العثمانيين البحري الذى كان قد بدأ فى القرن الخامس عشر ، وكان سقوط غرناطة واضطهاد المسلمين باسبانيا ، ايذانا بتطور هذه الغارات البحرية ونزول الأندلسيين والمورسكيين المنفيين الى ميدانها ، واتخاذها صورة جهاد ضد من آذوا المسلمين وألحقوا بهم ضروب السعف والارهاق فى بلاد الاندلس (٢) .

وقد بدأت هذه الغارات البحرية على مواني اسبانيا بعد سقوط غرناطة وحمل المسلمين على التنصير ، فقد غادر الاندلس آلاف من المجاهدين انفوا العيش تحت نير الاسبان ، فعبروا البحر الى العدوة الأخرى واستقروا فى بعض القواعد الساحلية مثل وهران والجزائر وبجاية ووهبوا حياتهم للجهاد فى سبيل الله ، وكان البحر ييسر لهم القيام بهذه الفريضة ، كما كانت شواطئ المغرب بطبيعتها الوعرة وثغورها ومراسيها وخلجانها الكثيرة التى تحميها الصخور العالية ، أصلح ملاذ لمشاريع اؤلئك البحارة المجاهدين ، وكانت الجزائر وبجاية وتونس أفضل قواعدهم للرسو والاقلاع ، وكان هذه الغارات تعتمد على عنصر المفاجأة ، وتنجح فى تحقيق غاياتها فى معظم الأحوال .

(١) نفح الطيب ٢ ص ٦١٧ ، حـ ٤ ص ٥٢٨ من نشرة احسان عباس ، وقد الف المقرى كتابه هذه سنة ١٦٣ ، وانظر : عنان : نهاية الاندلس ص ٣٨٣ .

(2) Lane poole : stanly : the barbary corsairs , pp 26 - 27 London 1890.

يصف «بيترو مارتيرى» هذه الغارات فيقرر أن «فرناندو الخامس» أمر سنة ١٥٠٧ باخلاء الشاطئ الجنوبي من جبل طارق الى آلمرية لمدة فرسخين الي الداخل تحوطا من هذه الغارات ، ثم صدرت مرسومات عدة تحرم على المورسكيين السفر الى أبعاد معينة من الشاطئ ، ولكن هذا التحوط لم يفد فى شيئ ، واستمرت أعمال المجاهدين ، فألقوا باللوم على المورسكيين وخاصة سكان بلنسية ، وكلما اشتدت وطأة الاضطهاد والعسف بالموريسكيين ، لجأوا الى اخوانهم المغاربة يستصرخونهم ، فيخف المجاهدين المغاربة ، ويغيرون على الشواطئ الاسبانية ويخطفون النصارى ويبيعونهم عبيدا فى الأسواق المغربية، وكان المورسكيون من جانبهم يزودون الحملات المغيرة بالمعلومات الدقيقة عن أحوال الشواطئ ومواطن الضعف فيها ، ويمدونهم بالأقوات والمؤن ، وكثيرا ما جهزت هذه الحملات لنقل المورسكيين الى العدوة الأخرى حيث استطاعت نقل جماعات كبيرة منهم خلال القرن السادس عشر .

وفى أوائل القرن السادس عشر ظهر عنصر جديد ، أذكى موجة الغارات البحرية ، ذلك أن البحارة الاتراك وعلى رأسهم" عروج وخير الدين باربا روسا" ، اندفعوا من شرق البحر الابيض المتوسط الى غربه فى مغامرات وجهاد معروف . وفى سنة ١٥١٧ ، سار عروج على رأس قوة برية وبعض السفن واستولى على الجزائر ، ولما قتل فى العام التالي فى معركة مع الاسبان ، استولى أخوه خير الدين على الجزائر ، ثم على معظم الثغور المغربية الساحلية ، وعينه السلطان سليم حاكما عليها وأمده بالقوات فتألق نجمة وأصبح اعظم امراء البحر فى زمنه وعاونه نخبة من أمهر الربابنة الترك مثل «طرغود» الذى خلفه فى الرياسة ، «وصالح ريس وسنان اليهودى وايدين ريس» وغيرهم من البحارة الشجعان الذى بسطوا سلطانهم على معظم أنحاء البحر الابيض المتوسط ، وأشتهروا بغاراتهم علي الشواطئ الاسبانية والإيطالية والتف حولهم معظم المجاهدين والمغامرين من المغاربة والمورسكيين .

وقد «بدأ خير الدين» غاراته على المياة الاسبانية بمهاجمة الشواطئ الشرقية ، واستمرت هذه الغارة ثلاثة أشهر ، جمع خلاها فى سفنه كثيرا من المسلمين الراغبين فى الهجرة ، كما أسر كثيرا من الاسبان ، وعرج أثناء عودته على جزيرة «منورقة» . وفى سنة ١٥٢٩ نظم «خير الدين» غارة مهمة على شواطئ الاسبانية ، حيث فاوضه جماعة من المورسكيين من بلنسية أن ينقلهم الى عدوة المغرب خلسة ، فأرسل عدة سفن رست ليلا عند «أوليفا» شمال غربى مدينة «دانية» ونزلت الى البرقوة جمعت ٦٠٠ من المورسكيين الراغبين فى الهجرة ، لكن مجموعة من السفن الاسبانية الكبيرة ، فاجأت سفن المسلمين وطاردتها حتى مياة الجزر الشرقية (البليار» ، وفجأة تحولت السفن الاسلامية من حالة الدفاع الى وضع الهجوم وأغرقت بعض السفن الاسبانية وأسرت البعض الآخر ، وسارت سالمة الى الجزائر تحمل مغانمها من سفن وأفراد ، وكان صريخ المورسكيين يتوالى على خير الدين وحلفائه من أمراء المغرب ولا سيما أثناء الثورات المحلية ، ومن هنا تتابعت بعوث خير الدين وغاراته على الشواطئ الاسبانية ، وأخذت تنقل المورسكيين الراغبين فى الهجرة حتى بلغ مجموع ما نقلته سفن خير الدين منهم حوالى ٧٠ ألفا(١) .

وكان نشاط خير الدين واخوانه فى المياة المغربية ، سببا فى تحطيم كثير من المشروعات الاسبانية فى بلاد المغرب ، وكانت القوات الاسبانية قد استولت على ميناء «وهران» سنة ١٥٠٥ ، واحتلت المياة التونسية عام ١٥٣٥ عندما انضم أميرها من بنى حفص الى لوائهم بعد عزله ، وكان بعض أمراء القواعد والثغور المغربية المعرضين لتهديد الترك يتجهون بأبصارهم نحو الاسبان طلبا للمساعدة ليظلوا محتفظين برئاستهم ، وهناك صور لوثائق محفوظة موجهة من هؤلاء الامراء المغاربة الى الامبراطور

---

(١) انظر : Lane - poole : stanly : the barbary corsairs , London 1890
الفصول الاول والثانى والثالث وكذلك كتاب : غزوات عروج وخير الدين المنشور بالعربية بالجزائر سنة ١٩٣٤ منقولا عن اللغة التركية .

«شرلكان» تستنصر به وتتعهد بطاعته [١] .

وفى سنة ١٥٥٩ قام «طرغود» أمير البحر التركي بعد خير الدين ، بغارة كبيرة على الشواطئ الاسبانية واستطاع ان يحمل معه ٢٥٠٠ موركسى ، وفى سنة ١٥٧٠ حملت السفن الاسبانية الاسلامية كل المورسكيين فى «باليرا» وفى سنة ١٥٨٤ سار أسطول من الجزائر الى بلنسية وحمل ٢٣٠٠ وفى العام التالى حملت السفن كل سكان مدينة «كالوسا» وبلغت الغارات البحرية على الشواطئ الاسبانية ثلاثا وثلاثين بين سنتى ١٥٢٨ - ١٥٨٤ ، هذا عدا الغارات المحلية التى كانت تقوم بها سفن صغيرة لحمل جماعات من المورسكيين .

وقد وصف «ثيرفانتس» هذه الغارات ، وكان نفسه ضحية أحداها حيث حمل اسيراً الى الجزائر سنة ١٥٧٥ وظل بها حتى تم فداؤه سنة ١٥٨٠ [٢] .

وقد عمل فى الجهاد البحرى ضد الاسبان جماعة من كبار المورسكيين المنفيين ممن تحولوا الى اعداء ألداء لأسبانيا مثل الريس بلاتكيو والريس احمد ابو على من شونية ، ومراد الكبير من المدينة الملكية وغيرهم ، وقد أبلى هؤلاء بلاء حسنا وعاونوا على إحكام الغارات على المياة الاسبانية ، وفى سنة ١٦٠٢ وقعت غارة كبيرة بقيادة البحار «مراد الريس» على «لورقة» وحملت عددا من الأسرى ، ثم كثرت الغارات فى الأعوام التالية على الشاطئ الجنوبي ، وقد تبين أنها من تنظيم بحار انجليزى مغامر ، كان يعيث فى بلاد سواحل الاندلس ويأخذ الأسرى ويبيعهم عبيدا فى أسواق المغرب ، وكانت ثغور تونس فى نفس الوقت أيام حاكمها عثمان داى ١٥٩٨ - ١٦١٠ ملاذا لطائفة من البحارة المغامرين على الشواطئ الأسبانية ،

(١) هناك صور من هذه الوثائق فى دار المحفوظات العامة بسيمنقه ، وقد حصل الاستاذ محمد عبد الله عنان على بعضها وعرض مضمونها فى كتابه نهاية الاندلس . أنظر ص ٣٨٨ و مابها من تعليقات .

(٢) انظر lea : History of the inqisition in spain , V . 1. . p. 363

وكان من أشدهم «عمر محمد باى» الذى قام بعدة غارات جريئة على شواطئ اسبانيا الجنوبية كان يعود بعدها مثقلا بالغنائم والسبى[1] .

وهكذا لبثت الغارات البحرية تزعج الحكومة الاسبانية فترة طويلة من الزمان ، وقد زادت حدتها منذ منتصف القرن السادس عشر ، وكان ذلك أمرا غريبا ، فقد كانت اسبانيا آنئذ تلقب بسيدة البحار ، ولكنها لم تستطع ان تفعل شيئا ازاء غارات مفاجئة تقوم بها سفن صغيرة تحمل مجاهدين مضحيين ، وكان اللوم يقع دائما على المورسكيين كما أسلفنا ، لاسيما سكان الثغور فهم الذين يمدون الحملات بالمعلومات ، ويزودنها بالمؤن ، ويحددون لها مواطن الرسو والاقلاع . وقد كان المورسكيون على اتصال دائم ببلاد المغرب وبالمسلمين فى افريقية رغم الاضطهاد والتشدد فى مراقبتهم ، وكانت «سلا» بمرفئها البديع الذي تحميه الخلجان ، مركزا لأولئك المغامرين ومنها تتوجه اقوى الحملات الى الشواطئ الاسبانية[2] .

وقد استمر البحارة الاتراك يتزعمون هذه الغارات البحرية زمنا ، معتمدين بالدرجة الأولى على النواتية المجاهدين من المغارنة والمورسكيين ، ثم أخذت هذه الغارات تفقد مغزاها وتتحول الى حملات للنهب على الشواطئ الاسبانية والايطالية ، وكانت تغذى الأسواق بأسراب الرقيق ، وكان يشترك مع البحارة الترك مغامرون من كل البلاد الأوربية . أما الباشوات او الدايات الترك الذين حكموا طرابلس وتونس والجزائر منذ اواخر القرن السادس عشر ، فقد وجدوا فيها فرصة للنهب والمغانم ، فأمدوا رؤساء البحارة بمعونتهم عند الاقلاع وعند الرسو فى ثغورهم مقابل عشر الغنائم تدفع الى خزينة الباشا أو الداى . وبهذه الطريقة استرق عشرات الآلاف من النصارى فى هذه الغارات التى استمرت طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وبرغم وقوف الدول الأوربية فى مواجهتها إلا أنها لم تستطيع انهاءها تماما إلا بعد احتلال فرنسا للجزائر سنة ١٨٣٠ .

---

(١) انظر : ابن أبى دينار : المؤنس فى اخبار افريقية وتونس ص ١٩٢ .

(٢) انظر : المقرى : نفح الطيب حـ ٢ ص ٦١٧ ، عنان : نهاية الاندلس ص ٣٩٠ .

وفى أواخر عهد فيليب الثالث حدث نزاع فى بلاد المغرب بين ابناء السلطان المنصور الثلاثة عقب وفاته ، وخشيت اسبانيا من استعداء الموريسكيين لمسلمي افريقية ، وبالفعل ، كان الموريسكيون فى بلنسية قد ارسلوا رسلهم الى مولاى زيدان ، يوضحون له سهولة غزو اسبانيا واستعدادهم لتقديم ٢٠٠ الف موريسكي مقاتل ، متى احتل السلطان احد الثغور الهامة ولكن السلطان رفض وأجاب بأنه لن يحارب خارج بلادة [١] .

أما اخوة الشيخ فقد استنجد بملك اسبانيا فأنجده ، وتنازل الشيخ عن بعض المواقع الهامة ، فثارالشعب عليه وقتله ، وصفا الملك لمولاى زيدان الذى ظل فى كفاح مع اسبانيا حتى وفاته سنة ١٦٢٧ [٢] .

وهكذا لم تقتصر عمليات الجهاد البحرى على العثمانيين ومعاونيهم من المغاربة وغيرهم ، بل اشتراك فيها فى مراحلها المتأخرة . المارقون الأوربيون ، وهم عدد غير قليل من الإنجليز والفرنسيين والهولنديين ، جاءوا جميعا بتكتيك ملاحي جديد مع مقدرة على تصنيع السفن العسكرية ، و لم تكن الناحية الدينية شيئاً ذا بال بالنسبة لهم ، لقد شكلوا نوعا من جمهورية المغامرين الحرة ، وكانوا شبه بالقراصنة الذين بقوا فى أرض ليست مملوكة لأحد ، أوأنهم كونوا اقطاعيات صغيرة . حقيقية . لقد اعتبرت السواحل الشمالية الأفريقية أرضاً لا يمتلكها أحد إلى حد كبير ، ومن يمثلون سيادة السلطان العثمانى من الناحية النظرية ، تركوا القراصنة يقومون بنشاطهم بكل حرية ، مقابل المشاركة فى المغانم التى تمثلت فى الأسرى من الأيدى العاملة بصورة أساسية وكانوا فيما بعد موضوعا لفداءات جزيلة .

ولم يجهل الموريسكيون أوضاع الحياة فى افريقيا ، ولهذا فإن عدداً ليس بالقليل من الأغنياء والمشهورين ، آثروا البقاء فى الأراضى

(١) انظر ابو عبد الله اليفرنى : نزهة الحادى بأخبار ملوك القرن الحادى طبع فاس ص ١٦٢ - ١٦٧ ، وكذلك السلاوى : الاستقصاء حـ ٣ ص ١٠٢ .

(٢) انظر : عنان : . الاندلس ص ٣٨٣ ٣٩٢ .

المسيحية ، أما الجمهور فقد كانت الأرض التى يمارس فيها شعائر الإسلام بحرية هى المثال بالنسبة له ، وقد فتح الواقع أعينهم على نتائج قاسية مخيبة للآمال تفاوتت درجاتها ، فقد كان الترحيب بهم يختلف من منطقة إلى أخرى ، فلقوا مودة وترحيبا فى بعض الأماكن ومعاملة لا انسانية فى أماكن أخرى .

أما مراكش ، فكانت منعزلة عن العالم الخارجى تقريبا ، ولم تشهد مظاهر التقدم أو لم تعرف التغيرات الكبيرة التى كانت تجرى فى أوربا ، وقد كون الأندلسيون فيها برجوازية متخضرة منذ زمن بعيد ، واستفاد السلاطين منهم مساعدات قيمة . وقد شهد القرن ١٦فيضانا من المهاجرين وكثيرا من المارقين ، تسربت معهم لمحات من التكنيك الغربى ، تكفى لإقامة مسافة بين المغرب وبين الدول البدائية السوداء فى السودان . على الأقل مسافة كبيرة ، تشبه تلك التى كانت بين المغرب وأوربا فى سنة ١٥٩١ ، انهم جيش من المرتزقة ، مع اشتراك واسع من قبل المتمردين الأسبان ، لقد قاموا جميعا بغارات عبر الصحراء وصلت حتى "توبوكتو" أو تمبكتوا سنة ١٥٩١ ، وكانوا جميعا يتكلمون القشتالية [١] .

وكان معظم الموركسيين الذين وصلوا إلى مراكش سنة ١٦١٠ اندلسيين وقشتاليين ومن استريمادورا ، لقد وصلوا فى لحظة تمثل مرحلة عميقة فى مسيرة الإمبراطورية العثمانية العجوز ، فقد مات السلطان أحمد الرابع - فاتح السودان - سنة ١٦٠٢ وقامت الأسر المتصارعة ببث العداوة بين أبنائه عقب صروف للدهر لا تعنينا الآن روايتها ، المهم أن مولاى الشيخ الذى هزمه مولاى زيدان لجأ أخيرا إلى اسبانيا ، حيث ساعده ملكها فى صراعه مع أخيه ، ولكن ذلك السلطان قتل بعد ذلك بقليل ، وبقى مولاى زايدن ، وهو عدوا اسبانيا ، العاهل الوحيد . وفى سنة ١٦١٤ قامت حملة

(١) انظر julio caro Baroja : los Morisccos ..p 240
ومابها من تعليقات
وانظر مقال Emilio Garcia gomez : Espana en el súdan , revista de occidente 1935

بفتح ميناء "مامورا" على شاطئ المحيط الأطلسى ، دون أن تعانى عمليات القرصنة من نقص ملحوظ نتيجة لذلك .

ويقدر الرقم الإجمالى للمورسكيين فى مراكش بأربعين الفا ، أقام معظمهم فى المناطق القريبة من سبتة وفى تطوان وفى مناطق أخرى قريبة من المضيق "من أجل أن يستنشقوا هواء اسبانيا وقد وصلوا يرتدون ملابسهم على الطراز الأسباني ، ويتكلمون القشتالية ، وتمتزج اسماؤهم وألقابهم المسيحية مع أسمائهم الإسلامية ، وكانت عقيدتهم الإسلامية السبب فى منحهم ثقة نادرة حتى لقد أسماهم البعض "مسيحيو قشتالة" ، رغم أن هذا يعتبر نتيجة ضعيفة ، الا أنه مؤكد أن بعض المورسكيين استمروا على على مسيحيتهم وقاسوا فى سبيل ذلك"[١] .

وقد جند مولاى "زيدان"بضعة آلاف[٢] من بينهم فى حربه التى قام بها ضد أخيه مولاى الشيخ ، ولكن هزيمة مولاى زيدان ، جعلت المورسكيين يهربون عبر سلاسل الجبال ، حاملين معهم حقائبهم المتواضعة يجرون نساءهم وأبناءهم ، ويلعنون حظهم فى بلاد البربر وتصدر منهم أصوات يختلط فيها أسفهم بمدح السيد المسيح [٣] .

وعلى كل حال فقد حررهم مقتل الشيخ منافس مولاى زيدان من هذا الكرب ،ووجه الأخير فرقة من الجنود إلى مناطق النفوذ الأسباني فلم تستطيع القضاء عليه أما من لم يشترك فى الحرب من المورسكيين ، فقد اختلطوا بسكان الحواضر فى طنجة وتطوان وساوين وفارس ومدن أخرى ، وكانت تربطهم ذكريات عديدة مادية وإنسانية بوطنهم الأسباني ، وقد

---

(١) روى كابريرا قرطبة وغيره بعض الأمثلة ، انظر : relaciones ...6 - 4 - 1610 .
وانظر A . Dominguez ortiz : la historia ... p 233 y nota 18 .
(٢) هذا العدد هو ثمانية آلاف حسب ما ذكره vaucelas لا انريكى الرابع والموجود فى : -
-las sources inedites de Histoire du Maroco . serie 1 tomo II , p . 495 .
وربما دخل فى هذا غير المقاتلين ولذلك ذكر أن العدد كان فقط ١٥٠٠ Rojas casanate
وانظر A . Dominguez ortiz : obra citada , p 233 y nota 19 .
(٣) انظر A . Dominguez : obra citada , p 233 y nota 18 en la misma pag.

استقرت منهم فرقة قوية بنت مدينتين قديمتين خربتا الآن تقريبا هما "سلا" في الجانب الأيمن و"الرباط" في الجانب الأيسر . وقد شهدت الأخيرة عصرا من الإزدهار تحت حكم الموحدين ، حيث بنوا هناك برجا هويرج "حسان" الذى يشبه كثيرا برج "لاخيرالدا" فى اشبيلية ، لكنه اذ ذاك كان متواضعا جدا ولم يكن هناك أكثر من بضعة مئآت من المساكن المتواضعة يحيط بها ويحميها سور متهدم ، وقصبه .. أو حصن فى حالة مماثلة . وفى مواجهة المدينة العسكرية الرباط ، بنيت مدينة "سلا" التى تميزت بعبقها الدينى بتأثير واحد من المرابطين المتميزين هو "العيشي" .

هذه المدينة المزدوجة أضحت ذات نشاط وحيوية ، وأصبحت مشهورة بفضل مجئ المورسكيين ، الذين شكلوا هناك نوعا من جمهورية القراصنة المستقلة خلال فترة طويلة . ونحو نعرف جيدا ما تعرضت له من خطوب الدهر ، بفضل سلسلة من البحوث أوضحت كل جوانب هذا الفصل الذى يعتبر أهم فصول مأساة النفى المورسكى(١) .

ونعرف أن أول من وصل إلى هذه المنطقة هم "لوس أورناتشوس" ، وهؤلاء يتميزون بأنهم ألفوا العيش بين السلاسل والممرات الجبلية ، وأنهم كونوا مجموعة كثيفة جسورة ثابتة على عقائدها الإسلامية . وقد أقلع هؤلاء من أشبيلية ونزلوا فى سبته واستقروا فى تطوان ، ثم رغب السلطان فى أن يستفيد بهم وبمقدرتهم العسكرية ، فنقلهم ليستقروا فى جنوب مراكش فى "درعا" لكن ذلك لم يرق لهم ، فهربوا وأقاموا فى الرباط - سلا ،

---

(١) هناك عملان جديران بلفت الانظار اليهما فى هذا الصدد هما :
- les corsaires de sale , Roger coindreau - paris 1948 , 240 paginas .
- la republec andaluza de rabat en el siglo XVII , "Guillermo Gozallees Busto (Cuadernos de la Bilblioteca Espanola de Tetuan " 9 - 10 , Diciembre de 1974 , 464 paginas) .

وهناك وثائق كثيرة عن المورسكيين فى سلا مع دراسات نقدية منشورة فى المجلد الثالث من
1 - serie de las sources indetes de Histoire du Maroco p . 187 y siguientes ..
وأنظر A . Dominguez ortiz : nota 21 en la pagina , p 234 de su obra citada anterior mente .

وكان عددهم ثلاثة آلاف تقريبا ، بينما وصل عدد الأندلسيين إلى عشرة آلاف ، هاجر بعضهم من "استريما دورا" ومن مناطق أخرى ، ويبدو أن العلاقة بين الجماعتين كانت متينة ، وتميز الأندلسيون والجبليون بأنهم ادركوا ماتميزوا به من تفوق على أبناء البلاد الأصليين . وعند تسليم "لاراس" للقشتالين تصادف ذلك مع فتحهم لـ"لاامورا" وهى ميناء على بعد عدة كيلومترات فى اتجاه أقصى الشمال ، وبهذا أصبحت الرباط - سلا هى الميناء المغربى الوحيد تقريبا على المحيط الأطلسي وقد فكر السلطان فى استخدامه قاعدة لعمليات الجهاد ، وساعد انسحاب القراصنة الأجانب ، ممن كانوا يعيشون فى "لاامورا" على تنفيذ هذه الفكرة . لقد كان بينهم بحارة متمرسون وهولنديون ماهرون فى بناء السفن ولكن الجبليين ، بفضل تماسكهم القوى وطاقتهم التى لا تقهر ، استطاعوا أن يقوموا بنفس الشئ مستفيدين بتدريبهم على هذا العمل من قبل ، برغم قلة عددهم عن عدد الأندلسيين .

وقد اعترفوا فى المراحل الأولى من نشاطهم بسلطة القاضى الذى عينه السلطان وأمدوه بعشرة فى المائة من المغانم ، ثم مالبثوا أن قتلوا القاضى واعلنوا الإستقلال .

وقد جاء المورسكيون والمارقون من كافة النواحى ، تجذبهم رائحة الثورة التى هبت من سلا ، أما بناء السفن فقد شهد تطورا ملحوظا ، انها سفن سريعة تصنع من خشب البلاد ، وتزود بأشرعة وأدوات مستوردة من هولندا ، وتنشر الفزع حتى حدود ايرلندا ، وكان الأسطول يتكون من ٤٠ باخرة تقريبا فى أكثر الأوقات مناسبة ، وكانت تقوم بالغارات فتجلب كميات كبيرة من البضائع بالإضافة إلى الأسرى ، وكان هذا يمثل أسس ارتباطاتها بالعالم الخارجي . وقد بنيت حصون متينة هناك لاستخدامها فى الدفاع وصد الهجمات الخارجية ، وكان مدخل الميناء من الصعوبة بحيث لا يتمكن من قيادة السفن فيه الا الخبراء المتمرسون بسبب ضحالة غاطس الماء فيه .

وقد تدهورت الأوضاع فى "سلا" بسبب النزاعات الداخلية فالأندلسيون كانوا غير راضين عن سيطرة الجبليين ، ووصل الأمر إلى صراع مفتوح انتهى باتفاق مضمونه أن توزع الستة عشرمنصبا والسلطة التنفيذية بينهما بالتساوى ، وكذلك يوزع بينهما مايتم تحصيله من جمارك او مغانم لكن هذا الإتفاق لم يصمد طويلا ، فقد تجددت الصراعات الداخلية مرة أخرى اعتباراً من سنة ١٦٣٦ وتعقدت أكثر عندما تدخل أحد المرابطين وهوالسيد "العياشي" الذى زعم أنه يمثل السلطان ، وكان غرضه الوحيد فى الواقع هو الإشتراك فى المغانم . وقد امكنه فى سنة ١٦٣٧ الحصول على مساندة اسطول انجليزى قام بقذف القصبة بالنيران وإن استمرت محاولات القرصنة واستمر مايجنى من ورائها من ثمرات . لكن استقلال جمهورية الجبليين التى أحاطها الأعداء من كل جانب بدأ فى الإنحدار ، وحصل المرابطون - وهم الممثلون الأصليون للمسلمين - على نفوذ هناك بدأ يزداد بشكل تدريجى حتى انتهى استقلال جمهورية الجبليين تماما سنة ١٦٦٨ وانضمت سلا للملكة المغربية .

هذه الظروف الصعبة التى عاشها الموريسكيون فى سلا ، تفسر المبادرات التى قاموا بها بهدف التوصل إلى اتفاق مع ملك اسبانيا ، وتتمثل المبادرة الأولى فى مشروع معاهدة تم إعداده فيما يبدو سنة ١٦٣١(١) ويتضمن قيام الدوق دى مدينة "سيدونيا" - بوصفة القائد العام للمحيط - بنقل الجبليين ، وتعبر الوثيقة عن الكراهية التى يكنها سيدى محمد للعرب ، لأنهم يتهمونه بمناصرة المسحيين ، وللملك المغرب الذى يتمنى أن يحطمه أن استطاع . ونظرا لما لاسبانيا من محبة وثيقة لدى الجبليين ، ولأنهم يشتاقون اليها منذ خرجوا منها ، فإنهم يقترحون تسليم مدينتهم لفليب الرابع بالشروط الأتية :-

(١) مشروع المعاهدة هذه نشره G . S . Colin : projet de traite entre Les morisques de la casba de Rabat et le roi de Espagne en 1631 . (Hesperis) tomo 52 , 1955 . p . 17 - 26 .
منقولا عن مخطوط فى الوطنية بباريس ، ويقول أنها بلا تاريخ وان العنوان التالى هو الذى حدد سنة ١٦٣١
وانظر : A . Dominguez ortiz : historia p . 235 , nota 22 .

١- أن يسمح لهم بالعودة إلى "أورناشوس" على أن يدفعوا للسكان الذين يرحلون منها كى يحلوهم محلهم .

٢- أن يكون المسئولون من رجال السلطة المحلية منهم ، حتى لا يتعرضوا لإهانات كتلك التى جرت لهم فى مناسبات سابقة .

٣- الا يكون بينهم من المسيحيين القدماء الا القساوسة والرهبان الضرورين لتعليم العقائد الدينية ، والا يتعرض للمحاكمة من ولد منهم فى بلاد البربر وليس لديه إستعداد لاعتناق العقيدة الكاثوليكية ويسرى ذلك لمدة ٢٠ سنة .

٤- أن يحتفظوا بما كان لهم من مزايا قديمة ، والا تكون هناك تفرقة بينهم وبين غيرهم من الرعايا فيما يتعلق بالضرائب ، وأن تحترم ثرواتهم وتعطى لهم سندات بها . وتقدم نفس اجراءات الأمن للأندلسيين الآخرين الذين يرغبون فى العودة ، لأن هناك كثيرين فى تطوان والجزائر بمجرد أن يعملوا أن بإمكانهم المجئ آمنين ، فإنهم سيرجعون .

ولتأكيد أنهم كانوا مسيحين قدماء ، سوف يرسل الأسرى المسيحيون معلومات تبين ذلك ، وتوضح أن كثيرا من المورسكيين قد ماتوا على العقيدة فى المسيح .

وقد عرضوا الوصول إلى اشبيلية مستخدمين نفس سفن القراصنة ، ثم تدخل هذه السفن فى أملاك صاحب الجلالة ، كذلك عرضوا تسليم حصن سلا مع ٦٨ مدفعا موجودة به ، ويكفى لهذا إرسال حملة عسكرية بسيطة من مائة شخص ، وعرضوا تسليم المراسلات التى تمت مع ملك انجلترا "حيث ذهب اليها كسفراء كل من لويث دى ثابار؛ والكاتب "أوناشوس" ومحمد دى كلابيخو وهو مورسكى من "أوبيدا" وقد اتفق معهم البرلمان الإنجليزى على نقاط مهمة ، كذلك عرضوا تسليم المراسلات والإتفاقيات التى جرت بينهم وبين رؤساء بلدية "امستردام" وقالوا إنهم قبل رحيلهم سيسلبون الحى البالغ

الثراء :حى اليهود ، وسوف ينتظرون وصول هؤلاء اليهود مع قوافلهم وسفنهم البالغة الأهمية ، ويستولون على ذلك كله ، ويسلمونه لصاحب الجلالة ، مع ثروات أخرى من بضائع هولندية وفرنسية ذات قيمة عالية . فى مقابل هذه المغانم وهذه السفن يطلبون من الملك أن يعطيهم مائتى جنيه ، كما طلبوا أن يرد اليهم أبناؤهم الذين حرموا منهم بسبب نفى المورسكيين من كل اسبانيا .

وقد وقع مشروع المعاهدة هذه أربعة رئيسيين منهم ، امتزجت اسماؤهم المسيحية بأسمائهّم العربية ، كما يقضى العرف المورسكى ، وهؤلاء هم : محمد بن عبد القادر حاكم العقبة ، والقائد بسر (بشر) ابراهيم دى بارجاس ، والكابتان العموميان : محمد بلانكو (الأبيض) وموسى سنتياجو .

وهذه الوثيقة العجيبة يبدو أن أصالتها ليست موضوع مناقشة ، ولنا أن نتسائل ، هل اشتاق هؤلاء المورسكيون إلى اسبانيا حقيقة ، وهل كانوا مستعدين أن يستأنفوا حياتهم فيها مسحيين أم أن ذلك ليس الا تعبيرا بسيطا عن موقف صعب فرضته ظروفهم ومواقف أعدائهم ؟ المسألة - فيما يظن - خليط من هذا وذاك ، فمجموعة من المورسكيين رغبت فى العودة لاسبانيا بأى ثمن ، بما فى ذلك التظاهر باعتناق عقيدة دينية لا يشعر بها معظمهم حقيقة .

وهناك رسالة عجيبة جدا منشورة ضمن كتاب "مصادر غير منشورة من تاريخ مراكش بالفرنسية" هذه الرسالة موجهة من السيد "خورخى ماسكادنيس" إلى ڤيليب الثالث بتاريخ ٤فبراير سنة ١٦١٩يذكر فيها حادثة لقاء مع بحارة سفينة تابعة للسلطان العثماني ، وكان معظمهم من جنوب اسبانيا ، وقد ذكر أنه تعرف على جندي منهم وأنه قدم له معلومات عن المكان وعن مدخل الميناء وعن الناس الذين كانوا فى العقبة وقال أنهم حوالى ٤٠٠ شخص ، وكان يظن أنهم أقل بكثير ، وقد سألته عما اذا كان يذكر اسبانيا فأجابنى والدموع فى عينيه أنه كان مسيحيا ويثق فى الله وأنه كان

يحب أن يموت في اسبانيا"[1] ولا يعرف موقف الحكومة الأسبانية أو رد فعلها ازاء هذا المشروع ، ويقول كولين :إن هناك من الدلائل مايشير إلى أن هذا الأمركان يحتاج لموافقة أو اعتماد البابا ، ولكن احتمالات قبوله بالصورة التي حرربها كانت قليلة ، ومع ذلك فإن المفاوضات لم تتوقف ، وفي نهاية سنة ١٦٣٦ ، كتب أحد النبلاء ، وركز كلامه عن سكان مدينة "سلاً" بصفة خاصة وقال "انهم قدموا مايدل على موافقتهم على بنود اتفاقيات لخدمة صاحب الجلالة ، لقد رفعوا أيديهم عن العقبة ، مقابل تعويضهم بأمور لا نعرف تفصيلها ، ويبقى البحث عن وسائل التنفيذ ومعرفة حقيقة النوايا" وهذا هو الذي حدا ببعض الرهبان أن يذهبوا إلى "تطوان" لمهام تبشيرية ، وقد امتد نشاطهم إلى "سلا" حيث استؤنفت المباحثات السرية [2]

ولكن المفاوضات لم تؤد إلى نتيجة حاسمة ، الشئ الذي جعل "لوس أورناشيوس" (الجبليين) يتجهون بعروضهم إلى ملك انجلترا سنة ١٦٤٠ .ابتداء من هذه الفترة بدأت الجمهورية السلطانية تفقد سلطانها شيئا فشيئا نتيجة للصراعات الداخلية . ولعدة سنوات خضعوا لسيطرة برابرة من الوادي الأعلى ثم تحرروا من نيرهم ليقعوا في نير السلطان "مولاى الرشيد" وبعد سنة ١٦٦٨ لم تعد "سلا" أكثر من جزء في الإمبراطورية المراكشية . ورغم أن القرصنة قد استمرت الا أنها لم يعد لها التأثير الأول . وقد تفرق كثير من الجبليين في المدن المراكشية الأخرى ، وفقدوا وعيهم بأصلهم شيئا فشيا ،رغم أنه لاتزال توجد حتى اليوم ألقاب تدل على وجود سلف اسباني لهؤلاء ، هذه الألقاب مثل لوس دى كاراسوكوس ، بالومينو ، بلانكو ، بيريث ، رودريجز ، مدينة ، توليدانو ...

وهناك عدد كبير من المورسكيين ، وخاصة من بلنسية ، توجهوا إلى

(١) ذكرها Sourcc inditcs ... 1 - scrie III p . 49 .

A . Dominguez ortiz : Historia p . 237 .

(2) Archivo general de simancas , Estado , Espana , Consulta de 11 diciemllere 1636.

وانظر A . Dominguez : obro citade p . 237.

السواحل الجزائرية ، وهؤلاء كانوا أسوأ حظا ، يستوى فى ذلك من نزلوا بالقرب من أورّن ، ومن حطوا رحالهم فى الأماكن القريبة من مليلة ، لقد وجدت هناك قبائل بدوية قامت بنهب هؤلاء الموريسكيين وعاملوهم بأسلوب لا رحمة فيه ، لقد التقط «ب. فونسيكا» روايات ممن سلم منهم ، وأكد أن من سلم من البلنسيين لا يتجاوز الربع ، وربما كان هذا مبالغة ، ولكن الشئ المؤكد أن خسائرهم كانت كبيرة وكانت معاناتهم رهيبة . وهناك رواية عن موريسكي مشهور من مواليد "بناجواثيل" هذه الرواية مؤثرة للغاية ، انها تبدأ فتشير إلى الفرق الكبير بين من أبحروا فى مراكب تابعة للأسطول الملكى حيث وجدوا معاملة كريمة ، وبين الذين ربطوا فى المراكب الخاصة ، ويذكر أنه هو نفسه أبحر فى واحدة منها ، وقد مخرت بهم عباب الماء فى اتجاه "رأس بالوس" وكان اجمالى من وجد بها ثلاثون شخصاً وقد فوجئوا بعاصفة قذفت بثلاثة سفن فرنسية فى اتجاه الصخور ، وجاءت سفن إنقاذ من "كارتاخينا" وأنقذت من كان لايزال على قيد الحياة ونزل الجميع ، وأمضوا عدة أيام فى أكواخ بدائية إلى أن هدأت العاصفة . بعد ذلك استأنفوا الرحلة ونزلوا شرقى "أوران" وقد خرج عليهم فى الطريق حوالى ثلثمائة فارس من البدو ، "وقد قاومناهم بالحجارة لأننا نحن كنا غير مسلحين ، وأمكننا أن ندفعهم ، "ومع ذلك فقد ادرك الموريسكيون أن هذه ليست الا بداية نكباتهم ، وقد لاذوا بالجبال لايعرفون لأى جماعة يلجأون ، وأخذت أعداد كبيرة منهم تحفر الحفر وتدفن فيها أموالها ويخافون فى الواقع مما حدث . ثم جاءت مجموعة من ستة آلاف من البدويين يغريهم النهب والغنيمة ، وما كان من المستطاع دفع هؤلاء ، لقد سلبوا كل شئ حتى الملابس التى باعوها بعد ذلك فى "أورن" بثمن بخس . وبعد هذه المعاملة السيئة ومايشبهها ، وأصل الموريسكيون مسيرتهم ، ينهكهم الجوع والبرد ، حيث انضموا إلى مجموعة كانت قد وصلت من قبل ، وواصل الجميع رحلتهم نحو الجزائر معرضين لمشقات هائلة فى الطريق ولم يكن هناك الا زاد قليل ، واذا توفرت المؤونة ، فإنها كانت تعرض بسعر غال ، وفقد الموريسكيون كل أموالهم تقريبا ومرت بهم أيام عجاف كانوا يرتعون خلالها فى الحشائش مثل

الدواب ، وعندما توافر زاد متواضع للغاية ، فإن الحصول عليه لم يكن الا من نصيب المحظوظين .

وقد كانت اعداد البائسين تتناقص بسرعة ، فكثيرون قد ماتوا وآخرون آثروا البقاء فى أى مكان ، وأسعد الناس حظا هم الذين وصلوا إلى ضواحى الجزائر ، وإن زعم صاحب الرواية أنه وحده هو الذى تمكن من دخول تلك المدينة[١] .

وهذه الرواية يمكن أن تكون حقيقة فى خطواتها الأساسية ، لكن لاينبغى أن ينظر اليها باعبارها نموذجا يتكرر ، فهناك مجموعات أخرى لم يكن حظها مثل هذه ، وهناك من وصلوا إلى ميناء الجزائر بدون مشكلات أو كوارث ، فهؤلاء الذين رحلوا من "الدأ "ونويلدا" وصلوا سالمين معهم كل ما كانوا يحملون ، لأن الكونت صاحب قطاعهم كان يرافقهم ، ولم يتركوا الا بعد أن وصلوا إلى مناطق آمنة وأصبحوا في حماية السلطة التركية وبعيدا عن متناول البدويين ، بل هؤلاء الأخيرين ثبت أنهم كانوا يعاملون الناس معاملة جيدة فى بعض المناطق . ويروى "فوسيكا" نفسه ان أحد المرابطين عنف بعض من نهبوا السفن وأجبرهم على رد ماكان فيها من ممتلكات .

هناك وثيقة شبه رسمية حول رعب المورسكين الذين نفوا أولا ، وكيف أن هذا الرعب كان له مايبرره ، هذه الثيقة نقلها "كابريرا دى قرطبة" فى علاقاته ، وهى محررة فى البلاط بتاريخ ٢٠ ديسمبر سنة١٦٠٩ ، تقول:-

أن الكونت دى اجيلار قائد "اوران" كتب أن من بقى من المورسكيين فى هذه البلاد أعدادهم كبيرة ، لأنهم يخافون من البدويين اذا ماتوغلوا فى عمق النواحى ، فالبدويون يسرقونهم ويعاملونهم معاملة سيئة ويأخذون نساءهم ، وأنهم يموتون بسبب الجوع والأوبئة . ويذكر أن عشرين من زعمائهم ، ممن رحلوا من بلنسية ، مثلوا أمامه ، وأوضحوا له أنهم كانوا مسيحيين ، وأنهم ما كانوا يعرفون حقيقة العقيدة الواجب عليهم اعتناقها

(١) انظر A . Dominguz ortiz : Historia ... p 238 y nota 25 en la misma pagina .

حتى رأوا رجس المسلمين فى هذه الأرض ،وأنهم يريدون الموت مسيحيين ولن يغادروا المكان حتى لو صدر الأمر بقتلهم ، وقد وضعوا تحت الحراسة فى انتظار ما سيتقرر بشأنهم . إن هذه يؤكد فى الواقع عمق خيبة الأمل عند بعض المورسكيين ، الشئ الذى ترتب عليه الوصول إلى مرحلة الأزمة مع معتقداتهم القديمة(١) .

إن معظم من وصلوا إلى السواحل الجزائرية كانوا قد قدموا من بلنسية ، بالإضافة إلى أناس من أقاليم مختلفة ، ومع ذلك فقد كان الكل حذرا من التوجه مباشرة إلى العاصمة ، هكذا تعبر الوثيقة الطيبة التى أتى بها الجامعى "مولينا" ونسخها "خانير" فى الملحق ١٣٢ من كتابه ، إنها تقول :كل الذين قدموا من نواحى بلنسية أتوا إلى هذه المدينة الجزائرية ، حيث كان يوجد معظم المهاجرين من "استريمادورا ومنشا وأراجوان" وقد انتهى بهم الأمر إلى التمركز فى هذه المدينة الجزائرية ؛ لأنها تذكرهم ببلنسية فى لطافة ضواحيها العامرة بالبساتين ، اننا نجد هناك كثيرا من المواطنين ، وصلوا فرادى أو جماعات فى القرن الماضى» .

إن "دياجودى هايدو" مؤلف" طوبوغرافية وتاريخ الجزائر العام - وهو واحد من أحسن الكتب فى الأدب التاريخى - يمدنا بأخبار طيبة عن وضع الجزائر قبل وصول المطرودين اليها بفترة قليلة (٢) وهو يقدر عدد المهاجرين بألف أسرة انقسمت إلى مجموعتين هما : المدجنون (المودخر) وهم الذين جاءوا من بلاد مسيحية ، ولوس تاجارنيوس (ربما كانت الكلمة مشتقة من تّاجرى" بمعنى حدود) ، وهؤلاء توجد جذورهم فى مملكة أراجون ، وهم يختلفون عن غيرهم وعن والأتراك ببشرتهم البيضاء اللون أكثر من غيرهم ، وهم يكرسون جهودهم للعمل فى حرف متنوعة ، فبينهم الحدادون والخياطون والبناءون وصانعو الأخذية والخبراء بالحراير ، ووجد فيهم عدد قليل من التجار ، والبعض منهم كان خبيرا فى صنع النشا الحربية والفراء

(١) انظر . A . Dominguz ortiz : Historia ... pp . 238 - 239

(٢) طبع كتاب la Topografia فى ثلاثة مجلدات بمدريد سنة ١٩٢٧ ، وكان قد طبع لأول مرة فى بلد الوليد سنة ١٦١٢ وان تمت كتابته سنة ١٦٠٥ .

التى تحتاج اليها صناعة السفن ، كما أن منهم من تخصص فى صنع البنادق والبارود وملح البارود ، ولكن ماتحتاج اليه عمليات القرصنة كان من أعمال المارقين أكثر منه عملا للمورسكيين رغم إن هذه الصناعة ازدادت قوتها بوصول هؤلاء .

إن كثيرا من المورسكيين الذين وصلوا إلى الجزائر كانوا يعانون من الأشمئزاز ازاء ممارسات وعادات غريبة عليهم ، إن هذا ملاحظ بصورة واضحة فى اقرار واحد منهم اسمه "دياجودياث" ، وهو مدجن وكان قد مثل امام محكمة تفتيش «كونكا» و كان عاملا ، عمره ١٧ سنة عند الطرد ، وقد عاد إلى اسبانيا بعد أن أقام فترة قصيرة فى "بايونا وسان خوان دى لوث " ، وكان قد رحل من قبل مع آخرين من كارتاخينا إلى الجزائر وجاء الأتراك - كما يقول - فحملوه إلى المدينة وأدخلوه "لاس لاراثانس" Las larazanas وهى بيوت ملكية كبيرة بها بعض الأسلحة وأدوات المدافع ، وهناك نظروا إلى كل الذكور وأجروا لهم عملية الختان ، وبعد هذا الختان قدموا لهم طعاما طيبا ، وصنعوا لهم من معاطفهم رداء اسلاميا . ويقول إنه قد عمل مع مورسكيين أخرين ومع أسرى مسيحيين فى صناعة السفن وأعمال الرصف ، ويؤكد أنهم واصلوا سرا الإيمان بعقيدتهم الكاثوليكية ، وأن ما شاهدوه فى الجزائر سبب له اسيتاء واشئمزازا ، وأنه اقتنع بترك دينه الإسلامى . ان كل ما كانوا يقومون به فى هذه البلاد كان يخلف تماما عما كان فى اسبانيا ، فالرجال يتبولون عن طريق رفع الملابس الداخلية وانزال البنطلون ، والنساء تغطى وجهها ، والكل يأكل جلوسا على الأرض .

الفضيحة الكبرى كما صورها (وقد ذكر ذلك "هايدو"أيضا") هو الإنتشار بصورة مبالغ فيها ، وممارسة اللواطة مع الأطفال "إنهم يشترون عبيدا من الشباب ليناموا معهم ... وفى الجزائر أكثر من ستة آلاف غرناطي كلهم مسيحيون ، لكن المورسكيين من «بلنسية وأرجوان» لم يؤمنوا بالمسيحية قط ، واذا كان عند بعض الغرناطيين ابن فإنه ماكان يجرؤ أن يتركه من يده ، خشية أن يأخذه المسلمون من الجزائر ، ليستخدموه

استخداماً سيئا » .

ولا ينبغى أن نبالغ كثيرا فى الثقة بما جاء فى هذه الكلمات ، فقد يكون المدح والثناء بهدف التقرب إلى مفتشي التحقيق ، ولا يبقى الا الإنطباع بأن المورسكيين الذين نفوا شعروا جميعا بلون من الغرابة ازاء السلوك والمعاملات فى المجتمعات الجديدة(١) .

المجموعة المورسكية الأكثر عددا والأوفر حظا ، هى تلك التى وصلت إلى تونس ، والتى لدينا معلومات عنها ، بفضل سلسلة الأعمال الممتازة عنها والتى جمعت فى مجلد بعنوان "دراسات عن المورسكيين فى تونس" نذكر موجزا لها فيما يلى :

المورسكيون الذين وصلوا إلى هذه البلاد ، وجدوا لهم بها كثيرا من الأسلاف ، شأنها شأن غيرها من بلاد المغرب ، فقد كان هناك أندلسيون فى تونس منذ القرن الثالث عشر على الأقل ، وكثير من الأشبيليين وصلوا إلى هناك بعد سقوط مدينتهم الأصلية فى أيدى المسيحين ١٢٤٨م ، كما وصل اليها الكثيرون من بلاد شرقي الإندلس وقد كتب ابن خلدون فى القرن الرابع عشر الميلادى يقول أنه وجدت بينهم أسر مشهورة : أمراء وعلماء وشعراء ومحاربون ، وقد قويت الهجرات التى اتجهت من جديد من الأندلس إلى تونس العاصمة ، وإلى سفاقس وجابيس وسوسا ابتداء من سنة ١٢٩٢ ، وفى سنة ١٦٠٨ يعنى قبل الطرد بسنة واحدة ، وصل إلى هذه البلاد "فرناندو دى ليون" ومعه مائة وثمانية من الغرناطيين .

لكن لم يحدث قط أن شهدت البلاد وصول موجة غزيرة مثل موجة اللاجئين الذين وصلوا إلى تونس سنة ١٦٠٩ ، انها تقدر بثمانين الفا من الأفراد ، وهو عدد ضخم اذا قارناه إلى وضع بلد صغير ، لم يتجاوز سكانه

(١) انظر A . Dominguz ortiz : obra citad pp 239 , 240 .

خمسين الفاً وفقاً لتقدير لاسام[1] وعلى أى الأحوال فهذا رقم عال جدا ، وقد وجد بينهم بلنسيون وقشتاليون ، لكن المجموعة الأكثر ، كانت قد وفدت من أراجون . وقد حظى هؤلاء باستقبال الوالى (الداى) العثمانى لهم استقبالا جيدا وأبدى لطفا إزاء اخوانه المؤمنين بنفس الدين الإسلامى ، وأدرك أن وصولهم سيكون مفيدا فى تنمية بلده ، وقد انقسم الواصلون حديثا إلى مجموعات ثلاث :

١- «لا ايليتى» وهم العلماء والأثرياء وأعضاء الهيآت الحضارية ، وهؤلاء استقروا فى أحياء معينة من العاصمة فى المنطقة التى وجد فيها من قبل "شارع الاندلسيين وزقاق الأندلسيين" .

٢- الفلاحون ورجال الصناعات الصغيرة الذين استقروا فى مراكز أنشؤوها وأخرى قاموا بتوسيعها على بعد مسافة قليلة من العاصمة وفيها واصلوا ممارسة انشطتهم التقليدية .

٣ - المزارعون ، وهم المجموعة الأكثر عددا ، هؤلاء استقروا فى المناطق الزراعية الخالية ، وأرسل آخرون الى مناطق معرضة لخطر غارات البرابرة المتوحشين ، فبنى هؤلاء قرى فى الأماكن المرتفعة وفى مواقع يمكن الدفاع عنها أو على أطلال مدن رومانية قديمة بادت مثل مناطق : «تيستور ومدخل الباب ، وسلوكيا وقلعات الاندلس» ، أما المناطق الهادئة مثل جزيرة «رأس بون وسليمان وجرومباليا وبيلى» وغيرها ، فقد اندمجوا مع السكان القدامى الموجودين .ويبدو أنه فى داخل نطاق هذا التوزيع العام ، فإن

(1) J . D . latham : towardes study of andalusian imigrations and its place in tunisian history

مقال منشور فى Les chaiers de tunisie , V , 1957 , pp . 203 - 252

وقد نشر ميجيل دى ابالثا ترجمة فرنسية له فى كتابه

دراسات عن الموريسكيين الأندلسيين فى تونس ، انظر ص ٢١ الى ص ٦٣ ومعروف ان المؤلف نفسه ، وهو استاذ بجامعة مانسشتر فى بريطانيا ، قد أعد دراسة جيدة عن هذا الموضوع بعنوان : Andalusian in Barbary

لاندرى هل طبعت أم لا ، أنظر :

A . Dominguz ortiz : Historia ... p 240 , Nota 27 .

المورسكيين حاولوا التمركز فى مجموعات اقليمية وفقا للمصدر الذى قدموا منه ، يعنى أنه رغم وجودهم فى أرض عربية ، فقد استمر البلنسيون يشعرون باختلافهم عن الغرناطيين وعن المستعمرين القشتاليين ، وكان التخصص المهنى أيضا معيارا لبعض التجمعات وفقا للعادات القديمة والخاصة بتمركز جميع التجار والحرفيين فى شوارع وأحياء خاصة . حدث هذا فى العاصمة وفى «بيزيرتا» حيث يوجد فى كل منها «حماة الاندلس» أوْحى الأندلسيين الذي يتمتع بنوع معين من الاستقلال .

وقد شهد التقدم الحرفي فى تونس العاصمة دفعة كبيرة بوصول هؤلاء المهاجرين ، ونفس الشئ حدث بدرجة أقل فى المدن الأخرى ، فكثير من المورسكيين وصل معه معداته وآلاته ، وحسنوا الناحية الفنية لصناعة الحرير فى كل مراحلها ، ابتداء من جنى البراعم وحتى النسيج وتغرية الأقمشة وصبغها ، وقد حظى تصنيع القلنسوة باهتمامهم الخاص ، ولا يزال قسم كبير من الكلمات الفنية الخاصة بهذه الصناعة حتى يومنا هذا من أصل اسبانى ، كما برهن على ذلك «محمد العنابى»[1] ، وربما كان التطور الذى شهدته صناعة القلنسوات فى بلاد البربر ، هو السر فى تدهور هذه الصناعة فى «طليطلة» التى كانت تصدر فى القرن السادس عشر كميات كبيرة منها

وتعتبر صناعة الخزف والفخار من بين الصناعات ذات التقاليد العريقة فى تونس ، وقد أضاف اليها وصول المورسكيين أشياء جديدة فيما يتعلق بالموضوع وأسلوب الصناعة والتلوين بالألوان الزاهية ، وكان الوجود الأندلسى متمثلا ايضا فى الزخارف التصويرية الخاصة بالاسقف والافريز والحيطان ، أما التجديد المعماري الذى شهدته العاصمة ، فقد كان متلائما مع الموقف الاقتصادي واتخذ مظاهره فى بناء المنازل الفخمة ، التى كان لبعضها أفنية من المرمر وعيون ونافورات وحدائق تنم عن الوجود الاندلسي.

أما التحسينات فى المجال الزراعي ، فقد كانت ملحوظة بصورة أوضح ،

---

(1) miguel de epalza : etudes ... pp . 304 , 305 .

وكل الذين اهتموا بالقطر التونسي من مؤرخين وجغرافيين ورحالة ، أشاروا الى النهضة الحيوية الكبيرة التى كان وراءها وصول آلاف عديدة من الفلاحين الخبراء ، الذى ادخلوا تحسينات على الجوانب الفنية للري ، وزرعوا أشجارا مثمرة ، وقدموا دفعة كبيرة لمحاصيل عديدة خاصة محاصيل الحدائق والبساتين .

وحتى القرن الثامن عشر كانت القرى ذات الاصل الاسبانى مزدهرة ، وقد تدهورت اليوم ، ويكاد الأثر المورسكى الاسبانى ينمحى منها ، وإن استمر محتفظا بقوته فى بعض الأماكن مثل «تيستور» الواقعه فى وادى «مدخيردا» الذى يضم أفضل الأراضى التونسية خصوبة . وعندما وصل اليه المورسكيون مهاجرين لم يكن يستخدم إلا فى الرعى وحده ، وأقصى ما أستفيد به منه زراعة بعض المحاصيل ، كذلك أدخل المورسكيون محاصيل الرى فى السهول المنخفضة كما ادخلوا البقول والحبوب فى الاراضى التى تعتمد فى ريها على مياة الامطار والتى تقع على ارتفاع متوسط ، أما الأرض المرتفعة أكثر فقد خصصوها للغابات ، وبهذا الأسلوب أوجدوا واحة حقيقية بين المناطق التى يسكنها البدو ، منفصلة عنهم ببعض الأسوار ، وكانوا يبيعون السلع ويعقدون الصفقات من خلال السوق الذى كان ينعقد مرة فى كل أسبوع .

وكان وعيهم بذاتهم وراء المحافظة على نقاء عنصرهم نسبيا ، مع المحافظة على الفنون الشعبية التى ميزت مجموعتهم خلال فترة طويلة . وكان من الممكن ادراك تميزهم بصورة واضحة جدا حتى القرن الثامن عشر ، وحتى اليوم توجد بعض آثار وان كانت باهتة . يروى رحالة فرنسى ان النساء المورسكيات كن يفضلن البقاء بلا زواج على الاقتران بزوج بدوى ، وكن على العكس يفضلن المتمردين الاسبان ، وحتى اليوم يتميز التونسي المنحدر من أصول اندلسية . من الناحية الجسيمة عن زرية المتمردين الاسبان ، بملامح فى سحنته وبلونه الصافى[1] بل لقد احتفظ بعضهم بلقب العائلة

(1) J . d latham . towards study of andalusian inmigrations and its place in tunisian history . (cahicrs dc tunisic , 5 , tuncz , 1957 , pp . 203 - 252
وترجمته الفرنسية فى عمل ميجيل دى البالثا من ص٢١ الى ص ٦٣ ، كما سبق ذكر ذلك فى ص ؟

مثل" كونت لويس ، منديث ، مورسكو ، بالدو"، وقد انتهى استعمال القشتالية والبلنسية بينهم . لكن بقيت تفاصيل مادية ملموسة لاتحصى ، كما بقيت عادات تذكر بأصلهم ، وهناك أسلوب الطبيخ المستمد من مصدر الاندلس ، ويدخل فى وصفه أطباق من اللحم المتبل مع كميات وافرة من البهارات والتوابل ، ومن المحتمل أن يكونوا هم الذين ادخلوا زراعة الزعفران بهذه البلاد ، وتبدو آثارهم أيضا فى عمل الفطائر المصنوعة من الدقيق وعسل النحل والسكر بالدرجة الاولى . أما واجهات بيوتهم المبنية من الآجر فتذكرنا بفن «الموديخر الارجوانى» وتذكرنا قمم المنارات المخروطية الشكل ، بأبراج «طليطلة وبورجوس» ، وفى «تيستور» - المكان الذى يتضح الأثر الاندلسى فيه - ترى منازل ذات فتحات او شبابيك تطل على الشارع ، وهذا شئ غير مألوف فى بلد أسلامي .

ومن الامور التى تستدعى الدهشة اننا نرى فى بيوتهم أبوابا تزينها مسامير تشكل رسومات على شكل صليب ، وفى سنة ١٧٢٠ وصف أحد الرحالة أسلاف المورسكيين بأنهم الشعب الأكثر تحضرا والأكثر لطفا ، رغم أنهم متكبرون وقساة وحريصون على الشهرة والمجد ، ويبدو أن هذه المظاهر متوافرة بينهم حتى اليوم ، وقد اعترفت الحكومة نفسها بتميز هذه المجموعة ، فحتى منتصف القرن التاسع عشر كان يوجد بينهم شيخ الاندلسيين ، وكان له السلطان عليهم ، وكان يعمل وسيطا بينهم وبين المشايخ ، وكان يتولى هذه المسئولية فى منتصف القرن السابع عشر ، رجل اسمه «مصطفى كاردناس او كارديناس» وأصله من أسرة من "بيزا" .

وبرغم انغلاق هذه المجموعة على نفسها ، فإن بعض عاداتها انتقل الى بقية السكان ، ليس أمامنا وسيلة أخرى نفسر بها مثلا أن عصى ورق اللعب التونسي تدعى دينار ، أن «باستون او باستوس» تعنى المرعى ، وأن إسپاتا (اسبادا) تعنى السيف وأن الأقداح او الأكواب يقال لها

«كوباس» . دليل آخر على امتداد تأثيرهم فى مجالات معينة وصل الى المستوى القومي هو أن امين "الساواسان" حتى نهاية القرن التاسع عشر كان هو الامين amin الذى يهيمن على الحياة الاقتصادية والنقابية لكل التجارات لقد وجد «ميجل دى ابالثا- بين آلاف الوثائق القانونية والتجارية ، الموجودة بسجلات المحفوظات فى القنصلية الفرنسية بتونس - ٢٤٦ وثيقة تتعلق بالموريسكيين ، تتضح منها نشاطاتهم المهنية ومستوى التعليم بينهم ، وهى تؤكد ان مستوى التعليم عندهم كان أعلى منه عند المسلمين الآخرين[١] وكان بعضهم يوقع بالاحرف اللاتينية الى ما بعد الطرد بسنوات عديدة . ويبدو أن الفترة اللامعة فى حياتهم استمرت حتى سنة ١٦٥٠ ، اما النصف الثانى من القرن السابع عشر فقط شهد توقفهم .

لم تكن السلطات التونسية على اتفاق معهم فى معظم الأحيان ، وكانت تفرض عليهم ضرائب تفوق طاقاتهم أحيانا . وفى القرن الثامن عشر وصل الأمر بالمجموعة الموريسكية أنها كانت مهددة بالتحلل والانصهار ، الا فى الأماكن التى كونوا فيها أغلبية قوية ، كما هو الحال فى ناحية «تيستور» السابق ذكرها ، وقد درس مسجدها العظيم أكبر المتخصصين فى الفن المعماري بالشمال الافريقى وهو« ج . ماركايس» ، ولفت النظر الى التشابه بينه وبين الآثار العربية والمدجنة الموجودة فى شبه جزيرة ايبيريا ، كما لفت النظر حتى الى الجانب غير الجيد فيه .

ولقد دُرستْ بعض ملامح الثقافة الروحية لدى الموريسكيين ، ويأتى فى هذا النطاق ذَلك العمل الهام والمفيد الذى أعده «اوليفر آسين» بعنوان «موريسكى من تونس معجب بلوبي»[٢] .

لقد واصل هؤلاء كتابة أدبهم «الالخميادو» وإن لم تصبح له نفس

(1)Miguel de epalza : Moriscos y andalusies en tunez durante el siglo XVII, Al - Andalus XXXIV , 1969 , pp . 247 - 329

(٢) نشر هذا العمل بالاسبانية فى مجلة الاندلس ، مدريد سنة ١٩٣٣ ، من ص ٤٠٩ الى ص ٤٥٠ . ونشرت له ترجمة فرنسية عند ميجيل دى البالثا : دراسة عن الموريسكيين الاندلسيين فى تونس من ص ٢٠٥ الى ص ٢٣٩

الشهرة فى بيئة عربية اسلامية . ويرجع ذلك الى ان معظمهم كان يتكلم الاسبانية ، ولم يكن عندهم المقدرة على الكتابة باللغة العربية فى انسياب وطلاقه . يذكر «اوليفر آسين» اسم «عبد الكريم بن على بيريث» بين كتاب آخرين ، وهو الذى الف كتابا سنه ١٦١٥ يدافع فيه عن الاسلام ، ويشهر بصورة واضحة جدا . بمحاكم التفتيش وأعضائها ، كذلك كتب ابراهيم طبيبلى - وهذا اسمه عندما استقر فى تونس وهو طليطلى واسمه السابق خوان بيريث - كتب أشعارا حول الجدل الدينى تدل على أنه كانت له معرفة محدودة باللغة اللاتينية وبالمؤلفين الكلاسيكيين ، رغم أنه كان يميل الى اتجاه مدرسة النهضة الشعرية فى قشتاله ، وهناك فصل طيب عند هذا الكاتب يدل على أنه عرف «كيخوتى» فى نسخة مفقودة اليوم ، سابقة على تلك التى تعتبر اساسا[1] كذلك عرف الشاعر الارجوانى "دى بيّافيلتش" وآشى محمد ربيو» الخ .

وهناك أعمال كثيرة محفوظة مجهولة المؤلف ، معظم مضمونها دينى مع بعض استلهام من الادب القشتالى ، فقد تداول هؤلاء الموريسكيون قصائد شعبية رومانسية وأشعارا «لجارثيلاسو» «وجونجرا "ولوبى» . ويذكر «اوليفر اسين» بحق ان تونس كانت العاصمة الثقافية لكل بلاد البربر الى حد كبير ، فيها كان يمكنك أن تقرأ اعمالا وافدة من الجزائر مثل أشعار «ابراهيم دى بولفاد » وأعمالا من مراكش مثل دعوى ضد الشريعة المسيحية" لمحمد الجوازير ، وهو موريسكي أصله من «باسترانا» . وهذه السيطرة الأدبية التونسية تعكس بدون شك الترحيب الأفضل والاوضاع المناسبة أكثر والاستقرار الذى نعم به من وصل الى هذه البلاد من الموريسكيين .

ومن الموكد أن الهجرة الموريسكية لبلاد المغرب لم تكن مفيدة فى كل جوانبها ، فهناك بعض السلبيات . ذلك أنه بالاضافة الى زيادة اعمال القرصنة ، فلابد من الإشارة ايضا الى تجارة العبيد باعتبارها احدى المهن التى كرسوا لها نشاطاتهم ، ولهذا علاقة بالقرصنة ، ولا تنقصنا الوثائق

(1) Oliver Asin : El quijote de 1604 , Madrid 1948 .

التى تدل على أن الموريسكيين عوملوا معاملة سيئة سواء من جانب القراصنة أو من جانب المتمردين من المسلمين ، وربما بسبب الكراهية المتراكمة للمطرودين ، على الأقل مجموعة الجيل الاول . ومع ذلك فان من الممكن أن نقول إن تحركات الجماهير المورسكية هذه كانت إثراء ملحوظا لبعض البلاد الفقيرة سواء على مستوى الافراد او مستوى النواحى الفنية ، وقد أسهم فى هذا الأثراء - بالاضافة الى المورسكيين - اليهود والمتمردون الذين وفدوا من اسبانيا ايضا ، وكان عدد أفراد مجموعة اليهود فى تونس كبيرا ، بينهم عدد كبير جاء من «ليورنا» مركز التجمع اليهودى الاسبانى - وكانت ضمن أملاك دوق «توسكانا العظيم ، ويذكر «ب هارفي» أن هذا الدور لم يقتصر على النطاق الاسبانى ، بل أصبح يمثل مرحلة من مراحل التوسع الاوربى(١) ويروى لنا نفس المؤلف مغامرات رجل من هؤلاء المنقبين اسمه «احمد بن قاسم الاندلسي» كان يفتخر بلقب «بيخاراتو» ؛ لأنه من أصل غرناطي او بلنسي ويتكلم العربية منذ الطفولة ، وفى سنة ١٥٩٩ انتقل الى المغرب حيث عمل سكرتيرا ومترجما للسلطان مولاى زيدان ، وكان قد سافر الى باريس لمهمة دبلوماسية كما سافر الى هولندا بهدف السعى للحصول على مراكب ، وله جدل ومناقشات مع اليهود ومع المسيحيين ، وقد سافر الى مكة لاداء فريضة الحج ، وفى العودة استوطن تونس وفيها قام بترجمة رسالة المدفعية لابراهيم بن احمد من القشتالية الى العربية - ومؤلف الرسالة المذكورة اسباني غرناطي رغم اسمه العربى - وكان يلقب بـ «ريفاس» وهو بين المورسكين الغرناطيين الذين طردوا من وطنهم الاصلي سنة ١٥٧٠ ، وقد أقام مثل غيره فى اشبيلية ، وأعجبه عالم البحر وما فيه من عجائب حتى أنه سافر الى بلاد الهند على متن السفن . ولابد أنه قد ألف هذه الرسالة بعد أن جمع معلومات عن المدفعية عرضها فى الموجز المذكور .

وعندما طرد ١٦٠٩ استقبله الداى العثمانى فى تونس بحرارة وبعد مغامرات متعددة ولاه الداى قيادة حصن « جوليتا » ، ومن المحتمل أن يكون قد أعد كتابه عن

(1) L . P . H arvey : the Morisco who was Mucly Zaydan's interpreter . Miscelanca de estudios Arabes ... 1959 .

المدفعية مستفيدا من كتب حول هذا الموضوع كان الاسبان قد تركوها بعد إقامتهم هناك لفترة ، وربما كان الهدف من تأليف هذا الكتاب هو تدريب رجال المدفعية الذين كانوا هناك ، وقد كتبه باللغة القشتالية ؛ لأنها كانت اللغة المألوفة لدى هؤلاء الجنود (١) .

وقد ذكر « هارفى » المناصب المرموقة التى شغلها هؤلاء الجنود بينما كان لا يهتم بهم أحد فى بلادهم الأصلية ، واستنتج من ذلك أن الموريسكيين تنبهوا الى المزايا التى قدمتها لهم الثقافة المادية المتقدمة التى حصلوها من اسبانيا ، وجعلتهم يتفوقون على إخوانهم من الافارقة المسلمين ، وهذا مثلا ما حدث مع المهندس المعمارى « خانيرو الاندلسى » ومثله كثير .

بطبيعة الحال لم يكن دخول ما بين ٢٥٠ الى ٣٠٠ الف موريسكى ومتمرد ، كافيا لتضيق المسافات الواسعة بين افريقية وأوروبة ، وعندما تمركز عدد منهم فى شمال شرقي تونس ، أمكنهم القيام بتغيرات ملوظة ، لكن توزع البافين على امتداد ٢٠٠٠ كيلو متر مابين الرباط والجزائر وباقى تونس ، لم يكن كافيا لخلق خبرة كافية تعوض التأخر الموجود فى هذه البلاد ، بل إن هذا التأخر كان يزداد مقارنا بالتقدم الذى كان يجرى فى أوربا ، ومع ذلك فمن الممكن تأكيد أن ما قام به هؤلاء الموريسكيون من نشاط كان يفوق كثيرا ما تمثله أعدادهم .

فالفلاحون والمهنيون والمثقفون والتجار ورجال الدولة ، كل هؤلاء أسهموا فى استمرار قيام التشكيلات الهشة لبعض الأمور البدائية والتى كانت تهددها دائما اقليمية البلد الاصلي واعتداءات وأذى رجال البدو . كل ذلك كان ممكنا بالنسبة للموريسكيين ؛ لأنهم تجمعوا فى المراكز الحضارية ، مشكلين نسبة مهمة فى الجزائر وتطوان وفاس وطنجة وتلمسان ، وهى بلاد يتميز فيها المسلم الاسبانى الأصل عن ابن البلد الأصلى حتى قبل وصول الموريسكيين . حول هذه المراكز الحضارية ، وفى ظل العلاقة المتينة مع

(1) L.. Harvy : the moriscos wha was muley zaidans inter preter, Mescelanca de Estudios arbes, 1959,

البرجوازيين سكانها وملاك قسم طيب من أراضيها ، قام الفلاحون المورسكيون بزراعة الأراضى بنفس الاسلوب الذى كان يزرع به أجدادهم فى اسبانيا . هذا التمركز ووغى المورسكيين لأصلهم ، هو الذى يفسر عدم ذوبانهم فى أبناء البلد الأصليين رغم مرور وقت طويل ، كما يفسر أن عدداً كبيرا من ابناء المهاجرين ، حافظوا على تقاليد أسرهم الأصلية . يقول «كارو باروخا» :

« نجد اليوم - فى الواقع - فى المدن القديمة بالشمال الافريقى مسلمين تقليديين يفخرون بأصلهم الاندلسى ، لنأخذ مثلا حالة تطوان ، ففى مقابل كل أجنبى يوجد إسبانى لديه الحد الأدنى من الاهتمام بالماضى ، وهذا حال أشخاص المجتمع التطوانى . هذا يذكرنا فى الحال بالتقاليد التى فرضت على افراد بعض الأسر أن يتعايشوا حتى فى اللحظة التى كان المسلمون فيها لا يزالون يوجدون فى شبه جزيرة «ايبيريا» حتى إن بعض العائلات تؤكد أنها تملك مفاتيح منزل الأسرة القديمة» .[1] هذا ما حدث مع الرحالة الذى زار هذه البلاد فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر

وهناك مسافر انجليزى زار هذه المناطق فى النصف الاول من القرن التاسع عشر اسمه «سير ارثوردى كابّيا بروك» وجه عنايته للعنصر الاسبانى فى السكان ، واعتبر ذلك من الأمور الجوهرية ، وذكر بعض الاصول الاسلامية الأندلسية الموجودة هناك ، وأضاف اليها قائمة بالأسر المقيمة فى فاس والرباط من نفس الأصل ، واليوم يمكن أن نصل الى معلومات اكثر تحديدا . فمن بين ٤٧٥ أصل أوجذر نسبى جمعها «الرعونى» فى كتابه تاريخ تطوان ، نجد بينها ١٠٤ لا يعرف مصدرها ، وترجع ١٢٠ منها الى جذور اختفت ولم يعد لها وجود ، ويأتى الاندلسيون على رأس قائمة من يعرف لهم أصول باقية ، حيث يصل عدد هؤلاء الى ٧٥ من اجمالى من يعرف لهم أصل ، يليهم الشرفاء ولهم ٥٩ ويحتل الجزائريون المرتبة الثالثة بعدد ٢٨ ، ومن المحتمل أن يكون هؤلاء قد استقروا بهذه المناطق فى القرن

(1) . Caro Baroja : Baroja : los Moriscos... P. 241,

التاسع عشر أثناء الحرب بين فرنسا والجزائر ، تأتى بعد هذا جذور نسبية لقبائل مغربية مختلفة ومن أراض مجاورة . وفى آخر القائمة تأتى أصول من أماكن بعيدة فى العالم الاسلامى وفى حوض البحر الأبيض المتوسط [١].

وربما كانت حالة تطوان اكثر وضوحا من غيرها ، لأن طابعها الاندلسى اكثر بروزا وقد أنشئ فيها نتيجة طرد ١٦٠٩ حيان جديدان بهدف استقبال المهاجرين الجدد هما حىّ العيون وحىّ ترتكات . وقد بينت فيها خمسة مساجد على مدار ٣٠ سنة تحت اشراف شخصية اندلسية مهمة هى شخصية المعلم « اليوادى » واليه يرجع فضل اقامة المنارة العالية لجامع العيون . إن تأثير الفن الاسبانى الموركسى لا يقف عند حدود المدن الساحلية ، انه يوجد ايضا ويمثل بصورة طيبة فى عمق البلاد ، ولا ينبغى أن نتوقع عظمة أوبهاء فى هذا الفن أو تلك الأبنية ، فالحالة الاقتصادية للبلاد بصفة عامة ، ولهؤلاء الذين وصلوا حديثاً لا تسمح بالفخامة . إننا أمام مساجد لا يتجاوز أقصى أرتفاع لها ٢٥ مترا والزخارف فيها متواضعة [٢] لقد كانت اسهاما متواضعاً قدمه شعب جريح ، فى أرض رسخت فيها أصول فنه .

والآن . هل امحى الوجود الاسلامي بخروج المورسكيين من اسبانيا بالصورة المريرة التى عرضتها الصفحات السابقة ، أم بقى البعض منهم ، واستمر وجودهم فى البلاد بشكل أو بأخر ؟ هذا ما نحاول عرضه فى الفصل المقبل .

(1) انظر: J. Caro Baroja, los moriscos... PP. 242, 243 حيث تجد تفصيل هذه الجذور النسبية ، نقلاً عن :
سيدى احمد راعونى : تاريخ تطوان ، ص ١١٨ - ١٣٢ تطوان ١٩٥٣.

(2) santiago sabastian : la arquitcctura rligiosa tetuani, archivo espanol de arte n. 117 ano 1957

وانظر أيضا

A. Dominguez ortiz : histaria ... P. 245.

الفصل التاسع

الوجود المورسكى

فى أسبانيا بعد النفى

من بين المسائل التى استحوذت على اهتمام الباحثين وحيرتهم فى الآن نفسه ، محاولة معرفة الى مدى كان نفى المورسكيين من اسبانيا فعالا أوكاملا ، ومن الطبيعى أن تختلف الاراء حول هذه النقطة ، فهى مشكلة تاريخية صعبة ، وليس معروفا عدد المورسكيين الذين بقوا فى اسبانيا على وجه التحديد . ولا تتعلق المسألة بإرضاء حب الاستطلاع فحسب ، بل ان الاجابة على تساؤل مضمونه هل كان نفى المورسكيين كاملا أو غير كامل ؟ ، يمكننا أن نعتمد عليها لمعرفة ما اذا كانت الرواية المورسكية قد أنتهت بصورة كاملة ونهائية باجراء ١٦٠٩ / ١٦١٤دون ان تترك اثرا على الخصائص البشرية والثقافية والعنصرية لاسبانيا ، او على الاقل على بعض اقاليمها ؟ أو أن شيئا من ذلك قد حدث وبقيت بعض الملامح والاثار ... ؟

الواقع أن النفى لم يكن كاملاً من الناحية العملية ، وان اعتقد البعض ذلك ، وقد زودنا «برونات» «بأدلة وفيرة تدل على بقاء بعض المورسكيين[(١)] وجمع «فرنا ندیث وجونثالث» حالات مختلفة لمورسكيين بقوا فى اسبانيا بعد النفى العام [(٢)] وكتب مؤرخ معاصر هو «هاملتون» يقول : اشتكى نائب غرناطة فى البرلمان بتاريخ ٣ يوليو سنة ١٦٢٦من وجود كثير من المورسكيين فى الاندلس ومن أنهم لا يشتغلون بزراعة الحقول ورعى الماشية حيث تقل الأيدى العاملة ، وإن بقاء الدم المورسكى. الموجود حاليا فى الاندلس وبلنسية ، يؤكد بقاء كثير من العرب فى اسبانيا ربما بسبب مقاومة النبلاء وكبار رجال الاقطاع الذين واجهوا العرش الاسبانى حول هذه القضية[(٣)] .

(1) Boronat y Barrachina : los Moriscos espanoles... 2 - PP.307.

(2) Revista de espana, XIX, PP. 103 y PP. 363 Madrid 1871.

(٣)انظر el florecimiento del capitalismo y otros ensayos de historia economica, Madrid 1948, P. 126 .

وقد قام «خوان رجلا» بتوثيق حالة بعض المورسكيين فى «طرطوشه» ثم قال اعتمادا على تجربة : إن لقب «موريسك وموريسكوت» يوجد فى بعض قرى الوادى الاوسط ، واذا وضعنا فى الاعتبار أنه لم يكن هناك مورسكيون بهذه المنطقة فى الفترة السابقة على الطرد ، فانه يترتب على ذلك ولا شك وجود بعض حالات من المسيحيين الجدد أقاموا فى البلاد المذكورة بعد الاجراء الدرامي الذى قام به فيليب الثالث : يقصد النفى العام (١) .

وقدرأينا أن كثيرين ممن نفوا قد عادوا الى اسبانيا ، فرارا مما لقوا فى رحيلهم من ضروب الاعتداء المفزع ، وقد أسلم بعض هؤلاء أنفسهم رقيقا يقتني كذلك كان ثمة جماعات من الأسرى المسلمين من مغاربة وغيرهم ممن أخذوا فى المعارك البحرية مع المغيرين . وهؤلاء كانوا يباعون رقيقا فى اسبانيا ويفرض عليهم التنصير . ومع أنه قد صدر قرار بحظر وجودهم فى العاصمة الاسبانية ، الا أنه كان من الصعب اخراجهم من كل المملكة ، نظرا لما ترتب لأصحابهم عليهم من حقوق ، وكان البعض منهم يفلح فى ابتياع حريته ويعيد حياة المورسكيين سرا ، وأخيرا توجست الحكومة الاسبانية من وجودهم فصدر سنة ١٧١٢ قرار بنفيهم خلال المده التى يحددها القضاة المحليون ، وسمح لهم بأن يأخذوا معهم أسرهم وأموالهم الى افريقية ...

وعلى الجملة فان آثار المورسكيين والاسلام لم يعف عليها نهائيا من اسبانيا، ولبث كثير من الأسر والافراد المورسكيين واندمجوا فى المجتمع الاسبانى ، وان استمرت صلاتهم الخفية بالماضى البعيد . وقد ضبطت خلال القرن الثامن عشر حالات عرضت على محاكم التفتيش ، وكان المتهمون ضبط١٧٦٩فيها موروسكيين يجرون شعائر الاسلام خفية . وفى سنة مسجد صغير فى قرطاجنة أنشأه المنصرون المحدثون ، مما يدل على أنه كانت لا تزال توجد آثار ضئيلة للمورسكيين والاسلام ... بل مازالت حتى اليوم فى «بلنسية وغرناطة» ومقاطعة « لامنشا » جماعات من الاسبان تغلب

(١) انظر : cstudios ....P. 117 .

عليها تقاليد الموركسيين فى العادات ويجهلون التقاليد النصرانية . ومن الصعب اعتقاد أن اسبانيا ، برغم ما ارتكبته من وسائل مغرقة فى الاجرام ، قد قضت نهائيا على آثار الأمه الاسلامية ؛ فانه من المستحيل أن تجتث آثار السلالات البشرية ، خصوصا متى لبثت آمادا متداخلة ...(١)

ولسنا نشك فى أن رغبة الحكومة فى ابتلاع هذه النبتة لم تلن ، وانها ارادت استئصال هؤلاء من الجذور ، وهناك براهين كافية تدل على ذلك ويكفى ان نشير أنه من بين الاشياء المعبرة والدالة على هذه الرغبة اختيار رجل لا يرحم مثل الكونت «دى سالازار» مسئولا عن تنفيذ هذه السياسة ، وكانت كل الرجاءات والتوسلات مرفوضة حتى ولو كانت مقرونة بأقوى الشفاعات ، وقد فشلت سيدات القصر مثلا فى محاولة حجز الترزى الموريسكي الخاص بهن ، الشئ الذى اسعد قلب المطران «سان خوان دى ريبيرا» (٢) وكل ادعاءات اعتناق المسيحية أصبحت كلها تقريبا غير مفيدة ، وحتى الذين سجنوا بمقتضى احكام محكمة التفتيش أصبحوا أحرارا وجرى عليهم الطرد .

يقول ابن عبد الرافع ـ الموركسى المطرود الذى لجأ الى تونس ـ «ان ملك الكفار امر بطرد من كانوا فى السجن ايضا ، حتى هؤلاء الذين كانوا يجهزون ليتم احراقهم» (٣) إنهم لم يرغبوا أن يبقى فى اسبانيا مثل واحد

(١) عنان : نهاية الاندلس ص ٤٠٩ ، وكذلك ، عنان : الآثار الاندلسية الباقية ، الطبعة الثانية ٤٣٦ - ٤٤٤

- lea : the Moriscos : 365.

(2)Boronat : los moriscos ... 2, p. 709.

(3)A. Dominguez ortiz : Historia... P. 247

ويقول فى التعليق ٢ بنفس الصفحة : ان هذا الاجراء القاسى كان يمثل الحرية والانقاذ بالنسبة لكثيرين ، ففى الكتاب ٥٨٦ من قسم محاكم التفتيش فى دار محفوظات التاريخ القومى ، توجد اجابات كثيرة من المحكمة العليا على استشارات محاكم الاقاليم فى شأن هذه المسأله : ماذا تفعل مع الاسرى الموريسكيين ؟ والجواب هو نفسه دائما : لا نطلق سراحهم رسميا ، ولكن ان رغبوا فى مغادرة البلاد فنحن لا نمنعهم ، وقد كان ذلك مفيدا من الناحية المادية ، لمحكمة التفتيش ؛ لاننا سنتخلص من الانفاق على أناس صودرت ممتلكاتهم ، وهناك رسالة تلوم فيها المحكمة العلايا محكمة «كونيكا» «قونية» لانها تحتفظ بالكثيرين من الموريسكيين الفقراء الذين يأكلون على نفقة العامه الخزينة العامه (نفس المصدر ورقة ٣٣٠) ، بعد ذلك بعام كانت هناك مشكلة أخرى وهى ماذا =

فقط لهذا الجنس لا صالحا ولا طالحا وقد قدم مجموعة من المورسكيين الذين طردوا رغم زراجهم من مسيحيات قديمات مذكرة الى المقر البابوى ـ من خلال السفير لدى ذلك المقر ـ يطلبون فيها اذناً لهم بالعودة الى اسبانيا ، لكن الاجابة عليها كانت بالنفى (١) .

ومع ذلك ، وبرغم هذه الرغبة الاكيدة من جانب السلطة ذات الاراده المطلقة وبرغم ما ارتكب مع بقايا هذا الاصل المورسكى وبعد أن طردوا مرة ومرة ورغم أن المسئولين ذهبوا الى كل ركن فى اسبانيا بحثا عن هؤلاء الذين يمكن أن يكونوا قد اختفوا هنا أو هناك ، بعد ذلك وبرغم ذلك كله فليس من شك فى أن الكثيرين قد بقوا ، على الاقل فى بعض النواحى . لقد كتب «الكونت دى سلازار» الى«الدوق دى ليرما» بتاريخ ٢٨سبتمبر سنة ١٦١٢ يقول «لقد بقى الكثيرون خاصة حيث توجد طوئف (٢)وهم مكرمون ، وهذا هو حالهم فى«بلاسنثيا وتروخيو وميردا وأوكانيا وطليبرة» . انه معروف أنه يوجد مورسكيون كثيرون يعيشون فى احياء منذ القدم ، وتأتى البراهين على وجودهم ممثلة فى آراء أصحاب المكان » .

ولدينا دليل يثبت دقة هذه الكلمات يتعلق بواحدة من المدن المذكوره وهى « طلبيره دى لارينا » ففى السجلات الكنسية ينقطع ذكر المورسكيين إبتداء من سنة ١٦١ اى أنهم لا وجود لهم من الناحية الرسمية . ومع ذلك

= نعمل مع ماذا نعمل مع المورسكيين الذين اعتقلوا فى عمليات قرصنة ؟ وفى سنة ١٦١٥ شكت محكمة التفتيش من انهم لايسلمون باعتبارهم مرتدين ، وكانت الحجة غير معقوله منذ اللحظة التى تركوا فيها اسبانيا لأنهم غير مؤمنين . انظر

- Lea: tha horiscos, P. 355 .
- Miguel de epalza : studes ... PP. 122.

(١) المذكرة والرد عليها موجود عند A. Dominguz : obracitad, P. 248 Nota 3

نقلا عن Archivo general de simanco, stado roma, septl.1611.

(٢) يشير الى أنه أحياناً وعندما كانت الاماكن مقسمة بين الطوائف او الاحزاب ، فانه كان من الصعب الحصول على عمل فعال أنظر :

Lapeyre, Apendice XIV

وكذلك : انطونيو دو منجيث ، تاريخ المورسكيين ، ص ٢٤٨ التعليق رقم ٤

فقد بقيت أسماء وألقاب كثيره لأشخاص عرفوا بها من قبل ويذكرون بها الآن [1] وهذا شئ لا يمكن أن يحدث دون تعاون القساوسة بطبيعة الحال مما يؤكد أن المورسكيين لقوا شيئا من التسامح والمساعدة من بعض الطبقات الاجتماعية ، أحياناً بسبب المصلحة وأحيانا أخرى بسبب الرفق بهم . فوق أن الساده أصحاب الاقطاع قد بذلوا مجهودات للاحتفاظ برعاياهم ، وقد فشلت فى معظم الأحيان لكن بعضها حقق نجاحاً .

واذا كان الماركيز دى «لوس فيليث» قد استطاع أن يصل الى تأجيل طردهم من ٢٣ مكاناً فى مرسية ، فانه لم يكن امامه الا الخضوع للقدر عندما رآهم يغادرون الإقليم . اما الكونت دى «أوروبيسا» ، فقد استخدم نفوذه كى يبقى المورسكيون فى الاماكن الخاضعة لسيطرته وشهد بحسن مسيحيتهم . [2] أما فى اقطاعية «لونا» فقد بقى عدد ليس بالقليل . وفى «قشتالة» حيث وجد أنصهار المدجنين تقدما ملحوظا فى بعض الاماكن ، فاننا نجد أناسا يشك فى أنهم كانوا مورسكيين ونجد رجال دين شهدوا بمسيحية البعض فى حالات معينه .

يذكر «جونثالت مونيوز» الدعوى التى اقامها بعض الفخارين «بطلبيرة» بنجاح ضد احدى الجمعيات الدينية والتى رفضت قبول هؤلاء الفخارين فيها على أساس أنهم مسيحيون جدد . وكان هناك مورسكيون فى «كامبودى لا ترابا» باعداد كبيرة تتجاوز الثلاثة الاف . وقد حاولوا البقاء لأن لديهم ميزة منحها لهم الملكان الكاثوليكيان حين أعفاهم من ضريبة «لافرضا» كذلك ذهب كثير من المورسكيين وأعلنوا امام المحاكم نفى أنتمائهم للأقلية المورسكية ، وادعوا أنهم يملكون وثائق تصرح تصرح لهم بالبقاء فى اسبانيا . وفى سنة ١٦١١ تحدث الكونت «دى سالاز» عن ٧١٦ وثيقة تثبت شرف النسب ، أخذت احكاما قضائية فى المحاكم لصالح المدعين

(1)Gonzalez Nunaz : la poblacion de Talvera de la reina, PP. 251- 252.
- A. Dominguez : Historia ... P. 248.
(2) Laypere... P. 257 .

فى مقابل ٤١٦ طلباً رفضت [١].

ومع كل هذا فانه لا ينبغى أن نعمم الحكم نفسه على « بلنسية » التى وصل اليها خمسمائة موركسى وامرأة واحدة يشك فى بقائها مخفية شخصيتها حسبما يقول واحد من الباحثين [٢] فالدعم الذى صادفة المورسكيون فى البلاد التى بها كثافة سكانية وهى بلنسية واراجون كان محدودا ، فقد حاول البعض أن يبقى مستسلما كعبيد لبعض الشخصيات ، والبعض حاول الاحتماء فى سلاسل الجبال ، وهؤلاء تحولوا فيما بعد الى قطاع طريق ومن المحتمل أن يكونوا قد امتزجوا بطوائف من الغجر ، لكن يمكن أن يقال بصفة عامة إن معاداة السكان للمورسكيين لم يسمح الأ ببقاء بعض الافراد المنعزلين

وأما المورسكيون القطلان فقد تمتعوا بحماية اسقف «طرطوشه» ، ولهذا فقد بقى الكثيرون منهم ، ومعظم من نفوا عادوا مرة أخرى ، وقد تم اجراء استفتاء برزت من خلاله تفصيلات مفيدة جدا [٣] وكان المطلوب فيه الرد على سؤال فحواه هل تعرف أن المورسكيين الذين بقوا فى قطالونيا يتمتعون بالحرية ؟ وهل يعيشون - مع وجود شك كبير فى انهم مسلمون - - مثلما يعيش المسلمون فى بلاد البربر ؟ وقد تجنب البعض الاجابة ، والبعض انحصرت اجابته فى الاشارة الى كيفية ادائهم لواجباتهم الدينية المسيحيه على كره ومضض ، والبعض قال أنه لا يلمس فرقاً بين الذين رحلوا

(١) توجد وثائق محفوظة كثيرة حول محاولات المورسكيين البقاء فى ظل احكام قضائية ، وقد ذكر المؤرخ « لى » بعض امثلة لذلك فى كتابه عن المورسكيين ص ٣٧٥ ، وانظر :

A. Dominguz : Historis ... P. 249 Nota 7

حيث يذكر مثالاً منها .

(2) Herrero Martinez : la polbacion palentina en los siglos XVI XVII palencia 1961, P. 26

A. Dominguez : Historia... P. 249.

(٣) هذه المعلومات عن شهور ، تلقاها الدكتور « بدرو خوان هورتولا » حول المورسكيين الذين بقوا فى طرطوشه وبعض مناطقها بعد الطرد ، وحول من نفوا ثم رجعوا اتية ، نشرها :

Ignacia Bauer, papeles fe miarchiva, relacianes y manuscritss, Madrid, s.a.

A. Domingycz : Histaria ... P. 249, Nota 10.

والذين بقوا . السؤالان الثالث والرابع فى هذا الاستفتاء هما : هل تعرفون أنه حدثت تكلفات كثيرة فى اجابة اسئلة الاستفتاءات التى اجريت ؟ وهل تعرفون أن كثيرا من المسحيين القدماء قد استراحوا كثيرا للاموال التى اخذوها من المورسكيين فى مقابل شهادة المسيحين لصالح هؤلاء المورسكيين ؟ وقد جاءت اجابة الكل تقريبا بالإيجاب لقد كانت هناك تزويرات وأعمال رشاوى ، لدرجة أن الذين رحلوا ، رحلوا لانعدام الاصدقاء والمال ، وليس لأنهم كانوا متمسكين بالاسلام اكثر ممن بقوا . وقد حدد بعض الناس اتهاماتهم ، مثلا تلقى كاتب عمومى من طرطوشه معلومات تفيد أن الاسقف حصل على اموال كثيرة من المورسكيين وأنه أصبح غنيا ، كما أصبح رئيس الشمامسة فى احدى الكنائس ، وراهب أوغسطينى آخر من الاغنياء . وقد قبل الحفاة الكرمليون فى بعض المواقع الف اسكودوس من المورسكيين تبرعاً للدير الذى كانوا يقومون بانشائه . أما السؤال السابع فكان هل تعرف أن كثيرا ممن رحلوا وأبحروا من البلاد ، عادوا مرة أخرى يعيشون فى نفس الاماكن ؟ وكان الرد بالايجاب فكل أو معظم من توجهوا الى فرنسا عادوا مرة أخرى مع أسرهم ، وقد قدموا ـ فى بعض الحالات ـ معلومات تفيد وجود علاقات صورية ، وقد وجدت تصريحات بابقاء ١٤ أسرة تضم ٨٠ شخصا من بين الذين رحلوا عن طريق البر ، وفى منطقة «ما» بقى ٣٣ منزلا مورسكيا ورجعت ٢٤ أسرة . وفى وادى « ريكوتى » بقى عدد كبير بعضهم بصوره قانونية حيث دخلوا فى اسر دينية أو عقدوا زواجاً مع مسيحيين قدماء ، وآخرون ـ هنا وفى اجزاء اخرى من اسبانيا ـ اختفوا وتواروا بين جماعات المتسولين والحجاج والفجر والأشرار من قطاع الطريق .

لكن الاندلس هو الاقليم الذى شهد بقاء مورسكيين اكثر من غيره لسببين رئيسيين : الأول أنتشار العبودية انتشارا كبيرا فى هذا الاقليم ، والثانى العلاقات الطيبة التى ربطت بين المسيحيين القدامى والجدد ، اذا قارناها بالشئ نفسه فى مملكة أراجون . وقد يبدو هذا الكلام متناقضا مع ما خلفته ثورة غرناطة من أمور فظيعة ، لكن الواقع أنه ما أن انتهت هذه

الحرب وزال الخطر ، حتى ظهر ما لكثير من المسيحيين القدماء من مصلحة فى بقاء السكان المنهزمين . هذا واضح بصفة خاصة فى أراضى «آلمرية» التى أصبحت جرداء خالية من السكان تقريبا وقد كانت الحاجة غير المتوقعة للايدى العاملة شديده حتى يعود لهذا الاقليم أهميته ، وهذا يسّر التكامل الكامل بين الملاك وبقايا المورسكيين . نفس الشئ بالنسبه لهؤلاء الذين عملوا على تجنب النفى ، وهؤلاء الذين رجعوا متحدين كل الممنوعات . لقد برهن « تابيا » على أن السكان الجدد الذين قاموا باستئجار اراضى المستعمرات المورسكية ، هم الذين كانوا يحمون المورسكيين ويخفونهم . إن أسلوب ذوبان هؤلاء المورسكيين فى الاغلبية كان طويلا ولم يحدث دفعة واحدة وانما مر بالخطوات التالية تدريجياً :

تبنى أسماء وألقاب مسيحية ، ثم ممارسة عقيدة لم يتجاوبوا معها فى البداية ، ثم الاخلاص لهذه العقيدة فى نهاية القرن . وفى النهاية كان البعض بجهده وما وفره ، أمكنه أن يحصل على ممتلكات جديدة ، وعندما جاء القرن التاسع عشر ، قُبل هؤلاء بين جماهير الملاك الزراعيين ، وفقدواهويتهم (١) .

لقد فتحت دراسات «نيقولاس كابريانا» متطورات واسعة للبحث فى مسائل العبودية أو التبعية ثم الالتحام بعد ذلك . (٢) فبالاضافة لى العبودية التى جاءت نتيجة الحروب فى الفترة من ١٥٦٨ / ١٥٧٠ وجد ايضا نوع من العلاقة الواهية ، صحبتها عقود التدريب . يعنى وضع المتعلمين تحت سيطرة استاذ أو معلم مع حقوق وواجبات متبادلة . لقد تصادف وجود اعداد كبيرة من اليتامى والاطفال المهلمين نتيجة للحرب ، مع

(1) Angel tapia : Historia de la Baja Alpujarra, Almeria 1965, PP.215 Y214,

(٢) ينبغى الاشاده الى ثلاثه اعمال لهذا المؤلف فى هذا الصدد ؛ وهى : (١) آلمرية فى القرن السادس عشر : المورسكيون الموصى بهم ، مقال فى مجلة الارشيف والمكتبات والمتاحف ، يناير / يونيو ١٩٧٥ . (٢) العبيد المورسكيون فى الاندلس فى القرن السادس عشر ، مقال منشور بمجلة الاندلس المجلد ١١ سنة ١٩٧٥ .(٣) جذور ممنة للمستعمرات فى مملكة غرناطة ... بلد الوليد ١٩٧٦ .

الحاجة الى ايدى عاملة رخيصة ، وهذا هو ما يفسر ظهور رسائل المستعمرات في مملكة غرناطة القديمة ، والتى بمقتضاها يوضع الاطفال المورسكيون ، بنون وبنات ، تحت رعاية أسر مسيحية ، وهؤلاء يمكن الاستفادة بعملهم فى مقابل الانفاق عليهم مع تعويض نهائى بسيط يمكن الطفل من مواصلة حياته فيما بعد ، واذا عهد بالطفل الى أحد الحرفيين فانه كان يلزمه أن يعلمه المهنة ، ومعظم الاطفال المتبنون كانت أعمارهم ما بين سبعة الى عشرة أعوام ، وكانوا يعملون لحساب معلمهم فترة كبيرة ، وهناك حالات قليلة لم تكن كذلك لأسباب لها علاقة بالرأفة بهم .

ومن الواضح أن علاقة من هذا النوع الذى يمكن أن يكون شبه رق ، يناسبها سوء الاستغلال ، ومع ذلك فان السلطات لم تكن تدعم الاستثمار الظالم ، فقد كان هناك البعض من أمثال المستشار القانونى البحرى الذى يرى «كابريانا» أنه أثر بنفوذه وسلوكه فى كل ماله من نشاط لصالح المضطهدين من المورسكيين ، أنه لا يدافع عن الاطفال الموصى بهم فقط ، بل عمل على أن يبقى المورسكيون الشيوخ دون طرد . وهؤلاء بقوا فى المرية ، وبفضله نجوا من موت محقق . لكن ماذا سيكون مصير هؤلاء الاطفال الذين سيصبحون رجالا عند صدور أمر الطرد العام سنة ١٦١ ؟ إن نفس المؤلف يزودنا بالاجابة المحتملة ، ذلك أن كثيرا من هؤلاء انتهى به الأمر الى الذوبان فى السكان المسيحيين ، فبعد خمس عشرة سنة أو عشرين سنة اختفت الآثار التى ولدتها أحداث ثوره غرناطة ١٥٦٨ ، وعقد هؤلاء زواجا مع أسر مسيحية قديمة ، وبسبب المشكلة الاقتصادية والديموجرافية فانه ماتنازل أحد عن الاقتران بمورسكى أو مروسكية ، دخله أو دخلها لا يقل عن ١٨ الى ٢٠ دوكاس ، بخلاف مالديها من وفورات . الامر المهم فى انصهار الجنس أنه وجدت وثائق يشطب فيه الاسم المسيحى الجديد ، وهو الشئ الذى يجعل الفرد داخلا فى المسيحيين القدامى من الناحية القانونية ، حدث هذا فى فترة وصل فيها الأنشغال بنقاء الدم الى أقصى شدته فى مملكة قشتالة .

وهناك اعمال مشابهة لتلك الدراسات التى قام بها «كابريانا» خاصة

بالمرية ، يبرز من بينها دراسة «رافائيل بنيتيث» حول اتجاه المنهزمين الموركيين نحو العودة والاحتماء بسلسلة جبال مالقه . ومن كانت أعمارهم أزيد من عشرة أعوام بيعوا عبيدا ،أما من كانوا من عشرة اعوام ، فقد عهد بهم الى مسيحيين قدماء ليقوموا بخدمتهم ، الأولاد الى سن العشرين والبنات الى سن الثمانية عشرة ، وفى مقابل هذه الخدمة كان واجبا على المسيحيين أين يطعموهم وأن يعلموهم العقيدة الميسحية ويمنحونهم راتباً بسيطاً . ومَنْ هؤلاء الابناء فى رعايتهم كانوا نوعين : إما نبلاء وعلى الأولاد أن يقدموا لهم خدمات منزلية ، وإما تجار وحرفيين وهؤلاء يعمل الأولاد عندهم صبيانا ومتعلمين ، أما اندماج هؤلاء فى المجتمع المسيحى آخر الأمر ، فهذا شئ ليس موضع شك (١) .

بالاضافة الى من بقوا ، لابد أن نضع فى اعتبارنا الذين رجعوا ثانية ، ذلك أن من خرجوا نتيجة استخدام القوة معهم ، عادوا عندما أصبح ذلك فى مقدرتهم ، والآخرون الذين تحملوا مشقات الطرد بلا مبالاة بل وبسرور ، غيروا وجهة نظرهم عندما رأوا الاستقبال السئ الذى صادفوه فى بلاد الشمال الافريقى . إنه توجد وثائق وفيرة تدل على أن الكثيرين منهم تعرضوا لمشقات جعلت الحياة لا تطاق فى مهاجرهم ، وجعلتهم يخاطرون من أجل العودة الى اسبانيا ، وبالاضافة الى الوثائق ، يوجد انتاج أدبى عالى القيمة حول نفس القضية . ان الفصل الخاص «بريكوتى» فى دون كيشوت ٥٤/٢ ، قد علق عليه مرات عديدة . وهو يعرض بعض جوانب المشكلة الموركية ، فثرفانتس لا يعالج هذا الموضوع بصورة عابرة ، لكنه يخصص له فصلا كاملا ليس فيه ما يمكن الاستغناء عنه ، بل ان كل ما فيه ذو فائدة كبرى ويعنينا هنا ما يعكس الواقع أو الحقيقة ، فلنلخص الفصل المشار اليه : .

سيد وخادم ، فارقا حلم (لا انسولا باراتاريا) ويستأنفان مشيهما فى

Rafael Benitez :
(1)guerray sociedad : Malaga y los ninos Moriscos Cautivos "Estudis" vol. 111, ano 1974, PP. 31-54.
وقد عالج هذا الموضوع ايضا .
Jose M. "Ralbsco en dos aspctos de la esclavitud morisca, Malaga 1569 "Homenaje a regle" 1, 293-302.

الطريق الممهد ، فيقابلها زمرة من الحجاج المتسولين ، جنسيتهم المانية ، وكان المتنكر «ريكوتى» بين من قابلا ، وقد تعرف على «سانشو» وحكى له قصتة : قبل أن تنتهى الفترة الممنوحة لهم كى يستعدوا لمغادرة البلاد ، قام برحلة خارج اسبانيا للتعرف على مكان يذهب اليه مع اسرته يتوافر فيه امان اكثر من غيره ، وقد ذهب الى فرنسا ، ورغم انهم هناك استقبلوه استقبالا حسناً ، الا أنه رغب فى رؤية كل شئ فعبر الى ايطاليا ومنها سافر الى المانيا ، وهنا فى المانيا بدا له أنه يمكن أن يعيش فى حرية أكبر ، لأن الناس فى معظم ارجائها يتمتعون بحرية ضمير . يقول : وقد عدت متخفيا بين واحدة من الجماعات التى تبغى زيارة المعابد الاسبانية ، وقد يستمتعون باجازة سعيدة ثم يعودون ومهم حفنة طيبة من المال . وكانت نية «ريكوتى» استخراج الكنز الذى كان مدفونا وحمل أسرته الى المانيا . لكن بينما كان يقوم هو برحلته فى اوربا ، فان صهره ، وكان مسلما بسيطا ، حمل زوجته وابنته الى بلاد الشمال الافريقى ، رغم أن كلتيهما كانت مسيحية كاثوليكية . وقد زوده «سانشو» ببعض المعلومات والاخبار ورفض أن يشاركه اهتماماته من اجل استعادة المدخرات التى يسميها – فى أبهة تفاخر – كنزا ، ثم افترقا .

فى هذه القصة عناصر واقعية حقيقية مدهشة ، وأخرى ليست كذلك ، انه لا يمكن تصديق أن يصف مورسكى عقوبة الطرد بأنها عادلة أو أنه بمجرد أن وصل الى ايطاليا سيعبر جبال الالب نحو المانيا . أنه ممايشك فيه أن يكون شئ كهذا قد حدث لأى انسان ، ربما كان «ثيرفنتس» يبحث عن طريقة تجعل «ريكوتى» يرجع متخفيا بين الحجاج الالمان وربما اخترع قصة موجزة ليتحدث عن حرية الضمير التى أعجب بها سرا ، لكن بيئة «أوجوسبورجو» بما فيها من قسوه لا يمكن أن تكون لها شئ من الجاذبية بالنسبة لتاجر منتسب الى «لامنشا» رغم أنه كان يمكنه أن يقوم هناك بأداء الشعائر والصيام والأعمال المقدسة بكل حريه . وعلى العكس من ذلك هناك أمور مأخوذة من الواقع منها اخفاء «ريكوتى» لمدخراته ، والانقسام الدينى فى داخل الأسرة والشكوك التى عبرت عنها شخصية «ريكوتى» التى

اعترفت أن عندها من المسيحية أكثر مما عندها من الاسلام ، وهو يتوسل الى الله أن يفتح عينيه على الفهم وأن يعلمه كيف يعبده سبحانه(١)

اننا اذا تعاملنا مع مورسكيين من اراجون أو بلنسية ، فان هذه المأثرة تبدو أمرا متكلفا ، وليس الأمر كذلك بالنسبة لقشتاله الجديدة ، فان هذه الاوضاع تصبح عادية فيها بين المورسكيين الذين هم شبه مندمجين . امران فى هذه الرواية اثرا في القارئ وأثرا بدون شك فى المؤلف أيضا : المرارة التى لا حدود لها عند المنفيين «انما حللنا نبكى على اسبانيا التى ولدنا فيها والتى هى وطننا الأصلى ... إن الرغبة لدينا جميعا تقريبا أن نعود الى اسبانيا التى يعرف كل هؤلاء - وهم كثيرون - لغتها كما أعرفها أنا ، أنهم سيعودون اليها ويتركون هناك نساءهم وابناءهم بلا حماية ، وأيضا ولابد أن نبرز أيضا ما أظهره الجيران من عطف وشفقة عند رحيل ابنته ، هذه المكرمة لها قيمتها فى بلاد قشتاله وحدها .

ويلاحظ أن «ثيرفنتس» - على لسان ويكوتى - يحصر امكانية العودة فى من يعرفون اللغة» وهو بهذا التحديد يستبعد معظم البلنسيين ، وكثير من الأراجونيين والغرناطيين ، فهؤلاء يتكلمون اللغات الرومانيسة يليلا وبطريقه سيئة ،ولانهم أغلبية فانه ليس ممكنا أن تكون أرقام من رجعوا متخفين عالية نسبيا ، إنه يمكننا أن نتكلم عن مئآت وربما آلاف .

أننا نعرف حالة المورسكيين فى طرطوشة وناحيتها والتى يمكن اعتبارها استثناءا . وأيضا المورسكيون من «كامبودى كالاترابا» الذين عاد عدد كبير منهم ، وقد طردهم الحاكم ، ولكنهم عادوا مرة ثانية فى تصميم لا يصدق ، وقد نجحوا فى العودة مرات عديدة ، واعترف عدوهم الذى لا يرحم «الكونت دى سالازار» انه بقى منهم كثيرون بتصريح من مجلس الدولة ، إما بكثير من التسامح أو بروايات مزيفة عن كونهم شيوخا أو مرضى بالكساح» وقد كتب حاكم المرية سنة ١٦١٢ يقول : انه يوجد هناك مورسكيون كثيرون ، سجناء ممن كانوا قد رجعوا الى البلاد» .

(١) شخصيات «ثيرفنتس» والمورسكيون . درست اكثر من مرة وخاصة فصل ريكوتى ، ويمكن أن ترى مثالا للذلك عن F. Marguez

A. Dominguez : Historia ... PP. 252, 253 y Nota 14, P. 252.

أما الوثائق المتعلقة باشبيلة فقد أخرجها » ميشيل موريت[1] » بعد سبات عميق ، وهى تكشف عن حالات كثيرة تستوجب الدهشة . ويتفق «الدوق دى ميدنيه سيدينيا » مع المجلس فى أن الكثيرين قد بقوا ، وأن آخرين قد عادوا الى البلاد ، وبين هؤلاء من أرسل بهم إلى السجون ومع ذلك فإن نفس الدوق طلب تصريحا كان سبق رفضه من اجل ان يبقى ستة من الخدم المورسكيين ، وقد توسط ايضا لصالح حوذى قديم رغب ان يستمر فى المنفى مع زوجته وابنته

أى مسرحيات مأسوية عبر عنها موقف الدوق ، وهو يتشفع لبعض المورسكيين ، بينما القى آخرون فى السجون ، إن هذا يوضح الشكوك والتناقضات التى شعربها هؤلاء الرجال ، ازاء عمل متعدد الاشكال لم يضر بالمصالح فقط بل وحرك الضمائر ، لأنه عمل الذين اختفوا فتسببوا فى كثير من التعقيدات . وأعداؤهم القاسية قلوبهم يعترفون بذلك ويأسفون عليه .م فالكونت «دى سالازار» يضاعف من تحذيراته والاب «بليدا» يكتب «كثير من المورسكيين يعودون الى هذه الاراضى بعد أن رأوا المعاملة السيئة التى لقوها هناك فى افريقية ، أنهم يعودون ويطيلبون الرحمة ويقولون انهم يريدون أن يكونوا مسيحيين وأن يعاملوا معاملة العبيد . إنهم يجدونهم عند من يعودون الى بيوتهم للقيام بخدمتهم مجانا ، وكثير من المتخصصين فى اللاهوت يؤكدون للوالى أنه مع أن الأوامر والبلاغات التى فوضهم صاحب الجلالة في تنفيذها ، توجب اعتقالهم ، لأن المسلمين الاتراك غير «مؤمنين بالتعميد ، وأن عليهم أن يعملوا فقط على ارجاع المسحيين ممن ايعتنقون عقيدة الكنيسة ، فان الواجب الأساسى هو ضرورة استقبال هؤلاء الذين سبق تعميدهم ويرغبون فى العودة الى مستقرهم [2] .

إن تذبذبات السياسة الحكومية تصادف اتفاقا مع ارتفاع وهبوط سياسة «الكونت دى سالازار» ، ففى نوفمبر سنة ١٦١٢ سحبت سلطاته المطلقة لأنه عمل كل ما هو ضرورى لطرد المورسكيين . أما الدعاوى

(1)Michele Moret : Aspectos de la soceite marchande de sevilla au debut du XVII siecle pagina 100, Paris 1967.

(2)Coronica, P. 1020

والالتماسات التى تحدث بسبب ادعاءات المورسكيين فانه كان يعهد بها الى مجلس قشتالة وعندما ترفع اعمالهم الى هذا الجهاز الاعلى بالطرق القانونية ، فان الاعداء الساخطين على المسيحيين الجدد ، بدأوا يهدؤون ، وهذا سهل بقاء الذين حاولوا استنفاد كل الوسائل القانونية حتى لا يطردوا من البلاد ، حيث صدر مرسوم ملكى فى ۲۰ ابريل سنة ١٦١٣ يتعلل بأنه قد عاد الى هذه المملكة كثير من المورسكيين ، لهذا ولأنه لم يخرج واحد ممن بقوا ، ولكونه من المناسب لخدمة الاله ولخدمتى ولصالح هذه الممالك ، اتمام هذا العمل من كل جوانبه ، فاننى قد قررت تكليف الكونت دى سالازار من جديد بتنفيذ كل ما يتعلق بالطرد المذكور واصبح مسئولا عن كل ما كان خاضعا لمسئوليته ولغيره فى كل ممالكى واقطاعياتى» وقد تم تفويضة فى حل مجمل وسريع لكل الدعاوى المعلقة ، وامرت كل السلطات المدنية أن تضع فى يديه كل الدعاوى وأن يمنح كل سلطة لمراجعة التصريحات التى اعطيت لمورسكيين بهدف أن يستمروا في البلاد ، لكونهم عجائز او مسيحيون جيدون أولأى سبب آخر»(١).

ان التعسفات التى ارتكبها هذا الانسان القاسي والمملوء حقدا لا يمكن وصفها ، كذلك التى ارتكبها منفذوا أو امره ، لقد كان واجبا عليهم أن ينظرو الشكاوى والادعاءات لوضع حد لها . وفى فبراير سنة ١٦١٤ وزع على المحاكم امر صاحب الجلالة الذى قال ان الطرد قد انتهى بما حدث اخيرا فى مملكة مرسية ، أما القضايا المنظورة أمام القضاء ، فان مجلس الكونت دى سالازار يقرر انهاءها ، ولن تقبل بلاغات جديدة الأضد من ثبت أنهم عادوا من المنفى . وفى هذه الحالة يبعث بهم الى السجون اذا كانوا قادرين على الخدمة فيها أما فى الحالات الأخرى فانهم يجلدون ويطردون وتصادر ممتلكاتهم» .

بهذا القرار يبدو أنه قد وضعت النهاية للالتماسات الخاصة بالمورسكيين ، ومع ذلك فان بعض الوكلاء المفوضين الغيورين كثيرا ، كانوا لا يزالون يواصلون مضايقتهم حتى هذه اللحظة لهؤلاء الذين بقوا ، مثال

(1)janer, florencio : condicion social de los Moriscos de Espana apendice 141,P. 357-359.

ذلك ما حدث لمن كانوا يقيمون فى ناحية «طرطوشة» وهم من المعروفين بتمسكهم وتشبثهم بأرضهم . لقد كان عليهم أن يحصلوا على تأييد الأسقف ودعم السادة اصحاب إقطاعياتهم ودعم النبلاء وبعض الجمعيات الدينية ويبدو انهم أخيرا حصلوا على تصيرح بالبقاء . ونتيجة لمذكرة من كنيسة طرطوشة ، فان مجلس اراجوان شكا للملك من محاولات الكونت دى سالازار والوالى الهادفة الى طرد المورسكيين والسيطرة على ممتلكاتهم وقد أجاب الملك فيليب الثالث :

«لقد أمرت الوالى الايضايقهم ، بل يتركهم يستمتعون بالفضل الذى منحته لهم بكل حرية وليكتب للاسقف ليرى كيف يعيشون ، فوفقا لرأيه يتركون» .

ويعتقد أن الاتفاق على بقاء المورسكيين فى وادى «الابرو الادنى» يرجع الى ان «كارلوس الخامس» قد أمر بانشاء كليات ملكية فى «سنتياجو وسان ماتياس» لتعليم المورسكيين دينيا في طرطوشة ، وقد فرغ من نباء هذه المؤسسات التعليمية فى عهد فيليب الثانى ، ووجدت لها مؤسسات مماثلة فى بلنسية وغرناطة (١) .

أما الذين ذهبوا يبحثون لهم عن ملجأ فى جزيرة «مايوركا» فقد صادفوا حظا أقل ، وقد جاء معظمهم من وادى ريكوتى ، ومثلهم الذين ذهبوا الى «سردينيا» وبسبب الغموض فى استخدام كلمة «اسبانيا» بالوثائق الرسمية ، فان هناك شك حول صدور أمر باخراج المورسكيين من هذه الجزائر ، لقد أجاب الملك ردا على استشارة والى «دى مايوركا» قائلا : -

«يكتب للوالى أنه ليس من المناسب بأى حال أن يقيم هؤلاء المورسكيون هناك ، وفى الحال يجب اخراجهم منها ، لكونها جزيرة متاخمة لاسبانيا وقريبة جدا من الجزائر»

وتنفيذا لهذا الأمر ، أخبر الوالى بتاريخ ١٨ اغسطس أن آخر مجموعة من المسلمين المنصرين فى «ريكوتى» قد أخرجت وهى مكونة من

(1)A. Dominguaz ; Histori ... P. 255, Nota 18.

. . ٢ سيدة متزوجة ، وبقى فقط ٣ من المورسكيين ليست لديهم وسائل للانفاق على رحلة بالبحر الى ايطاليا ، وقد أجاب الملك إن قد أمرت باخراج هؤلاء الناس من هناك ، وليعطوا نفقات الإبحار وكل وسائل الراحة الممكنة[١] .

ولا يبدو أن أحدا ممن حاولوا الاختفاء أو المغامرة بالعودة ، قد قضى عليه بالاعدام ، نعم هناك من حكم عليه بالسجن المؤبد ، وهى عقوبة مرعبة ، يمكن أعتبارها مساوية للعمل فى مناجم المعادن الذى كان يتم فى ظروف سيئة للغاية ، حتى لو بقى السجين في نفس مبنى السجن القديم الذى كان يتصل بالمناجم من خلال ممر تحت الأرض . نعم استمتع العاملون من الاحرار بنظام أقل قسوة ، لكنه كان دائما اليما ومضراً بالصحة ، لانه كان يجب عليهم اكمال المده المقررة مع المسجونيين والعبيد ، وقد وجد مسلمون في المناجم قضى عليهم بعد ذلك بالتنصير ، وفى سنة ١٥١٦ صرح لمتعهدى المنجم بابقاء . ٣٠ من هؤلاء ، من سكان القرى ، على أن يعفوا من الضرائب[٢] ، لأن الايدى العاملة أيصبحت نادرة والطلب على الزئبق يتزايد فى كل يوم خاصة بعد اكتشاف العالم الجديد . لقد حصل مندوب مؤجرى المنجم - فى سنة ١٥٦٩ على تصريح بالتعاقد مع . . ٢ بحد أقصى ممن طردوا من مملكة غرناطة ، وقد سلم له رئيس أحد الأحزاب ٩٣ فقط من الذين يرغبون هذا العمل بأجر يومى ، ويبدو أننا أمام عمل حر ، على الأقل من الناحية النطرية ، ومع ذلك فقد سجلت حالات هرب ، مما يدل على أن العمال لم يعملوا جميعا برغبتهم ، ومع ذلك فان من يعمل هذا العمل ينبغى

---

(١) نفسه ص٧١ ويذكر regla (ص٧٥) استشاره حاكم مايوركا بتاريخ سنة ١٦١٣ بمناسبة وصول سف ينة فرنسية آخبره قبطانها بأنه يوجد في الجزائر . . ٤ مورسكى من الاغنياء ، وانهم اتفقوا على الهرب من هناك يقودهم لويس دى طليطة ، وأنه يحملون بالاضافة الى اسرهم ما بين . ٤ الى . ٥ اسير مسيحى ، وكان الفرنسى يريد معرفة رأى الحاكم وعما اذا ان يمكنه المساعدة في تنفيذ هذا المشروع ؟ ولكن الملك أره أن يستقبل الأسرى المسيحيين عند وصولهم وأن يدع المورسكيين يذهبون حيث يشاؤون على الا يكون مستقرهم فى اسبانيا ، انظر كذلك

: Dominguez : obracitada, P. 255, Nota 19.

(2)Tomas Gonzales : registro de las minas de castilla, 1.78.

-A.Dominguez : Historia ... P. 256.

أن يكون كفؤا ، فقد صدر مرسوم ملكى سنة ١٥٨٨ يصرح بنقل ٢٠٠ موريسكى من جيان وأوبيدا وبايثا » على أن يتجهوا ناحية المنجم ، وكان يمكن أن يحمل الى هناك ايضا ، الذين حكم عليهم بعدم الاقتراب من مملكة غرناطة ولكنهم لا يحترمون قرار المنع ويقتربون منها(١) .

وقد اثر طرد سنة ١٦١٠ على ٨٠ موريسكيا كانوا يعملون في المناجم ، وكان هذا سببا فى قلق اللجنة المشرفة على الانتاج ، وقد حاولت الاحتفاظ بهم حتى عن طريق طرد غيرهم ، لكن الملك أجاب قائلا : «ليبحث عن وسيلة أخرى» ولم يكن البحث عن طرق أخرى أمرا سهلاً والحاجات فى الهند كل مرة كانت اكثر الحاحا حتى إنهم كانوا يحتاجون فى اسبانيا الجديدة الى خمسة آلاف قنطار من الزئبق ، وامكن فقط ارسال اسطول به ثلاثه الاف قنطار سنة ١٦١٢ ، وحتى هذه الكمية اقتطع منها الف لصالح «بيرو» بسبب توقف المنجم الذى يمون هذه الولاية عادة . لقد كانت الطلبات ملحة بل كانت هناك محاولات غير ناجحة لنقل الزئبق الى الصين ، لهذا فان المجلس المختص أعاد النظر فى المسألة وصمم على أن الوسيلة الوحيدة للتخفيف من نقص الايدى العاملة فى المناجم هى حمل ١٥٠ عاملا موريسكيا اليها «فليكونوا هناك ، عدلا أو ظلما ... واذا تبين أن فى هذا قسوة فانه يمكن أن يكونوا من المطرودين الذين رجعوا للبلاد ، وكما أنه يقضى عليهم بالاشغال الشاقة ، فانه يحكم عليهم بالعمل فى المناجم ، ولابد أن ندرك أن البعض سيمرض ويموت فى بداية الأمر ، لكن بمرور الزمن سيتعودون ويعملون باليومية كما يفعل سكان القرى ، وهؤلاء عندما يلحظون أعراض التسمم ببخار الزئبق ، فانهم سيذهبون للهواء الطلق الى أن تختفى الأعراض ، وسيكون أبناؤهم اكثر مقدرة وتعودا . بناء على هذه الفتوى ، صدر أمر لكل الموريسكيين الذين عادوا أو سيعودون ، بمقتضاه يبعث بهم الى العمل فى المناجم ، وكذلك كل من كان كفؤا بين من يقضون عقوبة المؤبد (٢) .

---

(1)Matilla tascon : Historia de las minas de Almaden, Madrid 1958, PP. 95-97.
نقلا عن -A. Dominguez : Historia ... P. 256.

(2)Arhivo general de simancas. cjh. 493,
A. Doming : Historia ... P. 256

وهناك فتوى اخرى صادرة بتاريخ ١٢ فبراير سنة ١٦١٣ بشأن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة من المورسكيين . أنها تقضي بحمل ٨٠ منهم فى الحال للعمل ، في المناجم على أن يدفع لهم الأجر اليومى مع تحذيرهم من الغياب عن العمل والا فعوقبتهم ستكون الاعدام ، وحيث ان لا توجد هناك منازل ولا أماكن لإيوائهم ، فأنه يمكن اقراض ٦٠. «دوكادوس» لكل مواطن يرغب تشغيلهم بمنزله ، وقد علق الملك بقوله «فلتنتظموا كما يبدو لكم ولتكن هناك عناية كبرى بحرس جيد يحرس هؤلاء الناس ، ولتكن المنازل ذات تكلفة بسيطة ولتكن متجاورة(١) .

المؤلف الذى عالج موضوع المورسكيين الذين بقوا فى اسبانيا بعد الطرد العام هو «فيرناندث وجونثالث» ومقالة الذى يحمل هذا العنوان (٢) يتضمن سلسلة من البيانات البعيدة عن الموضوع ، وهى ان لم تكن مخطئة فهى مبلبلة للأفكار لأنه يخلط بين المورسكيين وبين العبيد المسلمين الذين كانوا موجودين باعداد كبيرة فى اسبانيا ، وهؤلاء لم تتضمنهم قرارات الطرد لأنه يفترض أن ذلك فيه اخلال بحق الملكية لملاكهم ، كذلك لم يكونوا خاضعين لسلطة محكمة التفتيش لأنهم لم يكونوا مسيحيين من الناحية الرسمية ومعروف انهم كانوا يمارسون شعائرهم رغم أنه كان من المحرم عليهم ممارستها فى الخارج . اذن كان هناك باسبانيا فى القرن السابع عشر خليط من المورسكيين الذين تمكنوا من البقاء بصفة رسمية ومنهم من عاد الى البلاد متنكرا ، وكان هناك عبيد مورسكيون مسلمون وحتى وجد «بربر» ممن عبروا المضيق تلقائيا بهدف البقاء في اسبانيا بعد أن طلبوا التعميد باعتباره متطلبا سابقاً لا مناص عنه . هذا عمل يثير الدهشة كثيرا ، وقد وجدت بشأنه نصوص قليلة جدا رغم انها أصيلة ، واحدة منها متضمنة فى ترجمة مسيحى قديم هو «دون فرنسسكو دى رينوسو» الذى عينه فيليب الثالث

(1)ID. id . 250 un resumen del informe del Visitador Juan de pedrosa en larruga, Memorias ... XVII, 115 - 117 .

نقلا عن انطونيو دو مينجث : المرجع والموضع السابق

(2)Fernandez y Gonzalez, franaisco : "de los moriscos que permanecierom en espana

despues de la expulsion decretado por felipe 111 : revista de espana "XIX 1877, PP.

اسقفا لقرطبة سنة ١٥٩٧ ، قبل هذا التاريخ كان رئيسا لدير في بلنسيه ، حيث كان سخيا يستقبل الضيفان بشكل كبير مع كرم زائد عاونه عليه دخله الكبير ، ويروى في ترجمته أنه «حتى الكفار من البربر كانوا يستقبلون استقبالا حسنا فى هذا المنزل ، ويجدون مأوى» وقد ارسل الملك نفسه كثيرين كى يبشروا بالدين ويعمدوا ، وآخرون جاءوا برغبتهم أتت بهم شهرة سخائه ، وكان يستقبل الكل بارتياح شديد ، وقد استمر البعض بعد التعميد فى منزله ، يجرى عليهم جراية ويمنحهم راتبا على امتداد حياتهم» (١) وقد يخرج هؤلاء الى اماكن بعيدة فيشاهدون اقاليم الاندلس : وليست فريدة فى بابها ، تلك الحالة التى يذكرها المؤرخ الغرناطى «انريكث دى خوكيرا» والتى تقول :

فى ١٩ مارس سنة ١٦٠٧ أتى الى غرناطة كثير من المسلمين والمسلمات من بلاد البربر مع ابنائهم ، وقد نزلوا فى مدينة المونيكار» ، وكان الدافع وراء مجيئم هو الرغبة فى العودة الى المسيحية وقد استقبلوا استقبالا حسنا فى مدينة غرناطة ، بأمر من صاحب الجلالة وتلقوا العقيدة ، وجاء اسقف غرناطة ومنحهم ماء التعميد المقدس فى كنيسة غرناطة مع كثير من المهابة ، وكان عدد هؤلاء الذين تحولوا الى المسيحية مع نسائهم وأولادهم يتجاوز الاربعين ، وقد أمر الاسقف بأن يلبس هؤلاء وفقاً للطريقة الاسبانية وأعطيت نساؤهم أغطية ، وفى نفس الوقت قامت شخصيات أخرى من علية القوم ومنحوهم أغطية وهبات أخرى ، ومن كان منهم متزوجا فى ملته تزوج من جديد» (٢) .

---

(1)Fray gregario de Alfara : Vida ejemplar de Don framcisco de Reinosa, ABAD de husillos y obeispo de cordoba, capitulo XXVII (pub). por J. entrambgues en Valladolid 1940)

(2) Anales ... II, 552.

فى المجمع الدينى الذى انعقد سنة ١٥٨٣ طلب اسقف «باداخوس» وضع حراسة على المسلمين الذين يعيشون فى الشمال الافريقى والذين يتحولون الى المسيحية ، حسبما يقولون ، بينما هم فى الواقع يتجولون سائلين صدقات الناس ، ويسميهم الناس هم وأولادهم . Gacis انظر .

-peroperez : Catequessis de los moriscos extremenos "revista del centro de estudios extremenos : X (1936) PP. 31 - 49

-A. Dominguez ortiz : Historia P. 258, Nota 26.

هؤلاء البربر الذين عادوا الى المسيحية كان يطلق عليهم لقب جاثيس Gacis وهذه الظاهرة تشبه ظاهرة العصاة المسيحيين الذين كانوا خليطا من المغامرين والذين تطاردهم العدالة ومن المسجونين والجنود الذين هربوا من السجون ، بالاضافة الى عناصر أخرى خارجة على القانون ويجب أن نستبعد السبب الدينيى ، ذلك انه من الصعب قبول أن افرادا.وأسرا كاملة من البربر ، اتوا الى اسبانيا ليتحولوا الى المسيحية ، معقول أن يكونوا قد أتوا هاربين أو أن المستوى العالى من الحياة فى اسبانيا قد جذبهم ، والعجيب أن المسيحيين قد استقبلوا هؤلاء الهاربين بكل اريحية وضموهم الى صفوفهم دون ما شك فى نواياهم ، بينما كان على المورسكى أن يبذل مجهودا كبيرا كى يقنع زملاءه المسيحيين بأن مسيحيته مخلصة .

لهذا فان الاشارات الى المورسكيين بعد الطرد تستدعى حذرا وفطنة حتى لا يكون هناك انطباع بأن عددهم كثير وحتى لا يظن أن من بقوا أو قدروا على العودة لاسبانيا كانوا كثيرين ، الواقع أنهم كانوا قليلين نسبيا ، فالاسلام الاسبانى أنتهى ما بين ١٦٠٩ - ١٦١٤ ، وهذا لا يمنعنا من الاعتراف بوجود بقايا لهؤلاء المسلمين اما بصفة شخصية او فى صورة مجموعات صغيرة كانوا متمسكين بعقيدتهم الاسلامية ، يدل على ذلك هذا التكرار النسبى الذى كانوا يظهرون به فى الاحتفال بتنفيذ العقوبات المتعلقة بمخالفة العقيدة الكاثوليكية ، حيث كان يوجد مسلمون ويهود وكان الاخيرون أقل بكثير ، أضعف لذلك اننا لا نتعامل فى كل الحالات مع مورسكيين حقيقيين ، بل أحياناً مع عبيد معمدين قد أنتكسوا وعادوا لتطبيق عقيدتهم القديمة . ويقوم المؤرخ «ليا» بحصر بعض الحالات غير المتجانسة : (١)

فى سنة ١٦١٦ طلب مندوب «دانية» من محكمة تفتيش «بلنسية» تعليمات بشأن العبيد المورسكيين الذين يخططون للهرب الى بلاد الشمال الافريقى . وفى بلد الوليد قدمت بين سنتى ١٦٢٢ / ١٦٦٢ حالة واحدة لواحد من المسلمين اتى به لمحاكمته ، بينما كانت الحالات العادية اكثر قليلا

(1) lea : the Moriseos of spain ... P. 375 y ss.

في طليطلة . وفى سنة ١٦٦٧ جلد مورسكى من بعض القرى لأنه سخر من الاسرار الكنسية . وفى الاحتفال العلنى باعدام الملحدين حرقا ، أحرق رجل من قادش حيا ، لأنه كان قد ارتد عن المسيحية وأصبح من القراصنة . ولم تجد «مرثيدس جارثيا ارنال» فى بحثها المشار اليه سابقا أى طلب رأفة بدار وثائق محمة تفتيش قونيه يخص أى دعوى نظرت بعد سنة ١٦١٠ .

مع بداية حكم فيليب الرابع بدأت مرحلة من الاعتدال والنسيان فى مواجهة المتعصبين الذين كانوا يرون أن الموريسكيين يوجدون فى جهات كثيرة ويطالبون باجراءات عنيفة ضدهم ، لقد آمنت الحكومة الجديدة بالواقعية ولم تكن بعيدة عن اعتبار أن اجراء الطرد الجماعى كان أمراً غير صواب ، وادركت أنه لم يكن هناك مبرر لهذه الاجراءات القاسية التى ارتكبت ضد مجموعة من البؤساء لا يمكن أن يمثلوا خطرا ، ويبدو أن الشعور المسيطر على البرلمان كان يسير فى نفس الاتجاه ، ففى جلسات ١٦٢٣ اشارة الى أنه اذا عاد أى مورسكى الى القيام بمضايقات فان الأمر ينبغى أن يكون موضع تحقيق ... ومن اجل توفير الخدمة للملايين فإن صاحب الجلالة يأمر بهذا من الآن ، على أن توقف تلك التحقيقات التى كانت معلقة ولا يسمح بالشكاوى ضد الذين يعيشون اليوم فى هذه الممالك ولا ضد الذين يقال أنهم عادوا اذا لم يكونوا يعيشون على بعد ثلاثة فرسخ من موانى البحر(الفرسخ ٣ ميل) وليس من الضرورى - بالنسبة لهم - أن يفهم هذا التحديد» وعلى هامش هذه الورقة وجدت العبارة التالية : «ليس من المناسب ان يتم هذا من خلال القانون ، وقد أمر صاحب الجلالة بكتابة رسائل الى من يدارون هؤلاء» (١)

وفى العام التالى صمم البرلمان وعاد الملك ليجيب بأنه ليس من المناسب أن نحرر مرسوما ، لكن يرسل لأجهزة العدالة بالا تقبل شكاوى ، ومن يشتبه فيهم لا يعاملون باعتبارهم مورسكيين لكن يعاملون باعتبارهم صعاليك (٢) .

(1) Actas de las cortes, XI, 406 .
(2) Id id, X LII, 194 y XLII, 299

ذكر ذلك

A. Dominguez : Historia ... P. 259.

وقد سمحت القرارات الحكومية باستمرار بقاء المجموعات التى تقدمت فى انصهارها مع المجتمع المسيحى . وقد رأينا أنه بفضل رئيس دير طرطوشه وآخرين أمكن لكثير من المورسكيين أن يحصلوا على إذن بالبقاء فى وادى الابرو الادنى ، كذلك صمم المورسكيون على البقاء فى خمسة مدن صغيرة فى منطقة كامبودى لا ترابا ، وتم التجاوز عن اكثر العقوبات المرعبه وعاد كثير منهم واستقروا هناك ، وادعى بعضهم أن من حقهم التمتع بمزايا منحهم اياها الملوك السابقون . وفى سنة ١٦٢٥ قدم واحد من المسيحيين الجدد أصالة عن نفسه ونيابة عن مسيحيين جدد آخرين من المنطقة مذكرة اوضح فيها كيف تم طردهم وكيف سلبت ممتلكاتهم دون الاستماع اليهم ودون اعطائهم وقت للدفاع عن أنفسهم . وكان صاحب الجلالة قد أمر فى مدريد بتاريخ ٢٣ يونيو من العام السابق (١٦٢٤) بأن يبقى أبناء الضياع الخمسة المذكورة ، لانهم ابناء الشخصيات التى منحت العفو المذكور ، وكان من حقهم أن ينفذ ما هو متضمن الوثائق ، لكن ذلك لم يحدث ، وبدلا من تعرضوا لكثير فى المضايقات والمنغصات ، مع التشكيك فى عقيدتهم حتى لا يتمكن الشهود من حمايتهم والدفاع عنهم ، بحجة أنهم طردوا ودخلوا فى بلاغ الطرد ، وهم بهذا الاسلوب يسعون الى فضحهم وانتهت المذكرة طالبة أن يحتفظ لهم بمزاياهم وأن يسمح لهم بالعمل في الوظائف الرسمية العامة دون أية تفرقة أو تمييز ، ويذكر ايضا أنهم خلال ثورة المورسكيين الغرناطيين وحرب البرتغال ، فانهم خدموا باعتبارهم جنودا كما كانوا جنودا في الميليشيات ، والآن هم قادة فى محلاتهم وان خمسين منهم يعملون جنودا ، وفى نفس الوقت فانه يوجد بينهم رجال دين وأدباء وراهبات حافيات» .

بعد دراسة السوابق ، رأت غرفة قشتالة أنه يمكن لصاحب الجلالة أن يأمر بالمحافظة على المزايا المذكورة للمسيحيين الجدد الذين يعيشون فى دائرتها واضعين فى الاعتبار قفر هذه الممالك من السكان ، وبناء على هذا صدر مرسوم ملكى وأصبح من حق المورسكيين الا يعود أحد الى مضايقتهم

فى «كامبودى لاترابا» (١) .

ليس من الممكن تجاهل الترابط بين هذا القرار وبين السياسة التى كان يقوم «الكونت دوكى» بتنفيذها خلال هذه السنوات والتى كانت تسير فى خط مزدوج يحرص على أصالة السكان كما يحرص على تلطيف الاجراءات ضد المسيحيين الجدد ، ورغم أن نظرته كانت متهجة قبل كل شئ الى المجموعة الفعالة من اليهود الذين تحولوا للمسيحية ، الا أن البقايا الاسلامية المتواضعة استفادت من هذه الاريحية . وقد طبع بيان فى مدريد سنة ١٦٢٦ يقول «صدر عن المجلس الملكى فى الايام الماضية مرسوم يدعو الايتجاسر أحد ويعامل من بقى من الموريسكيين معاملة سيئة ، والا يلحق بهم أى أذى مادواموا يعيشون فى الداخل على بعد ٢٠ فرسخا من البحر» (٢) .

الفصل الأخير من هذا التاريخ الطويل والمؤلم معاً يحملنا من جديد الى مقاطعة «ريكوتى» فى «مرسية» فإن من طردوا من «كالاترابا» قد عادوا مرة الى أرضهم الأصلية وظنوا أن الخطر قد انتهى وفقاً للأوامر والمرسومات المذكورة ، لكن فى سنة ١٦٣٤ وفى احدى الزيارات ألتى نظمتها احدى الجمعيات الدينية فان المفتش الزائر كتب تقريرا يحذر ويؤكد أن هذه القرى تغص بالموريسكيين ، وأن لهم اتصالات مع زملائهم الآخرين ممن بقوا فى مملكة بلنسية وخاصة من كان منهم فى «الثيرا» . ومن حسن الحظ أن الوالى كان قد أعد تقريراً متزنا ، قرر فيه أن الفرق واضح بين الموريسكيين الاصلاء فى مرسية ، وهؤلاء كانوا مسلمين حقيقة وقد عبروا جميعا الى بلاد الشمال الافريقى ، ولم يرجع منهم أحد – كما هو معلوم – وبين الموريسكيين فى «وادى ريكوتى» ، وقد خرج المدجنون من هذا الوادى وأبحروا فى اتجاه ايطاليا وفرنسا ، ولم يتوجه واحد منهم الى بلاد شمال افريقية أو الى بلاد البربر . ويقال إن هؤلاء كانوا يفخرون دائما بمسيحيتهم

(1) A. Dominguez ortiz : felipe IV y los Moriscos, Miscelanea de estudios Arabes y Hberiacos, ano VIII N: 8.

(٢) صدرت هذه الوثيقة نتيجة للطلبات البرلمانية السابقة . أنظر :

A. Dominguez ortiz : Histaria ... P. 260.

وقد آلمهم حقيقة أن يطردوا من اسبانيا . وهناك مجموعة آخرى جاءت الى الكونت «دى سالازار» وقد مواله التماسات ، وزعموا أنهم برغم اقامتهم فى هذه الاماكن ، الا أنهم لم يكونوا قط مدجنين ، بل هم دائما مسيحيون قدماء ، وقد اعترف لهم بذلك ، ولم تشملهم البلاغات الرسمية للطرد وقد استخرجوا وثائق تثبت شرف نسبهم ، وبالفعل بقى الكثيرون منهم وصدرت الأوامر بأن يستردوا مالهم من ممتلكات .

لكن المؤكد أن هؤلاء كانوا مورسكيين دائما ، وأن المعلومات التى قدموها لم تكن حقيقية ، وما معهم من شهادات كانت مشتراه بالمال . وما أن نفذ الكونت دى سالازار أمر الطرد ، ومضت فترة وجيزة حتى عادوا الى قراهم . ورغم أنهم بدأوا وايمشون ويتركون فيها متخفيين ، الا أن أخبارهم وصلت الى «السلطات الرسمية» فألقى القبض على كثيرين منهم ، وحكم علهم بالسجن المؤبد ، ولما هرب البعض منهم ، قضى عليهم بالاعدام غيابيا ، وبهذا لم يبق أحدٌ منهم ، ثم مرت سنتان أو ثلاثة فعاد الهاربون مرة أخرى ، وجاء رئيس مجلس غرناطة واتخذ الاجراءات القانونية ضدهم وحكم عليهم بالجلد والسجن ، لكنه لم يكد يغادر المدينة حتى عاد الهاربون . ورغم أن سلطات العدالة قد طاردتهم واعتقلتهم وعاقبتهم ، الأ انه لم تكن هناك وسيلة لإقصائهم عن هذه الارض لقد كابدوا أعمالا جسيمة حتى انه فى عام ١٦٢٦ وضعت المملكة شرطا هو الايتصرف أحد تصرفا سيئا ضد المورسكيين الذين رجعوا الى البلاد ، فصاحب الجلالة قد منحهم عفوا ومنذ هذه اللحظة وهم هادئون ويعيشون فى هذه الاماكن بسلام ، ودائما تمضى حياتهم مع كثير من الطاعة والاذعان ، دون أن يقوموا بارتكاب أخطاء شنيعة أو اعطاء أمثله سيئة ، وبدا أنهم مسيحيون جيدون ومن أكثر الناس احتراماً لمرسومات صاحب الجلالة ... إنهم أناس متواضعون واجلون للغاية .

وحول ما يتعلق بالشك فى ان لهم صلات مع مورسكيين آخرين فى هذه المملكة ، خاصة مع المورسكيين فى وادى «الثيرا» فان لذلك ظل من الحقيقة ، فان بقوا فى هذه المملكة ورجعوا ، قليل عددهم . ويمكن أن يكون الشك منشؤه أن كثيرا من الناس ممن كانوا فى مملكة بلنسية ، قد أتوا ليعيشوا

فى هذه الأماكن ، وبهذا استمر الاتصال ، الذى كان موجوداً بين هذا المكان وذاك ، وربما بسبب الرغبة فى حقوق التجارة التى تنتقل من مكان لآخر ، وهذا شئ عادى ، ثم الاتصال مع تحفظ ، وبوسائل تبعث على الريبة (١) .

ونظرا لما جاء فى هذا التقرير ، فان مجلس الدولة رأى أنه ليس هناك ما يدعو الى الشعور بالخطر وأنه يكفى أن يكتب لاسقف «كارتاخينا» بأن يقوم القساوسة بمراقبة المورسكيين ، والتأكد من انهم يعيشون كمسيحيين ، وقد وافق الملك على ذلك ، ولم يعد هناك صدى فى التاريخ لمورسكي «وادى ريكوتى» .

وفى غرناطة ، لابد أنه قد بقى بها موريسكيون كثيرون أيضا ، تنكروا وأدعوا أنهم مسيحيون قدماء ، لأن التعايش المكشوف مع هؤلاء ، جعل المورسكيين يكتسبون عادتهم وطرائقهم فى الكلام وأصبح من الصعب للغاية تمييزهم ، وقد واصل بعض افراد سلالات الأسر الاسلامية العالية تمتعهم بما كان لهم من مزايا وتولوا بعض المسئوليات العامة ، ولنذكر ما يبدو أن له فائدة من بين الأخبار الأخيرة بالمورسكيين فى غرناطة .

هناك فتوى لمجلس الدولة مؤرخة ٩ فبراير سنة ١٦٢٤ تخبرنا أنه وجدت اسرتان فى هذه المدينة ، أسرة «لوس كورباس» وأسرة «لوس مدريدس» وأن وضعهما الاقتصادى كان جيدا ، وانهما كانايسيطران على صناعة الحرير ، ولكون الاسرتان موريسكيتين ، وربما بسبب التنافس أو الحسد فان البعض وشى بهما لدى الحكام وأدعى أن لهما علاقات مع المسلمين فى بلاد الشمال الافريقى ، وانهما يدبران مؤامرة بالتواطؤ معهم . وقد فتشت منازلهم ولم يعثر بها على شئ باستثناء خريطة لمملكة غرناطة ، وقد وصلت هذه المعلومات الى السلطات فى مدريد ، فقررت أنها دعوى بلا أساس وأن البراهين لا تستندها وأمر مجلس السكان بأن يسمح للأسرتين بالاستمرار فى ممارسة نشاطهما

وبين الوثائق المتعلقة بالثورة الشعبية الفاشلة فى يونيو سنة ١٦٥٠ لا نعدم اتهامات توجه للمورسكيين باعتبارهم متآمرين أو محرضين ، ويقال

(1) Archivo general de simancas, estado espanol. 2653
A. dominguez ortiz : abera citada, P. 261.

أنهم كانوا يعدون ثمانية آلاف شخص داخل وخارج المدينة بهدف أن يسيطروا عليها من خلالهم وأن ينهبوا منازل الاغنياء . وما ان اكتشفت المؤامرة حتى أعلن عن صدور أربعة احكام شنقا وحكم بالاعدام بالسيف ، بتهمة التعامل مع أحد النبلاء ، هذا بالاضافة الى كثيرين آخرين أدينوا بعقوبات مختلفة ، وهناك رواية معاصرة للمؤامرة تقول «إن المحركين لهؤلاء الثائرين كانوا من المورسكيين ، وكان معظمهم من سكان البيازين ويقال إن صباغا مورسكيا من أغنياء حى البيازين ، كان من بين المحرضين وقد بقى هذا الحى بدون سكان تقريبا ، لأن اهله كانوا إما داخل السجون ، واما أنهم تركوا الحى وهربوا ، ولم يبق الا الدخلاء والغرباء (١) .

وفى هذا النوع من الحكايات يصعب دائما فصل الحقيقة عن الخيال ولا يستبعد أن يكون هناك مورسكيون قد تدخلوا فى هذه الثورة ، فهذا أمر محتمل جدا ، لكنهم لم يشتركوا باعتبارهم مورسكيين بل باعتبارهم اعضاء فى جماعة اجتماعية غير راضية عن الظروف السيئة التى كانت تمر بها اسبانيا والتى اغضبت كل القطاعات حتى هؤلاء الذين كانوا يستمتعون بمزايا ، لكن السؤال الذى ينبغي أن نطرحه هو : ما نوع المورسكيين هؤلاء الذين يجرى عنهم حديث فى عام ١٦٥٠ بل وحتى بعد ذلك التاريخ ؟ ولنذكر بعضها :

وجد بعض الباحثين ذكرا لمسيحيين جدد - مرات عديدة - فى سجل كنيسة قرية «اوليفا» حتى سنة ١٦٦٠ وكانت تلك القرية واحدة من القرى البلنسية التى بها جذور مورسكية قوية . وهنا يبدو أن الاشارة تعنى الاطفال الذين أعفوا من الطرد بسبب صغر سنهم وسلموا لمسيحيين قدماء . ويعتقد قسيس القرية أنه كان يجب عليهم أن يذكروا شيئا عن أصلهم عندما يتزوجون وكان يجب عليهم أيضا أن يعرفوا بالنسل الذى أنجبوه ، وفى الجيل الثاني أو الثالث انعدم ذكر شئ فى السجل ، وربما كان الشئ

(١) وأنظر ايضا
(1)Id. id folios 169 - 171.
A.Dominguez ortiz :Alteraciones andaluzas, Madrid 1973, P. 68
(2) Historia ... P. 262.

نفسه معمولاً به فى كنائس اخرى ثم تركت ايضا ذلك التسجيل [١] ويذكر أحد المؤرخين لبلنسية زواج مسلمين مطرودين في كنيسة «سان ميان ببلنسية» سنة ١٦٢٣ [٢] ولاندرى هل نحن حقيقة أمام مطرودين عادوا أم وراء أطفال ممن بقوا كما هو الحال فى قرية «أوليفا» ؟ .

وفى الاحتفالات بحرق الملحدين فى القرن السابع عشر وحتى بداية القرن الثامن عشر ، ظهر بعض المسلمين فى مناسبات متفرقة ، لكن لم يحدث قط أن تعاملنا مع أسلاف المورسكيين ، وانما كانوا عبيدا أو أحراراً ممن تم تعميدهم ثم عادوا لعقيدتهم الاسلامية . والحقيقة أن مفتشى التحقيق لم يمنحوا اهتماما لهذه البقايا الاسلامية البسيطة بعد أن تم طرد المسلمين المنصرين وكان جل اهتمامهم مركزا على اليهود ، ذلك أن مطاردة أو تعذيب المسلمين لن يعود عليهم الا بالقليل سواء ميدان العقيدة أو على نطاق المكاسب المادية ، فلا يتوقع منهم هذه المصادرات المثمرة التى استفاد منها هؤلاء المفتشون فى الماضى . وان مما يؤكد عدم الاهتمام بالمسلمين والامان النسبى الذى كان يعيش فيه هؤلاء تلك الرواية العجيبة حول رحلة أحد السفراء المغاربة الذين أتوا الى اسبانيا ١٦٩٠ - ١٦٩١ من أجل السعى لتخليص أسيرة «بعد استسلام هذه القلعة للأسرى المسلمين [٣] وعلى امتداد جولة البعثة فى اسبانيا ، وجد المغاربة - أو اعتقدوا أنهم وجدوا - دلائل تشير الى صلابة وبقاء الشعب المورسكى حيث أكد بعض السكان - اعتمادا على براهين يقينية - أن معظم السكان ينحدرون من أصل اسلامى ، وانهم قد تربوا فى ظلمات الكفر رغم مضى وقت طويل على انتهاء الحكم الاسلامى ، نفس الشئ بالنسبة لسكان مناطق آخرى واضاف أن ابنة المأمور القضائى وابنة الحاكم تنتميان لأسرة آخر ملوك غرناطه ، وفقاً لما صرحت به احدى الشخصيات المهمة وهى شخصية تعتد بنفسها فى مدريد

(1) estudio de la demografia de oliva "estudis", 1.183, 184 .

(2)Coses evengudes enla ciutat y regne de Valencia , 11.127 Valencia 1934 .

انظر : A. Dominguez ortiz : Historia ...P. 262.

(3)H.Sauvaire : voyage en espagne d un ambass adeur marocain (1690 - 1691) traduit de l'arabe par, paris, 1884.

ذكر ذلك

A. Dominguez : Historia ... P. 263.

وهو رجل أشم معتد بنفسه ، وتفخر تلك الشخصية بانحدارها من نفس الأصل الاسلامى وتعجب بسماع الحديث عن الاسلام والمسلمين . وهناك بين سكان «مادشينا» من يرتفع بنسبه الى الاصول الاسلامية القديمة ، ومن بين سكان «اندوخر» من يؤكد أن عددا كبيرا منهم ينحدر من أسرة بنى السراج الذين اضطهدهم مولاى «حسن» فهربوا الى أرض المسيحيين واعتنقوا العقيدة الكاثوليكية ، والى هؤلاء ينتمى قسم كبير من نبلاء المدينة المذكورة . لكن بينما يذكر بعضهم هذا الاصل بكل فخر ، نرى أن آخرين يستنكرونه ويزعمون أنهم ينحدرون من أصول كانت موجودة فى جبال «نبره» . أما سلالات المسلمين الذين يشغلون وظائف عامة فانهم لا ينكرون سلسلة نسبهم . وعندما تخرج من الاندلس ، فان أمثال هذه الاشارات تنقطع ، كما فى «لامنشا» حيث لا نجد بقايا الأخوة فى العقيدة القديمة ، ولا بد أن تقبل حقيقة أن من اختاروا طريق «تورى دى خوان اياد» ربما مروا «بالكامبودى لا ترابا» وزودونا» ببعض الأخبار الطيبة . ومع ذلك فان «مدريد» شهدت وجود مؤلف كتب مذكراته اليومية عن الرحلة وزودنا بمعلومات مهمة ، تعكس صدى الانتقادات التى حدثت عند طرد المسلمين المنصرين (ص١١٦) . وتقييم هذه الرواية صعب ، لأن فيها تختلط بعض الاخبار التى تبدو مؤكدة بأخرى تبدو مبالغاً فيها أو حتى مخطئة تماما ، ومع ذلك فان هناك أشياء تبدو يقينية ، منها أنه فى نهاية القرن السابع عشر كانت هناك أسر أندلسية كثيرة تذكر أصلها الاندلسى دون امتعاض ، رغم أنهم كانوا يمارسون طقوس العقيدة المسيحية بانتظام .

وليس غريبا أن تكون نصوص المورسكيين الغرناطيين الأخيرة مرتبطة بمدينة غرناطة ، حيث واصلت ذرياتهم ارتباطها بصناعة الحرير التقليدية يذكر مؤلف من القرن الثامن عشر أنه اشترى منتزلا كبيرا كانت محكمة التفتيش قد صادرته سنة ١٧٢٧ من ملاكه تجار الحرير الأغنياء وكانوا من بقايا المسيحيين الجدد الذين عادوا الى ارتكاب جريمة اعتناق مذهبهم الباطل» (يقصد الاسلام) ومن الأشياء المميزة لهؤلاء المورسكيين الغرناطيين أنهم كانوا يعلقون فى واجهة سلالم منازلهم صورة تمثل النقاء الذى لا دنس

فيه[1] كما تعودت سلالات اليهود ، أن يعلقوا بعض الصور المقدسة فى اماكن بحيث يمكن مشاهدتها بسهوله .

إن مما يؤسف له أنه ليست لدينا الوثائق الكاملة للاحتفال بحرق غير الكاثوليكيين علنا ، ذلك الذى لابد أن يكون قد حرى بغرناطة فى العام نفسه ، والذى كان من نتيجته أن بلدية غرناطه توجهت فى سنة ١٧٢٩ الى الملك ، وطلبت منه طرد المورسكيين الذين أصدرت محاكم التفتيش أحكاما ضدهم حتى تبقى هذه المملكة نقية من هذه الوصمة .[2] ونفس الشئ حدث بالنسبه لمن تحول الى المسيحية من اليهود ، ولم يقتصر الأمر على المدانين من المورسكيين وأنما تعدى ذلك الى البرآء ، وعلق ذلك فى ذاكرة الناس ، خاصة فى الاماكن ذات الحساسية فيما يتعلق بهذه القضية كما هو الحال فى غرناطة . وهناك اعمال درامية استوحيت من هذا تمثل بعضها فى آثار مكتوبة تدل على جلد ومثابرة ، وهناك نحات غرناطى مشهور عاش بين ١٧٠٨ - ١٧٧٣م ، كان بطل واحدة من هذه الاعمال : لقد كانت له علاقات منذ فترة الشباب مع فتاة رقيقة الحال ، كانت محكمة التفتيش قد أدانت أحد أسلافها فى القرن السادس عشر ، وبرغم مرور الزمن ، فان ذكرى أسلافها الشائنة استمرت حية ، حتى إن اسرة النحات عارضت فى اصرار أن يرتبط بها ، فقط فى سنة ١٧٤٧ بعد أن اصبح عنده ٦ أولاد منها ، حلت القضية ، فسمح له أن يتزوج بها سرا ومع ذلك فقد واصلا حياتهما ، كل

(1)Juan F. perez de herrasti : historia de la Herrasti P.284, Granada 1750

وقد شهدت هذه السنوات نشاطا مركزا المحاكم التفتيش ، تضرر منه اليهود بالدرجه الاولى ، ولكن هناك أيضا ضحايا من المسلمين ، يذكر «ليا» - نقلا عن E.N. Adler

انه فى احتفال النطق بالاحكام فى غرناطة بتاريخ سنة ١٧٢٨ ، حدث تصالح مع ٤٥ من المتهمين ، بالاضافة الى ٢٨ فى جلسة ١٠ اكتوبر التالى ، وهؤلاء ينبغى أن يكونوا أثرياء . لأن مصادرة ممتلكاتهم كان أمرا مفيدا لمحاكم اتفتيش ، ولذلك أعطى للوشاة منحة قدرها ١٠٠ دوكادوس : أنظر:

- lea : the moriscos ..., III, P. 406.
- A. Dominguez .. : Historia... P. 263, 264 No ta 38

(٢)ذلك وفقا لوثيقة رسمية فى Archivo municipal ، اطلع عليها السيد Garzon pareja
أنظر : A.Dominguez : obra citada, P. 264.

منهما مستقل عن الآخر الى أن ادركه مرض الموت (١) .

عند هذا الزمن كان قد نسى فى باقى اسبانيا أنه كان هناك موروسكيون يوما ما فى العالم ، اللهم الا فى بقعة هناك أو قرية اسبانية حيث كانت تعيش ذرياتهم . تحديد أعداد هذه البقايا دائما يصبح أمراً مستحيلا . كتب «براوديل» موجزا رأية حول هذه النقطة ، يقول :

لقد طرد كل الموروسكيين تقريبا من المدن ، وطرد بنسبة أقل الذين كانوا يقطنون الاماكن الاميرية ، أما الموروسكيون فى أراضى الاقطاع وفى المناطق الجبلية والفلاحون المتناثرون فقد طردوا لكن مع استثناءات أكثر(٢) . ويرى بعض الباحثين أن الموروسكيين فى المدن الكبرى ، كانت لديهم فرصة اكبر لتجنب الطرد ، فقد كان فى امكانهم الاختلاط بالطبقات الدنيا خاصة فى المدن الاندلسية حيث كان يجب على طوائف الصعاليك والغجر أن يستقبلوا عدداً غير قليل منهم . أما الموروسكيون فى المناطق الريفية فلا أحد ينكر أن السادة الاقطاعيين منهم . أما الموروسكيون فى المناطق الريقية فلا أحد ينكر أن السادة الاقطاعيين قد حاولوا الاحتفاظ بقسم منهم باعتبارهم من رعاياهم وقد نجحوا فى بعض الحالات ، ويبدو أنه ينبغى أن نفرق بصورة رئيسية بين موروسكيين لم يتم اندماجهم أو صهرهم وبين هؤلاء الذين كانوا فى طريقهم الى الانصهار فى المجتمع المسيحى ، وهؤلاء الاخيرون هم الذين حاولوا البقاء أو العودة ، وقد توج تصميمهم بالنجاح فى عدد من الحالات غير قليل (٣) .

أما فى مدن الجنوب الكبرى : اشبيلية وقادس ومالقه وقرطاجنة ، فقد امتزجت مشكلة الموروسكيين بمشكلة العبيد ، ولم يكن من السهل التمييز

---

(1)A. gallego Burin. Torcuato Ruiz del peral "Boletin de la universidad de granada, Julio de 1936.

(2)Braudl : la mediterrance ... 2 - ed XII, P. 130.

وانظر ص١٩٣ من الجزء الثانى من الترجمة الاسبانية

(3)Antonio Dominguez otiz : Historia ... P. 264.

بينهم فى كثير من الحالات ، وهذا هو سرّ الأخطاء المتكررة التى وقع فيها بعض الباحثين مثل تلك التى ارتكبها «فيرناندث وجونثالث حيث تبين كيف أن من بقوا على قيد الحياة من الموركسيين فى اشبيلية ، هم عبارة عن مجموعات بقايا المسلمين الذين كثرت شكاوى الناس منهم الى بلدية تلك المدنية ، فلنخصص لذلك الأسطر التاليات :

لقد كانت العبودية ظاهرة عادية فى اسبانيا آنئذ ، واذا حاولنا تحديدها فى نطاقها الجغرافى ، فاننا نقول انها كانت فى الجنوب ، وفى «لاكورت» . وفى بعض المناطق المنعزلة مثل بلنسية وصل الأمر أنها كانت ذات كثافة كبرى . لقد توزع العبيد بالتساوى تقريبا بين منطقتين ، وكان عبيد كل منطقة ، مختلقين تماما عن عبيد المنطقة الأخرى ، ليس فقط من الناحية الجسمية بل وفى الثقافة والسلوك : الافريقيون السود ، وهؤلاء منقادون ويقبلون الإنصهار فى المجتمع المسيحي ، وليس بينهم من رفض التعميد ، والمسلمون من أصل أبيض ، ومعظمهم من بلاد البربر ، ومن جنسيات مختلفة تابعة للامبراطورية العثمانية ، وهناك مسلمون اسبان ضرب عليهم الرق نتيجة للحروب والثورات المتفرقة . وفى سنة ١٦٠٩ كان لا يزال يوجد عدد ليس بالقليل من المسلمين الغرناطيين الذين أسروا قبل ذلك بأربعين سنة أثناء حوادث الثورة الغرناطية ، يضاف الى هؤلاء عدد قليل ممن استبسلموا بإرادتهم ورضوا بضرب الرق عليهم لتفادى الطرد ، وهناك من حصل على حريته بالعتق أو الفداء ، وهناك كثير من العبيد عاشوا حالة قريبة من الحرية ، فكان ملاكهم يتنصلون من رعايتهم والإنفاق عليهم ، فيطلبون منهم دفع مبلغ من المال بصفة دورية ، ويسمح لهم بالعمل باعتبارهم احرارا ، ويؤدون المبلغ المطلوب ثم يحتفظون ببقية دخولهم فهم عبيد مكاتبون ويمكن أن يحصلوا على الحرية اذا دفعوا الثمن الذى يحدده السيه فى مقابل عتقهم . وهؤلاء هم الذين كان يطلق عليه اسم «المسلمون المختونون – أو الخصيان» ، وكانت تكثر بينهم العادات السيئة كما كانوا يدفعون القسم الأكبر من الضرائب فى الأندلس .

لقد كانوا . لا بائسين قلقين يخضعون لمراقبة دائمة وهم موضع شك

باستمرار ، الشئ الذى جعلهم يحتجون لدى البرلمان اكثر من مرة . ففى سنة ١٦٢٦ قال نائب غرناطة أنها لكبيرة تلك العوائق التى أمام هذا العدد من المسلمين والمسلمات فى الأندلس ، إن بينهم من تعمد ، وكلهم خصيان ، ويدفعون لملاكهم بصورة دورية ، وكلهم يعملون فى مهن متواضعة بالمملكة ، فهم يبيعون القمح والخمر والمحفات ، ويحضرون العتلات (ادوات العمل) وهم حَمّالون يبيعون كثيرا من الاشياء التافهة ، انهم يعملون قليلا ويكسبون كثيرا وهذا الربح الكثير يمكن الواحد منهم أن يصبح حرا بعد سنتين اذا ما دفع ٢٠٠ دوكادوس ، ليس بينهم من يسهم فى اعمال الحقل ، ولا يؤمنون بالرعى ، وهذا هو الشئ الذى نعانى من نقص كبير فى رجاله ، كما انّهم على شئ من العبودية حتى لا يطردوا من البلاد كما يأمر القانون ، وقد أشار النائب المذكور الى أن المشكلة خطيرة بصفة خاصة فى منطقة «لوشة» ، وقد وافق البرلمان على بذل المساعى حتى لا يبقى مسلمون خصيان فى المدينة المذكورة (١) .

وعندما حددت المملكة سنة ١٦٢٨ الشروط المطلوبة من أجل تأجيل الضريبة على افراد الشعب ، تضمن ذلك أن الاندلس ليس به مسلمون مخصيون ، لا مع تعميد ولا بدون تعميد (٢) لكن لم يتخذ قرار فى هذا الصدد ، واستمر وجودهم بأعداد كبيرة حتى كان الاحتفال الذى انعقد فى ٢٠ سبتمبر سنة ١٧١٢ والذى أمر فيه بطردهم فى الحال الى بلاد الشمال الافريقى .

وفى سننة ١٦٢٥ صدر تقرير عن المسلمين الاحرار والعبيد فى اشبيلية(٣) ويشير هذه التقرير الى وجود عدد ضخم من المسلمين والمسلمات الذين كانوا قد اختفوا بعيداً داخل البلاد ، لأنهم كانوا ممنوعين من الإقامة

---

(1)Actass de las Corts, XIV, 222

(2)ID. id. tom XL VII

(٣) المخطوط رقم ١٨٧٥٣ بالمكتبة الوطنية بمدريد

Juan Baruzze

Probelemes

من قبل ذلك لخصه

Fernndez Gonzales : dhiatoire des religions P. 126 not

Moriscos que quedaron en espana despues de la expulsion. "Revista de espana" 1871.

فى بلاد السواحل البحرية ، لقد تجمعوا وعاشوا جماعات عديدة فى مساكن متجاورة متواضعة ، وتخصصوا فى التجارة واعادة بيع المواد الألية ، واتهموا بسرقة الاطفال بهدف تضليلهم وتعليمهم دين محمد صلى الله عليه وسلم . إنه من المؤكد أنه بين هذه الطبقة شبه الكادرحة . وجد مع العبيد الخصيان من المسلمين ، مورسكيون أحرار أمكنهم أن يخالفوا أمر الطرد وأن يتخفوا بين الجماهير فى الحواضر الكبرى . ويذكر «ليا» صورة نهائية للاسلام فى اسبانيا ، تتمثل فى اكتشاف مسجد مطمور فى «قرطاجنة» وفقاً لبيان صدر عن محكمة التفتيش سنة ١٧٦٩ ، ومن المؤكد تقريباً أن المورسكيين كانوا يترددون عليه ، بل كان يتردد عليه العبيد الذين كانوا يكثرون فى هذه القلعة (١) .

وهكذا استمر الوجود الاسلامى فى اسبانيا ، برغم قرار الطرد العام وما صاحبه من قسوة وصرامة وإهانات وتعذيب عند التنفيذ ، فقد تمكن البعض من الاختفاء هنا أو هناك ، وآلمهم أن يقضى عليهم بمفارقة وطن شهد مولدهم وعاشوا طويلا فى أرضه مستقرين . آلمهم أن يتحولوا الى مصير غامض ومستقبل مجهول ، وبعضهم عاد بعد فترة عانى خلالها من المعاملة السيئة والاستقبال البارد والسلوك القاتل الذى لقيه من إخوانه فى أرض المهجر ، فوق ما تعرض له من سلب ونهب واهانة ، كل هذا جعله يؤثر المغامرة ويرجع من حيث أتى ، متخفيا حيناً ، متعللا بعلل ترضى القوم حينا ، من اجل أن يضمن لنفسه ولأسرته الاستمرار والبقاء

ونحن مضطرون فى هذا الى الاعتماد على الرواية النصرانية وحدها اذا اننا لا نجد صدى لهذه الاحداث عند الرواية الاسلامية ، مثلها مثل كثير من الفصول الأخرى لآخر قصص الاسلام فى الأندلس ، وهذا لا يمنع من أن الاسلام ظل جذوة مشتعلة فى نفوس الكثيرين ، وظلوا يؤمنون به سرا ويدافعون عنه ما استطاعوا الى ذلك سبيلا فترات طويلة بعد طرد المسلمين من الأندلس ، تبرهن على ذلك الاحداث والروايات وقضايا محاكم التفتيش السابق الاشارة اليها فى مواطنها من هذا الفصل وغيره ، وآخرها هذا

(١) أنظر : lea : the moriscos P. 393

المسجد الذى شهد تردد المسلمين عليه للعبادة وأداء الشعائر حتى السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر ، وهذا ما يجعلنا نردد مرة أخرى ما ذكره الاستاذ محمد عبدالله عنان من أنه «من الصعب اعتقاد أن اسبانيا برغم ما ارتكبته من وسائل مغرقة فى الإجرام ، قد قضت نهائيا على آثار الامة الاسلامية ، فانه من المستحيل أن تجتث آثار السلالات البشرية خصوصاً متى لبثت آمادا متداخلة» (١) .

بعد هذا كله ، هل كان لهذه المشكلة وجود فى انتاج الإدباء ، خلال الفترة نفسها أو بعدها ؟ وهل عرف بين الموريسكيين أنفسهم من صار أديبا مشهورا انعكست أوضاع بنى قومه فى أعماله ؟ الفصل التالى محاولة فى هذا الاتجاه .

(١) أنظر : الآثار الاندليسة الباقية ٤٣٦ - ٤٤٤ كذلك نهاية الاندلس ٤٠٩ ، ٤١٠ .

الفصل العاشر

المورسكيون والإنتاج الأدبى

مرّ ما تعرض له المسلمون المنصرون من ضغوط لا تحتمل ، لجأت فيها السلطات الاسبانية الى كل الوسائل ما يخطر على البال وما لا يخطر ، بهدف حمل هؤلاء على التخلى عن دينهم ونسيان شعائرهم وعاداتهم ، ولكن ذلك كله لم يجد نفعاً بالنسبة للاغلبية الساحقة لهذا الشعب المضطهد ، فقد استمروا يزاولون الشعائر والعادات الاسلامية فى تكتم ، ويدونون احكام الاسلام والأدعية والمدائح النبوية فى لغة عرفت عنهم واختصت بهم هى تلك التى اصطلح على تسميتها بلغة «الالخميادو» Aljamiado وهو تحريف اسبانى للكلمة العربية «الاعجمية» ، وتعنى كلمات أو جمل قشتالية مكتوبة بأحرف عربية بحيث يصعب فهمها على المفتشين والمسئولين عن مطاردة هؤلاء المسلمين . وهذا يعنى أن العقيدة الاسلامية قد استقرت فى قلوبهم وان حملوا على التنصير فى الظاهر ، وقد وصف أحد المطارنة وضعهم هذا سنة ١٥٦٥ فقال :

أنهم خضعوا للتنصير ، ولكنة لبثوا كفرة فى سرائرهم ، وهم يذهبون الى القداس تفاديا للعقاب ، ويعملون خفية فى أيام الاعياد ، ويحتفلون بيوم الجمعة أفضل من احتفالهم بيوم الأحد ، ويغتسلون حتى فى ديسمبر ، ويقيمون الصلاة سرا ويقدمون أولادهم للتنصير خضوعا للقانون ، ثم يغسلونهم لمحو آثار التنصير ، ويجرون ختان أولادهم ، ويطلقون عليهم اسماء عربية ، وتذهب عرائسهم الى الكنيسة فى ثياب أوربية ، فاذا عدن الى المنزل استبدلن بها ثيابا عربية ، واحتفل بالزواج طبقاً للرسوم العربية ووفقا للشعائر الاسلامية» (١) .

وهناك وثيقة عربية هامة تؤكد قيام المسلمين المنصرين بأداء الشعائر

---

(١) أنظر - lea : the moriscos ... PP. 213, 214

Marmol - Historia ... libero II, capitulo l, PP. 128 - 129

وقد ذكر القس بدرو لونجاس فى كتابة عن حياة المورسكيين كثيرا من العادات والرسوم والآيات والمدائح النبوية مكتوبه بال[illegible] القشتالية ، راجع :

عنان : نهاية الاندلس ص ٣٧٨ ، ٣٧٩ .

الاسلامية خفية وتوضح كيف أنهم كانوا يبحثون عن الاعذار التى تبرر اضطرارهم لأداء الطقوس النصرانية علنا ، علّ هذا يشفع لهم عند ربهم ، هذه الرسالة عبارة عن وثيقة وجهها أحد فقهاء المغرب الى جماعة المسلمين المنصرين الذين يسميهم «الغرباء» ، يوجه اليهم فيها بعض النصائح التى تعاونهم على تنفيذ أحكام الاسلام فى السر والخفاء ، وهذه الوثيقة مؤرخة غرة رجب سنة ٩١ هـ (٢٨ نوفمبر سنة ١٥٠٤) (١) .

وتمسك هؤلاء المسلمين المنصرين بالاسلام وتعلقهم به وبتراثه وشعائره ، وإصرارهم على ممارستها سراً وتعليمها لأبنائهم ، تؤكده كذلك رواية معاصرة ، كتبها موركسى عاش فى «جيان» أو اخر عهد المورسكيين ثم هاجر الى تونس قبيل النفى العام ، حيث الف هناك كتابا بالعربية عنوانه «الأنوار النبوية فى آباء خير البرية» خصص فى نهايته فصلاً تحدث فيه عن المورسكيين وعن تمسكهم بالاسلام ، وأوضح قضية نفيهم من اسبانيا وما احاط بذلك النفى من ملابسات وأسباب (٢) .

ولم تكن السلطات الاسبانية تبغى فقط اجتثاث قيم الاسلام من نفوسهم ، بل كانت تريد القضاء على خصائصهم المميزة ، ونسف كل ما يربطهم بتراثهم الفكرى والأدبى ، والقضاء على لغتهم العربية ، ولهذا فليس عبثا أن القوانين التى بدأت تظهر اعتبار من سننة ١٥٢٦ ، أخذت تتوالى وتحرم عليهم المحافظة على العوائد الاسلامية ، وتمنعهم من الحديث او التخاطب ، فضلا عن الكتابة باللغة العربية ، ليس فى غرناطة وحدها بل فى أماكن تجمع هؤلاء المسلمين فى اراجون وغيرها وفقاً لما جاء فى بعض

(١) نشر الاستاذ عنان الوثيقة نفسها وقدم معلومات عنها ، أنظر : نهاية الأندلس ... ص ٤٠٣ ، ٤٠٧ .

(٢) نقل الاستاذ عنان هذا الفصل كاملا فى كتابه المذكور ص ٣٠٤ ، ٧٠٤ ، ومؤلف الكتاب هو محمد بن عبد الرفيع بن محمد الشريف الحسينى الجعفرى الأندلسى ، المتوفى سنة ١٠٥٢ (١٦٥٢) أى بعد النفى باثنتين وأربعين سنة ، ونسخته موجودة فى الخزانه العامة بالرباط ، المكتبة الكتانية رقم ١٢٣٨ ، ومذكور فى نهاية الكتاب أنه تم تحريره فى تونس سادس شعبان ١٠٤٤ (١٦٤٤) . ويشغل فصل المورسكيين فيه من ص ٣١٩ : ٣٣٦ ، وقد نقل الشاعر المغربى محمد بوجندار هذا الفصل بتصرف فى كتابه «مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح» الرباط ، ١٣٤٥ هـ ص ٢٠٠ - ٢١٤ ، انظر الاستاذ عنان : «المرجع السابق ، هامش ص ٤٠٣ ، ٥٠١ .

الوثائق [١] ، وبرغم هذا فقد استمر بعض المرسكيين فى كتابة النثر ونظم الشعر باللغة العربية ، فكتبوا مثلا قصيدة لا تخلو من روح شعرية الى السلطان بايزيد الثانى يلتمسون منه النجدة والغوث [٢] ، كما أخذوا يوجهون رسائلهم بالعربية الى المسلمين فى بلاد الشمال الافريقى ، وعندما أصدر فيليب الثانى سننتة ١٥٦٦ مرسومه الذى يحرم فيه كل الوان التعامل بتلك اللغة ، وتعسف واشتد فى تنفيذ ذلك المرسوم وجدنا العربية تشهد زفرتها الأخيرة ، ورأينا بعض المورسكيين يستخدمها فى القصائد الثورية السرية ، وربما كان خطاب مولاى عبدالله ، آخر زعماء الثورة الغرناطية ، يمثل المرحلة الآخيرة فى الخط البيانى المنحدر للغة العربية فى بلاد الاندلس ، فما لبثت أن اختفت كل مظاهرها وآثارها ، وفرضت القشتالية فرضا لغة للتخاطب وكل ألوان التعامل ، فلجأ المسلمون المنصرون الى نفس أبجدية اللغة القشتالية واتخذوها متنفساً للتعبير عن فكرهم وآدبهم وكتبوا القشتالية سرا بأحرف عربية ، وكان من نتيجة ذلك بمرر الزمان ، خلق لغة جديدة تختلط فيها الالفاظ العربية مع الكلمات الاعجمية مع كلمات اعجمية من لهجات بعضها قديم وبعضها معاصر ، خاصة اللغة الرومانية التى كانت لغة المستعربين ايام الحكم الاسلامى والتى كانت ذائعة فى الحواضر الاسلامية ويتكلم بها كثير من المنصارى المستعربين ، كما كان يتكلم بها الصقالبة فى البلاط وبعض علماء المسلمين ، وكثيرا ما استخدموها فى كتاباتهم العلمية واسموها اللغة «الليطينية» يعنى اللغة اللاتينية ، وتحتوى ابيات الزجل الاندلسى كثيرا من كلمات هذه اللغة خاصة عند ابن قزمان ، وكانت لغة الحديث فى غرناطة خليطاً من كلمات اللغة العربية الشعبية التى تسرب اليها كثير من الالفاظ الرومانية والقشتالية[٣] وكثير من كلمات لغة المورسكيين السرية استمدت من تلك القصة الغرناطية

(١) انظر : عنان : المرجع السابق ص ٤٩٤ وهامش «١» بنفس الصفحة .

(٢) انظر ص من هذا البحث .

(٣) انظر : - Ramon menendez pidal : origines del espanol PP. 418, 429 - 431.

عنان : نهاية الاندلس ص ٤٩٥ .

وقد استمر لغة «الالخيمادة» سرا غامضاً حتى عثر العلماء من الاسبان أوائل القرن الثامن عشر على مجموعة من المخطوطات المكتوبة بها ، وبدأت حولها الدراسات ، وظن أول الامر أنها كتابات بلغة شرقية قد تكون الفارسية أو التركية أو البربرية ، لكن بدأ التعرف على حقيقتها . وفي نهاية القرن التاسع عشر عرف أنها كتابات المورسكيين المضطهدين الذين استخدموا اللغة الرومانية . وقد عرفها «مننديث أى بلايو» بانها اللغة الرومانية القشتالية مكتوبة بأحرف عربية ، ويعلل المستشرق «سافدرا» قيامها بقوله إن الطابع الديني الذى كان يفصل بين المورسكيين وباقى الاسبان يطغى على أنتاجهم الادنى وكانما هو قرين طبيعى للمنتجات العربية ، فهم لكى يحتفظوا بجذوة حية من العقيدة المحمدية ، كتب العلماء والفقهاء كتبا عما يجب أت يعتقده وأن يحفظه كل مسلم حسن الايمان ، كتبوا عن صفات الله وعن بعض المسائل الفقهية وفقاً لمذهب مالك وكتبوا عن التاريخ المقدس ، والقصص الدينى ، وتعبير الرؤيا وغير ذلك . »(١) .

أما القرآن الكريم فقد كتبوه سرا باللغة العربية مع تفاسير وشروح الخميادية ، وكتبوا باللغة الجديدة هذه سيرة النبى صلى الله عليه وسلم وقصص الانبياء وبعض كتب الفقه والحديث النبوى ، وكانت البسملة والآيات القرآنية تكتب دائما باللغة العربية ، وكانوا يقومون بتشكيل ما كتبوه تشكيلا كاملا فى معظم الأحيان ، ليمكن قراءة المكتوبات قراءة صحيحة ومن بين المورسكيين شعراء وكتاب عبروا عن أفكارهم الادبية نثرا ونظما بنفس لغة «الالخميادو» ، ومن أشهر شعرائهم محمد ربدان (أو الراعى) وكان يعيش في أواخر القرن السابع عشر وأصله من «روطه خالوت» من «اراجون» ، وانتاجه الادبى يتراوح بين قصائد دينية وأخرى قصصية ، ومن آنتاجة فى القصص الدينى كتاب «هول يوم الحساب» وقصة النبى منذ بدء

---

(١) من كلمة القيت فى اكاديمية التاريخ الاسبانية بمدريد سنة ١٨٧٨ لـ E. Saavadra وانظر عنان نفس المرجع والموضع السابق .

وانظر كذلك : Anwar G. chejne : Islam and the west. the moriscos, acultural and social history, newyork 1983 P.43 yss.

الخليقة» وأغنيات دينية واسماء الله الحسنى وكلها شعر يتسم بالجزالة وسهوله الألفاظ ، ومن شعراء الموريسكيين ايضا ابراهيم دى بلفاد ، وخوان الونسو ومحمد الخرطوشى . ومنهم أديب مجهول عاش فى تونس اوائل القرن السابع عشر بعد مأساة الطرد من الأراضى الاسبانية ، وقد اشتهر بتعليقاته النقدية على مسرحيات الشاعر الاسبانى الكبير «لويث دى ڤيجا» .

ومن اشهر كتاب «الالخميادو» الكاتب الفقيه «فتى ابراليو» وله مؤلفات فى تفسير القرآن الكريم وفى القصص الدينى كما أنه لخص كتب السنة ، وقد جاب معظم أرجاء اسبانيا وشاهد عن قرب مصائب قومه وتحدث عنها ، وأخذ العلوم الاسلامية عن عالمتين بارزتين فى الشريعة هما «مسلمة ابده» «ومسلمه آبله» .

وقد أولى الموريسكيين كتابة القصص عناية خاصة ، ولهم فى ذلك اعمال منها «حديث القصر الذهبى» «وكتاب الحروب» وحديث على والاربعين جارية» أما كتاب «قصة الاسكندر ذى القرنين» فهو من أعظم انتاجهم الحماسى القصصى ، وهو إشاده بالاسكندر ، لأن قصته قد ذكرت فى القرآن الكريم ، ولأنه قد بعث ليحارب ملوك الارض ، ويحطم الاصنام ويقضى على عبادها .

وتعتبر المدائح النبوية والأدعية من أشهر ما كتبه الموريسكيون ، وان كان الاهتمام بكتابة المدائح النبوية باللغة القشتالية يرجع الى فترة أسبق ، فقد كتب المدجنون مدائح بهذه اللغة فى القرن الثالث عشر ، ثم انتشرت بين طوائف هؤلاء فى مختلف مدن قشتالة وأراجون ، بعد ذلك تناول الموريسكيون نفس الموضوع وكتبوا حوله بلغة «الالخميادو»

ومن يرجع الى انتاجهم يرى أن كتاباتهم وتفكيرهم كان يغلب عليها الطابع الغربى وان عبروا ذلك بالقشتالية العربية كما يرى أن الغالب عليه هو التأثر بلهجات المقاطعات المختلفة أكثر من التأثر بقواعد اللغة . ويرى النقاد أن نثر كتاب «الالخميادو» أفضل من نظمهم ، وانه نثر لا تكلف فيه ، وأن الالفاظ العربيه الصحيحة تتسرب اليه من آن لآخر ، وأنه يعنى فى الدرجة ' ربى بتقديم التاريخ والتقاليد العربية فى إطارديني ، أكثر من

عنايته برونق الاسلوب وجمال الالفاظ ويغلب عليه الضعف والركاكة ، وهذا لا يمنع وجود انتاج يتميز بالطلاوة ويصل الى مرتبة البلاغة كما هو حال الشعر عند محمد دبدان (الراعى)(١) ، وليس المهم فى هذا الادب الموسكى قيمته الادبية ، وانما قيمته الاجتماعية ، لأنه يوضح كثيرا من عادات وتقاليد هذه الشعب المنكوب ، الذى ترك آثاره على كثير من المظاهر الثقافية فى اللغة الاسبانية وفى الشعر الاسبانى وفى الافكار الدينية وغير ذلك .

وقد عرض غير واحد من الكتاب للادب المورسكى ، وأوضحوا ما فيه من شاعرية وخيال وذوق سليم . وعلق «برونات» على اختفاء هذا الشعب ، معترفاً بقيمة أدبهم وما كان لهم دور فى المجتمع الاسبانى ، فقال : «ان السياسة الاسبانية لم تكتف بنفى المورسكيين وما ترتب عليه من نضوب حقولنا ومصانعنا وخزائننا ، ولم يقتصر الأمر على أنتصار التعصب وبربرية ديوان التفتيش ، بل تعداه الى اختفاء الشعر ، وشعور الجمال المورسكي والادب السليم الذى رفع سمعة تاريخنا ... لقد أختفى بطرد المورسكيين الادب المعطر ، والشاعرية الشعبية ، والخيال الممتع ، ومصدر الوحى الذى كانوا يمثلونه ، وقد غاص باختفائهم من شعرنا هذا التلوين والفن والحيوية والالهام والحماسة التى كانت من خواصهم ، وحل محلها الظلام فى الأفق الأدبى خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر(٢) .

وفى المكتبة الوطنية بمدريد كثير من الكتب والوثائق المكتوبة باللغة «الالخميادية» منها كتب فى الفقه ، وكتب فى الادعية والصلوات ومعظمها يفتح بالبسمله والصلاة على رسول الله . وتوجد وثائق تبدأ بالبسملة ثم يتخللها ذكر الله والصلاة والسلام على نبيه صلى الله عليه وسلم .

ومن كتب الادعية هذه مخطوط تدل عبارته الختامية على ان اللغة

---

(١) راجع

- Menendez y pidal : Historia de las Heterodoxes capanoles
- Esaavedra : Ibed, PP. 345 - 349

والموسعة الاسبانية العامة ، كلمة Aljamia

وعنان : نهاية الاندلس : ٤٩٤ - ٤٩٨ .

(2) Boronat y Barrachina, P. los Moriscos ... II, PP. 384 y siguente.

العربية كانت مازالت موجودة وتستعمل سرا الى أواخر القرن السارس عشر وأن ضمت كثيرا من الاخطاء

«أفرغ للعبد من الله تعالى المعترف بذنبه ، الراجى غفران ذنبه ، على بن محمد بن محمد بن شكار من بلاد مزما ذيانتى ، اليوم الآخر من جمادى الثانى يوم اربعة ولعشرين من شهر ماروس من يوم من ثلاث منه عام ثمانية وتسعين تسع مائه من الحجزة النبى صلى الله عليه وسلم ، ولعددا من المسيح منه عام وتسع وثمانين الف وخمسمائة آمين آمين يارب العالمين ، تمت بحمد الله وحسن عونه ، وكان الفراغه ثم صلاة العصر »[1] (هكذا) .

ومن بين كتب الادب المورسكى قطعة مخطوطة من كتاب لمؤلف مجهول عنوانه «قصيدة يوسف» وهو يحكى حياة سيدنا يوسف عليه وعلى نبينا السلام فى أسلوب شعرى[2] .

وهناك ايضا كتب دينية كثيرة فى السيرة النبوية والتفسير والحديث . وهذه الآثار الدينية حول التعاليم الاسلامية وسيرة النبى صلى الله عليه وسلم ، كثيرا ما تضم بعض التعاليم النصرانية مختلطة بتعاليم الاسلام ، وأحيانا تعرض المثل الاسلامية فى صوره مثل مسيحية ، بل قد تقدم بعض جوانب النبى محمد صلى الله عليه وسلم فى صورة المسيح ، ومردّ ذلك تلك الظروف التى كان يعيش الشعب المورسكى فى ظلها والمطاردة التى كانت تضغط بثقلها عليه ، ومحاكم التفتيش التى لم ينقطع عنه عسفها وفداحة جورها وظلمها ، وهذه الآثار الدينية المورسكية يستشف منها كراهية هذا الشعب للطقوس وتقاليد النصرانية المفروضة عليه ، واذا كانت بعض تعليماتها قد تسربت الى ما كتبوه ، فذلك سببه ظروف العصر التى قضت عليهم بالابتعاد عن تعاليم دينهم القديم شاءوا أم أبوا .

---

(١) المخطوط رقم ٥٣٠٦ ، فى فهرس المخطوطات العربية بمكتبة مدريد الوطنية .

(٢) مخطوط المكتبة الوطنية بمدريد رقم R. 247 ، ومنه قطعة بمكتبة اكاديمية التاريخ فى مدريد مجموعة جاينجوس ، وقد وضع المؤرخ مننندث بيدال كتابا نقديا عن هذا المخطوط نشر فيه النص الالخميادى مع تخريج اسبانى بعنوان :

La pocma de yusuf, Granada 1952.

انظر : عنان : نهاية الاندلس ص ٥٠٠

وفى أواخر القرن السادس عشر ، عثر بدير «ساكرومونتى» بالقرب من غرناطة ، على مجموعة من ألواح الرصاص عليها كتابات دينية بالاتينية تدور حول حياة الرسل والمسيح وامه عليهما السلام ، وحول بعض القواعد الاسلامية ، وتمتزج فيها التعاليم الاسلامية بالتعاليم المسيحية ويرى بعض الباحثين أن هذه الالواح كتبها المورسكيون فى محاولة من جانب علمائهم لإيجاد حل وسط يوفق بين الاسلام وبين المسيحية بحيث يكون هناك شئ مشترك مقبول من كلا الجانبين ، وقد حملت هذه الالواح الى «روما» وترجم القسم اللاتينى منها ، وانتهى رأى الفايتكان الى أنها أوهام وخرافات ترمى لمسخ الدين المسيحى(١)

ومن بين الكتب المفيدة ، مخطوط حول رحلة جرت فى القرن السادس عشر ، يشتمل على بيان أحد الطرق التى سلكها المورسكيون أثناء هجرتهم ، وهو متضمن فى مخطوط «الخميادو» محفوظ فى المكتبة الوطنية بباريس وقد عرف به المستشرق» سلفسترى دى ساس» فى القرن التاسع عشر وأعيد طبعة فى Geographical review, New york Julio 1939 ثم نشر مرة أخرى فى Estudios gragraphical. VII, 1949. P. 136 - 141(٢)

وهناك كتاب مورسكيون غادروا اسبانيا قبل النفى ، وكتبوا بالعربيه بعض ما أنتهى الينا من آثار . من هؤلاء كما سبقت الاشارة ، محمد بن عبد الرفيع الحسينى الاندلسى الذى هاجر الى تونس وكتب كتاب «الأنوار النبوية فى آباء خير البرية» .

ومنهم أيضا احمد بن القاسم بن احمد الفقيه قاسم بن الشيخ الحجرى ، ويعرف بالشهاب الحجرى كما يعرف بـ «افوقاى» ، وهو من ضواحى غرناطة ، وقد تمكن من مغادرة الاندلس عام ١٠٠٧هـ (١٥٩٨م) يعنى قبل النفى بحوالى ثلاثة عشر عاما ، وقد ترجم كتابا بعنوان «العز المنافع ...» روى فى آخره قصة فراره من اسبانيا فقال :

(١) انظر : Menendez y pidal : Historia de los Heterodoes capanoles, P. 354
وعنان : نهاية الأندلس ص ٥٠١
(٢) أنظر : A. Dominguez : Historia ... P. 229

« اعلم أن أول ما تكلمت به ببلاد الاندلس كان العربية ، وكانت النصارى - دمرهم الله - تحكم فيمن يجدوه يقرأ العربية فتعلمت القراءة الاعجمية للأخذ والأعطى ، ثم الهمنى الله أن اخرج من تلك البلاد الى بلاد المسلمين لما تحققت أن الكفار كانوا فى الثغور يبحثون عن كل من يرد عليهم لعلهم يجدونه اندلسيا مخفيا ، ليحكموا فيه ، لأنهم كانوا منعوهم من الثغور لئلا يهربوا الى بلاد المسلمين ، فجلست سنين أتعلم الكلام والأخذ فى كتبهم ليحسبوا أنى منهم ، اذ أمشى الى بلادهم للخروج منها الى بلاد الاسلام . ولما أن جئت الى البلاد التى هى حاشية البحر حيث هو الحرس الشديد ، وجلست بينهم ، فلم يشكوا فىّ بما راوا منى من الكلام والحال والكتابة وجئت من بينهم الى بلاد المسلمين ، وبهذه النية تعلمت وبلغت فى كتبهم ، ولكل امرئ ما نوى . ثم رأيت أن بسبب التعليم انه كان بنية القرب من الله ببلاد المسلمين ، فتح الله لى بذلك العلم المنهى عنه ببيان الملوك المسدودة عن كثير من الناس . » .

وقد اتصل الشهاب الحجرى عقب وصوله الى المغرب بالسلطان احمد المنصور ملك المغرب آنئذ ، واشتغل مترجما للبلاد فى عهد المنصور وولده السلطان مولاى زيدان المتوفى ١٠٣٧ هـ (١٦٢٧م) ، فقد كان يجيد العربية والاسبانية معا ، وقد عمل فى سفارات للسلطان لدى البلدان الاوربية ، وفى اواخر حياته رحل الى المشرق وأدى فريضة الحج ، وعند رجوعه نزل بتونس وقربه اميرها يومئذ الداى مراد ، وتوثقت الصداقة عندئذ بينه وبين مهاجر اندلسى هو الرئيس ابراهيم بن احمد بن غانم بن محمد بن زكريا الاندلسى ، وكان أحد زعماء الجند - فيما يبدو - وقد الف كتابا بالاسبانية حول فن الجهاد بالمدافع ، فترجمه الشهاب الحجرى الى العربية وسماه : كتاب العزو الرفعة والمنافع للمجاهدين فى سبيل الله بالمدافع » ولقب نفسه على صفحة العنوان بلقب «ترجمان سلاطين مراكش» والكتاب عبارة عن خمسين باباً فى وصف البارود والآلات الحربية القاذفة ، وتركيب المدافع

وأنواعها ووصف أدواتها وطرق تعميرها والرمى وغير ذلك ، ويتخلل ذلك رسوم توضيحية تبين اجزاء المدفع(١) .

وفى الكتاب المذكور اشارة الى المقرى والى كتابه نفح الطيب يقول :

«وقد صح من كتب التواريخ التى جمعها العلامة الشيخ احمد المقرى فى كتابه بمصر ، فى الكتاب الجامع للتواريخ على بلاد الاندلس ، اعادها الله الى الاسلام» ولا غرابة فقد تعاصر الرجلان وقد يكون الشهاب الحجرى قد لقى المقرى بمصر خلال مروره من هناك فى طريقه للحج أو عوده منه ، وقد يكون ذلك حوالى ١٠٤٠ هـ قبل وفاة المقرى بقليل .

وللشهاب الحجرى كتاب آخر عنوانه «رحلة الشهاب الى بقاء الاحباب» ، وربما كان يقصد بالاحباب أخوانه المسلمين فيما وراء البحر بالأراضى المغربية ، ولم تصلنا هذه الرحلة ، ولكنها عرفت من خلال نقول أقتبسها منها بعض المتأخرين من المغاربة ، وقد نقل صاحب كتاب نزهة الحادى نصا عن الشهاب يوضح أحوال اسبانيا يومئذ جاء فيه :

« إن جزيرة الاندلس ، استردادها من ايدى الكفار سهل ، واسترجاعها منهم قريب ، ولما دخلت فى ايام المنصور مراكش ، وجدت عنده من الخيل نحو من ستة وعشرين الفا ، فلو تحركت هذه لفتحتها ، ولا استولى عليها فى الحين(٢) .

وليس هذا كل انتاج الشهاب الحجرى ، فله كتاب آخر ألفه عقب عوده من رحلة الحج عنوانه «ناصر الدين على القوم الكافرين» فَنّد فيه عقائد النصارى وانتصر لمبادئ الاسلام .

لقد كان انتاج القوم وفيرا ، وتناوله بشئ بالتفصيل يطول ، ويخرج بهذا البحث عن الإطار المحدد له ، وحسبنا أن نشير الى انه قد اكتشفت

(١) توجد لهذا المخطوط اكثر من نسخة ، واحدة منها بخزانة الرباط تحت رقم ٨٧ ج ، مذكور فى صحفة عنوانها انها من تأليف الرئيس ابراهيم بن غانم بن محمد بن زكريا ، كتبه بالأعجمية وترجمه له الى العربية ترجمان سلاطين مراكش احمد بن قاسم بن احمد الحجرى الأندلسى ، وهناك نسخة أخرى بدار الكتب المصرية ، الخزانة التيمورية رقم ٩٧ فروسية وثالثة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٧١ فنون حربية .

(٢) ابو عبد الله محمد اليفرنى : نزهة الحادى بأخبار ملوك القرن الحادى طبع فاس ، ص ٩٩

ايضا : عنان : نهاية الأندلس ص ٥٠٣

مكتبة سنه ١٨٨٤ فى Almonacid de la sierra بالقرب من سرقسطة تضم كتبا مؤلفة فى حوالى مائة موضوع ، باللغة العربية ولغة الالخميادو وتدور حول موضوعات دينية وترجمات لبعض كتب النحو العربى وغير ذلك(١) ، وهناك مئات الكتب والوثائق مكتوبة بلغتهم محفوظة فى دور المخطوطات بسمنقة وطليطلة واراجون وبلنسية وقادش وقونية ومدن اسبانية آخرى ، وقد جمع العالم الاسبانى «جاينجوس» مجموعات ضخمة من انتاجهم محفوظة الآن فى مكتبة اكاديمية التاريخ بمدريد وفى المكتبة الوطنية بنفس المدينة . وقد درس العالم المذكور هذه المخطوطات ونشر مقالاً للمرة الأولى عن لغة وأدب المورسكيين سنة ١٨٨٩ ، وصف فيه طبيعة ومضمون الادب الالخميادى وأصوات لغة وطريقة القوم فى الكتابة ، ثم نشر نفس المؤلف كتابين احدهما لمجهول والآخر لعيسى بن جابر ، كلاهما يتكلم عن مبادئ وعقيدة الاسلام ، ثم نشر «تكنور» شعرا فى مدح النبى محمد صلى الله عليه وسلم وآخر يذكر قصة سيدنا يوسف ، ضمن كتابه «تاريخ الادب الاسبانى» ، وفى نفس الوقت ذكر «فيرناندث وجونثالث» بعض وثائق الالخميادو فى كتابه عن «المدجنون فى قشتاله» ، وما لبث أن جذب الموضوع علماء من غير الاسبان ، فنشر «ميلار» فى المانيا سنة ١٨٦٠ ثلاث قصائد اعتمادا على المخطوط رقم ١٨٨٠ فى مكتبة الاسكوريال ، فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم والثناء على الله والحديث عن الشعائر الاسلامية ، ونشر «مورفى» قصيدة يوسف بالانجليزية ، كما عرف بشعر محمد ربدان

،لكن اعظم الناس اهتماما بالادب المورسكى فى القرن التاسع عشر هو المهندس المستعرب «سافادرا» تلميذ جاينجوس - وكلمته التى القاها عن «الادب الاخميادو» سنة ١٨٧٨ أمام الاكاديمية الملكية الاسبانية تضمنت حقائق عالية القيمة فيما يتعلق بشكل ومضمون هذا الادب وقد الحق بكلمته وصفاً لـ ١٣٦ مخطوط الخميادو ، عثر عليها فى مجموعات خاصة بمكتبة مدريد الوطنية ومكتبة الاسكوريال والمكتبة الاقليمية بطليطلة

(١) انظر : Ialam and west : the moriscos ... P. 33

ومكتبة كنيسة «البيلار» بسرقطة ، والمكتبة القومية بباريس ومكتبة جامعة «اوبّاسلا» ومكتبة المتحف البريطانى ومكتبة جامعة «بولوجنا» ، ومكتبة اكاديمية التاريخ بمدريد التى تحفظ فيها مجموعة «جاينوجوس» ثم ذلك تلا نشره للكتابين : رواية حب The narration of zariebe والثانى بعنوان : Story of the city of alaton وموضوعه بطولة الامام على ابن عم النبى محمد صلى الله عليه وسلم . بعد ذلك نشر «جيلين روبلس» كتابا عن «أساطير مورسكية» فى ثلاثة مجلدات اعتمادا على مخطوطات مختلفة ، ونشر قصة يوسف وقصة الاسكندر ، وأعد فهرسا للمخطوطات من هذا النوع فى مكتبة مدريد الوطنية ، ثم تتالت الابحاث التى اهتمت بالقوم وأدبهم والتى اشترك فيها كبار المستشرقين الاسبان والامريكان والفرنسيين والالمان والانجليز من امثال مييندث بيدال ومينوى وزترستين وجونثالث بالنثيا ولوبجاس .. وهرفى وباريخا وجالمس وبيريث وكاردايلاك وكونتزى وكلينيك وشيخنى الخ ..

ولعل أحدث دراسة إعدت حول الادب المورسكى ، واستفادت من كل الدراسات السابقة وقدمت هؤلاء المسلمين المنصرين وما عندهم من خلال ما كتب عنهم ، هى تلك الدراسة التى أعدها الباحث الامريكى الاستاذ الجامعى انور. ج . شيخنى ، المنشورة سنة ١٩٨٣ ، فقد اعتمد على حوالى ستين مخطوطا مكتوبة بلغة «الالخميادو» ومحفوظة فى المكتبة الوطنية بمدريد ومكتبة اكاديمية التاريخ ومكتبة القصر الملكى ومكتبة معهد آسين بلاثيوس بنفس العاصمة ، وانتهى الى أن هذا الادب يدور في معظمة حول المسائل الدينية ولهذا فقد كانوا يحرصون على اخفائه دائما عن أعين السلطات بوضعه بين جدران المنازل أو اسقفها ، فهذا الانتاج يتضمن القرآن الكريم وتفسير القرآن العظيم وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم والعقائد الدينية والايمان بالله ومسائل الفقه والعبادات ومعراج الرسول وحياة النبى صلى الله عليه وسلم باعتباره قدوة فى السلوك والصبر والتحمل ، وذلك للنجاة يوم العرض على الله ، كما يعرض مسائل مثل دفن الموتى ووجوب الجهاد فى سبيل الله تعالى ووجوب اتباع اوامر الله واجتناب منهياته

، وهناك مخطوطات مورسكية تعالج موضوعات فى الجدل الدينى من أهمها ما نشره المتشرق كارديالاك وموضوعات تاريخية خاصة بعد فتح العثمانيين للقسطنطينية وتقدم العثمانيين لحصار «فينا» سنة ١٥٢٩ واعتبار ذلك عقاباً من الله لهؤلاء الكافرين ، ومنها ما يتناول تاريخ خلق العالم وتاريخ ما قبل الاسلام وايام العرب فى الجاهلية وحياة النبى صلى الله عليه وسلم ونسبه وأجداده ونبوته وفضله على رسل الله الآخرين ومعراجه الى السماء ولقائه بالرسل ووصف العالم الآخر ومافيه من جنه ونار ونعيم وعذاب وملائكة وحضوره وشفاعته يوم القيامة ، وتاريخ بعض الشخصيات الاسلامية مثل تاريخ الخلفاء الراشدين وسيرة عمر وعلى وما قدمه من أمجاد ، وخالد بن الوليد وفاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم وبلال والحجاج وبعض قصص السابقين مثل قصة الاسكندر ذى القرنين وسليمان وقصص بعض الانبياء وبعض قصص الحب وأدب الرحلات ، وفى بعضها حديث عن نبوءاتهم وعن بعض علومهم ومدارسهم وخاصة الطب واختلاطه عندهم بالسحر . وبعض انتاجهم يدل على انهم استفادوا من الادب الاسبانى

وللقوم انتاج شعرى يدور حول نفس موضوعات نثرهم فيغلب عليه الطابع الدينى ويتناول الحديث عن الذات الالهية والحب فى الله ومدح النبى محمد صلى الله عليه وسلم والتوسل بشفاعته وقصة يوسف ومدح الاسلام والحديث عن العبادات الاسلامية والمراثى وتمجيد مآثر الامام «على» ونسبه وشجاعته ، وهناك قصائد لشعراء مجهولين وأخرى لمهاجرين أبرزهم ابراهيم بولفاد وخوان الفونسو ومحمد ربدان ولا تعدم بين المؤلفين المورسكيين من كان متعاوناً مع السلطة الرسمية مثل خوان اندرس ونونيث مولى وكلاهما اعتنق المسيحية ودافع عن مبادئها ، ومثلهما الونسودى كاستيو ومجيل لونا ، وقد عرف كلاهما العربية والرومانسية وعمل مترجما لدى محاكم التفتيش كما عمل كلاهما مترجما لدى البلاط ودعا فى كتاباته الى التسامح بين المسلمين والمسيحيين (١) .

---

(١) أنظر : Anwar G. chejne : Islam and the west : the Moriscos
حيث يذكر نماذج لشعراء مختلفين مع ترجمات انجليزية لها ، انظر مثلا ص ٣٥ مين ص ١٦٥ وانظر ص ٢٩ ، ٣٠ .

لقد عاش هؤلاء المورسكيون اكثر من مائة سنة فى شكل مجموعات مضطهدة ، وقامت محاكم التفتيش معهم بأسوء دور عرفه تاريخ العالم كله وكان فوق كل خيال للدرجة التى جعلتهم يصورونها فى كتبهم بأنها محكمة الشيطان ومستشاروه فيها الغش والعمى ، ويتحدثون فى بعض المخطوطات عن قضاة هذه المحاكم فيرمونهم بالكفر ، ويرون انهم بأسلوبهم الشيطانى اتباع ابليس أو هم قضاة الارواح ايضا يضايقونها من الخارج للوصول الى شرورهم الشيطانية بلا مبرر .. (١)

ومن بين الدراسات القيمة التى أعدت قديما ، تلك الدراسة التى أعدها الباحث الاسبانى «اوليفرآسين» بعنوان «مورسكى من تونس معجب بلوبى» الشئ الذى يؤكد ما أشرنا اليه آنفاً من أن القوم واصلوا كتابة «الالخميادو» فى بلاد المهجر ، ويذكر المستشرق المذكور - بين كتاب آخرين - اسم «عبد الكريم بن على بيريث» الذى كتب ١٦١٥ كتابا يدافع فيه عن الاسلام ويتضمن تشهيرا واضحا بمحاكم التفتيش وأعضائها ، وكذلك المورسكى الطليطلى «خوان بيريث» الذى تسمى باسم «ابراهيم طبيلى» عند استقراره فى «تيستور» بتونس وكتب اشعارا حول الجدل الدينى تبرهن على معرفة محدودة باللاتينية وبالمؤلفين الكلاسكيين وإن كان يميل نحو اتجاه مدرسة النهضة الشعرية فى قشتاله ، وهناك فقرة عجيبة عند هذا الكاتب تدل على أنه عرف «كيخوتى» فى نسخة تسبق أقدم النسخ المعروفة حتى اليوم ، وهناك أيضاً شاعر من أصل ارجونى اسمة «آس محمد روبيو» ..

وكان للمورسكيين المهاجرين بعض الالهامات فى الادب القشتالى ، كما تداولوا قصائد رومانسية وأشعاراً «لجارثيا لا سو وجونجورا ولوبى» ، حسبما يذكر «أوليفر آسين» وكان هذا الانتاج يقرأ فى تونس ، باعتبارها العاصمة الثقافية لكل المورسكيين فى بلاد البربر ، فهناك كانت تقرأ اعمال أدبية وافدة من الجزائر مثل أشعار ابراهيم دى بولفاد ، وأخرى وافدة من المغرب مثل عمل بعنوان «موقف معارض للقانون المسيحى» لمحمد

(1) L. ardaillac : la polemeque anti - chretienne du manuscrit du aljamiado N. 49444 de la bilbiothcque nationale de Madrid . ejemplar mecanografiado, tomo I, 200 - 201
A. Dominguez otiz : Historia ... P. 103.

الجوازير الوزير) وهو موريسكي من «باستراناً» (١)

هذه نبذة سريعة حول مالهؤلاء الموريسكيين من انتاج ، أما صورتهم من خلال أعمال أدبية كتبها غيرهم ، فإن تفرد وضعهم كان سبباً في أدب وفير يدور حولهم ، وان كان ليس سهلا أن نميز فيه الحقائق من المبالغات التي سببها الحقد العام (٢)

إن صورة هؤلاء المنصرين من المسلمين تبدو واضحة في كثير من الاعمال الأدبية ، فمثلا «لوبى رويدا» في الكوميديا المسماه «ارميلينا» يتحدث عن إيمانهم بالسحر وعن حرصهم على اقتناء الكتب المليئة بالوصفات السحرية ، ليس فقط للحصول على مكاسب ، لكن لأهداف لها صلة بالجانب الاخلاقي أو القانوني ، لقد أبرز هذا المؤلف احدى شخصياته وهي تتحدث لغة «الالخيمادو» على سبيل السخرية ، وأظهرها تستخدم رقى قديمة يحتمل أن تكون مجدية . (٣) ونجد خصائص اكثر غرابة عند بطل كوميديا «رويث دى الاركون» التي عنوانها « من يمشي بطريقة سيئة ينتهى نهاية سية » ، رغم انه اكتشف أن كاتب المسرجيات ينبغي أن يستلهم ساحرا موريسكيا عاقبته محاكم التفتيش كي يصور لنا صورته (٤)

لقد طال اضطهاد المسلمين المنصرين ، فتوهموا أن النبوءات وضربات الحظ يمكن أن تفيدهم في شئ ، وكان ايمانهم بالجبرية سبباً في رسوخ ذلك عندهم كما كان سببا في معارضة القساوسة المسيحيين المدافعين عن حرية الكنيسة وعندما قل العلماء العارفين بالدين الاسلامي فان عجوزا كان بإمكانه أن ينعش العقيدة العامة عن طريق رواية حكاية قديمة . لقد انتشرت النبوءات والكتابات الصوفية كثيرا في زمن فيليب الثاني ،

(١) أنظر : - olivar Asin ; Jaine : un morisco de tunez Admirador de lope Al-Andalus, I, 1933, PP. 413 - 418

- A. Dominguez : Historia ... 243

(٢) أنظر : انطونيو دو منجيث : المرجع السابق ص ١٩٢ .

lope de Rueda, I , PP. 129 - 134 Escano IV

(٣) أنظر :

Ruiz de alarcon, P. 211 - 228,

A. Gonzalez palencia : losfuentes de la comedia " quien mal anda, mal acba, XI, PP. 199 - 222

والصفحات من ٢٤٧ - ٢٧٤ مفيدة لدراسة موضوع الدجل والشعوذة والسحر .

وهناك العديد من ذلك نجده متضمنا فى الوثائق العربية والرومانسية التى شرحها «الونسو دى سيتا» بأمر من الرئيس «ديسا» إنهم يسمونها «خوفورس» ، وقد ترجم «مارمول» بعضها الى اللغة القشتالية ، وإن كان قد اخطأ ، لأن من نسخوا الاصول الغربية لم يعرفوا قواعد هذه اللغة جيدا . والواقع أن «مارمول» نفسه يشير الى أن الموريسكيين الغرناطيين فى زمنه لم يستفيدوا من هذه الكتابات الأخفية ، وهكذا لا ينبغى أن نصدم إذا عرفنا أن نفس «ابن امية» - الذى عين خليفة إبان الثورة الغرناطية - لم يكن يعرف من العربية اكثر من توقيع ردئ بها ، وأن الوظائف والمراكز التى كانت تتطلب تنظيما عاليا كانت فى حالة تدهور . (١)

أما كوميديا «لوبى» فتشير الى ما يحرمه الموريسكيون على أنفسهم من أكل لحم الخنزير وقد ، جاء فيها ، على لسان بعض الشخصيات : «لابد من تعليق فخذ الخنزير حتى يهربوا» (٢)

أما «أثنار كاردونا» فقد لفت النظر - بأسلوبه المتميز - الى منافشات جرت مع الموريسكيين فى منطقة «أراجون» حول تحريم شرب الخمر وأكل لحم الخنزير ، حيث ذكر هؤلاء أن ذلك أمر لا بد منه لحفظ الصحة نفسها (٣) .

كذلك لاحظ «لوبى دى فيجا» فى مواضع عديدة أن الموريسكى يتميز بأنه ينطق العربية وأنه يتحدث ايضا «الالخميادو» يعنى اللغة الرومانسية مع نبرة ونطق خاص (٤) ونجد نفس الملاحظة عند كتاب معاصرين ولاحقين

---

(١) انظر :

Marmol carvajal ; luis : Historia libro111 capitula III PP. 177 y siguiente
julio cara Baroja : los moriscos ... 128 - 129.

وقد ذكر أنور . ج . شنخى بعض النبوءات فى كتابة بالانجليزيه السابق ذكره ، انظر ص ٢٦ : ٢٨ .

(2) Miguel Artigo Don luis de congora y Argote, P. 367 - 370

(3) Azmar Cardona, pedro : expulsion... Folia. 34.

(٤) نجد نصوص تعبر عن ذلك فى : «القروية من ختيافى»

la Villana de Getafe

وانظر :

Julio. C. Baroja : las moriscos ... P. 133.

وما عنده من مصادر

له قاموا جميعا بتقليد حديث المورسكيين الاندلسيين للسخرية منهم والاستهزاء بهم ، ويمكن أن نذكر بين ذلك عملا شعريا أدبياً للشاعر «لويس جونجرا» ولهذا العمل قيمة خاصة ، لأن مؤلفة كان قرطبيا ، ولا يستبعد أنه كانت له علامات طيبه مع المورسكيين ، ويتميز بعبقريته اللغوية واستخدامه لجمل وكلمات عربية ، ويعكس عمله بعض الملامح الصوتية التى تشبه فى بعض مظاهرها أصوات اللغة القشتالية التى يتكلمها أهل المغرب الآن ، ومن الممكن ملاحظة الظواهر الصوتيه الآتية :

(١) تحويل الصوت	LL الى	Li
(٢) تحويل الصوت	N الى	Ni
(٣) تحويل الصوت	i الى	E
(٤) تحويل المركب	Ue الى	O
(٥) تحويل المركب	ie الى	E
(٦) تحويل المركب	U الى	O

ويشير الى أنهم يستخدمون المصدر كثيرا ويخلطونه باسم الجنس(١)

وكل المؤلفين الذين كتبوا روايات هزلية حول المورسكيين مثل «كولديرن» فى مسرحيته الكوميديه المشار اليها سلفا ، أو «لوبى» الذى لابدّ أن يكون قد كتب فى شبابه عن «سان دياجودى القلعة» أو «فراى انطونيو دى كوابارا» أو مؤلفون آخرون أقل من حيث الدقة والأهمية مثل «كيبيدو» أو «دونيا آناكارو» أو «ميشيل دى كاباخال» أو لويس اورتادو» ...

كل هؤلاء يصرون على ملامح مشابهة ، كما يصر البعض على أنه مما يميز المورسكيين قلب الصوت P الى B ، وهذا يمكن ملاحظته بسهولة فى «بلنسية» ، وهناك شئ يبرزه الجميع ويتفقون عليه ،فهو واضح تماما عند كل من درس هذه الظواهر عند المورسكيين ، هو تحويل الصوت فى اللغة الاسبانية القديمة الى S أو حرف «السين» فى اللغة العربية ، ووفقاً للعالم اللغوى «الدرينى» ، فان المسيحيين - خاصة زمن الثورة الغرناطية -

(1) Gongara, PP. 495 - 496 (letcrilla 20)

نقلا عن المرجع السابق لخوليو كارو باروخا ص ١٣٤ .

كانوا اذا أرادوا التعرف على المدجنين los aljamiados الذين تعلموا الاسبانية فى فترة متأخرة ، فإنهم كانوا يطلبون منهم أن ينطقوا الكلمة ، Cebollo فكان المورسكى ينطقها Xebolia ، وبالعكس عندما يكون هناك الصوت فى القشتالية فانه كان يحوله الى ؟ (١) .

وقد واصل كتاب المسرحيات فى القرن السابع عشر نفس الاساليب السابقة وقلدهم من جاء بعد ذلك ، فكل الاعمال المسرحية تقريبا كانت كذلك ، يستوى فى ذلك كتاب مدريد المسرحيون الهزليون فى نهاية القرن التاسع عشر ، أو كتاب «اقليم» بسكاى فى المسرحيات الكوميدية القديمة (٢) .

إن كتاب القرنين السادس عشر والسابع عشر ، يقدمون لنا مسلم العصور السابقة ، وفقاً للرأى العام ، باعتباره مؤرخا ممتازا وفلكيا ماهرا ومهندسا معماريا قديراً ومحارباً شجاعا ، وفارسا نبيلا ، ومحبا متفانيا ، ولكى نبرهن على ما كان للمورسكيين من خبرة فى فن الكتابة التاريخية ، يكفى أن نشير الى هؤلاء الذين الهموا «ثيرفنتس» ابداع عمله «دون كيشوت» أو «دون كيخوته» والى الملامح التى تميزت بها احدى شخصيات هذا العمل وهى شخصية «سيدى هاميتى بن الجيلى» الذى لم يفعل سوى رسم صورة كاريكاتورية لمؤلفى بعض كتب الفروسية التى تنسب الى علماء مسلمين ، بهدف إعطاء شهرة أكثر وصيتا أعظم فى هذه المواد التى لم تكن متوفرة للعوام ، وقد كان التنجيم أيضا بين هذه المواد (٣) ويشير نفس «ثرفنتس» الى أن «سيدى هاميتى» لديه مهارة فى علم الفلك ،

---

(١) نقل «خوليو كارو باروخا» نصوصا أدبية للشعراء المذكورين ، ويقول إن هناك أمثلة لذلك ايضا عند مننددث بيدال فى :

Poema de yacuf, material para su estudio, P. 48, 49 .

لذى يعرض الملامح العامه للكلام الموريسكى فى صفحات ص ٣٧ - ٥١ ، ويصر على أنها هجرت وأن استخدمت فى بعض النصوص ، انظر كتاب خوليو باروخا

وما بهما من تعليقات los moriscas ... PP. 135, 136

(٢) تقليد «ثيرفنتس» لكلام سكان منطقة «البشكنس» فى منظرمهم من «دون كيخوته» ، الجزء الاول الفصل الثامن ، لا يشير بوضوح الى العيوب الحقيقية فى اللغة القشتالية التى يتكلمها هؤلاء . انظر : المرجع السابق ص ١٣٦ ، هامش ٩٠ .

(٣) انظر : Julia Caro Baroja : los moriscos... P. 142 Note 121

فالثقة العمياء فى مدارات النجوم حسبما يقرر هذا العلم ، لها جذور عند العلماء العرب ، كما كان ذلك شائعاً بين المورسكيين الى آخر لحظة (١) .

وفيما يتعلق بالعمارة فان هناك نصوص ترينا المقدرة العظيمة عند المسلمين فى هذا الصدد ، ففى بعض أشعار «فراى لويس دى ليون» نرى مدحا للعالم الذى لا يعالج الا أعمال العظماء ، ونرى أنه يتميز بين أشياء آخرى بأه لا ينبغى أن نندهش للسقف المزخرف المتين الذى يقوم به العالم أو المهندس المسلم القدير ، فقد كانت شهرة المسلمين شائعة فى هذا الخصوص ، ففى شبه الجزيرة الايبيرية حتى اليوم ينسب للمسلمين تقريبا جميع الأبنية المشهورة شواء بقدمها أو بطابعها الأثرى ، سواء كانت قنطرة رومانية أو مصلى رومانى أو كنيسة قوطية او قبرا داخل نصب تذكارى (٢) .

(١) هناك كتابات كثيرة حول ادب النجوم والفلك عند المسلمين ، وفى سنة ١٩٥٤ نشر بمدريد كتاب
el libra conplido de las iudizias de la estrella

هى ترجمه تمت فى بلاط الفونسو العاشر عن نص كتبه «على بن راجل» ، وهناك نصوص كثيرة فى العصر الوسيط تكشف عن ايمان المسيحيين العميق بعلم المسلمين فيما يتعلق بهذه الجزئية ، ففى حولية الفونسو الحادى عشر ص . ٣١ (فصل ٢٢٤) نرى حديثا عن مسلم اسمه «بنا يتميرو» كانت لديه معرفة عظيمة بالنجوم والطبيعة ، وفى حولية بدرو الأول سنة ١٣٩٦ ، الفصل الثالث ص ٥٨٦ - ٥٨٨ ، نقرأ نبوءة «بناهاتن» وهو عالم غرناطى كان منفيا مع ابن الخطيب حسبما يذكر جارثيا جومث فى ابن زمرك ص . ٢ . كذلك يرسم «ايرناندو دى باديثا» - ص ١٧ - صورة لعلماء الفلك الغرناطيين مع نبوءات كثيرة ، ونفس «ثرفنتس» يجرى على لسان احدى شخصياته ، وهى شخصية مسيحى من بلنسية جيد العقيدة ، اشارات الى نبوءة لأحد اجداده المشهورين فى علم النجوم ، حول ما سيحدث باسبانيا فى فترة لن يكون الا الدين المسيحى فى كل اجزائها ، وفيما يتعلق بالأدب الالخيمادو المتصل بالنجوم

Saavadra, eduardo : literatura aljamiada..., Madrid 1878
58, 159 — أنظر أعمال PP. 158 , 159

- Persiles y segismund, libro III, cap XI, PP. 645 - 646,
- Marmol : libro 3, capitula 4
- Hurtad a de mendoza ; Diego : guerra de Granada, P. 23
- J.C. Baroja : los moriscos ... P. 142, Nota 122

(٢) بقى طابع العمارة الاسلامية منعكسا فى رومانسية ابن عمار أو القصائد الشعبية له ، ويذكر فيها أن استاذا مسلما هو الذى عمل alijares ، ثم قتله ملك غرناطة بعد ذلك حتى لا يكرر نفس العمل ، وقد اشتهر من المهندسين المسلمين بعد النفى العام المهندس المعمارى «خانيرو الاندلسى» ، انظر

- J.C. Barja : المرجع السابق ص ١٤٣ هامش ١٢٣
- A. Dominguez : historia ... P. 244.

إن مفهوم العلو التكنيكى لدى المسلمين يرجع الى زمن العصور الوسطى ، بل الى عهد الخلافة . فى الواقع فان الثقافة الاسلامية فى مجموعها كانت أعلى من ثقافة الممالك المسيحية . إن الحرب بين المسلمين والمسيحيين فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر هى التى سمحت بتطور فى روح النبل والشهامة ، تلك الروح التى تعكسها القصص الشعبية فى المناطق الواقعة على الحدود ، وكانت هناك صداقة بين الشباب الارستقراطى الغرناطى وبين الشباب المسيحى فى فترات الهدنة انعكست فى الاعمال الشعبية والروايات ، وهنا يبرز عمل «انطونيو دى بيليجاس» - تاريخ ابن السراج وجنة العريف [١] وتاريخ «ازمين وداراخا» الذى ادخلة «ماتيوالمان» فى «حياة» «عثمان دى الفاراشى» [٢] .

لكن روح الحرب على الحدود الأندلسية بقيت منعكسة فى أقتباسات قرآنية كثيرة وفى العديد من الاعمال الشعرية تتناول شخصيات مختلفة ، مثال ذلك القصة الشعبية لـ «فاخاردو» حيث ظهرت تلك الشخصية مع ملك مسلم يلعبان دورات من الشطرنج ، وفى «كالاترابا» ترى أن اقرباء معلمها ، يساعدون محاربا مسلما صديقاً لهذا المعلم على خطف حبيبتة ، وبعد أن قتل ذلك المسلم ابطالا من نفس بنى قومه ، قتل هو الآخر وبكاه هذا الصديق المسيحى [٣]

وبالاضافة الى «دون رودريجوتيث خيرون» لابد أن تذكر «جارثيلا سودى لابيجا» و «دون الونسو دى جرانادا» و «بيناجس» الذى تحول الى المسيحية و«دون مانويل بونثى دى ليون» فقد كانوا جميعا شبابا مسيحيين نبلاء ، قاتلوا ضد غرناطيين آخرين فى منافسات ومبارزات وتحديات معطين للكفاح مذاقا خاصا [٤] .

---

(1) biblioteca autores espanoles III P. 205 - 212

(2) Parte l, libro l Capitulo 8 PP. 205 - 212
.J.c.Caroja : obra citada PP. 143 - 144 y notas.

(٣) أنظر : Duran, 11, P.88 - 89 (nums. 1056 - 1057, y PP. 113 - 122 nues (1095 - 1112) .

(٤) أنظر : المرجع السابق
II,1139) PP. 130 - 132 (Nums 1124 - 1127) PP. 132 - 140 (Nums 1128 - 1139)
وكذلك خوليو باروخا : المرجع السابق ص ١٤٤ وما بها من تعليقات - PP. 126 - 129 (Nums 1118

إن القصاصين الراوئيين الشعبيين الذين اختارهم دون «اجوستن ديورن» فى مجموعته الشهيره ، يرسمون لنا مسلمين شجعانا كلهم رشاقة يتلؤون محبة وحماساً ويجعلون الآخرين يفعلون الشئ نفسه ، وهم فى نفس والوقت نموذج للمظهر المنعّم ، ولديهم شعور بحرارة الحب ، فابن عمار الزرقى وجازول وابن امية وزيدى وطارفى وابن درايث وموسى ورضوان ولوس بشيلينيس وأوديا وآدولثى ، كل هؤلاء قدموا لنا هذه الحرارة والحماس باعتبارهم شخصيات شعرية ، أن الاعمال التى تروى بطولتهم تجعل الانسان يشعر بإعجاب مضاعف . (١) .

واذا كان يعتقد أن المسلمين كانوا عظماء فى الماضى ، أليس من الممكن ان يكون نفس الرأى فيما يخص الحاضر ؟ لقد كان هؤلاء احفاد أولئك العلماء المعمارين ، خبراء السحر والتنجيم وأحفاد هؤلاء الوجهاء الشجعان العاطفيين وسلالة أبطال الشعر الذى يمضى من فم الى فم . ، ولكن المورسكى عند الرأى العام كان شخصا غير مثقف بل وحتى فظا غليظاً يحتل بسبب عناده آخر درجة فى السلم الاجتماعى .

انه شخص صاحب قدرات معينة ولكنة غير مثقف ، بل ان العلماء والقضاة والبارزين فى هذه الجماعة ، لم يكونوا موضع تقدير المطارنة والادباء ورجال القلم فى عهد كارلوس الأول وفيليب الثانى ، لقد كان العوام فى المدن المورسكية أضحوكة وكانت آحاسيسهم مجروحه بشكل مألوف(٢)

وأول اشارة الى المسألة المورسكية بمفهومها التاريخى نجدها فى عمل أدبى عند «الپارو جومث دى كاسترو» ، عالم النهضة الاسبانية الأول ، حيث خصص بعض أبيات باللغة القشتالية بعنوان «مقطوعات غنائية حول المورسكيين» ، ونشرها «الفار اثكيرا» فى «حول شعر البارو جومث دى كاسترو» جامعة مدريد المركزية سنة ١٩٨٠ .

ولقد تمثلت أنشطة المورسكيين - كما تعكسها الأعمال الادبية - فى زراعة الحدائق وصناعة السلال والأدوات الاخرى المصنوعة من الجريد ، مثلا تقول احدى شخصيات «تيرسو» فى : la Villana de Vallecas : آه

---

(١) أنظر Duran, I, PP. 1 - 28.
حيث يختار ٢٤٣ شعبية تعالج هذا الموضوع وتؤكد الافكار المذكورة .

(٢) أنظر Miguel angel de bunes los moriscos en el pensamiento histori-co, madrid 1983, P. 17.

المورسكيون هم الذين كانوا فى الشوارع يبيعون حصر الجريد ، سيدى [1]
وكان من بين أعمالهم التجول بهدف البيع والتجاره فى التين الجاف والزبيب والجوز والعسل والحلويات الشعبية (مثل العسلية) والفواكه ، وصنع الطوب اللبن والآجر ودهان المنازل بالجير وعمل الجص وبيع الزيتون والخبز المحمص وكل هذه ليست لها علاقة بالاعمال الرومانسية التى كان يتغنى بها فى القصائد الشعبية الجادة حسبما لاحظه بعض الشعراء [2]
أما عن المرأة ففى مقابل المرأة المسلمة الرشيقة يرسم شعراء الطرب لنا المرأة المورسكية الفقيرة بائعة متجولة ، مغطاة باللبس الحريمى متميزة بالحياء ، تبيع المناديل ومياه المشروبات الملونه «الشرّبات» ومياه الشرب والتين والصابون فى شوارع وميادين غرناطة ومدن آخرى فى وسط وفى جنوب اسبانيا ، أما المقاتل القديم فيقابله المورسكى البارع فى إصابة الهدف[3]
أننا لو قرأنا حوار الكلاب «ليثرفنتس» فاننا نجد نفس الاشياء التى دبجها يراع «أثنار كاردونا» او أى كاتب من نفس المستوى الفكرى ، ولقد عبر «ثيرڤتش» مثل غيره عن كراهيته لهؤلاء المسيحيين الجدد فى اعماله الشعرية والنثرية مثل دون كيشوت وحوار الكلاب واعمال بيرسيلس وسجسموندا وحمامات الجزائر
ويجدر بنا أن نلقى نظرة سريعة على بعض هذه الاشياء العامة ، يقول كلب «ثيرفنش» عن المورسكيين : «انهم لا يتميزون بالعفة ولا يعتنقون ديناً سواء رجالهم أو نساؤهم وكلهم يتزوج وكلهم يتكاثر ، لأن

(١) نقلا عن انطونيو دومنجيث : تاريخ المورسكيين .. ص ١١٩ : acta 3, Escena 9

(٢) يلفت «جونثالث بالنثيا» النظر الى هذا فى بحثه عن «ثيرفنتس والمورسكيون «ص ١٠٧ – ١٢٢ حيث ينقل عددا من القصائد الشعبية الرومانسية تؤكد هذا المعنى .

(٣) ينقل خوان كارو باروخا بعض القصائد الشعبية لجرابيل دى لافيجا (١٦٠١ طبع مدريد سنة ١٩٤٢) وفقا لجونثالث بالنثيا – ثيرفنتس والمورسكيون – ص ١٠٧ – ١٢٢ أنظر عمل باروخا ص ١٤٦ ، ١٤٧ وما بهما من تعليقات :

هذا وقد أشار الى اعمال مهمة لدراسة هذا الموضوع من بينها :

- el moro de Granada en la literatura del siglo XV al XX Soledad Carrasca urgoite, Madrid 1956

el moro y el morisco en la novela espanola de los siglos XVI y XVII .

من تأليف M.S. Carrasco

انظر تعليقات ص ١٤٧ ، ص ١٤٨ .

الحياة المقنعة تزيد من أسباب التناسل ، الحرب لا تفنيهم ، كما أنه لا يؤثر عيهم ما يقومون به من أعمال بالغة الارهاق [١] ونفس موضوع الخصوبة وكثرة النسل واليقين فى أمور الحياة نجده فى «اوستربادا» لخوان روفو [٢] ، وأكثر من هذا إننا نجد التعبير عنه قاسياً فى كتب متداولة مثل كتاب «اثنار كاردونا» الذى وصل الى تأكيد أن تكاثر الكورسكيين يخضع لخطة تعمل على معارضة تزويج الابناء من سلالات المسيحيين القدامى ، هؤلاء المسيحيون القدامى الذين يتزوج كبار السن منهم ، أما الباقون فينخرطون فى سلك صفوف رجال الكنيسة ، ويعشون حياة منعزلة فى الاديرة أو فى الجيش .

يقول «أثنار كاردونا» ان كل المورسكيين كانوا يزوجون أولادهم فى سن مبكرة ، ويبدو لهم أنه لابّد تزويج الفتاة فى سن لا يتجاوز الحادية عشرة والفتى الثانية عشرة .

ولم تكن تشغلهم قضية المهر كثيراً ، لأنه يكفى عند عامتهم - لا يستثنى الا الاغنياء - توافر سرير وعشرة جنيهات وهذا يسعدهم كثيرا ، لقد كانوا يحاولون تكثير أولادهم مثل الحشائش الضارة . لقد كانوا متميزين ومعروفين بالبراعة فى كل اسبانيا ، وكانت أشعارهم تعبر عن ذلك ، لقد تكاثروا للغاية ، ولم يوجد بينهم من يعارض الزواج أو يرغب أن يكون من رجال الدين أى راهباً أو راهبة أو قسيساً ... والكل يتزوج غنيا أو فقيرا سليما أو غير سليم ، انهم لا يفعلون مثلما يفعل المسيحيون ، حيث يزوج من عنده خمسة أو ستة أولاد اكبرهم فقط أو واحد منهم ، أما الآخرون فيتحولون الى رهبان أو راهبات أو قساوسة أو جنود أو يصبح من المتصوفين أو وعفيفا ، إن الشئ المؤلم عند المسيحيين القدامى أنهم كانوا يتزوجون من مورسكيات ، حتى لو كانوا ممن يعتزون بنبلهم ، وليست لهم مصلحة فى ذلك ، انهم بهذا يلوثون النقى من نسلهم ، ويغضبون

---

(١) ثيرفنتس : حوار الكلاب ص ٣٥١ .

(٢) خوان روفو «او ستربادا» ص ٨

وانظر J.C. Baroja : obera citada, P. 215, Notas 41 , 42.

الله ...[١] وهناك جملة يرددها «ثرڤنتس» عن المورسكيين فى عمله «حوار الطلاب» - كما يردد أدباء العصر نفسه جملا مشابهة تقول : «إنهم يكدسون المال ، ويكومون اكبر كمية مما يوجد منه فى اسبانيا [٢]

ويقول نفس أديب اسبانيا الاكبر : «إن كل محاولاتهم تتركز فى ضرب النقود ، وجمع النقود المضروبة ، ولكى يتأتى لهمْ ذلك ، فانهم يعملون ولا يأكلون ويحرصون على تملك حتى ربع بيزته (وهو مبلغ تافه جدا) ولا يتوقفون ، أنهم يربحون دائما ، ولا ينفقون شيئاً ، ووصل بهم الأمر الى تجميع كميات كبيرة من المال فى اسبانيا ، ومع هذا التوفير والنهب ، يخفون ما يحصلون عليه ، إنهم يعتبرون كثيرين ، وفى كل يوم يكسبون ويخفون جزاءاً أقل أو اكثر ومع الحرارة البطيئة تنتهى الحياة مثل الحمى ، ولأنهم يتكاثرون فان مدخراتهم المختفية تزداد ... ويصبح هؤلاء أغنياء ، ويتركوننا فقراء ... ليس عندهم خدم ، لأنهم هم أنفسهم خدم ، ولا ينفقون على تعليم أبنائهم ، لأن تعليمهم لا يزيد عن بيان كيف يسلبوننا ويكون من السهل عليهم العبث والنهب [٣] ، وثرفانتس - مثل اثنار كاردونا - يتهم المسلمين المنصرين بأنهم يزيفون النقود ، وانهم يضربون عملة مزورة [٤] ، وتجد نفس الفكرة عند «جوادا لاخارا» حيث يقول : أنهم بصفة عامة جشعون وسيئون ويقظون فى حرص لجمع المال وحبسه دون إنفاق ، حتى لو كان لازما لحاجات ضرورية ، لقد اختاروا الحرف والاعمال المناسبة اكثر للوصول إلى الثراء ، فهم أصحاب دكاكين وعطارون متجولون وحلوانية جائلون ، وهم بهذه الصورة مثل اسفنجة تمتص كل ثروة اسبانيا ، وبدون شك توجد كميات هائلة من الذهب والفضة فى حورتهم ، ولسنا فى حاجة للبرهنة على ذلك من خلال ما يحدث فى المملكة ، فما عند أهلها قليل ، ويحمل المورسكيون zafras ويدفعون لسادتهم ثلث

---

(1) Aznar cardona (pedro) : expulsion ... capitulo XI Fols 36r - 37r وانظر

J.C. Baroja : los moriscos ... P. 216 Nota 43

(2) A'. Dominguez : Historia ... P. 125

(3) Cervantes · el Coloquio de perros, P. 351

(4) Aznarcardona : obra citada fols 52 r y 54 r

نقلا عن خوليو باروخا : نفس المرجع والموضع السابقين .

ما يكسبون ، وهم رغم هذا بينهم أغنياء ، حتى فى الاماكن الصغيرة والمواطن القاحلة ، لا يحصل السادة منهم الإيرادات العادية بل فحسب ويفرضون عليهم الهبات والقروض الاختيارية ، فلننظر إلى أى مدى هم عقبات فهذا العدو الواضح هو المالك لكل ما يسمى مالا(١) .

أما خروج المسلمين المنصرين من أسبانيا ، فقد صورة لنا «جاسباردى اجيلار» فى الشكل الآتى :

مجموعات من مسلمات ومسلمين يذهبون جميعا مستمعين لألف اهانة . هم يمضون مع الثروات والكنوز وهن تمضين فى أثواب جميلة وزينات العجائز تمشى كثيبات باكيات تحملن جميعا قدروا حقيرات مع ollas ومقلات وأباريق وشمعات . عجوز يحمل طفلا فى يده . أخر يذهب لصدر أمه المكشوف أخر ذكر قوى مثل الطروادى يحمله والده بلا توقف (٢) .

ونفس الشاعر يوضح لنا ما تعرض له المورسكيون من تعاسة بسبب النفى وسوء المعاملة فيقول :

كم من فقيرات مسكينات نالهن السوء
لانهن رأين من ينتمين لهن بلا دفاع
انهن مع اطفالهن الصغار لهن محتضنات
صاعدات فى جبال عاليات
وكم لهن من أولاد أعزاء بيعوا
لرجالنا ، فقط لأنهم يريدون كسرة خبزة (٣)

أما «اثنار كاردونا» فقد قدم لنا صورة واقعية لأبعد مدى عن الخروج والنفى يقول: فى شكل مركب غير منسق ، يختلط فيه المشاة

---

(1) Marcos de Guadalajara, Memorabb expulsion ... fal 84 r ...
J.C. Baroja : los moriscos ... P. 216, Nota 45.
(2) Gaspar de aguilor :
وقصيدته طرد المورسكيين من اسبانيا تتكون من ثمانية مقاطع ، ويرى بعض الباحثين أن هذه القصيدة يجب اعادة طبعها لقيمتها التاريخية ، ومنها نسخة بالكتبة الوطنية بمدريد تحت رقم R. 12484 كتب «جاينجوس» على هامشها «نسخه كاملة تماما لعمل نادر» وقد وصفت «بانها لم يري نسخة مماثلة لها» أنظر :
A. Dominguez : Historia ... P. 182 y Nota 14
(٣) ص ١٨٩ . ١٩ من القصيدة ، والمرجع السابق لا نطرنيو رود ريبحيث ص ١٨٤

يختلط فيه المشاة بالركبان يمضى الجميع ، مجموعة تلو أخرى ، يتفجرون من الألم والدموع يحملون ابناءهم ونساءهم ومرضاهم والأطفال والعجائز ، محدثين صخبا عظيما وصراخا مريعا ، التراب يغطيهم ، العرق يغمرهم ، بعضهم محمول فى عربات مشدودون إليها بأشخاصهم وحليهم وزينتهم المتواضعة ، والبعض يستخدم دوابا ، يحملون أدوات غريبة واشياء فظة ، وقد يحملون على كراسى مع قفف من الخرج ، وأباريق وسلال من الجريد ، وملابس وتنورات وقمصان وألواح وسماطات ، وكسر من القنب ، وقطع من الكتان ، البعض يذهبون مشاة محطمين ، عليهم ثياب ردئية ، فى أرجلهم أحذية ونعال ، ومنهم من يضع دثاراً على رقبته ، ومنهم من معه ملابسه وحاجاته الضرورية ، ومجموعة منهم تستخدم غطاءات متنوعة وأربطة . وكل منهم يقدم التحية إلى من ينظر اليهم قائلا :

فليجزيكم الله ويحرسكم ، ولتبق معكم رعاية الله وعنايته . وبين الفئات المذكورة كنت ترى بين الحين والآخر نساء كثيرات ، زوجات لمسلمين أغنياء يضعن الحلى القيمة ، مع مظاهر الزينة المتنوعة ، بعضها مصنوع من الفضة ، يثبتنها على الصدر أو تعلقنها فى الرقبة مع عقود وأطواق وأقراط وأساور ومرجان وغيرها ومع حلل وملابس مزركشة ، بهذا كله يسترون بعض آلام القلب ، أما الآخرون ، وهم الكثرة الكاثرة بلاشك ، فقد مضور مشاة متعبين ، يشعرون بالمرارة والضياع ، تؤلمهم مناظر ومتاعب لا تطاق ، ويشعرون بمرارة عظيمة للغاية ، ويموت الكثيرون منهم بسبب المحن المفجعة ، يشترون الماء وظل الطريق ، فقد كان الوقت صيفاً (١) .

وقد مر بنا أن " ثرفانتش " قد خصص فصل " ريكوتى " فى " كيخوته " بأكمله للحديث عن بعض جوانب المشكلة المورسكية (٢) ويقولون أنه فى القرن السابع عشر عنرما كانوا يريدون الاشارة بشكل واضح ولكنه غير مباشر إلى أن شخصا"ما"مورسكى الأصل

1-Aznarcardona : expulsion justificada de los moriscos espanoles , Parte 11 capitulo 2 -A . Dominguez : Historia ...P.196.

٢- انظر ص من هذا البحث .

كانوا يقولون أن أجداده كان Melcocherors† أى أنهم كانوا يصنعون الكعك من نوع من العجين يتكون من الدقيق وعسل النحل والماء الذى يقومون بطبخه فى الزبدة : فقد كان المورسكيون مغرمين بهذا النوع من الكعك ومتخصصون فى صنعه ، وهذه النادرة ترجع إلى أزمان قديمة ، ففى فقرة هجائية من شعر «الونسوانثيتو» تقرأ : -

الداعر الفاسد فى مكة يأكل كل يوم كعكا مقليا فى زبدة
بعث به اليه الاله العظيم (١)

أما «لوبى دى فيجا» ، فقد حاول فى «قروية خاطبة» أن ينفرنا من سيدة قهر مانة (وصيفة) كانت عند فارس . يقول : إن هذا الفارس من اصل مورسكى مثل خادمته ، ويذكر أنه نفسه قدم له معلومات عن طرد اسلافه من اسبانيا ، فقال إن جده كان من ناحية اسمها «دون فيلكس» وانه كان يدعى «زوليما» ، أماجد «لوبى» فهو «لاكايو آرامبيل مولى» من «كايبيو» . إنه متكلف وخيالى ، فقد اشترى الدابة التى يخدعنا بها ، من الأموال التى جمعها والده من عمل كعك العجين المقلى والذى كان يباع في الأندلس(٢) ، وقد أشار مرة أخرى إلى عناية المورسكيين بهذا الكعك فقال:

بائع هذا الكعك ، كلب مورسكى ، يلبس ثيابا بيضاء ، يفكر فى خيانتنا .

أما «لوريتا» ، فانه يغنى قصيدة مضحكة تقول :

ينادى المسلم محمدا   لكن لا احد يعيره سمعا

لقد كان يصنع الكعك المقلى ، مع ثلاثة أو اربعة من المورسكيين(٣)

ونذكر اخيرا أننا نقرأ فى احدى قصائده الشعبية التى يقلد فيها القصاصين أو الروائيين ، حديثا على لسان مسلم اسمه «زايدى» على سبيل السخرية :

---

(١) ذكرها Poema de alfonso onceno, P. 505 a (926)

J.C. Baroja : moriscos ... P. 219 Note 57.

(2) Lope de Viga ... X, P. 393 (acto 11)

واكثر من هذا يقول راميرث ص ٣٩٤ : «لوبى» الذى كان أجداده يعيشون من صنع الكعك . أنظر

J.C. Baroja : obra citada : P. 219 Nota 58

(3)obras ... V, 196 B

هناك داخل الخمارة يقرم اللحم - صانع الحلوى يحذره الايمر بالشارع وصانعو الكعك أنفسهم ، رغم أنهم من بنى جنسه(فانهم من بين الزيت يحذرونه حتى لا يمر بالشارع [(١)]

«وقروية خاطبة» المذكورة عبارة عن «كوميديا» تبرهن على القلق الذى يترتب على ملاحظة اسارير جسدية معينة عند صنف معين من الناس[(٢)] ، كما يترهن على أن المسلمين الاسبان ، برغم كل شئ كانوا أعلى من المسلمين فى افريقية [(٣)] .

ولا ينبغى مع ذلك التقليل مما قيل حول بغضهم والكراهية التى كانت تبدو كل يوم لهم .. إن كتاب العصر الذهبى ، يروون لنا خداعا وغشا ووشايات وألوانا من الشرور - يزعمون أن المورسكيين قاموا بها - ، وكانوا يقومون بها ، ليس باعتبارها أشياء عادية ، بل أشياء يجب أن يفعلوها ، وهنا تذكر بعض الامثلة : -

يروى «بيثنتى اسبنييل» فى «حياة ماركو دى اوبرجون» ، يروى هذا المؤلف من خلال شخصية واقعية هى شخصية الفارس «روند نيو» - خوان دى لوثون - القصة الأتية :

لقد وجد راع مسلم فى سلسلة جبال «رنده» ، وكان يقوم برعى مواشيه بين قريتى «بلاستر وشوكر» وفى يوم من الايام كان يشعر بعطش شديد ، وقد اختفى كلب كان معه ، وبعد فترة عاد سعيداً يحرك ذنبه المبلول تماما ، وقد صدم هذا المنظر الراعى كثيرا ... ومن حسن الحظ انه ربط كلبه ، على أمل أن يعود اليه العطش ، وعندما لاحظ ذلك عليه ، أطلقه لكى يبحث عن الماء ، فأخذ هذا يشم ويقفز هنا وهناك ، لكنه كان

---

(1) Duran, I, P. 136 (Num. 257)

(٢) تقول انا

أى مورسكى يكون لوبى هذا ، انه ليبدو فى الوجه اكثر من السيد «فيليكس» ... Lope : obras .X, P. 393 (acto 2)

(٣) نفسه obras ... X P. 398

وهنالك نصوص آخرى تتعلق بالمورسكيين تقول انهم صانعو كعك ولصوص وخداعون ، وأنهم بلنسيون يتكلمون العربية جيداً ، خذ مثلا لهذه النصوص عند «ريكاردو دى اركو»

la Sociedad espanola en los obras de Lope de vega, PP. 83 - 85 .

مربوطا بحبل كبير ، ثم مضى ليكشف عن ماء موجود فى كهف خفى جدا ، فاعتبر المورسكى بحق أنه عثر على شئ ثمين للغاية ، وقد رأى أن ماء النبع يسير فى اتجاهين ، فأغلق واحدا منهما بالحجارة ، وجعل الماء يتدفق فى اتجاه واحد . وفى اليوم التالى نقص الماء فى «شوكر» ، فذهب الراعى هناك وروى ما اكتشفه وقال أنهم اذا دفعوا له جيدا ، مكرر ، فلن يعيد الماء فقط ، بل سيجعل تيار الماء يزداد تدفقاً عندهم ، فأعطاه أهل القرية ٢٠٠ دوقيه (عملة قديمة) تدفعهم الحاجة والرغبة فى الحصول على ماء اكثر ، فرجع الراعى إلى الكهف وحطم السد الذى صنعه وأجرى الماء وضم ماء الفرع الآخر إلى هذا الفرع ، وكان فى هذا نهاية حياته ، لأن اهل «شكور» وقد أصبح الماء عندهم مضاعفا ، ولأنهم خافوا أن يذهب المورسكى إلى «بلاستر» ويقترح شيئا مماثلا ، فانهم قتلوه ، دون أن يتألم ضميرهم فيما يبدو [١] .

وهذه القصة القروية تقليدية فى أى بلد بجنوب اسبانيا ، ولكنها مع ذلك ليست الأكثر استهتارا أو الاكثر تعبيرا .

لقد امكن لـ «ايسبيجا ندو» أن يقدم للادب نخبة من الروايات أدعى لاشمئزاز أكثر ، إنها تعرض حالة ضعف بل وربما انعداما فى الضمير ، مثلا يروى «فراى ماركوس دى جوادالاخارا» كيف أن أحد الفرسان ، وصل من «فلندس» وقد تعرف عند مروره «ببياسه» على مورسكية أمّا الحمّال (مهنته الحمل على البغال) من «قيجاطة» فى محافظة «جيّان» ، وقد خطر له عندئذ أن يتظاهر بأنه من أسره آل بنّيغش ، وأنه سليل ملوك غرناطة ، وبهذا أنس إلى المورسكيين فى «قيجاطة» وأنسوا اليه ، واكتشف سلسلة من دسائس هؤلاء تدل على ما عندهم جميعا تقريباً من خداع فلم يتردد فى العمل على أدانتهم ومعاقبتهم وسجنهم [٢] .

وهناك حالات أخرى ، المبرر فيها أقل ، مثلا «فى رواية» «الجندى يندارو»

---

(1) espinal, P. 407 (relacion l, descanso XIV .

(2) Marcos de Guadalajara, Prodcion ... FOLS 7v - 9r
J.C. Baroja : los Morisos ... P. 221, 222 وانظر فى الموضعين السابقين .

نرى المؤلف يروى قصة لص غشاش وقع أحد التجار الاغنياء ضحيه له ، وكان التاجر يقيم فى اشبيلية ، قادما من بلد الوليد ، واشتهر بانه من المورسكيين ، وقد ذهب اللص الغشاش إلى منزل التاجر ، متظاهرا بأنه يريد شراء قطعة قماش لعمل ثوب ، وقد قلب كثيراً فى قطع قماش المصنع الموجود فى «شقوبية» و «بياسه» ثم وضع علبة صغيرة بين طيات واحدة منها ومضى قائلاً انه لم ترق له واحدة من كل مارأى ، وفى اليوم التالى عاد وبدأ يقلب فيها من جديد إلى أن عثر على تلك القطعة التى وضع فيها العلبة بالامس ، فالقى المورسكى نفسه عليها مندهشا ، اما اللص فقد حاول من ناحيته فتحها ، وبدأ صراع أكد فيه التاجر أن العلبة تخصه وأنه لا ينبغى أن تكون لأحد غيره ، وبينما كان يقول ذلك قام اللص بفتح العلبه التى كانت فى يده وكشف فى داخلها عن صورة اسلامية مذهبة على شكل قمر من ناحية الأرجل وتمسك بنسخة من القرآن فى يديها . وكان رعب المورسكى البائس كبيرا ، وقد عامله الوغد معاملة سيئة وتفوه بكلمات بذيئة ، وهدّده بإبلاغ الأمر لسلطات العدالة ، وأخيرا وبعد توسلات ورجاءات تركه آمنا بعد أن دفع له ٣٠٠ دوقية (١) .

لقد وصل احترام المورسكيين فى مطلع القرن السادس عشر إلى ادنى مستوى عند الرأى العام ، وموقف «ثيرفنتس» منهم يعتبر أمرا عاديا ،

(1) Gonzala de cespedas y meneses : Fortune varia del soldado pindaro, PP. 319 - 320, lile 1, cap XXII

اخبر تنقل فقرة من حياة عثمان الفاراشى . لـ

Mateo aleman, P. 197, Parte 1 lib 1 cap. III

تقول : أنا اشهد أن نائباً عن احدى المدن الرئيسية فى الاندلس ومملكة غرناطة ، كان يمتلك ماشية وكان الجو باردا ، لهذا لم يرق لبنها له ، فحضر باعة اللبن اليه ، وبدا له أنه سيخسر كثيرا ، لان زمن الصوم الكبير عند المسيحيين قد أزف ، فاقترح فى بلديته أن يقوم الباعة المورسكيون بسلب المملكة لافتاً النظر الى القليل الذى يتكلفه ذلك ، انهم لن يكون الا اكثر قليلا من ستة آلاف مرابطى ، وسوف يربحون ربحا معتدلا ، ولكن لا أحد أراد أن يفعل ذلك ، ففيه خسارة لهم . وفى وسط هذا الحوار راق له أن يحول الانتاج الى زبدة وقشدة وجبنة طازجة وأشياء أخرى الى أن يجئ الوقت المناسب وعندما بدأ صنع الجبن ، فانهم رفعوا سعره الى ١٢ مرابطى كما كان من قبل ، لكنا كنا فى زمن الصيف ، ولم يكن هناك مبرر لذلك ، لقد روى هذه الحيلة متفحّصا كيف كان هؤلاء الناس أنتهازيين ، ولابد ، فهل هناك واقعية فى هذا التعبير ؟ ، انظر :

J.C. Baroja : los moriscos ... P. 222, Nota 66.

ليس فقط فى الجزء الثانى من «دون كيخوته» (الفصول Liv y LXII) أو حوار الطلاب ، بل وفى انتاج فترة الشخوخة حيث قدم تصورات وأفكارا أكثر ، فقد خصص لهم فى «بيرسيلس» و «سيخسموندا» بعض الجمل المفعمة بالاحتقار والكراهية ، ربما سببها تذكره للمعاملات السيئة التى عانى منها خلال اعتقاله فى الجزائر ، لكن الجيد فى الفقرة الأخيرة «لثرفانتس» أنه وضع التشهير المعادى للموريسكيين على لسان واحد من نفس الاصل ، وهو مسيحى مخلص فى الآن نفسه ، اسمه «الخدرجي خارفى» ، لقد كان يعيش فى قرية قريبة من شاطئ بلنسية ، وكان عليه أن يلجأ إلى الكنيسة مع القلاثل المسيحيين القدامى فى نفس المكان ، بينما كان الباقون من بنى جنسه ، المتورطون فى اتفاق مع القراصنة الاتراك ، قد غادروا القرية مع الجماهير ، بعد أن ارتكبوا سلسلة من الاعمال العنيفة . بعد ذلك سيحاول مضيف عجوز أن يخدع المسافرين ، أبطال الرواية ، عارضاً عليهم منزله ، وفى نيته أن يأخذهم أسرى . وقد شهدت أبنة العجوز الجميلة «رافالا» على محاولته ، وهى مسيحية وبنت اخ «الخدرجي» (١)

إن العمق التاريخى لهذه الرواية يمكن تحديده عن طريق دراسة الوثائق المنشورة عن معاهدات الاتراك مع الموريسكيين فى بلنسية (٢)

وهناك نصوص أدبية أخرى تعطينا صورا ليست أقل قيمة ، ففى «لابيكارا خوستينا» يمكن أن نرى صورة عجوز موريسكية من «أندوجر» (قرطبة) وهى معادية للدين المسيحى لسببين ، لكونها مسلمة ولكونها ساحرة ، ولانها تدرك وضعها ، وتتكلم «الالخميادو» على الطريقة الموريسكية القديمة ، فانها تبدو نموذجاً لواحدة من هؤلاء الذين كان عليهم أن يستقروا فى أراضى الشمال ، بسبب تحركات أسر من نفس أصلهم ، وكان عليهم أن يعيشوا فى وسط أناس صعاليك حتى جاءت اللحظة التى لم يعد

---

(1) Cervabates : Trabajo de persiles y segismundo, PP. 644 - 646, lib III, cap. XI
J.C. Baraja : las Moriscas ... P. Nota 68.

(٢) اعمال الاتراك فى هذا العصر ، تعكسها كتابات مؤلفين مثل انريكس دى خوركيرا او غيره
Henriquez de Jorquera ; francisco : Anales de Granada... III, P. 608, 609, 633
وانظر خوليو كارو باروخا : الموريسكيون ص ٢٢٣ هامش رقم ٦٩ .

يسمح لهم فيها حتى بهذا(١)

أما الاغانى الشعبية فانها تعرض أيضا بعض جوانب المسألة الموريسكية ، فهناك أغنية شعبية فى مجموعة «دوران» مؤلفها مجهول ، رأى كما رأى كثير من المسيحيين القدامى فى زمنه ، الفخامة والأبهة التى اظهرتها بعض الأسر الموريسكية الاشبيلية ليس فقط فى الملابس (٢) بل وفى أجهزة العرائس وفى الاعياد والاحتفالات الأسرية (٣) ووفقا لهذا المؤلف فان كفاءة هذا الشعب ملحوظة ، ليس فقط فى التجارة والصناعات البسيطة ، بل وفى الاعمال الحرة والمهن التكنيكية العالية(٤) لكن فى نفس هذه

(١) شهرة النساء الموريسكيات والبربريات فى السحر تعكسها بعض الاعمال مثل :

- Mafeo Aleman : Vida de Guzman alfarache, P. 218, Parte II libra 11, cap. IX

- Henriquez de jorquera, 11, p1559

أو عند بعض المحللين مثل

- Aznar cardona : expusion ... fols 37 y 49r

انظر : J.C. Baroja : los moriscos, P. 126 Nota 49 y P. 223, Nota 70.

(٢) جاء فى مجموعة «دوران» فيما يتعلق بالملابس ما يلى :

الموريسكى الذى يمتلك مبلغا زهيدا ويصنع النعال من الحلفاء ، يجلب الأن Alosados مفضض ، ويلبس قطيفة الحرير Aforrada ، ولديه سيف لامع مفضض وخنجر مذهب ، الموريسكى الذى اعتاد أن يكون خادما لسيده ، يريد الأن أن يقوم السادة على خدمته ، أنهم عبيد يمشون متغطرسين فى مجموعات من اربعة ، يمرون بالشوارع ينظرون فى تلطف ، الخادم الوقح الذى لم يتمكن فى الماضى حتى من لبس القماش ؛ لفقره الشديد ، يمشى الآن Contino شقيا .

Duran 2 P. 190 - 191.

(٣) يواصل قائلا فى نفس ص ١٩١ :

الموريسكية صاحبة الدكان الصغير التى تعودت غسل الاطباق ، تقتنى اقفالاً من فضة واحذية مزخرفة وثوبا عظيما من الحرير وعقوداً غالية الثمن وسلسلة عظيمة من الذهب وخلاخيل مطلية . انهن لا يخرجن الا مع أسلحه ، وفى اكثر الامسيات تظهرن مزينات ، انهن نساء لرجال من القادة ، وهناك زخارف فى منازلهن مع عبيد وإماء . إن مقعدها من استبرق فائق الغلو والاعراس والاعياد تتم فى مبالغات ويحتفلن بها مع غناء كله كلام رشيق .

(٤) يستمر فى ص ١٩١ نفسها قائلا :

لقد كانت فخامتهم عالية ، ومنظرهم فوق المتوقع ، بينهم لا يتميز الشريف والفارس ، أن منزلتهم عالية فى اسبانيا ، وكل يحترف حرفة ذات دخل كبير ، بينهم دكاترة كثيرون ، وكتاب ونواب فى كل دورة ، وفيهم ادباء غاية فى المهارة ، والتجارة والعقود فى ايديهم ، والسلطة والدكاكين المحتكرة لهم رئسهم يمشى بالسوق مختالا خطيرا كأنه أحد القادة ، يذهبون الى الكنيسة بالقوة ، ينادونهم من قائمة ، فيظهرون مرتدين الذهب والحرير والأقمشة الموشاة ليس للولاء ولكن لأن الكل ينظر اليهم .

الاغنية الشعبية يوجد استداراك فى هذه القضية ، ووفقاً له فان من خرجوا من اشبيلية كانوا ٣٠ الف مورسكى بينهم ٥٠٢٤ من «الخارالى» وحدها[١] . وقد سمع بكاء ونواح كثيرات من سيدات هذا الشعب ، ويبدو أنهم شعرن بالتأثر ، لحملهن على ترك مجاورة سكان منطقة الكنيسة وترك العبادات والطقوس المسيحية ، وتوسلن بحق عذراوات «بيلين» وعذراوات «روساريو» [٢] وقد اعلن المنفيون على الملأ بعض الاعمال التى تدل على الاخلاص ، بما فى ذلك ترك أربعة آلاف دوقية قربى لعذراء «انيستا» عند مغادرتهم [٣] .

أما «جاسبر دى اجيلار» فيقدم لوحة لخروج المورسكيين الاندلسيين من اشبيلية ، فى قصيدة له ، لها قيمة جماليه إلى حد ما ، فيها ترى سهل «بتلادا» مغطى بجموع حزينة عصبية مستعدة للرحيل ، وهناك أرملة شابة ومعها أبناؤها الثلاثة تعبر عن أسفها وإشفاقها[٤] بينما المورسكيون

(١) فى نفس المكان يقول :

خرج من مكان فى اشبيلية ، سيدة النهل ، ثلاثين الف او اكثر معا ، ما بين رجال ونساء وشباب أعمارهم مختلفة ، وبينهم الغنى والفقير ، وجاء من «الخرالى» خمسة آلاف وأربع عشرون غير آخرين يصلون الى رقم مماثل تقديرا .

(٢) يواصل فى الموضع نفسه فيقول :

النساء المورسكيات ، تقبض وتبسط أياديها البيضاء ، وترفع عيونها الى السماء ، تقلن باكيات فى أصوات عاليات ، آه اشبيلية وطنى ، آه كنيسة القديس «بابلو» .والقديس «أندرس» والقديسة «مارينا» والقديس «خوليان» والقديس «ماركوس» ، وأخريات تبكين فى المواطن التى شهدت معاملتهن وحياتهن .

ويقول فى الصفحة نفسها ايضا :

إن هناك نسوة اخريات ترفعن الصوت قائلات : عذراء «روساريو» عذراء «تبلين» إن كلتيهما حامية لنا .

(٣) يقول ايضا :

ترك كثير من المورسكيين وصايا طيبة لصالح المعابد الشهيرة قبل أن يرحلوا ، كان بينهم تجار عينوا «سان خوليانا» ، وآخرون تركوا للعذراء «انيستا» اربعة آلاف دوكادوس .

(٤) يقول «جاسبر دى اجيلار» ص ١٧٤

فى الجانب الآخر من «بيتيس» ، ترى الساحة الواسعة «فى تابالدا» مغطاه ، هناك مسلمون ومسلمات فى ميناء «قادس» ، ينتظرون المراكب ، بينهم من تبكى زوجها الميت ، وهناك تقف مورسكية أخرى فى داخل مركبة جيدة فخمة ، عندها ثلاثة أولاد فيهم رشاقة وجمال ، اكبرهم طفل صغير لا يكاد يمشى ، يتعب لأنه صغير ، ومن لحظة لأخرى تمنحة الام حنانها ، والأوسط اللطيف يتعب ايضا ، ويظهر أن الثالث قد تعب من الطريق ، والأم تنادى فى مودة : ليؤخذ الثلاثة فى مركب ولتمض»

الاغنياء والاقوياء المتجمعون يسبون ويهددون بأصوات فيها نغمة الانتقام ، وهم يأملون أن يعودوا إلى اسبانيا (١) ، وبهذا يتسببون في قلق مؤكد.

وفي مقابلة الصورة الحزينة التي يقدمها لنا الفقيه العجوز المشلول الذي لابد من حمله على كرسي (٢) ، فاننا نرى صوره آخرى جيدة تنعكس الأوضاع من خلالها : موريسكيتان ، احداهما عجوز ، والأخرى شابه جميلة ، وصلتا إلى الميناء في مركبته فخمة ترافقهما الموسيقى والرقص (٣) لكننا لا نكاد نشعر بهذه المناظر حتى نفقدها في الاعداد الهائلة من رجال ونساء يهتمون فقط بالمحافظة على صرر الملابس وأدوات العمل التي يمكنهم بها استئناف حياتهم في الشمال الافريقي (٤) .

نفس الشاعر «جاسبر دي اجيلار» يعكس لنا التفاؤل الظاهري المرحب بطرد الموريسكيين من بلنسية ، في قصيدة مشهورة يذكرها كل المؤلفين ،

---

(١) يقول «جاسبر دي اجيلار ص ١٧٥

انظر ايضا في الناحية المقابلة ، ترى جماعة من الموريسكيين الشجعان البواسل ، انهم يمضون في تؤده وملابسهم مليئة بالزينات ، أنهم داخل عربات ، وآخرون في مؤخرة السفينة ينتظرون حظهم ويقولون مع تهديد ووعيد : اذا كانت عناية السماء معنا ، فلابد أن نعود لاسبانيا .

(٢) يقول نفس الشاعر في نفس الصفحة :

انظر الى البوابة المشهورة ، باشبيلية الرملية ، ترى أناسا يغطيهم العرق والتراب ، هناك مسلم عجوز على كرسي ، الامل فيه مفقود تماما ، إن حمله معجزة ، وقد علق على جبهته ووجهه ورقة كتب فيها : «إن فقيه القرآن ملعون» .

(٣) يقول نفس الشاعر في نفس الصفحة :

هناك ترى موريسكيات على كراسي وترى مركبة جيدة فخمة ، تحمل موريسكية عجوز وآخرى شابه . يتبع هؤلاء أناس كثيرون ، يرقصون ويغنون ويستخدمون الموسيقى ، يأتي بعدهم أناس كثيرون مسرورون سعداء ، لأن نور الأندلس السعيد ، يعبر إلى بلاد الشمال الافريقي

(٤) يقول نفس الشاعر في الصفحة نفسها :

إن الكل يمضي فرحا سعيدا في محاولة للبرهنة على مشاعرهم المجيدة البعض يحمل سلالا كبيرة ، والبعض يحمل آخرى صغيرة ، تحوي الزاد الضروري جدا كل فقير يحمل اسفاطا وادوات ميكانيكية وآجهزة متواضعة ، يحتاجها لممارسة الحرفة التي يعرفها ، فأمله أن يتمكن من العيش في أي مكان يريد .

ويروي الشاعر نفسه في نفس القصيدة خروج الموريسكيين الاندلسيين من ص ١٧٠ الى ص ١٨١ ويخصص بعض الأبيات لخروج الموريسكيين الأراجون .

انظر

Julio caro Baroja : los moriscos ... PP. 227 - 231 وما بها من تعليقات

تقول : سادة المسلمين وحدهم ، هم الذين جاءوا لأفناء دولتهم ، انهم يقيمون فى قطع مقسمة من الأرض ، بسلطة الفقراء جاءوا ، والمملكة لم تفقد شيئا فى النهاية ، لقد بقوا الآن لأن كل شئ قد تغير ، الفقراء أصبحوا أغنياء والاغنياء فقراء ، والفتيان أصبحوا كباراً والكبار فتيانا .

وهناك انشودة آخرى «لجاسبر دى اجيلار» ايضا ، تعالج عدم سعادة المسلمين بسبب ما تعرضوا له من طرد ، وتتحدث عن النعيم اللامتناهى الذى سيعم كل اسبانيا نتيجة لطردهم .

وقد ترك لنا «أثنار كاردونا» صورة عن مغادرة الموريسكيين للقرى الأراجونية التى يعرفها أفضل ، هذه القصيدة قوية وغنية بالعواطف الجياشة [١] .

وليست هذه هى القصائد الوحيدة التى تعبر عن القضية الموريسكية بعبارات مشابهة ، انها لكثيرة تلك القصائد الأخرى ، بعضها حافل بالمعانى وبعضها ليس كذلك ، وكلها يثنى على فيليب الثالث باعتباره بطل المأثرة الكبرى : طرد الموريسكيين [٢] ونحن نعرف أن بعض الموريسكيين قد عادوا إلى اسبانيا فرادى أو فى صورة مجموعات ، وهذا أحد الموضوعات الشهيرة التى حظيت باهتمام الادب الاسبانى .

كتب «كابريرا دى قرطبة يقول : لقد بدأ كثير من الموريسكيين يعودون بعد الطرد إلى الاماكن التى نفوا منها ، وقد ذهب وفد من المسيحيين إلى الكونت سالازار ، ليعاقبهم على ذلك وليطلب من القضاة والمسئولين عدم السماح لهم بالبقاء ، وقد ذهب وفد إلى عدد من القرى الصغيرة فى نفس

---

(1) Aznar cardona : expulsion... Fols. 5 y 6

ويمكن مقارنة وصف هذا المؤلف للخروج بوصف جاسبر دى اجيلار لنفس الموضوع والخاص بخروج الموريسكيين البلنسيين ، وهو يمدح روح الفداء والنبل البلنسى بصفة عامة ، وقد مر وصفه هذا فى ص من هذا البحث .

(٢) انظر مثلا المؤلفات اللاتينية الموجودة فى آخر كتاب «جاسبر دى اجيلار» من ص ٣٠٩ - ٢٣٢ ، أو العلاقات الموريسكية بأليف Bauer من ١٨٠ - ١٨٢ وانظر

J.C. Baroja : los Moriscos ... P. 234, Note 128

حيث يشير الى كتب ونصوص عديدة تمدح فيليب الثالث لقراره الخاص بطرد الموريسكيين .

المنطقة ، فوجد بها اكثر من ٨٠٠ موريسكى ممن عادوا ، فأرسل بعضهم إلى السجن ، وبعضهم للعمل فى مناجم الزئبق ، وذهب الباقون مرة آخرى إلى خارج المملكة وفقا لما تقرر بشأنهم ، وهكذا اتخذت الاجراءات ضدهم وحوكم الذين رجعوا حتى لا يبقى أحد منهم بهذه المملكة» .

وكان من بين آسباب طرد الموريسكيين من «وادى ريكوتى» أنهم استقبلوا بعض من رجع من المسلمين المنصرين[1] ، هذا ما يشير اليه الموريسكى ريكوتى صاحب الدكان والجار والصديق «لسانشوبنزا» الذى خرج من اسبانيا بعدما صدر مرسوم الطرد الاول وبعد أن اخفى ثروته إلى أن يجد مكانا يستقر فيه بأوربا ، وهو الذى وجد مكانا مناسبا للعيش فى المانيا ، فعاد متنكرا فى ملابس الحج ، بهدف أن يأخذ كنزه ويحمله إلى ابنته ، بطلة الفصل الأخير من ريكوتى ، وهو من اكثر الفصول تعقيدا ، وقد مرت الإشارة إلى كل ذلك .

وليس مصادفة أن يجعل «ثيرفنتس» اسم ريكوتى علما على فصل مهم فى «كيخوتى» ، إنه يعكس وقع الطرد النهائي لدى الرأى العام ، وقد شغل جميع من علقوا على «ثيرفنتس» نهذه القضية ، وأخيرا قال «ماركيزدى بيانوبيا» إن الموريسكيين فى «ريكوتى» كانوا رهائن جدال بين الأصوليين والمعتدلين ، وقد أنتهى الأمر بأنتصار الفريق الاول بصورة حاسمة وتأكدت سيطرة المقاييس الانغلاقية فى اليساسة الاسبانية ، وقد تحول اسم هذه البلدة بفضل «تيرفنتس» إلى اسم يشير لأمر قاطع هو أن الموريسكى المنتسب إلى لامنشا» ، هو بدورة نموذج لشخصية بريئة ، وقد أراد ثيرفنتس لشخصيته النبيلة أن تكون ذكرى حية لآخر فصول هذا الطرد واكثرها بعثاً للأسى ، والتي رآها تمدح من حوله كما لو كانت مأثرة مجيدة [2] .

(1) Cabrera de cordobla : relaciones... P. 522, 29 Junio 1613.
J.C. Baroja : los moriscos... P. 237 Note 1

(2) F. Marquez villanueva : personaje y temas del quijote
وفى الصفحتين ٢٣٢ ، ٢٣٣
تعريف كامل بفكر «ثيرفنتس» فيما يتعلق بموضوع الموريكيين وما عرض له من تفسير وانظر :
A. Dominguez : Historia... P. 200.

إن الحوار بين «ريكوتى وسانشو» حوار معبر من عدة جوانب يبرز من بينها ما يلى : -

١- إنه يشير إلى ان عودة الموريسكيين كانت أمراً عاما بينهم جميعا ، يقول «ريكوتى» إن رغبتنا الأكيدة أن نعود جميعا إلى اسبانيا ، فمعظم هؤلاء والكثيرون ممن يعرفون اللغة كما أعرف ، يعودون اليها ، ويتركون هناك نساءهم وأبناءهم بدون حماية .

٢- يبدو أن المانيا هى البلد الذى عاشوا فيه متمتعين بحرية أكثر .

٣ - يفهم من الحوار أن الموريسكيين كانوا درجات فيما يتعلق بمدى قبولهم للعقيدة الكاثوليكية ، يستوى فى ذلك الرجال والنساء ، فريكوتى متردد ،وزوجته وابنته كلتاهما مسيحية ، وصهره مسلم مرهف .

٤ - يشير إلى بعض العلاقات المتميزة بين الموريسكيات الشابات الجميلات ، وبين الشبان المسيحيين ، بما فى ذلك ابناء النبلاء الشئ الذى يوحى انه كانت هناك لقاءات متفرقة بل وحتى زيجات حب .

كذلك فإن شهرة الثروات التى تركها الموريسكيون مختفية فى بعض الأماكن ، أتاح الفرصه لبعض الحكايات الروائية ، منها واحدة تقليدية موجودة فى رواية «عمل الخير لا يضيع» ، وهى الرواية السادسة من الروايات التى جمعها السيد «الونسو دى كا سيتو سولور زانو» تحت عنوان «المتعة» وفيها يظهر موريسكى من بلنسية يتكلم اللغة البلنسية - وليست العربية - وقد ساعد فارسا أيسراً من الجزائر ، فأرشد هذا الفارس الأسير ذلك الموريسكى إلى المكان الذى كان عمه قد أخفى فيه ١٦ الف «اسكودوس» معدنية أنتظاراً لثورة أو تمرد يقوم بها بنو جنسه (١)

وقد وصف الموريسكى «ميتى» حياة أسرته بهذه العبارات :

أجدادى الذين بقوا بعد فتح الملك «خايمى الاول» لبلنسية ، كانوا يقيمون فى مكان بهذه المملكة يدعى «بينال جواثيل» ، وكانوا فى اسبانيا يدعون بالموريسكيين ، وهناك زرعنا - بعناية - أرضنا الموروثة والموجودة

(1) Alonso de castillo solorzano : Novelas de placer P. 252 - 260

نقلا عن

J.C. Baroja los moriscos... P. 238

بين المسيحيين ، وكانت لنا حكومتنا التى ما عرفنا الحاجة اليها ، ازاء الرخاء الذى حققناه لسادة الاماكن الذين نخضع لهم ، والذين قدمنا لهم مساعدات جدّ وفيرة [١] .

وبين من هاجروا إلى الجزائر مجموعة حافظت على عقيدتها المسيحية ، فقد كان يعيش فى مدن هذا البلد ؛ وفى المدن الافريقية الآخرى ، مجموعة تتكلم «الالخميادو» وتحافظ على اللغة حتى زمن متأخر ، وهناك أسماء يذكرها بكثرة المشتغلون بالادب الورسكى مثل خوان الفونسو وابراهيم دى بولفاد ومحمد الجوازير (الوزير) ، وقد كتب «خوان الفونسو» - وكان يقيم فى مدينة تطوان ، احد مراكز تجمع المورسكيين - بعض الموشحات أو الأغانى الشعبية ضد الدولة الاسبانية نذكر من بينها :

«الجسم الاسبانى اللعين المنتن إنه ذو رءووس ثلاثة على باب جهنم [٢] وقد الف الاب «دياجو دى هايدو» كتابا ممتاراً عن «طبوغرافية وتاريخ الجزائر العام» ذكر فيه بعض الحقائق اعتمادا على بعض القصائد الشعبية ، يقول :

إن من بين مجموعات المورسكيين ، تلك المجموعة التى كانت تعيش فى ممالك غرناطة وأراجون وبلنسية وقطالونيا ، ثم توجهوا من هذه البلاد مع نسائهم وأبنائهم إلى فرنسا ، فتلقاهم الفرنسيون بالترحاب ، وقد ركبوا البحر من «مرسيليا» ومدن فرنسية أخرى ، وانقسم هؤلاء إلى مجموعتين - حسب الاماكن التى جاءوا منها - ، وكان يطلق على بعضهم كلمة «مودخر» وهم الذين قدموا من غرناطة والاندلس ، والآخرون كانوا يسمون «تاجارينوس» يعنى مسلمون اقاموا فى بلاد النصادى من هؤلاء الذين وفدوا من اراجوان وبلنسية وقطالونيا ، كان هؤلاء بيض اللون ، واستعدادهم جيد ، مثل كل من ولدوا فى اسبانيا أو أتوا منها ، وهم

---

(١) المرجع السابق ، التعليق رقم ٤ ص ٢٣٨ .

(2) Saavadra : P. 170.

وهناك موجز عن الشعر المورسكى من عمل

Donadolfo de Castro : biblioteca de academia espanola, XLII, PP. XIII - XVI
J.C. Baroja : los moriscos... P. 240, Nota 6

كثيرون ويعملون فى مهن مختلفة لأنهم جميعا يجيدون حرفة أو اكثر ، فبينهم من يصنع البنادق ، وبعضهم يصينع أوان ، وبعضهم يعد الملح ، وبعضهم يعمل حداداً او نجارا أو بناء أو ترزيا أو سباكا ، وبينهم من يصنع القدور أو يبيعها ، بالاضافة إلى مهن اخرى ، وكثير منهم يعملون فى زراعة وتصنيع وتسويق الحرير ، وعند بعضهم محلات تباع فيها كل اصناف التجارة .

وكلهم بصفة عامة من اكثر الناس عداء وبغضا للمسيحيين ، فهم ماانقطع ظمؤهم ، ولا جوعهم الشديد ضد الدين المسيحى، وهم يلبسون كما يلبس الاتراك عامة ... والأن يوجد فى الجزائر حوالي الف منزل من هؤلاء ، وقد ذكر «كانوفاس» هذا النص لمؤلف الكتاب وأيده بقصائد ذات طابع شعبى مثل :

مورسكى من قشباله خدعتى - وانه لمجرم كافر ضال
يقيم فى جبل صغير - على بعد رسخ من الجزائر

وقد عاد بعض من هاجروا لافريقية الى الاسلام ، واعلنوا ذلك بوضوح حتى قبل مغادرتهم اسبانيا ، وكانوا يتزوجون ثلاثة أو اربعة نساء ، وقد تنكروا وتصنعوا حتى لا يتمكن أحد من الإخبار عنهم ... (١) ، وبعض من طردوا عملوا فيما يسميه الاوربيون قرصنة وهو فى حقيقة أمره جهاد ضد أعداء الله الذين حرموا المواطن المسلم من أبسط حقوقه (٢) ، وقد ذهب بعضهم الى القسطنطينية وسالونيك وبعضهم الى موان أخرى فى الشرق

(١) انظر : - Diego de Haedo : topagraphia e H istoria general de Argel, Fol. 9
Canovas (Antonio) ; la Contestacion del discurso de saavadra : memorias de la real academia espanala VII, Madrid 1889, PP. 193 - 236.
- Salzas de Mendoza, pedro : origen de las dignidades ... Fol. 184 r.
- J.C. Baroja : los moriscos ... P. 239 Nota 5.

(٢) عن جهود هؤلاء انظر :
los relaciones o "pliego de cordel" de la tercera decada del siglo XVII
المنشورة فى مالقة ، واليها تشير ايضا مطبوعات اخرى فى الجنوب .
انظر كذلك :
Andres sanchez perez : los moriscos de Hornachos, corsarios de sale, Badajoz., 1964.
وانظر بعض التفصيلات عند
J.C. Baroja : obera citada, P. 241, Nota 11.

الادنى كما مرّ ذكره ، وورد لهم ذكر فى بعض الاعمال الادبية .

يقول «جونثالث بالنثيا» فى «ثيرفنتس والمورسكيون» ص ١١٦ - ١٢٠ :

لكى نبين الدور الذى قام به «ريكوتى» ، نقتبس الرسالة التى بعث بها أحد مواليد وادى مدريد واسمه «أنطونيو دى أوكانيا» ، وهو من المورسكيين الذين نفوا من اسبانيا وتوجهوا الى الجزائر ، وقد بعث بهذه الرسالة من منفاه فى الجزائر إلى صديقه فى الوادى المذكور ، ولفت فيها نظره الى الاحوال هناك عنده ، وفيها يروى سلسلة من المغامرات غير العادية التى قام بها مورسكيون بعينهم ، وصلوا الى القسطنطينية ثم تركوها عائدين الى اسبانيا ، بهدف كنوز كانت مدفونه هناك منذ الطرد ، ثم عادوا وماتوا فى القسطنطينية بعد الرحلة الثانية ، بسبب ما نالهم من تعذيب لكونهم مسيحيين (١) كما يزعم

ومعروف ايضا أن العمارة وأسلوب المبانى الاسلامية قد تركت تأثيرها على المدن فى جنوب اسبانيا ، وكانت الشرفة (النافذة) واحدة من العناصر المهمة عند الادباء ، ففى الاعمال الرومانسية والاغانى الشعبية ذات الطابع الروائى ، اشارة الى أن الشرفات كانت مصدر الهام بشكل عادى جدا ، فمنها تأملت السيدات مآثر الفرسان فى المبارزات والبطولات (٢) وفيها جرت المناقشات العاصفة بين المحبين (٣) ، وهناك اجتر العاشق مآسيه

(١) يمكن قراءة هذه الحكاية كاملة فى مجموعة Baues
Papeles de mi archivo, Relaciones de Africa (Argel) IV, PP. 31 - 38 .
ونظر ايضاً «اثنار كاردونا» حيث يشير الى بعض الاغنيات الشعبية التى لها صلة بهذا الحدث المصطنع انظر : 7r.Fol
J.C Baroja : los mariscos... P.241 Notas 14 y 15.

(٢) نقرأ فى القصيدة او الاغنية الخامسة عشرة للمسلم «جاذول»
الف سيدة مسلمة تنظرن من الشرفات والنوافذ
uran 1, P. 20 (Num 43)D
وفى ظروف مشابهة قال المسلم موسى فى بطولة «جلفيز» (الاغنية الثالثة من مسلسله) ... فى كل شرفه الف امرأة معشوقة

(٣) زيدى المسلم يعتب على حبيبته على خيانتها له بهذه الكلمات (القصيدة ٣ من مجموعته) :
«ألست أنت التى قلت فى الشرفة ذات مساء ، أنت انا ، أنالك وسأكون لك وحياتى لك يازيدى» ؟
ونقرأ بيتا آخر فى نفس القصيدة يقول : خرجت «ثيلندا» الى الشرفة وفى الأغنية الرابعة من مسلسله زيدى ، يقول «اريولان» فى المقطع الأول : انظر الى شرفة «جوهالا»
Duran I, P 26 (Num 53 y 54 y P. 83 (Num 160)

وتحدث عن بطولاته وحماسه (١) . كما اجتر الملك صعوبات وزارته (٢) .

بعض هذه الشرفات ، كما تعودنا أن نراها فى الصورة المصغرة ، تبدو معلقة على قمة جبل يمثل شكل هرم ، وقد تكون مزخرفة فى بعض الاحيان ، وهذا مانراه فى الاغنية الثالثة للمسلم «طرفى» (٣) . واحيانا يحل الشباك الحديد محل الشرفة (٤) ، وهذا الشباك الحديدى يقع فى أعلى البرج (٥) ويدهن باللون الازرق (٦) ومن هناك تصدر - اشارات المحبة بين المحبين(٧) .

الابراج ، والشرفات ، والشبابيك الحديدية ، ورءووس الأبراج على شكل الهرم والحدائق الصغيرة المحاطة بأسوار قديمة والتى لاترى فى داخلها شيئا تقريبا ، اللهم الا بعض النخيل يبدو بارزا ، حسبما يظهر فى القصيدة الأولى لابن امية (٨) .

العمارة الرئيسية الغرناطية فى القرن السابع عشر على الاقل ، لم تستغن عن هذه العناصر ، ولا عن الاسقف المصنوعة من القرميد ، ولا عن انواع معينة من الطوب المحروق . يكفى أن تمر بغرناطة وغوطتها وبقليل من التأمل تجد أن هذا ملحوظ بها بشكل ثابت .

---

(١) كان «ازاركى» فى شرفة بمنزله يفتخر ببطولاته (الاغنية الثالثة من سلسلة
Duran l, P. 10 (num 24)

(٢) جاء فى الاغنية الثانية ل «ثيلين» لقد ذهب الملك الى شرفته
l, P. 61 (Num 116)

(٣) انظر : Leopoldo torres Balbas : Miniatura Hispano - Musulmanas, P.196 - 202.

(٤) فى شرفة برأس البرج ، هى أعلى ما فى البرج Duran l, P. 53 (Num)

(٥) يبدو ابو عبد الله فى القصيدة الثانية من مسلسله «فى شباك البرج»
l,P. 56 (Num 111)

(٦) نقرأ فى الاغنية الثانية ل «أودايا» ضع فى شبابيك البرج الزرقاء l, P. 65 (Num 127)

(٧) يتوجه «زيدى» فى المجموعة التاسعة من مسلسله الى محبوبته بهذه الكلمات .
للاعجاب الذى تستقبلين به عندما تدورين حول منزلك ، اذا كنا نهارا تخرجين للنوافذ توا ، واذا كنا ليلا ، اجدك فى الشرفات أو الشبابيك Duran l, P. (Num 59)

(٨) انظر الى البيازين ، حيث تعيش سيدتك ، الابراج المزخرفة والأسوار القديمة من خلال ما فيها من حديقة ترى هناك نخلة مغروسة . وهناك حديقة فى الاغنية الثانية ل «مانيلرو»
وانظر فى كل ذلك Duran l, P. 49 (Num 99)
وما بها من تعليقات J.C Baraja : los moriscos PP 252, 253

هذه لمحة سريعة أوضحت أن القضية المورسكية احتلت مكانا بارزا فى انتاج الأدباء فتحدث بعضهم عن مكانة المورسكيين فى المجتمع ، وعن موقف الرأى العام منهم ، وبين ما تخصصوا فيه من حرف ومهن ، واستهزأ بهم وسخر منهم أحيانا . وعندما تقرر طردهم ، لم يفت الادب أن يقدم لنا لوحة فنية كاملة الوضوح عن خروجهم ، ومناظر جموعهم وأماكن تجمعاتهم ، وشرح لنا عوائدهم وأخلاقهم وطباعهم سواء فى مواطنهم الجديدة أو عندما كانوا فى اسبانيا ، كما بين تأثير خروجهم على اوضاع تلك البلاد الاسبانية .

وهكذا نرى أن يمكن الاستعانة بالانتاج الادبى على تقديم فكرة جيدة عن هذا القطاع الهام من المجتمع الاسبانى المسلم ، الذى أريد له أن يكون نصرانيا بالقوة الغاشمة ، فإن لم يستجب فالويل والنضال والتعذيب ومآسى محاكم التفتيش . إنها تضيق الخناق عليه وتقتات على حسابه ، وتراقب حركاته وسكناته ، ولا تتركه الا بعد اعتصاره ليصبح جثة هامدة . ثم كانت مأساة المآسى ، حين قضى عليه المتعصبون وضيقوا الأفق ، بمغادرة موطنه ومفارقة أهله وذريته وتبديد ماله ، ومانظن أن شعباً بأكمله ، تعرض لما تعرضت له هذه الأمة ، أو ناله مانال هذا الشعب الأبى فى جملته الصبور المجاهد فى سبيل دينه وأمته .

إن دراسة انتاج المورسكيين ، وما كتب بشأنهم فى مختلف الالوان الأدبية الاسبانية ينبغى أن تفرد له دراسة خاصة . والحمد لله فى الأولى والآخرة .

كلمة اعتزار

كان من المقرر أن يتم إعداد فهارس كاملة لهذا الكتاب تتضمن الاعلام والأماكن التى ورد ذكرها فيه ، مع كتابتها بالحروف العربية وكتابة مقابلها بالحروف اللاتينية .

ونظراً لاعتبارات فنية تتعلق بصعوبة طبع هذا النوع من الفهارس ، ولضيق الوقت ، فإننا نعتذر عن القيام بذلك الآن ونأمل أن نتمكن من تقديمه فى الطبعة القادمة .

وإلى أن يتم ذلك فإننا نحيل مؤقتا على كتاب الاستاذ «محمد عبد الله عنان» تحت عنوان :

«الأعلام الجغرافية والتاريخية الأندلسية باللغتين الاسبانية والعربية ، مرتبة على حروف المعجم» ، صدر فى مدريد سنة ١٩٧٦ م

وفيما يتعلق بالأماكن نحيل على كتاب الأستاذ

«لويس سيكودى لوثينا » luis seco de lucena

وعنوانه : «غرناطة زمن بنى نصر فى القرن الخامس عشر الميلادى»

la granada Nazari del siglo XV

كذلك نرجو مراجعة الخرائط المثبتة آخر هذا البحث .

عبد الله جمال الدين

المصادر والمراجع

رأينا إثبات المصادر والمراجع التى أفادت وتفيد فى دراسة موضوع الكتاب مرتبة حسب ألقاب المؤلفين مع عدم مراعاة الاضافات مثل ابن ، ابو ، اداه والتعريف ... الخ

أولا : المراجع العربية

ابن إياس : ابو البركات محمد بن أحمد بن إياس زين الناصري

(١) بدائع الزهور فى وقائع الدهور المعروف بتاريخ مصر طبع بولاق - القاهرة سنة ١٣١١هـ فى ثلاثة مجلدات

الباجى : أبو عبد الله الباجى المسعودى

(٢) الخلاصة النقية فى أمراء أفريقية طبع تونس

بشتاوى : عادل سعيد

(٣) الأندلسيون المواركة ، دراسة فى تاريخ الأندلسيين بعد سقوط غرناطة ، القاهرة ١٩٨٣ م

بوجندار : محمد

(٤) مقدمه الفتح عن تاريخ رباط الفتح ، الرباط ١٣٤٥هـ أنظر «ابن عبد الرفيع»

التميمى : عبد الجليل

(٥) أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول . مقال بالمجلة التاريخية المغربية ، تونس ، العدد السادس يوليو ١٩٧٦

(٦) دين وهوية المورسكيين الأندلسيين ومصادر وثائقهم

تعريف بالمؤتمر الذى انعقد تحت هذا العنوان بتونس سنة ١٩٨٣ ، اعداد عبد الجليل التميمى ، نشر فى المجلة التاريخية المغربية ، السنة الحادية عشرة ، العددان الثانى والثلاثين والثالث والثلاثين ، يونيو ١٩٨٤م

جمال الدين : عبد الله محمد

(٧) المورسكيون أو المدجنون ، آخر المسلمين في الأندلس . مقال

مترجم - مع مقدمة وتعليقات - عن اللغة الاسبانية تأليف رينيهولد كونتزى ، الأستاذ بجامعة توبتجن بالمانيا الغربية ، منشور فى حولية كلية دار العلوم العدد الثامن ١٩٧٧ / ١٩٧٨ ، مطبعة جامعه القاهرة سنة ١٩٨٠م

الحميرى : أبو عبد الله محمد بن عبدالمنعم

(٨) صفة جزيرة الأندلس ، منخبة من كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار ، نشر وتعليق وتصحيح ١ . لافى بروفنصال فى مجلدين يضم الأول منهما النص العربى ويضم الثانى ترجمة فرنسية ، القاهرة ١٩٣٧م

ابن أبى دنيار : أبو عبد الله محمد بن أبى القاسم الرعينى القيروانى

(٩) المؤنس فى أخبار أفريقية وتونس . الطبعة الثالثه تونس ١٩٦٧م

داوود : محمد

(١٠) مختصر تاريخ تطوان

السقا : مصطفى أنظر : المقرى

السلاوى : ابو العباس أحمد بن خالد الناصرى

(١١) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ١٠ أجزاء الدار البيضاء سنة ١٩٥٤م

الشناوى : محمد عبد العزيز

(١٢) الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها أجزاء ، القاهرة سنة ١٩٨٦م

عباس احسان : أنظر : المقرى

ابن عبد الرفيع : محيد بن عبد الرفيع بن محمد الشريف الحسينى الجعفرى الأندلسى

(١٣) الأنوار النبوية فى آباء خير البرية ، مخطوط بالمكتبة الكتانية بالرباط ، وقد نقل محمد بوجندار الفصل الخاص بالمورسكيين الأندلسيين المهاجرين ونشره فى كتابة : مقدمه الفتح عن تاريخ رباط الفتح ، الرباط

١٣٤٥هـ وأنظر «بوجندار»
عبد القادر : نور الدين
(١٤) نشر كتاب غزوات عروج وخير الدين الجزائر ١٣٥٣ هـ - ١٩٣٤ م
عنان : محمد عبد الله
(١٥) نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، القاهرة الطبعة الرابعة ١٩٨٧م
(١٦) أندلسيات ، وهو الكتاب العشرون من سلسلة كتاب العربى التى تصدر عن دولة الكويت يوليو ١٩٨٨م
قشتيليو : محمد
(١٧) محنة الموريسكوس فى اسبانيا ، تطوان بالمغرب ١٩٨٠
مصطفى : أحمد عبد الرحيم
(١٨) أصول التاريخ العثمانى ، القاهرة ١٩٨٢
كونتزى : رينينهولد
أنظر : جمال الدين
المقرى : شهاب الدين أحمد بن محمد المقرى التلمسانى :
(١٩) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وتاريخ لسان الدين ابن الخطيب .
طبع فى بولاق بالقاهرة فى مجلدين ، ثم أعاد «إحسان عباس» نشره فى عدة مجلدات ، بيروت ١٩٤٨م
(٢٠)أزهار الرياض فى أخبار عياض
نشره مصطفى السقا وزميله ، القاهرة ١٩٣٩م
ميللر : نشر أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر لمجهول ، جوتنجن ١٨٦٣
هوراس : انظر : اليفرنى
اليفرنى : ابو عبد الله محمد الصغير بن الحاج محمد بن عبد الله السوسي المراكشي

(٢١) نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادى ،طبع فاس بدون تاريخ طبعة حجريه ، وطبعة أخرى بعناية لمستشرق الفرنسى «هوداس» باريس سنة ١٨٨٨م

مجهول :

(٢٢) أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر ، نشر بعناية الأستاذ ميللر ، جو تنجن ١٨٦٣ ، وهو نفسه

نبذه العصر فى أخبار ملوك بنى نصر - نشر بعناية معهد فرانكو ، العرائس ١٩٤٠

مجهول :

كتاب غزوات عروج وخير الدين نشر بعناية نور الدين عبد القادر ، الجزائر ١٩٣٤

ثانيا : المراجع الأوربية

تثبت هنا أهم المراجع الأوربية لدراسة الموضوع مرتبة أبجديا .

Aguilar Gaspar :

(1) Expulsion de los Moriscos de Espana Valencia , Espana 1610

Anderson :

(2) Naval wars en the levant, leverpool 1953

Andrew C. Hess :

(3) the moriscos : An ottoman Fifth column inXVI century spain

مقال منشور فى

the american historical Review L XXX IV

Arco (Ricardo del)

(4) La sociedad Espanola en las dramaticas obras de lope de Vega , Madrid 1942 .

Asenso . E

(5) Estudios de historia moderna , IV

Barceloña , Espana 1954 .

Asso (ignacio de)

(6) Historia de la economia politica de Aragon .

Zaragoza , Espana 1947 .

Astrain (cabcudo)

(7)noticias y doumentos sobre moriscos Aragoneses .

Miscelanea de estudios Arabes y Hebriacos Granada , V , 1956

Aznar cardona : pedro

(8) Expulsion justificada de los moriscos Espanoles ... Huesca 1612 .

Babana : juan . B .

(9) Itenerario de Reyno de Aragon a donde andou os ultimos meses de anno de 1610os primeiro de 1611 , Zaragoza Espana 1895 .

Bannasar (B) :

(10) Valladolid au siecle d, or , paris 1967.

Bauer (Ignacio Landauer) :

(11) Papeles de mi archivo , relaciones y manuscritos (Moriscos) Madrid S.F (sin fecha)

Benitez (Rafael sancho Blanco) :

(12) guerra y sociedad, Malaga y los ninos moriscos cautivos . Studis , vol . III ano 1974 . PP 31-54 .

Bleda (Jaime) :

(13) Coronica de los moros de Espana , valencia 1618.

Boronat y Barrachina (Pascual) :

(14) Los moriscos Espanoles y su expulsion , 2 vols , valencia , Espana 1901 .

Braudel (Fernando) :

(15) La mediterrananee et le monde mediterraneen a l' epoque de phelippe II paris 1949 , 1966 y 1976

وقد ترجم هذا العمل الي القشتاليه (الاسبانيه) Mario Montefort Toled مع آخرين تحت عنوان

El mediterraneo y el mundo mediterranea en la epoca de felipe 11,2 vols , Mexico 1953 .

Buns (Miguel angel de) :

(16) Los moriscos en el pensamiento historico , Madrid 1983 .

Cabanillas Rodrigues (Darillo) :

(17) Proyecto de alianza entrelos sultanes de Marruecos y Turqia contra Felipe II

مقال منشور فى مجلة

Miscelanea de Estudios Arabes y hebraicos , Granada , Espana 1957 .

(18) El morisco granadino Alonso del Granada y castillo , grana, Espana 1965 .

Cabrero de cordoba (Luis) :

(19) Relaciones de las cosas sucedidas en Espana desde 1599 hasta 1614 Madred 1857 .

CaBriana (Micolas ciezar :

(20) Esclavos moriscos del sigloxvi

Al-Andalus xxII 1957.

Caranada : (Ramon) :

(21) gobernantes y gobernados en la hacienda de castilla 1536-1556 , Arbor XVIII 1951 reproducido en siete estudios de Historia de Espana , Barcelona , Espana 1969.

Cardaillac (Louis) :

(22) Morsques et chretiens , un affrentement polemque 1492-1640 , paris 1977.

(23) Morisques et protestant , Al-Andalus xxxvI 1971 pp 29-63 .

Caro (Julio ... Baroja) :

(24) Los moriscos del reino de Granada Madrid Espana 1976 .

Castillo (Alvaro) :

(25) La coyunturo de la economea valenciana en el siglo xvII .

Anuario de historia economia y social II ,

Castro (Americo) :

(26) Espana en su historia , cristianos , Moros and judios . Buenosaires Argentina 1948 .

Cavarrubias (Sebastian de) :

(27) Tesoro de la lengua castellana o Eapanola Barcelona , Espana 1943 .

Cavillac (Michel) :

(28) Amparos de pobres "clasicos Castillanos" Madrid 1975 .

Celestino Lopez martinez :

(29) Mudejares y moriscos sevillanos , sevilla Espana 1953 .

Ciscar pallares (Eugenio) :

(30) Los cortes valencianos de Felipe III valencia , Espana 1973 .

(31) Prestamistas moriscos en valencia , cuadernos de historia N.5 , ano 1975 .

Cock (H) :

(32) Relaciones del viaje hecho por Felipe II en 1585 a zaragoza , Barcelona y valencia ... Madrid 1876.

Codoin :

(33) Coleccion de Documentos para la historia de Espana , Madrid 1842-1843.

Comara (Jacinto) :

(34) Estudios demograficos sobre la industeria en Elche , Alicante, Espana 1958.

Chaunu (Pierre) :

(35) Minortes et conjancture. l' expulsion des Morisques en 1609.

Revue Historique ccxxv , 1 , 1961.

(36) Sevilla et l , Atlatique

Chejne (Anwar de) :

(37) Islam and the west , the moriscos , a cultural and social history , Newyork 1983 .

Danvila y collado (Manuel) :

(38) La expulsion de los moriscos Espanoles Madrid 1889.

Davila Gonzales :

(39) Teatro eclesiastico de la Iglesia de Avila

Dominguez : (Antonio ...ortiz) :

(40) Historia de los moriscos , Vida y tragedia de una menoria , Madrid 1979 , vease : Bernard vincent .

(41) Crisis y decadencia de la Espana de los Asturias , Barcelona , Espana 1969.

(42) Felipe IV y los moriscos , Miscelanea de estudios Arabes hebraicos , N. VIII. ano , 1959 , PP. 55-65.

(43) Alteraciones andaluzas ,Madrid 1973 .

Doncel (juan arnada) :

(44) Potencial economica de la poblacion morisca en Cordoba .. boletin real academia ciencia bellas letras y nobles artes , 1972 .

Duran (Agustin) :

(45) Romancero general , 1 , 11 , Boletin ACADEMIA Espanola) X , XVI

Echegaray (Bonifacio de) :
(46) Se establicieron los moriscos en el pais vasco de Francia. ?
Bulletin Hispanique , XLVII , 1945 , PP . 92-102.
Epalza (Miguel de) :
(47) Studes surles moriscos Andalaus en Tunisie , Madrid 1974 .
(48) Moriscos y andalusies en Tunez durante el siglo XVII Al-andalus XXXIV , 1969 .
Escolano (Gaspar) :
(49) Decadas de la insigne y coronada ciudad y reyno de valencia. ed. por.j.B. Berales , valencia , 1878-1880 y columna 1972 .
Fernandez y Gonzalez (Francisco) :
(50) De los moriscos que permanecieron en Espana despues de la expulsion decretada por Felipe III .
Revista de Espana XIX , XX , 1877 , 1881 .
Ferrera (orestes) :
(51) En el siglo XVI a la luz de los embajadores venecianos , Madrid 1952 .
Le flem :
(52) Les morisques du nord-oust de l' espagne
Fonseca (Damian) :
(53) Justa expulsion de los moriscos de Espana , Roma , 1612 .
Gallego y Burin :
(54) Los moriscos del Reino de Granada segun el sinado de cua-dix en 1554 , Granada , Espana 1968 , vease :
Gomir sandoval (Alonso) .
Garcia (Fray M. mirallas) :
(55) Historia calanda , valencia 1969 .
Garcia carcel (Recardo) :
(56) Los rentas de la inquisicion de valencia en el sigloXVI
Anuario de historia moderna y contemporanea . II , III , 1976
E. Garcia chico (Esteban) .
(57) Los moriscos en Tordesillas (Simancas) 1 1950. PP. 240-341

Garcia Gomez (Emilio) :
(58) Espana en el sudan , revista de occidente 1935 .
Garacia Martinez , S :
(59) Bandolerismo , perateria y control de moriscos en valencia durante el reinado de Felipe II ,.Studis , I , valència 1972 , PP 85-167 reimpresion ,`universidad de valencia 1977 .
Garcia rodriguez (Luis) :
vease : Lapeyre (Henri) .
Garrad (K) :
(60) La industeria sidra granadina en el siglo XVI y su conexion con el levantamiento de las Alpujarras . Miscelanea de estudios Arabes y Hebraicos V , ano 1956 , PP . 73-104
(61) La inquisicion y los moriscos granadinos 1528-1580 . Bulletin Hispanique LXVII , 12 , 1965 , PP . 63-77 .
M. carrido (Atianza) :
(62) Las capitulaciones para la entrega de Granada - granada 1910.
Gayangos , pascual de :
(63) Mohammedan dynsties in spain 2 vols Delhi , India 2 ed- edicion 1984 .
Gestos (jose) :
(64) Historia de los barros vidriados sevillanos sevilla 1904 .
Gonzalez Palencia , A..
(65) Un cuaderno morisco del siglo XVI y las fuentes de la comida "quien mal ande , mal acabe" de juan ruiz de alarcon BRAB XVI 1929 Y XVII 1930 .
(66) Los mozarabes de Toledo en los siglos XII Y XIII , Madrid 1930 .
Gonzalez Palencia (Angel) :
(67) Cervantes y los moriscos . Boletin de la real academia Espanola XXVII 1947- 1948 , PP. 107-122 .
Gonzalez (Tomas) :
(68) Censo de poblacion de las provincias y partidos de la corona

de castilla en el siglo XVI . Madrid 1829

Guadalajara y javier (Marcos) :

(69) Memorabe expulsion y justisimo destierro de los moriscos de Espana , pamplona 1613

Guikken (Robles F) :

(70) Leyendas moriscas sacadas de varios manuscitos existentes en las bibliotecas nacional , real y de p. Gayngos , Madrid 1885-1886.

Hamillton (Earl j .) :

(71) El florecimiento de capitalismo y otros ensayos de historia economica , Madrid 1948 .

Haperin (Tulio ...Dongui) :

(72) Unconflecto nacional : moriscos y cristianos viejos en valencia .

Cuadernos de historio de Espana , Buenos aires , XXIII , XXIV 1955 , XXV-XXVI 1957 .

(73) Reeou vrements de civilisation :

Les morisques de royaume de valence au XVI siecle , annales Esc. XI , N.2 , PP. 1554-182 paris 1956 .

Harvery (I.P.)

(74) The morisco who was Muley Zaidan spanish enterpreta .

Miscelanea de esludios Arabes y Hebriacos Granada , VII , 1959.

Henriquez de jorquera (Francisco) :

(75) Anales de Granada descripcion del reino y ciudad de Granada , cronica de la reconquesta 1482-1492 sucesos de los anos 1588-a 1646 , Edicion de D. Antonio Marin ocelte 2 vols , Granada 1934 .

Hitos (Francisco A.) :

(76) Martires de la Alpujarra en la rebelion de los moriscos 1568 Madrid , 1935 .

Hume :

(77) Spain , its greatness and decay cambridge 1905

Hurtado de Mendoza (Diego)

(78) Guerra de Granada . hecha por el rey de Espana . D. Felipe

II contra los moriscos de aquel reino... boletin academia Espanola , XXI , PP. 65-122.

Einiguez (almech F.) :

(79) Notas para geografia de la arquitectura mudejar en Aragon. Boletin de la real sociedad geografica , tomo 74 , 1934.

Jamil M. Abun-nasr :

(80) A. history of the Maghrib in the Islamic period , cambridge university 1987 .

Janer : (Florencio) :

(81) Condicion social de moriscos en Espana ; causa de su expulsion y consecuencia que este produjo en el orden politico y economico , Madrid 1857 .

Jose .M

(82) Rabasco en dos aspectos de la esclavitud morisca , Malaga 1569 , Homenaje a regla I,P. 293-302.

Kamen : Henry:

(83) The spanish inquisicion , London 1965

وله ترجمة اسبانية عنوانها

La inquisicion Espanola , Madrid 1973 .

Lane poole (stanly) :

(84) The barbary corsairs .

Lapeyre (Henri) :

(85) Geographie d l' Espagne morisque , paris 1959.

وقد ترجم هذا العمل للاسبانية Luis rodriguez Garcia تحت عنوان

Geografia de la Espana morisca , valencia , Espana 1986 .

Latham j.D.

(86) Towardes study of andalusian imigration and its place in tunisian history

مقال منشور فى

Les chaiers de Tunisie . v . 1957 .

Lea (Henry charls) :

(87) History of the moriscos of spain . theier conversion and ex-

pulsion , London 1901, Newyork 1968.

(88) History of the inquisition in spain .

وقد ترجم هذا العمل للقشتالية (الاسبانية) كل من

Angel Alcala y jesuo Tobio

تحت عنوان

Historia de la inquisicion Espanola , 3 vols , Madrid , Espana ,1983 .

Longas (Pedro) :

(89) Vida religiosa de los moriscos , Madrid 1915 .

Llorente (juan antonio) :

(90) Historia critica de la inquisicion de Espana , Barcelona , Espana 1835 .

Marmol carvajal (Luis de) :

(91) Historia de la rebelion y castigo de los moriscos del reino de Granada , Madrid 1797 .

Martinez (M. Romero) :

(92) Viente incunables sevillanas que tratan de historia , sevilla , Espana 1946 .

Martinez (Juan ...Ruiz) :

(93) Inventarios de bienes moriscos en el reino de Granada , Madrid 1972 .

Martin (Ruiz) :

(94) Moveniemtos demograficos y economicos en el reino deGrnada durante la segunda mited siglo XVI .

مقال منشور فى

anuario de historia economica y social 1968 .

Matillo (tascon)

(95) Historia de las minas de Almaden , Madrid 1958 .

Martiri de angeleria ,P :

(96) Una embajada de los reys catolics a Egipto .

Melon , A :

(97) Lupercio latras y la guerra de moriscos y montaneses en Aragon a final del siglo XVI . Zaragoza , Espana 1917

Menendez pidal (Ramon).
(98) Origines del Espanol.
(99) Poema de yucuf, material para su estudio, Granada, Espana 1952.
Menendez y pelayo (Marcelino):
(100) Historia de los Heterodoxos Espanoles, Madrid 1880-1881.
Monroe, J.T.:
(101) Acurious appeal on the ottoman empire, Al-Andalus 1966
.Montefort (Mario ... Toledo), vease:
Braudel.
Moret (Michele):
(102) Aspcts de la societe marchande de sevilla aude but du XVII siecle, paris 1967.
Munzor (Jeronimo):
(103) Viaje por Espana y portugal 1494-1495, traduccion de jose Lopez Toro, Madrid 1951.
Nunoz (Carmen Gonzalez):
(104) La poblacion de Talvera de la reina Madrid 1965.
Oliver asin (jime):
(105) El quijote de 1604, Madrid 1948.
(106) Un morisco de Tunez admirador de Lope, Al-andalus, 1, 1933.
Perez de hita (Gines):
(107) Gurras civiles de Granada, Cuenca 1619, 1913.
Peroperez:
(108) Catequesis de los moriscos extremenos, revista del centro de estudios extremenos X, 1936.
Pignon, J:
(109) Un geographie de l espagne morisque.
Chiers de Tunisie, 14 Tunez 1966, pp. 286-300.
Pike (Ruth):
(110) An urban minority: the moriscos sevillanos.

International Journal of middle east estudics , 11 , مقال منشور فى
1971 , pp: 377

Ponsot (Pierre) :

(111) Les mouisques , la culture irriguee du ble et le probleme de la decadencia Espagnole au XVII eme siecle , Melangues de casa de velazquez , VII , 1971 .

Quesada : M. A. Ladero :

(112) Los Mudejares de castilla en tiempo de Isabel , Valladolid , Eapana 1969 .

Regla (Juan) :

(113) Estudios sobre los moriscos , Barcelona , Espana 1974 .

Rojas (Casanati) :

(114) Relaciones de algunos sucesos celebres , muevos , y postreros de berberia y salida de los moros de Espana , Lisboa , portugal 1613 .

Saavedra (Eduardo) :

(115) Literalura aljamiada Madrid 1878 .

Discurso leido ante la real acadmia Espanola .

Salyer (Johnc) :

(116) La importancia economica de los moriscos en Espana , anales de economia , IX , 1949 .

Salzare de mendoza (Pedro):

(117) Origen de las dignidades seglares de castilla y Leon ... MDCXVIII .

Sandoval (Gomir ...alonso) , Vease :Gallego y Burin .

Santiago Sabastian :

(118) La arquitectura religiosa Tetuani , archivo Espanol de arte N. 117 , ano 1957 .

Santo (Niela Francisco) :

(119) El problema Hispano - morisca , siglo XVII , Revista de estudios extremenos XXIX ano 1973 , pp. 5-104 .

Sauvaire (H) : -٥٢١-

(120) Voyage en espagne d' un ambass adeur Marocain 1690-

1691 , traduccion d l' arabe , Paris 1884 .

Serrano y sanz : (Manuel) :

(121) Nuevos datos sobre la expulsion de los moriscos andaluces. Rev. contemporanea ,XC , 1893 , pp. 113-127 .

Tapia (Jose angel ... Garrido) :

(122) Historia de la baja Alpujarra , Almeria , Espana 1966 .

Torres Balbas (Leopoldo) :

(123) Arte almohade , arte nazari y arte - mudejar

وهو المجلد الرابع من مجموعة

Ars Hispaniae , Madrid 1949 .

Tramo yeres :

(124) Instiluciones gremiales de valencia , valencia 1889 .

Villanueva (F. Marquez) :

(125) Personaje y temas del quijote .

Vincent (Bernard) :

Historia de los moriscos .. vease : Antonio Rodriguez .

(126) La expulsion des morisques du Royoume de Granada et leur repartition en castilla 1570-1571 en melanges de la casa de velazquez ,VI , Paris 1970 .

(127) Les bandist morisques en andalasie au XVI siecle :

مقال منشور في :

Revue d' histoire moderne et contemporaine 1974 .

Vinas (Mey Carmelo) :

(128) El problema de la tierra de Eapana en los siglos XVI y XVII , Madrid 1942 .

Wagner (klaus):

(129) Un pardon desconocido de los Mudejares de sevilla y .la expulsion de 1502 .

Al- andalus Vol. XXXVI .

(130) Archivogeneral de simancas P. R. Leg. II

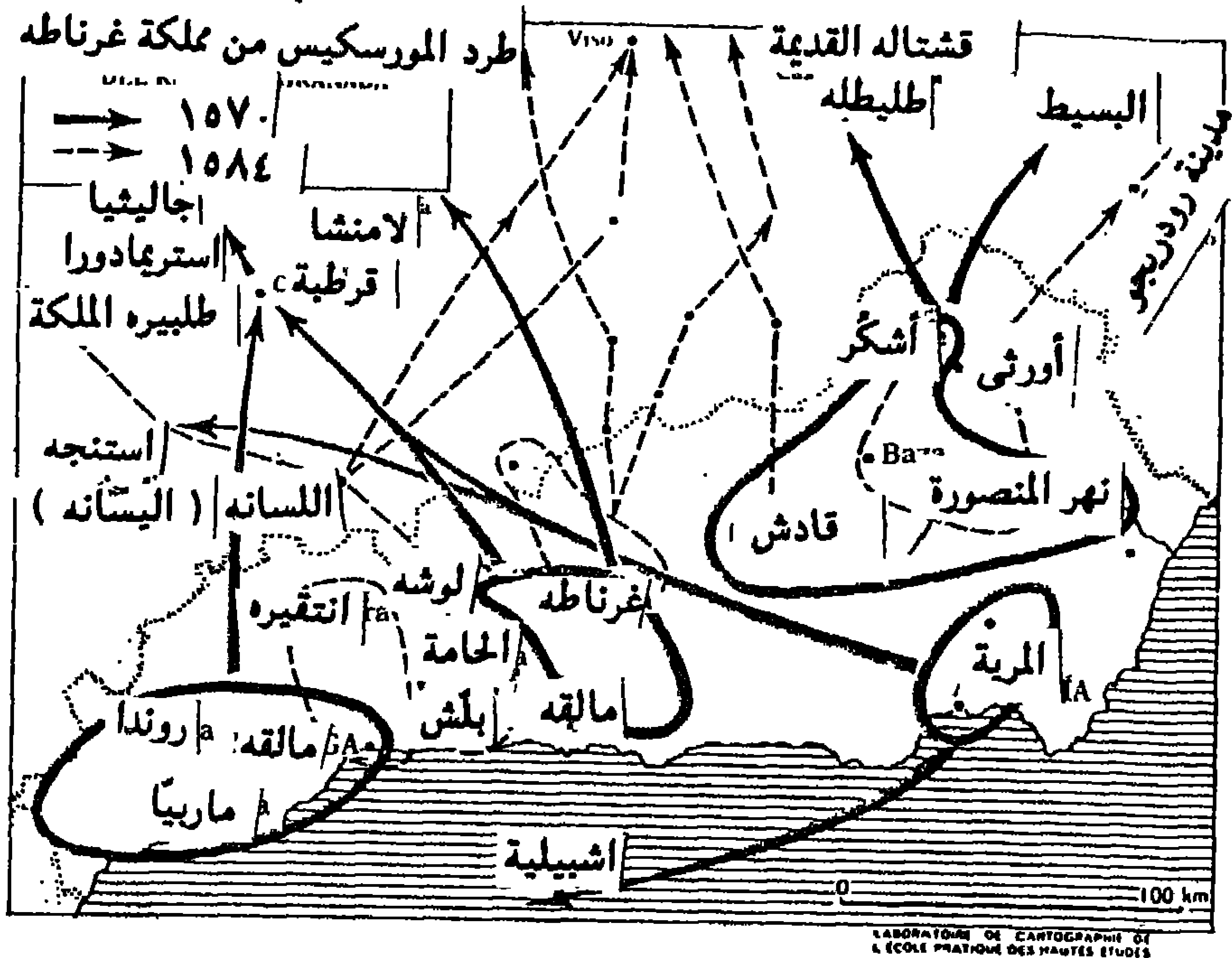
مصورة مع وثائق و أعمال مهمة أخرى و موجودة بمكتبة المرحوم الأستاذ محمد عبد الله عنان التى تفضل مشكورا بإهدائها الى مكتبة دار العلوم بالقاهرة .

فهرس الموضوعات

وصلى الله على محمد النبى الأمى

وعلى آله وصحبه وسلم

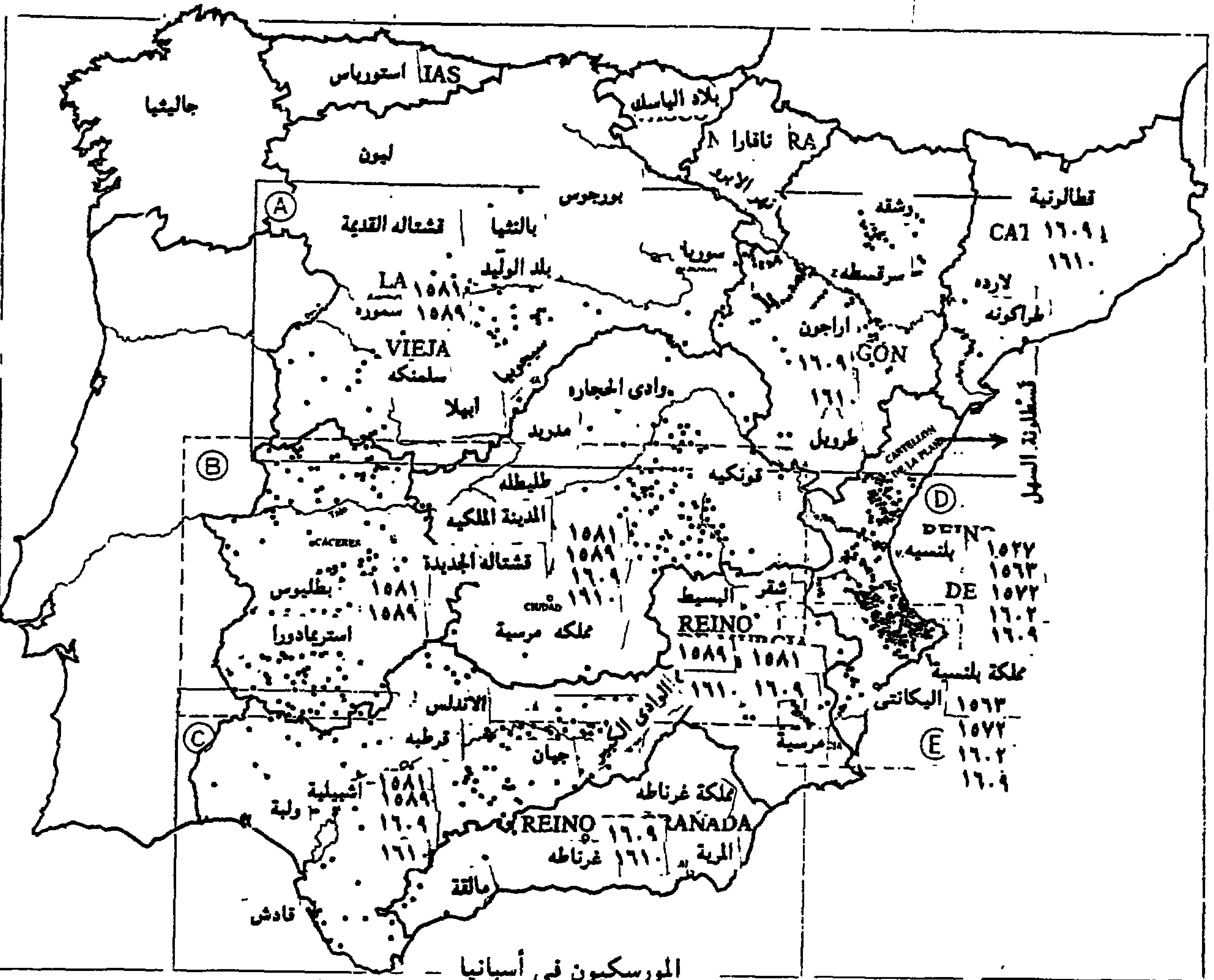
وآخِر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين



طرد الموريسكيين من مملكة غرناطة

١٥٧٠ ———

١٥٨٤ -------



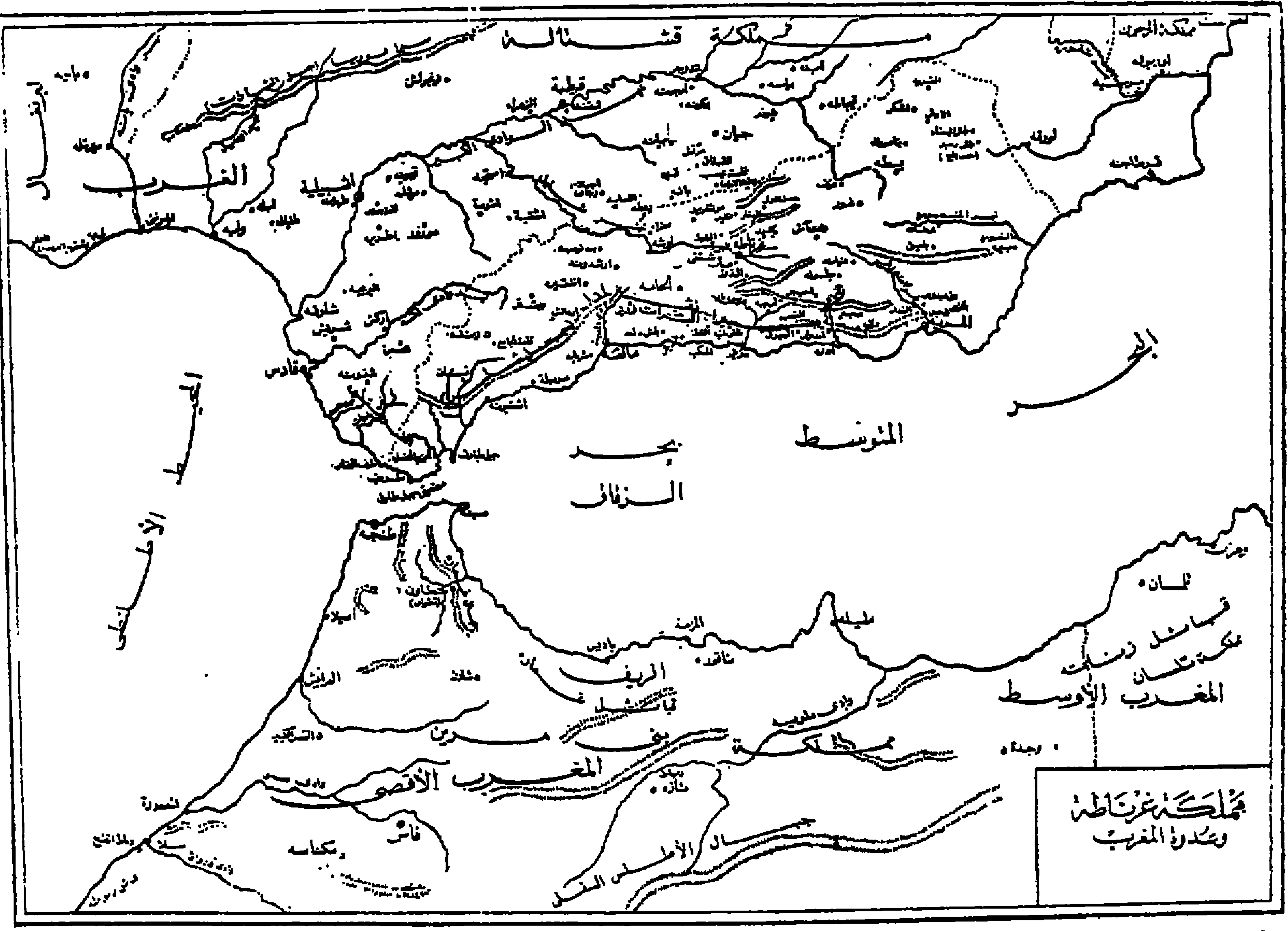
الموريسكيون فى أسبانيا

• طرد الموريسكيين ١٦٠٩-١٦١٠

طرد الموريسكيين من أسبانيا ١٦٠٩-١٦١٤

الأندلس بعد الانهيار
مملكة غرناطة
والممالك النصرانية الإسبانية
في القرن الرابع عشر

فرنسا
خليج بسكونيه
جبال كنتبريا
جبال البرنيه
شنتياقب
جليقية
ليون
برغش
ليون
بلد الوليد
سمورة
نهر دويرة
بورتو
مملكة
قلمرية
شنترين
اشبونة
شنتمرية
وادي الحجارة
طليطلة
نهر التاجة
نهر وادي يانة
قشتالة
ماردة
بطليوس
يابرة
باجة
شلب
جبال الشارات
نهر قرطبة الوادي الكبير
جيان
لبلة
ولبه
اشبيلية
غرناطة
قادس
مالقة
طريف
الجزيرة
سبتة
طنجة
قرطاجنة
مرسية
أوريولة
لورقة
شاطبة
دانية
بلنسية
يابسه
ميورقة
الجزائر الشرقية
طرطوشه
طركونه
برشلونة
سرقسطة
إفراغة
تطيلة
وشقه
بربشتر
قسطلونه
بنبلونه
البحر المتوسط
البحر المحيط


مملكة غرناطة
وعدوة المغرب
مملكة قشتالة
البحر المتوسط
بحر الزقاق
المحيط الأطلنطي
الغرب
اشبيلية
قرطبة
جيان
مالقة
المرية
قادس
سبتة
طنجة
مليلة
الريف
مملكة بني مرين
المغرب الأقصى
فاس
مكناسة
مملكة تلمسان
المغرب الأوسط
تلمسان
وجدة
جبال الأطلس

طبع بمطابع
دار العدالة
٣٨ ش الإخلاص - دار السلام

رقم الإيداع
٩١/٢٧٠٠
الترقيم الدولى
I.S.B.N 977-255-026-I

هذا الكتاب

الموريسكيون Los Moriscos جمع مفرده الموريسكي El Morisco ، والكلمة الأخيرة تصغير لكلمة « المورو » El Moro بمعنى المسلم ، وإذن فالموريسكي كلمة يقصد بها المسلم الصغير أو الوضيع ، والمقصود أفراد الشعب المسلم الذى ظل موجودًا فى أسبانيا بعد سقوط آخر معاقل الإسلام بغرناطة فى يد الملكيين الكاثوليكيين « فيرناندو وإيزابيلا » ٨٩٧ هـ = ١٤٩٢ م .

وقد نظمت علاقة هؤلاء بالحكام الجدد اتفاقية بينت حقوق وواجبات كل منهما ، ولكن بنود هذه المعاهدة لم تحترم وأريد للمسلمين أن يتحولوا إلى النصرانية ، بالأماني حينًا وبالتهديد والتعذيب البشع أحيانًا ، وقد أصبح بعض هؤلاء نصرانيًا شاءوا أم أبوا ، فحملوا أيضًا اسم المسيحيين الجدد Los Cristianos Nuevos تمييزًا لهم عمن دخل فى النصرانية قبل تسليم البلاد ممن أطلق عليهم اسم المسيحيين القدامى Los Cristianos Viejos .

أما الغالبية فقد أبت أن تفرض عليها عقيدة لم تقتنع بها ، فاصطدموا بالسلطات الحاكمة وأخضعتهم محاكم التفتيش لسطوتها وقضت باعتقالهم وتشريدهم بل وحرقهم ومصادرة أموالهم ، كما استخدمت معهم وسائل التبشير والإغراء ، ومع ذلك ثبت القوم على موقفهم وواصلوا ممارسة عاداتهم وشعائرهم الإسلامية ، إن لم يتح لهم ذلك علانية ففى السرّ ، إلى أن بلغ الضيق بالمسئولين المدنيين والدينيين مداه ، فقرروا طردهم من كل أسبانيا ١٦٠٩ -١٦١٤ م بعد انتهاء الحكم الإسلامى بنحو مائة وعشرين سنة ، حدث ذلك دون مراعاة لمشاعر هذه الشريحة من المجتمع الأسبانى ومع التنكر لدورهم المتميز فى خدمة الزراعة والاقتصاد فى البلاد .

وقد صدرت دراسات بلغات مختلفة اهتمت بأوضاع هؤلاء وبتطور علاقاتهم بالحاكمين إلى أن تم نفيهم نهائياً ، وبقيت لغتنا العربية لا تتناول من هذا الموضوع إلا جزئية هنا أو ظاهرة هناك .

وهذا الكتاب محاولة لتقديم صورة كاملة عن الموريسكيين - أو المسلمين المنصرين - تبدأ معهم منذ ظهورهم إلى نفيهم ، وتتبع مواطنهم وأنشطتهم فى مهاجرهم الجديدة ، وتحرص على تقديم صورة عن أدبهم وعما كتبه الأدباء بشأنهم .

والحمد لله فى الأولى والآخرة